



كيف تُمسِك بزمام القوة

ثمان وأربعون قاعدة تُرشدك إليها

روبـرت غـريـن

نقله إلى العربية

د. محمد توفيق البجيرمي



كيف
تمسك بزمام القوة

ثمان وأربعون قاعدة ترشدك إليها



كيف
تمسك بزمام القوة
ثمان وأربعون قاعدة ترشدك إليها

تأليف

روبرت غرين

نقله إلى العربية

د. محمد توفيق البجيرمي

العبيكان
Obeikan

Original Title:

THE 48 LAWS OF POWER

(ح) شركة العبيكان للتعليم، 1437هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

غرين، روبرت

كيف تمسك بزمام القوة: ثمان وأربعون قاعدة ترشدك إليها./ روبرت غرين، محمد توفيق البجيرمي- ط7.- الرياض، 1437هـ

740 ص؛ 16.5 × 24 سم.

ردمك: 978-603-503-974-1

1 - النجاح أ. البجيرمي، محمد توفيق (مترجم) ب. العنوان

ديوي 158.1 1437 / 8580

الطبعة السابعة 1437هـ / 2016م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان Obeikan على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 - فاكس: 4889023 ص. ب: 62807 الرياض 11595

إلى آنا بيلدر، وإلى والديّ

ر. غ.

شكر وتنويه

احب اولاً أن اشكر آنا بيللر، التي ساعدت في تحرير هذا الكتاب وإجراء البحوث المتعلقة به، والتي أدت بصيرتها ـ التي لا تقدر بثمن ـ دوراً هاماً في شكل ومحتوى **كيف تمسك بزمام القوة**. فبدونها ما كان شيء من هذا ممكناً.

ويجب علي أيضاً أن اشكر صديقي العزيز ميشيل شوارز الذي كان مسؤولاً عن ربطي بمدرسة فابريكا للفن في إيطاليا وتقديمي هناك إلى جوست إلفرز، شريكي ومنتج **كيف تمسك بزمام القوة**. ففي عالم فابريكا المولع بالمكائد اكتشفت مع جوست أن آراء ماكيا فيللي لا يبليها كرّ الأيام ومن مناقشاتنا في البندقية، بإيطاليا، ولد هذا الكتاب.

واحب أن اشكر هنري لاغويين، الذي زودني بكثير من الحكايات الماكيافيللية على مدى السنين، ولا سيما فيما يتعلق بالشخصيات الفرنسية العديدة التي تؤدي مثل هذا الدور الكبير في هذا الكتاب.

كما أحب أن اشكر ليز وسوميكو بيللر، اللذيْنِ أعاراني مكتبتهما عن التاريخ الياباني، وساعداني في القسم الخاص بحفلة الشاي في الكتاب. وبالمثل، ينبغي أن أشكر صديقتي الطبية اليزابيث يانغ، التي قدمت لي المشورة حول التاريخ الصيني.

إن كتاباً كهذا يعتمد على مادة البحث المتواجدة في مكتبة البحوث في جامعة كاليفورنيا بلوس انجيلوس؛ فقد امضيت كثيراً من الأيام الممتعة متجولاً وسط مقتنياتها من المجموعات التي لا تضاهى.

أما والديّ، لوريت وستانلي غرين، فيستحقان مني شكراً لا نهاية له على صبرهما عليّ ودعمهما لي.

ويجب أن لا انسى تكريم قطّي، بوريس، الذي قدم لي صحبته طيلة أيام الكتابة التي لم تكن تنتهي.

واخيراً، اتوجه إلى الناس الذين استخدموا لعبة السلطة ببراعة للتلاعب بي، وتعذيبي، والتسبب بإيلامي على مدى السنين لأقول لهم: «أنا لا احمل عليكم حقداً ولا ضغينة، بل أشكركم على تقديم الإلهام **كيف تمسك بزمام القوة**.

روبرت غرين

وبالإضافة إلى ذلك، نحب أن نشكر سوزان باترسون وباربارا غروسمان، وناشري بنغوين لإيمانهم بهذا الكتاب؛ والمحررة مولي ستيرن التي أشرفت على المشروع كله لصالح فايكنغ بنغوين. وصوفيا مُيُورَزْ لتصميمها الممتاز، وديفيد فرانكل على تحريره للنص. وروني آكسيلرود، وباربارا كامبو، وجي زيميث، وجو إيغل، ورادا بانتشام، وماري تيمل، وميكائيل فراغنيتو وانْغ ـ صان خو.

روبرت غرين

جوست الفرز

كلمة المُعَرّب

في هذا الكتاب محاولة لاختزال ثلاثة آلاف عام من التاريخ الإنساني بقصص منتقاة عن كيفية اكتساب المرء للقوة، أو تفهمه لها من مختلف جوانبها أو حماية نفسه من عسفها وتسلطها، أو الحفاظ عليها وممارستها بحكمة وتعقل، أو تحييدها لاتقاء شرها.

وتطل هذه القصص على التجربة الإنسانية من أزمنة وأمكنة مختلفة تمتد من اليابان إلى بيرو، ومن بداية تدوين التاريخ إلى أيامنا هذه. وفيها دروس سلبية وإيجابية يجمع بينها عنصر التشويق من جهة وتطبيقات في الحياة العملية على أرض الواقع من جهة أخرى، سواء أحبها المرء أم كرهها. ذلك أنها تصوير لما حدث، وليس لما كان ينبغي أن يحدث. ووصف للبشر كما هم بالفعل وليس كما يتمنى المرء أن يكونوا عليه. وقد ينفر القارئ من طريقة مخاطبة المؤلف له أحياناً وكأنه يحرضه على الأنانية، أو على إساءة الظن بالناس. وليس القارئ ملزماً بالأخذ بما يوصي به المؤلف أو بالتصرف بالطريقة التي يراها. ولكن من المفيد له أن يلمّ بتجارب الآخرين المجموعة هنا، وأن يسعى نحو ما هو افضل واكمل، مدركاً أن الكمال لله وحده، وأن لا ينخدع، لأن المؤمن كَيّس فَطِن، وأن يستخدم ذكاءه وطاقاته للخير، وإذا كان طيباً فلا ينبغي أن تصل به الطيبة إلى حد السذاجة بحيث يخدعه الخبيث. فكلمة الفاروق عمر مشهورة: «**لست بالخبّ و لا الخبّ يخدعني**».

ولقد يجد القارئ استشهاداً بأقوال ماكيافيللي، فلا يقفزنّ إلى الاستنتاج بأن في ذلك تحبيذاً للانتهازية المبنية على مقولته الشهيرة «**الغاية تبرر الوسيلة**». ففي فلسفة ماكيافيللي في كتابه الأمير سنة 1513م جانب يبدو أن الناس لا يأخذونه في الحسبان. ذلك أنه عندما ألّف كتابه كانت إيطاليا ممزقة تعصف بها حروب أهلية دامية وكانت كل مدينة من مدنها دولة، وكانت معظم

تلك المدن تستعين بالأجنبيّ ضد أخواتها. فكانت «**الغاية**» عند ماكيافيللي هي تحرير إيطاليا وتوحيدها. فكان يرى أن كل وسيلة لتحقيق هذه الغاية مبررة. ترى كيف يكون موقفنا من هذه المقولة إذا كانت «**الغاية**» سامية عندنا، كتحقيق أمانينا مثلاً؟ أليس عندنا قول مأثور هو: الحرب خدعة؟ وإذا كان المطلوب من الإنسان أن لا يكون غادراً، فإن المطلوب قبل ذلك أن يكون من الذكاء بحيث لا يقع ضحية لغدر الآخرين، ومن القوة بحيث يعاقبهم.

وحبذا لو يتصدى مثقف باحث في تاريخنا وتراثنا لقصص كالتي يتناولها هذا الكتاب، فيها عبرة وموعظة، وإمكانية للاستلهام في عصرنا هذا ـ فيجمعها من بطون الكتب ليضعها بين أيدي الناس على صعيد واحد ويصنفها ويبوّبها ويفهرسها لتسهيل وصول القارئ إلى منهلها ـ فتاريخنا منجم ذهب ينتظر من يكتشف كنوزه، وتراثنا بحر ينتظر من يغوص لاستخراج لآلئه.

وبين يدي القارئ كتاب أَزعُم ـ بإصرار ـ أنه جدير بالاقتناء والقراءة، وأرجو أن يجد فيه فائدة ومتعة، وأن يسامحني على ما فيه من هفوات. والله من وراء القصد، وفوق كل ذي علم عليم.

محرم الحرام، 1422هـ

نيسان (إبريل) 2001م

المُعَرِّب

د. محمد ترنين البجيرمي

المحتوى

أو يدفنك النسيان، بل ابرز وكن لافتاً للأنظار بكل ثمن. اجعل نفسك مغناطيس اهتمام بظهورك أكبر، وأسطع ألواناً وأكثر غموضاً من الجماهير العاديّة الوجلة.

معه سيفيده، وأكده وضخّمه أكثر من أي تناسب وسوف يستجيب بحماس عندما يدرك أن في الأمر شيئاً يكسبه لنفسه.

اتخذ وضع الصديق واعمل كجاسوس

إن معرفة المعلومات عن منافسك لها أهمية حساسة فاستخدم الجواسيس للحصول على معلومات قيمة تجعلك متقدماً عليه بخطوة. وأفضل من ذلك أن تؤدي دور الجاسوس بنفسك. ففي المقابلات الاجتماعية المهذبة، تعلم أن تسبر الأغوار واطرح أسئلة غير مباشرة لجعل الناس يكشفون نقاط ضعفهم ونواياهم. وليست هناك مناسبة لا تصلح كفرصة للتجسس المتقن.

اسحق عدوك سحقاً كلياً

لقد عرف كل القادة العظام منذ موسى (عليه السلام) أن العدو المرهوب يجب سحقه بصورة كاملة (وكانوا يتعلمون ذلك أحياناً بالطريقة الصعبة والتجربة المريرة) فإذا تركت جمرة واحدة مشتعلة، مهما كان احتراقها داكناً خافتاً، فإن ناراً ستندلع منها في آخر الأمر. فالتوقف في وسط الطريق يؤدي إلى خسارة ما هو أكثر مما لو كانت الإبادة كلية. فالعدو سوف يتعافى وسيبحث عن الانتقام. فاسحقه، لا جسدياً فحسب بل في الروح كذلك.

استخدم الغياب لزيادة الاحترام والتكريم

إن زيادة التداول عن حده يرخص السعر: فكلما زادت مشاهدتك والسماع منك ظهرت مبتذلاً أكثر. فإذا كانت مكانتك راسخة في مجموعة مَا، فإن الانسحاب المؤقت منها يزيد الحديث عنك، وحتى الإعجاب بك. وعليك أن تتعلّم متى تغادر. اخلق القيمة عن طريق الندرة.

ابقِ الآخرين في رعب مقيم: كرّس جواً من استحالة التنبؤ بحركاتك

البشر أبناء العادة، وفيهم تعطش لا يرتوي لرؤية ما هو معروف ومألوف في أعمال الناس الآخرين. وإن إمكانية التنبؤ بحركاتك تعطيهم إحساساً بالسيطرة. فاقلب الموائد، وتعمّد أن تكون شخصاً يستحيل التنبؤ بحركاته، إذ إن السلوك الذي يبدو بلا تجانس ولا هدف سيبقيهم بلا توازن، فيرهقون أنفسهم في محاولة توضيح تحركاتك. وإذا أُخِذَت هذه الاستراتيجية إلى حدها الأقصى، فإنها تستطيع أن تخيف وتُرْهِب.

لا تَبْنِ قلاعاً لحماية نفسك ـ فالعزلة خطرة

العالم مكان خطر والأعداء في كل مكان. وعلى الجميع أن يحموا أنفسهم. وتبدو القلعة هي الأسلم. ولكن العزلة تعرّضك لأخطار أكثر من تلك التي تحميك منها ـ فهي تعزلك عن معلومات ثمينة؛ كما أنها تجعلك بارزاً للعيان وهدفاً سهلاً. وأفضل من ذلك أن تتجول بين الناس، وتجد حلفاء، وتختلط. فأنت محمي من أعدائك بجمهور الناس.

إعرف مع من تتعامل ـ لا تُغْضِب الشخص غير المقصود

هناك أنواع كثيرة من الناس في العالم، ولا يمكنك أبداً أن تفترض أن رد فعل الجميع على خططك الاستراتيجية سيكون بالطريقة نفسها. إذا خدعت بعض الناس أو تفوّقت عليهم في المناورة؛ فسوف

يمضون بقية حياتهم في السعي للانتقام. فهم ذئاب في ملابس الحملان. وإذن فإن عليك أن تختار ضحاياك وخصومك بعناية - وإياك أن تغضب، أو تخدع الشخص غير المقصود.

هذا المظهر النظيف بلا بُقَع باستخدام الآخرين ككباش فداء، ومخالب قط للتغطية على تورطك.

القانون 27 صفحة 348

استغل حاجة الناس إلى الإيمان لخلق أتباع طقوسيين

في الناس رغبة جامحة للإيمان بشيءٍ مّا. فاجعل نفسك النقطة المركزية لهذه الرغبة بإعطائهم قضية، وإيماناً جديداً يتبعونه. أبْقِ كلماتك غامضة ولكن ملأى بالوعود. وشدِّدْ على الحماس أكثر من العقلانية والتفكير الواضح. واعطِ أتباعك الجدد طقوساً يؤدونها، واطلب منهم أن يقدّموا تضحيات بالنيابة عنك. وفي غياب الدين المنظم الصحيح والقضايا الكبرى، فإن نظامك الإيماني الجديد سيأتيك بسلطة لم يسمع بها أحد من قبل.

القانون 28 صفحة 367

ادخل معمعة العمل بجرأة

إذا لم تكن متأكداً من سياق عملٍ مّا، فلا تحاوله. إذ إن حالات الشك والتردُّد عندك ستنتقل بعدواها إلى أدائك في التنفيذ. فالتخوف خَطِر: والأفضل هو الشروع في العمل بجرأة، لأن أي أخطاء ترتكبها عن طريق الصفاقة يمكن تصحيحها بالمزيد من الصفاقة. فالجميع يعجبون بالجريء، ولا أحد يكرِّم الرعديد المخلوع الفؤاد.

القانون 29 صفحة 381

خطِّط طوال الطريق حتى النهاية

إن الإنهاء هو كل شيء. فخطِّط طيلة الطريق كله حتى تصل إليه، آخذاً في الحسبان كل العواقب، والعقبات، وتقلبات الحظ المحتملة التي قد تعاكس عملك الجدي الشاق وتعطي المجد للآخرين. وبالتخطيط حتى الختام لن تتغلب عليك الظروف وستعرف متى تتوقف. وَجِّه الحظَّ بلطفٍ، وساعده على البتّ في المستقبل بالتفكير مقدماً وإلى مدى بعيد.

القانون 30 صفحة 395

اجعل منجزاتك تبدو بلا جهد

ينبغي أن تبدو أعمالُكَ طبيعيةً، ومنفذةً بيسرٍ وراحةٍ. ويجب إخفاء كل الكدح والخبرة العملية الداخلة في تلك الأعمال، وكذلك الحيل البارعة. فعندما تتصرف، تصرف سهواً رهواً بلا جهد وكأن باستطاعتك أن تفعل أكثر من ذلك بكثير. تجنب إغراء الكشف عن مدى المشقة الجادّة التي تتجشّمها في عملك ـ لأن ذلك لا يزيد على إثارة التساؤلات. ولا تعلِّم حيلك أحداً من الناس، وإلاّ فإنها سوف تُسْتَخْدَمُ ضدك.

القانون 31 صفحة 410

تحكَّم بالخيارات واجعل الآخرين يلعبون بالأوراق التي توزعها

إن أفضل الأحابيل هي تلك التي يبدو أنها تعطي الشخص الآخر خياراً: فيشعر ضحاياك بأنهم هم المسيطرون، بينما هم في الحقيقة دُمًى لك. اعطِ الناس خيارات تأتي في صالحك مهما كان الخيار الذي ينتقونه من بينها. ارغمهم عى الاختيار بين الأهون من الشرّين اللذين يخدمان غرضك على حد سواء. ضعهم فوق قرنَيْ أزمة، بحيث يتلقون نطحةً أينما توجهوا.

القانون 32 صفحة 424

داعب خيالات الناس

كثيراً ما يتجنَّب الناس الحقيقة لأنها قبيحة وبغيضة. فلا تتوجَّه إلى الحقيقة والواقع ما لم تكن مستعداً للغضب الذي ينجم عن الصحوة من الوهم أو السحر. فالحياة قاسية وضاغطة بكربها إلى درجة أن الناس القادرين على صنع الأحلام أو استدعاء الخيالات والأوهام يشبهون الواحات في الصحراء: فالجميع يتقاطرون إليهم. إن هناك سلطة كبرى في فتح مساراتٍ لخيالات الجماهير.

القانون 33 صفحة 437

اكتشف أداة الضغط على كل شخص

في كل إنسان نقطة ضعف، فجوة في سور القلعة. ونقطة الضعف هذه قد تكون عدم الشعور بالأمن، أو عاطفة أو حاجة لا يمكن ضبطها والسيطرة عليها؛ وقد تكون أيضاً مَسَرَّةً صغيرة خفيّة. ومهما كانت فإنها عند العثور عليها تكون هي أداة الضغط التي يمكنك أن تديرها كما تدير أسنان البرغي لمصلحتك.

القانون 34 صفحة 456

كُن مَلَكِياً بطريقتك الخاصة: تصرَّف كَمَلِك لتُعامَل كَمَلِك

إن الطريقة التي تتصرف بها كثيراً ما تكون هي التي تقرر الطريقةَ التي تُعامَلُ بها: ففي المدى الطويل يؤدي الظهور بمظهر الشخص الخشن الفظّ، أو العادي إلى إفقادك احترام الناس. إذ أن الملك يحترم نفسه، ويوحي للآخرين بالعاطفة نفسها. فتصرفك بأسلوب ملوكي وثقة بسلطاتك يجعلك تبدو مهيأً لِلَبْسِ التاج.

القانون 35 صفحة 470

اتقن فن التوقيت

إياك أن تبدو مستعجلاً ـ فالعَجَلةُ تفضح نقصاً في سيطرتك على نفسك، وعلى الزمن. إظهر صبوراً دائماً، كأنك تعرف أن كل شيء سيكون مرجعه إليك في آخر المطاف. وتَحَرَّ اللحظة المناسبة. وتحسَّس روح العصر، والاتجاهات التي ستحملك إلى السلطة. تعلَّم أن تقف على حدة عندما لا يكون الوقت قد نضج بعدُ، وأن تضرب ضربتك بشدة عندما تصل الثمرة إلى النضوج.

القانون 36 صفحة 485

احتقر الأشياء التي لا تستطيع امتلاكها: فتَجاهُلها أفضل انتقام

إذا اعترفت بمشكلة تافهة فإنك تعطيها وجوداً ومصداقية. وكلما زاد اهتمامك بعدو فإنك تجعله أقوى؛ والغلطة الصغيرة كثيراً ما تصير أسوأ عندما تحاول إصلاحها. والشيء الأفضل أحياناً هو ترك الأمور وشأنها. فإنْ كان هناك شيء تريده ولا تستطيع امتلاكه، فاظهر احتقارك له. فكلما قلّ الاهتمام الذي تظهره، فإنك ستبدو أكثر تفوقاً.

القانون 37 صفحة 500

اخلق مشاهد آسرة

إن الصور المدهشة الأخاذة والإشارات الرمزية الكبرى تخلق هالة من السلطة ـ فكل شخص يستجيب لها. فاعرض مشاهد آسرةً على مَنْ حولك، مليئة بالتصورات الرائعة اللافتة للأنظار والرموز المشعة التي ترفع مستوى حضورك. فعندما ينبهر الناس بالمظاهر، فلا أحد سيلاحظ ما الذي تفعله في الحقيقة.

القانون 38 صفحة 513

فكِّر كما تحب ـ ولكن تصرَّف كالآخرين

إذا حوَّلت معاكستك للعصر إلى استعراض، مزدهياً بأفكارك وأساليبك غير التقليدية أو المألوفة فسيعتقد الناس أنك لا تريد سوى إثارة الانتباه، وأنك تحتقرهم، وسيجدون طريقة لمعاقبتك على جعلك إياهم يشعرون بالنقص. فمن الأسلم بكثير أن تختلط بالناس وتحتضن اللمسة العادية المألوفة. وتقاسم أصالتك مع الأصدقاء المتسامحين فقط، ومع الذين سيقدِّرون كونك فذاً فريداً بالتأكيد.

القانون 39 صفحة 527

عكِّر المياه لتصطاد السمك

إن الغضب والانفعال العاطفي يعطيان نتائج عكسية من الناحية الاستراتيجية. فعليك أن تبقى هادئاً وموضوعياً

على الدوام. ولكن إذا استطعت إغضاب أعدائك بينما تبقى أنت هادئاً، فإنك تكسب ميزة حاسمة. فخلخل توازن أعدائك. إعثر على شقٍّ في غرورهم تستطيع من خلاله أن تهزّهم بقعقعةٍ بينما تمسك أنت بالخيطان.

سلطة، أو خارجياً تحاول بناء قاعدة قوة، فابرز على نحو استعراضي احترامَك للطريقة القديمة في عمل الأشياء. وإذا كان التغيير ضرورياً، فاجعل الناس يشعرون به كأنه تحسينٌ لطيف للماضي.

القانون 46 صفحة 651

لا تظهر كاملاً أكثر مما ينبغي

إن ظهور المرء أفضل من الآخرين خطر على الدوام. ولكن الأخطر من كل شيء هو ظهور المرء بلا عيب ولا ضعف. فالحسد يخلق أعداء صامتين. ومن الذكاء أن يكشف المرء عن نواقص فيه بين حين وآخر، وأن يعترف برذائل غير مؤذية، لإبعاد الحسد، ولكي يظهر المرء أكثر إنسانية وقابلية لأن يقترب منه الآخرون. فالآلهة والموتى فقط هم القادرون على الظهور بمظهر الكمال والإفلات به من العقاب.

القانون 47 صفحة 668

لا تتجاوز العلامة التي استهدفتَها وفي النصر، إعرِفْ متى تتوقف

كثيراً ما تكون لحظة الانتصار هي لحظة الخطر الأكبر. ففي قلب الانتصار قد تدفعك الغطرسة والثقة المفرطة إلى ما وراء الهدف الذي وضعته نُصْبَ عينيك. وبالذهاب إلى أبعد مما ينبغي، فإنك تخلق أعداءً أكثر من الذين تدحرهم. فلا تدع النجاح يدير رأسك. إذْ لا بديل عن الاستراتيجيّة والتخطيط الحريص. ضع نُصْبَ عينيك هدفاً، وعندما تصل إليه، توقف.

القانون 48 صفحة 682

اتخذ هيئة لا شكل لها

عند اتخاذك شكلاً مّا، وامتلاكك لخطّةٍ مرئية، فإنك تكشف نفسك للهجوم. فبدلاً من اتخاذ شكل يمسك به عدوك، ابقِ نفسك قابلاً للتكيُّف، ومتحركاً. وتقبل حقيقة عدم وجود شيء مؤكد، وعدم وجود قانون ثابت. فأفضل طريقة لحماية نفسك هي أن تكون سائلاً وبلا شكل كالماء. وإياك أن تراهن على الاستقرار أو النظام الباقي الدائم. فكل شيء يتغير.

مقدمة

إن شعورنا بفقدان السيطرة على الناس والأحداث هو شيء لا يطاق في العادة؛ فعندما نشعر بالعجز نشعر بالتعاسة. فلا أحد يريد سلطة أقل، بل إن الجميع يريدون المزيد منها. غير أن من الخطر عليك في عالم اليوم أن تبدو متعطشاً للسلطة أكثر من اللازم. . وأن تكون تحركاتك لاكتساب السلطة علنية. بل إن علينا أن نبدو منصفين ونزيهين. وهكذا فإننا بحاجة إلى أن نكون حاذقين ورائقي المزاج، ومع ذلك ماكرين، ديمقراطيين ولكن مراوغين.

وهذه اللعبة من الازدواجية المستمرة تشبه أكثر ما تشبه التحركات الحيوية لاكتساب السلطة التي وجدت في عالم التآمر في البلاط الارستقراطي القديم. فعبر التاريخ كان البلاط يشكل نفسه بالالتفاف حول صاحب السلطة، ملكاً كان أم ملكة، إمبراطوراً أم قائداً. وكان رجال الحاشية الذين يملأون ذلك البلاط في وضع دقيق على وجه الخصوص. فقد كان عليهم أن يخدموا سادتهم. غير أنهم إذا راحوا يتزلفون وصار تملقهم مفضوحاً فقد يتنبه رجال الحاشية الآخرون ويبدأون بالعمل ضدهم. فيجب أن تكون محاولات كسب رضا السيِّد خفية ذكية. وحتى رجال الحاشية الحاذقون القادرون على ممارسة مثل هذا الدهاء يتعين عليهم أن يحموا أنفسهم من زملائهم في الحاشية، ممن كانوا يخططون في كل لحظة لإزاحتهم جانباً.

وفي الوقت نفسه كان من المفترض أن البلاط يمثل قمة الحضارة والتهذيب الصقيل. وكانت العادة أن يُنظَر شزراً إلى التحركات العنيفة

والمكشوفة لاكتساب السلطة؛ وكان رجال الحاشية يعملون بصمت وسرية ضد كل من يميل إلى استخدام القوة من بين صفوفهم. فكان هذا هو مأزق رجال الحاشية: ففي الوقت الذي يبدو فيه رجال الحاشية مثال الأناقة، فقد كان عليهم أن يبزوا خصومهم في الذكاء، باستخدام أخفى الطرق .وأدهاها. وبمرور الزمن تعلَّم رجل الحاشية الناجح أن يجعل حركاته كلها غير مباشرة؛ فإذا طعن خصماً له في الظهر، فقد كان ذلك بقفاز مخملي في يده، مع أعذب الابتسامات على ثغره. وبدلاً من استخدام الإجبار أو الخيانة السافرة المباشرة، يحصل رجل الحاشية المثالي على ما يريد عن طريق الإغراء، والجاذبية، والخداع، والتخطيط المحنك، بحيث يرسم سلفاً توجه حركات عديدة. فقد كانت الحياة في البلاط لعبة لا تنتهي أبداً، تتطلب يقظة مستمرة، وتفكيراً انتهازياً. كانت حرباً ذات واجهة حضارية.

ونحن نواجه اليوم مفارقة لها شبه خاص بتلك التي كان يواجهها رجل الحاشية في البلاط: فكل شيء ينبغي أن يبدو متحضراً، ومهذباً، وديمقراطياً، ومنصفاً. غير أننا إذا مارسنا اللعبة حسب تلك القواعد بشكل أكثر صرامة من اللازم، وعملنا بها بحذافيرها بصورة حرفية أكثر من اللازم، فسوف يسحقنا المحيطون بنا ممَّن ليسوا بمثل هذا الغباء. ومثلما كتب نيقولو ماكيافيللي، الدبلوماسي ورجل الحاشية الكبير في عصر النهضة: «إن أي شخص يحاول أن يكون طيباً كل الوقت سينتهي أمره إلى التَّباب وسط العدد الكبير من غير الطيبين». لقد كان البلاط يتصور نفسه قمة التهذيب، غير أنه تحت واجهته البراقة كان هناك مرجل من العواطف المظلمة ـ الطمع، والحسد، والشهوة، والكراهية ـ يغلي ويجيش. وبالطريقة نفسها فإن عالمنا اليوم يتخيل نفسه قمة الإنصاف النزيه، ولكن العواطف نفسها ما تزال تجيش في داخلنا، كما كانت دائماً وأبداً. فاللعبة هي نفسها ما تزال. فحسب الواجهة الخارجية، يتعين عليك أن تظهر بمظهر الحريص على مقتضيات الظرف واللياقة. أما من

مما لاشك فيه أن البلاطات هي مقرات التهذيب والتربية الحسنة؛ ولو لم تكن كذلك لكانت مقرات للمذابح والخراب؛ إذْ إن أولئك الذين يبتسم كل منهم للآخر الآن ويعانقه، سيواجهه متحدياً ويطعنه، لو لم يتدخل السلوك المؤدب..

اللورد تشسترفيلد

1694-1773

الداخل فإنك إن لم تكن غبياً فسوف تتعلم بسرعة أن تكون حكيماً متعقلاً تعمل بنصيحة نابليون: فتضع قبضتك الحديدية داخل قفاز مخملي. فإذا كنت تستطيع إتقان فن التحرك غير المباشر كما كان رجال الحاشية يفعلون في الأيام الخوالي، وتعلمت كيف تغري، وتسحر، وتفتن، وتخدع، وتتفوق في المناورة على خصومك بطرق ذكية خفية، فسوف تصل إلى قمة السلطة. وسوف تستطيع أن تجعل الناس ينحنون لإرادتك دون أن يدركوا ما فعلت. فإن لم يدركوا ما فعلت فإنهم لن يغضبوا منك ولن يقاوموك.

وتبدو فكرة ممارسة لعبة السلطة عن وعي مقصود، شريرة عند بعض الناس مهما كانت اللعبة غير مباشرة. . فهم يرونها مضادة للمجتمع وبقيةً من آثار الماضي. وهم يعتقدون أنهم يستطيعون الخروج من هذه اللعبة بممارسة سلوك لا علاقة له بالسلطة. وعليك أن تحذر مثل هؤلاء الناس لأنهم في الوقت الذي يعبرون فيه عن مثل هذه الآراء ظاهرياً فإنهم على الأغلب من بين أبرع ممارسي لعبة السلطة. ذلك أنهم يستخدمون خططاً تخفي طبيعة المناورة الحركية التي تنطوي عليها إخفاءً شديد البراعة. فهذه النماذج من الناس كثيراً ما تقوم على سبيل المثال، بكشف نقاط ضعفها وانعدام السلطة لديها باعتبارها نوعاً من الفضيلة الأخلاقية. غير أن الضعف الحقيقي الذي ليس وراءه دافع دفين أو مصلحة ذاتية، لا يعرض نفسه علانية لكسب العطف أو الاحترام. إن استعراض المرء لضعفه بشكل علني إنما هو في الحقيقة تدبير شديد الفاعلية، فيه مخادعة ودهاء، في لعبة القوة (انظر القانون 22، خطة الاستسلام المقصودة).

ليس هناك شيء شديد الغرابة في كراهية الحُملان للطيور الجارحة، ولكن هذا ليس سبباً لاعتبار الطيور الجارحة الكبيرة مذنبةً؛ لأنها تختطف الحُملان. وعندما تتهامس الحُملان فيما بينها: «إن هذه الطيور الجارحة شرّيرة؛ أفلا يعطينا هذا حقّاً بالقول إنه مهما كان ضد الطيور الجارحة فلا بد أن يكون جيّداً؟» - فليس هناك خطأ في هذه المقولة في حد ذاتها من حيث جوهر الحجة المنطقية فيها - رغم أن الطيور الجارحة سوف تنظر إلى الأمر باستغراب ساخر، وتقول: «ليس لدينا أي شيء ضد هذه الحملان الوديعة. بل نحن نحبها في الحقيقة. فلا شيء ألذّ طعماً من حَملٍ طريّ».

فريدريك نيتشه

1844-1900

ومن بين التدابير التي يلجأ إليها الرافض المزعوم لممارسة اللعب مطالبته بالمساواة في كل ميادين الحياة. . وبمعاملة متماثلة للجميع، مهما كانت أوضاعهم وقوتهم. غير أنك إذا حاولت أن تعامل الجميع بمساواة وإنصاف لكي تتجنب وصمة السلطة والمحاباة فسوف تواجه مشكلة كون بعض الناس يقومون ببعض الأشياء بصورة أفضل من

غيرهم. فمعاملة الجميع بالتساوي معناها تجاهل الفوارق فيما بينهم، ورفع أولئك الأقل مهارة، وقمع المبدعين. ومرة أخرى نجد أن الذين يتصرفون بهذه الطريقة إنما ينفذون تدبيراً آخر للسلطة فيعيدون توزيع المكافآت على الناس بأسلوب يقررونه هم.

ومع ذلك فإن هناك طريقة أخرى لتجنب اللعبة هي الإخلاص والاستقامة الكاملان، ما دام أحد الأساليب الرئيسية للباحثين عن السلطة هو الخداع والسرّيّة. غير أن التزام الإخلاص الكامل سوف يؤذي ويهين حتماً عدداً كبيراً من الناس الذين قد يختار بعضهم أن يؤذيك بالمقابل. فلن يرى أحد أن تصريحك المخلص هو شيء موضوعي تماماً وخالٍ من أي حافز شخصيّ. وسيكون أولئك الناس على حق: فالحق أن استخدام الإخلاص هو خطة لاكتساب السلطة فعلاً، يقصد منها إقناع الناس بشخصية المرء النبيلة، طيبة القلب، المنكرة لذاتها. إنها طريقة إقناع، بل شكل خفي ذكي من أشكال الإجبار.

وأخيراً فإن الزاعمين أنهم لا يمارسون اللعبة قد يصطنعون جواً من السذاجة يحميهم من تهمة السعي للحصول على السلطة. فكن على حذرٍ مرةً أخرى، لأن مظهر السذاجة قد يكون وسيلة فعالة للخداع (انظر القانون 21: تبأ له لتظهر أغبى مما أنت عليه). وحتى السذاجة الأصيلة لا تخلو من مصايد السلطة. فالأطفال قد يكونون ساذجين في نواحٍ عديدة، ولكنهم كثيراً ما ينطلقون في تصرفاتهم من حاجة أساسية لاكتساب السيطرة على الذين من حولهم. وهم يعانون كثيراً من الشعور بانعدام السلطة في عالم البالغين، فيلجأون إلى أية وسيلة متاحة للحصول على ما يريدون. فالأبرياء الحقيقيون يمكنهم أيضاً أن يمارسوا لعبة السلطة، وغالباً ما يكونون مؤثرين في اللعبة بشكل رهيب.. ما دام التفكير المتأمل لا يعرقلهم. ومرة أخرى فإنِ أولئك الذين يجعلون من براءتهم شيئاً استعراضياً ظاهرياً هم أقل الناس براءة.

ويمكنك التعرف على رافضي ممارسة اللعبة المفترضين من

إن الوسيلتين الوحيدتين لتمكين المرء من نيل غرضه من الناس هما القوة والمكر. قد يقولون: والحب أيضًا. ولكن هذا يقتضي انتظار الجو المشمس. والحياة تحتاج إلى كل لحظة.

يوهان فون غوته

1832-1749

الطريقة التي يعرضون بها صفاتهم الأخلاقية، وتقواهم، وشعورهم المرهف بالعدالة. ولكن بما أننا جميعاً متعطشون للسلطة، وبما أن معظم أفعالنا تقريباً تهدف إلى الحصول عليها فإن رافضي اللعبة لا يفعلون شيئاً سوى ذرّ الرماد في عيوننا، لإلهائنا عن ممارساتهم للعبة السلطة بأجواء التفوق الأخلاقي التي يشيعونها. فإذا راقبتهم عن كثب فسوف ترى في الحقيقة أنهم على الأغلب هم أبرع الناس في التلاعب غير المباشر، حتى ولو كان بعضهم يمارسه من غير وعي. وهم يغضبون غضباً شديداً مِنْ كل مَنْ يكشف طرائقهم الانتهازية التي يستخدمونها يومياً.

إن السهم الذي يطلقه الرامي قد يقتل شخصاً وحيداً أو لا يقتله. ولكن الأحابيل التي يدبرها رجل حكيم قد تقتل حتى الأجنّة في الأرحام.

كوتيليا

فيلسوف هندي

من القرن الثالث ق.م

فإذا كان العالم يشبه بلاطاً ضخماً مليئاً بالألاعيب والمناورات ونحن فيه محبوسون، فليست هناك فائدة من محاولة اختيار الخروج من اللعبة. فلن يؤدي ذلك إلاَّ إلى حرمانك من السلطة، وهذا بدوره سيجعلك تعيساً. وبدلاً من التصادم مع ما هو محتوم، وبدلاً من الجدل والتذمر والشعور بالذنب، فإن من الأفضل إلى حد بعيد أن يبدع المرء في لعبة السلطة. والحق أنه كلما تحسن أداؤك في التعامل مع السلطة زادت فرصة تحولك إلى صديق أو عشيق أو زوج أو زوجة أو شخص أفضل. وباتباع طريق رجل الحاشية الكامل (انظر القانون 24) فإنك تتعلم كيف تجعل الآخرين يشعرون بالتحسن والرضا عن ذواتهم، وتصبح مصدر سرور لهم. فيأخذون بالاعتماد على قدراتك والرغبة في حضورك. وبإتقان القوانين الثمانية والأربعين في هذا الكتاب فإنك توفر على الآخرين الألم الذي ينجم عن فشلهم في لعبة السلطة عندما يلعبون بالنار دون معرفتهم بخصائصها. فإن كان لا مفرّ من لعبة السلطة، فإن من الأفضل أن يكون المرء في ميدانها فناناً بدلاً من أن يكون منكِراً أو فاشلاً.

إن تعلّم لعبة السلطة يتطلّب طريقة معيَّنة في النظر إلى العالم، وتحوّلاً في زاوية النظر. إنه يستدعي جهداً وسنوات من التمرين، لأن جزءاً كبيراً من اللعبة قد لا يأتي بصورة طبيعية. فهناك مهارات معينة

مطلوبة، وعند إتقانك لهذه المهارات، ستصبح قادراً على تطبيق قوانين لعبة السلطة بسهولة أكبر.

وأهم هذه المهارات، وأحد الأسس الهامة والحساسة للسلطة، هو قدرتك على التحكم في عواطفك. إذْ أن الاستجابة العاطفية لوضع ما هي الحاجز الأكبر الوحيد الحائل دون السلطة، وهي غلطة تكلفك أكثر بكثير من الرضا الذي قد تحصل عليه بالتعبير عن مشاعرك. فالعواطف تلبد العقل بالغيوم، وإن لم تستطع أن ترى الوضع بوضوح فإنك لن تتمكن من التهيئة والاستجابة له بأي درجة من السيطرة.

والغضب أكبر الاستجابات العاطفية تدميراً، لأنه أكثرها تلبيداً لرؤيتك بالغيوم، كما أن له تأثيراً تموجياً يجعل الوضع دائماً أقل قابلية للسيطرة، مما يزيد تصميم عدوك. فإذا كنت تحاول تدمير عدوٍ آذاك، فإن من الأفضل أن تنيم يقظته بالتظاهر بالمودة تجاهه، بدلاً من إظهار غضبك.

كما أن الحب والمودة فيهما احتمال مدمر، إذ أنهما قد يعميانك عن المصالح الذاتية لأولئك الذين ليس لديك الحد الأدنى من الشك في كونهم يمارسون لعبة السلطة. وأنت لا تستطيع كبت الغضب أو الحب، أو تجنب الشعور بهما. . وعليك أن لا تحاول ذلك. غير أن عليك أن تحترس في كيفية التعبير عنهما. والأهم من ذلك أنهما يجب أن لا يؤثرا على خططك وأهدافك الثابتة البعيدة المدى بأي حال من الأحوال.

لقد فكرت في نفسي بالوسائل، والخدع، والفنون الكثيرة والمتنوعة ومدى الاجتهاد الذي يشحذ المرءُ به ذهنَهُ ليخدع شخصاً آخر، فاتضح لي أن العالم يصير أكثر جمالاً بهذه التنويعات.

فرانشيسكو فيتوري

معاصر ماكيافيللي وصديقه

أوائل القرن السادس عشر

وتتصل بتحكمك في عواطفك قدرتك على إبعاد نفسك عن اللحظة الراهنة والتفكير بموضوعية في الماضي السابق والمستقبل اللاحق. ومثل جانوس الإله الروماني ذي الوجهين وحارس كل المنافذ والأبواب، يجب عليك أن تكون قادراً على النظر في الاتجاهين في الوقت نفسه، وبذلك تستطيع التصدي للخطر بصورة أفضل، ومن أي اتجاه يأتي. فهذا مثل الوجه الذي يجب أن تخلقه لنفسك، يتطلع أحد جانبيه إلى المستقبل باستمرار، وينظر الجانب الآخر إلى الماضي.

والشعار بالنسبة للمستقبل هو «لا أيام بلا انتباه» ـ بمعنى أنه يجب أن لا يفاجئك شيء فيأخذك على حين غِرَّة، لأنك آخذ في تخيل المشاكل باستمرار قبل نشوئها. وبدلاً من قضاء وقتك في الحلم بالنهاية السعيدة لخطتك فإن عليك أن تنهمك في إجراء حساباتك لكل تعديل محتمل أو مأزق قد يبرز في هذه الخطة. وكلما زاد بعد نظرك، وزادت الخطوات المقبلة التي تخطط لها سلفاً، صرت أكثر قوة.

ليست هناك مبادئ؛ بل هناك وقائع فقط. وليس من حَسَنٍ ولا رديء؛ بل هناك ظروف فحسب. فالرجل المتفوق يعانق الوقائع والظروف ليقودها. ولو كانت هناك مبادئ وقوانين ثابتة، لما غيرتها الأمم كما نغيِّر قمصاننا. ولا يمكننا أن نتوقع من رجل أن يكون أعقل من أُمّة بكاملها.

أونوريه دي بلزاك

1850-1799

وينظر الوجه الآخر لجانوس إلى الماضي باستمرار ـ ولو لم يكن ذلك لتذكر آلام الماضي وحمل الأحقاد.. فذلك يحدّ من قوتك أو سلطتك. إذ أن نصف اللعبة يكمن في تعلّم كيفية نسيان تلك الأحداث الماضية التي تضنيك بهمومها فتلبد بالغيوم عقلك. فالغرض الحقيقي من العين الناظرة إلى الوراء هو أن تثقف نفسك باطراد ـ فأنت تنظر إلى الماضي كي تتعلم ممن سبقوك (وإن الأمثلة التاريخية الكثيرة في هذا الكتاب سوف تساعد كثيراً في هذه العملية). وبعد أن تنظر إلى الماضي، تنظر إلى ما هو أقرب، إلى أعمالك وأعمال أصدقائك. فهذه أهمّ المدارس التي يمكنك التعلم منها وأكثرها حيوية، لأنها تأتي من التجربة الشخصية.

وتبدأ بفحص الأخطاء التي ارتكبتها في الماضي، ولا سيما تلك التي أعاقتك بشكل خطير جداً. فتحللها وفق مرجعية القوانين الثمانية والأربعين لاكتساب السلطة، وتستخرج منها درساً وعهداً على نفسك: «لن أكرر مثل هذه الغلطة، ولن أقع في مثل هذا الفخ ثانيةً». فإذا كنت تستطيع تقويم نفسك ومراقبتها بهذه الطريقة، فإنك قادر على أن تتعلم كيف تحطم أنماط الماضي؛ وهذه مهارة ثمينة جداً.

وتتطلب السلطة قدرة على اللعب بالمظاهر. ولهذه الغاية يتعين عليك أن تتعلم ارتداء أقنعة كثيرة وأن تحتفظ بحقيبة مليئة بالحيل الخادعة. ويجب عدم اعتبار المخادعة وارتداء الأقنعة أشياء قبيحة أو غير أخلاقية. فكل أنواع التفاعل الإنساني تتطلب الخداع على مستويات كثيرة. وإن ما يفصل البشر عن الحيوانات في بعض الوجوه هي قدرتنا على الكذب والخداع. ففي الأساطير الإغريقية، وفي سلسلة ملحمة

المهابهاراتا الهندية، وفي ملحمة كيلكاش الشرقية، نجد أن استخدام فنون الخداع إنما هو من الامتيازات التي تختص بها الآلهة؛ فالرجل العظيم أوديسوس مثلاً حُكِمَ عليه بقدرته على منافسة الآلهة في مضمار البراعة في الخداع، فقد سرق بعض قدراتهم الإلهية بمضاهاتهم في الذكاء والدهاء. فالخداع إذن فن حضاري متطور وهو أكفأ سلاح في لعبة السلطة.

ولن تنجح في الخداع ما لم تستطع أن تنظر إلى نفسك من بعيد وبشيء من التجرد المحايد ـ وما لم تستطع أن تكون عدة أشخاص مختلفين، فترتدي القناع الذي يتطلبه كل يوم وكل لحظة (أي تلبس لكل حالة لبوسها). وبمثل هذا النهج المرن نحو كل المظاهر، بما فيها مظهرك أنت، فإنك تتخلص من كثير من الثقل الداخلي الذي يشد الناس إلى الأرض. اجعل وجهك مطواعاً كوجه الممثل، واعمل على إخفاء نواياك عن الآخرين، وتمرن على استدراج الناس إلى الفخاخ. فاللعب بالمظاهر وإتقان فنون الخداع هما من بين المتع الجمالية السارة في الحياة. كما أنهما من المكونات الأساسية في اكتساب السلطة.

وإذا كان الخداع أكفأ سلاح في ترسانتك، فإن الصبر في كل الأشياء هو درعك الحساس الأهمية. فالصبر يحميك من ارتكاب الأخطاء الغبية. ومثل السيطرة على عواطفك، فإن الصبر مهارة، وهي مهارة لا تأتي بصورة طبيعية. إلاَّ أنه ليس هناك شيء طبيعي في كل ما له علاقة بالسلطة. فهي أكثر من أي شيء في العالم الطبيعي شبهاً بما لدى الآلهة. والصبر فضيلة إلهية متفوقة، لأن الآلهة لا شيء لديهم أكثر من الوقت. فكل شيء جيد سوف يحدث. فالعشب سينمو ثانية إن أنت أعطيته الوقت ورأيت عدة خطوات في عمق المستقبل. ومن جهة أخرى فإن نفاذ الصبر لا يزيد على أن يجعلك تبدو ضعيفاً، فهو معيق رئيسي لاكتساب السلطة.

والسلطة في جوهرها لا تهتم بالأخلاق سلباً أو إيجاباً، وإن إحدى المهارات التي يعتبر الحصول عليها شديد الأهمية هي القدرة على رؤية

الظروف بدلاً من التركيز على الخير والشر. فالسلطة لعبة، وهذه حقيقة لا يعتبر التأكيد عليها وتكرارها شيئاً مبالغاً فيه مهما تواتر وتكاثر. وفي الألعاب لا تحكم على خصومك بسبب نواياهم، بل بحسب تأثير أعمالهم. كما أنك تقيس خطتهم وقوتهم بما تستطيع أن تراه وتشعر به. فما أكثر ما صيرت نوايا شخصٍ مّا هي الموضوع، ولم يؤدِّ ذلك إلاَّ إلى التعتيم والخداع! فما هي الفائدة إذا كان لاعب آخر، صديقك أو منافسك، يستهدف أشياء طيبة ولا يهتم في أعماقه إلاً بمصالحك، إذا كانت نتائج عمله تؤدي إلى تدمير واسع وفوضى شاملة؟ ومن الطبيعي أن يغطي الناس أعمالهم بكل أنواع التبريرات، مفترضين على الدوام أنهم قد تصرفوا بدافع من الطيبة. وعليك أن تتعلم أن تضحك بشكل سري كلما سمعت ذلك، وأن لا تسقط في فخ قياس نوايا شخصٍ ما وأعماله بحسب مجموعة من الأحكام الأخلاقية التي هي في الحقيقة حجة لمراكمة السلطة وتجميعها.

إنها لعبة يجلس فيها خصمك قبالتك. وتتصرفان تصرف الرجال المهذبين أو السيدات المهذبات، فتراعيان قواعد اللعبة، ولا تأخذان أي شيء على محمل شخصي. فأنت تلعب وفق خطة ثابتة، وتراقب تحركات خصمك بأكبر قدر من الهدوء تستطيع تجميعه. وفي خاتمة المطاف فإنك تقدر تهذيب اللاعبين معك أكثر من تقديرك لنواياهم الطيبة والحلوة. دَرِّبْ عينيك على تتبع نتائج تحركاتهم والظروف الخارجية، ولا يلهينَّك أي شيء آخر.

إن نصف إتقانك للعبة السلطة يأتي من الأشياء التي **لا تفعلها** ومما **لا** تسمح لنفسك بالانجرار إليه. وللحصول على هذه المهارة يتعين عليك أن تتعلم أن تحكم على الأشياء كلها بحسب ما تكلفك. وكما كتب نيتشه، فإن «قيمة الأشياء لا تكمن أحياناً فيما يحصل المرء بها، بل فيما دفع المرء ثمناً لها ـ فيما **كلّفتنا**». فقد تصل إلى هدفك، ويكون هدفاً نفيساً، ولكن بأي ثمن؟ طبق هذا المقياس على كل شيء، بما في ذلك ما إذا كنتَ ستتعاون مع أناس آخرين أو تهبّ لنجدتهم. وفي آخر

الأمر فإن الحياة قصيرة، والفرص قليلة، وليس لديك سوى طاقة محدودة تعتمد عليها وتسحب من رصيدها. وبهذا المعنى فإن الزمن من الاعتبارات التي تعادل في أهميتها أي اعتبار آخر. فلا تضيع زمناً ثميناً، ولا راحة ذهنك، على قضايا الآخرين ـ فذلك ثمن أعلى من اللازم فلا تدفعه.

إن اكتساب السلطة لعبة اجتماعية. ولكي تتعلمها وتتقنها فإن عليك أن تنمي قدرتك على دراسة الناس وفهمهم. وكما كتب بلثازار غراسيان المفكر ورجل الحاشية الكبير في القرن السابع عشر: «يُمْضِي العديد من الناس وقتاً في دراسة خصائص الحيوانات أو الأعشاب؛ وأهم من ذلك كله أن ندرس الناس الذين يتعين علينا أن نعيش أو نموت معهم!». ولكي تكون لاعباً أساسياً محترفاً يتعين عليك أن تكون متقناً للتحليل النفسي وعليك أن تتعرف على الحوافز وأن ترى من خلال الضباب والغبار اللذين يحيط بهما الناس أعمالهم. ذلك أن فهم دوافع الناس الخفية هو أكبر جزء بمفرده من المعلومات يمكنك امتلاكه لاكتساب السلطة. فهو يفتح احتمالات لا نهاية لها لممارسة الخداع، والإغواء، والتلاعب.

فالناس لهم تعقيدات لا تنتهي، ويمكنك أن تمضي عمراً كاملاً في مراقبتهم دون أن تفهمهم فهماً كاملاً. ولذا فإن من المهم أن تبدأ في تعليم نفسك وتثقيفها من الآن. وعند قيامك بذلك يتعين أن تبقي في ذهنك مبدأً واحداً وهو: لا تميز أبداً بين الذين تدرسهم والذين تثق بهم. لا تثق بأي شخص ثقة كاملة، وادرس الجميع، بمن فيهم من الأصدقاء والأحبّة.

وأخيراً يجب عليك أن تتعلم أن تسلك إلى السلطة الطريق غير المباشر. وليكن دهاؤك متنكراً. ومثل كرة البليارد التي ترتطم بغيرها مرات عديدة قبل أن تصيب هدفها فإن حركاتك يجب تخطيطها وتطويرها بأقل الطرق وضوحاً وعلانية. وبتدريب نفسك على أن تكون غير مباشر فإنك تستطيع أن تنتعش وتزدهر في البلاط الحديث، بحيث تبدو كمثل

أعلى في اللياقة، بينما أنت تمارس التلاعب ببراعة ذكية خفية.

اعتبر **القوانين الثمانية والأربعين لاكتساب السلطة** نوعاً من الكتيب المستخدم كدليل على الأسلوب غير المباشر. فالقوانين مبنية على كتابات رجال ونساء درسوا لعبة السلطة وأتقنوها، وهي كتابات تمتد على مدى يزيد على ثلاثة آلاف سنة، وقد أنتجتها حضارات متباينة كتباين الصين وإيطاليا عصر النهضة. ومع ذلك فإن بينها خطوطاً ومواضيع مشتركة، وهي معاً تلمح إلى جوهر للسلطة لم تتبلور تفاصيله بعد. فالقوانين الثمانية والأربعون هي استقطار هذه الحكمة المتراكمة. تم تجميعها من كتابات ألمع المخططين الاستراتيجيين (مثل صن ـ تزو، وكلاوز ڤيتز) ورجال الدولة (بسمارك، تاليران) ورجال الحاشية (كاستيليون، وغراسيانو) وأصحاب الغواية (نينو دي لينكلو، كازانوفا) وفناني الإقناع («الولد الأصفر» ڤيل) في التاريخ.

وتملك القوانين فرضية بسيطة هي: إن أعمالاً معينة تؤدي بشكل يكاد يكون دائماً إلى زيادة سلطة المرء (مراعاة القانون)، بينما تؤدي أعمال أخرى إلى تخفيضها، بل وحتى تدميرنا (خرق القانون).. وحالات الخرق والمراعاة هذه توضحها أمثلة تاريخية. أما القوانين نفسها فهي ثابتة ومحددة لا تتغير على مرّ الزمن.

ويمكن استخدام **القوانين الثمانية والأربعين لاكتساب السلطة** بطرق عديدة. فبقراءة الكتاب كله على نحو مباشر متصل يمكنك أن تتعلم أشياء عن السلطة على وجه العموم. ورغم أن عدة من هذه القوانين قد تبدو ذات علاقة مناسبة ومباشرة مع حياتك، فلعلك تكتشف في الوقت المناسب أنها جميعاً تصلح لبعض التطبيقات، وأنها في الواقع مترابطة فيما بينها. وبالحصول على نظرة شاملة عن الموضوع برمّته فستحصل على أفضل قدرة على تقويم أعمالك الماضية، وعلى درجة أكبر من السيطرة على شؤونك الآنيّة المباشرة. وإن القراءة الكاملة للكتاب ستلهمك التفكير وإعادة التقويم بعد انتهائك منه بزمن طويل.

وقد صمم الكتاب من أجل التصفح ولتفحّص القانون الذي يبدو في لحظة معينة هو الأكثر مناسبة لك. وافرض أنك تعاني من مشكلة مع أحد رؤسائك وتعجز عن فهم سبب فشل جهودك في الحصول على المزيد من الامتنان لك أو على ترقية. إن هناك عدة قوانين تتناول علاقة الرئيس بالمرؤوس بالذات، ويكاد يكون من المؤكد أن سبب الفشل هو خرقك لواحد من هذه القوانين. وبتصفح الفقرات الأولى من القوانين الثمانية والأربعين في فهرس المحتويات، يمكنك تحديد القانون المناسب ذي الصلة.

وأخيراً يمكن تصفح الكتاب وتقسيمه من أجل المتعة، والقيام بجولة مسلية عبر أخطاء أسلافنا في السلطة وأعمالهم الكبرى. غير أن هناك تحذيراً لمن يستخدمون الكتاب لهذا الغرض: لعل من الأفضل لكم أن تتراجعوا. فالسلطة مغرية وخداعة بطريقتها الخاصة وعلى نحو لا ينتهي. فهي متاهة من الممرات المتداخلة ـ فقد تستهلك ذهنك في حل مشاكلها التي لا حدود لها، وسرعان ما تدرك مدى اندماجك في الكتاب وأنت مسرور. وبعبارة أخرى فإن الكتاب يصبح أشد ما يكون إمتاعاً ومؤانسة عند أخذه على محمل الجدّ. فلا تتهاون مع مادة خطيرة كهذه. ذلك أن أرباب القوة والسلطة تكشر عن أنيابها ضد العابثين. وهي لا تقدم الإرضاء النهائي إلاَّ لمن يدرسون ويتفكرون، وتعاقب أولئك الذين يمرون بالأمور مرور الكرام بشكل سطحي بحثاً عن التسلية.

> إن أي رجل يحاول أن يكون طيباً كل الوقت لا بد أن يصير أمره إلى التباب وسط العدد الكبير من غير الطيبين. ومن هنا فإن الأمير الذي يريد الحفاظ على سلطته يجب أن يتعلم كيف يكون غير طيب، ويستخدم تلك المعرفة، أو يمتنع عن استخدامها، حسبما تقتضيه الضرورة.

من كتاب الأمير، لمؤلفه نيقولو ماكيافيللي (1469-1527)

القانون

1

لا تشرقْ أبداً أكثر من السيد

الحكم

اجعل أولئك الذين فوقك يشعرون دائماً بتفوقهم بشكل مريح. وفي رغبتك لإرضائهم وإثارة إعجابهم، لا تذهب أبعد من اللازم في إظهار مواهبك، وإلاً فقد تُحَقِّقُ العكس، أي تثير الخوف وانعدام الأمن. اجعل سادتك يظهرون ألمع مما هم، وستصل إلى قمم السلطة.

انتهاك القانون

كان نيقولا فوكيه، وزير مالية لويس الرابع عشر في السنوات الأولى من عهده، رجلاً كريماً يحب الحفلات الباذخة المسرفة، والنساء الجميلات، والشعر. كما كان يحب المال، لأنه كان يعيش حياة في غاية التبذير. وكان فوكيه بارعاً، ولا يستغني عنه الملك، بل يحتاج إليه كثيراً. وهكذا فعندما توفي رئيس الوزراء جول مازاران في سنة 1661، توقع وزير المالية أن يُسَمَّى خلفاً له. وبدلاً من ذلك قرر الملك إلغاء المنصب. فأدى ذلك وغيره من الإشارات إلى جعل فوكيه يشكّ في أنه فقد الحظوة.. فقرر أن يتملق الملك لعله يستعيد تلك الحظوة لديه بإقامة أروع حفلة شهدها العالم على الإطلاق. وكان الغرض الظاهري من تلك الحفلة هو الاحتفال بإكمال قصره الريفي الضخم «ڤوكس لوڤيكونت» ولكن مهمتها الحقيقية كانت تكريم الملك، ضيف الشرف.

وحضر تلك الحفلة ألمع نبلاء أوروبا وأعظم عقولها في ذلك الوقت: لافونتين، ولاروشفوكو ومدام سيڤيني. وكتب موليير مسرحية لهذه المناسبة يؤدي فيها دوراً بنفسه عند نهاية الأمسية. وبدأت الحفلة بعشاء سخي البذخ من سبعة أدوار قدمت فيها أطعمة من الشرق لم يسبق أن تذوقه أحد في فرنسا، وكذلك أطباق جديدة صنعت خصيصاً لتلك الليلة. ورافقت العَشاء معزوفاتٌ موسيقيةٌ بطلب من فوكيه لتكريم الملك.

وتبعت العشاء نزهة في حدائق القصر. وصارت أراضي قصر ڤوكس لو ڤيكونت ونوافيره مصدر إلهام لڤرساي.

وصحب فوكيه بنفسه الملك الشاب عبر الترتيبات الهندسية لأحواض الزهور والشجيرات. وعند وصولهما إلى قنوات الحدائق شهدا عرضاً للألعاب النارية، تبعه عرض تمثيلية موليير. واستمر الحفل ساهراً إلى ساعة متأخرة من الليل، واتفق الجميع على أنه كان أشد ما شهدوه إثارة للذهول على الإطلاق.

وفي اليوم التالي قام قائد حرس الملك، دارتانيان، بإلقاء القبض على فوكيه، وبعد ثلاثة أشهر قدم إلى المحاكمة لاختلاسه من خزانة البلد (والواقع أن معظم الاختلاسات التي اتهم بها قد تمت لحساب الملك ونيابة عنه وبإذنٍ منه). فَوُجِدَ فوكيه مذنباً وأرسل إلى أكثر السجون عزلة في فرنسا، في أعالي جبال البيرانيس، حيث أمضى الأعوام العشرين الأخيرة من حياته في الحبس الانفرادي.

التفسير

كان لويس الرابع عشر، الملك الشمس، رجلاً معتداً بنفسه متعجرفاً يريد أن يكون محط الانتباه في كل حين؛ فلم يكن يطيق أن يتفوق عليه أي أحد في السرف الباذخ، وبالتأكيد لم يطق أن يأتي هذا التفوق من وزير ماليته. وقد اختار لويس لخلافة فوكيه جان ـ بابتيست كولبير، وهو رجل مشهور ببخله الشديد، وبإقامته أكثر الحفلات فتوراً في باريس. وراح كولبير يتأكد من كون أية أموال تتحرر من الخزينة تصب مباشرة بين يدي لويس. وبهذه الأموال بنى لويس قصراً أكثر روعة حتى من قصر فوكيه ـ وهو قصر ڤرساي المجيد. فاستخدم المعماريين والمزخرفين ومصممي الحدائق أنفسهم. وفي ڤرساي راح لويس يستضيف حفلات أكثر بذخاً حتى من تلك التي كلفت فوكيه حريته.

ودعونا نتفحص الوضع. ففي مساء تلك الحفلة، وبينما كان فوكيه

يقدم إلى لويس منظراً تلو آخر، وكل منها أروع مما سبقه، تخيل الأمر على أنه استعراض لولائه وإخلاصه للملك. فلم يكتف بالظن بأن الحفلة ستعيده إلى مكانة الحظوة لدى الملك، بل ظنّ كذلك أنها سوف تثبت حسن ذوقه، واتصالاته، وشعبيّته، وتجعله ممّن لا يستغني عنهم الملك، وتدل على أنه سيكون رئيس وزراء ممتازاً. غير أن كل مشهد جديد، وكل ابتسامة تقدير أبداها الضيوف لفوكيه جعلت الأمر يبدو للويس وكأن أصدقاءه ورعاياه أنفسهم قد سحرهم وزير ماليته أكثر من الملك نفسه، وكأن فوكيه كان في الواقع يستعرض ثروته وسلطته ونفوذه. وبدلاً من تملق لويس الرابع عشر، فإن حفلة فوكيه المتقنة قد آذت كبرياء الملك. ولم يشأ الملك أن يعترف بذلك لأي أحدٍ بالطبع؛ وبدلاً من ذلك وجد عذراً مناسباً ليخلّص نفسه من الرجل الذي جعله ـ دون قصد ـ يشعر بانعدام الأمان.

وهذا ـ بشكل أو بآخر ـ هو قدر جميع الذين يفقدون السيدَ شعوره المتوازن بنفسه، ويحدثون ثقوباً في غروره، أو يجعلونه يشك في بروز مكانته.

> عندما بدأت الأمسية، كان فوكيه على قمة الدنيا. وعند انتهائها كان في الحضيض.
>
> (فولتير، 1694 ـ 1778)

مراعاة القانون

في أوائل العقد الأول من القرن السابع عشر، وجد العالِم والرياضي الإيطالي غاليليو نفسَه في موقف حرج. كان قد اعتمد على كرم حكام كبار لدعم أبحاثه، وهكذا فقد كان ـ شأنه شأن علماء عصر النهضة جميعاً ـ يهدي اختراعاته واكتشافاته أحياناً للقياديين الذين يعمل تحت رعايتهم في ذلك الوقت. وعلى سبيل المثال فقد أهدى ذات مرة بوصلة عسكرية كان قد اخترعها إلى دوق غوانزاكا. ثم أهدى الكتاب

الذي يشرح استخدام البوصلة إلى عائلة مديتشي. وكان الحاكمان كلاهما ممتنَّيْن. وعن طريقهما تمكن غاليليو من العثور على المزيد من الطلاب لتدريسهم. غير أنه مهما كان الاكتشاف عظيماً فقد كان رعاته يدفعون له بالهدايا العينية، لا النقدية. وأدى ذلك إلى جعل حياته شعوراً مستمراً بانعدام الأمان، وبالاعتماد على الآخرين. ففكر في أنه لا بد من وجود طريقة أسهل.

وتكشفت لغاليليو خطةٌ جديدة في سنة 1610، عندما اكتشف أقمار المشتري وبدلاً من تقسيم الاكتشاف بين رعاته، بإهداء المجهر الفضائي لواحد منهم، وإهداء الكتاب لآخر، وهكذا، كما فعل في الماضي، فقد قرر أن يركز على آل مديتشي حصراً. وقد اختارهم لسبب واحد: فبعد زمن قصير من قيام كوزيمو الأول بتأسيس سلالة مديتشي في سنة 1540، جعل المشتري (أقوى الأرباب في الأساطير الرومانية) رمزاً لآل مديتشي، وهو رمز سلطة تتجاوز السياسة والصيرفة، وتتصل بروما القديمة وآلهتها.

وقام غاليليو بتحويل اكتشافه لأقمار المشتري إلى حدث كونيّ لتكريم عَظَمَةِ آل مديتشي. فأعلن بُعَيْدَ الاكتشاف أن النجوم الساطعة [أقمار المشتري] «قدّمت نفسها في السموات» إلى مجهره الفضائي في الوقت نفسه الذي شهد تتويج كوزيمو الثاني. وقال إن عدد الأقمار ــ أربعة ــ يضاهي عدد آل مديتشي (كان لكوزيمو الثاني ثلاثة إخوة) وإن الأقمار تدور في فلك المشتري، كما كان هؤلاء الأبناء الأربعة يدورون حول مؤسس سلالتهم: كوزيمو الأول. . وإن ذلك أكثر من صدفة، لأنه يبين أن السموات تعكس صعود نجم آل مديتشي. وبعد أن أهدى غاليليو اكتشافه إلى آل مديتشي أوصى بصنع شعارٍ يمثل المشتري جالساً على غيمة، مع أربعة نجوم تدور حوله، وأهداه إلى كوزيمو الثاني كرمز لاتصاله بالنجوم.

وفي سنة 1610، جعل كوزيمو الثاني غاليليو فيلسوفاً ورياضياً

رسمياً تابعاً لبلاطه، براتب كامل. وبالنسبة لعالِم كانت تلك ضربة العمر، فقد انتهت أيام الاستجداء والرعاية.

التفسير

بضربة واحدة، كسب غاليليو بخطته الجديدة أكثر مما حصل عليه من الاستجداء على مدى سنوات. وكان السبب بسيطاً: إن جميع السادة يريدون أن يظهروا أكثر لمعاناً من الآخرين.

ذلك أنهم لا يهتمون بالعلم، ولا بالحقيقة التجريبية العملية، ولا بآخر اختراع، بل يهتمون بسمعتهم وأمجادهم. وعندما ربط غاليليو اسم آل مديتشي بالقوى الكونية، أعطاهم مجداً أكبر بصورة لا حد لها مما فعل عندما جعلهم رعاة أداة علمية جديدة أو اكتشاف.

إن تقلبات حياة البلاط والرعاية لا تعفي العلماء ولا توفرهم، فهم أيضاً يتعين عليهم أن يخدموا سادة يمسكون بأيديهم خيوط كيس المال. وإن قواهم الفكرية العظيمة تجعل السيد يشعر بعدم الأمان، وكأنه موجود فقط لتقديم التمويل ــ وهذه مهمة قبيحة غير نبيلة. ذلك أن منتج عمل عظيم يريد أن يشعر أنه أكثر من مجرد مقدِّم التمويل، إنه يريد أن يبدو خلاقاً وقوياً، وكذلك إنه أهم من العمل الذي تم إنتاجه باسمه. فبدلاً من الأمن يتعين عليك أن تعطيه المجد. فغاليليو لم يتحدَّ السلطة الفكرية لآل مديتشي باكتشافه، ولم يجعلهم يشعرون بالنقص بأي طريقة؛ فبإلصاق اسمهم بالنجوم إلصاقاً حرفياً وثيقاً، جعلهم يشرقون بسطوع بين بلاطات إيطاليا. فلم يشرقْ أكثر من السيد، بل جعل السيد يبزّ في إشراقه الآخرين جميعاً.

مفاتيح السلطة

لكل شخص مخاوفه، وعندما تعرض نفسك في العالم وتكشف عن مواهبك فإن من الطبيعي أن تثير كل أنواع السخط، والحسد وغيرها من مظاهر انعدام الأمن. ويجب أن تتوقع ذلك. ولكنك لا تستطيع أن

تقضي عمرك في القلق على مشاعر الآخرين الصغيرة. أما بالنسبة لمن هم فوقك فإن عليك أن تتبع نهجاً مختلفاً: فعندما يتعلق الأمر بالسلطة، فإن التفوق على السيد في الإشراق ربما كان أسوأ الغلطات على الإطلاق.

ولا تخدعنَّ نفسك بالتفكير في أن الحياة قد تغيرت كثيراً منذ أيام لويس الرابع عشر وآل مديتشي. ذلك أن أولئك الذين يصلون إلى مراكز عليا في الحياة يشبهون الملوك والملكات: أي أنهم يريدون أن يشعروا بأنهم آمنون في مراكزهم ومناصبهم. وأنهم متفوقون على جميع مَنْ حولهم في الذكاء، والحصافة، والجاذبية. وإن من سوء الفهم القاتل ـ ولكنه شائع ـ اعتقادك بأنك عند استعراض مواهبك والمباهاة بها تكسب عواطف السيد. فقد يتظاهر بتقديرها، ولكنه عند أول فرصة سيستبدل بك شخصاً آخر أقل ذكاءً، وأقل جاذبية، وأقل تهديداً تماماً مثلما استبدل لويس الرابع عشر كولبير الباهت بفوكيه البرَّاق. وكما هي الحال مع لويس، فإنه لن يعترف بالحقيقة، بل سيجد ذريعة لتخليص نفسه من حضورك.

وينطوي القانون على قاعدتين ينبغي عليك إدراكهما، أولاً: إنك قد تبزّ السيد في الإشراق عن غير قصد بأن تكون نفسَك بكل بساطة. فهناك سادة يشعرون بانعدام الأمن أكثر من غيرهم، بمخاوفهم الرهيبة، ومن الطبيعي أنك قد تشع بالإشراق أكثر منهم بجاذبيتك وكياستك.

لم تكن لدى أحد من الناس مواهب أكثر من آستور مانفريدي، أمير فايينزا أكثر أمراء إيطاليا الشباب جميعاً في الوسامة. وقد أسر قلوب رعاياه بسخائه وانفتاح روحه.

وفي سنة 1500، فرض سيزار بورجيا حصاراً على فايينزا. وعندما استسلمت المدينة توقع مواطنوها أسوأ الأمور من بورجيا القاسي. غير أنه قرر أن يُبقي على المدينة. فاكتفى باحتلال قلعتها، ولم يعدم أياً من

مواطنيها، وسمح لأميرها مانفريدي الذي كان عمره ثمانية عشر عاماً آنئذٍ أن يبقى فيها مع بلاطه في حرية كاملة.

ولكن، بعد بضعة أسابيع قذف الجنودُ آستور مانفريدي في غياهب سجن روماني. وبعد سنة من ذلك الحين، التقطت جثته من نهر التيبر، وقد شُدَّ حجر حول عنقه. وبرَّر بورجيا هذه الفعلة الشنعاء بتهمة لفَّقها لمانفريدي بالخيانة والتآمر. غير أن المشكلة الحقيقية هي أن بورجيا كان مغروراً بصورة بشعة ويشعر بعدم الأمان. فقد كان الأمير الشاب متفوقاً عليه في الإشراق حتى دون أن يحاول ذلك. فمواهب مانفريدي الطبيعية جعلت مجرد حضور الأمير يبين أن بورجيا أقل جاذبية وسحراً وفتنة. والدرس المستفاد من ذلك بسيط: إذا كنت لا تملك شيئاً إزاء جاذبيتك وتفوقك، فعليك أن تتجنب أمثال بورجيا من وحوش الغرور.. أو أوجد طريقة لإسكات صفاتك الحميدة عندما تكون في صحبة أمثال سيزار بورجيا.

وثانياً: إياك أن تتصوَّر أبداً أنك تستطيع أن تفعل ما تريد لأن السيد يحبّك. فهناك كتب بكاملها يمكن تأليفها عن أصحاب حظوة فقدوا حظوتهم لأنهم ظنوا أن منصبهم باقٍ كتحصيل حاصل فتجرأوا على التفوق في الإشراق. ففي اليابان في أواخر القرن السادس عشر كان صاحب الحظوة لدى الإمبراطور هيديوشي رجلاً يسمى صن نو ريكيو. وكان هو الفنان الأول في ترتيب حفلات الشاي التي تسلَّطت فكرتها على طبقة النبلاء.. وكان واحداً من أكثر المستشارين حصولاً على ثقة هيديوشي. وكانت له شقته الخاصة به في القصر، وكان حاصلاً على التكريم في جميع أنحاء اليابان. ومع ذلك أمر الإمبراطور في سنة 1591، باعتقاله والحكم عليه بالإعدام. وبدلاً من ذلك انتحر ريكيو. وقد اكتُشِفَ سببُ سقوطه من مركز الحظوة فيما بعد: إذْ يبدو أن ريكيو، الفلاح السابق وصاحب الحظوة لدى البلاط بعد ذلك قد أوصى بعمل تمثال خشبي لنفسه وهو يحتذي صندلاً (رمز النبالة) في وقفة شامخة

ومتعجرفة. وكلف شخصاً بوضع هذا التمثال في أهم المعابد داخل بوابات القصر، على مرأى واضح من أفراد العائلة المالكة الذين كثيراً ما كانوا يمرون به. فشعر هيديوشي أن هذا معناه أن ريكيو ليس لديه إحساس بالحدود.. بل إنه يفترض أن له حقوق أعلى مراتب النبلاء نفسها بحيث نسي أن مركزه يعتمد على الإمبراطور، وراح يعتقد أنه اكتسب هذه المنزلة بنفسه. فكان هذا خطأ لا يغتفر في حساب أهميته، دفع حياته ثمناً له. تذكر إذن ما يلي: لا تعتبر مركزك أو منصبك أمراً مسلماً به أبداً، وإياك أن تدير رأسك أية حظوة تتلقاها.

فإذا عرفت مدى خطورة تفوقك في البريق على سيدك فإنك تستطيع استخدام هذا القانون لصالحك. عليك أولاً أن تتملَّق سيدك وتنفخ غروره. وقد يكون التملُّق المكشوف مؤثراً ولكن له حدوده، إذ أنه مباشر ومفضوح أكثر من اللازم، ويبدو سيئاً في عيون رجال الحاشية الآخرين. فالإطراء السري أو المتحفِّظ أقوى مفعولاً بكثير. فإذا كنت أذكى من سيدك مثلاً فأظهر له عكس ذلك، واجعله يبدو أذكى منك. وتصرَّف كأنك ساذج، واجعل نفسك تبدو محتاجاً إلى خبرته. وارتكب أخطاء لا ضرر منها ولا تؤذيك على المدى البعيد، بل تعطيك الفرصة لطلب مساعدته. فالسادة يحبون مثل هذه الطلبات إلى حد العبادة. والسيد الذي لا يستطيع أن يمنحك بركة خبرته قد يسلِّط عليك بدلاً منها غضبه وضغينته.

وإذا كانت أفكارك خلاقة أكثر من أفكار سيِّدك، فانسبها إليه بطريقة تجعلها علنية إلى أقصى حد ممكن، بحيث توضح للآخرين أن مشورتك ليست سوى صدى لمشورته.

وإن كنت متفوقاً على سيدك في الفطنة أو الحصافة أو حضور البديهة، فلا بأس في أن تلعب دور مهرِّج البلاط، ولكن إياك أن تجعل سيدك يبدو بارداً فظاً بالمقارنة معك. وخفض لهجة المزح أو الدعابة عند الضرورة. وأوجد طرقاً تجعل سيدك يبدو فيها وكأنه هو موزع

المسرات والأفراح. وإذا كنت بطبيعتك أكثر اجتماعية وكرماً وطيب نفس من سيدك، فتوخَّ أن لا تكون أنت الغيمة التي تحجب إشعاعه عن الآخرين. إذ يجب أن يبدو كالشمس التي يدور حولها الجميع، تشع بالسلطة والقوة والبريق، وفي مركز الانتباه. وإذا وجدت نفسك موضوعاً في مركز تسليته وإمتاعه، فإن إظهار قدرة محدودة على القيام بذلك قد يكسبك عطفه. ذلك أن أية محاولة لإثارة إعجابه بظرفك وكياستك وكرمك قد تصبح شيئاً قاتلاً. تعلَّم من فوكيه، وإلاَّ فادفع الثمن.

في كل هذه الحالات ليس من الضعف أن تخفي مكامن قوتك إذا كانت ستوصلك في خاتمة المطاف إلى اكتساب السلطة فعند ترك الآخرين يبزونك في الإشراق تبقى أنت المسيطر على زمام الأمور، بدلاً من أن تكون ضحية شعورهم بعدم الأمان. وسوف تحتاج إلى هذا كله في الوقت المناسب، يوم تقرر أن ترتفع فوق منزلتك الناقصة أو المنخفضة. فإذا كنت مثل غاليليو، قادراً على جعل سيدك يشرق أكثر في عيون الآخرين، فسوف تبدو كهدية أرسلها الله إليه، وسوف تُرَفَّعُ في الحال.

صورة: النجوم في
السماء، ولا يمكن أن تكون
هناك سوى شمس واحدة. فلا
تحجب ضوء الشمس، أو تنافس
بريقها، بل اغرب في السماء
واوجد طرقاً لزيادة شدة
سطوع نجم السيد.

الشاهد: تجنب التفوق على إشراق السيد. إن كل أنواع التفوق كريهة، غير أن تفوق احد الرعايا على اميره ليس شيئاً غبياً فحسب، بل هو قاتل ومميت. وهذا درس تعلمنا إياه النجوم في السماء ــ فقد تكون ذات علاقة بالشمس، وقد تكون مساوية لها في السطوع، ولكنها لا تظهر بصحبتها (بلثازار غراسيان، 1601 ــ 1658).

الانقلاب

إنك لا تستطيع أن تقلق حول إزعاج كل شخص تقابله، ولكن عليك أن تكون قاسياً بصورة انتقائية. فإذا كان رئيسك نجماً آخذاً في الأفول فليس لديك ما تخشاه من التفوق عليه في الإشراق. فلا تكن رحيماً ـ إذ أن سيدك لم تكن تنتابه أية حيرة أو هواجس أثناء صعوده إلى القمة بدم بادر دون أن يرفّ له جفن. إسبر غور قوته فإن كان ضعيفاً، فعجل بسقوطه ولكن بشكل سرّي هادىء ومتحفظ. وتفوق عليه في العمل والجاذبية والذكاء في اللحظات الحساسة المناسبة. فإذا كان ضعيفاً جداً وعلى وشك السقوط، فاترك الطبيعة تأخذ مجراها. ولا تغامر بالتفوق بالإشراق على رئيس ضعيف، فقد يبدو ذلك قسوة أو شماتة. ولكن إذا كان سيدك ثابتاً قوياً في مركزه، ومع ذلك فإنك تعرف عن نفسك كونك أكفأ منه، فانتظر الوقت المناسب وكن صبوراً. فمن طبيعة الأشياء أن تتلاشى القوة في آخر الأمر وتضعف. وسيسقط سيدك ذات يوم، فإذا مارست اللعبة بشكل صحيح، فسوف تبقى بعده وتبزه بالإشراق ذات يوم كذلك.

القانون

2

لا تضع ثقة أكثر من اللازم في الأصدقاء وتعلَّم كيف تستخدم الأعداء

الحكم

كُنْ حذراً من الأصدقاء ـ فسوف يخونونك على نحو أسرع، لأنهم يُستفزون بسهولة إلى الحسد. كما أنهم يفسدون ويصبحون طغاة. ولكن استأجر عدواً وستجد أنه يصبح أكثر ولاء من صديق، لأن عليه أن يثبت الكثير. والواقع أن لديك ما تخافه من الأصدقاء أكثر من الأعداء. فإن لم يكن لديك أعداء، فأوجد طريقة لكسب أعداء.

انتهاك القانون

في منتصف القرن التاسع للميلاد، اعتلى عرش الإمبراطورية البيزنطية شاب يدعى ميكائيل الثالث. وكانت أمه، الإمبراطورة ثيودورا، قد نفيت إلى دير للراهبات. أما عشيقها ثيوكريتوس فقد اغتيل. وكان على رأس المؤامرة لإزاحة ثويودورا عن عرشها وتنصيب ميكائيل بدلاً منها عمّ ميكائيل المدعو بارداس، وهو رجل ذو ذكاء وطموح. وكان ميكائيل حاكماً شاباً بلا خبرة، محاطاً بالمتآمرين، والقتلة، والمتهتكين المسرفين. وفي وقت الخطر الحرج كان ميكائيل بحاجة إلى شخص يثق به كمستشارٍ له. فاتجهت أفكاره إلى باسيليوس، أعز أصدقائه. ولم يكن لباسيليوس هذا أي خبرة في شؤون الحكم والسياسة ـ والواقع أنه كان رئيس الاصطبلات الملكية ـ غير أنه كان قد أثبت حبه وعرفانه مرة بعد أخرى.

للحصول على عدو جيد، اختر صديقاً: فهو يعرف أين يضرب.

ديان دي بواتيه، 1499 ـ 1566، عشيقة هنري الثاني ملك فرنسا

هذه المقولة سبقها قول العرب: يؤتى الحَذِرُ من مأمنه، وقول الشاعر:

احذر عدوك مَرّةً
واحذر صديقك ألف مَرّةْ
فلربما انقلب الصديـ
ـقُ فكان أعلم بالمضرّةْ
وكان العرب قديماً يقولون: ألف عدو خارج البيت ولا عدوٌ داخله.

(المترجم)

في كل مرة أعين فيها شخصاً بوظيفة شاغرة، أخلق مائةً من الساخطين وواحداً عاقاً ناكراً للجميل.

لويس الرابع عشر 1638 ـ 1715

كان الاثنان قد التقيا قبل ذلك ببضع سنين، عندما كان مايكل في زيارة إلى الاصطبلات بعد أن أفلت منها حصان متوحش، وكان باسيليوس، سائس الخيل الشاب المتحدر من سلالة فلاحين مقدونية، قد أنقذ حياة ميكائيل، الذي أعجبته قوة هذا السائس وشجاعته فرفعه في الحال من وظيفته المغمورة كمروض للخيل إلى منصب رئيس الاصطبلات. وأثقل كاهل صديقه الجديد بالهدايا وأنواع الحظوة حتى صارا لصيقين لا يفترقان. وتم إرسال باسيليوس إلى أحسن مدارس

بيزنطة. وتحول الفلاح الخشن إلى رجل من الحاشية مثقف ومصقول.

وعندما صار ميكائيل إمبراطوراً، احتاج إلى شخص ذي ولاء له. فمن ذا الذي يمكن أن يكون أفضل من ذلك الشاب الذي كان مديناً للإمبراطور بكل شيء، في منصب الحاجب الخاص وكبير المستشارين؟

كان من الممكن تدريب باسيليوس على هذه الوظيفة، وكان ميكائيل يحبه كأنه أخ له. فاختار ميكائيل صديقه هذا، متجاهلاً نصيحة الذين زَكّوا له بارداس الذي كان أكفأ منه بكثير.

وتعلم باسيليوس جيداً. وسرعان ما أصبح مستشاراً ينصح الإمبراطور في كل قضايا الدولة. وكانت مشكلته الوحيدة هي المال، فلم يكن باسيليوس يقنع أو يكتفي. إذ أن تعرضه لبذخ البلاط الإمبراطوري قد جعله جشعاً متعطشاً لطاووسيات السلطة. فضاعف ميكائيل راتبه، ثم أوصله إلى ثلاثة أضعاف الأصل، ورفعه إلى مرتبة النبلاء.. وزوجه من عشيقته الخاصة، يودوكسيا إينجرينا. فقد كان ميكائيل يشعر إن إرضاء مثل هذا الصديق والمستشار الموثوق شيء يعادل أي ثمن. غير أن المزيد من المتاعب كان يتربص به. ذلك أن بارداس كان قد صار قائداً للجيش، فقام باسيليوس بإقناع ميكائيل بأن ذلك الرجل كان شديد الطموح إلى حد ميؤوس منه إصلاحه. كان بارداس قد تآمر لوضع ابن أخيه على العرش، متوهماً بأنه سيتمكن من السيطرة على ميكائيل. وبإمكانه أن يتآمر كرَّةً أخرى للتخلص من ميكائيل وتتويج نفسه بدلاً منه. وهكذا ظل باسيليوس ينفث السم في أذن ميكائيل حتى وافق الإمبراطور على تدبير اغتيال عمه. وأثناء سباق كبير للخيل اندس باسيليوس وسط الجموع الحاشدة حتى اقترب من بارداس وطعنه فأرداه قتيلاً. وبعد ذلك بوقت قصير، طلب باسيليوس أن يحل محل بارداس على رأس الجيش، حيث يمكنه أن يسيطر على المملكة ويقمع أي تمرد.

فأعطاه الإمبراطور ما سأل.

وهكذا، فإنني من جهتي تعرضت للانخداع أكثر من مرة على يد مَنْ كنت أحبه أكثر من الجميع، وأثق بحبه لي أكثر من حب أي شخص آخر بحيث أصبحتُ أعتقد أنه قد يكون صحيحاً أن يحب المرء شخصاً واحداً ويخدمه أكثر من الآخرين جميعاً، حسب الأهلية والجدارة. ولكن عليه أن لا يثق كثيراً بفخ الصداقة هذا بحيث يكون لديه سبب للندم على هذه الثقة فيما بعد.

بلدازار كاستيليوني
1529 ـ 1478

وهكذا تعاظمت سلطة باسيليوس وأمواله. وعندما وقع ميكائيل في ضائقة مالية بعد ذلك بسنوات قلائل نتيجة لتبذيره وإسرافه، طلب من باسيليوس أن يسدد بعض المال الذي كان قد اقترضه على امتداد السنين. ولكن ميكائيل أصيب بصدمة وذهول عندما رفض باسيليوس، ورمق إمبراطوره بنظرة شزراء فيها من الاستقلال ما جعل ميكائيل يشعر فجأة بالمأزق الذي تورط فيه. فصبيّ الاصطبل السابق صار لديه مال، وحلفاء في الجيش وفي مجلس الشيوخ، وبالتالي سلطة أكثر مما لدى الإمبراطور نفسه. وبعد بضعة أسابيع، وذات ليلة أفرط ميكائيل في الشراب ثم أفاق ليجد نفسه محاطاً بالجنود، وقد وقف باسيليوس يتفرج بينما راح الجنود يطعنون الإمبراطور حتى أخمدوا أنفاسه. وبعد أن نصّب نفسه إمبراطوراً ركب حصانه ليتبختر عبر شوارع بيزنطة وقد رفع رأس ولي نعمته السابق، وأفضل أصدقائه على رأس رمح طويل.

التفسير

لقد رهن ميكائيل الثالث مستقبله على الشعور بالعرفان الذي ظن أن باسيليوس لا بد وأن يحس به تجاهه. فلم يشكّ في أن باسيليوس سيكون أفضل من يخدمه، فقد كان مديناً للإمبراطور بثروته، وبثقافته، وبمنصبه. وبعد ذلك عندما صار باسيليوس في السلطة، كان ميكائيل يرى أن السياسة الفضلى هي إعطاؤه كل ما يحتاج إليه، مما يعزز الروابط بين الرجلين. ولم يدرك الإمبراطور غلطته القاتلة إلاّ في ذلك اليوم المصيري الذي رأى فيه الابتسامة الوقحة على وجه باسيليوس.

لقد خلق وحشاً. وسمح لرجل بأن يرى السلطة عن قرب - وعندئذٍ تعطش ذلك الرجل إلى المزيد، وحصل على كل ما سأل، وشعر بأنه معرقَلٌ بالصدقة التي يتلقاها، ففعل - ببساطة - ما يفعله كثيرون في مثل هذا الوضع: إنهم ينسون المعروف الذي تلقوه، ويتصورون أنهم حققوا نجاحهم بمزاياهم الذاتية.

قبل كاستيليوني بخمسة قرون، اختصر أبو الطيّب المتنبي هذه الفكرة بقوله:

ولما صار ودّ الناس خباً
جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك ممن أصطفيه
لعلمي أنه.. بعض الأنام!
(المترجم)

الحيّة، والفلاّح ومالك الحزين

طلبت حية يطاردها الصيادون من فلاحٍ أن ينقذ حياتها. فلكي يخفيها الفلاّح عن مطارديها، جلس القرفصاء وسمح لها أن تزحف إلى داخل بطنه. ولكن عندما انتهى الخطر طلب الفلاّح من الحية أن تخرج، فرفضت: فقد كان المكان آمناً ودافئاً في الداخل. وفي الطريق إلى البيت رأى الرجل مالكاً الحزين، فاتجه إليه وهمس له بما قد حدث، فطلب منه الطائر أن يجلس ويحاول الحزق لإخراج الحية. وعندما أخرجت الحية رأسها التقطها مالك الحزين وسحبها وقتلها. وظل الفلاح قلقاً من احتمال بقاء سُمّها في داخله. فأخبره مالك الحزين أن علاج سم الحية هو أن يطبخ ستة طيور بيضاء ويأكلها. فقال الفلاّح: «أنت طائر أبيض، فأنت تنفع كبداية». وأمسك بمالك الحزين ووضعه في كيس وحمله إلى بيته، حيث علّقه ريثما يروي لزوجته ما حدث، فقالت له: «إنني مندهشة منك، فقد أسدى لك الطير معروفاً، وخلّصك من الشر الذي في بطنك، بل أنقذ حياتك في الواقع،

وفي لحظة إدراك ميكائل كان ما يزال قادراً على إنقاذ حياته، غير أن الصداقة والمحبة تعميان كل رجل عن مصالحه. فلا أحد يصدّق أن الصديق قد يخون. وقد استمر ميكائيل في عدم التصديق حتى اليوم الذي انتهى فيه رأسه على قناة رمح.

وانت تمسكه وتتحدث عن قتله»، ثم أطلقت مالكاً الحزين في الحال فطار بعيداً، ولكنه في طريقه اقتلع عينيها.

الحكمة: عندما ترى الماء يسيل إلى الأعلى صاعداً فوق التل، فإن هذا يعني أن هناك مَنْ يكافىء معروفاً أُسدي إليه.

قصة شعبية إفريقية

اللهم احفظني من أصدقائي؛ أما أعدائي فأنا كفيل بهم.

فولتير، 1694 ــ 1778

مراعاة القانون

بعد مضي عدة قرون على سقوط سلالة هان (في سنة 222م) راح التاريخ الصيني يسير على النمط نفسه من الانقلابات العنيفة والدامية، واحداً تلو الآخر. فأخذ رجال الجيش يتآمرون لقتل كل إمبراطور ضعيف، ثم يضعون بدلاً منه على عرش التنين جنرالاً قوياً. فيدشن ذلك الجنرال سلالة جديدة ويتوج نفسه إمبراطوراً. ولكي يضمن بقاءه كان يقتل زملاءه الجنرالات عن بكرة أبيهم. وبعد بضع سنين يُسْتَأْنَفُ النمط من جديد: فيبرز جنرالات جدد فيغتالونه أو يغتاله أبناؤه بدورهم. وكان منصب إمبراطور الصين يُشْعِرُ صاحِبَهُ بالوحدة الموحشة، إذ يحاط بقطيع من الأعداء المتربصين. فكان هذا أضعف المناصب في المملكة وأقلها أمناً.

وفي سنة 959 م، صار الجنرال تشاو كوانغ ـ يِنْ أمبراطوراً تحت اسم صونْغْ. وكان يعرف الاحتمالات، وأنه سيتعرض للاغتيال ربما في غضون سنة أو عامين: فكيف يكسر هذا النمط الروتيني الرهيب؟ وبعد وقت قصير من اعتلائه العرش أمر بإقامة وليمة للاحتفال بالسلالة الجديدة، ودعا إليها أقوى قادة الجيش. وبعد أن أفرطوا في الشراب، صرف صونغ الحرس وكل شخص آخر ما عدا الجنرالات الذين شعروا بالخوف من أن يغتالهم بضربة كاسحة ماحقة. ولكنه بدلاً من ذلك خاطبهم قائلاً: «إن اليوم كله ينقضي في التخوف. وأنا لست سعيداً على

المائدة ولا في فراشي. فمن منكم لا يحلم باعتلاء العرش؟ أنا لا أشك في ولائكم. ولكن إذا حدث أن قام تابعوكم، في غمرة بحثهم عن الثراء والمنصب، بفرض الرداء الأصفر عليكم أكنتم تقدرون على رفضه عندئذٍ؟» فأعلن الجنرالات، وهم سكارى وخائفون على حياتهم، براءتهم وولاءهم له. غير أن صونغ كانت لديه أفكار أخرى: «إن أفضل طريقة يزجي بها المرء أيامه هي في التمتع بالثروة والشرف في سلام. فإذا كنتم مستعدين للتخلي عن قياداتكم، فأنا مستعد لتزويدكم بأملاك جيدة ومساكن جميلة، حيث تستمتعون بمسراتكم في صحبة المغنين والفتيات».

ولذا، فإن هناك كثيرين يعتقدون أن الأمير الحكيم ينبغي عليه ـ كلما سنحت له الفرصة ـ أن يثير بدهائه شيئاً من العداوة، كي يعزز هيبته وعظمته بقمعها. فالأمراء، وخصوصاً الجدد منهم، يجدون إخلاصاً وفائدة فيمن كانوا ينظرون إليهم في البداية بتشكك وارتياب، أكثر ممن وثقوا بهم في بادىء الأمر. ذلك أن باندولفو بتروسي، أمير سيينا، قد حكم دولته بالذين كان يشك فيهم أكثر مما حكمها بالآخرين.

نيقولو ماكيافيللي
1469 ـ 1527

وأدرك الجنرالات المذهولون أن صونغ كان يقدم لهم الغنى والأمن بدلاً من حياة القلق والكفاح. فقدموا استقالاتهم جميعاً في اليوم التالي، وتقاعدوا كنبلاء في الممتلكات العقارية التي منحهم إياها صونغ.

وهكذا بجرة قلم، استطاع صونغ أن يحول قطيعاً من الذئاب «الصديقة» التي كان من المحتمل أن تخونه، إلى مجموعة من الحملان الوديعة المطيعة، بعيداً عن كل سلطة.

وعلى امتداد السنوات القليلة التالية استمر صونغ في حملته لتأمين حكمه. وفي سنة 971م، استسلم له أخيراً الملك ليو، ملك ولاية هان الجنوبية بعد سنوات طويلة من التمرد. وذهل ليو عندما أعطاه صونغ رتبة ومكانة في البلاط الإمبراطوري، ودعاه إلى القصر ليضفي على هذه الصداقة الجديدة بينهما طابعاً رسمياً يدشنه بالشراب. وعندما تناول ليو الكأس التي قدمها له صونغ تردد، خشية أن تكون مسمومة، فصرخ: «إن جرائم تابعكم تستحق الموت بالتأكيد.. ولكنني أتوسل إلى جلالتكم أن تبقوا على حياة تابعكم. إنني لا أجرؤ حقاً على تناول الشراب» فضحك الإمبراطور صونغ، وأخذ الكأس من ليو وشربها بنفسه. لم يكن فيها سمّ. ومنذ ذلك الحين صار ليو من أشد أصدقائه الموثوقين ولاءً له.

وفي ذلك الوقت كانت الصين مبعثرة إلى عدد كبير من الممالك الصغيرة. وعندما اندحر شيان شو، ملك إحداها، تلقى الإمبراطور صونغ نصيحة من وزرائه بحبس هذا المتمرد، وقدموا وثائق تثبت أنه مستمر في التآمر لقتل صونغ، غير أنه عندما جاء شيان شو لزيارة الإمبراطور كرمه صونغ بدلاً من أن يحبسه، وأعطاه صرّة أمره أن يفتحها وهو في منتصف الطريق إلى موطنه. وفتح شيان شو الصرّة في رحلة عودته فوجد أنها تحتوي على الأوراق التي توثق مؤامرته، فأدرك أن صونغ كان على علم بخطته المميتة، ومع ذلك أبقى على حياته. فكسبه هذا الكرم. فصار هو الآخر من أخلص أتباع صونغ.

يعرض برهميٌ من كبار الخبراء في الفيدا (مجموعة الكتب القديمة الأربعة المقدسة عند الهندوس) كان قد أصبح أيضاً راهباً عظيماً، تقديمَ خدماته لصديقه القديم، الذي أصبح ملكاً فيصرخ البرهمي عندما يرى الملك: «تعرّف عليّ، فأنا صديقك!» فيجيبه الملك باحتقار، موضحاً له: «نعم. لقد كنا صديقين من قبل، ولكن صداقتنا كانت تقوم على ما لدينا من سلطة... لقد صادقتك، أيها البرهميّ الطيِّب، لأن ذلك كان يخدم غرضي». فلا فقيرَ يُصادق الأغنياء، ولا أحمق يُصادق العقلاء، ولا جبان يُصادق الشجعان. فمن يحتاج إلى صديق قديم؟ إن مَنْ يعقد الصداقة والزواج هما شخصان متكافئان في الثروة وأصالة المحتد، وليس رجلاً غنياً وآخر مدقع الفقر. صديق قديم؟ من يحتاج إليه؟

المهابهاراتا
ملحمة هندية من القرن الثالث ق. م

التفسير

يقارن مثل صيني بين الأصدقاء وبين فَكَّيْ حيوان خطر وأسنانه: فإن لم تكن حريصاً فسوف تجد أنهم يمضغونك. وكان الإمبراطور صونغ يعرف الفكين اللذين وجد نفسه بينهما عندما تسنم العرش: كان «أصدقاؤه» في الجيش سيمضغونه وكأنه قطعة لحم، وكان يعلم أنه إذا نجا منهم بطريقة مّا، فإن «أصدقاءه» في الحكومة سوف يتعشون به. ولم يشأ الإمبراطور صونغ أن تكون له خلطة أو علاقة مع «الأصدقاء» ـ فرشا زملاءه الجنرالات بأملاك رائعة وأبقاهم بعيدين عنه. فكانت هذه طريقة لِخَصْيِهِمْ أفضل من قتلهم، مما كان سيجعل جنرالات آخرين يبحثون عن الانتقام لهم. ولم يشأ صونغ أيضاً أن تكون له علاقة بالوزراء «الأصدقاء». إذْ سينتهي به الأمر على الأغلب إلى شرب الكأس الشهيرة من الشراب المسموم.

وبدلاً من الاعتماد على الأصدقاء، استخدم صونغ أعداءه، واحداً بعد الآخر، فحوّلهم إلى رعايا موثوق بهم أكثر بكثير من غيرهم. فبينما يتوقع الصديق المزيد والمزيد من عطايا الحظوة، وتجيش نفسه بالغيرة فإن هؤلاء الأعداء السابقين لم يكونوا يتوقعون شيئاً، فحصلوا على كل شيء. فالرجل الذي يعفى فجأةً من الموت في المقصلة هو رجل مليء

بالعرفان حقاً. وسيذهب إلى أقاصي الأرض من أجل الرجل الذي عفا عنه. ومع مرور الزمن صار هؤلاء الأعداء السابقون أخلص الأصدقاء الموثوق بهم لدى صونغ.

إلتقِطْ نحلةً بدافع الشفقة، وتعلَّم حدود الشفقة
مَثَلٌ صوفي

واستطاع صونغ أخيراً أن يحطم نمط الانقلابات والعنف والحرب الأهلية، فحكمت سلالته الصين أكثر من ثلاثمائة عام.

في خطاب ألقاه ابراهام لنكولن في أوج أيام الحرب الأهلية أشار إلى الجنوبيين باعتبارهم زملاء في الإنسانية ممن هم على خطأ. فوبخته سيدة عجوز لأنه لم يصفهم كأعداء لا يمكن التصالح معهم، ويجب تدميرهم. فرد عليها لنكولن: «يا سيدتي: ألا أدمّر أعدائي عندما أجعلهم أصدقائي؟».

مفاتيح السلطة

الناس مستعدون للرد على الأذى أكثر من استعدادهم لمكافأة الإحسان، لأن العرفان بالجميل عبء، أما الانتقام فمسرة.
تاسيتوس (مؤرخ روماني) حوالى 55 ـ 120 م

من الطبيعي أن ترغب في استخدام أصدقائك عندما تجد نفسك في حاجة. فالعالم مكان قاسٍ، وأصدقاؤك يُلَيِّنون قسوته الخشنة. وبالإضافة إلى ذلك فإنك تعرفهم. فلماذا الاعتماد على غريب عندما يكون لديك صديق قريب منك؟

إن المشكلة هي أنك غالباً ما لا تعرف أصدقاءك معرفة جيدة كما تتخيل. فكثيراً ما يتفق الأصدقاء على أشياء لكي يتجنبوا النزاع. فهم يغطون صفاتهم الكريهة كي لا يهين أحدهم الآخر. ويضحك كل منهم بشدّة من نكت الآخر. وبما أن الصداقة نادراً ما يقوِّيها الإخلاص فإنك قد لا تعرف أبداً كيف يشعر الصديق بالفعل. فقد يقول لك الأصدقاء إنهم يحبون شِعرك، ويعبدون موسيقاك، ويغبطونك على ذوقك في الملابس، وقد يقصدون ذلك، ولكنهم على الأغلب لا يقصدونه.

فعندما تستأجر صديقاً فإنك تبدأ بالتدريج في اكتشاف الخصال التي أخفاها (أو أخفتها). ومن الغريب حقاً أن عمل العطف الذي بادرتَ إليه هو الذي يحدث الخلل في توازن كل شيء. إذ أن الناس يريدون أن

يشعروا بأنهم يستحقون حظهم الطيب. وقد يصبح تلقيهم للمعروف شيئاً ضاغطاً خانقاً: فمعناه أنك تقول للصديق: لقد وقع الاختيار عليك لأنك صديق، وليس بالضرورة لأنك مستحق. ويكاد يكون هناك شيء من التنازل في عملية استئجار الأصدقاء يجرحهم ويؤذيهم. ويخرج الأذى إلى العلن ببطء: فيبدو قليل من الإخلاص الزائد، تليه ومضات من الغضب والحسد هنا وهناك.. وقبل أن تعرف ما الذي يجري تتلاشى صداقتك. وكلما زادت أعمال المعروف والهدايا التي تقدمها لإحياء الصداقة، قلّ العرفان الذي تتلقاه.

وعدم العرفان له تاريخ طويل وعميق. وقد ظهرت آثار قوته، على امتداد قرون عديدة، إلى درجة أنه بات من المذهل أن يستمر الناس في التقليل منها. إن من الأفضل لك أن تكون على حذر. فإن لم تتوقع أي عرفان من صديق، فإنه سيبدو لك من المفاجآت السارة أن تجد لدى الأصدقاء عرفاناً.

والمشكلة في استخدام صديق واستئجاره هي أن ذلك سيحدّ من سلطتك حتماً. فالصديق نادراً ما يكون أكثر الناس قدرة على مساعدتك؛ وفي خاتمة المطاف فإن المهارة والكفاءة أهم بكثير من المشاعر الودية (فميكائيل الثالث كان لديه تحت أنفه مباشرةً رجلٌ كان بإمكانه أن يوجهه بشكل صحيح ويبقيه حياً: وكان ذلك الرجل هو بارداس).

إن كل أوضاع العمل تتطلب نوعاً من المسافة الفاصلة بين الناس. فأنت تحاول أن تعمل، لا أن تكوّن صداقات. والصداقة (حقيقة كانت أم مزيفة) لا تفعل شيئاً سوى طمس هذه الحقيقة. فمفتاح السلطة إذن هو قدرتك على أن تحكم مَنْ هو أقدر الناس على ترويج مصالحك في الأحوال كلها. احتفظ بالأصدقاء للصداقة، ولكن اعمل مع المهرة والأكفاء.

أما أعداؤك من الجهة الأخرى، فهم منجم ذهب بكر لم يمسّ،

الاستفادة من أعدائنا

تصادف ذات مرة، عندما كان الملك هيرو يتكلم مع واحد من أعدائه، أن أخبره ذلك العدو بلهجة فيها تقريع بأن رائحة أنفاسه كريهة. ففزع الملك الطيّب من معرفة ذلك من نَفَسِه، وحالما عاد إلى البيت راح يوبّخ زوجته: «كيف حدث أنك لم تخبريني قطّ عن هذه المشكلة؟» وكانت الزوجة سيّدة بسيطةً عفيفة غير مؤذية، فقالت: «يا سيّدي، لقد كنت أظنّ أنّ أنفاس الرّجال جميعاً لها مثل هذه الرائحة». وهكذا، فإن من الواضح أن العيوب الواضحة للحواس، والغليظة، والجسديّة أو السافرة بشكل آخر أمام العالم، نعرفها من أعدائنا أسرع مما نعرفها من أصدقائنا ومعارفنا.

بلوتارخ (فيلسوف أخلاقي روماني وكاتب سير تاريخية)
حوالى 46 ـ 120م

وعليك أن تتعلم كيف تستغله. فعندما أدرك تاليران، وزير خارجية نابليون، في سنة 1807، أن رئيسه يقود فرنسا إلى الخراب، وأن الوقت قد حان للانقلاب عليه، فَهِمَ أخطار التآمر على الإمبراطور، فكان بحاجة إلى شريك يتحالف معه في التآمر. فبأي صديق يثق في مثل هذا المشروع؟ اختار جوزيف فوشيه، رئيس الشرطة السرية، وأكره أعدائه لديه، والرجل الذي حاول أن يعرّض تاليران للاغتيال. وكان تاليران يعرف بأن كراهيتهما السابقة ستخلق فرصة لمصالحة عاطفية. وكان يعلم أن فوشيه لا يتوقع منه شيئاً، وأنه سيعمل ليثبت أنه جدير باختيار تاليران؛ فالشخص الذي لديه شيء يجتهد لإثباته سيزيح الجبال لأجلك. وأخيراً كان يعرف أن علاقته مع فوشيه ستكون قائمة على المصلحة الذاتية المتبادلة، ولن تلوثها الأحاسيس الشخصية. وثبت أن هذا الاختيار كان كاملاً؛ فعلى الرغم من عدم نجاح المتآمرين في إسقاط نابليون، فإن اتحاد مثل هذين الشريكَيْن القويَّيْن ولكن غير المحتَمَلَيْن قد ولّد كثيراً من الاهتمام بقضيتهما؛ فبدأت المعارضة للإمبراطور تَنتشر ببطء. ومنذ ذلك الحين فصاعداً كان لدى تاليران وفوشيه علاقة عمل مثمرة. فحاول أن تدفن خلافاتك مع عدوك كلما استطعت، وتوخَّ أن تتعمد أن تضعه في خدمتك.

وكما قال لنكولن فإنك تدمر عدواً عندما تحوله إلى صديق. ففي سنة 1971، أثناء الحرب الڤيتنامية، كان هنري كيسنجر هدفاً لمحاولة خطف فاشلة، في مؤامرة تورط فيها ـ بين آخرين ـ الأخوان بيريغان، وهما قسيسان اشتهرا بنشاطهما في معاداة حرب ڤيتنام، وأربعة قساوسة كاثوليكيين وأربع راهبات. فقام كيسنجر بشكل خاص، وبدون إعلام مخابرات وزارة العدل بترتيب لقاء صباح يوم سبت مع ثلاثة من الخاطفين المزعومين. وشرح لضيوفه أنه سيُخْرِجُ معظم الجنود الأميركيين من ڤيتنام بحلول منتصف سنة 1972، فسحرهم سحراً كاملاً. فأعطوه بعض أزرار عملية «خطف كيسنجر»، وظلّ أحدهم صديقاً له

على مدى سنوات وزاره في عدة مناسبات. ولم تكن هذه حيلة أو خدعة تمارس مرة واحدة: بل إن كيسنجر جعل من سياسته أن يعمل مع الذين لا يوافقونه الرأي. وعلق زملاؤه على ذلك بالقول: إنه ينسجم مع أعدائه أفضل مما يفعل مع أصدقائه.

فبدون أعداء حولنا نصبح كسالى، ووجود عدو في أعقابنا يشحذ فطنتنا، ويحافظ على تركيزنا ويقظتنا. وإذن، فإن من الأفضل أحياناً استخدام الأعداء كأعداء بدلاً من تحويلهم إلى أصدقاء أو حلفاء.

وكان ماوتسي تونغ يرى الصراع كمفتاح لتوجهه نحو السلطة. وفي سنة 1937، غزا اليابانيون الصين، فقاطعوا الحرب الأهلية التي كانت دائرة بين الشيوعيين التابعين لماو وبين أعدائهم، الوطنيين.

وخشي بعض الشيوعيين من أن يمحقهم اليابانيون، فتبنّوا فكرة ترك الوطنيين يقاتلون وحدهم اليابانيين، واستخدام الوقت ليتعافوا ويستجمعوا. ولم يوافق ماو: فاليابانيون لا يمكنهم أن يدحروا ويحتلوا بلداً شاسع المساحة كالصين مدة طويلة. وعند مغادرتهم سيكون الشيوعيون قد صدئوا إن كانوا قد خرجوا من القتال سنوات عديدة، ولن يكونوا مهيأين جيداً لإعادة فتح النضال مع الوطنيين. بل إن قتال عدو رهيب كاليابانيين سيكون تدريباً كاملاً لجيش الشيوعيين الرثّ المتداعي. وتم تبنّي خطة ماو، فنجحت: وعندما تراجع اليابانيون في خاتمة المطاف كان الشيوعيون قد كسبوا خبرة قتالية مكنتهم من هزيمة الوطنيين.

وبعد ذلك بسنوات، حاول زائر ياباني أن يعتذر إلى ماو عن غزو بلده للصين، قاطعه ماو: «أليس من واجبي أن أشكرك بدلاً من ذلك؟». وأوضح أن المرء أو المجموعة من الناس لا يمكن أن يصبح أو يصبحوا أقوياء بدون خصم ذي جدارة.

وكانت هناك مكونات هامة عديدة لخطّة ماو البعيدة المدى. أولها

أن عليك أن تكون واثقاً من خروجك منتصراً على المدى البعيد فلا تختر قتالاً مع مَنْ أنت غير متأكد مِنْ قدرتك على دحره. فقد كان ماو يعرف أن اليابانيين سيهزمون في الوقت المناسب. وثانياً: إن لم يكن لديك أعداء ظاهرون، فإن عليك أحياناً أن تضع لنفسك هدفاً حتى ولو حَوَّلْتَ صديق إلى عدو. وقد استخدم ماو هذه الوسيلة مرة بعد أخرى في السياسة. وثالثاً: استخدم مثل هؤلاء الأعداء لتحديد أهدافك على الملأ بوضوح أكبر، بل حتى وضعها في إطار نضال الخير ضد الشر. فقد شجع ماو خلافات الصين مع الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة؛ ذلك أنه كان يعتقد أنه بدون أعداء واضحين محددين، فإن شعبه سيفقد الإحساس بمعنى الشيوعية الصينية. فالعدو المحدد بدقة حادة هو حجة لجانبك أقوى بكثير من كل الكلمات التي يمكنك تجميعها معاً.

وإياك أن تجعل وجود الأعداء يقلقك أو يضايقك. فعندما يكون لديك خصم معلن معروف أو اثنان فإنك ستكون أفضل حالاً بكثير مما لو كنت تجهل مكان أعدائك الحقيقيين. إن رجل السلطة يرحب بالنزاع، مستخدماً أعدائه لتعزيز سمعته كمقاتل ثابت القدمين يمكن الاعتماد عليه في أوقات القلق وانعدام اليقين.

صورة: فكّا عدم العرفان: إن معرفتك بما سيحدث إذا وضعت إصبعك في فم الأسد، سوف تجعلك تبقى بعيداً. ومع الأصدقاء، لن يكون لديك مثل هذا الحذر فإذا استأجرتهم فسوف يأكلونك حياً، مع عدم الشعور بالعرفان.

الشاهد: اعرف كيف تستخدم أعداءك لفائدتك الخاصة. إن عليك أن تتعلم أن لا تمسك بالسيف من نصله الذي سيجرحك بل من مقبضه، الذي يسمح لك بالدفاع عن نفسك. فالرجل العاقل يستفيد من أعدائه أكثر مما يستفيد الأحمق من أصدقائه.

بلثازار غراسيان
(1601 – 1658)

الانقلاب

رغم أن من الأفضل بوجه سنة أن لا يخلط المرء العمل بالصداقة، فإن هناك أوقاتاً يمكن فيها استخدام الصديق بفاعلية أكبر من استخدام العدو. وعلى سبيل المثال فإن رجل السلطة كثيراً ما يكون لديه عمل قذر يتعين إنجازه. ولكن للحفاظ على المظاهر فإن من الأفضل على وجه العموم أن يدع أناساً غيره يقومون به؛ والأصدقاء غالباً يؤدون ذلك على أفضل وجه، لأن عاطفتهم الودية تجاهه تجعلهم مستعدين للقيام بمغامرات. وإذا أخفقت خططك لسببٍ مّا، فإن من المفيد أن يكون في متناولك كبش فداء مناسب. وهذا «السقوط لصاحب الحظوة» خدعة طالما استخدمها الملوك وأصحاب السلطان: إذ يتركون أقرب الأصدقاء في بلاطهم يتعرضون للسقوط بسبب علطة، ما دام عامة الناس لا يريدون أن يصدقوا أنهم يضحون عمداً بصديقٍ من أجل هذا الغرض. وبالطبع، فإنك بعد لعب هذه الورقة تكون قد خسرت صديقك إلى الأبد. فمن الأفضل إذن الاحتفاظ بدور كبش الفداء لصديق مقرب منك ولكنه غير لصيق بك أو وثيق لديك.

وأخيراً، فإن مشكلة العمل مع الأصدقاء هي الخلط بين الحدود والمسافات التي يتطلبها العمل. ولكن إذا كان الشريكان في هذا الترتيب متفهمين للأخطار التي ينطوي عليها فإن الصديق غالباً ما يمكن استخدامه بفاعلية عظيمة. وعليك أن لا تتخلى عن حذرك وحرصك في مشروع كهذا على أية حال؛ وابحث دائماً عن أية علامات على اضطراب عاطفي كالحسد وعدم العرفان. فلا يوجد شيء مستقر في ميدان السلطة، وحتى أقرب الأصدقاء يمكن تحويلهم إلى أسوأ الأعداء.

القانون

3

اخْفِ نواياك

الحكم

أبْقِ الناس في حالة عدم توازن وفي الظلام بعدم الكشف عن الغرض من وراء أعمالك، لأنهم إن لم يكن لديهم أي مؤشر على نواياك، فلن يستطيعوا تهيئة دفاع. دعهم يقطعون مسافة بعيدة عبر الطريق الخاطىء، وطوقهم بكمية كافية من الدخان، بحيث يكون الأوان قد فات عندما يدركون مقاصدك.

القسم الأول: استخدم أهدافاً مموهة وأشياء ملهية تبعد الناس عن الأثر

إذا حدث في أي وقت أثناء الخداع الذي تمارسه أن خامر الناسَ أدنى شك في ماهية نواياك، فقد ضاع كل شيء. لا تعطهم فرصة تحسس ما الذي تهدف إليه: أبعدهم عن الهدف بوضع أشياء تضليلية في طريقهم كي يتلهوا بها عن الشيء الحقيقي. استخدم الإخلاص المزيف والإشارات الغامضة. وضع أهدافاً مضلِّلة لرغباتك. فعندما يعجز الناس عن تمييز الأصيل من الزائف، فإنهم لن يقدروا على معرفة هدفك.

انتهاك القانون

على مدى أسابيع عديدة، ظلت نينو دي لينكول، الغانية المحظية صاحبة أشنع سمعة في فرنسا في القرن السابع عشر، تنصت بصبر إلى المركيز دي سيفيني وهو يشرح صراعه في مطاردة كونتيسة جميلة شابة، ولكنها صعبة المنال. وكانت نينو في الثانية والستين من عمرها آنذاك، وأكثر من خبيرة في قضايا الغرام؛ أما المركيز فكان فتى في الثانية والعشرين، وسيماً، جريئاً ولكنه ناقص الخبرة في العشق والهيام بشكل ميؤوس منه. وفي بادىء الأمر استمتعت نينو بالاستماع إلى المركيز وهو يتحدث عن أخطائه. ولكنها شعرت في آخر الأمر أنها تلقت ما فيه الكفاية. وبما أنها لم تكن تطيق العجز الأحمق في أي مجال، ولا سيما في مجال إغواء النساء، فقد قررت أن تأخذ هذا الشاب تحت جناحها.

كان عليه أولاً أن يفهم أن هذه حرب، وأن الكونتيسة الجميلة قلعة يتعيَّن عليه أن يحاصرها بعناية ودقة أي جنرال، أو قائد حربي. ويجب تخطيط كل خطوة وتنفيذها بأقصى قدر من التنبه للتفاصيل والظلال.

وأصدرت نينو تعليماتها للمركيز بأن يبدأ معركته بالزحف إلى الكونتيسة من بعيد، وبشيء من رباطة الجأش وعدم الاكتراث. قالت له إنهما عندما يكونان وحدهما في المرة التالية فإن عليه أن يصارح الكونتيسة بأنه يريد أن يثق بها ويستشيرها كصديق، وليس كعشيق محتمل. وذلك لإبعادها عن استشعار أثر توجهه. بحيث لا تعود لأخذ اهتمامه بها كتحصيل حاصل أو شيء لا يؤبه له، فلعله ليس مهتماً إلاً بصداقتها.

وعمدت نينو إلى التخطيط المسبق، فعندما تختلط الأمور على الكونتيسة وتحتار، يحين وقت جعلها تغار. ففي المقابلة التالية، في أحد الاحتفالات الكبرى في باريس، يظهر المركيز وإلى جانبه امرأة جميلة شابة، لها صديقات في مثل جمالها، بحيث كلما شاهدت الكونتيسة المركيز فستراه محاطاً بأكثر شابات باريس إثارة للذهول. وهكذا لن تجيش نفس الكونتيسة بالغيرة فحسب، بل سترى بعينيها أن المركيز شخص مرغوب فيه لدى الآخرين. وقد وجدت نينو صعوبة في جعل المركيز يفهم الخطة. ولكنها شرحت له في صبر وأناة أن المرأة المهتمة برجلٍ ما تريد أن ترى أن النساء الأخريات مهتمات به كذلك. فهذا لا يعطيه قيمةً فوريةً فحسب، بل يجعل من الأهمية بمكان أن تستطيع المرأة المهتمة به أن تختطفه من براثنهن.

وعندما تصبح الكونتيسة غَيْرى وأسيرة كيد النساء، يحين أوان مخاتلتها. وحسب تعليمات نينو يبدأ المركيز في تجنب الظهور في المناسبات التي تتوقع الكونتيسة أن تراه فيها. ثم يبدأ فجأة بالظهور في صالونات لم يكن يرتادها قطّ من قبل، ولكن الكونتيسة كثيراً ما تحضرها. وهكذا تعجز عن التنبؤ بحركاته. فيدفعها هذا كله إلى حالة

من الارتباك العاطفي الذي هو أحد الشروط المسبقة لنجاح عملية الإغواء.

ونُفِّذت هذه الحركات، واستغرقت أسابيع عديدة، وكانت نينو تراقب تقدم المركيز فيها. وعن طريق شبكة جواسيسها راحت تسمع كيف تضحك الكونتيسة بشكل أشد على نوادره ونكته. وتنصت إلى قصصه بصورة أوثق. ثم سمعت بأن الكونتيسة راحت فجأة تطرح أسئلة عنه. وأخبرها أصدقاؤها أن الكونتيسة كثيراً ما تبحث عنه في المناسبات الاجتماعية وتتبع خطواته. وأيقنت نينو أن الكونتيسة أخذت تقع تحت تأثير سحره. وهكذا أصبحت المسألة مسألة بضعة أسابيع، وربما شهر أو شهرين، وتسقط القلعة.

وبعد بضعة أيام كان المركيز في بيت الكونتيسة، وكانا وحدهما. وفجأة تحوَّل إلى رجل مختلف، وأخذ هذه المرة يتحرَّك بدافع من حوافزه الخاصة، بدلاً من اتباع تعليمات نينو. فتناول يد الكونتيسة وأخبرها بأنه قد وقع في غرامها، فبدا على المرأة الشابة ارتباك محيّر، وهو رد فعل لم يكن يتوقعه. فأصبحت مهذبة واعتذرت له، وتجنَّبت النظر إلى عينيه طيلة الجزء الباقي من الأمسية. وفي المرات القليلة التالية التي زارها فيها كان يقال له إنها ليست في البيت. وعندما سمحت له برؤيتها في المرة التالية، شعر كل منهما بالحرج وعدم الارتياح من تواجدهما معاً. فقد تحطَّم أثر السحر.

التفسير

كانت نينو دي لينكول تعرف كل شيء عن فن الغرام. فقد كان من بين عشاقها أعظم الكتَّاب، والمفكِّرين والسياسيين في ذلك العصر، من أمثال لاروشفوكو وموليير وريشيليو. وكان الإغواء عندها لعبة تتعيَّن ممارستها ببراعة. ومع تقدمها في السن تعاظمت سمعتها بحيث راحت أهم الأسر في فرنسا ترسل إليها أبناءها ليتلقوا دروساً في قضايا الحب.

وكانت نينو تعرف أن الرجال والنساء مختلفون جداً، أما عندما يتعلق الأمر بالإغواء فإن الجميع يتابهم الشعور نفسه، ففي أعماقهم غالباً ما يتحسسون بأنهم يتعرضون للغواية، غير أنهم يستسلمون لأنهم يستمتعون بالشعور بالانقياد. فمن اللذيذ أن يتركوا زمام الأمور ينفلت، وأن يسمح المرء لشخص آخر باقتياده إلى ميدان غريب. غير أن كل شيء في الغواية يعتمد على الإيحاء. فأنت لا تستطيع أن تعلن نواياك وتكشفها مباشرة بالكلمات. وبدلاً من ذلك يتعيَّن عليك أن تضلِّل طرائدك عن الأثر. ولكي تجعلها تستسلم لقيادتك يجب إيقاعها في الحيرة والارتباك بالطريقة المناسبة. فعليك أن ترسل إشارات مختلطة وغير منتظمة، كأن تظهر اهتمامك برجل آخر أو امرأة أخرى (الطريدة الوهمية) ثم تلمِّح إلى اهتمامك بالطريدة المستهدفة، ثم تتظاهر بعدم المبالاة وتستمر في ذلك رويداً رويداً. ذلك أن مثل هذه الأنماط لا تؤدي إلى الحيرة فحسب، بل وإلى الاستثارة كذلك.

وتخيَّل القصة من وجهة نظر الكونتيسة: فبعد عدد قليل من تحركات المركيز، شعرت بأنه يمارس لعبة من نوعٍ مّا، ولكن اللعبة أَمْتَعَتْها. فلم تكن تدري إلى أين يقودها، ولكن ذلكَ كان أفضل وأشد إغراء لأن حركاته أثارت فضولها، بحيث جعلتها كل حركة تنتظر الحركة التي تليها. بل لقد استمتعت بغيرتها وحيرتها لأن أية عاطفة أفضل من الأمان الذي يشعرها بالسأم. فلعل للمركيز دوافع خفية، كما هي الحال لدى معظم الرجال. غير أنها كانت مستعدة للانتظار والترقب، ولو تركت تنتظر وقتاً كافياً فإن ما يهدف إليه لن يعود ذا أهمية تذكر.

غير أنه في اللحظة التي تلفظ فيها (المركيز) بكلمة «الحب» القاتلة تغير كل شيء. فلم تعد هذه لعبة لها حركاتها، بل عرضاً لا براعة فيه ولا تفنّن لعاطفة جيَّاشة. وهكذا انكشفت نيته: كان منهمكاً في إغوائها فعلاً. فأدَّى ذلك إلى تسليط ضوء جديد على كل ما قام به. وكل ما كان يبدو ساحراً آسراً من قبل ظهر على حقيقته كنوع من التآمر القبيح.

فشعرت الكونتيسة بالارتباك لأنها قد استُغِلَّت. فأُغلِق بابٌ لن يُفْتَح مرَّة أخرى أبداً.

> لا تنكشف كمخادع، حتى ولو كان من المستحيل أن يعيش المرء اليوم إلاَّ كمخادع. ودع أعظم دهاء لك يكمن في تغطية ما يبدو دهاء.
>
> (بلثازار غراسيان، 1601 ـ 1648)

مراعاة القانون

في سنة 1850، شهد أوتو فون بسمارك، الذي كان في الخامسة والثلاثين من عمره، وهو نائب في البرلمان البروسي، نقطة تحوّل في حياته العملية. وكان موضوع الساعة آنئذ هو توحيد الدويلات العديدة (بما فيها بروسيا) التي كانت تنقسم إليها ألمانيا، وحرب ضد بروسيا الجارة الجنوبية القوية التي كانت تأمل في إبقاء الألمان ضعفاء ومختلفين، بل وتهدِّد بالتدخّل إن حاولوا أن يتَّحدوا. وكان الأمير وليام، ولي عهد بروسيا وملكها التالي، يؤيد شن الحرب، وقد التفَّ البرلمان حول القضية، وكان مستعداً لدعم أية تعبئة للقوات. وكان المعارضون الوحيدون للحرب هو الملك آنذاك، فريدريك وليام الرابع، ووزراؤه الذين كانوا يفضِّلون تهدئة النمسويين الأقوياء.

وكان بسمارك طيلة حياته العملية مؤيداً مخلصاً، بل ومحبّاً بعاطفة عنيفة لقوة بروسيا وعظمتها. وكان يحلم بتوحيد ألمانيا وبشن الحرب على النمسا، وإذلال البلد الذي طالما حاول إبقاء ألمانيا مجزأة. كان بسمارك جندياً سابقاً يرى الحرب عملاً مجيداً.

وبعد كل شيء، كان هذا هو الرجل الذي سيقول في وقت لاحق: «إن أعظم مسائل زماننا سوف لا تحسمها الخطب والقرارات، بل الحديد والدم».

وعلى الرغم من كون بسمارك وطنياً متحمساً، ومحباً للمجد

العسكري، فقد ألقى خطاباً في البرلمان في أوج حمَّى الحرب أذهل كل الذين استمعوا له. قال: «ويل للسياسي الذي يشن حرباً بدون سبب وتظل أسبابها قائمة وحقيقية بعد انتهاء الحرب! فبعد الحرب ستنظرون جميعاً إلى هذه المسائل بطريقة مختلفة. فهل ستجدون عندئذ شجاعة تمكِّنكم من النظر إلى الفلاح الذي يتأمَّل رماد مزرعته المحترقة، وإلى الرجل الذي صار مقعداً كسيحاً، والأب الذي فقد أولاده؟». ولم يكتف بسمارك بالاستطراد في الحديث عن جنون هذه الحرب، بل الأغرب من كل شيء أنه راح يمتدح النمسويين ويدافع عن أعمالهم. وكان ذلك ضد كل ما يمثله بسمارك. فكانت نتائج ذلك فورية. إذْ مَا المعنى المحتمل لوقوف بسمارك ضد الحرب؟ تحيّر النواب الآخرون، وغيَّر العديدون منهم أصواتهم. وفي آخر الأمر فاز الملك ووزراؤه بما أرادوا، وتم تجنب الحرب.

وبعد بضعة أسابيع من ذلك الخطاب سيّء الصيت، قام الملك، عرفاناً منه بحديث بسمارك تأييداً للسلام، بتعيينه وزيراً في الحكومة. وبعد بضع سنين صار رئيساً لوزراء بروسيا. وبذلك الدور قاد بلده وملكه المحب للسلام إلى حرب ضد النمسا في آخر الأمر، فسحق الإمبراطورية السابقة، وأقام دولة ألمانية عظمى تقف على رأسها بروسيا.

التفسير

في زمن الخطاب، سنة 1850، أجرى بسمارك حسابات عديدة. فأولاً كان يشعر بأن المؤسسة العسكرية البروسية، التي لم تواكب الجيوش الأوروبية الأخرى لم تكن مستعدة للحرب، وأن النمسا يمكن في الحقيقة أن تكسب الحرب، وتلك نتيجةٌ كارثية على المستقبل، وثانياً إذا خسرت بروسيا حرباً كان بسمارك قد أيَّدها، فإن ذلك سيكون خطراً جسيماً على حياته العملية. وكان الملك ووزراؤه المحافظون جانحين إلى السلم؛ وكان بسمارك يبغي السلطة. فكان الجواب هو إبعاد الناس عن الأثر بتأييد قضية كان يحتقرها، وقول أشياء لو قالها غيره لضحك

عليها. وهكذا خدع بلداً بأكمله. فقد جعله الملك وزيراً بسبب خطابه ذاك. . وهو منصب صعد منه إلى سدة رئاسة الوزراء.

ومن المؤكد أن بسمارك كان أذكى رجل دولة على الإطلاق. فلم يَشُكَّ أحدٌ في نواياه في هذه الحالة. ولو أعلن نواياه، متذرِّعاً بأن من الأفضل الانتظار الآن والقتال في المستقبل، لما كسب النقاش، إذْ أن أغلبية البروسيين كانت تريد الحرب، وتعتقد خطأ أن الجيش البروسي متفوّق على النمسويين. ولو تملَّق الملك، وطلب منه أن يعيِّنه وزيراً في مقابل تأييده للسلام، لما نجح في ذلك أيضاً: إذ أن الملك ما كان ليثق في طموحه، بل لَشَكَّ في إخلاصه.

غير أنه خدع الجميع بكونه غير مخلص إطلاقاً، وبإرساله إشارات مضلِّلة، فأخفى قصده، وحصل على ما أراد. فهذه هي القدرة على إخفاء النوايا.

مفاتيح السلطة

إن معظم الناس كتب مفتوحة، فهم يقولون ما يشعرون به. فيتفوَّهون بآرائهم في كل مناسبة، ويكشفون خططهم ونواياهم على الدوام، لعدة أسباب. فأولاً: إن من السهل والطبيعي أن يتحدَّث المرء عن مشاعره وخططه للمستقبل. ذلك أن السيطرة على لسانك ومراقبة ما تكشفه أمر يتطلَّب جهداً. وثانياً: يعتقد كثيرون أنهم بإخلاصهم وانفتاحهم يكسبون قلوب الناس ويظهرون طيبتهم. وهم في ذلك مخدوعون كثيراً. فالإخلاص في الحقيقة سلاح غير ماضٍ، يُدْمي أكثر من أن يقطع. فمن المحتمل أن يغيظ إخلاصُك الناسَ. ومن الأفضل أن تكون حكيماً في تفصيل كلماتك، وإخبار الناس بما يحبون سماعه. . فذلك أجدى من الحقيقة الخشنة والقبيحة التي تستشعرها أو تفكِّر بها. والأهم من ذلك أن انفتاحك بلا خجل يجعلك شخصاً معروفاً يسهل التنبؤ بأعماله ويكاد يكون من المستحيل احترامه أو خشيته، ولن يكتسب

السلطةَ شخص لا يوحي بمثل هذه المشاعر. فإذا كنت متعطشاً للسلطة، فسارع إلى وضع الإخلاص جانباً، ودرِّب نفسك على فن إخفاء نواياك. أتقن ذلك الفن تكنْ يدُك هي العليا على الدوام. ومن المتطلبات الأساسية لإخفاء المرء نواياه، حقيقة بسيطة عن الطبيعة الإنسانية: إن غريزتنا الأولى تهيب بنا أن نثق بالمظاهر دائماً. فإننا لا نستطيع أن نعيش متشككين بحقيقة ما نراه ونسمعه، متخيِّلين باستمرار أن المظاهر تخفي شيئاً آخر، فذلك يرهقنا ويرعبنا. وهذه حقيقة تجعل من السهل على المرء نسبياً أن يخفي نواياه. وما عليك ببساطة سوى أن تدلي أمام أعين الناس هدفاً يبدو أنك راغب فيه، وغرضاً يبدو أنك تسعى إليه.. فيظنون أن المظهر حقيقة. وما أن تتركز أبصارهم على الطُّعْم، حتى يعجزوا عن ملاحظة ما تسعى إليه بالفعل. وفي ممارستك للإغواء، ضع إشارات متناقضة، كالرغبة في عدم الاكتراث، وعندئذ لن تتمكن من إبعادهم عن الأثر فحسب، بل ستشعل رغبتهم في الحصول عليك.

ومن بين الخطط الانتهازية المؤقتة التي كثيراً ما تكون فعَّالة في وضع أشياء ملهية مضلِّلة هي أن تظهر بمظهر من يدعم فكرة أو قضية مناقضة فعلياً لعواطفك (وقد استخدم بسمارك مثل هذه الخطة فكانت كبيرة الفاعلية في خطابه سنة 1850). وسيصدِّق معظم الناس أنك تعرَّضت لتجربة غيَّرت ميولك، إذ أن من غير المألوف أن يعبث المرء بمثل هذه الخفَّة بشيء عاطفي كآراء المرء وقيَمِه. والشيء نفسه ينطبق على أي هدف وهمي للرغبة: فلتظهر أنك تريد شيئاً أنت في الواقع غير مهتم به على الإطلاق، وسوف تُبْعِدُ أعداءك عن الأثر، فيرتكبون كل أنواع الأخطاء في حساباتهم.

أثناء حرب الخلافة الإسبانية في سنة 1711، أراد دوق مارلبورو، قائد الجيش الإنكليزي، أن يدمِّر قلعة فرنسية هامة لأنها كانت تحمي طريقاً عاماً حيوياً إلى داخل فرنسا. ومع ذلك فإنه كان يعرف أنه إذا دمَّرها فسيفطن الفرنسيون إلى ما يريد، أي أن يتقدَّم سالكاً ذلك الطريق.

فبدلاً من ذلك اكتفى بالاستيلاء على القلعة وتركها في حراسة حامية من قواته، متظاهراً أنه يريد الاحتفاظ بها لغرض مّا في نفسه. فهاجم الفرنسيون القلعة، وتركهم الدوق يستعيدونها. وما أن صارت في أيديهم ثانية حتى قاموا هم بتدميرها، متصورين أن الدوق كان يريدها لسبب هام. أما وقد ذهبت القلعة، فقد صار الطريق غير محميّ، وتمكّن مارلبورو من الزحف إلى داخل فرنسا بسهولة.

استخدم مثل هذه الخطط الانتهازية بالطريقة التالية: أخف نواياك، ولكن ليس بالانغلاق (الذي ينطوي على المخاطرة بالظهور بمظهر المتكتِّم وجعل الناس متشكّكين) ولكن بالتحدث عن رغباتك وأهدافك حديثاً ـ لا نهاية له ـ على أن لا تكون هي أهدافك الحقيقية. . فبذلك تصيب ثلاثة عصافير بحجر واحد؛ تظهر بمظهر الودود والمنفتح والواثق بالآخرين؛ وتخفي نواياك، وترسل منافسيك لتنفيذ مشاريع حمقاء لا طائل وراءها ومضيعة للوقت.

ومن الأدوات القوية الأخرى في إبعاد الناس عن الأثر: الإخلاص الزائف. إذْ أنهم يخطئون في تفهم الإخلاص بسهولة فيظنونه أمانة وصدقاً. وتذكَّر أن غريزتهم تدفعهم للوهلة الأولى إلى تصديق المظاهر، وبما أنهم يقدرون الأمانة والصدق ويريدون أن يؤمنوا بصدق مَنْ حولهم فإن من النادر أن يرتابوا بك أو يتكشف لهم عملك على حقيقته. فظهورك بمظهر مَنْ يؤمن بما يقول يعطي كلماتك وزناً كبيراً. فهذه الطريقة هي التي خدع بها أياغو عطيلاً ودمَّره: فمع عمق عواطفه، وإخلاصه الظاهري في التعبير عن قلقه من خيانة ديدمونة المفترضة، كيف كان عطيل سيمتنع عن الثقة به؟ وكانت هذه أيضاً هي الطريقة التي رتب بها المتفنن في الإقناع يالوكِيْد وِيلْ خديعته للمغفلين. فقد بدا عليه أنه يؤمن إيماناً عميقاً بالهدف التمويهي الذي أدلى به أمامهم (حصان سباق من سلالة مزيفة امتدحه بإفراط) بحيث جعل حقيقته شيئاً ثابتاً يصعب الشك فيه. ومن المهم طبعاً أن لا توغل في هذا الميدان أكثر من

اللازم. ذلك أنك إذا ظهرت متحمساً بشكل مبالغ فيه فإنك ستثير الشكوك. فكن حذراً واجعل الآخرين يصدِّقونك وإلاً فسوف ينكشف أمر خديعتك ويعرف الآخرون أنها تركيبة ملفّقة.

ولجعل إخلاصك الزائف سلاحاً فعَّالاً في إخفاء نواياك قم بتبنّي الإيمان بالنزاهة والاستقامة باعتبارهما من القيم الاجتماعية الهامة. وافعل ذلك بأكبر قَدْرٍ ممكن من العلانية، وأكد على موقفك من هذا الموضوع بكشف فكرة نابعة من القلب بين الحين والآخر، رغم أنها قد تكون بلا معنى ولا صلة لها بالقضية طبعاً. فقد كان وزير نابليون، تاليران، يتقن فن كسب ثقة الناس بحيث يبدو وكأنه يفشي لهم أسراراً وكأنه يحدثهم من أعماق قلبه، وهذه الثقة المتظاهر بها ـ الخدعة التمويهية ـ تستدرج بدورها ثقة حقيقية في نفوس الآخرين.

وتذكَّر: إن أفضل المخادعين يفعلون كل ما باستطاعتهم لتغطية صفاتهم الخبيثة، فهم يعتنون بإظهار جوّ من الأمانة والنزاهة في مجالٍ مّا لإخفاء انعدام الشرف في مجالات أخرى. فالأمانة عندهم مجرَّد خدعة تمويهية أخرى في ترسانة أسلحتهم.

القسم الثاني: استخدم سواتر دخانية كأقنعة لتغطية أعمالك

الخداع هو الخطة المثلى دائماً، ولكن أفضل أنواع الخدع تتطلّب ستاراً من الدخان لإبعاد انتباه الناس عن غرضك الحقيقي. والمظهر الخارجي الناعم الرقيق غير اللافت للأنظار ـ كوجه لاعب البوكر العادي الذي تصعب قراءة أية إشارة على مظهره ـ كثيراً ما يكون أفضل ستار دخاني يخفي نواياك خلف قناع من المظهر المريح والمألوف. وإذا استدرجتَ المغفل عبر طريق معروف لديه فإنه لن يفطن إليك عندما تقوده إلى فخ.

مراعاة القانون 1

في سنة 1910، قام شخص من شيكاغو يدعى السيد سام جيزيل ببيع شركة المخازن التي كان يملكها بمبلغ يقرب من مليون دولار، واستقر فيما يشبه التقاعد لإدارة ممتلكاته الكثيرة، ولكنه كان في أعماقه يتشوَّق إلى أيامه القديمة التي كان يعقد فيها الصفقات. وذات يوم زار مكتبه شخص يسمى جوزيف ويل وأراد أن يشتري منه شقة كان قد أعلن عنها للبيع. فشرح له جيزيل الشروط: كان الثمن هو 8000 دولار، ولكنه كان يطلب دفعة أولى على الحساب من 2000 دولار فقط. فقال ويل إنه سيفكر في الموضوع سحابة نهاره، ولكنه عاد في اليوم التالي وعرض أن يدفع الثمن كله نقداً، إذا كان جيزيل يستطيع الانتظار يومين ريثما تتم صفقة كان ويل يعمل على عقدها. وحتى في حالته وهو شبه متقاعد،

ياهو، ملك إسرائيل، يتظاهر بعبادة الوثن بعل

ثم جمع ياهو كل الشعب وقال لهم: «إن أخآب قد عبد البعل قليلاً؛ ولكن ياهو سيعبده أكثر بكثير. ولذلك ادعوا إليَّ الآن جميع أنبياء البعل، وكل عابديه وكل كهنته؛ ولا تتركوا أحد يغيب، لأنني سأقدّم ذبيحة عظيمة للبعل. وكل من يغيب لن يعيش». ولكن ياهو قد فعل ذلك بمكرٍ لكي يفني عبدة البعل. وقال ياهو: «قدسوا في تجمع وقور يعتكف للبعل». فنادَوْا

فإن رجل أعمال ذكي مثل جيزيل شعر بالفضول حول الطريقة التي سيتمكن بها ويل من دفع مبلغ كبير كهذا (وهو يعادل 15000 دولار بأسعار يومنا هذا) وبهذه السرعة. وقد بدا على ويل التمنّع عن الإجابة. وغيَّر الموضوع بسرعة. ولكن جيزيل كان ملحاحاً، وأخيراً وبعد تطمينات بكتمان السر، قام ويل بإخبار جيزيل بالقصة التالية:

كان عم ويل أميناً لسر واحد من شلة الممولين من أصحاب الملايين. وكان هؤلاء الأثرياء قد اشتروا منزلاً للصيد في ميشيغان قبل عشرة أعوام بثمن رخيص. ولم يكونوا قد استعملوا ذلك المنزل طيلة بضع سنوات، ولذلك قرروا بيعه وطلبوا من عمّ ويل أن يحصل على ما يستطيع ثمناً له. ولأسباب خصوصية ـ وهي أسباب جيدة ـ كان العم يحمل في صدره ضغينة ضد أصحاب الملايين ظلَّت تعتمل في داخله على مدى سنوات. فقرر أن يبيع العقار بمبلغ 35000 دولار لشخص يُعْطَى دور الشاري بشكل مدبَّر (ومهمة ويل هي العثور على مثل هذا الشخص). فقد كان الممولون من الثراء بحيث لا يقلقهم مثل هذا الثمن المنخفض. ثم يستدير ذلك الشاري المدبّر ليبيع العقار بثمنه الحقيقي الذي يقرب من 155000 دولار، ثم يقوم العم وويل والرجل الثالث بتقاسم الأرباح من عملية البيع الثانية. وكان كل شيء قانونياً ويتم لسبب جيِّد، هو حصول العم على المكافأة العادلة.

واكتفى جيزيل بما سمعه، وأراد أن يلعب دور الشاري المدبّر فأظهر ويل تمنّعاً عن إشراكه، ولكن جيزيل رفض أن يتراجع، إذ أن فكرة الربح الكثير، مع شيء من المغامرة، قد استثارت حماسه كأنه حصان جامح راح يعض على الشكيمة. فأوضح له ويل أن عليه أن يقدم مبلغ الـ 35000 دولار نقداً كي يتم الصفقة. فقال جيزيل، المليونير، بأنه يستطيع تدبير المبلغ بإشارة من إصبعه. فليَّن ويل موقفه في آخر الأمر ووافق على تدبير اجتماع بين العم، وجيزيل، والممولين في مدينة غاليسبورغ بولاية إيلنوي.

بذلك وأرسل ياهو في كل إسرائيل فأتى جميع عَبَدَةِ البعل، ولم يبق أحدٌ إلاّ أتى. ودخلوا بيت البعل، الذي امتلأ من أقصاه إلى أقصاه.. ودخل ياهو إلى بيت البعل. وقال لعبدة البعل: «فتشوا وانظروا لئلاّ يكون معكم ههنا أحد من عبيد الرب، ولكن عبدة البعل وحدهم» ثم دخل ليقدم ذبائح ومُحْرَقَات. وكان ياهو قد أقام ثمانين رجلاً في الخارج، وقال: «الرجل الذي يسمح بنجاة اي واحد من الذين أدفع بهم الى أيديكم، يستغني عن حياته بدلاً منه» ولما انتهوا من تقريب المحرقة قال ياهو للحرس والضباط: «ادخلوا واذبحوهم، ولا يَنْجُوَنَّ منهم أحد» وهكذا فعندما ضربهم الحرس والضباط بحد السيف، طرحوهم خارجاً، وساروا إلى الغرفة الداخلية من بيت البعل وأخرجوا العمود الذي كان في بيت البعل وأحرقوه، وهدموا عمود البعل وهدموا بيت البعل، وجعلوه مرحاضاً إلى اليوم. وهكذا استأصل ياهو البعل من إسرائيل.

العهد القديم
سِفْرُ الملوك الثاني، 10: 18 ـ 28

وفي رحلة القطار، التقى جيزيل بالعم، وهو رجل يثير الإعجاب، وناقش معه العملية بحماس. وجاء ويل معه بمرافق سمين منتفخ البطن نسبياً يدعى جورج غروس. وأوضح ويل لجيزيل بأنه مدرِّب ملاكمة، وأن غروس واحدٌ من الملاكمين الواعدين بكسب الجوائز الذين يقوم ويل بتدريبهم، وأنه طلب منه أن يأتي كي يتأكد من بقائه محافظاً على جاهزيته التدريبية. وبالنسبة كملاكم واعد لم يكن مظهر غروس يثير أي إعجاب، فقد كان له شعر وَخَطَه الشيب، وكان بطنه منتفخاً، ولكن جيزيل كان متحمساً للصفقة بحيث لم يفكِّر في مظهر الرجل المترهل.

وعند الوصول إلى غاليسبورغ، ذهب ويل وعمه لإحضار الممولين بينما انتظر جيزيل في غرفة بالفندق مع غروس، الذي سارع إلى ارتداء سراويله الرياضية القصيرة. وبينما راح جيزيل نفسه يتفرج بنصف انتباه بدأ غروس ملاكمة وهمية. وكان جيزيل مشتَّت الذهن بحيث تجاهل مدى رداءة الصفير الذي يخرج من صدر الملاكم بعد بضع دقائق من التدريب، رغم أن أسلوبه بدا حقيقياً بما فيه الكفاية. وبعد ساعة عاد ويل وعمه مع المموليين، الذين كانوا مجموعة مثيرة للإعجاب والرهبة من الرجال الذين يرتدون جميعاً بذلات فاخرة. وسار الاجتماع بشكل جيد، ووافق المموليون على بيع المنزل لجيزيل بخمسة وثلاثين ألف دولار، وكان قد أرسل برقية بطلب المبلغ إلى مصرف محلي.

وبعد إقرار هذه الصفقة الصغيرة استقر المموليون في كراسيهم وراحوا يتمازحون حول المشاريع المالية العليا، ويتقاذفون اسم جون بير ــ بونت مورغان وكأنهم يعرفونه. وأخيراً لاحظ واحد منهم الملاكم في زاوية الغرفة، فأوضح ويل ماذا كان يفعل هناك. فردَّ المموِّل بأن لديه ملاكماً في موكبه هو الآخر، وأعطاهم اسمه، فضحك ويل بصفاقة وأعرب عن ثقته بأن رجله يستطيع أن يتغلب على رجلهم بسهولة. وتصاعدت المحادثة إلى خصام، وفي غمرة الجيشان العاطفي الحماسي قام ويل بتحدي الرجال إلى مراهنة. فوافق المموليون على ذلك باندفاع،

وغادروا لإحضار رجلهم استعداداً للمبارزة في الملاكمة في اليوم التالي.

وما أن غادروا حتى راح العم يصرخ في وجه ويل أمام جيزيل، قائلاً إنه ليست لديهم نقود كافية للمراهنة، وإن الممولين سيطردون العم من عمله عندما يكتشفون ذلك. فاعتذر ويل عن توريطه في هذا المأزق، ولكنه كان يملك خطة: فهو يعرف الملاكم الآخر جيداً؛ وبرشوة صغيرة، سوف يتمكنون من تدبير المباراة، فتساءل العم: ولكن من أين تأتي النقود للمراهنة؟ وأخيراً سئم جيزيل مما سمعه. لم يكن مستعداً لتعريض صفقته هو للخطر، فعرض الخمسة والثلاثين ألف دولار التي جاء بها نقداً كجزء من الرهان، وحتى إذا خسر ذلك المبلغ فإنه سيبرق في طلب المزيد من النقود ومع ذلك يحصل على ربح من بيع المنزل. فشكره العم وابن أخيه. سيتدبران جمع ما يكفي للمراهنة من الخمسة عشر ألف دولار التي بحوزتهما مع الخمسة والثلاثين ألفاً التي بحوزة جيزيل. وفي ذلك المساء، بينما كان جيزيل يتفرج على الملاكمين وهما يتدربان على تدبير نتيجة الملاكمة سلفاً، كان دماغه يدور من ضخامة الصيد الذي سيحصل عليه من مباراة الملاكمة ومن بيع المنزل.

وجرت المباراة في ملعب رياضي في اليوم التالي. وأمسك ويل بالنقود التي وضعت في صندوق مغلق للتأمين عليها. وكان كل شيء يسير في غرفة الفندق كما هو مخطط له. وكان الممولون يبدون واجمين من رداءة أداء ملاكمهم في المباراة، بينما كان جيزيل يحلم بالمال السهل الوفير الذي هو على وشك الحصول عليه. وفجأة قام ملاكم الممولين بتوجيه ضربة متوحشة أصابت غروس في وجهه بشدة أوقعته أرضاً. وما أن أصاب جسده أرض الحلبة حتى تدفق الدم من فمه، فسعل وهمدت جثته. فقام أحد الممولين، وهو طبيب سابق، بفحص النبض؛ كان الملاكم ميتاً. وأصيب المليونيرات بالذعر، وكان على كل منهم أن يغادر قبل وصول رجال الشرطة. كان من الممكن أن توجَّه إليهم جميعاً تهمة القتل.

وذعر جيزيل، فأطلق ساقيه للريح، وغادر الملعب عائداً إلى شيكاغو، تاركاً وراءه دولاراته الخمسة والثلاثين ألفاً، التي كان يسعده أن ينساها لأنها ثمن بخس يدفعه لتجنب تورطه في جريمة. لم يكن يريد أن يرى ويل والآخرين مرة أخرى أبداً.

وبعد أن هرب جيزيل لا يلوي على شيء، نهض غروس واقفاً، من تلقاء نفسه. كان الدم الذي تدفق من فمه قد خرج من كرة ملئت بدم فرُّوج وماء ساخن أخفيت تحت خده. وكان ويل هو الدماغ المفكِّر الذي خطَّط لهذه الواقعة. وويل هذا كان مشهوراً بلقب «الغلام الأصفر»، وهو واحد من أبرع الفنانين الخلاَّقين في مجال الغش والخديعة في التاريخ، فقام ويل باقتسام الخمسة والثلاثين ألف دولار مع الممولين والملاكمين (وكانوا كلهم زملاء له في مهنته)... فكان ذلك ربحاً صغيراً لطيفاً لقاء بضعة أيام من العمل.

تَسَلَّلْ عبر المحيط في رابعة النهار

وهذه الوسيلة لخلق جبهة تصبح في آخر الأمر مشبعةً بجوٍّ أو انطباعٍ من الإلفة يتيح للاستراتيجي أن يناور دون أن يراه أحد بينما تُدَرَّبُ العيونُ على رؤية الأشياء المألوفة الواضحة

«الاستراتيجيات الست والثلاثون» مقتبسة في كتاب فن الحرب الياباني توماس كليري، 1991

التفسير

كان الغلام الأصفر قد استطلع أحوال جيزيل واكتشف أنه المغفل المثالي الكامل قبل وقت طويل من تدبير واقعة الخديعة. وكان يعرف أن مباراة الملاكمة المدبَّرة المطبوخة ستكون هي الخدعة الكاملة للفصل بين جيزيل ونقوده فصلاً سريعاً وحاسماً. ولكنه كان يعرف أيضاً أنه إذا بدأ بمحاولة إثارة اهتمام جيزيل بمباراة الملاكمة فسوف يلقى فشلاً ذريعاً. فكان عليه أن يخفي نيته، ويغيِّر محطَّ الاهتمام، بأن يخلق ستاراً من الدخان وكان الستار في هذه الحالة هو بيع المنزل.

وفي رحلة القطار وفي غرفة الفندق كان ذهن جيزيل مشغولاً تماماً بالصفقة الوشيكة، والمال السهل، وفرصة الاختلاط بالناس الأثرياء، ففشل في أن يلاحظ أن بِنْيَةَ غروس البدنية كانت غير مناسبة، وأنه في منتصف عمره على أفضل تقدير. كانت تلك هي القوة التي تملكها ستارة الدخان على تشتيت الانتباه. فقد انصبّ تفكير جيزيل على الصفقة التجارية بحيث أمكن تحويله بسهولة إلى مباراة الملاكمة، ولكن فقط

عندما فات أوان ملاحظته لتفاصيل كان من شأنها أن تفضح غروس. فقد صارت المباراة تعتمد على رشوة بدلاً من حالة الملاكم البدنية. وقد تشتت ذهن جيزيل في آخر الأمر بالموت الوهمي للملاكم إلى درجة أنه نسي نقوده تماماً.

تعلَّم من الغلام الأصفر: إن الواجهة المألوفة وغير اللافتة للنظر هي ستار الدخان الأكمل. اقترب من هدفك بفكرة تبدو عادية، كصفقة تجارية، أو مكيدة مالية. وبهذه الطريقة يتشتَّت فكر المغفل، وتخفّ شكوكه. وعندئذ تقوده بلطف إلى الطريق الثاني، إلى المنحدر المنزلق الذي يجعله يسقط في فخك بلا حول له ولا قوة.

مراعاة القانون 2

في منتصف العشرينات من القرن العشرين، بدأ قادة الحرب الأهلية الأقوياء في الحبشة يدركون أن شاباً من النبلاء يدعى هيلا سيلاسي، معروفاً أيضاً باسم راس طفاري، كان آخذاً في التغلب عليهم جميعاً والاقتراب من نقطة يستطيع عندها أن ينصِّب نفسه زعيماً عليهم، ويوحِّد البلاد لأول مرة منذ عشرات السنين. ولم يستطع معظم منافسيه أن يفهموا كيف استطاع هذا الرجل النحيل، الهادىء، الدمث السلوك أن يفرض سيطرته. ومع ذلك، فقد استطاع هيلا سيلاسي في سنة 1927، أن يدعو زعماء الحرب، واحداً بعد الآخر، إلى آديس أبابا كي يعلنوا ولاءهم ويعترفوا به قائداً.

وقد سارع بعضهم إلى ذلك، وتردَّد بعضهم الآخر. ولكن واحداً منهم تجرَّأ على تحدِّي سيلاسي بصورة كلية، وهو ديجازماك بالشا، من سيدامو. كان بالشا هذا رجلاً عاصفاً صاخباً، ومحارباً عظيماً. وقد اعتبر القائدَ الجديدَ ضعيفاً وغير جدير بالزعامة. وقد تعمَّد البقاء بعيداً عن العاصمة. وأخيراً أصدر سيلاسي، بطريقته اللطيفة والصارمة معاً، أمراً لبالشا بالحضور. فقرر ذلك الزعيم الحربي أن يطيع ولكن بطريقة يقلب

فيها الوضع رأساً على عقب ضد هذا المطالِب بعرش الحبشة. سوف يأتي إلى آديس أبابا بالسرعة التي يقررها هو، ومعه جيش من عشرة آلاف رجل، وهذه قوة كافية للدفاع عن نفسه، بل ربما تشعل حرباً أهلية. فعسكر بقوته الرهيبة في وادٍ يبعد ثلاثة أميال عن العاصمة، وراح ينتظر كأنه ملك.. ليضطر هيلا سيلاسي إلى المجيء إليه.

وقد أرسل سيلاسي رسلاً بالفعل طالباً من بالشا أن يحضر حفلة مسائية مقامة على شرفه. ولكن بالشا لم يكن أحمق، كان يعرف التاريخ.. كان يعلم أن ملوك الحبشة وأسيادها السابقين استعملوا الحفلات كفخاخ. فعند وصوله إلى هناك، وامتلائه بالشراب، فإن سيلاسي سيأمر بالقبض عليه أو قتله. ولكي يعطي إشارة بتفهمه للموقف وافق على المجيء إلى الحفلة ولكن مع اشتراط السماح له بإحضار حرسه الشخصي (600) من أفضل جنوده، مسلَّحين جميعاً ومستعدين للدفاع عنه وعن أنفسهم. ولدهشته أجابه سيلاسي بمنتهى التهذيب بأنه يتشرف بأن يستضيف مثل هؤلاء المحاربين.

وفي الطريق إلى الحفلة، حذَّر بالشا جنوده من أن يسكروا، وأوصاهم باليقظة والاحتراس. وعند وصولهم إلى القصر كان سيلاسي في أفضل مزاج رائق ساحر، فأظهر الاحترام والتبجيل لبالشا، وعامله وكأنه بأمسّ الحاجة إلى موافقته وتعاونه، ولكن بالشا رفض أن يقع تحت تأثير هذا السحر، وحذَّر سيلاسي من أنه إذا لم يعد عند حلول الظلام فإن لدى جيشه أوامر بمهاجمة العاصمة. وكان رد فعل سيلاسي أن أظهر بأن عدم الثقة هذه قد جرحته وآلمته. وعلى المائدة، عندما حان وقت إنشاد الأغاني التقليدية على شرف زعماء الحبشة، تعمَّد سيلاسي أن يسمح فقط بالأغاني التي تمجِّد الزعيم الحربي لسيدامو. وبدا لبالشا أن سيلاسي خائف وقد أرعبه هذا المحارب الذي لا يمكن التغلب على فطنته وحضور بديهته. وعندما شعر بالشا بالتغيير، اعتقد أنه سيكون هو الآخذ بزمام المبادرة في قابل الأيام.

وعند نهاية الأمسية، زحف بالشا بجنوده عائداً إلى معسكره وسط الهتافات وطلقات التحية. وعندما نظر فيما وراء كتفه إلى العاصمة، بدأ بإعداد خطته بعيدة الأمد، حول كيفية زحف جنوده منتصرين إلى قلب العاصمة في غضون أسابيع، ووضع سيلاسي في مكانه الذي يستحقه، إمّا في السجن أو في القبر. غير أنه عندما صار على مرأىً من معسكره اكتشف أن شيئاً رهيباً قد حدث. فحيث كانت هناك خيام ملوَّنة تمتد على مدى النظر لم يكن هناك شيء سوى الدخان المتصاعد من النيران المطفأة، فأي سحر شيطاني هذا؟

وأخبره شاهد عيان بما حدث. فأثناء الحفلة، تسلَّل جيش كبير يقوده أحد حلفاء سيلاسي إلى معسكر بالشا عبر طريق جانبي لم يكن بالشا قد رآه أو تنبه له. غير أن ذلك الجيش لم يأتِ للقتال. كان سيلاسي يعلم أن بالشا سوف يسمع ضجة المعركة فيسارع إلى العودة مع حراسه الشخصيين الستمائة، ولذلك سلَّح هيلا سيلاسي قواته بسلال من الذهب والنقود. فطوَّقوا جيش بالشا، وانطلقوا لشراء كل قطعة من أسلحتهم عن آخرها. أما الذين رفضوا فقد تم تخويفهم بسهولة. وفي غضون بضع ساعات كانت قوة بالشا بكاملها قد نزع سلاحها وتفرَّق جنودها أيدي سبأ.

وعندما أدرك بالشا الخطر، قرر أن يسير جنوباً بجنوده الستمائة ليعيد تجميع قوَّته. غير أن الجيش نفسه الذي انتزع أسلحة جنوده اعترض طريقه. كان المخرج الآخر أن يزحف على العاصمة. ولكن سيلاسي قد نشر جيشاً كثيفاً للدفاع عنها. وكان ـ مثل لاعب الشطرنج ـ قد تنبأ بحركات بالشا وتمكن من قتل الشاه على رقعة ذلك الشطرنج. ولأول مرة في حياته، استسلم بالشا. ولكي يكفِّر عن سيئاته في العجرفة والطموح، وافق على دخول دير للرهبان.

التفسير

لم يتمكن أحد من فهم سيلاسي تماماً على مدى فترة حكمه

الطويلة كلها. فالأحباش يحبّون أن يكون قادتهم أشداء. ولكن سيلاسي، الذي كان يتخفّى وراء واجهة رجل لطيف مهذب محب للسلام، حكم فترة أطول من أي واحد منهم. لم يكن يغضب أو يفقد صبره قطّ، بل يستدرج ضحاياه بالابتسامات الحلوة، ويهدهد يقظتهم بجاذبيته .وتذلّله لهم قبل أن يهاجم. وفي حالة بالشا اعتمد سيلاسي على حذر الرجل وارتيابه في كون الحفلة مصيدة. وكانت كذلك بالفعل، ولكن ليس بالطريقة التي توقعها الحذِر بالشا. بل إن طريقة سيلاسي في تبديد مخاوف بالشا ـ بتركه يجلب حرسه إلى الحفلة، وجعله على رأس المكرمين المحتفى بهم فيها، بل وجعله يشعر وكأنه هو المسيطر ـ قد خلقت ستاراً كثيفاً من الدخان حجب عن بالشا العمل الحقيقي الذي كان يجري على مسافة ثلاثة أميال. وهكذا يؤتى الحذر من مأمنه.

تذكَّر: إن المصابين بجنون الارتياب، والحذرين كثيراً ما تكون خديعتهم أسهل. اكسب ثقتهم في مجالٍ مّا فيصبح لديك ستار دخان يعميهم عن مجال آخر، مما يسمح لك بالزحف ومحقهم بضربة مدمرة. إن الإشارة الآسرة اللطيفة التي تبدو مخلصة، أو التي توحي للشخص الآخر بأنه هو المتفوق.. هذه كلها أساليب مثالية للخداع والإلهاء.

إن ستار الدخان، إذا تم وضعه في مكانه المناسب، سلاح ذو قوة عظيمة. فقد مكّن هيلا سيلاسي اللطيف المجامِل من تحطيم عدوه تحطيماً كلياً دون إطلاق رصاصة واحدة.

> لا تقلّلوا من تقدير قوة طفاري. إنه يزحف كالفأر ولكن له فكّا أسد.
>
> آخر ما تفوّه به بالشا، من سيدامو، قبل دخوله إلى الدير.

مفاتيح السلطة

إن كنت تعتقد أن المخادعين أناس ملوَّنون يضلِّلون بأكاذيب معقدة ومتقنة وقصص مبالغ فيها فأنت على خطأٍ جسيم. إن أفضل المخادعين

يستعملون واجهات عادية لا يبرز فيها شيء لافت للأنظار. فهم يعلمون أن الكلمات الطنانة وإشارات التهويل تثير الشكوك على الفور. وبدلاً من ذلك فهم يغلِّفون مقاصدهم بكل ما هو مألوف وعادي ومبتذل ولا ضرر فيه. ففي تعامل الغلام الأصفر مع سام جيزيل كان الشيء المألوف هو الصفقة التجارية. وفي حالة الحبشة كان ذلك الشيء هو التذلل المضلل الذي أبداه سيلاسي، وهو بالضبط ما كان بالشا يتوقعه من زعيم حربي أضعف منه.

فعند تنويمك ليقظة المغفلين بما هو مألوف ومعروف لديهم فلن يلاحظوا الخداع المرتكب خلف ظهورهم. وهذا مشتق من حقيقة بسيطة: إن الناس لا يستطيعون أن يركِّزوا إلاَّ على شيء واحد في كل مرة. ومن الصعب عليهم أن يتخيَّلوا أن الشخص الرقيق اللطيف وغير المؤذي الذي يتعاملون معه منهمك في الوقت نفسه بنصب شيء آخر. وكلما كان الدخان في ستارك الدخاني أكثر رماديةً وتجانساً كان ذلك أفضل لإخفاء نواياك. وباستخدام الأهداف التمويهية والإلهائية الموصوفة في القسم الأول يمكنك تشتيت انتباه الناس بصورة فعَّالة؛ وبالستار الدخاني تهدهد يقظة ضحاياك فتجتذبها إلى شلكتك، وبما أن في ذلك تنويماً مغناطيسياً، فإنه غالباً ما يكون أفضل أسلوب لإخفاء نواياك.

إن أبسط أشكال الستار الدخاني هو التعبير المرتسم على الوجه. فخلف الواجهة الخارجية العادية غير المقروءة يمكن التخطيط لكل أنواع المصائب المؤذية دون أن يكتشف ذلك أحد. وهذا سلاح تَعَلَّمَ أقوى الرجال في التاريخ كيف يتقنون صنعه واستعماله. وكان يقال إنه لم يستطع أحد أن يقرأ وجه فرانكلين ديلانو روزفلت. وقد جعل البارون جيمس روتشيلد، وَكْدَ حياته كلها أن يمارس عملية إخفاء أفكاره الحقيقية وراء الابتسامات الناعمة والنظرات العادية التي لا وصف لها. وقد كتب ستندال عن تاليران: «لم يكن هناك وجه أقلّ من وجهه صلاحية كمقياس

على ما يعتمل في داخله». وكان هنري كيسنجر يثير ملل خصومه على مائدة المفاوضات إلى أقصى حد بصوته الرتيب ونظرته الخالية من أي شيء، واستظهاره للتفاصيل التي لا تنتهي. وعندما تبدأ أعينهم في الزوغان من السأم كان يضربهم على حين غِرَّة بقائمة من الطلبات والشروط القوية، فيأخذهم على حين غِرَّة ويسهل عليه تخويفهم. وكما يشرح كتيّب للعبة البوكر في القمار: «إن اللاعب الجيِّد عندما يمسك بأوراقه نادراً ما يكون ممثِّلاً. وبدلاً من ذلك فإنه يتدرَّب على السلوك العادي الناعم ويقلِّل إلى أدنى حد ممكن أنماط الحركة والتعبير التي تسهل قراءتها، مما يشعر خصومه بالحيرة وخيبة الأمل، ويتيح له قدراً أكبر من التركيز».

ونظراً لأن ستار الدخان مفهوم قابل للتكيف، يمكن ممارسته على عدد من المستويات، كلها تستفيد من المبادىء النفسية لتشتيت الانتباه وللتضليل. ومن أكثر ستائر الدخان فعالية الإشارة النبيلة. فالناس يريدون أن يعتقدوا بأن الإشارات النبيلة ظاهرياً هي إشارات أصلية حقيقية، لأن ذلك الاعتقاد سارّ، ولذا فإنهم نادراً ما يلاحظون إلى أي مدى يمكن أن تكون هذه الإشارات خادعة.

كان جوزيف دوفين، تاجر أعمال فنية، واجهته ذات مرة مشكلة رهيبة. فالمليونيرات الذين دفعوا أثماناً محترمة للوحاته راحت تنقصهم المساحات الجدارية لتعليقها. ومع ارتفاع ضرائب التركات باطراد، فقد بدا من غير المحتمل أنهم سيواصلون الشراء. وكان الحل هو المعرض الوطني للفن في العاصمة واشنطن ـ بمقاطعة كولومبيا، الذي ساعد دوفين على خلقه في سنة 1937، بإقناع آندرو ميلون بالتبرع بمجموعته لذلك المعرض. فكان المعرض الوطني واجهة مثالية لدوفين. إذ أنه بإشارة واحدة، مكَّن زبائنه من تجنّب الضرائب، وأفرغ مساحة جدارية لمشتريات جديدة، وقلّل عدد اللوحات المطروحة في السوق، وحافظ على ضغط يرفع الاتجاه في أسعارها إلى الأعلى. ومع هذا كله مكَّن

المانحين من خلق مظهر كونهم متفضلين على الناس ويعملون للصالح العام.

ومن الستائر الدخانية الفعالة الأخرى: **النمط**، أي تأسيس سلسلة من الأعمال التي تغوي الضحية بالاعتقاد بأنك سوف تستمر بالطريقة نفسها. فالنمط يستغل الحالة النفسية للتوقع: إذ أن سلوكنا يتمشى مع أنماط، أو هكذا نحب أن نعتقد.

في سنة 1878، قام بارون المطاط الأميركي جي غولد بخلق شركة بدأت تهدد احتكار شركة البرق المعروفة باسم الاتحاد الغربي (وسترن يونيون). فقرر مدراء تلك الشركة أن يشتروا شركة غولد بكاملها. وقد اضطروا إلى إنفاق مبلغ ضخم، ولكنهم حسبوا أنهم بذلك تدبَّروا أمر التخلُّص من منافس مزعج. غير أن غولد عاود الكرَّة بعد بضعة أشهر، متذمِّراً من كونه قد عومل بإجحاف. فدشَّن شركة ثانية لتنافس وسترن يونيون والشركة التي اشترتها. فحدث الشيء نفسه مرة أخرى. اشترت وسترن يونيون شركته الثانية كلها كي تخرسه. وسرعان ما بدأ النمط للمرة الثالثة. ولكن غولد مدَّ يده الآن إلى الوريد الوِداجي كي يقوم بعملية ذبح. فشن معركة استيلاء دامية استطاع فيها أن يحصل على السيطرة الكاملة على وسترن يونيون. ذلك أنه أقام نمطاً خدع مدراء الشركة بجعلهم يعتقدون أن هدفه هو شراؤهم لشركاته كلها بأسعار محترمة. وبعد دفع السعر له كانوا يرتاحون، وقد عجزوا عن ملاحظة أنه كان يسعى لرفع قيمة ما يقامر به. وتكمن قوة النمط في أنه يخدع الشخص الآخر بجعله يتوقع عكس ما تقوم به فعلياً.

ومن نقاط الضعف النفسية التي تصلح لرفع ستار من الدخان، الميل إلى الظن الخاطىء بأن المظاهر حقيقة.

والشعور أنه إذا ظهر أن شخصاً مّا ينتمي لمجموعتك، فإن هذا الانتماء لا بد أن يكون حقيقياً. وهذه العادة تجعل التركيبة المتجانسة بدون شقوق أو ندوب واجهة شديدة التأثير. والخدعة ههنا بسيطة، وهي

أن تختلط ببساطة بِمَنْ حولك. وكلما كان اختلاطك أفضل تَنَاقَصَ تعرضُك للشكوك، ففي أثناء الحرب الباردة في خمسينات القرن العشرين وستيناته، كما صار مفضوحاً الآن، كان عدد وفير من الموظفين المدنيين يمررون أسراراً إلى السوفييت. وظلوا سنوات دون أن يحسّ بهم أحد لأنهم كانوا في الظاهر أشخاصاً محترمين، وقد تعلموا في المدارس المقبولة الجيدة، وتنطبق عليهم مواصفات أبناء الشلة انطباقاً كاملاً. إن الاختلاط بدون تميّز هو ستار الدخان المثالي للتجسس. وكلما تمّ بشكل أفضل كان ذلك أفضل لإخفاء النوايا.

تذكَّر: إن إطفاء ألوانك الفاقعة يتطلب صبراً وتواضعاً كي تضع قناع عدم البروز، فلا تيأس إذا اضطررت إلى ارتداء مثل هذا القناع العادي المألوف ــ إن عدم إمكانية قراءة الناس لك كثيراً ما يكون هو الذي يجذبهم إليك ويجعلك شخصاً ذا قوة وتأثير.

صورة: جلد خروف.
الخروف لا يسطو أبداً
الخروف لا يخدع أبداً
والخروف أبكم ومطيع
بشكل رائع. والثعلب
إذا وضع جلد خروف على
ظهره فإنه يستطيع أن يعبر
إلى داخل قنّ الدجاج تماماً.

الشاهد: هل سمعت قط أن جنرالاً بارعاً ينوي مفاجأة قلعة، يعلن خطته لعدوه؟ اخف غرضك واكتم تقدمك، ولا تكشف مدى خططك إلى أن تصبح نافذة المفعول ولا يمكن معارضتها، حتى ينتهي القتال. احصل على النصر قبل أن تعلن الحرب. وبكلمة، قلد الناس المحاربين الذين لا تُعْرَفُ خططُهم إلاّ عن طريق البلدان المدمرة التي جاسوا خلالها.

(نينو دي لنكلو، 1623 ــ 1706)

الانقلاب

لن ينجح أي ستار دخان، أو هدف تضليلي، أو إخلاص مزوّر أو أي تدبير آخر للتمويه والإلهاء، إذا كانت لديك قبل ذلك سمعة ثابتة بأنك مخادع. ومع تقدمك في السن وتحقيقك نجاحاً، تتزايد صعوبة تغطيتك لمكرك. فيعرف الجميع أنك تمارس الخداع. فإذا استمررت في لعب دور الساذج فإنك تعرض نفسك لأن تبدو أشد الناس نفاقاً. وهذا يضيق عليك مجال المناورة تضييقاً شديداً. وفي مثل هذه الحالات فإن من الأفضل لك أن تعترف، وأن تظهر بدور الوغد الشريف، وأحسن من ذلك دور الوغد التائب. وعندئذ لن يقتصر الأمر على حصولك على إعجاب الآخرين بسبب صراحتك، ولكن الأعجب من ذلك وأغرب أنك سوف تتمكن من الاستمرار في مؤامراتك.

وعندما طعن في السن ملك الدجل والنصب في القرن التاسع عشر، وهو ب. ت. بارنوم، تعلم أن يتقبل سمعته باعتباره المخادع الأكبر. . وذات مرة، نظم حفلة لصيد الثيران الوحشية في نيوجرسي، كاملة مع الهنود الحمر وبعض الثيران المستوردة. وبثّ دعاية للصيد على أنه عملية حقيقية. غير أنها تكشفت كشيء مزور تماماً، بحيث أن المتفرجين قد سرّتهم العملية الممتعة بدلاً من أن يغضبوا ويطالبوا بإعادة نقودهم. كانوا يعلمون أن بارنوم معتاد على ألاعيب الخداع دائماً. وكان ذلك سرّ نجاحه. وقد أحبوا هذه الخصلة فيه. فتعلم بارنوم درساً من هذه الواقعة. وتوقف عن إخفاء كل تدابيره، بل كشف كل حيله في سيرته الذاتية الشديدة الصراحة. وكما كتب سورين كيركغارد، فإن «العالم يحبّ أن ينخدع».

وأخيراً، فإن من الأعقل والأحكم أن تبعد الانتباه عن أغراضك بعرض مظهر خارجي عادي لطيف مألوف، ومع ذلك فإن هناك حالات تكون فيها الإشارة البراقة الألوان والبارزة هي خطة تشتيت الانتباه. ولقد كان كبار المشعوذين الدجالين في أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن

عشر يستخدمون الدعابة والإمتاع ليخدعوا جمهورهم. فكان الجمهور يدوخ من العرض الكبير فلا يلاحظ نوايا الدجالين الحقيقية. وهكذا يظهر الدجال نجم الشعوذة بنفسه في المدينة في عربة سوداء كالليل البهيم تجرها خيول سوداء، وبصحبته مهرجون، ومشاة على الحبال المشدودة، ونجوم تسلية، يجتذبون الناس إلى استعراضه لأكاسير الحياة والوصفات التدجيلية. فكان المشعوذ يجعل المتعة المؤنِسة تبدو وكأنها هي الشيء الهام، بينما يكون الشيء الهام فعلاً هو بيع تلك الأكاسير والوصفات التدجيلية.

فمن الواضح أن الاستعراض والإمتاع من الأدوات والحيل الممتازة لإخفاء نواياك. غير أنها لا يمكن أن تُسْتَخْدَمَ بصورة غير محدودة. فقد يصاب الجمهور بالسأم ويصبح متشككاً، ويكشف الحيلة في آخر الأمر. والحقّ أن المشعوذين كانوا يضطرون إلى الانتقال من مدينة إلى أخرى، قبل أن يشيع بين الناس أن وصفاتهم السحرية المزعومة لا فائدة فيها وأن الإمتاع ليس سوى خدعة. ومن جهة أخرى، فإن الناس الأقوياء ذوي الواجهات المألوفة، أمثال: تاليران، وروتشيلد وسلاسي، يستطيعون ممارسة خداعهم طيلة عمرهم. فعملهم لا يَبْلَى ولا يكف عن الإقناع قطّ، ونادراً ما يثير الريبة. وإذن فستار الدخان الملون ينبغي استعماله بحذر، وفقط عندما تكون المناسبة صحيحة.

القانون

4

قل دائماً أقل مما هو ضروري

الحكم

عندما تحاول أن تثير إعجاب الناس بالكلمات، فإنك تصبح عادياً ومبتذلاً اكثر كلما زاد ما تقوله، فتقل قدرتك على السيطرة على الأمور. وحتى عندما تقول شيئاً تافهاً، فإنه سيبدو أصيلاً إذا جعلته غامضاً ومفتوحاً مثل لغز أبي الهول. وذوو السلطة والنفوذ يثيرون إعجاب الناس ورهبتهم بقلة ما يتفوهون به. وكلما كثر كلامك، زاد احتمال تفوهك بحماقة.

انتهاك القانون

كان غنايوس مارشيوس، المعروف أيضاً باسم كوريولانوس، بطلاً عسكرياً عظيماً في روما القديمة. ففي النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد، انتصر في عدة معارك هامة، وأنقذ المدينة من الكوارث مرة بعد أخرى. ونظراً لأنه قضى معظم وقته في الميدان، لم يكن يعرفه شخصياً إلاً عدد قليل من الرومان، مما جعله شيئاً يشبه الشخصية الأسطورية.

وفي سنة 454 ق. م، قرر كوريولانوس أن الوقت قد حان لاستغلال سمعته بدخول معترك السياسة. فرشح نفسه للانتخاب في منصب عالٍ هو منصب القنصل. وكان المرشحون لهذا المنصب يلقون خطاباً عاماً في بواكير الحملة. وعندما وقف كوريولانوس أمام الناس، بدأ بعرض جروحه وندوبه التي تراكمت على مدى سبعة عشر عاماً من القتال من أجل روما. وأما الخطبة المتطاولة التي تلت ذلك فلم يسمعها حقاً إلاً قليلون. غير أن تلك الجروح، برهان شجاعته ووطنيته فقد هزت مشاعر الناس إلى حد البكاء. وهكذا بدا انتخاب كوريولانوس مؤكداً.

غير أنه عندما حان يوم التصويت، دخل كوريولانوس إلى المحفل، مصحوباً بمجلس الشيوخ كله، ونبلاء المدينة الأرستقراطيين. أما الناس العاديون الذين رأوا ذلك فقد أزعجهم وأقلقهم مثل هذ العرض للثقة بالنفس في يوم الانتخاب.

عندما أخنَى الدهر على [كاتب القصص السينمائية] مايكل آرلن ذهب إلى نيويورك في عام 1944. ولكي يغرق أحزانه قام بزيارة إلى المطعم الشهير «21» والتقى في الردهة صدفة مع سام غولدوين، الذي قدّم له نصيحة غير عملية نسياً، بأن يشتري خيول سباق.

وفي المقصف التقى آرلن بلويس ب. ماير، أحد معارفه القدامى؛ فسأله هذا عن خططه للمستقبل. فبدأ آرلن بالقول: «لقد كنت اتحدّث آنفاً مع سام غولدوين. .»، فقاطعه ماير بقوله: «كم عرض عليك؟». فأجاب آرلن متملصاً: «لم يكن ما عرضه كافياً». فسأله ماير: «هل تقبل خمسة عشر ألفاً لمدة ثلاثين أسبوعاً؟» فلم يتردد آرلن هذه المرة وأجاب بالإيجاب.

الكتاب البني الصغير للحكايات
تحرير كليفتون فاديمان، 1985

ثم تحدث كوريولانوس ثانية، ووجه معظم خطابه إلى المواطنين الأثرياء الذين جاؤوا برفقته. وكانت كلماته متغطرسة ووقحة. كان واثقاً من حصوله على النصر بالتصويت، فراح يتباهى بإنجازاته في ميدان المعركة، ويلقي نكتاً فظّة كريهة لا تعجب إلاَّ النبلاء، ويوجه اتهامات غاضبة ضد خصومه، وتكهنات حول الثراء الذي سيأتي به إلى روما. وفي هذه المرة أنصت الناس: لم يكونوا قد أدركوا أن هذا الجندي الأسطوري هو أيضاً متبجح مبتذل جعجاع.

وانتشرت أخبار خطاب كوريولانوس الثاني عبر روما بسرعة، فتقاطر الناس بأعداد كبيرة للتأكد من عدم انتخابه. وعندما دُحِرَ عاد إلى ميدان القتال وهو يشعر بالمرارة، وأقسم أن ينتقم من الناس العاديين الذين صوتوا ضده. وبعد بضعة أسابيع وصلت إلى روما شحنة كبيرة من الحبوب. وكان مجلس الشيوخ مستعداً لتوزيع هذه الشحنة على الناس مجاناً، ولكن عندما كان الأعضاء على وشك التصويت على هذه المسألة، ظهر كوريولانوس في المشهد وأَخَذَ الكلمةَ في المجلس، فجادل بأن التوزيع سيكون ذا أثر ضارٍّ على المدينة ككل. وَبَدَا أنه كَسَبَ تأييدَ عدة أعضاء، وأحاطت الشكوك بالتصويت على التوزيع. فلم يتوقف كوريولانوس عند هذا الحدّ، بل تابع ليشجب مبدأ الديمقراطية نفسه. ودافَع عن التخلص من ممثلي الشعب ـ النواب ـ وتسليم حكم المدينة إلى النبلاء.

وعندما وصل إلى الناس خبر آخر خطاب لكوريولانوس لم يعد غضبهم يعرف حدوداً. فأُرْسِلَ النواب إلى مجلس الشيوخ ليطالِبوا بمثول كوريولانوس أمامهم. فرفض. فانفجرت الاضطرابات في جميع أنحاء المدينة. وخاف مجلس الشيوخ من غضب الشعب، فصوت لصالح توزيع الحبوب. وهكذا تمت تهدئة النواب، ولكن الناس ظلوا يطالبون بأن يتحدث إليهم كوريولانوس ويعتذر. فإذا تاب ووافق على أن يبقي آراءه لنفسه، فسوف يُسْمَحُ له بالعودة إلى ميدان القتال.

تتضمن إحدى القصص التي تُرْوَى كثيراً عن كيسنجر تقريراً انهمك ونستون لورد في العمل فيه أياماً. وبعد أن سلمه إلى كيسنجر أعاده هذا إليه مع ملاحظة يتساءل فيها: «أهذا أفضل ما تستطيع عمله؟»، فأعاد لورد كتابته، وتنميقه وتسليمه في آخر الأمر. فعاد إليه التقرير وعليه السؤال المقتضب نفسه. وبعد أن أعاد لورد صياغته مرة أخرى، وتلقى ـ مرة أخرى ـ السؤالَ نفسه من كيسنجر، ردَّ عليه بحدّة مفاجئة: «اللعنة! نعم، إنه أفضل ما أستطيع»، فأجاب كيسنجر بهدوء: «حسناً، أظن إذن أنني سأقرأه هذه المرة».

كيسنجر
تأليف: وولتر إيزاكسون، 1992

وظهر كوريولانوس بالفعل مرةً أخرى أمام الناس، الذين أنصتوا له في صمت مطبق عميق. وبدأ ببطء ولطف، ولكنه عندما استغرق في خطابه راحت فظاظته تزداد شيئاً فشيئاً. وعاد إلى قذف الإهانات! وكانت لهجته متعجرفة، وتعبيره ينم عن الاحتقار. ومع استمراره في الكلام راح غضب الناس يتزايد. وأخيراً صرخوا به حتى أسكتوه.

وتشاور النواب، فأدانوا كوريولانوس وحكموا عليه بالإعدام، وأمروا القضاة بأخذه في الحال إلى قمة صخرة طاربي وإلقائه من أعلاها. وثنّى الجمهور المنتشي على هذا القرار. غير أن النبلاء استطاعوا أن يتدخلوا، فخفف الحكم إلى النفي مدى الحياة. وعندما اكتشف الناس أن بطل روما العسكري العظيم لن يعود إلى المدينة، احتفلوا بذلك في الشوارع، بل إن أحداً لم يكن قد شهد مثل هذا الاحتفال أبداً، ولا حتى بعد اندحار عدو أجنبي.

يحافظ الملك [لويس الرابع عشر] على أشد أنواع السرية استعصاءً على الاختراق بخصوص شؤون الدولة. فالوزراء يحضرون اجتماعات المجلس. ولكنه لا يبوح لهم بخططه إلاّ بعد أن يكون قد فكر فيهم ملياً، ووصل إلى قرار محدد. أتمنى لو ترى الملك. إن تعبيره لغز لا يمكن تفسيره، وعيناه كعيني الثعلب وهو لا يناقش شؤون الدولة إلاّ مع وزرائه في المجلس أثناء انعقاده. وعندما يتحدث مع رجال الحاشية لا يشير إلاّ إلى امتيازات كل منهم وواجباته. وحتى أتفه ما ينطق به يعطي جوّاً بأنه إعلانات عرّاف.

بريمي فيسكونتي
مقتبس عن كتاب لويس الرابع عشر
تأليف: لويس برتراند، 1928

التفسير

كان اسم كوريولانوس، قبل دخوله في السياسة، يوحي بالرهبة. كانت منجزاته في ميدان القتال تقدم صورة له كرجل ذي شجاعة عظيمة. ولما كان المواطنون لا يعرفون عنه شيئاً يذكر، فقد ارتبطت باسمه كل أنواع الأساطير. غير أن كل تلك العظمة وذلك الغموض قد تلاشيا واختفيا في اللحظة التي ظهر فيها أمام المواطنين الرومانيين وتحدث عما في ذهنه. فقد راح يتبجّح ويتوعد بصخب عاصف كجندي عاديّ. فأهان الناس وشهّر بهم، وكأنه كان يشعر بأنه مهدد وغير آمن. وفجأة لم يعد كما تصوره الناس على الإطلاق. وثبت أن التباين بين الأسطورة والواقع كان مخيباً بشكل هائل لآمال الذين كانوا يريدون أن يؤمنوا ببطلهم. وكلما زاد كلام كوريولانوس كان يظهر ضعفه أكثر، كشخص غير قادر على السيطرة على كلماته، وبذلك أظهر أنه لا يستطيع السيطرة على نفسه وبالتالي فهو غير جدير بالاحترام.

ولو قلل كوريولانوس من كلامه، لما كان لدى الناس سبب

للشعور بالغيظ وجرح مشاعرهم، ولما عرفوا أحاسيسه الحقيقية، ولحافظ على هالة القوة التي كانت تحيط بشخصيته، ولتم انتخابه قنصلاً بالتأكيد، ولتمكن من تحقيق أهدافه المعادية للديمقراطية. ولكن اللسان البشري وحش لا يستطيع السيطرة عليه إلاّ قليلون. فهو يتفلّت دائماً للخروج من قفصه. فإذا لم يتم تدجينه وترويضه فقد ينطلق متوحشاً ويسبب لك الأحزان. فالسلطة لا تأتي للذين يبعثرون كنز كلماتهم.

> تتفتح المحارات تفتحاً كاملاً عندما يكون القمر بدراً. وعندما يرى السرطان واحدة منها، يلقي في داخلها حجراً أو عشبةً بحرية تمنعها من الانغلاق ثانية، بحيث تصبح وجبة لحميّة للسرطان. وهذا مصير مَنْ يفتح فمه أكثر من اللازم، وبذلك يضع نفسه تحت رحمة مَنْ يستمع إليه.
>
> ليوناردو دافينشي (١٤٥٢ ــ ١٥١٩)

مراعاة القانون

في بلاط لويس الرابع عشر، كان النبلاء والوزراء يمضون أياماً وليالي في مناقشة قضايا الدولة. فيجتمعون، ويتجادلون، ويقيمون التحالفات ويفكّونها، ويعودون إلى الجدل، حتى تصل اللحظة الحرجة في آخر الأمر. فيتم اختيار اثنين منهم لتقديم الجوانب المختلفة إلى لويس نفسه، وهو الذي يقرر ما الذي ينبغي عمله. وبعد اختيار هذين الشخصين يتابع الجميع مزيداً من الجدل. كيف يجب صياغة القضايا المطروحة؟ وما الذي سيعجب لويس وما الذي سوف يزعجه؟ وفي أي وقت من اليوم ينبغي أن يذهب إليه الممثلان؟ وفي أي جزء من قصر فرساي؟ وما التعبير الذي ينبغي أن يرتسم على وجهيهما؟

وأخيراً، بعد أن يتم إقرار ذلك كله، تأتي اللحظة المصيرية في خاتمة المطاف. ويقترب الرجلان من لويس ــ وكانت هذه دائماً مسألة حساسة ــ وعندما ينصت إليهما في آخر الأمر، يتحدثان عن الموضوع المثار، ويعرضان عليه الخيارات المطروحة بالتفصيل.

قد تترك الكلمات غير اللائقة لأحد الرعايا أثراً غالباً ما يكون أعمق جذوراً من ذكرى الأعمال المؤذية. . .

فقد قال إيرل إسكس للملكة آليزابيث [الأولى] إن شروطها معوجة كجثتها. ولكن ذلك كلّفه رأسه، الذي ما كان تمرّده ليودي به لولا كلماته تلك.

السير وولتر رالي
1554 ـ 1618

ويستمع إليهما لويس في صمت، وعلى وجهه نظرة شديدة الغموض. وأخيراً، بعد أن ينتهي كل من الرجلين من عَرْض ما لديه، ويطلب رأي الملك، ينظر الملك إليهما قائلاً: «سوف أرى» ثم يبتعد عنهما. ولا يسمع الوزراء ورجال الحاشية كلمة أخرى من الملك أبداً حول هذا الموضوع، بل يرون النتائج ببساطة، بعد أسابيع، عندما يصل إلى قرار ويعمل بموجبه. فلا يكلف نفسه عناء استشارتهم ثانيةً في القضية.

التفسير

كان لويس الرابع عشر رجلاً قليل الكلام. وكانت أشهر كلماته هو قوله: «أنا الدولة». وليس هناك عبارة أقوى ولا أبلغ. وكانت عبارته الشائنة: «سوف أرى» واحدة من جمله القصيرة العديدة التي كان يطبقها على كل أنواع الطلبات.

ولم يكن لويس كذلك دائماً: فقد كان معروفاً عنه في شبابه أنه يتكلم بشكل مستفيض، مستمتعاً ببلاغته. وكان صمته اللاحق شيئاً فرضه على نفسه، تمثيليةً، وقناعاً يستخدمه لإبقاء جميع مَنْ دونه على حذر وتوجس. فلم يكن أحد يعرف موقفه بالضبط، أو يتمكن من التنبؤ بردود فعله. ولم يكن أحد يستطيع أن يحاول خداعه بأن يقول ما يظنون أن الملك يرغب في سماعه، لأنه لم يكن أحد يعلم ما الذي يريد سماعه. فبينما كانوا يتحدثون ويتحدثون إلى لويس الصامت، كانوا يكشفون عن أنفسهم المزيد والمزيد من المعلومات التي يستخدمها لويس ضدهم فيما بعد بطريقة شديدة الفاعلية.

وفي آخر الأمر فإن صمت لويس أبقى الذين من حوله مرتعبين وخاضعين رهن إشارته. فكان ذلك الصمت أحد أسس سلطته. وكما كتب سان سيمون: «لم يكن أحد يعرف مثله كيف يبيع كلماته، وابتساماته، وحتى نظراته. كان كل شيء فيه نفيساً، لأنه خلق فوارق، ولقد اتسعت جلالته من ندرة كلماته».

إن تفوّه وزير بأشياء حمقاء اكثر ضرراً حتى من ارتكابه إياها

(الكردينال دي ريتز، 1613 ــ 1679)

مفاتيح السلطة

السلطة في نواحٍ عديدة لعبة مظاهر، وعندما تقول أقل مما هو ضروري فإنك تظهر حتماً أكبر وأقوى مما أنت عليه، إذ أن صمتك يفقد الآخرين راحتهم. فالبشر آلات تفسير وتوضيح؛ يشعرون أن عليهم أن يعرفوا ما الذي تفكِّر به. فعندما تسيطر بدقة وعناية على ما تكشفه، فإنهم يعجزون عن تقويم نواياك أو مقاصدك. إن أجوبتك المقتضبة وحالات صمتك ستجعلهم يتخذون موقفاً دفاعياً. وسيسارعون إلى القفز ليملأوا الصمت بصورة عصبية بكل أنواع التعليقات التي تكشف معلوماتٍ قيّمةً عنهم وعن نقاط ضعفهم. وسيخرجون من اجتماعهم بك شاعرين بأنهم قد نُهِبوا، ويذهبون إلى بيوتهم وهم يتفكرون بكل واحدة من كلماتك. ولن يكون من نتيجة هذا الاهتمام الزائد بتعليقاتك المختصرة سوى زيادة سلطتك.

وليس النطق بأقل مما هو ضروري قاصراً على الملوك ورجال الدولة فقط، ففي جميع مجالات الحياة، كلما قلّ ما تتفوه به زاد ظهورك بمظهر الشخص العميق والغامض. لقد اكتشف الفنان الأميركي آندي وارهول في شبابه أن من المستحيل عموماً أن تجعل الناس يفعلون ما تريدهم أن يفعلوه بالتحدث معهم. بل إنهم سينقلبون ضدك، ويعاكسون رغباتك ويعصونك بسبب حبّهم للعناد والمشاكسة المحضة. فقال لصديق له ذات مرة: «لقد تعلمت أن لك سلطة أكثر عندما تغلق فمك».

وفي حياته اللاحقة استخدم وارهول هذه الخطة بنجاح عظيم. فكانت مقابلاته تدريبات على ممارسة كلام العرافين المقتضب المبهم. إذ كان ينطق بشيء غامض يجعل الشخص الذي يجري المقابلة معه يتلوى في دوائر وهو يحاول فهم قوله، متصوراً أن هناك شيئاً عميقاً وراء عباراته التي كثيراً ما كانت بلا معنى. وكان وارهول نادراً ما يتحدث عن

أعماله، بل يترك مهمة الشرح والتفسير للآخرين، وقد زعم أنه تعلم هذا الأسلوب من أستاذ الغموض، الرسام الفرنسي مارسيل دو شامب (1887 ـ 1968)، وهو أحد فناني القرن العشرين الذين أدركوا في وقت مبكر أنه كلما قلّ ما يقوله عن عمله زاد حديث الناس عنه. . وكلما زاد حديثهم، ارتفعت قيمة عمله.

إنك بتقليل كلامك تخلق مظهراً من المغزى العميق والسلطة. كما أنه كلما قل كلامك تناقص خطر تفوهك بشيء أحمق، بل وخطر. في سنة 1825، تسنم عرش روسيا قيصر جديد هو نيقولا الأول. وعلى الفور تفجرت ثورة يقودها أحرار يطالبون بتحديث البلاد بجعل صناعاتها وهياكلها المدنية تلحق بباقي أوروبا. فقام نيقولا الأول بسحق التمرد (الذي عرف باسم انتفاضة ديسمبر/كانون الأول) بوحشية وحكم على أحد قادته، كوندارتي ريلييف، بالإعدام. وفي يوم التنفيذ وقف ريلييف على منصة الإعدام وقد التفَّت أنشوطة الحبل على عنقه. وانفتحت الفجوة تحت قدميه، ولكن عندما تدلى ريلييف انقطع الحبل به فألقاه أرضاً. وفي ذلك الزمن كانت حوادث كهذه تعتبر إشارات من الحكمة أو العناية الإلهية، فكان الرجل الذي ينجو من الإعدام بهذه الطريقة يتلقى عفواً في العادة. وعندما نهض ريلييف على قدميه، وقد أصيب برضوض وأوساخ، ولكنه اعتقد بأن عنقه قد سلمت، صاح في الجمهور المحتشد: «هل ترون؟ إنهم في روسيا لا يعرفون كيف يعملون أي شيء بطريقة صحيحة، وحتى كيف يصنعون حبلاً!».

فتوجه رسولٌ في الحال إلى القصر الشتوي يحمل خبر الإعدام الفاشل. وانزعج القيصر من هذا التغيّر المخيب للآمال، وكان على وشك توقيع العفو، غير أنه سأل الرسول: «هل قال ريلييف أي شيء بعد هذه المعجزة؟» فردّ الرسول: «يا سيدي، لقد قال إنهم في روسيا لا يعرفون حتى كيف يصنعون حبلاً».

فقال القيصر: «في هذه الحال، دعونا نثبت العكس»، ومزّق

مرسوم العفو. وفي اليوم التالي شنق ريلييف ثانيةً. وفي هذه المرة لم ينقطع الحبل.

تعلَّم الدرس: إذا خرجت الكلمات من فمك، فإنك لن تستطيع استرجاعها. فأبقها تحت السيطرة. واحذر من السخرية بشكل خاص. إذ أن الاستحسان المؤقت الذي تكسبه بكلماتك الجارحة سيرجحه وزناً الثمن الذي تدفعه.

صورة: العراف
في دلفي. عندما كان الزوار
يستشيرون العراف كان الكهنة
يتفوهون بكلمات قليلة غامضة تبدو مليئة
بالمعنى والفحوى والأهمية. فلم يكن أحد يعصي
كلمات العراف، إذ كانت لها سلطة الحياة والموت.

الشاهد: لا تبدأ بتحريك شفتيك وأسنانك قبل أن يفعل ذلك المرؤوسون الذين هم دونك. فكلما طال صمتي، سارع الآخرون إلى تحريك شفاههم وأسنانهم، وأثناء ذلك أفهم نواياهم الحقيقية... فإذا لم يكن العاهل غامضاً فإن الوزراء سيجدون الفرصة سانحة كي يأخذوا ويأخذوا. (هان ـ في ـ تزو، الفيلسوف الصيني في القرن الثالث ق.م.).

الانقلاب

هناك أوقات ليس من الحكمة فيها التزام الصمت. فالصمت قد يثير الشكوك، بل الخطر وعدم الأمن لدى رؤسائك على وجه الخصوص، والتعليق الغامض والملتبس قد يجعلك عرضةً لتفسيرات لم تقصدها أو تساوم عليها. فالصمت والنطق بما هو أقل من الضروري شيئان ينبغي ممارستهما بحذرٍ إذن، وفي الأحوال المناسبة. وقد يكون من الحكمة أحياناً تقليد مهرج البلاط الذي يلعب دور الأحمق، ولكنه يعرف أنه أذكى من الملك. فهو يتحدث ويتحدث ويسلّي، ولا يرتاب أحد في أنه أكثر من مجرد مهرج.

كما أن الكلمات قد تعمل أحياناً كنوع من الستار الدخاني لتغطية أي خداع قد تمارسه. وبجعل أذني مستمعك تميلان إلى كلامك فإنك تستطيع أن تلهيهما وتشدهما إليك، بحيث أن المستعمين تتناقص شكوكهم فيك كلما زاد حديثك. فالثرثار لا يعتبره المستمعون ماكراً أو متلاعباً، بل شخصاً بسيطاً مسكيناً لا حول له. وهذا عكس سياسة الصمت التي يستخدمها الأقوياء ذوو السلطة. وبكثرة الكلام والظهور بمظهر الضعف وقلة الذكاء، تستطيع أن تمارس الخداع بسهولة أكبر.

القانون

5

يتوقف الكثير على سمعتك ـ فحافظ عليها بحياتك

الحكم

السمعة هي حجر أساس السلطة. وعن طريق السمعة وحدها تستطيع أن تُرْهِبَ وتفوز، غير أنك إذا انزلقت فستصبح مكشوفاً وعرضة للهجوم من كل جانب. فاجعل سمعتك منيعة تستعصي على الهجوم. وكن يقظاً على الدوام إزاء الهجمات المحتملة، وأحبطها قبل وقوعها. وفي غضون ذلك، تعلّم كيف تدمّر أعداءك بفتح ثغرات في سمعاتهم، ثم قف جانباً واترك الرأي العام يشنقهم.

مراعاة القانون 1

أثناء حروب الممالك الثلاث في الصين (207 ـ 265م) قام الجنرال الكبير تشوكو ليانغ، الذي كان يقود قوات مملكة شو، بإرسال جيشه الكثيف إلى معسكر بعيد، بينما كان يرتاح في مدينة صغيرة مع حفنة من الجنود. وفجأة هرع إليه الحرس بخبر مفزع بأن هناك قوة معادية من 150000 جندي تقترب من المكان بقيادة سيما يي. ولم يكن لدى تشوكو ليانغ سوى مائة رجل يدافعون عنه، فكان وضعه ميؤوساً منه. كان العدو في آخر الأمر على وشك أسر هذا القائد الشهير.

هذا تطبيق عملي لقول أبي نؤاس:
ربما استفتحتَ بالمزحِ مغاليق الحِمامِ
إنما السالم من ألجم فاه بلجامِ
وتصديق لقول المتنبي:
جراحات السنان لها التئامٌ ولا يلتامُ ما جرح اللسانُ
(المترجم)

وبدون أن يأسف ليانغ على مصيره أو يضيع وقتاً في تصور كيف تم الإيقاع به، أمر قواته بإنزال أعلامها وفتح أبواب المدينة على مصاريعها، والاختباء. ثم جلس على مقعد على أبرز جزء من سور المدينة، مرتدياً جلباباً طاويّاً. وأشعل بعض البخور، وشدّ أوتار عوده، وشرع في الإنشاد. وبعد دقائق استطاع أن يرى الجيش المعادي الكثيف وهو يزحف مقترباً بكتائب من الجنود لا نهاية لها. فتظاهر بأنه لم يرهم، واستمر في الغناء والعزف على العود.

الحيوانات المضروبة بالطاعون

أرسلت السماء على الأرض طاعوناً مخيفاً هدفه صبّ جام غضبها على عالم خاطىء أرادت أن تسميه باسمه الذي يستحق. ووقع الطاعون ـ ذلك الإناءُ الذي يملأ شُمُّه نهر الجحيم ـ على كل الحيوانات. فلم تَمُتْ جميعها، ولكنها سقطت جميعاً تعاني سكرات الموت، ولم يعد أيٌّ منها يحاول العثور على وقود جديد لتغذية الومضات المتقطعة لشعلة الحياة فيها. ولم يعد أي طعام

وسرعان ما كان الجيش يقف على أبواب المدينة، وعلى رأسه سيما ـ يي، الذي عرف الرجل الواقف على السور على الفور.

ومع ذلك، وبينما كان جنود سيما ـ يي يتحرقون لدخول المدينة

غير المحروسة عبر بواباتها المفتوحة، فقد تردد، ومنعهم، وأخذ يدرس ليانغ الجالس على السور، ثم أمر بانسحاب فوري وسريع.

التفسير

كان تشوكو ليانغ معروفاً بلقبٍ شاع عنه وهو «التنين النائم». وكانت منجزاته في حرب الممالك الثلاث أسطورية. وذات مرة جاء إلى معسكره رجل زعم أنه ملازم ساخط من أعدائه، وعرض عليه معونة ومعلومات، وأدرك ليانغ في الحال أن في الأمر مكيدة وأن هذا الرجل هارب مزيف ينبغي قطع رأسه، غير أنه في اللحظة الأخيرة، وبينما كان الفأس على وشك أن يهوي على عنقه، أوقف ليانغ الإعدام، وعرض على الرجل حقن دمه إذا وافق على أن يصير عميلاً مزدوجاً، فوافق الرجل وهو يشعر بالعرفان وبالرعب معاً، وبدأ يزود العدو بمعلومات زائفة. وراح ليانغ يكسب معركة بعد أخرى.

وفي مناسبة أخرى سرق ليانغ ختماً عسكرياً، ولفق وثائق مزورة فيها أوامر بإرسال قوات عدوه إلى مواقع نائية. وعندما تبعثرت تلك القوات، تمكن من الاستيلاء على ثلاث مدن. وتمكن ذات مرة من خديعة عدوه بجعله يعتقد أن واحداً من أفضل جنرالاته كان خائناً. . مما أرغم ذلك الرجل على الهرب والانضمام إلى ليانغ. وبعناية دقيقة راح التنين النائم يسهر على تنمية سمعته باعتباره أبرع رجل في الصين، وبأنه يخفي في كمه خديعة على الدوام. وألقت هذه السمعة الرعب في قلوب أعدائه، لأن السمعة لها قوة توازي قوة أي سلاح.

وكان سيما ـ يي قد قاتل ضد تشوكو ليانغ عشرات المرات، فكان يعرفه جيداً، فعندما أطلّ على المدينة الخالية، ورأى ليانغ ينشد ترانيمه الدينية على الجدار، أصيب بالذهول. فالجلابيب الطاوية، والإنشاد، والبخور، لا بد أنها لعبة تخويف. فمن الواضح أن الرجل كان يتحداه ويغريه بالتجرؤ على أن يخطو إلى داخل فخّ منصوب. ولقد كانت اللعبة

بثير شهيتها. فلم تعد الذئاب والثعالب تطوف بحثاً عن فرائسها غير المؤذية التي لا معين لها. ولم تعد الحمامات تناغي بهديلها، إذ أن الحبُّ والمرح قد طارا مبتعدين عن حياتها. فجلس الأسد على كرسيه وقال: «يا أصدقائي الأعزاء، لا أشك في أن للسماء أهدافاً سامية من إسقاط ويل المذنبين علينا. فليسقط صاحب أكبر الذنوب فينا ضحية انتقام حشود السماء، وأرجو أن يفوز بالخلاص لنا جميعاً؛ لأن التاريخ يعلمنا أن نقدم الأضاحي في هذه الأزمات. فلتفحص ضمائرنا بنظرات صارمة دون أن نخدع أنفسنا تكما أذكر، كنت أنوّم شهيتي الشرهة بالتهام خراف كثيرة لم تكن قد آذتني بحال. بل لقد عُرِفَ عني في أيامي أنني كنت أتذوّق لحوم الرعاة كأنها فطيرة فإذا دعت الحاجة إذن، فإنني مستعد للموت ولكني أشك في أن الآخرين ينبغي أن يعترفوا بخطاياهم كذلك فمن الإنصاف أن يحاول الجميع ما في وسعهم لتحديد أكثرنا ذنوباً».

فبدأ الثعلب بالكلام قائلاً: «يا سيدي إنك ملك جيد، وإن وساوسك هذه لمرهفة الإحساس أكثر مما ينبغي. ولعمري إن الخراف لقطعان نجسة فظة، فهل أكلها خطيئة؟ كلا يا سيدي، بل يكفي مثل هذا الرهط أن يلتهمه مثلك. أما بالنسبة للرعاة فيحق لنا القول بأنهم يستحقون ما وقع لهم. فهم الذين يتآمرون علينا نحن

من الوضوح إلى درجة أن ذهن يي قد داخلته لحظةً فكرة كون ليانغ وحيداً حقاً، ويائساً. غير أن خوفه من ليانغ وصل إلى درجة أنه لم يجرؤ على أن يغامر باكتشاف الأمر. فهذه هي قوة السمعة. إنها تستطيع أن ترغم جيشاً ضخماً على اتخاذ موقف الدفاع، بل وتضطره إلى التراجع قبل أن ينطلق ضده سهم واحد.

> لأنه، كما يقول شيشرون، حتى أولئك الذين يجادلون ضد الشهرة، كانوا يريدون من الكتب التي يؤلفونها ضدها أن تحمل أسماءهم في عناوينها لعلهم يشتهرون بازدرائهم للشهرة. وكل شيء آخر موضع مقايضة: فنحن مستعدون لإعطاء أصدقائنا بضائعنا وحيواتنا إذا دعت الحاجة ولكن لا تكاد توجد حالة تجعلنا نقتسم شهرتنا معهم ونقدم سمعتنا هدية لشخص آخر.
>
> (مايكل إيكويم دي مونتين، 1533 ـ 1592)

مراعاة القانون 2

في سنة 1841، بينما كان الشاب: ب .ت بارنوم، يحاول تأسيس سمعته باعتباره رجل الاستعراضات الأول في أميركا، قرر أن يشتري المتحف الأميركي في مانهاتن، ويحوله إلى مجمع للأشياء الغريبة يؤمّن له سمعته. وكانت مشكلته أنه لم يكن لديه مال. وكان الثمن المطلوب للمتحف 15000 دولار. ولكن بارنوم استطاع أن يقدم اقتراحاً أعجب مالكي المؤسسة المذكورة رغم أنه استبدل بالنقود عشرات من الضمانات ورسائل الدعم. وتوصل المالكون إلى اتفاق شفهي مع بارنوم، ولكن في اللحظة الأخيرة غيّر الشريك الرئيسي رأيه، فبيع المتحف ومجموعته إلى متحف بيل. وثارت ثائرة بارنوم، ولكن الشريك أوضح له أن التجارة تجارة؛ فقد بيع المتحف إلى بيل لأن بيل له سمعة وشهرة، على عكس بارنوم.

فقرر بارنوم على الفور أنه إذا لم تكن له سمعة يعتمد عليها، فإن الطريق الوحيد أمامه هو اللجوء إلى تدمير سمعة بيل. وبناء على ذلك

الوحوش مهم جمع مهلهلٌ من الحالمين المتحكمين بنا»

هكذا تكلم الثعلب، فارتفعت الهتافات. ولم يجرؤ أحد على إلقاء نظرة أبرد مما ينبغي على أكبر الذنوب التي لا تغتفر للنمر والدب والوحوش البارزة الأخرى، فقد اتفق الجميع على أن كلاً منهاقديس، مهما كانت سلالته المهجّنة دنية.

ثم جاء الحمار ليقول: «إنني أذكر بالتأكيد أنني كنت ذات مرة أعبر مرجاً تابعاً لأحد الأديرة. وكان عشبه وفيراً، ولا أشك أن الجوع والطمع قد هاجماني، فالتهمتُ حفنةً بعرض لساني وملء فمي من ذلك الحشيش الذي لم يكن لي حق فيه، بصراحة». وعلى الفور ارتفعت صيحات الاستهجان ضد الحمار من الجميع. وشهد ذئب عنده علم من الكتب أن ذلك الحيوان اللعين يجب أن يتحمل كل الأذى الواقع بهم، فهو، صاحب الجلد الغليظ المتقرّح، سبب ما نزل بهم من بلاء يرثى له. فحكموا عليه أنه لا يصلح لشيء سوى أن يكون طعاماً للمشنقة. فكم هو وضيع بغيض الاستيلاء على عشب الآخرين! ولن يكفّر عن هذا الجرم الشائن الشنيع سوى موته، كما يعلم هو ذلك حق العلم.

فالحكمة، سواء أكنت غنياً صاحب أملاك أم فقيراً مدقعاً تصبغك بالسواد أم البياض بالتناوب.

أفضل خرافات لافونتين
جان دي لافونتين
1695 - 1621

دشن حملة من كتابة الرسائل إلى الصحف أطلق فيها على المالكين لقب زمرة من «مدراء المصارف المكسرين» الذين ليست لديهم فكرة عن كيفية إدارة متحف أو إمتاع الناس. وحذر الجمهور من شراء أسهم بيل، إذ أن قيام شركتهم بشراء متحف آخر سيؤدي حتماً إلى ضغط ثقيل لا تحتمله مواردهم. وكانت الحملة فعالة مؤثرة، فهبطت قيمة الأسهم. ولما انعدمت الثقة بسجل سلوك بيل وسمعته، تراجع مالكو المتحف الأميركي عن صفقتهم وباعوا المؤسسة بأكملها لبارنوم.

واستغرقت سمعة الشركة، بيل سنوات حتى تعافت، ولكن أصحابها لم ينسوا قطّ ما فعله بهم بارنوم. وقرر السيد بيل نفسُه أن يهاجم بارنوم ببناء سمعة شركته باعتبارها «مسلية لعلية القوم» وبترويج برامج متحفه على أنها علمية أكثر من برامج منافسه الفظة المبتذلة. وكانت المسمرة (التنويم المغناطيسي) واحدة من وسائل الاجتذاب «العلمية» لشركة بيل. وقد اجتذبت جماهير غفيرة لفترة مّا وكانت ناجحة تماماً. ولكي يقاوم بارنوم، قرر أن يعود إلى مهاجمة سمعة بيل من جديد.

وهكذا نظّم بارنوم أداء مغناطيسياً منافساً كان فيه ينوّم بنفسه فتاة صغيرة على ما يبدو. وعندما كان يظهر عليها الدخول في غيبوبة عميقة، كان يحاول تنويم المتفرجين. ولكن لم يقع تحت تأثيره أحد من المشاهدين مهما حاول، فبدأ كثيرون منهم يضحكون. فأعلن بارنوم المحبط في آخر الأمر أنه سَيُثْبِتُ أن غيبوبة الفتاة الصغيرة حقيقية، بقطع أحد أصابعها دون أن تشعر. ولكن بينما كان يشحذ السكين، فتحت الفتاة الصغيرة عينيها وولَّت هاربة، مما أمتع الجمهور. فكرَّر بارنوم هذا التقليد الساخر وغيره عدة أسابيع، حتى لم يعد أحد يأخذ استعراضات بيل على محمل الجد، وتناقص عدد الحضور كثيراً. وفي غضون أسابيع قليلة أغلق الاستعراض. وعلى امتداد السنوات القليلة التالية بنى بارنوم سمعته في الجرأة والتهور كرجل استعراضات من الطراز الأول، وهي سمعة استمرت طيلة حياته، بينما لم تسترد مؤسسة بيل سمعتها على الإطلاق.

التفسير

استخدم بارنوم طريقتين مختلفتين لتخريب سمعة بيل. كانت أولاهما بسيطة: زرع بذور الشك في استقرار المتحف وسلامة موقفه المالي. والشك سلاح قويّ: ما أن تخرجه من غمده بالشائعات الخبيثة حتى توقع خصومك في مأزق رهيب. فهم يستطيعون من جهة أن ينكروا الإشاعات، وحتى أن يثبتوا أنك تشهر بهم ولكن طبقةً من الشك سوف تبقى. فلماذا يدافعون عن أنفسهم بمثل هذه الاستماتة اليائسة؟ لعل في الإشاعة شيئاً من الحقيقة؟ ومن جهة أخرى، إذا سلك خصومك طريقاً أعلى فتجاهلوك، فإن الشائعات بغير تفنيد ستصبح أقوى. والإشاعات ـ إذا تم زرعها بشكل صحيح ـ ستثير ثائرة منافسيك وتفقدهم استقرارهم، بحيث أنهم في غمرة دفاعهم عن أنفسهم سيرتكبون أخطاء عديدة. فهذا سلاح مثالي للذين ليست لهم سمعة خاصة بهم يستندون إليها وينطلقون منها.

وعندما صار لبارنوم سمعة خاصة به، استخدم الخطة الثانية، الألطف وهي استعراض التنويم المغناطيسي المزيف: فسخر من سمعة منافسيه، وكانت السخرية ـ هي الأخرى ـ ناجحة للغاية. فعندما تكون لديك قاعدة صلبة من الاحترام، فإن سخريتك من خصمك تضعه في موقف الدفاع وتلفت الأنظار إليك في الوقت نفسه، مما يعزز سمعتك. وعند هذه النقطة فإن التشهير والإهانة المباشرين يُعْتَبَران أقوى من اللازم؛ إذ أنهما قبيحان، وقد يؤذيانك أكثر مما يساعدانك. ولكن الوخزات الخفيفة والسخرية توحي بأن لديك إحساساً بقيمتك قوياً بما فيه الكفاية لتمكينك من الاستمتاع بضحكة جيدة على حساب منافسك. فواجهة الدعابة يمكن أن تجعلك تبدو مسلياً لا ضرر منه وأنت تحفر ثغرات في سمعة منافسك.

إن تحمل ضمير فاسد أسهل من تحمل سمعة رديئة

(فردريك نيتشه، 1844 ــ 1900)

مفاتيح السلطة

إن الناس الذين حولنا، حتى أقرب أصدقائنا، يظلون دائماً غامضين ويصعب سبر أغوارهم إلى حدٍّ مّا. فشخصياتهم فيها فجوات سرية لا يكشفونها قطّ. وعدم القدرة على معرفة الآخرين قد تثير قلقنا إذا فكرنا فيها مطولاً، إذ أن ذلك يجعل من المستحيل علينا أن نحكم على الناس في الحقيقة. وهكذا، فإننا نفضل تجاهل هذه الحقيقة والحكم على الناس بحسب مظاهرهم، بحسب ما هو مرئي لعيوننا، كالملابس، والإشارات، والكلمات، والأعمال. والمظاهر في المجال الاجتماعي هي مقياس كل أحكامنا تقريباً. وعليك أن لا تُضَلَّل أبداً بالإيمان بشيء آخر. ذلك أن أي انزلاق أو تغيير مفاجىء أخرق في مظهرك يمكن أن يتكشف عن كارثة.

وهذا هو سبب الأهمية القصوى لبناء سمعة تخلقها بنفسك وتحافظ عليها.

فتلك السمعة ستحميك في اللعبة الخطرة للمظاهر، فتبعد عيون الآخرين الفاحصة عن معرفة ماهيتك الحقيقية، وتمنحك بعض السيطرة على الكيفية التي يحكم بها عليك العالم. . مما يضعك في مركز قوي. فللسمعة قوة كالسحر، فهي قادرة على مضاعفة قوتك بلمسة من عصاها السحرية، كما أنها يمكن أن تشتّت الناس بعيداً عنك. وعلى سمعة الفاعل قد تترتب كلّيّاً مسألة ما إذا كانت الأعمال نفسها ستبدو رائعة أم رهيبة.

في بلاط مملكة وي في الصين القديمة كان هناك رجل يدعى مي تزو ـ هسيا، وكانت له سمعة بأنه شديد اللطف والكياسة، وقد فاز بالحظوة الفضلى لدى الحاكم. وكان في مملكة وي قانون ينص على أن «أي شخص يركب سراً في عربة الحاكم تقطع قدماه». ولكن عندما مرضت والدة تزو ـ هسيا، استخدم العربةَ الملكية لزيارتها، متظاهراً بأن الحاكم قد أعطاه الإذن بذلك. وعندما علم الحاكم بالأمر قال: «ما أشد

إحساس مي تزو ـ هسيا بالواجب! فمن أجل أمه نسي أنه يرتكب جريمة تعرضه لفقدان قدميه!».

وذات مرة كان الاثنان يتجولان في خميلة، وبدأ مي تزو ـ هسيا يأكل خوخة لم يستطع أن يكملها فأعطى الحاكم نصفها الآخر ليأكله، فلاحظ الحاكم: «إنك تحبني إلى درجة تجعلك تنسى طعم لعابك وتطمعني باقي الخوخة!».

غير أن زملاء هسيا من رجال الحاشية حسدوه فيما بعد وبدأوا ينشرون إشاعات بأنه منحرف ومتغطرس، فنجحوا في الإضرار بسمعته، فراح الحاكم يرى أعماله تحت ضوء مختلف. فقال لرجال حاشيته في غضب: «لقد ركب هذا الشخص في عربتي ذات مرة متظاهراً أن ذلك كان بأمري، وفي مرة أخرى أعطاني خوخة نصف مأكولة». وهكذا فإن الأعمال التي سحرت الحاكم وأثارت إعجابه عندما كان مي تزو ـ هسيا صاحب الحظوة عند الحاكم، صارت هي نفسها ذنوباً يعاقَبُ عليها. لقد كان مصير قدميه يعتمد حصراً على قوة سمعته فقط.

إن عليك في البداية أن تبدأ ببناء سمعة لصفة بارزة فيك، سواء أكانت الكرم أم النزاهة أم المكر والدهاء، فهذه الصفة تفردك عن الآخرين وتجعلهم يتحدثون عنك. ثم تُعرّف أكبر عدد ممكن من الناس بهذه السمعة (ولكن بصورة ذكية خفية، واعتنِ بالبناء ببطء وعلى أساس صلب)، ثم تفرج عليها وهي تنتشر كالنار في الهشيم.

فالسمعة الصلبة تعزّز حضورك، وتبالغ في قواك دون أن تضطر إلى صرف طاقة كبيرة. بل إنها تستطيع أن تخلق حولك هالة تغرس في النفوس الاحترام، وحتى الخوف. وأثناء القتال في صحراء إفريقيا الشمالية في الحرب العالمية الثانية كانت للقائد الألماني الجنرال إروين رومل سمعة في المكر والمناورات الخداعة ألقت الرعب في نفوس كل الذين واجهوه. وحتى عندما نضبت قواته وتناقصت، وعندما كانت الدبابات الإنكليزية تتفوق على دباباته عددياً بنسبة خمسة إلى واحد.

كانت مدن بكاملها تُخْلَى عند سماع أخبار اقترابه منها.

وكما يقولون، فإن سمعتك تسبقك، فإن كانت توحي بالاحترام، فإن جزءاً كبيراً من عملك سيقوم به الآخرون نيابةً عنك قبل وصولك إلى المسرح وقبل أن تنطق بكلمة واحدة.

ويبدو أن نجاحك تقرره انتصاراتك السابقة. وقد كان جزء كبير من نجاح ديبلوماسية هنري كيسنجر المكوكية يستند إلى سمعته في تسوية الخلافات. إذ لم يكن أحد يرغب في أن يُعْرَفَ عنه أنه غير معقول بحيث لم يستطع كيسنجر أن يثنيه عن رأيه. كانت معاهدة السلام تبدو أمراً واقعاً عندما يذكر اسم كيسنجر مرتبطاً بالمفاوضات.

اجعل سمعتك بسيطة ترتكز على صفة أصيلة واحدة. فهذه الصفة الوحيدة ـ كالكفاءة، أو الإغواء مثلاً ـ تصبح بطاقة زيارة تعلن عن حضورك وتضع الآخرين تحت وطأة سحرك. إن سمعة النزاهة تتيح لك ممارسة كل أنواع الخداع. فقد كان كازانوفا يستغل سمعته كمغوٍ كبير للنساء لتمهيد الطريق إلى غزواته المقبلة. فكانت النساء اللواتي يسمعن بقدراته يصبحن فضوليات إلى حد هائل، ويرغبن في أن يكتشفن بأنفسهن ما الذي جعله ينجح في غرامياته.

وربما تكون قد لوثت سمعتك بحيث لا تستطيع بناء سمعة جديدة. وفي مثل هذه الحالات فإن من الحكمة أن ترتبط بشخص صورته معاكسة لصورتك، مستخدماً سمعته النظيفة لتبييض سمعتك والارتفاع بها. وعلى سبيل المثال فإن من الصعب عليك أن تمسح بنفسك سمعتك كمخادع، ولكن شخصاً يعتبر مثالاً على النزاهة يمكن أن يساعدك. فعندما أراد: ب .ت. بارنوم أن ينظف شهرته بترويج المتعة الفظة المبتذلة الرعاعية، جَلَبَ المغنية جيري ليند من أوروبا. وكانت لها سمعة كنجمة ممتازة من الطراز الأول، فتحسنت صورته كثيراً نتيجة للجولة الأميركية التي نظمها لها برعايته. وبطريقة مماثلة، فإن أقطاب اللصوصية الكبار في أميركا القرن التاسع عشر، ظلوا زمناً طويلاً عاجزين

عن تخليص أنفسهم من شهرتهم بالقسوة واللؤم والحقارة، ولم يستطيعو أن يلطفوا من صورتهم البغيضة إلاّ بعد أن راحوا يجمعون التحف الفنية بحيث ارتبطت أسماء مورغان وفريك ارتباطاً دائماً بأسماء فنانين مثل ليوناردو دافنشي ورمبراندت.

إن السمعة كنز يجب تجميعه وتخزينه بعناية، ويتعين عليك أن تحميها بصرامة، ولا سيما وأنت في بداية بنائها، متوقعاً كل أنواع الهجمات عليها. فإذا صارت صلبة فلا تدع نفسك تغضب أو تتخذ موقف الدفاع إزاء التعليقات التشهيرية لأعدائك؛ فإن ذلك يوحي بعدم الأمن، وليس بالثقة في سمعتك. بل اسلك الطريق الأسهل بدلاً من ذلك، وإياك أن تبدو يائساً في دفاعك عن نفسك. ومن جهة أخرى فإن مهاجمة سمعة رجل آخر هي سلاح فعال، وخاصة عندما تكون سلطتك أقل من سلطته. . فلديه شيء يخسره في مثل هذه المعركة أكبر بكثير مما لديك. فسمعتك التي ما تزال صغيرة تعطيه هدفاً صغيراً عندما يحاول أن يرد على نيرانك. وقد استخدم بارنوم مثل هذه الحملات بفعالية كبيرة في بواكير حياته العملية. ولكن هذه الخطة الانتهازية ينبغي ممارستها ببراعة، فعليك أن لا تبدو منهمكاً في انتقام حقير. إذْ أنك إن لم تحطم سمعة عدوك ببراعة فسوف تحطم سمعتك ذاتها عن غير قصد.

كان توماس آديسون، الذي يعتبر المخترع الذي سخّر طاقة الكهرباء، يؤمن أن النظام الذي يمكن تشغيله يجب أن يقوم على التيار المباشر. وعندما ظهر أن العالِم الصربي نيقولا تيسلا قد نجح في خلق نظام مبنيّ على التيار المتراوح، ثارت ثائرة آديسون. فقرر أن يدمّر سمعة تيسلا بجعل عامة الناس يعتقدون أن التيار المتراوح فيه خطر كامن يجعله غير مأمون، وأن تيسلا يتصرف بطريقة غير مسؤولة بترويجه له.

ولتحقيق هذا الغرض، جمع كل أنواع الحيوانات المنزلية المدللة. وكهربها حتى الموت بتيار متراوح. وعندما لم يكن ذلك كافياً، أقنع سلطات سجن نيويورك في عا 1890، بتنظيم أول عملية إعدام بالكهربة

في العالم، مستخدماً تياراً متراوحاً. ولكن تجارب الكهربة التي مارسها آديسون كانت على مخلوقات صغيرة. وفي حالة إعدام السجين كانت الشحنة أضعف من اللازم، فقتلت الرجل نصف قتلة مما اضطرهم لإعادة إجرائها في واحدة لعلها من أقسى حالات الإعدام المرخص به في ولاية. فكان المشهد رهيباً.

ورغم أن اسم آديسون هو الذي عاش في المدى البعيد، فإن حملته في ذلك الحين أضرّت بسمعته أكثر مما أضرت بسمعة تِيسْلاَ. وهكذا تراجع. فالدرس بسيط: إياك أن تذهب أبعد من اللازم في هجمات كهذه، لأن ذلك سيجتذب الاهتمام إلى نزعتك الانتقامية أكثر من اجتذابه إلى الشخص الذي تشهِّر به. وعندما تكون سمعتك راسخة، استخدم خططاً أكثر ذكاء وخفاء، كالسخرية والتهكم لإضعاف خصمك بينما تبرز أنت كوغد جذاب. فالأسد القوي يعبث بالجرذ الذي يأتي في طريقه؛ وأي رد فعل آخر قد يلوث سمعته المهيبة.

صورة:
منجم مليء بالماس
والياقوت. انت حفرته وانت
وجدته، فصارت ثروتك الآن مضمونة.
احفظه بحياتك. لان السلاّبين واللصوص سيظهرون من كل
جانب فلا تستهن بثروتك وتعتبرها تحصيل
حاصل، بل جددها باطراد ــ فالزمن سينقص بريق
المجوهرات، ويدفنها عن الانظار.

الشاهد: ولذلك اتمنى على رجل الحاشية عندنا أن يدعم جدارته الذاتية بالبراعة والمكر، وأن يضمن انه كلما ذهب إلى مكان هو غريب فيه فسوف تسبقه سمعته... ذلك ان الشهرة التي يبدو انها تستند إلى آراء أناس كثيرين سوف تغذي اعتقاداً اكيداً لا يتزعزع بجدارة صاحبها التي تقوى بعدئذ بسهولة في اذهان ميالة وجاهزة للإيمان بها.

(بلثازار كاستيليون، 1478 ــ 1529).

الانقلاب

ليس هناك انقلاب ممكن. فالسمعة شيء حساس. وليست هناك استثناءات لهذا القانون. وإذا لم تهتم بما يعتقده فيك الآخرون فقد تكتسب سمعة بالوقاحة والعجرفة. غير أن تلك الصورة في حد ذاتها قد تكون نفيسة. وقد استخدمها أوسكار وايلد مستفيداً منها استفادة كبيرة. فما دمنا مضطرين إلى العيش في المجتمع، والاعتماد على آراء الآخرين، فإنك لا تكسب شيئاً من إهمال سمعتك. فعدم اهتمامك بكيفية فهم الآخرين لك يؤدي إلى ترك القرار لهم. فكن سيد مصيرك، وسيد سمعتك كذلك.

القانون

6

اكسب لفت الأنظار بكل ثمن

الحكم

كل شيء يُحْكَمُ عليه بمظهره؛ وما هو خفيٌّ لا يساوي شيئاً. فلا تترك نفسك تضيع وسط الحشد إذن، أو يدفنك النسيان، بل ابرز وكن لافتاً للأنظار بكل ثمن. اجعل نفسك مغناطيس اهتمام بظهورك أكبر، وأسطع ألواناً وأكثر غموضاً من الجماهير العاديّة الوجلة.

القسم الأول: أحط اسمك بالإثارة والفضيحة

الفت الأنظار إلى نفسك بخلق صورة لا تُنسَى، بل وحتى مثيرة للجدل والخلاف. ابحث عن الفضيحة، وافعل أي شيء يجعلك تبدو أكبر من الحياة، وتشرق بسطوع أكثر ممّن حولك. ولا تميز بين أنواع الاهتمام. فالشهرة السيئة من أي نوع تجلب لك نفوذاً وسلطة. فالتشهير بك ومهاجمتك خير من تجاهلك.

مراعاة القانون

كان ب. ت. بارنوم، رجل الاستعراضات الأول في أميركا القرن التاسع عشر، قد بدأ حياته العملية كمساعد لصاحب سيرك اسمه هرون تيرنر. وفي سنة 1836، توقف السيرك في آنا بوليس بولاية ميريلاند لتقديم سلسلة من العروض. وفي صباح يوم الافتتاح، قام بارنوم بجولة في المدينة مرتدياً بذلة سوداء جديدة. وبدأ الناس يتبعونه. وصرخ شخص في الجموع المحتشدة أنه هو المبجل إفرايم ك. آفري، سيء الصيت الذي برأته المحكمة من تهمة قتل، ولكن معظم الأميركيين ظلو يعتقدون أنه مذنب. ومزق الحشد الغوغائي الغاضب بذلة بارنوم، وكان مستعداً لقتله. وبعد مناشدات يائسة، أقنعهم بارنوم في آخر الأمر أن يتبعوه إلى السيرك، حيث يستطيع إثبات هويته.

وعند وصولهم إلى هناك، أكد تيرنر أن هذه كانت كلها نكتة عملية: كان هو نفسه قد نشر الإشاعة بأن بارنوم هو آفري. فتفرق

الزنبور والأمير

ظل زُنْبُوْر يدعى ذيل الدبوس زمناً طويلاً يبحث عن عمل يخلّد شهرته إلى الأبد. وهكذا دخل قصر الملك ذات يوم ولسع الأمير الصغير، الذي كان راقداً في فراشه. فاستيقظ الأمير بصرخات عالية وهرع الملك ورجال حاشيته ليروا ما حدث. فوجدوا الأمير يصرخ والزنبور يلسعه مرة بعد مرة. وحاول رجال الحاشية أن يمسكوا بالزنبور، فتلقى كل منهم لسعةً بدوره. وهرع كل مَنْ في بيت الملك، وسرعان ما انتشر الخبر، فتقاطر الناس إلى القصر، وضجّت المدينة

كلها وتوقفت الأعمال. فقال الزنبور لنفسه قبل أن يهلك من الجهد الذي بذله: «إن اسماً بلا شهرة كنارٍ بلا شعلة. فليس هناك مثل اجتذاب الانتباه بأي ثمن».

خرافة هندية

الجمع، ولكن بارنوم، الذي كان على وشك أن يُقْتَلَ، لم يكن مسروراً بهذا المقلب. فأراد أن يعرف ما الذي أقنع رئيسه بلعب هذه الخدعة. فردّ عليه تيرنر: «يا عزيزي بارنوم، كان ذلك كله لصالحنا. تذكّر أن كل ما نحتاج إليه لضمان النجاح هو الصيت السيء». وبالفعل راح كل الناس في المدينة يتحدثون عن النكتة. وامتلأ السيرك بالمتفرجين في تلك الليلة، وفي كل ليلة أمضاها في آنا بوليس. وتعلم بارنوم درساً لم ينسه على الإطلاق.

وكان أول مشروع كبير قام به بارنوم وحده هو المتحف الأميركي ـ الذي جمع فيه التحف ـ والواقع في نيويورك. وذات يوم اقترب منه شحاذ في الشارع. وبدلاً من إعطائه نقوداً، قرر بارنوم أن يستخدمه. فعاد به إلى المتحف وأعطاه خمس قرميدات وأمره أن يعمل دائرة بطيئة من عدة قطع. كان عليه أن يضع قرميدة على الممشى الجانبي عند نقاط معينة، مبقياً في يده قرميدة على الدوام. وفي مشوار العودة كان عليه أن يستبدل بكل قرميدة على الرصيف القرميدة التي يحملها بيده. وكان عليه أثناء ذلك أن تبدو سحنته جادة وأن لا يجيب على أية أسئلة. وعند عودته إلى المتحف كان عليه أن يدخل ويمشي متجولاً في الداخل، ثم يغادر من الباب الخلفي ليقوم بدورة إرساء أحجار القرميد مرة أخرى.

وعندما مشى الرجل في الشارع أول مرة قام عدة مئات من الناس بمراقبة حركاته الغامضة. وما أن وصل إلى دورته الرابعة حتى تكاثف المتفرجون من حوله وهم يناقشون ما كان يقوم به. وفي كل مرة دخل فيها المتحف كان الناس يلحقون به ويشترون بطاقات دخول إلى المتحف كي يستمروا في مراقبته.. وقد لفتت مجموعات المتحف المقتناة أنظار عدد كبير منهم، فظلوا في الداخل. وعند نهاية اليوم الأول، كان رجل القرميد هذا قد اجتذب أكثر من ألف شخص إلى المتحف. وبعد بضعة أيام أمره رجال الشرطة أن يتوقف ويكف عن جولاته، لأن الجماهير الغفيرة كانت تسد طرق المرور. وتوقف زرع القرميد، ولكن ألوفاً من

أهالي نيويورك كانوا قد دخلوا إلى المتحف، وصار كثيرٌ منهم من أنصار: ب .ت. بارنوم.

حتى عندما أتلقى توبيخاً جارحاً، فإنني أحصل على حصتي من الشهرة

بييترو آريتينو
1556 - 1492

وكان بارنوم يضع فرقة من العازفين على شرفة تطل على الشارع وفوق رؤوس العازفين يافطة ضخمة تعلن: «موسيقى مجانية للملايين» ويفكر النيويوركيون: يا للكرم! ثم يتقاطرون لسماع الحفلات الموسيقية المجانية. ولكن بارنوم بذل أكبر الجهود لاستئجار أسوأ الموسيقيين الذين يستطيع العثور عليهم، بحيث راح الناس يسارعون إلى شراء بطاقات لدخول المتحف عند بدء الفرقة بالعزف، كي يبتعدوا عن سماع ضوضائها النشاز وصرخات الجمهور المستنكر.

وكان من أوائل الغرائب التي طاف بها بارنوم أنحاء البلاد امرأة تدعى جويس هيث، زعم أن عمرها 161 عاماً وأعلن عنها أنها من العبيد وأنها كانت ممرضة جورج واشنطن. وبعد بضعة أشهر بدأت أعداد المتجمهرين تتضاءل، وهكذا أرسل بارنوم رسالة مغفلة من التوقيع إلى الصحف تزعم أن هيث خدعة بارعة. إذ كتب يقول: «إن جويس هيث ليست إنسانة، بل آلة ذاتية الحركة مكونة من عظام الحوت، والمطاط، وعدد لا يحصى من النوابض». فثار فضول الناس الذين لم يكونوا قد كلفوا أنفسهم عناء رؤيتها من قبل، وأما الذين شاهدوها فقد دفعوا ليروها ثانية كي يتأكدوا من صحة الشائعة الزاعمة أنها إنسان آلي.

فنان البلاط

إن العمل المهدى طوعاً إلى الأمير لا بد أن تبدو له خصوصية على نحو ما. وقد يحاول الفنان نفسه أن يجتذب اهتمام البلاط من خلال سلوكه. وفي رأي فاساري، كان سودوما «معروفاً جيداً بغرابة أطواره الشخصية وبسمعته كرسام جيد». وبما أن البابا ليو العاشر «كان يجد سروراً في مثل هؤلاء الأشخاص الغريبين الخفيفي العقول»، فقد جعل سودوما فارساً؛ مما أفقد الرسام بقايا عقله تماماً. وقد لاحظ فان ماندر من الغريب أن نتائج تجارب كورنيليس كيتل في رسم الأقدام والأفواه كان يشتريها النبلاء «بسبب غرابتها»، ومع ذلك فإن كيتل لم يكن يفعل شيئاً سوى الإضافة إلى تجارب مماثلة قام بها تيتيان، وأوغودا كاربي، وبالما جيوفاني، الذين كانوا - حسبما يقول بوشيني - يرسمون بأصابعهم

وفي سنة 1842، اشترى بارنوم جثة مزعومة لحورية بحر. كانت مخلوقاً يشبه قرداً له جسم سمكة، ولكن الرأس والجسم كانا مرتبطين بشكل كامل فكانت أعجوبةً فعلاً. وبعد شيء من البحث اكتشف بارنوم أن هذا المخلوق قد تم تركيبه بخبرة كبيرة في اليابان، حيث أثارت هذه الخدعة ضجة كبيرة.

ومع ذلك فقد زرع مقالات في الصحف في أرجاء البلاد تزعم أنه قد تم اصطياد حورية بحر في جزر فيجي، كما أرسل إلى الصحف رواسم خشبية تظهر صوراً لحوريات البحر. وما أن حان وقت عرض

العيّنة في متحفه حتى كانت قد اندلعت مناقشات جدلية حول وجود مثل هذه الكائنات الأسطورية. وقبل بضعة أشهر من حملة بارنوم لم يكن أحد يهتم بحوريات البحر أو يعرف أي شيء عنهن؛ أما بعد الحملة فقد راح الجميع يتحدثون عنهن وكأنهن حقيقيات. وتقاطرت الجموع بأعداد قياسية لمشاهدة حورية بحر جزر فيجي، ولسماع المداولات حول الموضوع.

وبعد بضع سنين طاف بارنوم في أوروبا ومعه الجنرال توم ثامب (عقلة الإصبع) وهو قزم من كونيكتيكوت عمره خمسة أعوام، زعم بارنوم أنه صبي إنكليزي في الحادية عشرة. وخلال هذه الجولة اجتذب اسم بارنوم اهتمام الملكة ڤكتوريا، مثال الجدّيّة الصارمة، التي طلبت مقابلته مع قزمه الموهوب في قصر بكنغهام. ربما تكون الصحف البريطانية قد سخرت من بارنوم، ولكن ڤكتوريا أعدت له استقبالاً ملوكياً، وظلت تحترمه بعد ذلك.

«لأنهم كانوا يرغبون في تقليد الطريقة التي يستخدمها الخالق الأعظم» ويقول فان ماندر إن غوسيرت قد لفت انتباه الإمبراطور شارل الخامس بارتداء زي غريب من الورق. وكان بذلك يتبنّى تكتيكاً استخدمه دينوكارتيز، الذي يقال إنه أراد الوصول إلى الإسكندر الأكبر، فتنكّر على هيأة هرقل عارياً بينما كان العاهل يجلس في مجلس الحكم.

فنان البلاط
مارتن وازنكَه، 1993

التفسير

كان بارنوم يفهم الحقيقة الأساسية عن لفت الأنظار: فما أن تصبح عيون الناس مسلطة عليك حتى تصبح لك شرعية خاصة. فعند بارنوم كان خلق الاهتمام يعني خلق جمهور حاشد؛ وكما كتب فيما بعد، فإن «كل حشد له بطانة من الفضة». وتميل الجموع المحتشدة إلى العمل معاً. فإذا توقف شخص واحد ليتفرج على رجلك الشحاذ وهو يصفّ حجارة القرميد، فإن آخرين سيفعلون الشيء نفسه، فيتجمعون كالسناجب أو الأرانب، وبدفعة هينة لينة سيدخلون متحفك أو يتفرجون على عرضك. ومن أجل خلق حشد يتعين عليك أن تفعل شيئاً مختلفاً وغريباً. فإن أي شيء من الغرابة المثيرة للفضول يكفي لهذا الغرض، لأن ما هو غريب، وغير معتاد، وغير قابل للتفسير، يجتذب جموع الناس كالمغناطيس. وعندما تحظى بانتباههم، فإياك أن تفلته، لأنه إذا مال إلى آخرين، فسوف يكون ذلك على حسابك. كان بارنوم يمتص

الانتباه من حول منافسيه بلا هوادة، لأنه كان يعرف أن الانتباه سلعة نفيسة.

في بداية صعودك إلى القمة، اصرف كل طاقتك على اجتذاب الاهتمام. ومن المهم أن تدرك أن **نوعية** الاهتمام غير ذات موضوع. فبارنوم لم يكن ليتذمر مهما كانت رداءة الوصف النقديّ لعروضه، ولا من التشهير الشخصي في الهجمات على مكائده وحيله. فإذا هاجمه ناقد صحفي بشكل شديد الرداءة، فإنه كان يسعى لضمان دعوة ذلك الناقد إلى الحفل الافتتاحي، وإعطائه أفضل مقعد في دار العرض. بل لقد كان يكتب هجمات مغفلة من التوقيع على أعماله بنفسه، ولمجرد إبقاء اسمه متداولاً في الصحف. ومن موقع بارنوم كان الاهتمام ـ سلبياً كان أم إيجابياً ـ هو المكوّن الرئيسي لنجاحه. إن أسوأ مصير في العالم لرجل متحرق إلى الشهرة والمجد، والسلطة طبعاً، أن يتجاهله الآخرون.

إذا حدث أن اشتبك رجل الحاشية بالسلاح في احتفال سنة كمهرجان المثاقفة... فينبغي أن يتأكد من كون حصانه مطهماً بصورة جميلة، وأن يرتدي ثياباً مناسبة عليها شعارات ملائمة وصور وتدابير حاذقة بارعة كي يجتذب عيون المتفرجين إليه بصورة مؤكدة، كما يجتذب حجر المغناطيس الحديد.

(بلثازار كاستيليون، ١٤٧٨ ـ ١٥٢٩)

مفاتيح السلطة

إن احتراقك بسطوع أكثر ممن حولك مهارة ليس كل شخص مولود وهي معه. إن عليك أن تتعلم كيف تجتذب الانتباه بصورة مؤكدة كما يجتذب حجر المغناطيس الحديد. وفي بداية حياتك العملية، يتعين عليك أن تربط اسمك وسمعتك بصفة أو بصورة تفردك عن الآخرين. وقد تكون هذه الصورة شيئاً مثل أسلوب متميز في اللبس أو صفة غير مألوفة في الشخصية تسلي الناس فيتحدثون عنها. وعند رسوخ هذه الصورة وثباتها يصبح لك مظهر، ولنجمك مكان في السماء.

إن تصورك بأن مظهرك الغريب يجب أن لا يثير الجدل هو خطأ شائع، وكذلك اعتقادك بأن تعرضك للهجوم هو شيء سيِّىء، فليس هناك ما هو أبعد عن الحقيقة من ذلك. ولكي تتجنب الإخفاق، ولكي لا يكسف شخص آخر شهرتك، يجب عليك أن تميز بين نوعين من الانتباه؛ وسيكون كل نوع لصالحك في آخر الأمر. فبارنوم ـ كما رأينا ـ كان يرحب بالهجمات الشخصية عليه، ولا يشعر بحاجة إلى الدفاع عن نفسه، بل كان يتعمد أن يتقرب من صورة الدجال المراوغ.

كان بلاط لويس الرابع عشر يحوي كثيراً من الكتّاب والفنانين الموهوبين وذوات الجمال الباهر، والرجال والنساء ذوات الفضيلة التي لا عيب فيها ولكن لم يكن أي منهم موضوعاً للحديث أكثر من الدوق دي لوزون، الفريد من نوعه. وكان هذا الدوق قصيراً، يكاد يكون قزماً. وكان عرضة لأوقح أنواع السلوك. فقد عاشر عشيقة الملك، وكان لا يكتفي بإهانة رجال الحاشية الآخرين علناً، بل يهين الملك نفسه. غير أن لويس كانت تسلّيه وتلهيه غرائب الدوق بحيث لم يكن يطيق غيابه عن البلاط. كان الأمر بسيطاً: فغرابة شخصية الدوق كانت تجتذب الانتباه. فعندما أسرت شخصيته الناس، صاروا يريدونه بالقرب منهم بأي ثمن.

إن المجتمع يتشوَّق إلى الشخصيات الأكبر من الحياة، الذين يبرزون أعلى من المعدل الوسطيّ العام. فلا تفزع إذن من الصفات التي تفردك عن الآخرين وتلفت الأنظار إليك. إبحث عن إثارة الجدل والخلاف، وحتى الفضيحة. فإنَّ تَعَرُّضَ المرءِ للهجوم، وحتى للتشهير والقذف، خير من تجاهله. وهذا القانون يحكم كل المهن، وكل المحترفين ينبغي أن يكون فيهم أي شيء من صفات رجل الاستعراضات.

فالعالِم العظيم، توماس آديسون، كان يعلم أنه لكي يجمع المال، يتعيَّن عليه أن يبقى أمام عيون عامة الناس بأي ثمن. . ذلك أن طريقة تقديم مخترعاته للناس واستدراج اهتمامهم تعادل في الأهمية مخترعاته

نفسها. فكان آديسون يصمِّم تجارب تزيغ الأبصار لكي يعرض مكتشفاته في الكهرباء، ويتحدث عن مخترعات في المستقبل تبدو في عصره وهمية إلى حدٍّ لا يصدّق، كالإنسان الآلي، والمكائن القادرة على تصوير الفكر، وهي أشياء لم يكن في نيته أن يصرف طاقته عليها، غير أنها جعلت عامة الناس يتحدثون عنه. فقد فعل كل ما في استطاعته ليضمن أنه يلقى اهتماماً أكثر من منافسه الكبير نيقولا تيسلا الذي ربما كان ألمع منه، ولكن اسمه كان معروفاً بطريقة أقل بكثير من اسم آديسون. وفي سنة 1915، أُشيع بأن آديسون وتيسلا سيتلقيان بصورة مشتركة جائزة نوبل للفيزياء عن ذلك العام. ولقد أعطيت تلك الجائزة في آخر الأمر لاثنين من الفيزيائيين الإنكليز؛ ولم يكتشف أحد إلاً فيما بعد أن لجنة الجائزة قد استمزجت رأي آديسون فعلاً، ولكنه رفض، ولم يقبل أن يتقاسم الجائزة مع تيسلا. ففي ذلك الوقت كانت شهرته أكثر رسوخاً وأمناً من شهرة تيسلا. ففكَّر أن رفض ذلك الشرف أفضل من إعطاء منافسه الاهتمام الذي سيأتي إليه حتى ولو نال نصف الجائزة فقط.

إذا وجدت نفسك في منزلة شخصية منخفضة لا تتيح لك فرصة تذكر لجذب الاهتمام، فإن إحدى المكائد الفعالة أن تهاجم أكثر الأشخاص الذين تجدهم بروزاً للعيان، وشهرة وقوة ونفوذاً. فعندما أراد بيترو آريتينو، الخادم الروماني الشاب في أوائل القرن السادس عشر، أن يجذب الانتباه لنفسه كناظم للأشعار، قرر أن ينشر سلسلة من القصائد الساخرة يتهكم فيها على البابا وعاطفته تجاه فيل مدلَّل. فأدَّى الهجوم إلى وضع آريتينو أمام أعين عامة الناس على الفور. إن الهجوم التشهيري على شخص في مركز السلطة سيكون له تأثير مماثل. ولكن تذكَّر أن لا تستخدم هذه الخطة إلاً نادراً بعد أن تحظى باهتمام الجمهور، لأن تكرارها سيكشفك أمامهم.

وعندما تصبح في دائرة الضوء يتعيَّن عليك أن تجددها بالتكيّف وتنويع أسلوبك في استدراج الاهتمام، لأنك إن لم تفعل فسوف يملّ

منك الناس، ويعتبرونك تحصيل حاصل، وينقلون اهتمامهم إلى نجم جديد. فاللعبة تتطلّب يقظة مستمرة وتفكيراً خلاقاً. فبابلو بيكاسو لم يسمح لنفسه أن يتلاشى متراجعاً إلى الخلف، بل كان إذا صار اسمه مرتبطاً أكثر من اللازم بأسلوب معيَّن، يتعمَّد أن يصدم جمهوره بسلسلة من اللوحات التي تتجه عكس كل التوقعات. فقد كان يعتقد أن خلق شيء قبيح ومزعج أفضل من ترك أعماله تصبح مألوفة للمشاهدين بحيث يعتادون عليها أكثر من اللازم. افهم إذن: يشعر الناس بأنهم متفوقون على الشخص الذي يستطيعون التنبؤ بأعماله. فإذا أظهرت لهم مَنِ المسيطر بتحركك على عكس توقعاتهم، فإنك تكسب احترامهم، وتحكم قبضتك على اهتمامهم المتفلّت.

صورة: دائرة
الضوء. إن الممثل الذي
يخطو إلى داخل هذا الضوء
الساطع يحقق حضوراً أشد وأعلى، إذ
أن عيون الناس جميعاً عليه. وليس هناك
سوى مكان واحد في وقت واحد لممثل واحد
في حزمة الضوء الضيِّقة. فافعل كل ما يقتضيه
الأمر كي تظل في بؤرتها. اجعل إشاراتك
كبيرة ومسلية وفاضحة بحيث يظل الضوء
مسلطاً عليك بينما يظل الممثلون
الآخرون في الظلال.

الشاهد: كن استعراضياً وابق تحت الأنظار. إن ما هو غير مشاهَد كأنه غير موجود... لقد كان الضوء هو السبب الذي جعل الخليقة كلها تشرق منبثقة لأول مرة. فالعرض يملأ عدة فراغات، ويغطي العيوب والنواقص، ويعطي كل شيء حياةً أخرى، ولا سيما عندما يكون مدعوماً بقيمة أصيلة.

(بلثازار غراسيان، 1601 ــ 1658)

في عالم يبدو فيه كل شيء مبتذلاً ومألوفاً بشكل متزايد، فإن ما يبدو غامضاً يلفت الانتباه على الفور. فإياك أن تجعل ما تفعله أو توشك أن تفعله واضحاً أكثر مما يلزم. ولا تكشف كل أوراقك. إذ أن جوّاً من الغموض يعلي من حضورك؛ كما أنه يخلق توقعاً - فيراقبك كل واحد ليرى ما الذي سيحدث بعد كل حركة. فاستخدم الغموض لتضلل، ولتغوي، وحتى لترعب.

مراعاة القانون

في مطلع سنة 1905، بدأت الشائعات تنتشر في طول باريس وعرضها عن فتاة شرقية شابة ترقص في بيت خاص وهي ملتفّة ببراقعها التي تخلعها بالتدريج وأبلغ عنها صحفي محلي شاهدها ترقص بأنها «امرأة من الشرق الأقصى إلى أوروبا محمَّلة بالعطور والجواهر، لتدخل شيئاً من غِنى الشرق وألوانه وحياته إلى مجتمع المدن الأوروبية البَشِع المتخم». وسرعان ما عرف الجميع اسم الراقصة: ماتا هاري.

وفي أوائل ذلك العام، في الشتاء، كان عدد صغير من المستمعين المنتخبين يتجمعون في صالون مليء بالتماثيل الهندية، وغيرها من التحف بينما الفرقة تعزف ألحاناً موسيقية مستلهمة من الأنغام الهندية والجاويّة. وكانت ماتا هاري تترك المستمعين ينتظرون ويتساءلون، ثم تظهر فجأة ببذلة تروعهم وتذهلهم: حمالة صدرية قطنية بيضاء مغطاة

بمجوهرات هندية الطراز، وأحزمة مجوهرة على الخصر تشد تنورة (سارنغ) تكشف من الجسم بقدر ما تخفي؛ وأساور في أعالي الذراعين. ثم تأخذ في الرقص بأسلوب لم يشهده أحد في فرنسا من قبل، وجسمها كله يتمايل كأنها في غيبوبة عميقة. وقد أخبرت مشاهديها الفضوليين أن رقصاتها تروي قصصاً من الأساطير الهندية والحكايا الشعبية الجاويّة. وسرعان ما راح علية القوم في باريس، والسفراء من الأصقاع البعيدة، يتنافسون للحصول على دعوات إلى الصالون، حيث أُشيع أن ماتا هاري كانت في الحقيقة تمارس رقصات مقدَّسة وهي عارية.

فأراد عامة الناس أن يعرفوا عنها المزيد. فأخبرت الصحفيين أنها في الواقع من أصل هولندي، ولكنها ترعرعت على جزيرة جاوا. وتحدثت عن زمنٍ أمضته في الهند، وكيفية تعلمها الرقصات الهندية المقدَّسة هناك، وعن كون النساء الهنديات قادرات «على الرماية المباشرة، وركوب الخيل، وحل مسائل اللوغارتمات والتحدث في الفلسفة». وبحلول سنة 1905، رغم أن باريسيين قلائل هم الذين شاهدوا ماتا هاري ترقص، كان اسمها على كل لسان.

وكلما أعطت ماتا هاري مزيداً من المقابلات، كانت قصة أصولها مستمرة في التغير: ترعرعت في الهند، فكانت جدتها ابنة أميرة جاويّة، وعاشت في جزيرة سومطرة، حيث أمضت وقتها في «ركوب الخيل، وبندقيتها في يدها وهي تغامر بحياتها». لم يكن أحد يعلم شيئاً مؤكداً عنها. ولكن الصحفيين لم يأبهوا لهذه التغييرات في سيرة حياتها. وقارنوها بإلهة هندية، وبمخلوق منتزع من صفحات بودلير، وبأي شيء شاء خيالهم أن يراه في هذه المرأة الغامضة القادمة من الشرق.

وفي شهر آب/ أغسطس سنة 1905، قدمت ماتا هاري عرضاً أمام عامة الناس لأول مرة. وتسبب الناس المحتشدون لرؤيتها في ليلة الافتتاح بحدوث شغب. فقد صارت شخصية طقوسية راحت تولّد محاولات كثيرة لتقليدها. وكتب أحد النقاد: «إن ماتا هاري تشخيص

لكل شعر الهند وتصوفها، وشهوانيتها وجاذبيتها التي تنوِّم المرء تنويماً مغناطيسياً بسحرها». ولاحظ آخر: «إذا كانت الهند تملك مثل هذه الكنوز غير المتوقعة فإن الفرنسيين جميعاً سيهاجرون إلى ضفاف الكنج».

وسرعان ما انتشرت شهرة ماتا هاري ورقصاتها الهندية المقدَّسة إلى ما وراء باريس، فدعيت إلى برلين، وڤيينا، وميلانو. وعلى امتداد السنوات القليلة التالية أدَّت رقصاتها في كل أرجاء أوروبا، واختلطت بأرقى الطبقات الاجتماعية وكسبت دخلاً أعطاها استقلالاً، نادراً ما تمتعت به امرأة في تلك الفترة. ثم، عند اقتراب الحرب العالمية الأولى من نهايتها اعتُقِلت في فرنسا، وحوكمت، فأُدينت، ثم أُعدمت في خاتمة المطاف كجاسوسة ألمانية. ولم تظهر الحقيقة إلاَّ: أثناء المحاكمة. لم تكن ماتا هاري من جاوا، ولا من الهند، ولم تترعرع في الشرق، ولم يكن في جسدها أية قطرة دم شرقية. وكان اسمها الحقيقي هو: مارغريتا زيل، وأصلها من مقاطعة فريزلاند الشمالية المتبلدة في هولندا.

التفسير

عندما وصلت مارغريتا زيل إلى باريس سنة 1904، كانت تملك في جيبها نصف فرنك. غير أنها كانت وهي فتاة صغيرة قد سافرت مع أسرتها وشهدت رقصات محلية في جاوا وسومطرة. وكانت زيل تفهم بوضوح أن المهم في تمثيلها وأدائها ليس الرقص نفسه، ولا حتى وجهها ولا قوامها، ولكن قدرتها على خلق جوّ من الغموض حولها. ولم يكن الغموض الذي خلقته كامناً في رقصها أو بذلاتها أو القصص التي ترويها، بل في الجوّ المحيط بكل ما تفعله. فلم يكن هناك شيء يمكنك أن تقوله عنها وأنت متأكد منه ـ كانت دائماً فاتنة آسرة، ودائماً تفاجىء جمهورها بأزياء جديدة، ورقصات جديدة، وقصص جديدة. وهذا الجو من الغموض كان يترك عامة الناس متشوقين لمعرفة المزيد، وهم يتساءلون دائماً عن حركتها التالية. وكانت ماتا هاري أجمل من كثير من

الفتيات الشابات الأخريات اللواتي قدمن إلى باريس. ولم تكن راقصة جيدة على وجه الخصوص. غير أن ما أفردها وفصلها عن كتلة الجمهور، وما جذب انتباه عامة الناس وحافظ على اهتمامهم، وجعلها شهيرة وثرية كان هو غموضها. فالناس يأسرهم الغموض، لأنه يستدعي تفسيراً متواصلاً باطراد لا يتعب منه الناس أبداً. فالغامض لا يمكن تفهمه. وما لا يمكن الإمساك به واستهلاكه يخلق القوة والتأثير والسلطة.

مفاتيح السلطة

في الماضي، كان العالم مليئاً بالأشياء المرعبة والمجهولة: من أمراض، وكوارث، وطغاة متقلّبي الأمزجة، وغموض الموت نفسه. فما لم نكن نفهمه، تخيلناه كأساطير وأرواح. ولكننا استطعنا على مدى القرون المتطاولة، ومن خلال العلم والعقل، أن ننير الظلمات، وما كان غامضاً ومخيفاً صار مألوفاً ومريحاً. ومع ذلك فقد كان لهذا الضوء ثمن: ففي عالم يزداد ابتذالاً باطراد، وقد عُصِرَتْ منه جوانب الغموض والأساطير عصراً، نتحرَّق سراً إلى الأشياء الغامضة المحيّرة، إلى الناس والأشياء التي لا يمكن تفسيرها وضبطها واستهلاكها على الفور.

وتلك هي سلطة الغامض: إنه يدعو طبقات متراكبة من التفسيرات، ويثير خيالنا، ويغوينا بالاعتقاد بأنه يخفي شيئاً عجيباً. لقد صار العالم مبتذلاً وصار أهله خلواً من المفاجآت لأن التنبؤ بتصرفاتهم سهل بحيث أن أي شيء يلفّ نفسه بالغموض سيجتذب الأضواء إليه بصورة تكاد تكون دائمة، ويرغمنا على مراقبته.

ولا تتصوّر أنك لكي تخلق جواً من الغموض ينبغي عليك أن تكون ضخماً وموحياً بالرهبة. فالغموض المنسوج في صلب سلوكك اليومي بشكل خفي ذكي، له قدرة أكثر على الإذهال واجتذاب الاهتمام. وتذكَّر: إن معظم الناس صريحون معروفون بسيماهم، يمكن قراءتهم ككتاب مفتوح، وليس لهم اهتمام يذكر بالسيطرة على كلماتهم أو

صورتهم، وليس في مقدورهم إعاقة التنبؤ بهم. وبممارسة شيء من التمنع البسيط، والصمت، والتفوه بعبارات غامضة بين حين وآخر، وبتعمد الظهور بمظهر التناقض، والتصرف الغريب بأحذق الطرق وأذكاها، تنبعث منك هالة من الغموض. وعندئذ يتولى الناس الذين حولك تضخيم هذه الهالة بمحاولاتهم المستمرة لفهمك وتفسيرك.

فالفنانون والمحتالون على حد سواء يتفهمون الارتباط الحيوي بين الغموض واجتذاب الاهتمام. وكان الكونت ڤكتور لاستغ، الأرستقراطي بين المحتالين، يلعب هذه اللعبة على أكمل وجه. فكان على الدوام يقوم بأشياء مختلفة، أو تبدو بلا معنى، فيظهر عند أحسن الفنادق في سيارة ليموزين يقودها سائق ياباني، حيث لم يكن أحد قد شاهد سائقاً يابانياً من قبل، فكان ذلك يبدو شيئاً دخيلاً وغريباً. وكان لاستغ يرتدي أغلى الثياب، ولكن معها شيئاً مّا، كميدالية، أو وردة، أو ربطة ذراع، في غير محله، على الأقل بالمفاهيم التقليدية فلم يُنْظَر إلى هذا على أنه بلا ذوق، بل على أنه شيء غريب مثير للفضول. وفي الفنادق كان الكونت يُشاهَد وهو يتلقى البرقيات في جميع ساعات الليل والنهار، يأتيه بها سائقه الياباني، برقيات كان يمزقها بلا اكتراث مطلق (الواقع أنها كانت مزورة، وكلها أوراق بيضاء تماماً) ثم يجلس وحده في غرفة الطعام، يقرأ في كتاب كبير يبدو مثيراً للإعجاب، وهو يبتسم للناس ومع ذلك يظل مترفعاً. وفي غضون بضعة أيام، كان الفندق بأكمله يضج بأزيز الاهتمام بهذا الرجل الغريب الأطوار.

وسمح هذا الاهتمام كله للاستغ باستدراج المغفلين بسهولة فكانوا يستجْدون ثقته ويطلبون صحبته. وكان كل شخص يريد أن يُرَى مع هذا الأرستقراطي الغامض. وبحضور هذا الغموض الملهي المشتت للانتباه لم يكونوا يلاحظون حتى أنهم عرضة للنهب حتى العمى.

إن جو الغموض يمكن أن يجعل الخامل يبدو ذكياً وعميق الغور

لقد جعل ماتا هاري، المرأة ذات المظهر والذكاء المتوسطين العاديين، تبدو كأنها إلهة، ورقصها ذا إلهام سماوي. إن جوَّ الغموض المحيط بالفنان أو الفنانة يجعل العمل الفني على الفور أكثر إثارة للفضول، وكان مارسيل دو شامب يمارس هذه اللعبة بفاعلية كبيرة. وتنفيذها كله شيء سهل. قُلْ كلاماً قليلاً عن عملك. أثر فضول الناس، ولوِّح لهم تلويحات مغرية، تستدرجهم حتى بتعليقات متناقضة، ثم تراجع واترك الآخرين يحاولون تفسير ذلك كله والعثور على معنى فيه.

إن الناس الغامضين يضعون الآخرين في موقع يشوبه نوع من الشعور بالنقص، بحيث يحاولون فهم مقاصدهم. وبقدر ما يتمكنون من السيطرة على الأمور، يستدرجون الخوف الذي يحيط بكل ما هو غير مؤكد أو غير معروف. ويعرف جميع القادة العظام أن هالة الغموض تجتذب الاهتمام بهم وتخلق لهم حضوراً مهيباً. وعلى سبيل المثال فإن ماوتسي ـ تونغ اعتنى بتنمية صورة غامضة؛ ولم يكن يقلقه أن يبدو غير متجانس الموقف أو مناقضاً لنفسه، بل إن التناقض نفسه في أعماله وكلماته يعني أنه كان صاحب اليد العليا على الدوام، فلم يشعر أحد على الإطلاق، ولا حتى زوجته، بأنه قد فهمه. ولذلك كان يبدو أكبر من الحياة. وكان هذا يعني أيضاً أن عامة الناس كانوا يهتمون به، بل ويتشوقون دائماً لمشاهدة حركته التالية.

فإذا كان مركزك الاجتماعي لا يسمح لك بأن تلف أعمالك بالغموض بشكل كامل، فإن عليك أن تتعلَّم على الأقل كيف تجعل نفسك أقل وضوحاً. فبين الحين والآخر، تصرف بطريقة لا تنسجم مع ما يدركه الآخرون عنك. وبهذه الطريقة تجعل مَنْ حولك يتخذون مواقف دفاعية، وبذلك تستدرج نوعاً من الاهتمام يجعلك قوياً. فإذا تمت عملية خلق الغموض بصورة صحيحة فإنها يمكن أيضاً أن تجتذب نوع الانتباه الذي يلقي الرعب في صدر عدوك.

أثناء الحرب البونية الثانية (219ـ 202 ق.م) كان القائد القرطاجي

العظيم هانيبال ينشر الدمار والفوضى في زحفه على روما. وكان معروفاً ببراعته وازدواجيته المخادعة.

وتحت قيادته كان جيش قرطاجنة يتفوّق في المناورة على جيوش الرومان باستمرار، رغم أنه كان أصغر منها. وفي إحدى المناسبات ارتكب كشافة هانيبال غلطة رهيبة، فقادوا قواته إلى أرض مستنقعية والبحر من ورائها. وأغلق الجيش الروماني الممرات الجبلية المؤدية إلى الداخل. وكان قائده الجنرال فابيوس في نشوة السعادة، فقد أوقع هانيبال في الفخ أخيراً. فوضع أفضل حراسه على الممرات، وراح يعمل على خطة لتدمير قوات هانيبال. ولكن عند منتصف الليل نظر الحراس الرومان إلى الأسفل ليروا مشهداً غامضاً: كانت مسيرة هائلة من الأضواء تتجه صُعُداً إلى الجبل بألوف وألوف من المشاعل. فإن كان هذا جيش هانيبال، فقد تضخم فجأة بمائة ضعف.

وتجادل الحراس بحرارة حول ما يمكن أن يعنيه ذلك: هل هي تعزيزات جاءت من البحر؟ أم قوات كانت كامنة في المنطقة؟ أم أشباح؟ لم يكن أيٌّ من هذه التفسيرات ذا معنىً معقول.

وبينما كانوا منهمكين في المراقبة، استعرت الحرائق في جميع أنحاء الجبل، ووصلت إلى أسماعهم من السفح ضجة مرعبة، وكأنها نفيرٌ ينفخ في مليون بوق. وفكّروا بأن هذه شياطين. وهكذا غادر الحراس مراكزهم مذعورين لا يلوون على شيء، رغم أنهم كانوا أشجع وأعقل جنود الجيش الروماني.

وعند حلول اليوم التالي كان هانيبال قد نجا من الأرض المستنقعية. فماذا كانت الخدعة؟ وهل استدعى الشياطين حقاً؟ كان ما فعله في الحقيقة هو أنه أمر بربط أكداس من الأغصان الصغيرة بقرون آلاف الثيران التي كانت قواته تستخدمها كوحوش للحمل. ثم أشعلت النيران في تلك الأغصان. فأعطت انطباعاً بأن المشاعل كان يحملها جيش كثيف يتجه بها صُعُداً في الجبل، وعندما أحرقت المشاعل جلود الثيران انطلقت مسرعة بشكل جماعي مذعور في كل الاتجاهات، وهي

تخور خواراً جنونياً، فاشتعلت النيران في جميع أرجاء الجبل. ولم يكن مفتاح نجاح هذا التدبير كامناً في المشاعل أو النيران أو الأصوات الضوضائية نفسها، بل في حقيقة أن هانيبال خلق لغزاً استأثر باهتمام الحراس وملأهم رعباً بصورة تدريجية. فمن أعالي الجبل، لم تكن هناك طريقة لتفسير المشهد الغريب العجيب. ولو استطاع الحراس تفسيره لظلّوا في مواقعهم.

إذا وجدت نفسك واقعاً في مصيدة، ومحاصراً، ومتخذاً موقف الدفاع في بعض المواقع، فحاول تجربة بسيطة: افعل شيئاً لا يمكن شرحه أو تفسيره بسهولة. اختر عملاً بسيطاً، ولكن نفِّذه بطريقة تزعزع خصمك وتفقده اتزانه، أي بطريقة لها تفسيرات محتملة عديدة، مما يضفي على نواياك غموضاً. ولا تكتف بأن تكون شخصاً يصعب التنبؤ بحركاته فقط (رغم أن هذه الخطة الانتهازية المؤقتة قد تنجح أيضاً ـ انظر القانون 17)؛ ولكن اخلق مشهداً لا يمكن قراءته، كما فعل هانيبال. فسوف يبدو أن جنونك ليس فيه أسلوب ولا تناغم ولا عقلانية، ولا تفسير واحد. فإن فعلت ذلك بطريقة صحيحة، فسوف توحي بالرعب والرجفة، وتجعل الحرس يتركون مواقعهم وادعُ ذلك خطة «تظاهر هملت بالجنون»، لأن هملت يستخدمها بفاعلية كبيرة في مسرحية شكسبير، فأخاف عمه وزوج أمه كلوديوس عن طريق الغموض في سلوكه. فالغموض يجعل قواتك تبدو أكبر، وسلطتك أكثر رهبة.

صورة: رقصة الأقنعة ـ تغلف الأقنعة الراقصة وما تكشفه بسبب الاهتياج، وما تخفيه يزيد الاهتمام. وهذا هو جوهر الغموض.

الشاهد: إن لم تعلن عن نفسك على الفور، فإنك تثير التوقعات... اخلط كل شيء بقليل من الغموض، والغموض نفسه يثير الهيبة والاحترام. وعندما تفسّر، لا تكن صريحاً أكثر من اللازم... وبهذه الطريقة فإنك تقلّد الأسلوب الإلهي عندما تجعل الناس يتساءلون ويترقبون. (بلثازار غراسيان، 1601 ــ 1658).

الانقلاب

في بداية صعودك إلى القمة يجب عليك أن تجتذب الانتباه بكل ثمن. ولكن عندما ترتفع أكثر عليك أن تتكيّف باستمرار. فلا تجعل عامة الناس يسأمون من استخدامك الطريقة نفسها، إذ أن جو الغموض يخلق العجائب للذين يحتاجون إلى تطوير هالة من الجاه والسلطة ويجعلوا أنفسهم مشاهَدين. ولكن ذلك يجب أن يظهر بقدر له حدود ويخضع لضوابط مسيطر عليها. لقد تجاوزت ماتا هاري الحدود في تلفيقاتها. ورغم أن اتهامها بالجاسوسية كان مزوراً، فقد كان في ذلك الحين افتراضاً معقولاً، لأن جميع أكاذيبها قد جعلتها تبدو مشبوهة وشائنة. إذنْ: لا تَدَعْ جوَّ الغموض يتحوَّل ببطء إلى اشتهار بالخديعة. فالغموض الذي تخلقه ينبغي أن يبدو لعبة، يقصد بها الدعابة ولا تهديد فيها. فاعرف ذلك إذا تمادى الأمر أكثر من اللازم، وتراجع.

إن هناك أوقاتاً ينبغي فيها تأجيل الحاجة إلى الانتباه، عندما تكون الفضيحة وسوء الأحدوثة هما آخر الأشياء التي تريد خلقها. ثم إن الانتباه الذي تريد اجتذابه يجب أن لا يؤذي أو يتحدى سمعة مَنْ هم فوقك أبداً، أو أن لا يفعل ذلك على أية حال إذا كانوا آمنين مستقرين في مراكزهم. إذْ أنك لن تبدو عندئذٍ خسيساً فحسب، بل ويائساً أيضاً بالمقارنة معهم. فهناك إذن فنٌ هو معرفة متى تلفت الأنظار، ومتى تنسحب.

كانت لولا مونتيز واحدة من أشهر ممارِسات فن جذب الانتباه، وقد استطاعت الصعود من خلفية إرلندية من الطبقة الوسطى حتى صارت عشيقة فرانز ليست، ثم عشيقة لودفيغ ملك باڤاريا ومستشارته السياسية.

ولكنها في سنواتها المتأخرة فقدت إحساسها بالتناسب.

في سنة 1850، كانت ستعرض مسرحية شكسبير «مكبث» في لندن، ويمثل فيها أعظم فنان في عصره: تشارلس جون كين. وكان سيحضر العرض كل شخص ذي حيثية وأهمية في المجتمع الإنكليزي؛ بل لقد أشيع أن الملكة ڤكتوريا وزوجها الأمير آلبرت سيحضران تلك الحفلة العامة أمام الناس. وكانت العادة في تلك الفترة أن يكون الجميع جالسين قبل وصول الملكة. وهكذا ذهب المتفرجون إلى هناك في وقت مبكر. وعندما دخلت الملكة المقصورة الملكية، وقف الجميع مراعاة للتقليد والعرف وصفقوا لها. وانتظرت الملكة وزوجها، ثم انحنيا، فجلس الجميع وعتمت الأنوار. ثم اتجهت الأعين فجأة إلى مقصورة مواجهة لمقصورة الملكة ڤكتوريا: وظهرت امرأة من الظلال كي تتخذ مقعدها بعد الملكة. وكانت تلك هي لولا مونتيز. وكانت ترتدي تاجاً من الماس على شعرها الأسود الداكن، وتضع على كتفيها معطفاً طويلاً من الفرو، وتهامس الناس عندما انحسر ذلك المعطف المصنوع من فرو القاقُم ليكشف ثوباً من المخمل القرمزي منخفضاً عن جيدها. وعندما أدار المشاهدون رؤوسهم استطاعوا أن يروا أن الملكة وزوجها قد تجنبا النظر إلى مقصورة لولا. فقلدوا ڤكتوريا، وتجاهلوا لولا مونتيز طيلة باقي الأمسية. وبعد تلك الأمسية لم يعد أحد في المجتمع المخملي يجرؤ على أن يُرَى بصحبتها. وانعكست كل قوتها المغناطيسية. وصار الناس يهربون من رؤيتها. لقد انتهى مستقبلها في إنكلترا.

لا تظهر كطامع أكثر من اللازم في لفت الأنظار إذن، لأن ذلك يشير إلى انعدام شعورك بالأمن، وانعدام الشعور بالأمن يطرد السلطة بعيداً عنك. وافهم أن هناك أوقاتاً ليس من مصلحتك فيها أن تكون مركزاً للانتباه. فعندما تكون في حضرة ملك أو ملكة مثلاً، أو مَنْ يعادلهما، انحنِ وتراجع إلى الظلال؛ وإياك أن تتنطع للمنافسة.

القانون

7

اجعل الآخرين يقومون بالعمل نيابة عنك ولكن احصل على الفَضْل دائماً

الحكم

استخدم حكمة الآخرين، ومعرفتهم، وعملهم البدني الأساسي، لتقدم قضيتك أنت. لأن هذه المساعدة لن تقتصر على توفير زمن وطاقة نفيسين، بل ستعطيك هالة شبه قدسية من الكفاءة والسرعة، وفي آخر الأمر ينسى الناس مساعديك ويتذكرونك أنت. فلا تعمل قَطُّ بنفسك ما يستطيع الآخرون عمله لك.

انتهاك القانون ومراعاته

في سنة 1883، كان هناك عالِم صربي يدعى نيقولا تيسلا يعمل في القسم الأوروبي من شركة آديسون القاريّة. وكان مخترعاً لامعاً بارزاً. وقد أقنعه تشارلس باتشيلور، وهو مدير مصنع وصديق شخصي لتوماس آديسون، بأنه يبحث عن حظه في أميركا، وأعطاه رسالة تقديم إلى آديسون نفسه. وهكذا بدأت حياة من البلايا والمحن استمرت حتى موت تيسلا.

عندما التقى تيسلا بآديسون في نيويورك، استأجره المخترع الشهير على الفور. فأخذ تيسلا يشتغل ثماني عشرة ساعة في اليوم، في إيجاد طرق لتحسين محركات آديسون البدائية، وفي آخر الأمر قدم عرضاً بإعادة تصميمها بصورة كاملة. فبدا لآديسون أن تلك المهمة ضخمة قد تستغرق سنوات طويلة دون أن تؤتي ثمارها. ولكنه قال لتيسلا: «إن في هذا خمسين ألف دولار لك ـ إذا استطعت القيام بذلك». وراح تيسلا يعمل في المشروع ليل نهار، وبعد سنة واحد فقط أنتج نسخة من المحرك محسنة جداً، كاملة مع أجهزة تحكم وضبط آلية ذاتية. فذهب إلى آديسون بالبشرى ليتلقى الخمسين ألف دولار الموعودة فكان آديسون مسروراً بالتحسن الذي حصل هو وشركته على الفضل فيه. ولكن عندما وصل الأمر إلى المال قال آديسون للشاب الصربي: «يا تيسلا، إنك لا تفهم حس الدعابة الأميركي»، وقدم له زيادة صغيرة في راتبه بدلاً من ذلك.

الغيلم (ذكر السلحفاة)
والفيل والبِرنيق
(فرس النهر)

ذات يوم، التقى الغيلم بالفيل، الذي صرخ فيه بصوت مُدَوٍّ: «ابتعد عن طريقي، أيها الضعيف ـ فقد أدوسك!» فلم يخف الغيلم، وبقي صامداً في مكانه، فداسه الفيل، ولكنه لم يستطع أن يسحقه. فقال الغيلم: «لا تتبجّح أيها السيد الفيل، فإنني قويّ مثلك!». ولكن الفيل لم يزد على أن ضحك. فطلب منه الفيل أن يأتي إلى تلّهِ في صباح اليوم التالي.

وفي اليوم التالي، وقبل شروق الشمس، انحدر الغيلم من على التل إلى النهر، حيث التقى بالبرنيق، الذي كان في طريقه عائداً لتوّه إلى الماء، بعد أن تناول طعامه في الليل. فقال له الغيلم: «أيها السيد البرنيق! هل نلعب لعبة شد الحبل؟ اراهنك أن قوتي تعادل قوتك!» فضحك البرنيق على هذه الفكرة السخيفة. ولكنه وافق على اللعبة. فأخرج الغيلم حبلاً طويلاً، وطلب

وكانت الفكرة المستحوذة على تيسلا أن يخلق نظاماً أو جهازاً كهربائياً يعمل بالتيار المتراوح، بينما كان آديسون يؤمن بنظام التيار المباشر. فلم يكتفِ برفض دعم بحوث تيسلا ولكنه قام فيما بعد بكل ما في استطاعته لتخريبها. فتوجه تيسلا إلى القطب الصناعي جورج ويستنكهاوس في بيتسبرغ، الذي كان قد دشن شركته الكهربائية الخاصة. فقام بتمويل بحوث تيسلا تمويلاً كاملاً وقدم له اتفاقية للحصول على حصة محترمة من الأرباح المستقبلية ـ ولا يزال التيار المتراوح الذي طوره تيسلا هو النموذج القياسي المستعمل اليوم ـ ولكن بعد أن تم تسجيل براءة اختراع باسمه تقدم علماء آخرون للحصول على الفضل بهذا الاختراع، زاعمين أنهم هم الذين أرسوا له أسسه. فضاع اسم تيسلا في خضم هذا النزاع والتزاحم. وصار عامة الناس يربطون الاختراع باسم ويستنكهاوس نفسه.

وبعد سنة اشتبك ويستنكهاوس في قضية استيلاء على شركته بعرضٍ قدمه جون بييربونت مورغان، الذي جعله يلغي عقد الحصة المحترمة من الأرباح الذي كان قد وقعه مع تيسلا. وأوضح ويستنكهاوس لذلك العالِم أن شركته لن تعيش إذا اضطرت إلى دفع الأرباح له بكاملها، وأقنع تيسلا أن يقبل ببيع براءة اختراعه كلها بمبلغ 216000 دولار ـ وهذا مبلغ كبير بلا شك، ولكنه أقل بكثير من قيمته الحقيقية آنذاك، وهي 12 مليون دولار، وهكذا قام الممول بسلب تيسلا وتجريده من الثروة، ومن براءات الاختراع، وبصورة جوهرية من الفضل في أعظم اختراع أنجزه تيسلا في حياته العملية.

إن اسم غوغليلمو ماركوني سيظل إلى الأبد مرتبطاً باختراع المذياع ولكن قليلين فقط يعرفون أنه في إنتاج هذا الاختراع ـ أذاع إشارة عبر القنال الأنكليزي في سنة 1899 ـ كان يستعمل اختراعاً سجله تيسلا منذ سنة 1897، وأن عمل ماركوني قد اعتمد على بحوث تيسلا. ومرة أخرى لم يتلق تيسلا مالاً ولا فضلاً معنوياً. فقد اخترع تيسلا محرك

من البرنيق أن يمسكه بفمه حتى يصرخ الفيلم «هيا!» ثم صعد الفيلم إلى أعلى التلّ، حيث التقى بالفيل، الذي كان صبره قد بدأ ينفد. فأعطاه الطرف الآخر للحبل وقال له: «عندما أقول «هيا»، شدّ الحبل، وسترى من منا الأقوى». ثم قطع نصف الطريق عائداً إلى سفح التل، واختبأ في مكان لا يراه فيه أحد، وصرخ: «هيا!» فشرع الفيل والبرنيق في شدّ الحبل، ولكن لم يزحزح أيٌّ منهما الآخر. فقد كانت قوتهما متعادلة فوافق الاثنان على أن قوّة الفيلم تعادل قوّة كلٍّ منهما.

لا تعمل ما يستطيع الآخرون عمله لمصلحتك. فقد ترك الفيلم الآخَرَيْن يقومان بالعمل نيابة عنه، بينما حصل هو على الفضل.

خرافة زائيرية

توصيل وكذلك جهاز التيار المتناوب، مما يجعله «الأب الحقيقي للمذياع». ومع ذلك لا تحمل أي من هذه المكتشفات اسمه. وقد عاش وسط الفقر في شيخوخته. وفي سنة 1917، أثناء سنواته الأخيرة في الفقر، قيل له إنه سوف يتلقى ميدالية آديسون من المعهد الأميركي للمهندسين الكهربائيين. فرفض تيسلا تلك الميدالية، وقال: «إنكم تقترحون تكريمي بميدالية أستطيع أن ألصقها على سترتي وأتبختر بها ساعة من الغرور الفارغ أمام أعضاء معهدكم. إنكم تزركشون جسدي وتجيعون ذهني ومنتجاته الخلاقة برفضكم الاعتراف به، رغم أن منتجاته هي التي قدمت الأساس الذي يقوم عليه القسم الأكبر من معهدكم».

التفسير

يحتضن كثيرون وهماً بأن العلم، نظراً لتعامله مع الحقائق، يترفع عن المنافسات الصغيرة الحقيرة التي تعكر صفو باقي أنحاء العالم. وكان نيقولا تيسلا واحداً من أولئك الواهمين. فقد كان يعتقد أن العلم لا علاقة له بالسياسة، وزعم أنه لا يهتم بالشهرة والثراء. وعندما طعن في السن، قامت تلك الأفكار بتدمير عمله العلمي. وربما أن اسمه لم يرتبط بأي اكتشاف معين، فإنه لم يستطع أن يجتذب لأفكاره العديدة أي مستثمرين، وبينما كان غارقاً في التفكير في اختراعات عظيمة، سرق الآخرون براءات مخترعاته التي كان قد طورها فعلاً، وحصلوا منها على المجد لأنفسهم.

أراد أن يفعل كل شيء وحده، ولكنه لم يزد على أن أرهق نفسه وأفقرها في هذه العملية.

من المؤكد أن الصياد إذا اعتمد على أمان العربة، واستخدم قوائم الخيل الستة، وجعل وانغ ليانغ يمسك أعنتها، فإنه لن يتعب نفسه، وسيجد من السهل أن يلحق بالحيوانات السريعة.

وكان آديسون هو القطب النقيض لتيسلا. ولم يكن مفكراً علمياً أو مخترعاً كبيراً؛ وقد قال ذات مرة إنه لا يحتاج إلى أن يكون رياضياً، لأنه يستطيع أن يستأجر عالِم رياضيات دائماً. كانت تلك هي طريقة آديسون الرئيسة. كان في الواقع تاجراً وناشراً، يفتش عن الاتجاهات والفرص الموجودة على الساحة، فيعثر عليها ثم يستأجر أفضل ما هو موجود منها

في الميدان ليقوم صاحبها بالعمل له. وكان يسرق من منافسيه إذا اضطر إلى ذلك. ومع ذلك فإن اسمه معروف أكثر بكثير من اسم تيسلا، ومرتبط باختراعات أكثر كذلك.

فالدرس هنا مزدوج إذن. أولاً: إن الفضل في الاختراع أو الخلق يعادل في الأهمية الاختراع نفسه، إن لم يتفوق عليه. إن عليك أن تضمن نسبة الفضل لنفسك وتمنع الآخرين من سرقته، أو من الصعود على أكتافك بالانتفاع من عملك الشاق. ولتحقيق ذلك يتعين عليك أن تظل دائماً يقظاً وبلا رحمة، وأن تكتم اختراعك بهدوء حتى تتأكد من عدم وجود نسور تعيش على الجيف محلقة فوق رأسك. وثانياً: تعلَّم أن تستفيد من عمل الآخرين لتعزيز تقدم قضيتك أنت. فالزمن نفيس والحياة قصيرة. فإذا حاولت أن تقوم بكل شيء وحدك فسترهق نفسك حتى التمزق، وتهدر طاقتك، وتحرق نفسك حتى الانطفاء. وأفضل من ذلك بكثير أن توفر قواك، وتنقض على العمل الذي أنجزه الآخرون، وتجد طريقة لجعله ملكاً لك.

فإذا افترضنا الان أنه تخلى عن ميزة العربة، وترك قوائم الخيل المفيدة، وكذلك مهارة وانغ ليانغ، ونزل ليركض بنفسه وراء الحيوانات، فحتى لو كانت لساقَيْه سرعة لوشي، فلن يستطيع اللحاق بالحيوانات. والواقع أنه عند استخدام الخيول الجيدة، والعربات القوية، يستطيع العبيد والجواري أن يمسكوا بالحيوانات

هان - في - تزو
فيلسوف صيني من القرن الثالث قبل الميلاد

الجميع يسرقون في التجارة والصناعة
ولقد سرقت أنا بنفسي الكثير
ولكنني اعرف كيف أسرق.

(توماس آديسون، ١٨٤٧ ـ ١٩٣١).

مفاتيح السلطة

إن عالم السلطة يتحرك بآلية الغابة. ففيه الذين يعيشون بالصيد والقتل، وهناك أيضاً أعداد هائلة من المخلوقات (كالضباع، ونسور الجيف) التي تعتاش من صيد الآخرين، وهذه الفئة الأخيرة، وهي الأنماط الأقل خيالاً، غالباً ما تكون عاجزة عن القيام بالعمل الجوهري لخلق السلطة. غير أنها تعرف منذ وقت مبكر أنها إذا انتظرت وقتاً كافياً فإنها تستطيع دائماً أن تجد حيواناً آخر يقوم بالعمل نيابةً عنها. فلا تكن

الدجاجة العمياء

فقدت دجاجة بصرها. وكانت معتادة على الحفر في الأرض بحثاً عن الطعام. فاستمرت تنبش في الأرض بدأب شديد. فما كانت فائدة الاجتهاد لهذه الحمقاء؟ كانت هناك دجاجة أخرى حادة البصر وفرت ساقيها الطريتين ولكنها لم تتحرك

ساذجاً: ففي اللحظة نفسها التي تتعب فيها نفسك بالعمل في مشروع مّا، هناك نسور جوارح تحوم فوقك محاولةً أن تجد طريقةً تعتاش فيها من عملك الخلاق، بل وتزدهر وتنتعش من تطفلها عليه. وليس من المفيد التذمر من ذلك أو إنهاك نفسك من الشعور بالمرارة. كما فعل تيسلا. وأفضل من ذلك أن تحمي نفسك وتشارك في اللعبة. وعند ترسيخ قاعدة لسلطتك، فلتصبح أنت نفسك من النسور الجوارح، ووفّر على نفسك كثيراً من الوقت والجهد والطاقة.

قطّ من جانب الدجاجة العمياء، بل راحت، بدون نبش، تتمتع بثمار عمل الدجاجة الأولى، إذ أنه بمجرد أن تنبش الدجاجة العمياء حبة شعير، كانت رفيقتها اليقظة تلتهمها.

خرافات
غوتهولد ليسنغ،
1729 ـ 1781

ومن قطبي هذه اللعبة، يمكن تجسيد أحدهما بمثل المستكشف فاسكو نونيز دي بالبوا الذي كان مسكوناً بهاجس اكتشاف إلْ دورادو، المدينة الأسطورية ذات الثراء الذهبي الفاحش.

ففي أوائل القرن السادس عشر، وبعد مشقات لا حصر لها واحتكاكات بالموت وجد أدلة على إمبراطورية عظيمة وغنية إلى الجنوب من المكسيك، فيما يُعْرَفُ اليوم باسم بيرو. واعتقد أنه سوف يجعل من نفسه «هرناندو كورتيز» آخر بغزو هذه الإمبراطورية ـ الإنكا ـ والاستيلاء على ذهبها. وكانت المشكلة أنه عندما قام بذلك الاكتشاف، انتشرت أخباره بين مئاتٍ من الغزاة الآخرين. ذلك أنه لم يفهم أن نصف اللعبة يكمن في إبقائها طيّ الكتمان والاحتراس مِمّن حوله بشدة. وبعد بضع سنوات من اكتشافه لموقع إمبراطورية الإنكا، قام واحدٌ من جنود جيشه نفسه، هو فرانسيسكو بيزارو بالمساعدة على قطع رأسه بتهمة الخيانة... ثم استولى بيزارو هذا على ما قضى بالبوا سنوات عديدة من عمره في محاول اكتشافه.

أما القطب الآخر في اللعبة فهو يعود للفنان بيتر بول روبنز، الذي وجد نفسه في وقت متأخر من حياته العملية غارقاً في طوفان من طلبات رسم اللوحات. فخلق نظاماً: استخدم في استديو الرسم الكبير عشرات من الفنانين البارزين، الذين كان أحدهم مختصاً برسم الثياب، وآخر برسم الأرضية الخلفية، وهكذا. فأوجد روبنز منهم خطاً كبيراً للإنتاج تم

العمل فيه على لوحات كبيرة العدد في الوقت نفسه. وعندما كان زبون مهم يزور الاستديو، كان روبنز يطرد منه رساميه المستأجَرين طيلة ذلك اليوم، وبينما كان الزبون يشاهد ما يجري من على الشرفة، ينهمك روبنز في العمل بسرعة لا تصدق، وبطاقة لا تصدق، فيغادر الزبون وقد امتلأ هيبة لهذا الرجل الهائل، القادر على رسم هذا العدد من التحف والروائع بمثل هذا الوقت القصير.

هذا هو جوهر القانون: تعلَّم كيف تجعل الآخرين يعملون لأجلك بينما تحصل أنت على الفضل، وعندئذ ستظهر وكأنك ذو قوة وسلطة شبه إلهيتين. وإذا كنت تعتقد أن من المهم أن تقوم بالعمل كله بنفسك، فلن تذهب بعيداً، بل ستعاني مصير أمثال بالبوا وتيسلا في هذا العالم. اعثر على أناس لديهم المهارات والقدرات الخلاّقة التي تنقصك. فإمّا أن تستأجرهم، بينما تضع اسمك فوق أسمائهم، أو اعثر على طريقة تأخذ بها عملهم وتنتحله لنفسك. وهكذا تصبح قدرتهم ملكاً لك، فتظهر أمام العالم كأنك عبقري.

وهناك تطبيق آخر لهذا القانون لا يتطلب الاستخدام الطفيلي لعمل معاصريك. استخدم الماضي، فهو مستودع ضخم من المعرفة والحكمة. وقد كان إسحق نيوتن يسمي ذلك «الوقوف على أكتاف العمالقة». وكان يقصد أنه في اكتشافاته كان يبني على منجزات الآخرين. وكان يعرف أن قسماً كبيراً من هالة العبقرية المحيطة به يمكن نسبته إلى مقدرته الذكية على الاستفادة القصوى من بصيرة الذين سبقوه من علماء العصر القديم، والعصور الوسطى وعصر النهضة. وكان شكسبير يقتبس حبكاتٍ روائيةً، وشخصيات، بل وحواراً من بلوتارخ، من بين كتاب آخرين، لأنه كان يعلم أنه لا أحد يتفوق على بلوتارخ في كتابة الملاحظات النفسية الحاذقة والأقوال الظريفة والذكية. كم كاتبٍ اقتبسوا بدورهم ــ أو سرقوا وانتحلوا ــ من شكسبير فيما بعد؟

إننا نعلم جميعاً قلة عدد ساسة هذه الأيام الذين يكتبون خطبهم

بأنفسهم، فكلماتهم ليس من شأنها أن تُكْسِبَهُمْ صوتاً واحداً، فبلاغتهم وفطنتهم وحضور بديهتهم، أو ما هو موجود منها إنما يدينون بها لكاتب الخطاب، فهناك أناس آخرون يقومون بالعمل، بينما يحصل أولئك الساسة على الفضل. وإن معكوس هذه المقولة هو أن هذه سلطة متاحة لكل شخص. تعلَّم كيف تستخدم معرفة الماضي، وسوف تبدو كعبقري، حتى عندما لا تكون في الحقيقة أكثر من مقتبس.

إن الكتَّاب الذين غاصوا في عمق تفاصيل الطبيعة البشرية، وأساتذة التخطيط القدامى، ومؤرخي غباء البشر وحماقتهم، والملوك والملكات الذين تعلموا من خلال الصعوبة والمعاناة كيف يصرّفون أعباء السلطة ـ كل هذه المعرفة يتجمع عليها الغبار على الرفوف وأصحابها بانتظارك كي تأتي لتقف على أكتافهم. ففطنتهم وتعابيرهم الذكية يمكن أن تصبح ملكاً لك، وبراعتهم يمكن أن تصير براعتك، ولن يأتوا ليخبروا الناس أن أسلوبك مستعار منهم وليس أصيلاً. يمكنك أن تشق طريقك في الحياة بصعوبة، مرتكباً أخطاء لا نهاية لها، مضيعاً الوقت والطاقة في محاولة عمل الأشياء من تجربتك الخاصة، أو يمكنك استخدام جيوش الماضي. ولقد قال بسمارك ذات مرة: «يقول الحمقى إنهم يتعلمون بالتجربة. أما أنا فأفضل التعلم من تجارب الآخرين».

صورة: نسر الجيف. من بين كل المخلوقات في الغابة
فإن حياته هي الأسهل. إذ أن العمل الشاق الذي
يقوم به الآخرون يصبح عمله. وفشلهم
في البقاء يصبح غذاءه. ابق عينيك
مفتوحتين على النسر، إذ إنه
يحوم فوقك بينما أنت
منهمك في عملك
الشاق. فلا تقاتله،
بل شاركه.

الشاهد: هناك الكثير مما ينبغي معرفته. والحياة قصيرة. والحياة ليست حي
بدون معرفة. ولذا فإنها نصيحة ممتازة أن تحصل على المعرفة من كل النا
وهكذا فإنك تكسب من عرق جبين الآخرين سمعة تجعلك عرافاً. (بلثا
غراسيان، 1601 ــ 1658).

الانقلاب

هناك أوقات لا يكون فيها أخذ الفضل عن العمل الذي قام
الآخرون سلوكاً حكيماً. فإذا لم تكن سلطتك راسخة بدرجة كافية، فإن
ستظهر بمظهر مَنْ يدفع الناس عن الأضواء. ولكي تكون مستغلاً لامع
للموهبة يجب أن يكون مركزك ثابتاً لا يتزعزع، وإلاً فسوف تتهم
بالخداع.

تأكد متى يكون السماح للآخرين بالمشاركة في الفضل مساهماً في
خدمة أغراضك. ومن المهم على وجه الخصوص أن لا تكون طم
عندما يكون هناك سيد أو أستاذ فوقك. كانت زيارة الرئيس ريتش
نيكسون التاريخية إلى جمهورية الصين الشعبية فكرته هو في الأص
ولكنها ما كانت لتنجح وتتحقق لولا دبلوماسية هنري كيسنجر البارعة
ومع ذلك فعندما حان وقت أخذ الفضل، ترك كيسنجرُ نيكسونَ بحن
يحصل على حصة الأسد. ذلك أنه كان يعلم أن الحقيقة ستظهر في وق
لاحق، ولذا كان مهتماً بعدم تعريض موقفه للخطر على المدى القص
عن طريق اقتطاع ما هو أكبر من حصته من الأضواء. وهكذا لعب
كيسنجر لعبته بخبرة، فأخذ الفضل عن العمل الذي قام به مرؤوس
بينما أعطى الفضل عن جهوده هو لمن هم أعلى منه، وفعل ذلك بص
لبقة، وهذه هي طريقة ممارسة اللعبة.

القانون

8

اجعل الآخرين يأتون إليك ـ واستعمل طعماً عند الضرورة

الحكم

عندما ترغم الآخرين على التصرف، تكون أنت المسيطر. ومن الافضل دائماً أن تجعل خصمك يأتي إليك، متخلياً عن خططه الخاصة أثناء مجيئه. اغره بمكاسب خرافية ـ ثم شن هجومك. إذْ أنك تملك الأوراق.

مراعاة القانون

في مؤتمر ڤيينا سنة 1814، تجمعت القوى الكبرى في أوروب
لاقتسام بقايا إمبراطورية نابليون التي سقطت. كانت المدينة مليئة بالمر
وكانت حفلاتها أروع ما شهدته الذاكرة. غير أن شبح نابليون نفسه كان
يحوم حول هذه الإجراءات. فبدلاً من إعدامه أو نفيه إلى مكان بعيد.
أرسلوه إلى جزيرة إلبا، غير البعيدة عن ساحل إيطاليا.

وحتى في السجن على الجزيرة، فإن رجلاً جريئاً وخلاّقاً مثل
نابليون بونابرت كان يجعل كل شخص عصبياً. فتآمر النمسويون لقتله
على جزيرة إلبا، ولكنهم قرروا أن في ذلك مخاطر أكثر من اللازم. أم
قيصر روسيا المزاجي، ألكساندر الأول، فقد رفع درجة القلق عندم
فاجأ المؤتمر بنوبة انفعال بعد أن حرمه المؤتمرون من قطعة من بولند.
فصرخ مهدداً: «احذروا، سأطلق الوحش!» وعرف الجميع أنه يقصد
نابليون. ومن كل رجال السياسة المجتمعين في ڤيينا، كان الوحيد الذي
ظل هادئاً وغير مهموم هو تاليران، وزير خارجية نابليون الأسبق. فقد بد
وكأنه يعرف شيئاً لا يعرفه الآخرون.

وفي هذه الأثناء، كانت حياة نابليون على جزيرة إلبا تقليداً ساخر
لمجده السابق، فقد سمح له، باعتباره «ملك» إلبا، بتشكيل بلاط: فكا
هناك طباخ، ومسؤولة عن خزانة الملابس، وعازف بيانو رسمي، وحفنة
من رجال الحاشية. وكان ذلك كله مصمماً لإذلال نابليون، وبَدَا أن
يفعل فعله فيه.

غير أن ذلك الخريف شهد سلسلة من الأحداث فيها من الغرابة والتضارب المفاجىء ما يجعلها كأنها منتزعة من نصّ رواية مسرحية. فقد أحيطت إلبا بالسفن الحربية البريطانية المصوبة مدافعها إلى جميع نقاط الخروج الممكنة. ومع ذلك قامت سفينة على متنها تسعمائة رجل، وفي وضح النهار، بالتقاط نابليون والإقلاع به في البحر في 26 شباط/فبراير سنة 1815. وطارد الإنكليز السفينة، ولكنها أفلتت، وقد ذهل الناس في طول أوروبا وعرضها، من هذا الهرب الذي كان مستحيلاً تقريباً، وأصيب الساسة في مؤتمر ڤيينا بالذعر.

ورغم أنه كان من الأسلم مغادرة أوروبا، فقد اختار نابليون العودة إلى فرنسا، ولم يكتف بذلك، بل رفع المراهنات بالزحف على باريس في جيش ضئيل، على أمل استعادة العرش. وفعلت خطته فعلها ـ فارتمى على قدميه الناس من كل الطبقات. وهرع جيش يقوده المشير ناي من باريس للقبض على نابليون. ولكن الجنود عندما رأوا قائدهم المحبوب السابق انقلبوا إلى صفه، وأعلن نابليون إمبراطوراً مرة أخرى. وتضخمت صفوف جيشه الجديد بالمتطوعين. واجتاح الهوس البلاد. وفي باريس صار حماس الجمهور جنونياً متوحشاً. وهرب من البلاد الملك الذي كان قد حل محل نابليون.

وطيلة المائة يوم التالية، حكم نابليون فرنسا. غير أن الدوار سرعان ما انحسر. كانت فرنسا مفلسة، وقد نضبت مواردها تقريباً، ولم يكن نابليون قادراً على أن يفعل شيئاً يذكر إزاء هذا الوضع. وفي معركة واترلو، في حزيران/يونيو من ذلك العام (1815) اندحر نابليون في آخر الأمر إلى الأبد. وفي هذه المرة كان أعداؤه قد تعلموا الدرس. فنفوه إلى جزيرة سانت هيلانه القاحلة، على مبعدة من ساحل إفريقيا الغربي. فهناك لم يعد له أمل بالهرب.

التفسير

لم يسلط الضوء على هرب نابليون المفاجىء من إلبا إلاّ بعد

سنوات. فقبل أن يقرر أن يحاول القيام بهذه الحركة الجريئة، كان زوار
قد أخبروه أن شعبيته في فرنسا ما تزال كبيرة كما كانت، وأن البلد
سيحتضنه مرة أخرى. وكان من بين أولئك الزوار الجنرال النمسوي
كوللر، الذي أقنع نابليون بأنه إذا هرب فإن القوى الأوروبية، بما فيه
إنكلترا، سترحب به في السلطة. وقيل له همساً بأن الإنكليز سيتركونه
يغادر. وبالفعل فقد حدث هربه عند العصر، وعلى مرأى كامل من
مناظير التجسس الإنكليزية.

غير أن ما لم يعرفه نابليون هو أنه كان هناك رجل يقف وراء ذلك
كله، يجتذب الخيطان ويشدّها، وأن هذا الرجل هو وزيره الأسبق.
تاليران. وكان تاليران يفعل هذا كله لا ليعيد أيام المجد، بل ليسحق
نابليون مرة أخيرة إلى الأبد. كان تاليران يعتبر طموح الإمبراطور يطيح
باستقرار أوروبا، ولذلك كان قد انقلب عليه منذ زمن طويل. وعندما
نُفِيَ نابليون إلى إلبا، احتج تاليران، وجادل في أن نابليون ينبغي إبعاده
أكثر، وإلاّ فإن أوروبا لن تعرف السلام. ولكن لم يستمع إليه أحد.

وبدلاً من الإصرار على هذا الرأي، قرَّر أن ينتظر الوقت
المناسب. وفي صبر وهدوء راح يعمل حتى يكسب إلى جانبه كلاً من
كاسيلري ومترنيخ، وزيري خارجية إنكلترا والنمسا.

فعمل الثلاثة معاً على تقديم طعم أقنع نابليون بالهرب، وحتى
زيارة كوللر، كي يهمس في أذن المنفيّ عن المجد المرتقب، كانت جزءاً
من الخطة. ومثل الأستاذ المتقن للعبة الورق، خطط تاليران لكل شيء
سلفاً. وكان يعرف أن نابليون سيسقط في الفخ المنصوب له. وتنبأ بأن
نابليون سيقود فرنسا إلى حرب. ولكنها حرب لن تستغرق سوى أشهر
قليلة، نظراً لأن فرنسا كانت ضعيفة منهكة. وقال دبلوماسي نمسوي كان
يعرف أن تاليران يقف وراء هذا كله: «لقد أضرم النار في البيت كي ينقذه
من الطاعون».

عندما أضع الطعم للغزال، لا أطلق النار على أول جُؤْذُر يأتي ليتشمم،
بل انتظر حتى يتجمع القطيع كله.

(أوتو فون بسمارك، ١٨١٥ ـ ١٨٩٨)

مفاتيح السلطة

كم مرة تكرر هذا المشهد في التاريخ؟ زعيم عدواني يبادر إلى سلسلة من الحركات الجريئة التي تبدأ بإيصاله إلى سلطة كبيرة، غير أن هذه السلطة تصل إلى قمتها ببطء، وسرعان ما ينقلب عليه كل شيء. فيتحد أعداؤه العديديون؛ ويحاول الحفاظ على سلطته، فينهك نفسه في التحرك في هذا الاتجاه وذاك. ثم يسقط حتماً. والسبب في هذا النمط هو أن الشخص العدواني نادراً ما يكون مسيطراً على زمام الأمور تماماً. فلا يستطيع أن يرى سلفاً أكثر من حركتين، ولا يستطيع أن يرى عواقب حركته الجريئة هذه أو تلك. وبما أنه مرغم على إبداء رد فعل باستمرار إزاء تحركات حشود أعدائه الآخذة في التنامي باطراد، ورد فعل على العواقب غير المرئية لأفعاله المتسرعة نفسها، فإن طاقته العدوانية تُقْلَبُ عليه.

في مملكة السلطة ينبغي عليك أن تسأل نفسك: «ما هو الهدف من المطاردة هنا وهناك في محاولة حل مشاكلي ودحر أعدائي إذا لم أشعر أبداً أنني مسيطر على الأمور؟ ولماذا أنا مضطر إلى إبداء رد فعل على الأحداث بدلاً من توجيهها؟» والجواب بسيط: إن فكرتك عن السلطة خاطئة. لقد أخطأت في اعتبارك الفعل العدواني فعلاً مؤثراً وفي أغلب الحالات يكون أكثر الأفعال تأثيراً هو الانتظار والمحافظة على رباطة الجأش، وتثبيط الآخرين وإحباطهم بالمصايد التي تنصبها لهم، مراهناً على السلطة في المدى البعيد، بدلاً من نصر سريع.

تذكَّر: إن جوهر السلطة هو المحافظة على زمام المبادرة، وترك الآخرين يبدون ردود فعل على تحركاتك أنت، وإبقاء خصومك والذين حولك متخذين وضع الدفاع. فعندما تجعل الآخرين يأتون إليك فإنك

تصبح فجأة أنت المسيطر على الوضع. ومن يملك السيطرة يملك السلطة. ويجب أن يحدث أمران كي يتم إيصالك إلى هذا المركز عليك أنت أن تتحكم في عواطفك، وأن لا تتأثر بالغضب قطّ؛ ولكن عليك في هذه الأثناء أن تستغل ميل الناس إلى ردود الفعل الغاضبة عندما يُسْتَفَزُّون ويضايقون. وعلى المدى البعيد، فإن قدرتك على جعل الآخرين يأتون إليك هي سلاح أقوى من أي أداة للعدوان.

ادرس كيف قام تاليران، أستاذ هذا الفن، بممارسة هذه الخدعة الدقيقة. فأولاً: تغلب على حافز محاولة إقناع زملائه من رجال السياسة أنهم بحاجة إلى نفي نابليون إلى مكان بعيد. إنه لمن الطبيعي أن ترغب في إقناع الناس عن طريق عرض قضيتك عليهم، وفرض إرادتك بالكلمات. ولكن ذلك غالباً ما ينقلب ضدك. لم يكن إلاّ قليلون من معاصري تاليران يعتقدون أن نابليون ما زال يشكل تهديداً؛ بحيث أن تاليران لو صرف كثيراً من الطاقة في محاولة إقناعهم لجَعَلَ نفسه يبدو أحمق. وبدلاً من ذلك لجم عواطفه ولسانه. والأهم من ذلك كله أنه نصب لنابليون فخاً حلواً لا يقاوَمْ. كان يعرف نقطة ضعف الرجل، واندفاعه الطائش، وحاجته إلى المجد وحبّ الجماهير. فاستغل ذلك أفضل استغلال. وعندما اتجه نابليون إلى الطعم، لم يكن هناك خطر في أنه قد ينجح ويقلب الموائد على تاليران، الذي كان يعرف أفضل من الجميع حالة فرنسا المنهكة النابضة. وحتى لو تمكن نابليون من التغلب على هذه المصاعب، فإن احتمال نجاحه سيكون أكبر لو كان قادراً على اختيار زمان فعله ومكانه. ولقد أخذ تاليران الزمان والمكان بيديه عندما أجاد نصب الفخ بطريقة صحيحة.

إن لدينا جميعاً طاقة محدودة. وهناك لحظة تكون طاقاتنا فيها في أوجها. فعندما تجعل الشخص الآخر يأتي إليك، فإنه يتعب نفسه حتى الإرهاق، مبدداً طاقته في رحلته هذه. في سنة 1905، كانت روسيا واليابان في حالة حرب. ولم يكن اليابانيون قد بدأوا بتحديث سفنهم

الحربية إلاَّ قبل ذلك بزمن يسير، بحيث أن الروس كان لديهم أسطول أقوى. ولكن المشير الياباني طوغوهيها شيرو، نشر معلومات زائفة استدرج بها الروس إلى مغادرة أحواضهم في بحر البلطيق وجعلهم يعتقدون أنهم قادرون على محق الأسطول الياباني بهجمة كاسحة سريعة واحدة. ولم يكن الأسطول الروسي قادراً على الوصول إلى اليابان بأسرع الطرق ــ عبر مضيق جبل طارق، ثم قناة السويس إلى المحيط الهندي ــ لأن هذه كانت تحت السيطرة البريطانية، وكانت اليابان حليفة لبريطانيا العظمى. وهكذا اضطر الروس إلى الدوران حول رأس الرجاء الصالح عند الطرف الجنوبي لإفريقيا، مما أضاف أكثر من ستة آلاف ميل إلى رحلتهم. وعند عبور الأسطول برأس الرجاء الصالح، نشر اليابانيون قصة زائفة أخرى: زعموا أنهم قد أبحروا لشن هجوم معاكس. وهكذا قام الروس برحلتهم كلها إلى اليابان وهم على أهبة الاستعداد للقتال. وعند وصولهم كان بحارتهم متوترين، ومرهقين ومتعبين من عملهم الشديد المشقة، بينما كان اليابانيون في انتظارهم وهم مرتاحون. وعلى الرغم من الفوارق الكبيرة لغير صالح اليابانيين ونقص تجربتهم في حروب الأساطيل الحديثة، فقد سحقوا الروس.

ومن الفوائد الإضافية لجعل الخصم يأتي إليك، كما اكتشف اليابانيون في نزاعهم مع الروس، أن ذلك يرغمه على العمل في منطقتك. ووجوده على أرض معادية يجعله عصبياً، وكثيراً ما يتسرع في عمله ويرتكب الأخطاء. ومن أجل المفاوضات والاجتماعات، فإن من الحكمة دائماً أن تستدرج الآخرين إلى منطقتك أو إلى المنطقة التي تختارها. فلديك مرتكزاتك، بينما هم لا يرون شيئاً مألوفاً من حولهم، وقد وُضِعُوا بذكاء خفي في موقف الدفاع.

إن التلاعب المناوِر لعبة خطرة. فما أن يشعر شخص مّا بأنه عرضة للتلاعب حتى تصبح السيطرة عليه أصعب وأصعب. ولكن عندما تجعل خصمك يأتي إليك فإنك تخلق لديه وهماً بأنه هو المسيطر على

الوضع. فلا يشعر بالخيوط التي تتجاذبه، تماماً كما تخيل نابليون أنه هو الممسك بزمام هربه الجريء وعودته إلى السلطة.

إن كل شيء يعتمد على حلاوة طعمك. فإن كان فخّك جذاباً بما فيه الكفاية، فإن اضطراب عواطف أعدائك ورغباتهم سوف يعميهم عن الحقيقة. وكلما ازداد طمعهم، زادت سهولة اقتيادهم.

كان دانييل دْرُو، قطب اللصوصية الكبير في القرن التاسع عشر، أستاذاً في فن المضاربة في سوق الأسهم والسندات المالية. وعندما كان يريد أن يُبَاعَ سهمٌ معين أو يُشْتَرَى، برفع الأسعار أو تخفيضها، لا يلجأ إلى النهج المباشر إلاَّ نادراً. وكانت إحدى خدعه أن يهرع عبر نادٍ نخبوي متميز بالقرب من وُولْ ستريت، في طريقه إلى السوق كما يظهر بوضوح، وهو يستخرج منديله الأحمر المزركش المعهود ليمسح به عرق جبينه، ثم تسقط من ذلك المنديل قصاصة ورق يتظاهر بأنه لم يلاحظها. وكان أعضاء النادي يحاولون دائماً أن يتنبأوا بتحركات دْرُو، فينقضّون على الورقة، التي كانت تحوي دائماً معلومات داخلية عن السوق. وهكذا تنتشر الإشاعة، فيشتري الأعضاء الأسهم أو يبيعونها زُرافات. وبذلك يتصرفون كما يريد دْرُو على أفضل وجه.

إذا كنت قادراً على جعل الناس يحفرون قبورهم بأيديهم، فلمَ تعرق جبينك؟ إن النشالين يستفيدون من ذلك على أفضل وجه، فمفتاح نشل جيبٍ مّا هو معرفة الجيب الذي فيه المحفظة. وكثيراً ما يجتهد النشالون الخبراء في ممارسة مهنتهم في محطات القطارات وغيرها من الأماكن التي فيها يافطات تعلن بوضوح: إحذروا النشالين. فالمارة الذين يرون هذه اليافطات لا بد أن يتحسسوا مكان المحفظة للتأكد من أنها ما زالت في مكانها، وبالنسبة للنشالين الذين يراقبون الناس، كانت العملية تشبه إطلاق النار على سمك في برميل. بل لقد عُرِفَ عن النشالين أنفسهم تعليق مثل هذه اليافطات ليضمنوا نجاحهم.

وعندما تجعل الناس يأتون إليك، فإن من الأفضل أحياناً أن تجعلهم يعرفون أنك تلوي أيديهم. فتتخلى عن الخداع من أجل التعامل بالتلاعب العلني. وينتج عن ذلك تشعبات نفسيّة عميقة: فالشخص الذي يجعل الآخرين يأتون إليه يظهر قوياً ويفرض عليهم احترامه.

كان فيليبو برونلليتشي، الفنان والمعماري العظيم في عصر النهضة ممارساً كبيراً لفن جعل الناس يأتون إليه، كعلامة على قوة نفوذه. وقد استخدم في إحدى المناسبات لتصليح قُبَّة كاتدرائية سانتا ماريا ديل فيوري في فلورنسا. وكان هذا التكليف هاماً ودالاً على امتياز وحظوة. ولكن عندما استأجر موظفو المدينة رجلاً ثانياً هو: لورينزو غيبرتي، ليعمل مع برونلليتشي، انغمس الفنان العظيم في التفكير سراً وهو مكتئب. كان يعلم أن غيبرتي حصل على الوظيفة من خلال اتصالاته، وأنه لن يقوم بشيء من العمل، ومع ذلك سيحصل على نصف الفضل. وفي لحظة حرجة من البناء إذن، أصيب برونلليتشي فجأة بمرض غامض. فاضطر إلى وقف العمل، ولكنه أشار إلى موظفي المدينة أنهم قد استأجروا غيبرتي الذي يجب أن يكون قادراً على متابعة العمل وحده. وسرعان ما اتضح أن غيبرتي لا فائدة منه، وجاء الموظفون إلى برونلليتشي متوسلين. فتجاهلهم، مصرًّا أن على غيبرتي أن يكمل العمل، حتى أدركوا المشكلة في آخر الأمر، فطردوا غيبرتي.

وبمعجزةٍ مّا، استعاد برونلليتشي عافيته في غضون أيام، فلم يضطر إلى إظهار نوبة غضب أو التصرف بحماقة، بل مارس ببساطة فن «جعل الآخرين يأتون إليك».

إذا نجحت في مناسبةٍ مّا في جعل مجيء الآخرين إليك مسألة كرامة، ونجحت في ذلك، فإنهم سيستمرون في المجيء حتى بعد أن تتوقف عن محاولة اجتلابهم.

صورة: فخ الدب
المحلى بالعسل. إن صياد
الدب لا يطارد فريسته. إن
الإمساك بالدب الذي يعرف أنه مطارد
يكاد يكون مستحيلاً. وهو شرس إذا
حوصر. وبدلاً من ذلك ينصب الصياد له
فخاً فيه طعم من العسل. فلا يرهق
نفسه ولا يخاطر بحياته في
مطاردة. بل يضع الطعم،
ثم ينتظر.

الشاهد: إن المحاربين الجيدين يجعلون الآخرين يأتون إليهم. ولا يذهبون إلى الآخرين. وهذا هو مبدأ الفراغ والامتلاء للآخرين وللنفس. فعندما تقنع خصومك بالمجيء إليك، تكون قوتهم فارغة؛ وما دمت لا تذهب إليهم فإن قوتك تكون مليئة دائماً. إن مهاجمة الفراغ بالامتلاء تشبه رمي الحجارة على البيض. (جانغ يو، معلق من القرن الحادي عشر، حول فن الحرب).

الانقلاب

رغم أن السياسة الأكثر حكمة هي جعل الآخرين يرهقون أنفسهم في مطاردتك، فإن هناك حالات معاكسة حيث تؤدي ضربة عدو بـ مفاجئة للعدو إلى تحطيم روحه المعنوية إلى درجة تجعل قواه تخو. فبدلاً من جعل الآخرين يأتون إليك، تذهب أنت إليهم، وتفرض الأمـ عليهم وتأخذ زمام القيادة. فالهجوم السريع يمكن أن يكون سلاحـ رهيباً، لأنه يرغم الشخص الآخر على إبداء رد فعل دون إعطائه وقـ ليفكر أو يخطط. وبدون وقت للتفكير، يرتكب الناس أخطاء في

الحكم، ويضطرون إلى اتخاذ موقف الدفاع، وهذه الخطة هي عكس خطة الانتظار ونصب الطعم. ولكنها تخدم الغرض نفسه: إذْ أنّك تجعل العدو يستجيب حسب شروطك.

إن رجالاً مثل سيزار بورجيا ونابليون قد استخدموا عنصر السرعة ليُرْهِبُوا ويسيطروا. فالحركة السريعة غير المتوقعة تثير الرعب وتحطم المعنويات. وعليك أن تختار أساليب عملك اعتماداً على مقتضيات الموقف. فإذا كان الزمن إلى جانبك وأنت تعلم أنك وأعداءك متساوون في القوة على الأقل، فعندئذ اجعل قوتهم تنضب بجعلهم يأتون إليك. أما إن كان الزمن ضدك، وكان أعداؤك أضعف منك، فإن الانتظار لن ينتج عنه سوى إعطائهم الفرصة لاسترداد عافيتهم. فلا تعطهم مثل هذه الفرصة. اضرب بسرعة، ولن يجدوا مكاناً يذهبون إليه. وكما قال الملاكم جولويس: «إنه يستطيع أن يهرب، ولكنه لا يستطيع أن يختبىء».

القانون

9

اكسب من خلال أعمالك وليس من خلال النقاش أبداً

الحكم

إن أي انتصـار خاطف تظن أنك حققته عن طريق النقاش إنما هو في الحقيقة انتصـار بيروسـي باهظ الثمن جداً. إذ إن الغضب والضـغينة اللذين تثيرهما أقوى وأبقى من أي تغيير سريع ومؤقت في الرأي. وإن من الأقوى لك بكثير أن تجعل الآخرين يتفقون معك من خلال أعمالك دون أن تقول كلمة واحدة. أعطِ المثل العملي، وليس التفسير الكلامي.

انتهاك القانون

في سنة 131 ق .م. كان القنصل الروماني بوبليوس كراسوس دايفز موشيانوس يحاصر المدينة الإغريقية برغاموس، فوجد نفسه في حاجة إلى مِدَكّ ضارب يخترق أسوار المدينة. وكان قد رأى قبل بضعة أيام صاريين ثقيلين ضخمين في حوض للسفن في أثينا. فأمر بإرسال أكبرهما إليه في الحال. وشعر المهندس العسكري الذي تلقى ذلك الأمر في أثينا أن القنصل في الحقيقة يريد الصاري الأصغر. ودخل في جدل لا ينتهي مع الجنود الذين نقلوا إليه الطلب، وقال لهم إنه كلما كان الصاري أصغر، كان أنسب للمهمة المطلوبة، بل إن عملية نقله ستكون أسهل.

وحذّر الجنودُ المهندسَ بأن سيدهم رجل لا يتحمل الجدل، ولكنه أصرّ على أن الصاري الأصغر هو الوحيد الذي سيعمل مع آلة كان يبنيها لتركّب معه. ورسم لهم مخططاً بيانياً بعد مخطط، وذهب إلى حد القول بأنه هو الخبير، وأن الجنود جهلة لا يعرفون عمّ يتحدثون. ولكن الجنود كانوا يعرفون قائدهم، فأقنعوا المهندس في آخر الأمر أن من الأفضل له أن يبتلع خبرته ويطيع.

غير أن المهندس فكر في الموضوع أكثر بعد مغادرتهم، فسأل نفسه: ما الفائدة من إطاعة أمر سيؤدي إلى الفشل؟ وهكذا أرسل الصاري الأصغر، وهو على ثقة بأن القنصل سيرى كم هو فعال أكثر، ويكافئه على ذلك بطريقة عادلة.

السلطان والوزير

خدم وزيرٌ سيده ما يقرب من ثلاثين عاماً، وكان الوزير يثير الإعجاب، فقد عُرِفَ بولائه وصدقه وورعه وإخلاصه له غير أن نزاهته أكسبته عداوة كثيرين في البلاط، فراحوا يشيعون قصصاً عن نفاقه وغدره. واستمروا يعملون للتأثير على السلطان يوماً بعد يوم حتى فقد هو الآخر ثقته بالوزير البريء، وفي آخر الأمر، أمر بقتل الرجل الذي خدمه بكل ذلك التفاني.

وفي تلك المملكة، كان المحكوم عليهم بالموت يربطون بقيود محكمة ثم يلقى بهم في حظيرة كان السلطان يحتفظ فيها بأشرس كلاب الصيد التي يملكها وعندئذ تنقض الكلاب على الضحية فتمزقها إرباً إرباً.

غير أن الوزير تقدم بطلب أخير قبل أن يلقى به إلى الكلاب، فقال: «أطلب مهلة عشرة أيام، كي أتمكن من تسديد ديوني، وجمع أية أموال مستحقة لي، وأعيد الأمانات التي عهد بها الناس

وعندما وصل الصاري الأصغر، طلب موشيانوس من جنوده تفسيراً فوصفوا له كيف دخل المهندس معهم في جدل لا ينتهي لصالح الصاري الأصغر، ولكنه وعد في النهاية أن يرسل الأكبر. فاستشاط موشيانوس غضباً ولم يستطع أن يركز على الحصار، أو يفكر في أهمية خرق الأسوار قبل أن تتلقى المدينة تعزيزات. وكان كل ما استطاع أن يفكر به هو المهندس الوقح، الذي أمر بإحضاره إليه على الفور.

وعندما وصل المهندس بعد بضعة أيام شرح للقنصل بسرور، مرة أخرى أسباب تفضيله للصاري الأصغر، واستمر في ذلك طويلاً، مستخدماً الحجج نفسها كما طرحها على الجنود، وقال إن من الحكمة الاستماع إلى الخبراء في هذه الأمور، وأنه إذا حاول القنصل شن الهجوم بالمدك الضارب الذي أرسله إليه، فلن يندم على ذلك. وتركه موشيانوس ينتهي من جدله، ثم أمر به فجُرِّدَ من ثيابه أمام الجنود، ثم ضُرِبَ وعُذِّب بالعصيّ حتى مات.

إليّ، وأقسم ممتلكاتي بين أفراد أُسرتي وأولادي، واعيّن قيّماً عليهم». وبعد أن تلقى السلطان ضمانة بأن الوزير لن يحاول الهرب، أعطاه السلطان ما طلب. وأسرع الوزير إلى بيته، فجمع مائة قطعة من الذهب، وتوجه لزيارة الصياد الذي كان يرعى كلاب السلطان، فقدم إليه المائة قطعة من الذهب وقال له: «دعني أهتم بالكلاب عشرة أيام». وعلى مدى الأيام العشرة التالية، قام الوزير برعاية الكلاب باهتمام عظيم، فكان ينظفها ويعنى بها ويطعمها بشكل فاخر. وعند نهاية الأيام العشرة كانت قد أحبته بحيث راحت تأكل من يده

وفي اليوم الحادي عشر استدعي الوزير للمثول أمام السلطان، وكررت عليه الاتهامات، وراقبه الملك بينما كان يوضع في القيود ليُلقى إلى الكلاب. فعندما رأته الحيوانات سارعت إليه وهي تهز ذيولها فرحاً به، وراحت تعض كتفيه عضاً خفيفاً وهي تداعبه بِمَوَدَّة. وذهل السلطان، ومعه كل من شهد هذا الأمر. فسأل وزيره عن سبب إبقاء الكلاب على حياته، فردّ الوزير: «لقد عُنِيتُ بهذه الكلاب عشرة أيام. فشاهد السلطان النتيجة بنفسه. ولكني عنيت بك ثلاثين عاماً فماذا كانت النتيجة؟ أنا محكوم عليّ بالموت على أساس اتهامات لفقها ضدي أعدائي». فاحمرّ وجه السلطان خجلاً، ولم يكتف بالعفو عن وزيره، بل أعطاه حلة من

التفسير

كان المهندس، الذي لم يسجل التاريخ اسمه، قد أمضى حياته في تصميم الصواري والأعمدة، وكان محترماً باعتباره أفضل مهندس في مدينة برزت وأبدعت في العلم. وكان يعرف أنه على حق. فالمدك الأصغر من شأنه أن يسمح بسرعة أكبر ويحمل قوة أكثر: وكان واثقاً بالطبع أن القنصل سيقتنع بمنطقه، ويفهم في آخر الأمر أن العلم محايد، وأن العقل له التفوق.. لأن الشيء الأكبر ليس هو الأفضل بالضرورة. فكيف يمكن للقنصل أن يصرّ على جهله إذا عرض عليه المهندس رسوماً بيانية مفصلة، وشرح النظريات التي تقف خلف نصيحته؟

كان المهندس العسكري تجسيداً للخلاصة المثالية للمجادِل، وهو نوع أو طراز من الناس يوجد بين ظهرانينا في كل مكان. فالمجادِل لا يفهم أن الكلمات ليست محايدة أبداً، وأنه بالمجادلة مع رئيس أعلى منه يطعن في ذكاء شخص ذي سلطة أقوى منه، كما أنه لم يكن على وعي

بالشخص الذي يتعامل معه. وبما أن كل إنسان يعتقد أنه على حق، ونادراً ما تقنعه الكلمات بعكس ذلك، فإن المحاكمة المنطقية للمجادل تقع على آذان صماء. وعندما يُحْشَرُ المجادل في زاوية فإنه لا يفعل شيئاً سوى المزيد من المجادلة، وبذلك يحفر قبره بيده. فإذا جعل الشخص الآخر يشعر بعدم الأمان، وبأنه يعاني من النقص في معتقداته، فإن بلاغة سقراط لا يمكن أن تنقذ الموقف.

الملابس الفاخرة، وسلّمه الأشخاص الذين شَهّروا بسمعته فأطلق الوزير النبيل سراحهم واستمر يعاملهم بعطف

الخدمة الذكية: كتاب الحكمة والأحابيل العربية (القرن الثالث عشر)

وليست المسألة قاصرة ببساطة على ضرورة تجنب الجدل مع الواقفين في مركزٍ أعلى منك. إننا جميعاً نعتقد بأننا أساتذة في ميدان الآراء والمحاكمات العقلية. فعليك إذن أن تكون حريصاً: تعلَّم كيف تظهر صحة أفكارك بطريقة غير مباشرة.

مراعاة القانون

في سنة 1502، في فلورنسا، بإيطاليا، كانت هناك كتلة ضخمة من الرخام تقف في قسم الإنشاءات في كنيسة سانتا ماريا دِيلْ فيوري. كانت ذات مرة قطعة رائعة من حجر خام، ولكن نحاتاً غير ماهر قد حفر فيها ثقباً بطريق الخطأ حيث كان يجب أن تكون هناك ساقا تمثال، وبذلك شوَّهها وبترها بصورة عامة. وقد فكَّر عمدة فلورنسا، بييرو سودريني، في محاولة إنقاذ الكتلة بدعوة ليوناردو دافنشي للعمل فيها، أو في تركها لأستاذ آخر، ولكنه استسلم لليأس لأن الجميع اتفقوا على أن الحجر قد أتلف. وهكذا، فعلى الرغم من الأموال التي أهدرت عليه، ظل مهملاً يتجمع عليه التراب في قاعات الكنيسة المظلمة.

وظلت الأمور هكذا حتى قرر بعض الأصدقاء الفلورنسيين للفنان العظيم مايكل آنجيلو أن يكتبوا له، وكان آنئذٍ يعيش في روما. وقالوا إنه الوحيد القادر على عمل شيءٍ مّا من قطعة الرخام، التي كانت مادةً أوليةً رائعةً ما تزال. وسافر مايكل آنجيلو إلى فلورنسا، وتفحَّص الحجر، واستنتج بأنه يستطيع في الحقيقة أن ـحت منه تمثالاً جميلاً، بتكييف

الوقفة لتتناسب والطريقة التي بترت فيها الصخرة. وجادله سودريني في أن ذلك سيكون مضيعة للوقت ـ إذ لم يستطع أحد أن ينقذ الصخرة من مثل تلك الكارثة ـ ولكنه وافق أخيراً على ترك الفنان يعمل فيها. وقرر مايكل آنجيلو أن يصوِّر داوودَ في شبابه، والمقلاع في يده.

وبعد أسابيع، كان مايكل آنجيلو يضع اللمسات الأخيرة على التمثال. ودخل سودريني الاستديو. وبما أنه كان يتخيَّل نفسه خبيراً فنياً إلى حدٍّ ما، فقد درس العمل الضخم وقال لمايكل آنجيلو إنه يعتقد أنه رائع، ولكنه حَكَمَ بأن الأنف أكبر من اللازم. وأدرك مايكل آنجيلو بأن سودريني كان واقفاً في مكان تحت التمثال العملاق تماماً، ولم يكن في زاوية النظر الصحيحة الملائمة. وبدون أي كلمة، أشار إلى سودريني أن يتبعه صاعداً إلى السقالة. وعندما وصل إلى الأنف، التقط إزميله، وكذلك حفنة من تراب الرخام كانت موضوعة فوق لوح الخشب. وبوجود سودريني واقفاً تحته على السقالة على بعد بضعة أقدام منه، راح يدق بإزميله دقاً خفيفاً، ويترك نتفاً من الغبار الذي جمعه بيده تتساقط قليلاً قليلاً. والواقع أنه لم يفعل شيئاً لتغيير الأنف، بل أعطى كل مظهر بأنه منهمك في تعديله. وبعد بضع دقائق من هذه الإيماءات الجوفاء وقف جانباً، وقال: «انظر إليه الآن»، فرد سودريني: «أحبه أفضل هكذا. لقد جَعَلْتَهُ ينبض بالحياة».

التفسير

اعمال اماسيس

وعندما أُزيحَ آبريز عن السلطة بالطريقة التي وصفتُها، جاء أماسيس إلى العرش. وكان أصله من مقاطعة سايس، وهو من مدينة فيها تدعى سيوف. وكان المصريون في بادىء الأمر ميالين إلى احتقاره، ولم يحترموه بسبب أصله

كان مايكل آنجيلو يعلم أنه بتغيير شكل الأنف قد يدمِّر التمثال المنحوت بأكمله. ومع ذلك فقد كان سودريني راعياً يفتخر بقدرته على إصدار الأحكام الجمالية. وإزعاج مثل هذا الرجل بالجدل لن يُكْسِبَ مايكل آنجيلو شيئاً، بل سيعرض للخطر أية طلبات مستقبلية. وكان مايكل آنجيلو أبرع من أن يجادل. فكان الحلّ هو أن يغير الزاوية التي ينظر منها سودريني. (فاقترب به من الأنف أكثر، بالمعنى الحرفيّ للكلمة)، دون أن يجعله يدرك أن ذلك كان سبب تشوّه المنظر في عينيه.

فلحسن حظ الأجيال اللاحقة، وجد مايكل آنجيلو طريقة لإبقاء كمال التمثال متماسكاً على حاله، وفي الوقت نفسه جعل سودريني يعتقد أنه قد حسَّنه. وهذه هي القوّة المزدوجة للكسب عن طريق الأعمال بدلاً من المجادلة، إذ لا يتأذى أحد، كما تثبت وجهة نظرك.

مفاتيح السلطة

في مملكة السلطة، عليك أن تحكم على حركاتك بحسب تأثيرها على الآخرين على المدى البعيد. والمشكلة في محاولة إثبات نقطةٍ مّا أو كسب نصرٍ عن طريق الجدل هي أنك لن تستطيع أن تعرف على وجه التأكيد مدى تأثير هذا على الناس الذين تتجادل معهم. فقد يظهرون أنهم متفقون معك بصورة مهذبة، ولكنهم قد يغضبون منك في داخلهم. ولعل شيئاً قلته قد يجرحهم عن غير قصد منك. فللكلمات تلك القدرة الغادرة على أن تُفَسَّر حسب مزاج الشخص الآخر وشعوره بانعدام الأمان معك. فحتى أفضل الحجج ليس لها أساس صلب، لأننا اعتدنا على عدم الثقة بالطبيعة المنزلقة للكلمات. وبعد أيام من موافقة شخصٍ مّا، فإننا كثيراً ما نعود إلى رأينا القديم بفعل العادة المحضة.

إفهم هذا: الكلمات رخيصة جداً. وكل شخص يعرف أننا في غمرة الجدل الساخن نقول أي شيء لدعم قضيتنا. فقد نقتبس من الكتاب المقدس، أو نشير إلى إحصائيات لا يمكن التأكد منها. فمن الذي يمكن إقناعه بأكياس من الهواء هكذا؟ فالفعل وإظهار الشيء عملياً أمام الآخرين أقوى بكثير وأكثر امتلاءً بالمعنى. وهذا متاح لنا وأمام أعيننا لنراه. ــ «نعم يبدو أنف التمثال الآن صحيحاً ومناسباً بالفعل». فليست هناك كلمات جارحة، ولا إمكانية لإساءة التفسير. إذ لا يستطيع أحد أن يجادل في برهان معروض أمامه عملياً. وكما قال بلثازار غراسيان: «الحقيقة تشاهَدُ على وجه العموم، ونادراً ما تُسْمَع».

كان السير كريستوفر رِنْ (1631 ــ 1723) النسخةَ الإنكليزيةَ من

المتواضع وعبر التحقير ولكنه أعادهم إلى الجادة ببراعة، فيما بعد، ودون أن يضطر إلى اللجوء إلى أية إجراءات قاسية

لقد كان من بين كنوزه التي لا تحصى مغسلة للأقدام مصنوعة من الذهب كان يستخدمها مع ضيوفه أحياناً لغسل أقدامهم فيها. نكسرها وصنع من قطعها تمثالاً لأحد الآلهة ونصبه فيما اعتقد أنها أنسب بقعة في المدينة. فكان المصريون عندما يقتربون من التمثال يعاملونه باحترام عميق. وعندما سمع أماسيس بذلك التأثير عليهم دعا إلى اجتماع وكشف لهم فيه أن التمثال الذي يعاملونه بكل ذلك التبجيل كان في الأصل مغسلة للأقدام يتغوّط فيها الناس ويتقيأون. وتابع يقول إن حالته شبيهة جداً بحالة ذلك التمثال لأنه كان ذات يوم شخصاً عادياً، ولكنه صار الآن ملكاً. ومثلما راح المصريون يحترمون مغسلة الأقدام بعد تحولها، فإن من الأفضل لهم أن يحترموه ويكرموه كذلك. وبهذه الطريقة أقنع المصريين بقبوله سيداً لهم.

التواريخ
هيرودوتس، القرن الخامس قبل الميلاد

رجل عصر النهضة فقد أتقن علوم الرياضيات، والفلك، والفيزياء والفسلجة (وظائف الأعضاء). ومع ذلك، ففي أثناء حياته العملية الطويلة جداً كأشهر معماري في إنكلترا كان رُعَاتُه كثيراً ما يطلبون منه إجراء تغييرات غير عملية في تصاميمه. فلم يجادل أحداً منهم أو يجرحه مرة واحدة أبداً. فقد كانت لديه طرق أخرى لإثبات وجهة نظره.

وفي سنة 1688، صمّم مبنى بلدية رائع لمدينة ويستمينستر. غير أن عمدتها لم يرضَ عنه؛ والواقع أنه كان عصبياً. فأخبر رِنْ أنه يخشى من كون الطابق الثاني غير آمن، وأنه قد ينهار كله فجأة فوق مكتبه في الطابق الأول. وطالب بأن يضيف رِنْ عمودين حجريين لإعطاء الطابق مزيداً من الدعم. وكان رِنْ، المهندس المعماري من الطراز الأول، يعرف أن هذين العمودين لن يخدما أيّ غرض، وأن مخاوف العمدة لا أساس لها. ومع ذلك فقد بناهما بالفعل، فشكره العمدة عرفاناً بعمله. ولم يحدث إلاّ بعد سنوات أن اكتشف عمال واقفون على سقالات عالية أن العمودين ينتهيان قبيل الوصول إلى السقف.

كان العمودان دميتين. ولكن الرجلين كليهما حصلا على ما يريدان. فاستطاع العمدة أن يرتاح، وعرف رِنْ أن الأجيال اللاحقة ستفهم أن تصميمه الأصلي سليم وأن العمودين غير ضروريين.

إن قوة إظهار فكرتك عملياً للعيان تكمن في أن خصومك لا يتخذون موقف الدفاع، فلذلك يكونون أكثر انفتاحاً للإقناع. إن جعلهم يشعرون بمعناك حرفياً ومادياً بشكل ملموس أقوى بما لا حدّ له من مجادلتهم.

ذات مرة، قاطع مشاغبٌ متنطعٌ نيكيتا خروشيف في وسط خطاب له كان يدين فيه جرائم ستالين، فصرخ ذلك المتنطع: «لقد كنت زميلاً لستالين، فلماذا لم توقفه عند حدِّه آنذاك؟». ويبدو أن خروشيف لم يستطع رؤية ذلك الشخص، فصرخ بدوره: «من الذي قال ذلك؟» فلم ينبس أحد ببنت شفة. وبعد بضع ثوان من السكوت المشحون بالتوتر،

الله وإبراهيم

وعد الله عز وجل إبراهيم أن لا يقبض روحه إلاّ إذا أراد إبراهيم أن يموت وطلب من الحق عز وجل أن يقبضه إليه. وعندما اقتربت حياة إبراهيم من ختامها، وقرر الله

قال خروشيف أخيراً بصوت هادىء: «إنك تعرف الآن لماذا لم أوقفه». فبدلاً من المجادلة بالقول إن أي شخص يواجه ستالين كان يخاف، لأنه يعلم أن أقل إشارة دالة على التمرد تعني موتاً مؤكَّداً، فإن خروشيف جعلهم يشعرون كيف كانت مواجهة ستالين ـ جعلهم يشعرون بجنون الارتياب (البارانويا) وبالخوف من الكلام الصريح، وبالرعب من مواجهة القائد، والقائد في هذه الحالة هو خروشيف. فكان هذا العرض التوضيحي العملي يصل إلى أعماق الغرائز، فلم تعد هناك ضرورة للمزيد من الجدل.

إن أقوى أنواع الإقناع يتعدى العمل ليصبح رمزاً. وقوة الرمز ـ كالعَلَم أو الحكاية الأسطورية أو النصب التذكاري لوقعة عاطفية ـ تكمن في أن كلّ واحد يفهمك دون أن تقول شيئاً. ففي سنة 1975، عندما كان هنري كيسنجر منهمكاً في مفاوضات مثبطة مع الإسرائيليين حول إعادة جزء من صحراء سيناء التي كانوا قد احتلوها في حرب سنة 1967، قطع فجأة اجتماعاً متوتراً وقرَّر أن يذهب ليتنزه، فزار بقايا قلعة مسعدة القديمة، المعروفة لجميع الإسرائيليين بأنها المكان الذي ارتكب فيه سبعمائة محارب يهودي انتحاراً جماعياً في سنة 73م. بدلاً من الاستسلام للقوات الرومانية المحاصِرة لهم. وفهم الإسرائيليون فوراً الرسالة التي انطوت عليها زيارة كيسنجر: لقد كان عليهم بشكل غير مباشر بأنهم ينشدون الانتحار الجماعي. ورغم أن الزيارة نفسها لم تغير رأيهم، فقد جعلتهم يفكرون بصورة أكثر جدية بكثير من قدرة أي تحذير مباشر على إحداث مثل ذلك التأثير. فالرموز التي كهذا الرمز تحمل مغزىً عاطفياً كبيراً.

عندما تهدف إلى الحصول على السلطة، أو تحاول الاحتفاظ بها، ابحث دائماً عن الطريق غير المباشر. واختر معاركك بحرص وعناية كذلك. فإذا لم يكن من المهم على المدى البعيد أن يتفق الشخص الآخر معك ـ أو إذا كان الزمن والتجارب الخاصة ستجعل الناس

أن يقبضه أرسل إليه مَلَكاً على هيئة رجل عجوز متهدم يكاد يكون مُقْعداً كليّاً، فتوقف أمام باب إبراهيم وقال له: «يا إبراهيم، أعطني شيئاً آكله». فذهل إبراهيم عند سماعه، وقال له: «مُتْ. فالموت أفضل لك من أن تظل تعيش على هذه الحالة».

وكان إبراهيم يحفظ في بيته على الدوام طعاماً جاهزاً لتقديمه إلى الضيوف العابرين من أبناء السبيل. فأعطى العجوز إناءً فيه حساء ولحم وفتات خبز، وجلس العجوز ليأكل. فكان يبلع بصعوبة وبجهدٍ شاقّ، وتساقط الطعام من يده وانتشر على الأرض، فقال: «آه يا إبراهيم، ساعدني على الأكل». فأخذ إبراهيم الطعام بيده ورفعه إلى شفتي العجوز، ولكن الطعام انزلق على لحية العجوز وصدره، فسأله إبراهيم: «ما عمرك أيها الشيخ؟». فذكر العجوز رقماً أكبر بقليل من عمر إبراهيم. وعندئذ صرخ إبراهيم مبتهلاً: «يا رب، اقبضني إليك قبل أن أصل إلى مثل عمر هذا الرجل وأتداعى كما هو متداعٍ الآن». ولم يكد إبراهيم ينطق بهذه الكلمات حتى قبض الله روحه إليه.

الحكمة الذكية
كتاب الحكمة والأحابيل العربية
القرن الثالث عشر

يفهمون قصدك ـ فإن من الأفضل أن لا تكلف نفسك عناء العرض العملي التوضيحي. فوفر جهدك وامضِ لسبيلك.

صورة: الارجوحة. إن المجادلين يصعدون ويهبطون، ويصعدون ويهبطون، فلا يصلون إلى اي مكان بسرعة.. فانزل عن الارجوحة وَأَرِهِمْ قصدك بدون رفس أو دفع. اتركهم عند القمة، ودع الجاذبية تنزلهم إلى الارض بلطف.

الشاهد: ذَرِ المراء. ففي المجتمع لا شيء يجب أن يُناقَش. أعطِ النتائج فقط. (بنيامين دزرائيلي، 1804. 1881)

الانقلاب

للمراء الكلامي استعمال سنة واحد في مملكة السلطة: لتشتيت الانتباه وتغطية آثارك وأنت تمارس الخداع، أو إذا ضبطك أحدٌ وأنت تكذب. وفي مثل هذه الحالات فإنَّ من مصلحتك أن تماري بكل قوة الإقناع التي تستطيع تجميعها. استدرج الشخص الآخر إلى مجادلة لتشتت الانتباه بعيداً عن حركتك الخادعة، وإذا تم ضبط كذبة عليك، فكلما ظهرت عاطفياً ومتأكداً أكثر، فسيقل احتمال ظهورك بمظهر الكاذب.

وقد أنقذ هذا الأسلوب جلد كثير من فناني الخداع. فالكونت فكتور لاستغ النصاب بامتياز، باع ذات مرة عشرات المغفلين في جميع أنحاء البلاد صندوقاً زائفاً زعم لهم أنه قادر على استنساخ الأوراق النقدية. وعندما كان المغفلون يكتشفون خطأهم، كانوا على وجه العموم يختارون أن لا يذهبوا إلى الشرطة، لئلاً يتعرضوا لخطر الفضيحة المحرجة. ولكن عمدة يدعى الشريف ريتشاردز، من مقاطعة ريمزن بولاية أوكلاهوما، لم يكن طرازاً من الرجال يقبل أن يسلبه النصاب عشرة آلاف دولار، وذات صباح تعقب لاستغ إلى فندق في شيكاغو.

وسمع لاستغ طرقة على الباب، فلما فتحه وجد نفسه ينظر إلى فوهة مسدس، فسأل بهدوء: «ما الذي يبدو أنه مشكلة؟». فصرخ فيه الشريف: «أنت يا ابن الفاعلة. سوف أقتلك. لقد خدعتني بصندوقك اللعين!»، وتظاهر لاستغ بالحيرة، وسأل: «أتعني أنه لا يعمل؟». فردَّ عليه الشريف: «إنك تعرف أنه لا يعمل». فقال لاستغ: «ولكن ذلك مستحيل، فليست هناك أية طريقة تجعله لا يعمل. فهل شغَّلته بطريقة صحيحة؟». فأجاب الشريف: «لقد فعلت ما طلبتَه مني بالضبط». فقال لاستغ: «كلاً، لا بدَّ أنك ارتكبت خطأً مّا». وهكذا ظلَّ الجدل يدور في حلقة مفرغة. وانخفضت فوهة المسدس بلطفٍ قليلاً.

وعندئذٍ دخل لاستغ في المرحلة الثانية من خطة الجدل الانتهازية، فراح يصبّ عنقوداً كاملاً من الهراء واللغو التقني الفارغ عن تشغيل الصندوق بحيث ألهى الشريف وضلَّله، فبدا أقل ثقة بنفسه، وأخذ يجادل بطريقة أضعف. فقال لاستغ: «انظر. سأعيد نقودك الآن تماماً. وسوف أعطيك تعليمات مكتوبة عن كيفية تشغيل الآلة، وسأذهب معك إلى أوكلاهوما للتأكد من أنها تعمل بشكل صحيح. وبذلك لا تخسر شيئاً بحال من الأحوال». ووافق الشريف على ذلك بعد تمنع. ولكي يرضيه لاستغ تماماً، أخذ مائة ورقة من فئة المائة دولار وأعطاه إياها، طالباً منه أن يرتاح ويمضي عطلة نهاية أسبوع ممتعة في شيكاغو. وهدأ الشريف

قليلاً وارتبك، ثم غادر المكان في آخر الأمر. وعلى مدى الأيام القليلة التالية شرع لاستغ يتفحص الجريدة كل صباح، حتى عثر في النهاية على ما كان يبحث عنه: مقال صغير يبلغ عن اعتقال الشريف ريتشاردز، ومحاكمته وإدانته لنشره في التداول أوراقاً نقدية مزيفة. لقد كسب لاستغ جولة المراء، فلم يزعجه الشريف بعد ذلك أبداً.

القانون

10

العدوى: تجنب التعيس وسيّىء الحظ

الحكم

قد تموت من تعاسة شخص آخر. فالحالات العاطفية معدية كالأمراض. وقد تشعر بأنك تساعد الغريق، ولكنك إنما تعجل بكارثة تحيق بك أنت. فذوو الحظ السيِّىء يجلبون الكارثة على أنفسهم أحياناً؛ وسيجلبونها عليك أيضاً. فارتبط بالسعداء والمحظوظين بدلاً من هؤلاء.

انتهاك القانون

ولدت ماري غيلبرت في ليمريك بإرلندا سنة 1818، وجاءت إلى باريس في أربعينات القرن التاسع عشر، بحثاً عن حظها كراقصة وممثلة. فاتخذت لنفسها اسم لُولا مونتيز (وكانت أمها متحدرة من أصل إسباني بعيد) وزعمت أنها راقصة فلامنكو من إسبانيا. وبحلول سنة 1845، كانت حياتها العملية آخذة في الأفول، ولكي تبقى تحوَّلت إلى غانية، وسرعان ما أصبحت من أنجح الغواني في باريس.

ولم يكن هناك سوى رجل واحد قادر على إنقاذ عملها كراقصة، وهو آليكساندر دو جارييه، صاحب أكبر الصحف انتشاراً في فرنسا، وناقد الصحيفة المسرحي كذلك. فقرَّرت لُولا أن تغازله وتغويه. فحقَّقت في عاداته، واكتشفت أنه يركب حصاناً كل صباح. وكانت خيَّالة ممتازة، فركبت ذات صباح والتقت به «مصادفة». وسرعان ما راحا يركبان معاً كل يوم. وبعد بضعة أسابيع. انتقلت لُولا إلى شقته.

ولفترة محدودة، كانا سعيدين معاً. وبمساعدة دو جارييه، بدأت لُولا بإحياء عملها في الرقص. ورغم الخطر على مركزه الاجتماعي، فقد أخبر أصدقاءه أنه سيتزوَّجها في الربيع (فلم تخبره لُولا أبداً أنها كانت قد هربت في التاسعة عشرة مع شخص إنكليزي، وأنها كانت من الناحية القانونية، لا تزال متزوجة). ورغم أن دو جارييه كان غارقاً في الحب، فقد راحت حياته تتزلق إلى الأسفل.

الجوزة وبرج الجرس

وجدت جوزةٌ نفسها محمولةً في منقار غرابٍ إلى قمة برج جرس عالٍ. غير أنها تمكَّنت من النجاة من مصيرها الرهيب بالسقوط في شق. وعندئذٍ ناشدت الجدار أن يؤويها، وتشفعت إليه برحمة الله، وامتدحت ارتفاعه، وجمال أجراسه وروعة صوت قرعها. وتابعت تقول: «وا أسفاه، بما أنني لم أستطع أن أسقط تحت الأغصان الخضراء لأبي الكبير أو أرقد في الأرض السمراء المُرَاحَة، فلا تتخلَّ عني أيها الجدار على الأقل. فعندما رأيتُ نفسي في منقار الغراب القاسي، نذرت أنني إذا نجوت منه فسوف أنهي حياتي في حفرة صغيرة»

وعند سماع هذه الكلمات تحركت عاطفة الرحمة في الجدار، وقَنِعَ بحماية الجوزة في البقعة التي سقطت فيها. وفي غضون وقت قصير، انفجرت الجوزة وانفتحت، وراحت جذورها تمتد بين شقوق الحجر، وشرعت تدفعها، وتبعدها، بينما

فقد تغير حظه في التجارة، وشرع أصدقاؤه المتنفذون يتجنَّبونه. وذات ليلة دُعي دو جاريبه إلى حفلة يحضرها عدد من أغنى شباب باريس. وأرادت لُولا أن تذهب معه أيضاً، ولكنه لم يسمح لها. فكان ذلك سبباً في أول مشاجرة بينهما. وحضر دو جاريبه تلك الحفلة وحده. وهناك سَكِرَ إلى حدٍّ ميؤوس منه، فأهان ناقداً مسرحياً ذا نفوذ كبير، هو جان ـ بابتيست روزمون دي بوفالون، ربما بسبب شيء قاله الناقد عن لُولا. وفي صباح اليوم التالي، تحداه بوفالون إلى مبارزة. ولم يكن بوفالون واحداً من أفضل مستعملي المسدس في فرنسا. وحاول دو جاريبه أن يعتذر، ولكن المبارزة حدثت. . وتلقَّى فيها دو جاريبه رصاصة قاتلة. وهكذا انتهت حياة واحد من أروع الشباب الواعدين في المجتمع الباريسي. وتحطَّمت لُولا فغادرت باريس.

أخذت فروعها تشرئب صاعدة نحو السماء، وسرعان ما ارتفعت فوق البناية، وعندما ازدادت الجذور الملتوية سُمْكاً، طفقت تطعن الجدران لتشقها ولتزحزح حجارتها القديمة بعيداً عن أماكنها. وعندئذٍ أخذ الجدار ينوح من سبب دماره وخرابه ولكن عبثاً. . . فقد فات الأوان. وفي غضون وقت قصير، هوى متداعياً محطماً

ليوناردو دافنشي
1452 ـ 1519

وفي سنة 1846، وجدت نفسها في ميونيخ، حيث قرَّرت أن تغازل لودفيغ، ملك باڤاريا، وتوقعه في شباكها. واكتشفت أن أفضل طريق إليه هو معاونه، الكونت أوتو فون ريخبرغ، الرجل المولع بالفتيات الجميلات. وذات يوم، بينما كان يتناول فطوره في أحد مقاهي الهواء الطلق، مرَّت به لُولا على حصانها، فسقطت من على السرج «صدفة»، ووقعت عند أقدام ريخبرغ. وهرع الكونت لمساعدتها، فوقع في أسر جاذبيتها، ووعد بتقديمها إلى لودفيغ.

ورتب ريخبرغ لقاءً لِلُولا مع الملك، ولكنها عندما وصلت إلى الحجرة الأماميّة وصل إلى مسامعها صوت الملك وهو يقول إنه مشغول جداً بحيث لا يستطيع مقابلة غريبة تسعى إلى الحظوة. فدفعت لُولا الحرس جانباً ودخلت غرفته رغم ذلك. وفي هذه العملية تمزقت مقدمة فستانها بطريقة مّا (ربما بيدها وربما بأيدي الحراس)، ولذهول الجميع، وخصوصاً الملك، انكشف نهداها بصورة وقحة، فمُنِحَت لولا مقابلةً مع لودفيغ. وبعد خمس وخمسين ساعة ظهرت على مسرح باڤاريا. وكانت

الآراء النقدية في أدائها رهيبة ولكن ذلك لم يمنع لودفيغ من ترتيب أدوار أخرى لها.

كان لودفيغ، وحسب كلماته نفسها، «مسحوراً» بلُولا. وبدأ يظهر في الأماكن العامة، وهي متعلِّقة بذراعه، ثم اشترى لها شقة وفرشها في أرقى شوارع ميونيخ المظلَّلة بالأشجار، ومع أنه كان معروفاً بالبخيل، ولم يكن يستسلم لشطحات الخيال، فقد بدأ يمطرها بالهدايا ويكتب لها الأشعار، وبما أنها صارت عشيقته المحظية فقد هبطت على الشهرة والثراء بين عشية وضحاها، كأنها قذيفة منجنيق.

كان سيمون توماس في عصره طبياً عظيماً. وأذكر أنني لقيته صدفةً ذات يوم في منزل رجل غني عجوز مصاب بالسل. وعندما كان يناقش وسائل معالجة مريضه قال له إن إحدى هذه الوسائل هي أن يمنحني فرصاً للاستمتاع بصحبته، ليتمكّن عندئذٍ من تركيز عينيه على نضارة سحنتي، وأفكاره على تدفق مرحي ونشاط شبابي ورجولتي، وليملأ حواسه كلها بتفتح وردة شبابي فتحسن حالته. ونسي أن يضيف بأن حالتي أنا قد تسوء وتتدهور.

ميشال إيكيم دي مُونتِيني
1592 - 1533

وبدأت لُولا تفقد إحساسها بالتناسب أو مقتضيات اللياقة، وذات يوم بينما كانت على صهوة جوادها كان هناك راكب عجوز يتقدمها، وكان يسير ببطءٍ أكثر مما تحب. فلم تقدر على تجاوزه، فراحت تضربه بسوطها القصير. وفي مناسبة أخرى، خرجت تتنزه مع كلبها، وهو غير مربوط، فهاجم الكلب أحد المارَّة.. ولكن بدلاً من مساعدة الرجل على إبعاد الكلب، ضربته بسوطها. وأثارت مثل هذه الحوادث مواطني بافاريا العاديين، إلاَّ أن لودفيغ وقف إلى جانب لُولا، بل أعطاها الجنسية البافارية. وحاول مرافقو الملك أن يوقظوه على خطر هذه العلاقة غير الشرعية، ولكن الذين انتقدوا لُولا طُرِدوا على عجل.

وبينما فقد البافاريون احترامهم علانية لملكهم الذي كانوا قد أحبّوه، مُنِحَتْ لُولا رتبة كونتيسة، وبَنَتْ لنفسها قصراً جديداً، وبدأت تتعاطى السياسة، وتنصح لودفيغ وتشير عليه في أمورها. فقد صارت أعتى قوة في المملكة. واستمر نفوذها يتعاظم في مجلس وزراء الملك، وراحت تعامل الوزراء الآخرين باحتقار. ونتيجة لذلك اندلعت الاضطرابات في جميع أرجاء المملكة. وتحوَّل البلد الذي كان مسالماً إلى ضحية تمزقها مخالب حرب أهلية، وانطلقت أغاني الطلاب في كل مكان: «اخرج مع لُولا!».

وبحلول سنة 1848، لم يعد لودفيغ يطيق الضغط في آخر الأمر.

فأمر لُولا بحزن شديد أن تغادر باڤاريا على الفور. فغادرت، ولكن ليس قبل أن تُدْفَعَ لها مستحقاتها. وطوال الأسابيع الخمسة التي تلت مغادرتها، تحوَّل غضب الباڤاريين إلى ملكهم الذي كان محبوباً في السابق. وفي آذار/ مارس من ذلك العام، أُرْغِمَ على التنازل عن عرشه.

يقال إن كثيراً من الأشياء مُعْدِيَة. فالنعاس قد يكون معدياً، والتثاؤب كذلك ففي الاستراتيجية الواسعة النطاق، عندما يكون العدوّ مهتاجاً وميالاً إلى الهجوم، فلا تهتم به أدنى اهتمام، أظهر هدوءاً كاملاً، فإن ذلك سيبهت العدو ويجعله يسترخي بدوره. إذ أنك تصيب روحه بالعدوى. وتستطيع أن تصيبه بالعدوى بروح عدم الاكتراث التي تشبه السُّكر، أو بالسأم، أو حتى بالضعف والوهن.

كتاب الحلقات الخمس
مياموتو موساشي
القرن السابع عشر

وانتقلت لُولا إلى انكلترا. وكانت تحتاج إلى الاحترام أكثر من كل شيء. ورغم كونها متزوجة (لم تكن قد تدبَّرت أمر طلاقها من الرجل الإنكليزي الذي كانت قد تزوجته قبل ذلك بسنوات)، فقد وضعت نصب عينيها جورج ترافورد هيلد، الضابط الشاب الواعد في الجيش، وابن محامٍ ذي نفوذ في المحاكم العليا. ورغم أنه كان يصغر لُولا بعشرة أعوام، وكان بمقدوره أن يختار زوجة من بين أجمل شابات المجتمع الإنكليزي وأغناهن، فقد وقع تحت تأثير سحرها. فتزوجا سنة 1849. وسرعان ما أُلقي القبض عليها بتهمة الزواج من أكثر من واحد. وأُطلق سراحها بكفالة، ولكنها هربت، ووجدت طريقها إلى إسبانيا مع هيلد. ثم تشاجرا بشكل مرعب في إحدى المناسبات ذات مرة فطعنته بسكين. وأخيراً طردته. فعاد إلى إنكلترا ووجد أنه قد فقد منصبه في الجيش، وتعرَّض للعزل والمقاطعة في المجتمع الإنكليزي، فانتقل إلى البرتغال، حيث عاش في فقر. وبعد بضعة أشهر انتهت حياته القصيرة في حادث مفاجىء في قارب.

وبعد بضعة أعوام أفلس رجل نشر سيرة حياة لُولا مونتيز.

وفي سنة 1853، انتقلت لُولا إلى كاليفورنيا، حيث التقت برجل يدعى بات هل وتزوجته. فكانت علاقتهما عاصفة كجميع علاقاتها الأخرى. فتركت هِلْ وتعلَّقت برجل آخر، فشرع هِلْ يعاقر الخمر ووقع ضحية اكتئاب عميق استمر حتى وفاته بعد أربعة أعوام وهو ما يزال شاباً نسبياً.

وفي الحادية والأربعين من عمرها، تخلَّت لُولا عن ملابسها وحليها وتوجهت إلى الله، فطافت في أميركا وهي تلقي خطباً عن

مواضيع دينية مرتدية ملابس بيضاء، وغطاء رأس أبيض يشبه الهالة، وتوفيت بعد ذلك بعامين، في سنة 1861.

التفسير

كانت لُولا مونتيز تجتذب الرجال بأحابيلها، ولكن سلطتها عليهم كانت تتجاوز الجنس. إذ كانت قوة شخصيتها هي التي تُبْقِي عشّاقَها مأسورين. فقد كان يمتصهم الاضطراب العاصف الذي تثيره من حولها. فيشعرون بالحيرة والاضطراب، ولكن قوة العواطف التي كانت تثيرها كانت أيضاً تشعرهم بالحياة أكثر.

وكما يحدث كثيراً في حالة العدوى، فإن المشاكل لا تثور [illegible] بمرور الزمن. وكان عدم استقرار لُولا المركَّب في طبيعتها سرعان ما [illegible] بإقلاق عشاقها، بحيث يجدون أنفسهم منجذبين إلى مشاكلها، [illegible] تعلقهم العاطفي بها كان يجعلهم يريدون مساعدتها. وكانت هذه هي النقطة الحساسة من المرض. إذْ أنه لم يكن من الممكن مساعدة [illegible] مونتيز، لأن مشاكلها كانت غاية في العمق... وبمجرد أن يتورَّط [illegible] العاشق، كان يضيع، فيجد نفسه منغمساً في مشاجرات. وتنتشر العدوى إلى أسرته وأصدقائه، أو إلى أمته كلها في حالة لودفيغ. وهكذا يكون الحل الوحيد هو قطع العلاقة بها أو التعرض للانهيار في آخر الأمر.

ولم يكن نموذج الشخصية المعدية قاصراً على النساء؛ فليس [illegible] علاقة بالجنس. بل إنه ينبع من عدم استقرار داخلي يشع إلى الخارج مجتذباً الكارثة على النفس.. وكأن المصاب يكاد يرغب في التدمير وعدم الاستقرار. وبإمكانك أن تمضي حياة بكاملها في دراسة التاريخ المرضي للشخصية المعدية، ولكن لا تُضِعْ وقتك ـ بل اكتفِ بتعلم الدرس. فعندما تشكّ في أنك أمام شخصية معدية من هذا النوع، [illegible] تحاول أن تجادل، ولا تحاول أن تساعد، ولا تصل هذه الشخصية بأصدقائك، وإلاَّ فسوف تتورَّط. اهرب من أمام المعدي، وإلاَّ فتحمّل العواقب.

لا تعتبر أي رجل أحمق مثقفاً معقولاً، رغم أنك قد تعد الرجل الموهوب عاقلاً حكيماً. ولا تعتبر كل ممتنع جاهل زاهداً حقيقياً. ولا تعاشر الحمقى، وخاصة أولئك الذين يعدون أنفسهم عقلاء. ولا تكن راضياً عن جهلك. وليقتصر اختلاطك على ذوي السمعة الطيبة، لأنه بمثل هذا الارتباط يحصل الناس على السمعة الطيبة. ألا تلاحظ كيف أن زيت السمسم إذا اختلط بالزهور أو بالبنفسج وارتبط بها مدة مَا، فإنه لا يبقى زيت سمسم بل يسمى زيت زهور أو زيت بنفسج؟

مرآة للأمراء
كاي كاؤوس بن إسكندر
القرن الحادي عشر

إن كاشيوس هناك عليه سيما النحافة والجوع. إنه يفكّر اكثر من
اللازم... ولا يوجد رجل يتعيَّن عليَّ ان اتجنّبه بسرعة كبيرة
سوى كاشيوس... إذ أن امثاله لا ترتاح قلوبهم قطّ عندما
ينظرون إلى من هو اعظم منهم، ولذلك فإنهم شديدو الخطورة.

(يوليوس قيصر، تاليف وليام شكسبير، 1564 ـ 1616)

مفاتيح السلطة

إن تعساء الحظ بيننا، ممن سقطوا بفعل ظروف خارج سيطرتهم يستحقون كل عطف نستطيع أن نقدمه لهم. ولكن هناك آخرين لم يولدوا للتعاسة، بل إنهم يجرّونها على أنفسهم بأعمالهم المدمرة، وتأثيرهم المؤدي إلى عدم استقرار الآخرين. ولو أننا استطعنا انتشالهم من حالتهم هذه لكان ذلك شيئاً عظيماً، إذ تتغيَّر أنماط حياتهم. ولكن هذه الأنماط هي التي غالباً ما ينتهي بها المطاف بالدخول في جوفنا وتغييرنا. والسبب في ذلك بسيط: ـ إذ أن البشر معرَّضون بشدة إلى اكتساب أمزجة من يمضون معهم أوقاتهم، والتأثر بعواطفهم، وحتى طرائق تفكيرهم.

إن التعساء والقلقين، إلى حدٍّ لا يرجى شفاؤه، لديهم قوة عدوى شديدة على وجه الخصوص، لأن شخصياتهم وعواطفهم شديدة التوتر. وكثيراً ما يقدمون أنفسهم كضحايا، مما يجعل من الصعب في أول الأمر أن يرى المرء أن تعاساتهم إنما سببوها هم لأنفسهم.. وقبل أن تدرك الطبيعة الحقيقية لمشاكلهم، تكون قد أُصِبْتَ بالعدوى منهم. إفهم هذا: في لعبة السلطة، للناس الذين ترتبط بهم أهمية حساسة، وخطر اختلاطك بحملة العدوى هو أنك ستضيع وقتاً وطاقة ثمينين في محاولة تخليص نفسك. وعن طريق اكتساب الذنب بالقرينة، ستعاني في أعين الآخرين. فلا تقلل قيمة خطر العدوى قطّ.

وهناك أنواع كثيرة من حملة العدوى يجب أن تكون واعياً بهم. ولكن أكثرهم غدراً هو مَنْ يشكو من السخط المزمن المقيم.

فكاشيوس، المتآمر الروماني على قيصر، كان لديه السخط النابع من الحسد العميق. وكان ببساطة لا يحتمل وجود أي شخص أعظم منه موهبة. ولعل قيصر أحسَّ أن السخط المرير في نفس كاشيوس لا ينتهي، ولذلك تجاوزه عندما أراد أن يعين قاضياً أول، فأعطى ذلك المنصب لبروتوس بدلاً منه. وانغمس كاشيوس في تفكير عميق، حتى صارت كراهيته لقيصر مرضاً. وكان بروتوس نفسه جمهورياً مخلصاً، فَكَرِهَ دكتاتورية قيصر. ولو كان لديه الصبر للانتظار، لأصبح هو الرجل الأول في روما بعد موت قيصر، وَلأَزَال الشرَّ الذي عمله القائد. ولكن كاشيوس أصابه بعدوى سخيمته، وراح يملأ أذنيه يومياً بحكايات شرور قيصر، وأخيراً كسبه للاشتراك في المؤامرة. وكان ذلك بداية المأساة الكبرى. فكم من الكوارث كان يمكن تجنبها، لو أن بروتوس تعلَّم الخوف من قوة العدوى.

إن هناك حلاً واحداً فقط للعدوى، وهو العزل الصحي. ولكنْ ما أن تتعرَّفَ على المشكلة حتى يكون الأوان قد فات، إذْ أن واحدةً مثل لُولا مونتيز تطغى عليك بشخصيتها القوية. ويأسرك كاشيوس بطبيعته الواثقة بك وبعمق أحاسيسه، فكيف يمكنك أن تحمي نفسك من مثل هذه الفيروسات الخبيثة الغادرة؟ إن الجواب يكمن في الحكم على الناس بحسب تأثيراتهم على العالم، وليس بحسب الأسباب التي يعطونها لمشاكلهم. فناقلو العدوى يمكن التعرف عليهم من الكوارث التي يجلبونها على أنفسهم، ومن ماضيهم المضطرب، ومن الخط الطويل من علاقاتهم المحطمة، وحياتهم العملية غير المستقرة، وقوة شخصيتهم ذاتها، إذْ أنها تكتسحك اكتساحاً وتجعلك تفقد التفكير المنطقي. ولذا فإن عليك أن تحذر سلفاً من هذه العلامات الدالة على حامل عدوى. وتعلَّم أن ترى السخط في عينيه. وأهم من كل شيء أن لا تأخذك الرأفة به. فلا تورِّط نفسك في محاولة المساعدة. إذ أن حامل العدوى سيبقى بلا تغيير. أما أنت فسوف تفقد توازنك.

صورة: الفيروس، بشكل خفي غير
مرئي يدخل في مساماتك بدون
إنذار، فينتشر في صمت وبطء.
وقبل أن تعي وجود العدوى، تكون
قد تغلغلتْ عميقاً إلى داخلك.

والجانب الآخر من العدوى صحيح كذلك. ولعله مفهوم بشكل أسهل وأسرع. فهناك أناس يجتذبون السعادة إلى أنفسهم بمرحهم، وابتهاجهم الطبيعي وذكائهم. فهم مصدر للمسرة، وعليك أن تختلط بهم كي تشاطرهم الازدهار الذي يجتذبونه إلى أنفسهم.

وينطبق هذا على ما هو أكثر من المرح والنجاح. فكل الخصال الإيجابية يمكن أن تعدينا. فتاليران كانت فيه خصال غريبة ومخيفة، وجاذبية أرستقراطية وفطنة وحضور بديهة. والحق أنه كان متحدراً من واحدة من أقدم الأسر النبيلة في البلاد. ورغم إيمانه بالديمقراطية وبالجمهورية الفرنسية، فقد احتفظ بعاداته وأساليبه الريفية. وكان معاصره نابليون ذا صفات معاكسة لهذه الخصال في نواحٍ كثيرة. . فكان فلاحاً من كورسيكا، صموتاً، فظاً، بل وعنيفاً.

ولم يكن هناك أحد أُعْجِبَ به نابليون أكثر من تاليران. وكان يحسد طريقة وزيره في التعامل مع الناس، وذكاءه وقدرته على أسر النساء بجاذبيته. فاحتفظ بتاليران بالقرب منه بأفضل ما استطاع، لعله يمتص منه الثقافة التي كانت تنقصه. فلا شك أن نابليون أخذ يتغير مع استمرار حكمه. فقد تم صقل كثير من جوانبه الخشنة باختلاطه المستمر مع تاليران.

استخدم الجانب الإيجابي من هذا التنافذ العاطفي لصالحك. وعلى سبيل المثال إذا كنت شحيحاً بطبعك، فإنك لن تتعدى حدّاً معيناً؛ فالعظمة لا يصل إليها إلاّ ذوو النفوس السخية. فاختلط بالكرام إذن، وسيصيبونك بالعدوى، فيفتحون كل شيء مغلق ومحكم ومقيَّد فيك. وإن كنت كئيباً فانجذب إلى المرحين، وإن كنت عرضة للعزلة فأرغم

نفسك على مصادقة الاجتماعيين. وإياك والاختلاط بالذين يشاطرونك عيوبك ـ فإنهم سيعززون كل شيء يشدك إلى الوراء. فلا تخلق إلاً الصلات ذات الأبعاد الإيجابية. اجعل ذلك قاعدة في حياتك، وسوف تستفيد أكثر من الفائدة التي تأتي بها كل المعالجات في العالم.

الشاهد: تعرَّف على المحظوظين كي تختار صحبتهم، وعلى التعساء كي تتجنَّبهم. فالكارثة عادة هي جريمة الحمق، وبين الذين يعانون منها ليس هناك مرض اكثر نقلاً للعدوى. فلا تفتح بابك لأصغر الكوارث، وإلاً فسوف تتبع الكوارث الأخرى على اثرها.. فلا تمت من تعاسة شخص آخر.

(بلثازار غراسيان، 1601 ـ 1658)

الانقلاب

لا يعترف القانون بأي انقلاب. وتطبيقه عالمي. فليس هناك مـ يمكن كسبه من الاختلاط بأولئك الذين يعدونك بتعاستهم؛ وليس هنا‌ك سوى السلطة والحظ السعيد تكسبهما من الاختلاط بالمحظوظين. فإ‌ن تجاهلت هذا القانون فلا تلومنّ إلاً نفسك.

القانون

11

تعلم أن تبقي الناس معتمدين عليك

الحكم

للحفاظ على استقلالك يجب أن يبقى الآخرون محتاجين إليك وراغبين بك. وكلما زاد الاعتماد عليك ازدادت حريتك. فاجعل الناس يعتمدون عليك في سعادتهم وفلاحهم ولن يكون لديك ما تخشاه. وإياك أن تعلِّمهم ما يكفي لتمكينهم من الاستغناء عنك.

انتهاك القانون

الحصانان
كان هناك حصانان يحملان حمولتين. فكان الحصان الأمامي يمشي جيداً؛ أما الحصان الخلفي فكان كسولاً. فبدأ الرجال يكدسون حمولة الحصان الخلفي على ظهر الحصان الأماميّ. وعندما نقلوا الحمولة كلها، وجد الحصان الخلفي الأمر سهلاً ومريحاً، فقال للحصان الأمامي: «إكدح وَٱعْرَقْ! وكلما زادت محاولاتك زادت معاناتك». وعندما وصل المسافرون إلى الخان قال صاحب الحصانين: «لماذا أطعم حصانين بينما أنقل حمولتي كلها على حصان واحد؟ إن من الأفضل أن أعطي الحصان الناقل للحمل كل الطعام الذي يريده، وأن أذبح الآخر. فسوف أحصل على جلده على الأقل». وهكذا فعل.
خرافات
ليو تولستوي
1828 - 1910

ذات مرة في العصور الوسطى قام جندي مرتزق (زعيم إحدى العصابات التي كانت معروفة في أوروبا بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر) بإنقاذ مدينة سيينا من معتدٍ أجنبي. فكيف يكافئه مواطنو سيينا الطيبون؟ لم تكن هناك كمية من المال أو قَدْرٌ من التكريم يمكن مقارنتهم في القيمة بالحفاظ على حرية المدينة. ففكَّر المواطنون في جعل ذلك المرتزق زعيماً على المدينة. ولكنهم قرَّروا أن ذلك لم يكن تعويضاً كافياً وأخيراً وقف أحدهم أمام الجمعية التي دعيت لمناقشة القضية، وقال «دعونا نقتله، ثم نعبده باعتباره القديس الذي يرعانا». وهكذا فعلوا.

وكان الكونت كارمانيولا واحداً من أشجع زعماء المرتزقة وأنجحهم جميعاً. وفي أواخر أيام حياته، في سنة 1442، كان مستخدماً لدى مدينة البندقية، التي كانت في لجة حرب طويلة مع فلورنسا واستدعي الكونت فجأة إلى البندقية. وبما أنه كان من المفضلين لدى أهلها، فقد استقبل بكل أنواع التكريم والأبهة، وكان من المقرر أن يتعشى في ذلك المساء مع الدوج نفسه في قصر الدوج، غير أنه في الطريق إلى داخل القصر لاحظ أن الحارس كان يقوده إلى اتجاه يختلف عن المعتاد. وعند عبور جسر التنهُّدات أدرك فجأة إلى أين كانوا يأخذونه - إلى الزنزانة. فقد أُدين بتهمة ملفقة. وفي اليوم التالي، في ساحة سان ماركو، وأمام حشد مذعور من الناس الذين لم يفهموا كيف تغير مصيره على هذا النحو العنيف القسوة، تم قطع رأسه.

التفسير

لقد لقي كثيرون من زعماء عصابات الارتزاق في إيطاليا عصر النهضة مصيراً مماثلاً لمصير راعي مدينة سيينا «القديس»، والكونت كارمانيولا: فقد كسبوا معركة إثر معركة لمستخدميهم، كي يجدوا أنهم لم يحصلوا في مقابل ذلك إلاّ على النفي أو السجن أو الإعدام. ولم تكن المشكلة في عدم العرفان؛ بل في وجود مرتزقة كثيرين لهم قدرة وشجاعة مماثلتان. أي أنه كان من الممكن استبدالهم بأولئك المرتزقة. فلم يُفْقَدْ شيء بقتلهم. وفي تلك الأثناء كان كبار السن بينهم قد تعاظمت سلطتهم فراحوا يطلبون أموالاً أكثر فأكثر لقاء خدماتهم. فكان من الأفضل بكثير إذن أن يستغنى عنهم ليُسْتَأْجَرَ بدلاً منهم مرتزقة أصغر سنّاً وأرخص. فكان ذاك مصير الكونت كارمانيولا الذي بدأ يتصرف بوقاحة واستقلال. فقد اعتبر سلطته تحصيل حاصل دون أن يتأكد من كونه شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه فعلاً.

فهكذا يكون مصير الذين لا يجعلون الآخرين يعتمدون عليهم (وإن كان المرء يأمل أن تكون درجة العنف أقل) إذ سرعان ما يأتي ـ عاجلاً أم آجلاً ـ شخص يستطيع القيام بالمهمة بطريقة مساوية لطريقتهم في الجودة، ويكون أصغر سناً، وأكثر طزاجة، وأقل كلفة، وأقل تهديداً.

كن **الوحيد** القادر على عمل ما تعمله. واجعل مصير مستأجريك متشابكاً مع مصيرك بحيث لا يستطيعون الاستغناء عنك أو التخلص منك بحال من الأحوال. وإلاّ فسوف تجد نفسك ذات يوم مرغماً على عبور جسر التنهُّدات الخاص بك.

مراعاة القانون

عندما صار أوتو فون بسمارك نائباً في البرلمان البروسي في سنة 1847، كان في الثانية والثلاثين من عمره، وبدون حليف أو صديق.

وعندما نظر حوله، قرَّر أن الجانب الذي سيتحالف معه لن يكون مجموعة الأحرار أو المحافظين في البرلمان، ولا أي وزير معيَّن، ولا الشعب بالتأكيد، بل مع الملك فريدريك وليام الرابع. وكان ذلك اختيار أقل ما يقال فيه أنه غريب. لأن فريدريك كان آنذاك في حضيض سلطته كان رجلاً ضعيفاً متردداً غير حاسم، وانسجاماً مع ذلك كان يستسلم للأحرار في البرلمان؛ والواقع أنه كان ضعيف الشخصية، يمثل كثيراً مما كان بسمارك يكرهه، شخصياً وسياسياً. ومع ذلك راح يتقرَّب من فريدريك ليلاً ونهاراً. وعندما كان النواب الآخرون يهاجمون الملك بسبب حركاته الكثيرة غير الكفوءة، لم يكن يقف إلى جانبه سوى بسمارك.

وأخيراً أثمر ذلك كله. ففي سنة 1851، عيّن بسمارك وزيراً في مجلس وزراء الملك. وعندئذ شرع في العمل. فلوى ذراع الملك مرة بعد أخرى، فجعله يبني القوة العسكرية، ويقف ضد الأحرار، ويفعل ما يرغب فيه بسمارك بالضبط. واستغل شعور فريدريك بعدم الأمان حول رجولته. فتحداه أن يكون صلداً حازماً، وأن يحكم بعزَّة نفس. وأعاد إلى الملك سلطاته ببطء، حتى صارت الملكية مرة أخرى أعتى قوة في بروسيا.

وعندما مات فريدريك سنة 1861، تسنَّم العرشَ أخوه وليام. وكان يكره بسمارك بشدة ولم يكن ينوي إبقاءه. ولكنه ورث وضعاً كالذي كان يواجهه أخوه: كان هناك أعداء كثيرون يرغبون في قضم سلطته. وفكَّر فعلاً بالتنازل، إذ شعر أن القوة تنقصه لمعالجة هذا الوضع الحرج. ولكن بسمارك ألمح إلى وجوده مرة أخرى، فوقف إلى جانب الملك الجديد، وأعطاه القوة، وحثه على اتخاذ إجراءات عملية حازمة وحاسمة. فصار الملك يعتمد على بسمارك وخططه في استخدام القوة القوية لإبقاء أعدائه على مبعدة. ورغم عدم تعاطفه مع ذلك الرجل، فقد عَيَّنَهُ رئيساً لوزرائه. وطالما تشاجر الرجلان حول السياسة ــ إذ كان

القط الذي يمشي وحيداً

ثم ضحكت المرأة ووضعت للقط إناءً من الحليب الدافىء وقالت له: «إن لك براعة إنسان أيها القط. ولكن تذكَّر أن اتفاقك لم يكن مع الإنسان أو مع الكلب. ولا أدري ما الذي سيفعلانه عندما يعودان إلى البيت» فقال القط: «وما الذي يَعْنِيني من ذلك؟ فإذا كان لي مكاني في الكهف قرب الموقد، ووجبة حليبي الأبيض ثلاث مرات في اليوم، فليس يهمني ما الذي يستطيع الإنسان أو الكلب أن يفعلاه». . ومنذ ذلك اليوم إلى الآن، يا أعز الأحبة، فإن ثلاثة رجال من كل خمسة، يقذفون القط بالأشياء كلما رأوه، كما أن كل الكلاب السوية تطارد القط حتى يصعد إلى أعلى شجرة. ولكن القط أخذ ينفذ التزاماته بموجب الاتفاق، فهو يقتل الفئران، ويعامل الأطفال بلطف عندما يكون في المنزل، طالما لم يشدوا ذيله بقوة أكثر مما ينبغي. ولكنه بعد أن يفعل ذلك، وبين الحين والآخر، عندما يظهر القمر ويهبط الظلام في الليل، فإن القط هو الذي يمشي وحيداً، وكل الأماكن عنده سواء. فهو يذهب إلى الغابة الرطبة الوحشية، أو يتسلق الأشجار الرطبة الوحشية، أو يمشي على السطوح الرطبة الوحشية، ويهز ذيله المتوحش، ويمشي وحده كأنه مستوحش.

مجرد قصص فحسب
رديارد كبلنغ
1865 ـ 1936

بسمارك أشد ميلاً إلى المحافظة بكثير من الملك ـ ولكن الملك كان يفهم مدى اعتماده على بسمارك. وكلما كان رئيس الوزراء يهدد بالاستقالة، كان الملك يستسلم له مرة بعد أخرى. والواقع أن بسمارك كان هو الذي يضع سياسة الدولة.

وبعد سنوات، أدت أعمال بسمارك كرئيس للوزراء إلى توحيد الدويلات الألمانية المختلفة في بلد واحد. وعندئذٍ احتال بسمارك على الملك كي يتوِّج نفسه إمبراطوراً لألمانيا. ومع ذلك كان بسمارك في الحقيقة هو الذي وصل إلى أوج سلطته. فباعتباره الذراع الأيمن للإمبراطور، ومستشار الإمبراطورية، والأميرَ المُرَسَّمَ فارساً، كان يمارس كل السلطات.

التفسير

إن معظم السياسيين الشباب والطامحين الناظرين إلى المشهد السياسي السائد في ألمانيا أربعينات القرن التاسع عشر كان من شأنهم أن يحاولوا بناء قاعدة سلطوية لهم بين مالكي أكبر قدر من السلطة آنذاك. غير أن رأي بسمارك كان مختلفاً. فالانضمام إلى ذوي السلطة القوية يمكن أن يكون حمقاً: إذ أنهم سيبتلعونك، تماماً كما ابتلع دوجُ البندقية الكونتَ كارمانيولا. فلن يعتمد عليك أحدٌ منهم إنْ كانوا في الأصل أقوياء. فإذا كنت طموحاً، فإن من الأحكم لك بكثير أن تبحث عن الحكام أو السادة الضعفاء الذين يمكنك أن تخلق معهم علاقة اعتماد عليك.. بحيث تصبح أنت قوتَهم، وذكاءَهم، وتماسكَهم وتصميمَهُم. فيا للسلطة التي تمسك بها عندئذٍ! إنهم إذا تخلَّصوا منك فسينهار الصرح بكامله.

إن الضرورة تحكم العالم. والناس نادراً ما يتصرَّفون إلاَّ إذا أُرغموا على ذلك إرغاماً. فإن لم تخلق حاجة إلى نفسك، فسوف يتم الاستغناء عنك في أول فرصة. ومن جهة أخرى فإنك إذا فهمتَ قوانين السلطة وجعلت الآخرين يعتمدون عليك في رفاهيتهم، وإذا كنت قادراً

على مجابهة ضعفهم وموازنته بسياستك الخاصة «بالحديد والدم»، كما قال بسمارك، فإنك عندئذ ستبقى بعد أسيادك كما فعل بسمارك. وسوف تمتلك كل منافع السلطة، دون الأشواك الملازمة لكون المرء سيداً.

> وهكذا فإن الأمير العاقل سيفكر في طرق لإبقاء مواطنيه من كل نوع وفي ظل كل الظروف معتمدين على الدولة وعليه؛ وعندئذٍ يكونون دائماً جديرين بالثقة.
>
> (نيقولو ماكيافيللي، 1469 ــ 1527)

مفاتيح السلطة

إن السلطة المطلقة الكاملة هي القدرة على جعل الناس يعملون كما ترغب. وعندما تتمكن من ذلك دون إرغام الناس أو إيذائهم، عندما يعطونك بإرادتهم ما أنت راغب فيه، فعندئذٍ تصبح سلطتك عصيّة على أن ينال منها أحد. وإن أفضل طريقة لتحقيق ذلك هي خلق علاقة اعتماد. فالسيد يحتاج إلى خدماتك؛ فهو ضعيف، أو عاجز عن العمل بدونك؛ فقد شبكت نفسك في عمله بعمق يجعل الاستغناء عنك مجلبةً لصعوبة كبيرة، أو يجعله يعني على الأقل ضياع وقت ثمين سيهدر في تدريب شخص آخر ليحل محلك. وما أن تقام مثل هذه العلاقة حتى تصبح يدك هي العليا، والرافعة التي تجعل السيد يفعل ما ترغب به. إنها الحالة التقليدية للرجل الواقف خلف العرش، لخادم الملك الذي يسيطر على الملك بالفعل. فلم يضطر بسمارك إلى إرغام فريدريك أو وليام على العمل بأمره. بل لقد أوضح ببساطة أنه إذا لم يحصل على ما يريد فسوف يغادر مبتعداً، تاركاً الملك يصارع الريح. وسرعان ما راح الملكان يرقصان على أنغام بسمارك، أي يفعلان ما يريد.

لا تكن من الكثيرين الذين يؤمنون ــ مخطئين ــ أن الشكل الكامل للسلطة هو الاستقلال. فالسلطة تنطوي على علاقة بين الناس. فأنت تحتاج إلى الآخرين دائماً كحلفاء، أو كبيادق، أو حتى كسادة ضعفاء

شجرة الدردار والكرمة

كانت هناك كرمة شابة متهوّرة، لديها طموح مغرور إلى الاستقلال ومغرمة بالتعريش بحريّة دون نظام، فاحتقرت التحالف مع شجرة دردار كانت تنمو بالقرب منها وتطلب عناقها. وبعد أن ارتفعت الكرمة عن الأرض قليلاً دون اي نوع من الدعم، أطلقت فروعها المهلهلة إلى بعد زائد وغير ضروري ولا مألوف، ودعت جارتها إلى أن تلاحظ كيف أنها ليست بحاجة إلى مساعدتها. فقالت شجرة الدردار: «أيتها الشجيرة المسكينة المفتونة بنفسها، كم هو سلوكك متناقض! لو كنت تريدين الاستقلال الحقيقي، لغذّيت بعصيرك رنـغك ساقك حتى تقوى وتستغلظ بدلاً من إغداقهما عبثاً على أوراق غير ضرورية. وعمّا قريب تدبّين متعفّرة على الأرض، ومع ذلك سوف يحتذيك كثير من أبناء الجنس البشري الذين يسكرهم الغرور فيحتقرون الاقتصاد والذين، لكي يدعموا تباهيهم بالاستقلال ولو للحظة، قد أنضبوا موردهم ذاته بإسرافهم في الإنفاق على السفاسف.

خرافات

روبرت دودزلي

1764 ـ 1703

يعملون كواجهة لك. فالرجل الكامل الاستقلال يعيش في كوخ في الغابات ـ فتكون له حرية الذهاب والمجيء كما يحلو له، ولكن لا تكون له سلطة. وإن أفضل ما تأمل به هو أن يصير الآخرون معتمدين عليك بحيث تتمتع أنت باستقلال معاكس: إذْ أنَّ حاجتهم إليك تحررك.

فالملك لويس الحادي عشر (1423 ـ 1483) الملك العنكبوت العظيم لفرنسا، كانت فيه نقطة ضعف تجاه التنجيم. فكان يحتفظ بمنجِّم للبلاط هو موضع إعجابه، حتى تنبأ الرجل ذات يوم بأن إحدى سيدات البلاط سوف تموت في غضون ثمانية أيام. وعندما تحقَّقت النبوءة أُصيب لويس بالذعر، معتقداً أن الرجل قد اغتال المرأة ليثبت دقته، أو أنه متقن لعلمه وصنعته بحيث أن سلطاته تهدِّد لويسَ نفسَه. وفي الحالتين جميعاً ينبغي قتله.

ذات مساء، استدعى لويس المنجِّم إلى غرفته في مكانٍ عالٍ من القلعة. وقبل وصوله قال الملك لخدمه إنه عند إعطائه الإشارة عليهم أن يلتقطوا المنجِّم ويحملوه إلى النافذة ويلقوا به منها إلى الأرض، على بُعد مئات الأقدام في الأسفل.

وسرعان ما وصل المنجِّم، ولكن قبل أن يعطي لويس إشارته، قرَّر أن يطرح عليه سؤالاً أخيراً، فقال له: «إنك تزعم أنك تفهم في التنجيم وتعرف مصائر الآخرين، فأخبرني ما هو مصيرك، وكم تعتقد أنه بقي لك من زمن على قيد الحياة».

فردَّ المنجِّم: «سوف أموت قبل جلالتكم بثلاثة أيام فقط». فلم يعط الملك إشارته على الإطلاق. فنجا الرجل بحياته. ولم يكتفِ الملك العنكبوت بحماية منجِّمه طيلة حياته، بل راح يغدق عليه الهدايا بسخاء، وجعل أبرع أطباء البلاط يهتمون بصحته.

وعاش المنجِّم عدة سنوات بعد لويس، مما أسقط قدرته على التنبؤ، ولكن أثبت قدرته على الاحتفاظ بسلطته.

هذا هو الأنموذج: اجعل الآخرين يعتمدون عليك، بحيث أن

التخلص منك يعني وقوع كارثة، وحتى الموت، وعندئذ لن يستطيع سيدك أن يغري بك القدر كي يكتشف العواقب. وهناك طرائق كثيرة للوصول إلى هذا المركز. من أولها وأهمها امتلاك موهبة ومهارة خلاَّقة لا يمكن ـ ببساطة ـ أن يحل محلها شيء آخر.

في أثناء عصر النهضة كانت العقبة الكبرى أمام نجاح الفنان هي عثوره على الراعي المناسب. وقد حصل مايكل آنجيلو على هذا الراعي بطريقة أفضل من الجميع. كان راعيه هو البابا يوليوس الثاني. ولكنه تشاجر مع البابا حول بناء قبر البابا الرخاميّ، فغادر مايكل آنجيلو روما مشمئزاً. ولذهول المحيطين بالبابا في دائرته الخاصة، فإن البابا لم يكتفِ بعدم فصله، بل بحث عنه، وتوسَّل إليه ـ بطريقته الخاصة المترفعة ـ أن يبقى. ذلك أن البابا كان يعرف أن باستطاعة مايكل آنجيلو أن يعثر على راعٍ آخر، أما البابا فلن يستطيع العثور على مايكل آنجيلو آخر.

وليس من الضروري أن تكون لك موهبة مايكل آنجيلو. غير أنه ينبغي أن تكون لك مهارة تفصلك عن عامة الناس. وعليك أن تخلق وضعاً تستطيع فيه دائماً أن تلتصق بسيدٍ أو راعٍ آخر ولكن سيدك لا يستطيع بسهولة أن يعثر على خادم آخر له مثل موهبتك بالذات. وإذا كنت في الواقع لست ممَّن لا يمكن الاستغناء عنهم، فإن عليك أن تجد طريقة تجعل الأمر يبدو كذلك. ذلك أن الظهور بمظهر من يملك معرفة متخصصة ومهارة يعطيك هامشاً من المرونة في القدرة على خداع مَنْ هم فوقك بجعلهم يعتقدون أنهم لا يستطيعون الاستغناء عنك. فالاعتماد الحقيقي لسيدك عليك يجعله مكشوفاً أمامك أكثر من الاعتماد الموهوم على أية حال. وفي مجال استطاعتك دوماً أن تجعل مهارتك شيئاً لا يستغنى عنه.

وهذا هو المقصود من تشابك المصائر والأقدار: فمثل نبتة اللَّبْلاب المتسلِّقة الزاحفة، تكون قد لَفَفْتَ نفسك حول مصدر السلطة، بحيث أن قطعك سوف يسبِّب جرحاً عظيماً. ولستَ مضطراً بالضرورة

لتشبيك نفسك حول السيد؛ بل يمكن أن يجدي شخصٌ آخر، مادام بدوره ممن لا يستغنى عنهم في السلسلة.

ذات يوم، تلقى هاري كوهن، رئيس شركة كولومبيا للأفلام السينمائية، زيارة في مكتبه من مجموعة مكتئبة من منفذيه. وكان ذلك في سنة 1951، عندما كانت الحملة المهووسة بمطاردة الشيوعيين في هوليوود على يد لجنة مكافحة النشاط المعادي لأميركا التابعة للكونغرس قد بلغت أوجها. وكان المنفذون يحملون أخباراً سيِّئة. فقد سُلِّطَ الاتهام بالشيوعية على واحد من مستخدميهم هو كاتب السيناريو جون هوارد لوسون. وكان عليهم أن يتخلَّصوا منه على الفور أو يتحمَّلوا عواقب غضب اللجنة.

ولم يكن هاري كوهن من الأحرار الذين تدمى قلوبهم على المبادىء، بل كان في الواقع جمهورياً متزمتاً متشدِّداً على الدوام.

وكان السياسي المفضَّل لديه هو بنيتو موسوليني الذي كان قد زاره ذات مرة، والذي كانت صورته المؤطرة معلَّقة على جداره. وكان إذا أراد أن يشتم شخصاً يكرهه يسمِّيه «ابن زنى شيوعي». ولكن، لذهول المنفذين، قال لهم كوهن إنه لن يفصل لوسون من عمله. ولم يحتفظ بكاتب السيناريو لأنه كان كاتباً جيداً ـ فقد كان هناك كثير من الكتَّاب الجيِّدين في هوليوود ـ، بل احتفظ به بسبب سلسلة من حالات الاعتماد: إذ كان لوسون كاتب همفري بوغارت، وكان بوغارت نجم كولومبيا. فإذا تخاشن كوهن مع لوسون فسوف يدمِّر علاقة تدرّ أرباحاً هائلة. وكان ذلك أثمن من الدعاية السيئة التي قد يجلبها عليه تحدِّيه للَّجنة.

لقد استطاع هنري كيسنجر أن ينجو من عمليات فصد الدم التي كانت تجري في البيت الأبيض أيام نيكسون، ليس لكونه أفضل دبلوماسي يستطيع نيكسون العثور عليه ـ فقد كان هناك مفاوضون جيِّدون آخرون ـ وليس لأن الرجلين كانا منسجمين جيداً، إذ أنهما لم يكونا

كذلك، كما أنهما لم يتشاركا في معتقداتهما وسياساتهما. لقد نجا كيسنجر لأنه مترس نفسه في كثير من مواقع البنية السياسية إلى درجة أن الاستغناء عنه كان سيؤدي إلى فوضى عامة. وقد كانت سلطة مايكل آنجيلو **كثيفة**، تعتمد على مهارة واحدة هي قدرته كفنان؛ أما سلطة كيسنجر فقد كانت **واسعة**، فقد أدخل نفسه في كثير من الجوانب ومن الوزارات في الإدارة، إلى درجة أن دوره العميق فيها أصبح ورقة رابحة في يده، كما أكسبه حلفاء كثيرين. فإن كنت تستطيع أن تتدبر لنفسك مركزاً كهذا فإن التخلص منك يصبح خطراً، لأنه يؤدي إلى تفكك كل أنواع الاعتمادات المتبادلة عليك. ومع ذلك فإن النوع الكثيف من السلطة يعطي حرية أكثر من النوع الواسع، لأن مالكيه لا يعتمدون على سيِّد معيَّن، أو على مركز سلطة محدَّد بذاته، في أمنهم.

ولجعل الآخرين يعتمدون عليك فإن إحدى الطرق التي يمكن اتباعها هي خطة المخابرات السرية. فمعرفة أسرار الآخرين، وامتلاك معلومات لا يريدون ذيوعها تجعل مصيرك مرتبطاً بمصيرهم. فلا تستطيع يدٌ أن تمتد إليك. فوزراء الشرطة السرية ظلوا يحتلون هذا المركز طوال العصور. فهم يستطيعون أن يصنعوا مَلِكاً أو يحطموه، أو رئيسَ جمهورية ـ كما في حالة جون إدغار هوفر (رئيس مكتب التحقيقات الاتحادي في الولايات المتحدة من 1924 إلى 1972). ولكن الدور مليء بالمخاطر وبجنون الارتياب في الآخرين إلى درجة أن السلطة التي يعطيها تكاد تلغي نفسها. إذ أنك لا تستطيع أن ترتاح فيه مطمئناً. وما فائدة السلطة إن كانت لا تحقق لك السلام الآمن؟

وإنذار أخير: لا تتصوَّر أن اعتماد سيدك عليك سوف يجعله يحبّك. فالواقع أنه قد يسخط عليك ويخشاك، ولكن كما قال ماكيافيللي: إن كونك مرهوباً أفضل من كونك محبوباً. فالخوف شيء يمكنك السيطرة عليه. أما الحب فلا أبداً. فالاعتماد على عاطفة خفية ومتقلبة كالحب أو الصداقة سيجعلك غير آمن. إن جعل الآخرين

يعتمدون عليك بسبب الخشية من عواقب فقدانك خيرٌ من أن يكون السبب هو محبة صحبتك.

صورة: الكروم ذات الأشواك الكثيرة. في الأسفل تنمو الجذور بشكل عميق وواسع. وفي الأعلى تندفع الكروم عبر الآجام فتشبك نفسها ملتفة حول الأشجار والأعمدة وأفاريز النوافذ. ويكلف التخلُّص منها كثيراً من الكدح والدم، بحيث أن من الأسهل تركها تتسلق.

الشاهد: اجعل الناس يعتمدون عليك. إذ أنك سوف تكسب من ذلك أشياء أكثر من الاحترام. فالذي يروي ظمأه يدير ظهره للبئر على الفور ما دام لم يعد بحاجة إليها. فعندما يختفي الاعتماد، تختفي معه الكياسة والتهذيب، ثم الاحترام. إن أول درس ينبغي أن تعلّمك التجربة إياه هو أن تبقي الأمل حياً ولكن ليس مشتفياً أبداً. وحتى الراعي الملكي أبقه محتاجاً إليك على الدوام.

(بلثازار غراسيان، 1601 ـ 1658)

الانقلاب

إن نقطة الضعف في جعل الآخرين يعتمدون عليك هي أنك إلى حدٍّ ما معتمد عليهم. ولكن محاولة تجاوز هذه النقطة تعني التخلّص ممّن فوقك ـ وتعني وقوفك وحيداً، غير معتمد على أحد. وهكذا هو

حافز الاحتكار لدى أناس من أمثال ج.ب. مورغان، وجون د. روكفيللر ـ لطرد كل منافسة، ولامتلاك السيطرة كاملة. فإن كنت قادراً على محاصرة السوق، فذلك أفضل بكثير.

وليس هناك استقلال كهذا يأتي بلا ثمن. إذ أنك تكون مرغماً على عزل نفسك. وكثيراً ما تستدير الاحتكارات إلى الداخل فتدمر نفسها بفعل الضغط الداخلي. كما أنها تثير غضباً قوياً، فتجعل أعداءها يتجمعون معاً لمحاربتها. إن الدافع نحو السيطرة الكاملة غالباً ما يكون مدمراً وغير مثمر. فالاعتماد المتبادل يبقى هو القانون. أما الاستقلال فهو الاستثناء النادر الذي كثيراً ما يكون قاتلاً. وإذن فإن وضع نفسك في موضع الاعتماد المتبادل، واتباع هذا القانون الحساس الأهمية أفضل من السعي للانقلاب عليه. ومراعاتك القانون لن تسلط عليك الضغط الذي لا يطاق عند كونك على القمة، كما أن السيد الذي فوقك سيكون من الناحية الجوهرية عبداً لك، لأنه يكون هو المعتمد عليك أنت.

القانون

12

استخدم الصدق والكرم بطريقة انتقائية لنزع سلاح ضحيتك

الحكم

إن حركة مخلصة وصادقة واحدة تطغى على عشرات من الحركات الكاذبة غير النزيهة. فإشارات الصدق والكرم الدالة على القلب المفتوح تجعل أكثر الناس ارتياباً يتخلون عن حرصهم وحذرهم. وما أن يفتح صدقك الانتقائي ثغرة في درعهم حتى تتمكن من خداعهم والتلاعب بهم كما تشاء. وهدية في وقتها المناسب ـ كحصان طروادة ـ سوف تخدم الغاية نفسها.

مراعاة القانون

ذات يوم في سنة 1926، قام رجل طويل، أنيق الثياب، بزيارة آل كابوني، أحد أكبر رجال العصابات إثارة للخوف في زمانه. وكان ذلك الرجل يتحدث بلكنة قارية أنيقة فقدَّم نفسه على أنه الكونت فكتور لاستيغ. فوعد آل كابوني بأنه إذا أعطاه 50000 دولار فسوف يضاعفها له. وكان لدى آل كابوني من الأموال أكثر مما يكفي لتغطية «الاستثمار». ولكن لم يكن من عادته أن يعهد بمبالغ كبيرة لأناس غرباء عنه تماماً. فألقى على الكونت نظرة فاحصة. كان في الرجل شيء مختلف ـ أسلوبه الرفيع، طريقته ـ وهكذا قرَّر آل كابوني أن يجرِّب هذه اللعبة. فعدَّ الأوراق النقدية بنفسه وسلَّمها إلى لاستيغ، وقال له: «حسناً يا كونت، ضاعفها في ستين يوماً كما قلت». فغادر لاستيغ ومعه المبلغ، وأودعه في صندوق أمانات في شيكاغو، ثم اتجه إلى نيويورك، حيث كانت لديه خطط ومؤامرات أخرى لتوليد المال شغالة في الوقت نفسه.

وظلَّت الخمسون ألف دولار في صندوق المصرف لم يمسها أحد. ولم يبذل لاستيغ أي جهد لمضاعفتها. وبعد شهرين عاد إلى شيكاغو، واستخرج المبلغ من الصندوق، وقام بزيارة أخرى لكابوني، فنظر إلى حارسه الشخصي المتحجِّر الوجه، وابتسم معتذراً، وقال: «أرجو أن تقبل أسفي العميق يا سيد كابوني. يؤسفني أن أبلغك أن الخطة فَشَلَتْ... لقد فَشَلْتُ».

فرانشيسكو بوريي
رجل الحاشية الدجال

كان فرانشيسكو جوزيبي بوريي، من ميلانو، الذي وقعت وفاته ضمن نطاق القرن السابع عشر، في أواخره، سنة 1695، هو السلف السابق لذلك النوع الخاص من المغامر الدجال، أو رجل الحاشية «الفارس» المدّعي المحتال... وقد بدأ عهد مجده الحقيقي عندما انتقل إلى أمستردام. فهناك انتحل لقب الطبيب العالمي، وأقام حوله حاشية عظيمة، وراح يركب عربة تجرّها ستة من الخيول... وتقاطر إليه المرضى، بل إن بعض المعتلّين كانوا يُحْمَلُون إليه على محفّات عبر الطريق كلّه من باريس إلى مقرّه في أمستردام. ولم يكن بوريي يتقاضى أجراً عن استشاراته. بل كان يوزّع مبالغ هائلة على الفقراء. ولم يعرف عنه أبداً أنه تلقى أيّة أموال بالبريد أو حوالات. وبما أنه استمرّ يعيش مع ذلك بمثل هذا البذخ، فقد افترض الناس أنه يملك حجر الفلاسفة.

وفجأة اختفى هذا المحسن من أمستردام، ثم اكتُشِف بأنه قد أخذ معه أموالاً ومجوهرات كانت موضوعة عنده كأمانة.

قوّة المهزج
غريت دي فرانشيسكو، 1939

ووقف كابوني ببطء وهو يحملق بلاستيغ مشدوهاً، وكأنه يفكر في أي جزء من النهر يلقي به. ولكن الكونت مدَّ يده إلى جيب سترته وسحب منها الخمسين ألف دولار، ووضعها على المنضدة، قائلاً: «هذه يا سيدي أموالك كاملة لم تنقص بنساً واحداً. ومرة أخرى أقدِّم لك اعتذاري المخلص. إن هذا شديد الإحراج لي. لم تجرِ الأمور حسبما قدرت. كان بودِّي أن أضاعف المال لك ولنفسي، والله يعلم أنني بحاجة إليه. ولكن الخطة لم تثمر أبداً».

وتراخى آل كابوني في مقعده متحيراً، ثم قال: «أعرف أنك رجل محتال يا كونت. ولقد عرفت ذلك من لحظة دخولك إلى هنا. وكنت أتوقع إمَّا الحصول على مائة ألف دولار أو على لا شيء... ولكنني لم أتوقَّع هذا... أن تعيد لي مالي... حسناً». فقال لاستيغ: «أكرِّر اعتذاري يا سيد كابوني»، وبينما التقط قبعته وبدأ يغادر، صرخ آل كابوني: «يا إلهي! إنك لصادق! وإذا كنت متضايقاً، فهذه خمسة آلاف لمساعدتك»، ثم عدَّ خمس ورقاتٍ من فئة الألف دولار اقتطعها من الخمسين ألفاً. وبدا على الكونت الذهول، فانحنى بعمق وهو يغمغم شاكراً، ثم غادر ومعه المبلغ.

كانت تلك الآلاف الخمسة هي ما سعى إليه لاستيغ في الأصل.

التفسير

كان الكونت فكتور لاستيغ، الذي يجيد التحدث بعدة لغات، ويفتخر بتحضره وثقافته، واحداً من أكبر المُتَفَنِّنين في النصب والاحتيال في العصر الحديث. وكان معروفاً بوقاحته، وجرأته، وأهم من ذلك كله، بمعرفته بالنفس البشرية. فكان يستطيع الحكم بفراسته على رجلٍ مّا في غضون دقائق، مكتشفاً نقاط ضعفه. وكان لديه إحساس مرهف كالرادار لمعرفة المغفلين. وكان يعرف أن معظم الناس يبنون دفاعات ضد المحتالين وغيرهم من جالبي المتاعب. وكانت مهمة فنان النصب هي إنزال تلك الدروع.

ومن الطرق المؤكدة لتحقيق ذلك القيام بعمل ظاهره الإخلاص والصدق. «فمن الذي يشك في شخص ضبط متلبِّساً بعمل صادق بالمعنى الحرفي للكلمة؟». وقد استخدم لاستيغ الصدق الانتقائي مرات كثيرة. ولكنه مع آل كابوني ذهب أبعد من ذلك بخطوة. ولم يكن أي نصَّاب عادي يجرؤ على مثل هذه الخدعة؛ بل كان سيختار مغفليه بسبب وداعتهم، وبسبب ملامحهم التي تقول إنهم سيتجرعون دواءهم بلا تذمّر. ولكن اخدع كابوني وستمضي بقية عمرك (أو ما بقي لك منه) في خوف مقيم. ولكن لاستيغ كان يفهم أن رجلاً مثل كابوني يمضي حياته كلها مرتاباً في الآخرين، وليس فيمن حوله، رجل صادق أو كريم. وقضاء كل هذا الوقت بصحبة الذئاب مرهق، بل مسبِّب للاكتئاب. وإن شخصاً مثل كابوني يتحرَّق لتلقِّي إشارة صادقة أو كريمة، وللشعور بأنه ليس كل واحد معه صنارة، أو هو مصمِّم على نهب كابوني.

وهكذا أدَّى عمل لاستيغ من الصدق الانتقائي إلى نزع سلاح كابوني لأنه كان غير متوقع قطّ. وفنان النصب والاحتيال يحب العواطف المتناقضة كهذه، لأن الشخص الذي تنتابه فيتخبط فيها، يمكن تشتيت انتباهه والتحايل عليه بسهولة.

لا تجفل من ممارسة هذا القانون على أمثال آل كابوني في هذا العالم. فبإشارة جيِّدة التوقيت من الصدق أو الكرم تستطيع أن تتألَّف أعتى الوحوش الصفيقة في المملكة الحيوانية بحيث تجعلها تأكل من راحة يدك.

> إن كل شيء يصبح رمادياً عندما لا تكون لي علامة واحدة في الأفق على الأقل. وعندئذ تبدو الحياة فارغة وكئيبة. إنني لا أستطيع أن أفهم الرجال الصادقين. إنهم يعيشون حياة يائسة مليئة بالسأم.
>
> (الكونت فكتور لاستيغ، 1890 ـ 1947)

مفاتيح السلطة

إن جوهر الخداع هو تشتيت الانتباه. فتشتيت انتباه الناس الذين تريد أن تخدعهم يمنحك الوقت والمساحة للقيام بشيء لا تريد أن يلاحظوه. وكثيراً ما يكون العمل الذي فيه لطف أو كرم أو صدق أقوى شكل من أشكال تشتيت الانتباه لأنه ينزع سلاح شكوك الناس الآخرين، فيحولهم إلى أطفال يلعقون بتشوق أيّ نوع من إشارات العطف.

في الصين القديمة كانوا يسمون ذلك: «الإعطاء قبل الأخذ»، فالإعطاء يجعل من الصعب على الشخص الآخر أن يلاحظ الأخذ. إنها طريقة لها استخدامات عملية لا حدود لها. إن أخذ أي شيء من أي شخص بوقاحة صفيقة هو شيء خطر، حتى على الأقوياء وذوي السلطة. فالضحية سيخطط للانتقام. كما أن من الخطر أن تطلب ـ ببساطة ـ ما أنت بحاجة إليه، مهما كانت درجة التهذيب التي تفعل بها ذلك. فما لم يشعر الآخرون بوجود كسب لهم، فإنهم قد يغضبون من حاجتك. تعلّم أن تعطي قبل أن تأخذ. فإن ذلك يمهد لك الأرض، وينزع الحدة القارصة من الطلب اللاحق، أو يخلق تشتيت الانتباه فحسب. وقد يتخذ العطاء أشكالاً كثيرة: هدية فعلية، أو عملاً كريماً، أو معروفاً لطيفاً، أو اعترافاً «صادقاً» ـ أو أي شكل آخر.

إن أفضل استخدام للصدق الانتقائي هو عند مقابلتك الأولى لشخص مّا. فنحن جميعاً أبناء العادة، وانطباعنا الأول يستمر زمناً طويلاً. فإذا اعتقد شخص مّا أنك صادق عند بدء علاقتك به، فإن إقناعه بغير ذلك سيتطلب الكثير. وهذا يعطيك مجالاً للمناورة.

كان جي غولد، مثل آل كابوني، رجلاً يرتاب بكل الناس. وعندما وصل سنّه إلى الثالثة والثلاثين كان يملك الملايين الكثيرة، وقد حصل على معظمها بطرق الخداع وليّ الذراع. وفي أواخر ستينات القرن التاسع عشر استثمر غولد أموالاً كثيرة في سكة حديد إري. ثم اكتشف أن السوق قد أغرقت بكميات ضخمة من شهادات السندات المزورة بأسهم

تلك الشركة، فكان مهدداً بخسارة ثروة وبالتعرض لكثير من الحرج.

وفي خضم هذه الأزمة جاءه عرض بالمساعدة من رجلٍ يُدْعَىٰ اللورد جون غوردن ـ غوردن. وهو نبيل اسكتلندي يظهر أنه كسب ثروة صغيرة من الاستثمار في سكك الحديد.

ومن خلال استئجار بعض خبراء الخطوط الحديدية، استطاع غوردن ـ غوردن أن يثبت لغولد أن المجرمين الذين أصدروا تلك السندات والأسهم المزيفة كانوا في الحقيقة عدة مسؤولين تنفيذيين كباراً في شركة إري للسكك الحديدية نفسها. فأظهر غولد عرفاناً وامتناناً. ثم اقترح غوردن ـ غوردن أن يتحالف مع غولد لشراء حصة مسيطرة على شركة إري، فوافق غولد. وبدا لفترة أن المشروع آخذ في الازدهار، وصار الرجلان صديقين حميمين. وفي كل مرة جاء فيها غوردن ـ غوردن طالباً مالاً لشراء المزيد من الأسهم كان غولد يعطيه ما يطلب. غير أن غوردن غوردن تخلص من أسهمه كلها فجأة في سنة 1873، فكسب ثروة، ولكنه بذلك خفض قيمة ما في يد غولد من الحصص تخفيضاً هائلاً ومفاجئاً، ثم اختفى عن الأنظار.

وعند التحقيق، اكتشف غولد أن الاسم الحقيقي لغوردن غوردن، كان هو جون كراو نينغزفيلد، وأنه كان الابن غير الشرعي لبحار في الأسطول التجاري وأمه امرأة تعمل نادلة في مقصف. وقد كانت هناك أدلة كثيرة قبل ذلك تشير إلى كون غوردن ـ غوردن نصاباً، ولكن عمله الأول من الصدق والدعم قد أعمى غولد إلى درجة أن كشف مخطط الخديعة تطلب خسارة الملايين.

وكثيراً ما يكون عمل الصدق الواحد غير كاف، إذ أن المطلوب هو سمعة يشتهر صاحبها بالصدق، تقوم على سلسلة من الأعمال ـ ولكن هذه الأعمال قد لا تكون لها أية نتائج هامة. غير أن السمعة عندما تترسخ، كما هي الحال في الانطباع الأول، يصبح من الصعب زعزعتها.

في الصين القديمة، قرر الدوق وو، من منطقة تشينغ، أن الوقت

قد حان للاستيلاء على مملكة (هو) الآخذة قوتها في التعاظم. فلم يخبر أحداً بخطّته، بل زوَّج ابنته من حاكم (هو). ثم جمع مجلسه وسأل وزراءه: «إنني أفكر في حملة عسكرية، فأيَّ بلد يجب أن نغزو؟» وكما توقع، أجاب واحد من وزرائه: «يجب غزو (هو)». فأظهر الدوق أنه غاضب، وقال: «إن (هو) دولة شقيقة الآن، فلماذا تقترح غزوها؟» ثم أمر بإعدام ذلك الوزير بسبب ملاحظاته غير الحكيمة. وسمع حاكم (هو) بذلك، ونظراً للإشارة الصادقة الأخرى من وو وزواجه من ابنته، لم يتخذ أي احتياطات للدفاع عن نفسه ضد مملكة تشينغ. وبعد بضعة أسابيع اكتسحت قوات تشينغ مملكة (هو) فاستولت على البلد ولم تتخلَّ عنه على الإطلاق.

إن الصدق من أفضل أساليب نزع سلاح الحذِر، غير أنه ليس الأسلوب الوحيد. إذ أن أي نوع من العمل النبيل الذي يبدو خلواً من الأنانية سيخدم الغرض. ولعل أفضل أنواع مثل هذا العمل هو الكرم. فقليلون هم الذين يستطيعون مقاومة الهدية، حتى من أشد الأعداء، ولذلك فإنها غالباً ما تكون الطريقة الفضلى لنزع سلاح الناس. فالهدية تُبْرِزُ الطفلَ الكامنَ في داخلنا، فتخفض دروعنا الدفاعية على الفور. ورغم أننا كثيراً ما ننظر إلى أعمال الآخرين تحت أكثر الأضواء ارتياباً وسخرية، فإننا نادراً ما نرى العنصر الماكيافيللي في الهدية، التي غالباً ما تخفي حوافز مكتومة. فالهدية هي الشيء الأكمل لإخفاء حركة مخادعة.

قبل ثلاثة آلاف سنة أو تزيد سافر الإغريق الأقدمون عبر البحر لاستنقاذ هيلانة الجميلة التي سرقها منهم باريس، ولكي يدمروا مدينة باريس. فاستغرق الحصار عشرة أعوام، ومات في الحرب أبطال كثيرون. ومع ذلك لم يقترب أي من الفريقين من النصر. وذات يوم قام العراف كالشاس بجمع الإغريق وقال لهم: «توقفوا عن ضرب تلك الأسوار! يجب أن تجدوا طريقة أخرى، خدعةً مّا. إننا لا نستطيع الاستيلاء على طروادة بالقوة وحدها. إن علينا أن نجد خطة ماكرة».

وعندئذٍ جاء القائد الإغريقي المخادع أوديسيوس بفكرة بناء حصانٍ خشبيٍ عملاق، يخفي جنوداً في داخله، ثم تقديمه كهدية إلى الطرواديين. فاشمأزّ من هذه الفكرة نيوبطوليموس بن آخيل، لأنها ليست رجولية؛ فموت الألوف في ميدان القتال أفضل من كسب النصر بهذه الطريقة المخادعة. ولكن الجنود عند مواجهة الاختيار بين عشر سنوات أخرى من الرجولة والشرف والموت من جهة، والنصر السريع من جهة أخرى، اختاروا الحصان. فتم بناؤه على الفور. ونجحت الخدعة وسقطت طروادة. فعملت هدية واحدة للقضية الإغريقية أكثر مما فعلته عشر سنوات من الحرب.

صورة: الحصان الإغريقي
خدعتك مخبأة داخل هدية
رائعة لا يستطيع خصمك أن
يقاومها. فتنفتح الابواب
وعند دخولك، أوقع الدمار.

ويجب أن يكون الكرم الانتقائي أيضاً جزءاً من ترسانة خداعك. فقد ظل الرومان الأقدمون يحاصرون مدينة فاليسكانس سنوات طويلة وكانوا دائماً يفشلون. غير أنه عندما كان القائد الروماني كاميلوس معسكراً بجنده خارج تلك المدينة ذات يوم رأى فجأة رجلاً يقود بعض الأطفال باتجاهه. وكان ذلك الرجل معلماً من فاليسكانس، واتضح أن الأطفال كانوا أبناء وبنات أنبل مواطني تلك المدينة وأغناهم. فتحت ذريعة أخذ هؤلاء الأطفال للنزهة في الخارج، اقتادهم رأساً إلى الرومان، وقدمهم إليهم كرهائن على أمل أن يقربه ذلك زلفى من كاميلوس، عدوّ المدينة.

فلم يأخذ كاميلوس الأطفال رهائن، بل جرّد معلّمهم من ملابسه، وربط يديه خلف ظهره، وأعطى كل طفل عصا، وسمح لهم بضربه طيلة طريق العودة إلى المدينة. فكان لتلك الإشارة تأثير فوري على

الفاليسكانيين. ولو أن كاميلوس استخدم الأطفال كرهائن، لصوّت بعض أهل المدينة للاستسلام؛ وحتى لو استمر الفاليسكانيون في القتال، لكانت مقاومتهم نابعة من نصف حماس. ولكن رفض كاميلوس أن يستغل الوضع جعل مقاومتهم تنهار، فاستسلموا. لقد أجرى القائد حساباته بشكل صحيح. وعلى أية حال لم يكن هناك شيء سيخسره: كان يعرف أن خدعة الرهائن ما كانت لتنهي الحرب، أو على الأقل لن تنهيها على الفور. ولكنه عندما قلب الأوضاع رأساً على عقب كسب ثقة أعدائه واحترامهم، ونزع سلاحهم. فالكرم الانتقائي كثيراً ما يحطم حتى أشد الأعداء عناداً. فالعمل الكريم الذي يستهدف القلب يجعل إرادة المقاومة والقتال تتآكل.

تذكَّر: عن طريق استغلال عواطف الناس، تستطيع أعمال الكرم المحسوبة أن تحيل شخصاً مثل كابوني إلى طفل ساذج. ومثل كل نهج عاطفي، ينبغي ممارسة هذه الخطة الانتهازية المؤقتة بحذر. فإذا كشفها الناس وعرفوا ما وراءها، فإن مشاعر العرفان والدفء المحبطة لديهم سوف تصبح أعنف أنواع الكراهية وعدم الثقة. فما لم تستطع أن تجعل الإشارة تبدو مخلصة ونابعة من القلب، لا تلعب بالنار.

الشاهد: عندما كان الدوق هْسِين من منطقة تشين على وشك الإغارة على يو، اهدى اهلها فرساً عتيقاً وكوكبة من الخيل. وعندما كان النبيل شيه على وشك الإغارة على شْؤوُيو، اهدى اهلها عربات كبرى باذخة. ومن هنا أتى القول: «عندما تكون على وشك الاخذ، فإنّ عليك أن تعطي». (هان في ـ تسو، الفيلسوف الصيني، من القرن الثالث قبل الميلاد).

الانقلاب

عندما يكون وراءك تاريخ من الخداع، فلن ينخدع الناس بأية كمية من الصدق أو الكرم أو العطف تبديها لهم. بل إن مثل هذه الأعمال لا تزيد على أن تلفت النظر إلى نفسها. فما أن يعتاد الناس على النظر إليك كمخادع حتى يصبح أي عمل يتسم منك بالصدق على حين غِرَّة شيئاً مشبوهاً. وفي مثل هذه الحالات فإن من الأفضل أن تلعب دور الوغد.

عندما مارس الكونت لاستيغ أكبر خدعة في حياته، كان على وشك أن يبيع برج إيفل إلى صناعي غافل غير مرتاب اعتقد بأن الحكومة الفرنسية سوف تبيع البرج في مزاد باعتباره حديد خردة. وكان ذلك الصناعي على استعداد لتسليم لاستيغ مبلغاً ضخماً من المال باعتباره مسؤولاً حكومياً (فقد انتحل لاستيغ هذه الشخصية) غير أن الضحية تشكك في الأمر في اللحظة الأخيرة. فقد أقلقه شيء مّا عن لاستيغ. وفي الاجتماع الذي كان سيدفع فيه المال، أحس لاستيغ بارتيابه المفاجىء.

فمال بجسده نحو الصناعي، وأوضح له في همس خافت مدى انخفاض راتبه، وصعوبة وضعه المالي، وما إلى ذلك. وبعد بضع دقائق من هذه المناجاة، أدرك الصناعي أن لاستيغ كان يطلب رشوة. فشعر بالارتياح لأول مرة، وعلم أنه يستطيع أن يثق بلاستيغ: وبما أن جميع المسؤولين الحكوميين أوغاد وبلا نزاهة، فلا بد أن لاستيغ حقيقي. وهكذا دفع الرجل المال. فبلعب دور الوغد، ظهر لاستيغ وكأنه ماكوي الحقيقي. ففي هذه الحالة كان الصدق الانتقائي سيؤدي إلى نتيجة عكسية.

ومع تقدم الدبلوماسي الفرنسي تاليران في السن، انتشرت سمعته كأستاذ في الكذب والخداع. ففي مؤتمر ڤيينا (1814 ـ 1815) كان ينسج حكايات خرافية ويبدي ملاحظات مستحيلة لأناس كانوا يعرفون أنه كاذب ولا بدّ. ولم تكن لكذبه وعدم نزاهته غاية سوى تغطية اللحظات

التي كان يخدعهم فيها بالفعل. وذات يوم، على سبيل المثال، قال تاليران وسط أصدقائه في إخلاص ظاهري: «في العمل التجاري ينبغي على المرء أن يكشف يده». ولم يصدق سامعوه آذانهم: فالرجل الذي لم يكشف أوراقه مرة واحدة طوال حياته كان يطلب من الآخرين أن يكشفوا أوراقهم. وقد جعلت مثل هذه الأساليب من المستحيل التمييز بين حالات الخداع الحقيقي والمزيف التي كان يمارسها تاليران. وباحتضانه لسمعته في الكذب وانعدام النزاهة حافظ على قدرته في الخداع.

ليس في مملكة السلطة شيء مقام من الحجر الثابت. فالمخادعة الصريحة المكشوفة قد تغطي على آثارك أحياناً بل قد تجعلك محطاً للإعجاب بسبب صدقك في الاعتراف بكذلك.

القانون

13

عندما تطلب المساعدة، خاطب في الناس مصالحهم الذاتية وليس رحمتهم أو عرفانهم

الحكم

إذا احتجت إلى التوجه إلى حليف طلباً للمساعدة، فلا تكلف نفسك عناء تذكيره بمساعدتك الماضية وأعمالك الطيبة، لأنه سيجد طريقة ليتجاهلك. وبدلاً من ذلك اكشف عن شيء في طلبك، أو في تحالفك معه سيفيده، وأكده وضخّمه أكثر من أي تناسب وسوف يستجيب بحماس عندما يدرك أن في الأمر شيئاً يكسبه لنفسه.

انتهاك القانون

في أوائل القرن الرابع عشر صعد شابٌ يدعى كاستروشيو كاستراكاني من رتبة جندي عادي ليصبح سيد مدينة لوكا العظيمة في إيطاليا. وكان هناك دور فاعل ومؤثر في صعوده لواحدة من أقوى الأسر في المدينة، وهي أسرة بوجيو (وهو صعود نجح عن طريق الخيانة وسفك الدماء)، ولكن بعد صعوده إلى السلطة، راحوا يشعرون بأنه قد نسيهم، إذ أن طموحه رجح في الوزن أي عرفان كان يشعر به. وفي سنة 1325، بينما كان كاستروشيو بعيداً يقاتل فلورنسا، المنافِسَةَ الرئيسيةَ للوكا، تآمر آل بوجيو مع أسرٍ نبيلة أخرى في المدينة كي يخلصوا أنفسهم من هذا الأمير الطموح والمثير للمتاعب.

فأثار المتآمرون تمرداً، فهاجموا واغتالوا الحاكم الذي كان كاستروشيو قد تركه وراءه ليحكم المدينة. وانفجرت الاضطرابات وحوادث الشغب، واستعد أنصار كاستروشيو وأنصار آل بوجيو للدخول في معركة. غير أنه في ذروة التوتر تدخل ستيفانو دي بوجيو، أكبر أفراد الأسرة سناً، وجعل الطرفين يلقيان بأسلحتهما.

كان ستيفانو رجلاً مسالماً، فلم يشترك في المؤامرة، بل أخبر أسرته أنها ستنتهي بحمام دم لا فائدة منه. وأصرّ على أن عليه أن يشفع باسم أسرته لإقناع كاستروشيو بالاستماع إلى شكاواهم والاستجابة لمطالبهم. وكان ستيفانو أكبر أفراد العشيرة وأعقلهم، فوافقت أسرته على وضع ثقتها بدبلوماسيته بدلاً من أسحلتها.

الفلاح وشجرة التفاح

كان لفلاح شجرة تفاح في حديقته، لا تحمل أي فاكهة، بل تفيد فقط كمحطّ لطيور الدوري والجنادب. فقرّر أن يقطعها، فحمل الفأس بيده ووجّه ضربة قويّة به إلى جذورها. فتوسّلت إليه الجنادب وطيور الدوري أن لا يقطع الشجرة التي تُظِلُّها وتؤويها، وأن يبقي على حياتها، واعدة إيّاه بأنها ستغني له لتخفّف عنه أعباء عمله. فلم يلقَ بالاً إلى طلبها، بل وجه إلى الشجرة ضربةً ثانيةً فثالثةً بفأسه. وعندما وصل إلى تجويفها أبصر خليّةً مليئة بالعسل، فلمّا تذوّق قرص الشهد ألقى بفأسه، وراح ينظر إلى الشجرة باعتبارها مقدّسة، ويعتني بها عناية عظيمة.

إن المصلحة الذاتية وحدها هي التي تحرك بعض الناس.

خرافات

إيسوب: القرن السادس قبل الميلاد

وعندما وصلت أنباء التمرد إلى كاستروشيو عاد مسرعاً إلى لوكا. غير أنه عند وصوله كان القتال قد توقف عن طريق وساطة ستيفانو، وفوجىء كاستروشيو بهدوء المدينة واستتباب السلام فيها. وكان ستيفانو دي بوجيو قد تصور أن كاستروشيو سيكون ممتناً له على دوره في قمع التمرد. وهكذا قام بزيارة إلى الأمير. وشرح له كيف حقق السلام، ثم ناشده الرحمة، قائلاً إن المتمردين في أسرته كانوا شباناً ومتهورين، متعطشين للسلطة ولكنهم بلا خبرة؛ واستذكر كرم أسرته إزاء كاستروشيو في الماضي. فلهذه الأسباب كلها قال ستيفانو إن الأمير ينبغي أن يعفو عن آل بوجيو ويستمع إلى شكاواهم. وقال إن هذا هو الشيء المنصف الوحيد الذي ينبغي عمله، ما دامت أسرته قد ألقت بأسلحتها طوعاً، وكانت مؤيدة له على الدوام.

وأنصت كاستروشيو في صبر. ولم يَبْدُ عليه أي أثر للغضب أو السخط قطّ. وبدلاً من ذلك فقد طمأن ستيفانو بأن العدل سيأخذ مجراه، ثم طلب منه أن يأتي بأسرته كلها إلى القصر كي يتحدث معهم عن ظلاماتهم ويتوصل معهم إلى اتفاق. وبينما وقف الرجلان للوداع قال كاستروشيو إنه يشكر الله على الفرصة التي منحه إياها كي يظهر رحمته وعطفه. وفي ذلك المساء جاءت أسرة بوجيو بأكملها إلى القصر فاعتقلهم كاستروشيو في الحال، وبعد بضعة أيام أعدمهم جميعاً، بما فيهم ستيفانو.

التفسير

إن ستيفانو دي باجيو هو تجسيد لكل أولئك الذين يعتقدون أن عدالة قضيتهم ونبلها سيجعلانها تنتصر. ومن المؤكد أن مخاطبة العدالة والعرفان بالجميل كانت تنجح أحياناً في الماضي. ولكن هذه المناشدات كانت لها على الأغلب نتائج وخيمة، ولا سيما في التعامل مع أمثال كاستروشيو في هذا العالم. كان ستيفانو يعرف أن الأمير قد صعد إلى السلطة عن طريق الخيانة وانعدام الرحمة، فقد كان هذا ــ بعد كل شيء

ـ هو الذي دبّر قتل صديق مقرب ومخلص. وعندما قيل له إن قتل مثل هذا الصديق كان ظلماً رهيباً، أجاب بأنه لم يعدم صديقاً قديماً، بل عدواً جديداً.

إن رجلاً مثل كاستروشيو لا يعرف سوى القوة والمصلحة الذاتية. وعندما بدأ التمرد كانت عملية إنهائه ووضع المرء نفسه تحت رحمة كاستروشيو هي أخطر حركة ممكنة. وحتى بعد ارتكاب تلك الغلطة القاتلة، كان لدى ستيفانو دي باجيو خيارات أخرى ما تزال. فقد كان بإمكانه أن يعرض مالاً على كاستروشيو، أو يقدم له وعوداً للمستقبل، وكان بإمكانه أن يشير إلى ما يستطيع آل بوجيو، أن يسهموا به لتعزيز سلطة كاستروشيو ـ كتأثيرهم في معظم الأسر المتنفذة في روما مثلاً، والزيجة العظيمة التي كان يمكنهم التوسط لإتمامها.

وبدلاً من ذلك أعاد ستيفانو التذكير بالماضي، وبالديون التي لا تحمل أي التزام. فالرجل لم يكن ملتزماً بأن يظهر العرفان، فالعرفان غالباً حمل رهيب يسعده أن يرمي به جانباً، وفي هذه الحالة خلّص كاستروشيو نفسه من التزاماته تجاه آل باجيو بإبادة آل باجيو.

إن معظم الناس ذاتيون بشكل أناني كامل إلى درجة أنه لا يثير اهتمامهم شيء سوى أنفسهم. فهم يفكّرون دائماً في حالتهم أو قضيتهم نفسها عندما يسمعون أية ملاحظة، فيتركز اهتمامهم كله وينصبّ انصباباً على مجرد تصادف وجود إشارة عابرة إلى أي شيء قد يؤثر عليهم شخصياً، مهما كانت تلك الإشارة بعيدة.

آرثر شوبنهاور
1860 ـ 1788

مراعاة القانون

في سنة 433 ق.م، قبيل الحرب البيلوبونيزية، كانت كورسيرا (التي عرفت فيما بعد باسم كورفو) على وشك الدخول في صراع مع المدينة ـ الدولة اليونانية كورنيث. وأرسل الطرفان سفراء إلى أثينا في محاولة لكسب الأثينيين كلٌّ إلى جانبه. وكان موضوع النزاع شيئاً كبير القيمة للغاية، فكان الطرف الذي يكسب أثينا إلى جانبه سيفوز بالتأكيد. وأي طرف يكسب الحرب لن يعامل الجانب المهزوم بأي رحمة.

وتحدثت كورسيرا أولاً، فبدأ سفيرها بالاعتراف بأن الجزيرة لم تساعد أثينا في الماضي أبداً، بل تحالفت في الواقع مع أعداء أثينا. ولم تكن هناك علاقات صداقة أو عرفان بين كورسيرا وأثينا. نعم، اعترف

السفير بأنه قد جاء إلى أثينا بدافع الخوف والقلق على سلامة كورسيرا. وكان الشيء الوحيد الذي يستطيع عرضه هو تحالف للمصالح المتبادلة. كان لدى كورسيرا أسطول لا يفوقه في الحجم والقوّة إلاّ أسطول أثينا نفسها؛ فالتحالف بين الدولتين سيخلق قوة رهيبة تخيف دولة سبارطة المنافسة. وكان هذا لسوء الحظ كل ما لدى كورسيرا لتقدمه.

ثم ألقى ممثل كورنيث خطاباً رائعاً متفجراً بالعواطف، يتناقض تناقضاً حاداً مع نهج السفير الكورسيري الجاف الذي لا لون له. فتحدث الممثل عن كل شيء عملته كورنيث من أجل أثينا في الماضي، وسأل كيف سيبدو الأمر لحلفاء أثينا الآخرين إذا وضعت المدينة اتفاقية مع عدو سابق فوق معاهدة مع صديق حالي سبق له أن خدم مصلحة أثينا بولاء: فربما يلغي أولئك الحلفاء اتفاقياتهم مع أثينا إذا رأوا أن ولاءهم غير مقدر. وأشار إلى القانون الهيلليني والحاجة إلى تسديد الثمن لكورنيث على كل أعمالها الطيبة، ثم استطرد أخيراً بسرد الخدمات الكثيرة التي أدَّتها كورنيث لأثينا، وأهمية إظهار العرفان للأصدقاء.

وبعد الخطاب ناقش الأثينيون القضية في اجتماع لهم. وفي الجولة الثانية صوَّتوا بأكثرية ساحقة على التحالف مع كورسيرا ونبذ كورنيث.

التفسير

يذكر التاريخ الأثينيين ممتدحاً نبلهم. ولكنهم كانوا أبرز الواقعيين في بلاد الإغريق التقليدية القديمة. فعندهم لم تكن كل الخطب والمناشدات العاطفية في العالم قادرة على مضاهاة اتفاقية عملية نفعية ذرائعية جيدة، ولا سيما إذا كانت تضيف إلى سلطتهم.

إن ما لم يدركه السفير الكورنيثي هو أن إشارته إلى كرم كورنيث الماضي مع أثينا لم ينتج عنها سوى إزعاج الأثينيين، لأنها كانت بطريقة خفية تطلب منهم أن يشعروا بالذنب، وتضعهم تحت التزامات مستحقة. ولم يكن الأثينيون ليعبأوا قطّ بالجميل الماضي والمشاعر الودية. وكانوا

يعرفون في الوقت نفسه أن حلفاءهم الآخرين إذا ظنوهم ناكرين للجميل بتخليهم عن كورنيث، فإن تلك المدن ـ الدول ليس من المحتمل مع ذلك أن تقطع علاقاتها مع أثينا، القوة البارزة التفوق في اليونان. وكانت أثينا تحكم إمبراطوريتها بالقوة، وسترغم أي عدو متمرد أن يعود إلى القطيع، بكل بساطة.

وعندما يختار الناس بين الحديث عن الماضي والحديث عن المستقبل، فإن الشخص العملي الواقعي سيختار المستقبل دائماً وينسى الماضي. وكما أدرك الكورسيرانيون فإن من الأفضل دائماً التحدث بصورة عملية مع الشخص العملي. وأغلب الناس في آخر الأمر هم عمليون، فنادراً ما يتصرفون ضد مصالحهم الذاتية.

لقد كانت القاعدة دائماً أن الضعيف يجب أن يخضع للقوي؛ وبالإضافة إلى ذلك فإننا نعتبر أننا جديرون بسلطتنا، وحتى هذه اللحْظة كنتم أنتم تعتقدون ذلك؛ أما الآن، وبعد حساب مصلحكتم، فإنكم تبدأون بالحديث عن الحق والباطل. إن الاعتبارات من هذا النوع لم تبعد الناس بَعْدُ عن فرص التعاظم التي تقدمها القوة المتفوقة.

الممثل الاثيني لدى سبارطة

كلام مقتبس في كتاب: الحرب البيلوبونيسية من تاليف ثيوسيديدس،

حوالي 465 ـ 395ق.م.

مفاتيح السلطة

في سعيك لاكتساب السلطة، سوف تجد نفسك باطراد في وضع مَنْ يطلب المساعدة ممّن هم أقوى منك. وهناك فنّ لطلب المساعدة يعتمد على قدرتك على فهم الشخص الذي تتعامل معه، وأن لا تخلط بين حاجاتك وحاجاته.

ومعظم الناس لا ينجحون في ذلك، لأنهم محبوسون تماماً داخل مطالبهم ورغباتهم. فيبدأون من الافتراض بأن الناس الذين يناشدونهم لهم مصلحة غير ذاتية في تقديم المساعدة لهم. فيشيرون أحياناً إلى

مواضيع أكبر، كقضية عظمى، أو عواطف كبرى كالحب والعرفان. ويركزون على الصورة الكبيرة، بينما الحقائق اليومية البسيطة لها جاذبية أكبر من ذلك بكثير. أما الشيء الذي لا يدركونه فهو أنه حتى أقوى الأشخاص محبوس داخل احتياجاته الخاصة، وأنك إن لم تخاطب مصلحته الذاتية، فإنه لا يرى فيك إلاً شخصاً يائساً، أو في أحسن الأحوال مضيعة للوقت.

في القرن السادس عشر، حاول مبشرون برتغاليون على مدى سنوات أن يجعلوا سكان اليابان يعتنقون الكاثوليكية، بينما كانت البرتغال في الوقت نفسه تحتكر التجارة بين اليابان وأوروبا. ورغم أن المبشرين حققوا بعض النجاح، فلم يحققوا شيئاً يذكر أبداً مع النخبة الحاكمة، بل إن تبشيرهم أدى في الواقع إلى كسب العداوة الكاملة للإمبراطور إياسو عند حلول القرن السابع عشر. وعندما بدأ الهولنديون يصلون إلى اليابان بأعداد كبيرة، شعر إياسو براحة كبيرة. إذ كان يحتاج إلى الأوروبيين من أجل معرفتهم بالأسلحة والملاحة. وههنا أخيراً أوروبيون لا يهتمون بنشر الدين قط. فقد كان الهولنديون لا يريدون شيئاً سوى التجارة. فتحرك إياسو بسرعة لطرد البرتغاليين، وقرر منذ ذلك الحين فصاعداً أن لا يتعامل إلاً مع الهولنديين ذوي العقلية العملية.

وكانت اليابان وهولندا حضارتين مختلفتين اختلافاً هائلاً. ولكن كلاً منهما كان يشاطر الآخر اهتماماً عالمياً لا علاقة له بالزمن: وهو المصلحة الذاتية. إن كل شخص تتعامل معه يشبه حضارة أخرى، وأرضاً غريبة لها ماضٍ لا علاقة له بماضيك. وتستطيع أن تتجاوز الفوارق بينك وبينه بمخاطبة مصلحته الذاتية. ولا تكن داهية ذكياً: فلديك معرفة ثمينة تريد اقتسامها، وسوف تملأ خزانته بالذهب، وستجعله يعيش مدة أطول وفي سعادة أكبر. فهذه لغة نفهمها ونتحدث بها جميعاً.

ومن الخطوات الهامة في هذه العملية أن تتفهم نفسية الشخص الآخر. وهل هو مغرور؟ وهل هو مهتم بسمعته ومركزه الاجتماعي.

وهل لديه أعداء يمكنك أن تساعده في قهرهم؟ وهل تحركه ـ ببساطة ـ حوافز المال والسلطة؟

عندما هاجم المغول الصين في القرن الثاني عشر، هددوا بمحق حضارة ازدهرت طيلة ألفي عام. فقائدهم، جنكيز خان، لم يكن يرى في الصين سوى بلدٍ تنقصه المراعي لخيولهم، فقرر أن يدمّر المكان فيسوّي جميع مدنه بالأرض، لأنه كان «من الأفضل إبادة الصينيين وترك العشب ينمو». ولم ينقذ الصينيين من الدمار جندي أو جنرال أو ملك، بل رجل يدعى ييلو شوأوتسآي، وهو أجنبيّ. وكان يقدر تفوق الحضارة الصينية. واستطاع أن يجعل نفسه مستشاراً موثوقاً به لجنكيز خان فأقنعه أن باستطاعته أن يجني ثروة من ذلك المكان إذا تخلى عن تدميره وفَرَضَ ـ ببساطة ـ ضريبة على الذين يعيشون فيه، ورأى جنكيز خان الحكمة في ذلك فعمل بنصيحة شوأوتسآي.

وعندما استولى على مدينة كايفنغ، بعد حصار طويل، وقرر أن يذبح سكانها (كما فعل بالمدن الأخرى التي قاومته)، أخبره شوأوتسآي أن أفضل الحرفيين والمهندسين في الصين كانوا قد هربوا إلى كايفنغ، وأن من الأفضل استخدامهم. وهكذا تم إنقاذ كايفنغ. ولم يكن جنكيز خان قد أظهر مثل هذه الرحمة من قبل قطّ. غير أن الرحمة لم تكن في الحقيقة هي التي أنقذت كايفنغ. فقد كان شوأوتسآي يعرف جنكيز خان جيداً؛ كان فلاحاً همجياً لا تهمه الحضارة بشيء، والحق أنه لم يهتم بشيء سوى الحرب وفنونها ونتائجها العملية. وكان على شوأوتسآي أن يخاطب العاطفة الوحيدة التي تفعل فعلها في مثل هذا الرجل: الطمع.

إن المصلحة الذاتية رافعة تحرك الناس. فعندما تجعلهم يرون كيف تستطيع بطريقة مّا أن تلبي احتياجاتهم أو تحرز تقدماً لقضيتهم، فإن مقاومتهم لطلباتك بالمساعدة سوف تتساقط بطريقة سحرية. وعند كل خطوة على طريق حصولك على السلطة، يجب أن تدرب نفسك على شق طريقك بالتفكير إلى داخل عقل الشخص الآخر، كي ترى احتياجاته

ومصالحه، وأن تتخلص من حجاب مشاعرك الخاصة التي تحجب الحقيقة وتحيطها بالغموض. أتقن هذا الفن، ولن تكون هناك حدود لما تستطيع تحقيقه.

صورة: الحبل الذي يربط. إن حبل الرحمة والعرفان رثّ واهٍ. وينقطع عند أول صدمة. فلا ترمِ حبل نجاة كهذا. إن حبل المصالح الذاتية المتبادلة مجدول من عدة خيوط، فلا ينقطع بسهولة، بل إنه يخدمك جيداً على مدى سنوات طويلة.

الشاهد: إن أقصر وأفضل طريقة لتكوين ثروتك هي أن تدع الناس يرون بوضوح أن من مصلحتهم أن يعززوا مصلحتك.

(جين دي لا برويير، 1645 ــ 1696)

الانقلاب

قد يرى بعض الناس أن مخاطبة مصالحهم الذاتية شيء قبيح وخسيس. فهم في الحقيقة يفضلون أن يكونوا قادرين على ممارسة الإحسان والرحمة والعدالة، التي هي طرقهم للشعور بتفوقهم عليك: فعندما تتوسل إليهم لمساعدتك فإنك تؤكد سلطتهم ومركزهم. فلديهم من القوة ما يكفي لعدم احتياجهم إلى أي شيء منك سوى فرصة الشعور بالتفوق، فهذا هو الشراب الذي يثملهم. فهم يتحرقون لتمويل

مشروعك، ولتقديمك إلى أناس أقوياء ذوي سلطة ـ شريطة أن يتم ذلك كله علناً بالطبع، ولسبب وجيه (وكلما زادت العلانية والذيوع كان ذلك أفضل في العادة). وإذن فليس كل شخص يمكن الاقتراب منه ومفاتحته عن طريق المصلحة الذاتية الساخرة العديمة الإحساس. إذْ أن بعض الناس يسخطهم ذلك وينفرهم، لأنهم لا يريدون أن يظهروا بمظهر من تحركه مثل هذه الأشياء. بل هم بحاجة إلى فرص ليظهروا كرم نفوسهم وطيبة قلوبهم.

فلا تكن خجولاً. وأعطهم تلك الفرصة. فإنك لا تبدو كمن يخدعهم ويحتال عليهم بطلب المساعدة ـ فالحقيقة أن سرورهم في العطاء، وفي أن يشاهَدُوا وهم يعطون. إن عليك أن تميز الفوارق بين ذوي السلطة الأقوياء وتكتشف ما الذي يحفزهم إلى العمل أو الحركة. فعندما ينضحون بالجشع، لا تخاطب فيهم روح الخير والإحسان، وعندما يريدون أن يظهروا محسنين ونبلاء، لا تخاطب فيهم روح الطمع.

القانون

14

اتخذ وضع الصديق واعمل كجاسوس

الحكم

إن معرفة المعلومات عن منافسك لها أهمية حساسة فاستخدم الجواسيس للحصول على معلومات قيمة تجعلك متقدماً عليه بخطوة. وأفضل من ذلك أن تؤدي دور الجاسوس بنفسك. ففي المقابلات الاجتماعية المهذبة، تعلم أن تسبر الأغوار واطرح أسئلة غير مباشرة لجعل الناس يكشفون نقاط ضعفهم ونواياهم. وليست هناك مناسبة لا تصلح كفرصة للتجسس المتفنن.

مراعاة القانون

كان جوزيف دوفين بلا شك أعظم بائع في عصره، فمن سنة 1904، إلى سنة 1940، احتكر وحده تقريباً سوق جمع التحف الفنية التي يشتريها أصحاب الملايين في أميركا. ولكن كان هناك صيدٌ ممتاز نجا منه هو: الصناعي آندرو ميلون. وكان دوفين مصمماً قبل أن يموت على جعل ميلون أحد زبائنه.

وقال أصدقاء دوفين إن ذلك حلم مستحيل. فقد كان ميلون رجلاً متزمتاً صارماً صموتاً. وكانت القصص التي سمعها عن دوفين الرائق الطبع، الثرثاء تنفّر ميلون منه ـ وقد أوضح ميلون أنه لا رغبة لديه في لقاء ذلك الرجل. ومع ذلك قال دوفين لأصدقائه المتشككين: «إن ميلون لن يشتري مني فحسب، بل إنه لن يشترى إلاّ مني». وظل يتتبع أثر فريسته عدة أعوام، مستعلماً عن عادات الرجل، وأذواقه، ومخاوفه. ولتحقيق ذلك استأجر سراً عدة موظفين عند ميلون برواتب، مستخرجاً منهم معلومات قيمة. وعندما حان وقت التحرك للعمل، كان يعرف ميلون بقدر ما تعرفه زوجة ميلون.

ففي سنة 1921، كان ميلون في زيارة إلى لندن، وكان نازلاً في جناح فخم باذخ في الطابق الثالث بفندق كلاريدج، فحجز دوفين لنفسه الجناح الواقع تحت جناح ميلون بالضبط في الطابق الثاني. وكان قد رتب لخادمه الخاص أن يصادق الخادم الخاص لميلون. وفي اليوم

المصيري الذي اختاره للقيام بحركته، أخبر خادمُ ميلون خادمَ دوفين (الذي أخبر دوفين بدوره) أنه قد ساعد ميلون للتوّ على ارتداء معطفه. وأن الصناعي قد اتخذ طريقه عبر الممر ليرنّ جرس المصعد.

وبسرعة، ساعد الخادم دوفين على ارتداء معطفه هو الآخر. وبعد ثوانٍ دخل دوفين المصعد، فتظاهر بأنه فوجىء برؤية ميلون مصادفة فسلّم عليه وقدم له نفسه: «كيف حالك يا سيد ميلون؟ إنني في طريقي إلى المعرض الوطني لألقي نظرة على بعض الصور». ويا للغرابة ـ كـ ـ ذلك بالضبط هو المكان المتجه ميلون إليه كذلك. وهكذا استطاع دوفين أن يرافق فريسته إلى الموقع الوحيد الذي من شأنه أن يضمن له النجاح وكان يعرف ذوق ميلون بكل تفاصيله، وبينما كان الرجلان يتجولان عبر أروقة المُتحف، فقد دوّخ دوفين القطبَ الصناعي بمعرفته الواسعة. ومرة أخرى وبصدفة خارقة، بدا أن ذوقيهما متشابهان تشابهاً لافتاً للنظر.

فكانت تلك مفاجأة سارة لميلون: إذ لم يكن هذا هو الـ «دوفين» الذي توقعه. بل لقد كان الرجل ساحراً وموائماً، ومن الواضح أنه ـ ذوقاً عذباً. وعندما عادا إلى نيويورك، قام ميلون بزيارة معرض دوفين الممتاز ووقع في غرام مجموعته. ولدهشته بدا كل شيء وكأنه بالضبط من نوع اللوحات والأعمال الفنية التي يريد اقتناءها. ولبقية حياته صـ أفضل وأكرم زبون لدوفين.

التفسير

لم يكن رجل في طموح جوزيف دوفين وقدرته على المنافسة ليترك أي شيء للصدفة. فما الفائدة في الارتجال والعمل بلا تحضير والأمل في أنك قد تستطيع اجتذاب هذا الزبون أو ذاك؟ إنه يشبه صـ البط بعينين معصوبتين. سلح نفسك بقليل من المعرفة وسيتحسـ تهديفك.

كان ميلون أكبر صيد لدوفين لافت للأنظار. ولكن دوفين تجـ

على كثير من أصحاب الملايين. وبوضع موظفي زبائنه وخدم بيوتهم في خدمته سراً، كان يحصل باطراد على معلومات قيمة عن غدوات سادتهم وروحاتهم، والتغيرات في ذوقهم، ومثل هذه النتف الطازجة من المعلومات التي تجعله سابقاً بخطوة. ولقد كان هناك منافس لدوفين أراد أن يجعل هنري فريك زبوناً له، فلاحظ أنه كلما قام بزيارة لذلك الثري النيويوركي، كان يجد أن دوفين قد سبقه إليه، وكأنه يملك حاسة سادسة. وبالنسبة لبائعي التحف الفنية الآخرين، كان دوفين يبدو متواجداً في كل مكان، وكان يعلم كل شيء قبل أن يعرفوا به هم. وقد ثبطتهم قواه وأشعرتهم بالإحباط حتى تخلى كثيرون منهم ببساطة، عن مطاردة الزبائن الأثرياء الذين يستطيعون أن يجعلوا البائع غنياً.

هذه هي قوة التفنن في التجسس. إنها تجعلك تبدو كليَّ القدرة شفاف البصيرة كأنك تملك قوة التنبؤ. إن معرفتك بهدفك تجعلك آسر الجاذبية كذلك، بحيث تستطيع أن تعرف رغبات الآخرين سلفاً. ولا أحد يرى مصدر قوتك وسلطتك، وما لا يستطيع منافسوك أن يروه، لا يستطيعون أن يقاتلوه.

> إن الحكام يرون من خلال الجواسيس، كما ترى الأبقار من خلال الشم، والبراهمة من خلال كتبهم وبقية الناس من خلال عيونهم العادية
>
> (كوتيليا، فيلسوف هندي، في القرن الثالث ق.م).

مفاتيح السلطة

في مملكة السلطة، يكون هدفك قدراً من السيطرة على أحداث المستقبل. وإذن فإن جزءاً من المشكلة التي تواجهها هو أن الناس لا يرضون أن يخبروك بكل أفكارهم، وعواطفهم، وخططهم. وبسيطرتهم المتحكمة بما يقولون فإنهم كثيراً ما يحتفظون بأكثر الأجزاء حساسية من شخصيتهم مكتومة ـ كنقاط ضعفهم، ودوافعهم الخفية، وهواجسهم. والنتيجة أنك لا تستطيع أن تتنبأ بتحركاتهم، فتبقى في الظلام باستمرار.

إن الخدعة هي أن تجد طريقة لسبر أغوارهم واكتشاف أسرارهم ونواياهم الخفية دون أن تجعلهم يعرفون ما الذي تقصد إليه.

وليس هذا من الصعوبة بقدر ما تفكر. فالواجهة الودية تسمح لك بتجميع المعلومات سراً عن الأصدقاء والأعداء على حد سواء. دع الآخرين يستشيروا المنظار الفلكي، أو يبحثوا عن حظهم في ورق اللعب فإن لديك وسائل مادية ملموسة أكثر لنفاذ رؤيتك إلى المستقبل.

وأكثر طرق التجسس شيوعاً هي استخدام الآخرين، كما فعل دوفين. والأسلوب بسيط وقوي، ولكن فيه مخاطر: فأنت ستجمع المعلومات بالتأكيد، ولكن ليست لديك سيطرة على الناس الذين يقومون بالعمل. فربما كشفوا تجسسك بحمقهم، أو حتى انقلبوا عليك سراً فمن الأفضل بكثير أن تكون أنت نفسك الجاسوس، أن تتخذ وضع الصديق بينما أنت منهمك سراً في جمع المعلومات.

ولقد كان السياسي الفرنسي تاليران واحداً من أعظم ممارسي هذا الفن. فكانت لديه قدرة خارقة على استلال الأسرار من الناس في الأحاديث العادية المهذبة. وقد كتب أحد معاصريه، وهو البارون دي فترول: «كانت الفطنة والكياسة تميزان حديثه. وكان يملك فن حجب أفكاره أو خبثه تحت قناع شفاف من التلميحات، والكلمات التي تومئ إلى شيء أكثر من المعنى الذي تعبّر عنه، ولم يكن يبرز فيها شخصيته الحقيقية الخاصة إلاً عند الضرورة». والمفتاح هنا هو قدرة تاليران على كبت نفسه في المحادثة، وجعل الآخرين يتحدثون عن أنفسهم بصورة لا نهاية لها بحيث يكشفون نواياهم وخططهم عن غير قصد.

إذا كان لديك سبب للشك في أن شخصاً مّا يحكي لك أكذوبة، فتظاهر بتصديق كل كلمة يقولها. فذلك سيشجّعه على الاستمرار، بحيث يصبح أكثر حماساً في تأكيداته، حتى يفضح نفسه

فطوال حياة تاليران كان الناس يقولون إنه متحدث ممتاز ـ برغم ذلك فلم يكن يقول بالفعل إلاً أقل القليل؛ فلم يتحدث قط عن أفكاره هو.. بل كان يجعل الآخرين يكشفون أفكارهم. وكان ينظم ألعاباً من الحركات الإيمائية التمثيلية للدبلوماسيين الأجانب، ونقاشات اجتماعية يقوم فيها بوزن كلماتهم بدقة وعناية، ويستخرج منهم الأسرار

فيجمع بذلك معلومات لا تقوَّم بثمن لعمله كوزير لخارجية فرنسا. وفي مؤتمر ڤيينا (1814 ـ 1815) مارس تجسسه بطرق أخرى. فكان يتفوه بشيء يبدو أنه سر (شيء يكون قد لفقه بالفعل)، ثم يراقب ردود أفعال مستمعيه. فربما أخبر تجمعاً من الدبلوماسيين مثلاً أن مصدراً موثوقاً قد كشف له أن قيصر روسيا يخطط لاعتقال أكبر جنرالاته بتهمة الخيانة. وبمراقبة ردود فعل الدبلوماسيين على هذه الحكاية المفبركة، يعرف أيهم كان أكثر تهيجاً بإضعاف الجيش الروسي؟ فلعل حكوماتهم لديها خطط تآمرية ضد روسيا؟ وكما قال البارون فون ستيتون: «يطلق السيد تاليران رصاصة مسدس في الهواء ليرى من الذي سيقفز من النافذة».

في آخر الأمر. ومرة أُخرى، إذا شعرتَ أنّ شخصاً مّا يحاول أن يخفي عنك شيئاً، ولكنه لا ينجح في ذلك إلاً جزئياً فاظهر له أنك لا تصدّقه، فإن اعتراضك سوف يستفزّه لإخراج كل احتياطيّ الحقيقة وتسليط قوتها الكاملة لتضغط بثقلها على ارتيابك فيه وعدم تصديقك له.

آرثر شوبنهاور
1788 ـ 1860

في اللقاءات الاجتماعية والتجمعات العادية البريئة، كن متنبهاً. فهذه هي الأوقات التي ينخفض فيها احتراس الناس. وبكبح شخصيتك الخاصة، تستطيع أن تجعلهم يكشفون الأشياء. وإن ذكاء المناورة البارعة هو أنهم سوف يظنون اهتمامك بهم صداقة، وبذلك فأنت لا تتعلم فحسب، بل تكسب حلفاء.

ومع ذلك ينبغي عليك أن تمارس هذا التكتيك بحذر وعناية. فإذا بدأ الناس يشكّون في أنك تستخرج منهم أسراراً تحت غطاء المحادثة، فإنهم سوف يتجنبونك بشكل صارم. ركِّز على «الدردشة» الودية، وليس على المعلومات القيمة. ولا تجعل بحثك عن جواهر المعلومات واضحاً ومكشوفاً أكثر من اللازم وإلاَّ فإن أسئلتك المتعمقة الباحثة ستكشف عن نفسك ونواياك أكثر من المعلومات التي كنت تأمل أن تجدها.

ومن بين الحيل التي يمكن تجربتها في التجسس واحدة تأتي من لاروشفوكو، الذي كتب يقول: «الإخلاص يوجد في عدد قليل من الرجال وهو غالباً من أبرع الحيل ـ فيكون المرء مخلصاً لكي يستخرج الثقة والأسرار من الشخص الآخر». فبالتظاهر بأنك تفتح قلبك لشخص آخر فإنك بعبارة أخرى تزيد من احتمال كشفه لأسراره الخاصة. أعط الآخرين اعترافاً مزوراً وسيعطونك اعترافاً حقيقياً. وهناك خدعة أخرى

حددها الفيلسوف آرثر شوبنهاور، الذي اقترح أن تناقض الناس الذير
تتحدث معهم تناقضاً عنيفاً حاداً كطريقة لإزعاجهم، وتهييجهم بحيث
يفقدون شيئاً من السيطرة على كلماتهم. ففي غمرة رد فعلهم العاطفي
سيكشفون كل أنواع الحقائق عن أنفسهم ـ وهي حقائق يمكنت
استخدامها ضدهم فيما بعد.

ومن الطرق الأخرى للتجسس غير المباشر اختبار الناس، بنصـ
أفخاخ صغيرة تجعلهم يكشفون أشياء عن أنفسهم. فخسرو الثاني، أحـ
ملوك فارس المشهورين بالذكاء والبراعة في القرن السابع، كانت لديه
طرائق كثيرة يستشف من خلالها ما لدى رعاياه دون أن يثير الشكوك
فإذا لاحظ مثلاً أن اثنين من رجال حاشيته قد تقاربا وصارت علاقتهمـ
ودية على نحو خاص، كان يستدعي أحدهما على حِدَة ليقول له إن لديه
معلومات بأن الآخر خائن، وأنه سيلقى مصرعه قريباً، ثم يقول المـ
لذلك الرجل إنه يثق به أكثر من أي شخص آخر، وأنه يجب أن يبقي هـ
المعلومات سراً. ثم يراقب الرجلين بدقّة. فإن رأى أن رجل الحاشية
الثاني لم يتغير في سلوكه تجاه الملك فإنه يستنتج بأن رجل الحاشية
الأول قد كتم السر، ومن ثم يسارع إلى ترفيع ذلك الكاتم للسر. ثـ
يختلي به ليعترف له: «كنت أنوي قتل صديقك بسبب معلومات معـ
عنه وصلتني، ولكنني عندما تحريت الأمر وجدت أن تلك المعلومات ـ
تكن صحيحة». ومن جهة أخرى فإذا بدأ رجل الحاشية الثاني يتحـ
الملك، ويتصرف بعزلة عن غيره ويبدو متوتراً، كان خسرو يعلم أن ـ
قد أُفشي. فيحظر على رجل الحاشية الثاني المجيء إلى بلاطه، ويجعـ
يدرك أن المسألة كلها كانت اختباراً ليس إلاّ. . . وأنه رغم أن الرجـ ـ
يرتكب أي خطأ، فإنه لم يعد يثق به. غير أن رجل الحاشية الأو قـ
أفشى سراً ـ وهذا كان خسرو ينفيه من مملكته كلها.

وقد يبدو نوع التجسس غريباً إذا كان لا يكشف معلومات تحـ

ميدانية، بل شخصية الإنسان. غير أنه كثيراً ما يكون أفضل طريقة لحل المشاكل قبل أن تنشأ.

إنك بإغرائك الناس بأعمال معينة تتعلم أشياء عن ولائهم وصدقهم ونزاهتهم وما إلى ذلك. وهذا النوع من المعرفة غالباً ما يكون الأثمن والأنفس. فإذا تسلحت به، فإنك تستطيع أن تتنبأ بأفعالهم في المستقبل.

صورة: عين
الجاسوس الثالثة. في أرض
ذوي العينين، تعطيك العين الثالثة
العلم الكلي لإله. فترى أبعد مما يرى
الآخرون، وترى ما في داخلهم
بطريقة أعمق. ولا يسلم أحد
من تلك العين سواك.

الشاهد: إن السبب الذي يجعل العاهل الممتاز والقائد الحكيم يهزمان العدو كلما تحركا، ويجعل إنجازاتهما تفوق إنجازات الرجال العاديّين هو علمهما المسبق بوضع العدو. وهذا «العلم المسبق» لا يمكن استدراجه من الارواح، ولا من الآلهة، ولا من المضاهاة مع أحداث الماضي، ولا من حسابات التنجيم. بل يجب الحصول عليه من الرجال الذين يعرفون وضع العدو ـ من الجواسيس.

(صون ـ تزو في كتاب فن الحرب، من القرن الرابع ق .م.)

الانقلاب

المعلومات حساسة الأهمية للسلطة، ولكن كما تتجسس أنت على الناس، ينبغي عليك أن تكون مستعداً لتجسسهم عليك. فمن أشد الأسلحة مضاءً في معركة المعلومات إذن، تقديم المعلومات الزائفة، وكما قال ونستون تشرشل: «إن الحقيقة نفيسة إلى درجة أنها يجب أن تكون دائماً محاطة بحراسة من الأكاذيب». فيجب عليك أن تحيط نفسك بمثل هذه الحراسة، بحيث أن حقيقتك لا تتعرض لاختراقات الغير. وبزراعتك المعلومات التي تختارها، تسيطر على اللعبة.

في سنة 1944، تصاعدت فجأة حدة الهجمات النازية بالقنابل الصاروخية على لندن. فسقطت على المدينة أكثر من ألفي قنبلة طائرة من نوع V-1، فقتلت أكثر من خمسة آلاف شخص وجرحت كثيرين آخرين ولكن الألمان، بطريقةٍ مّا، كانوا يخطئون أهدافهم باطراد. فكانت القنابل التي تستهدف جسر البرج، أو بيكاديللي لا تصل إلى المدينة بل تسقط قبلها بكثير، في الضواحي الأقل ازدحاماً بالسكان. وكان سبب ذلك أن الألمان عند تحديد أهدافهم اعتمدوا على عملاء سريين كانوا قد زرعوهم في إنكلترا. فلم يكونوا يعلمون أن أولئك العملاء قد انكشفوا، وأنه قد حل محلهم عملاء تحت السيطرة الإنكليزية راحوا يغذون الألمان بمعلومات مخادعة جيدة التزييف.

وهكذا كانت القنابل تنزل أبعد فأبعد عن أهدافها كلما سقطت وعند نهاية الحملة كانت تسقط على الأبقار في الريف. وإذن فإن بتغذية الناس بمعلومات خاطئة تكسب ميزة فعالة. وبينما يمنحك التجسس عيناً ثالثة، فإن المعلومات الزائفة تطفىء واحدة من عيني عدوك. وعندما يصبح مثل السايكلوب (واحد من جيل العمالقة في الأساطير الإغريقية له عين واحدة فقط في وسط الجبين)، فإنه يخطئ هدفه على الدوام.

القانون

15

اسحق عدوك سحقاً كلياً

الحكم

لقد عرف كل القادة العظام منذ موسى (عليه السلام) أن العدو المرهوب يجب سحقه بصورة كاملة (وكانوا يتعلمون ذلك أحياناً بالطريقة الصعبة والتجربة المريرة) فإذا تركت جمرة واحدة مشتعلة، مهما كان احتراقها داكناً خافتاً، فإن ناراً ستندلع منها في آخر الأمر. فالتوقف في وسط الطريق يؤدي إلى خسارة ما هو أكثر مما لو كانت الإبادة كلية. فالعدو سوف يتعافى وسيبحث عن الانتقام. فاسحقه، لا جسدياً فحسب بل في الروح كذلك.

انتهاك القانون

إن فلول عدوٌ مّا قد تصبح فعّالة كبقايا وباء أو حريق. ومن هنا ينبغي إبادة تلك الفلول تماماً... وعلى المرء أن لا يتجاهل عدواً حتى ولو كان يعرف أن ذلك العدوّ ضعيف، إذْ إنه قد يصبح خطراً بمرور الزمن، كالشرارة في كوم من الهشيم.

كونيليا
فيلسوف هندي من القرن الثالث قبل الميلاد

ليست هناك منافسة بين القادة في التاريخ الصيني أشهر من الصراع بين هسيانغ يو، وليو بانغ. وقد بدأ هذان القائدان حياتهما العملية كصديقين يحاربان على نفس الجبهة، وكان هسيانغ يو، ينحدر من طبقة النبلاء؛ فكان كبيراً وقويًّا، يتعرض لنوبات من العنف وحدة الطبع، وغير متقد الذكاء، ولكنه محارب جبار يُقاتل دائماً على رأس قواته. أما ليو بانغ، فكان من سلالة فلاحين، ولم يكن جندياً محترفاً، وكان يفضل النساء والشراب على القتال، والواقع أنه كان فيه شيء من صفات الوغد. ولكنه كان واسع الحيلة، وكانت لديه قدرة على معرفة أفضل المخططين الاستراتيجيين، وإبقائهم كمستشارين له، ينصت إلى نصيحتهم. وقد صعد نجمه في الجيش عن طريق نقاط القوة هذه.

وفي سنة 208 ق .م. أرسل ملك شو جيشين كثيفين لغزو مملكة شِيْن القوية، فاتجه أحدهما إلى الشمال تحت القيادة العامة لصونغ ـ يي، بمساعدة هسيانغ يو. أما الجيش الثاني، بقيادة ليو بانغ، فقد اتجه مباشرة إلى شِيْن، وهدفه عاصمة المملكة الزاهية هسين ـ يانغ. وبما أن هسيانغ يو، كان على الدوام عنيفاً ونافذ الصبر فلم يستطع أن يستسيغ فكرة وصول ليو بانغ إلى هسين ـ يانغ قبله، وبذلك قد يتولى قيادة الجيش بأكمله.

وعند إحدى النقاط على الجبهة الشمالية، تردَّد صونغ ـ يي، قائد

هسيانغ، في إرسال قواته إلى المعركة. فثارت ثائرة هسيانغ، فدخل خيمة صونغ يي وأعلن أنه خائن، وقطع رأسه، وتسلم قيادة الجيش وحده. وبدون انتظار الأوامر غادر الجبهة الشمالية، وزحف مباشرة إلى هسين ـ يانغ. وقد شعر بالتأكيد أنه الجندي والقائد الأفضل من ليو. ولكن لذهوله المطبق، استطاع منافسه، الذي كان يقود جيشاً أصغر وأسرع، أن يصل قبله إلى هسين ـ يانغ، وكان لهسيانغ مستشار يدعى فان تسينغ، حذّره قائلاً: «إن مختار القرية هذا [ليو بانغ] لم يكن يطمع إلاَّ في الشراء والفساد، ولكنه منذ أن دخل العاصمة، لم تعد تضلله الثروة، ولا الشراب، ولا الجنس. وهذا يبيّن أنه يهدف إلى ما هو أعلى».

وحثَّ فان تسينغ، هسيانغَ على قتل منافسه قبل فوات الأوان. وأخبر القائدَ أن يدعو الفلاح المراوغ إلى مأدبة في معسكرهم خارج مدينة هسينغ ـ يانغ. وفي وسط رقصة سيوف احتفالية، يدبر عملية قطع رأسه. فأرسلت الدعوة؛ وسقط ليو في الفخ، وجاء إلى المأدبة، ولكن هسيانغ تردد في الأمر برقصة السيوف، وعندما أعطى الإشارة، كان ليو قد أحسّ بالمصيدة، واستطاع أن يهرب. وعندما رأى فان تسينغ أن هسيانغ قد أفسد الخطة، صاح: «تبًّا! إن المرء لا يستطيع أن يخطط مع ساذج. إن ليو بانغ سوف يسرق إمبراطوريتك، ويجعلنا جميعاً سجناءه».

فأدرك هسيانغ خطأه، وزحف بسرعة على مدينة هسين يانغ، وقد صمم هذه المرة على قطع رأس منافسه. ولم يكن ليو بانغ واحداً ممن يقاتلون عندما يكون ميزان القوى في غير صالحه، فترك المدينة، التي استولى عليها هسيانغ يو، واغتال أميرها الشاب شْئين، وأحرق المدينة ومسحها عن وجه الأرض. وصار ليو عدو هسيانغ اللدود، وقد طارده شهوراً عديدة، وأخيراً حصره في مدينة مسوّرة. وعندما نقص الطعام، وتمزق جيشه، طلب ليو الصلح والسلام.

ومرة أخرى حذّر فان تسينغُ، هسيانغَ: «اسحقه الآن! لأنك إذا

فخّ سينيغاليا

في يوم إعدام راميرو، غادر سيزار [بورجيا] مدينة سيسيليا، تاركاً جثه المقطّعة في ساحتها، وزحف جنوباً، فوصل بعد ثلاثة أيام إلى فانو، حيث استقبل مبعوثي مدينة آنكونا، الذين أكدوا له ولاءهم. وأعلن رسول من فيتيلوزوفيتللي أن ميناء سينيغاليا الصغير على البحر الآدرياتيكي قد استسلم للكوندو تيري (الجنود المرتزقة)؛ ولم يبق صامداً في وجوههم إلاَّ القلعة، تحت إمرة القائد الجنويّ آندريه دوريا، الذي رفض تسليمها لأي شخص سوى سيزار نفسه. فأرسل [بورجيا] خبراً بأنه سيصل في اليوم التالي. وكان ذلك بالضبط هو ما أراد المرتزقة أن يسمعوه. فما أن يصل سيزار إلى سينيغاليا حتى يصبح فريسة سهلة، إذْ ينحصر بين القلعة وبين قواتهم المحيطة بالمدينة. وكان المرتزقة واثقين من أنهم يملكون تفوقاً عسكرياً، معتقدين أن مغادرة القوات الفرنسية تركت سيزار مع قوة صغيرة فقط.

والحقيقة، حسبما يروي ماكيافيللي، أن [بورجيا] قد غادر سيزنيا مع عشرة آلاف من المشاة، وثلاثة آلاف خيّال. واهتم اهتماماً شديداً بتقسيم رجاله بحيث يزحفون في طرق متوازية قبل أن يتجمعوا عند سينيغاليا. وكان سبب اصطحابه مثل هذه القوة الكبيرة هو أنه كان يعلم، من اعتراف مُنْتَزَع من راميرو دي لوركا، ما الذي كان المرتزقة يخبّئونه له في

تركته يفلت ثانيةً، فستندم فيما بعد». ولكن هسيانغ قرر أن يكون رحيماً. وأراد أن يعيد ليو بانغ حيّاً إلى شُتُو، وأن يرغم صديقه الأسبق على الاعتراف به سيداً. ولكن ثَبَتَ أن فان كان على حق. فقد استطاع ليو أن يستخدم مفاوضات استسلامه كأُلهيةٍ لتشتيت الانتباه، وهرب مع جيش صغير وذهل هسيانغ لأنه ترك منافسه يفلت مرة أخرى، وعاد ليطارد ليو، وهذه المرة في شراسة جعلته يبدو وكأنه فقد عقله. وفي إحدى المرات أُسر والد ليو في المعركة. فأوقف هسيانغ الرجلَ العجوز أثناء القتال، ثم صرخ على ليو عبر خط التحام القوات: «استسلم وإلاَّ فسوف أغلي أباك بالماء وهو حيّ!»، فأجابه ليو بهدوء: «ولكننا أخوان كما أقسمنا، وهكذا فإن أبي هو أبوك أيضاً. فإن كنت مصراً على غلي أبيك نفسه، فأرسل لي إناءً من الحساء!»، فتراجع هسيانغ، واستمر الصراع.

وبعد بضعة أسابيع، وفي غمرة المطاردة والقنص، بعثر هسيانغ قواته بطريقة غير حكيمة. فاستطاع ليو في هجوم مفاجىء أن يطوق حاميته الرئيسية. ولأول مرة انقلبت الموائد. فصار هسيانغ هو الذي يطلب السلام. وحثَّ كبير المستشارين ليو على تدمير هُسيانغ، وسحقَ جيشه وعدم الرأفة به. وقال له: «إن تركه يذهب سيكون كتربية نمر، فهو سيلتهمك فيما بعد». فوافق ليو على ذلك.

فعقد معاهدة زائفة، واستدرج هسيانغ إلى الاسترخاء في دفاعه، ثم ذبح جيشه عن بكرة أبيه تقريباً؛ واستطاع هسيانغ أن يهرب. وسار وحيداً على قدميه، وهو يعلم أن ليو قد وضع جائزة على رأسه، فالتقى بمجموعة صغيرة من جنوده المتراجعين، فصرخ فيهم: «لقد سمعت أن ليو بانغ قد وضع لرأسي جائزة من ألف قطعة من الذهب، وإقطاعية من عشرة آلاف عائلة. فدعوني أُسْدِيكم معروفاً جميلاً»، ثم قطع حنجرته بنفسه ومات.

أكمامهم. ولذا فقد قرر أن يقلب فخّهم هذا عليهم. فكانت تلك تحفة الخدع التي وصفها المؤرّخ باولو جيوفيو فيما بعد بأنها «الخدعة الرائعة». ففي فجر الحادي والثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر [سنة 1502] وصل سيزار إلى ضواحي سينِغاليا. . وبقيادة ميشيلوتو كوريلا، اتخذ حراس سيزار المتقدمون موقعهم على جسر القناة، وكانوا يتألفون من مائتي مقاتل مسلّحين بالرماح. . . وكانت النتيجة الفعلية لهذه السيطرة على الجسر أنها منعت قوات المتآمرين من الانسحاب. . . وحيّا سيزار المرتزقة بسخاء مبالغ فيه ودعاهم إلى الانضمام إليه. . . وكان ميشيلوتو قد أعدّ قصر برنادينو لاستعمال سيزار. فدعاهم الدوق إلى الداخل. . . وعندما صاروا في الداخل ألقي عليهم القبض بهدوء على أيدي الحراس الذين زحفوا من الخلف. . . وأصدر سيزار أوامره بالهجوم على جنود فيتيللي وأورسيني في المناطق الممتدة إلى الخارج. . وفي تلك الليلة، بينما كانت قواتهما تسحق، قام ميشيلوتو بخنق أوليفريتّو وفيتيللي في قصر برناردينو. . .

وبانقضاضة كاسحة مهلكة، تخلّص [بورجيا] من جنرالاته السابقين وألدّ أعدائه.

آل بورجيا
إيفان كلولاس، 1980

التفسير

أثبت هسيانغ في مناسبات عديدة أنه عديم الرحمة. ونادراً ما تردد

في القضاء على منافسٍ له إن كان ذلك يخدم أغراضه. ولكنه مع ليو بانغ تصرف على نحو مختلف. فقد كان يحترم منافسه، ولم يرد أن يدحره عن طريق الخديعة؛ بل أراد أن يثبت تفوقه في الميدان، وحتى إرغام ليو البارع على الاستسلام وعلى خدمته. وفي كل مرة وقع فيها غريمه في قبضة يديه، كان هناك شيءٌ مّا يجعله يتردد ـ كالتعاطف القاتل مع الرجل أو الاحترام له، لأنه كان بعد كل شيء صديقاً له ورفيق سلاح. ولكنْ، في اللحظة التي أوضح فيها هْسيانغ أنه ينوي القضاء على ليو، ومع ذلك فشل في تحقيق نيته، فإنه ختم على مصيره المحتوم. إذْ أن ليو لم يكن من شأنه أن يعاني من التردد نفسه إذا انقلب الوضع.

وهذا هو المصير الذي يواجهنا جميعاً عندما نتعاطف مع أعدائنا، عندما تردّنا الشفقة، أو الأمل في المصالحة، عن القضاء عليهم. وبذلك فإننا لا نفعل شيئاً سوى تقوية خوفهم منّا وكراهيتهم لنا. فقد هزمناهم، وأذللناهم، ومع ذلك نغذي هذه الصلال التي ستقتلنا ذات يوم. فالسلطة لا يمكن التعامل معها بهذه الطريقة. بل يجب محقها وسحقها وحرمانها من فرصة العودة لكي تسيطر علينا كالهاجس. إن القانون الذي يحكم العداوات القاتلة ينص على أن الصلح فيه غير وارد. فلا يمكن أن يفوز إلاَّ جانب واحد، ويجب أن يفوز كلياً.

وقد تعلم ليو بانغ هذا الدرس جيداً. فبعد أن دحر هسيانغ يو، استمر ابن الفلاح هذا ليصير القائد الأعلى لجيوش شُنُو. وبعد أن سحق غريمه التالي ـ ملك شُنُو، وقائده السابق ـ توج نفسه إمبراطوراً، وهزم كل من كان في طريقه، ودخل اسمه التاريخ كواحد من أعظم حكام الصين، هَانْ كَاوْ ـ تْسُو الخالد، مؤسس سلالة هانْ

إن الذين يسعون لتحقيق أشياء ينبغي أن لا يُظْهروا أي رحمة.
(كاوتيليا، فيلسوف هندي من القرن الثالث ق .م).

مراعاة القانون

كانت وُو تشاو، المولودة في سنة 625م.، ابنة دوق. ونظراً لأنها كانت شابة جميلة ذات مفاتن عديدة، فقد تم ضمها إلى حريم الإمبراطور ثآي تْسُونْغ.

وكان الحريم الإمبراطوري مكاناً خطراً، مليئاً بالمحظيات الشابات المتنافسات على المكانة المفضلة لدى الإمبراطور، وقد كسبت وو هذه المعركة بسرعة بفضل جمالها وشخصيتها القوية. ولكنها كانت تعرف أن الإمبراطور، مثل الرجال الأقوياء ذوي السلطة الآخرين، إنما هو عبد لنزواته، وأن من الممكن أن يستبدل بها بسهولة، ولذا أبقت عينها مركزة على المستقبل.

واستطاعت وو أن تغوي ابن الإمبراطور الفاجر كاو تسونغ، في المناسبة الوحيدة التي استطاعت أن تجده فيها وحده: بينما كان يقضي حاجته في المرحاض الملكي. ومع ذلك فإنه عندما مات الإمبراطور وتسنم كاو تسونغ العرش، لقيت المصير الملزم بموجب التقليد والقانون لجميع زوجات الإمبراطور الراحل ومحظياته. فحُلِقَ شعرُ رأسِها وأدخلت ديراً، لما هو مفترض أن يكون بقية حياتها. وعلى مدى سبعة أعوام خططت وو لتهرب. وعن طريق الاتصال سراً بالإمبراطور الجديد، ومصادقة زوجته الإمبراطورة، استطاعت الحصول على مرسوم ملكي غير عادي أبداً يسمح لها بالعودة إلى القصر وإلى الحريم الملكي. وعند وصولها إلى هناك راحت تتودد إلى الإمبراطورة وتنام مع الأمبراطور في الوقت نفسه. ولم تثبط الإمبراطورة ذلك. فقد كان عليها أن تعطي الإمبراطور وريثاً، فكان مركزها لا يزال ضعيفاً مكشوفاً، وكانت وو حليفة ثمينة.

وفي سنة 654، ولدت وو تشاو غلاماً. وذات يوم جاءت الإمبراطورة لزيارتها، وعندما غادرت، قامت وو بخنق وليدها بنفسها. وعندما اكتُشِفَت جريمةُ الاغتيال، حامت الشبهات حول الإمبراطورة

رأساً، لأنها كانت في ذلك المكان، وكانت طبيعتها الملأى بالغيرة معروفة عند الجميع. وكانت هذه بالضبط هي خطة وو. فبعد ذلك بوقت قصير اتهمت الإمبراطورة بالقتل وأعدمت. وتُوِّجت وو إمبراطورةً في مكانها. وكان زوجها الجديد مدمناً على حياة الملذات فترك أعنة الحكم بسرور لوو تشاو، التي عرفت منذ ذلك الحين فصاعداً باسم الإمبراطورة وو.

ورغم أنها صارت في مركز قوة وسلطة كبير، لم تشعر وو أنها آمنة. فقد كان لها أعداء في كل مكان، فلم تكن تستطيع التخلي عن حذرها واحتراسها لحظة واحدة. وبالفعل، عندما كانت في الحادية والأربعين، بدأت تخشى من كون ابنة أخيها الشابة الجميلة أخذت تصبح محظية الإمبراطور المفضلة. فسممتها بقطعة كلس خلطت في طعامها. وفي سنة 675، تم تسميم ابنها نفسه أيضاً، وكان هو الوريث الظاهر المعلَن. أما الولد التالي ــ وهو الأكبر، وكان غير شرعي، ولكنه صار ولي العهد ــ فقد نفي بعد ذلك بقليل بناءً على تهم ملفقة. وعندما مات الإمبراطور في سنة 683م، تدبرت وو أمر الإعلان بأن الولد التالي لا يصلح للعرش. فكان معنى ذلك كله أن أصغر أبنائها وأقلهم تأثيراً صار هو الإمبراطور في خاتمة المطاف، وبهذه الطريقة استمرت تحكم.

وعلى امتداد السنوات الخمس التالية كانت في القصر محاولات انقلاب لا تحصى، وكلها فشلت، وأعدم المتآمرون جميعاً، وبحلول سنة 688، لم يعد هناك أحد يتحدى وو. فأعلنت نفسها سليلة سماوية لبوذا، وفي سنة 690، تحققت رغباتها في آخر الأمر فأطلق عليها لقب «إمبراطور» الصين المقدس والإلهي.

وهكذا صارت وو إمبراطورةً لأنه لم يبق أحد ــ حرفياً ــ من سلالة تآنغ السابقة. وهكذا حكمت البلاد غير منازَعة طيلة عقد من الزمن كان سلمياً إلى حد مّا. وفي سنة 705م، عندما بلغت الثمانين من عمرها، أرغمت على التنازل.

التفسير

إن كل الذين عرفوا الإمبراطورة وو تشاو، علّقوا على نشاطها وذكائها. ففي ذلك العصر لم يكن هناك أي مجد متاح لامرأة طموحة أكثر من بضع سنوات في الحريم الإمبراطوري، تليها حياة كاملة وراء أسوار الدير العالية. وأثناء صعود وو تشاو التدريجي واللافت للنظر إلى القمة لم تكن أبداً ساذجة. كانت تعرف أن أي تردد، وأي ـ ضعف ولو للحظة ـ سوف تكون فيه نهايتها. فإذا كانت كلما تخلصت من غريم ظهر غريم جديد فإن الحل كان بسيطاً: كان عليها أن تسحقهم جميعاً أو تتعرض هي نفسها للقتل. كان هناك أباطرة قبلها سلكوا الطريق ذاته إلى القمة، ولكن وو التي لم تكن لها فرصة تذكر لاكتساب السلطة لأنها امرأة ـ كان عليها أن تكون أشد منهم قسوة وانعداماً للرحمة.

فكانت فترة حكمها التي امتدت أربعين عاماً هي الأطول في تاريخ الصين. ورغم أن قصة صعودها الدامي إلى السلطة معروفة جيداً، فإنها في الصين تعتبر واحدة من أقدر حكام تلك الفترة وأكثرهم تأثيراً.

> سأل قسيس، السياسي والقائد العسكري الإسباني رامون ماريا نارفايز (1800 ـ 1868): «هل تعفو يا صاحب المعالي عن أعدائك جميعاً؟» فأجاب نارفايز: «لست مضطراً لمسامحة أعدئي، لقد أرسلتهم جميعاً إلى ساحات الإعدام».

مفاتيح السلطة

ليس صدفة أن تأتي القصتان اللتان توضحان هذا القانون من الصين: فتاريخ الصين مليء بأمثلة عن الأعداء الذين تركوا أحياء، ثم عادوا ليصبحوا هاجساً يقلق الرحيم الذي تركهم. إن «سحق العدو» شعار هام وثابت واستراتيجي عند صون ـ تزو، مؤلف كتاب فن الحرب، الذي عاش في القرن الرابع ق .م. والفكرة بسيطة: فأعداؤك يتمنون لك الضرّ. وليس هناك ما يريدونه أكثر من إزالتك. فإذا توقفت

في منتصف الطريق في صراعك معهم، أو حتى عند ثلاثة أرباع الطريق، بسبب الرحمة أو الأمل في الصلح، فإنك لا تفعل سوى زيادة تصميمهم وزيادة شعورهم بالمرارة، وسوف ينتقمون ذات يوم. فقد يتصرفون بطريقة ودية موقتاً، ولكن سبب ذلك هو أنك هزمتهم. فلم يبق لديهم خيار سوى انتظار فرصة جديدة.

والحل: لا ترحم. اسحق أعداءك بشكل كلي كما سيسحقونك إن استطاعوا. وفي آخر الأمر، فإن السلام والأمن الوحيدين اللذين يمكنك أن تأمل في الحصول عليهما من أعدائك يكمنان في اختفاء أولئك الأعداء.

وكان ماوتسي تونغ، القارىء النهم لـ «صون ـ تزو» وللتاريخ الصيني عموماً، يعرف أهمية هذا القانون. ففي سنة 1934، هرب ذلك الزعيم الشيوعي ومعه 75000 جندي ضعيفي التجهيز إلى الجبال الموحشة الجرداء في غربي الصين للنجاة من جيش تشيانغ كاي ـ شيك الأكبر من قوات ماو بكثير، فيما سمي منذ ذلك الحين «بالمسيرة الطويلة».

وكان تشيانغ مصمماً على إزالة الشيوعيين عن آخرهم، وعند مضي سنوات قليلة لم يبق لماو سوى أقل من عشرة آلاف جندي. والواقع أنه بحلول سنة 1937، عندما قامت اليابان بغزو الصين، كانت حسابات تشيانغ تقول إن الشيوعيين لم يعودوا يشكلون تهديداً. فاختار أن يتخلى عن مطاردتهم ويتفرغ للتركيز على اليابانيين. وبعد عشرة أعوام كان الشيوعيون قد استعادوا من قوتهم ما كان كافياً لإلحاق هزيمة منكرة بجيش تشيانغ. لقد نسي تشيانغ الحكمة القديمة حول سحق العدو: ولكن ماو لم ينسها. وهكذا طورد تشيانغ حتى هرب هو وجيشه بأكمله إلى جزيرة تايوان. فلم يبق شيء من نظامه على البرّ الصيني الرئيسي إلى يومنا هذا.

إن الحكمة من «سحق العدو» قديمة قدم التوراة. ولعل موسى (عليه السلام) كان أول من مارسها، فتعلمها من الله نفسه، عندما فرق البحر الأحمر لليهود، ثم ترك الماء يعود ليجري فوق المصريين

المطاردين لهم بحيث «لم يبق منهم نسمة واحدة». وعندما عاد موسى من جبل سيناء ومعه الوصايا العشر ووجد قومه يعبدون العجل الذهبي أمر بذبح المذنبين عن آخرهم. وقبل موته قال لأتباعه وهم على وشك دخول أرض كنعان في آخر الأمر إنه يجب عليهم عندما يهزمون قبائل كنعان «أن يدمروهم تدميراً كلياً... وأن لا يقيموا معهم عهداً، وأن لا يظهروا لهم أي رحمة» (مع تحفظنا على محتويات التوراة الحالية، فهي بالنسبة للمؤلف كتاب مقدس، وبالنسبة لنا كتاب مليء بالتحريف والتزوير والأكاذيب: المترجم).

إن الهدف من النصر الكلي هو بديهية من بديهيات الحرب الحديثة. وقد قنّنها كارل فون كلاوزفيتز، فيلسوف الحرب الأول. فعند تحليله لحملات نابليون كتب يقول: «إننا نزعم بالتأكيد أن الإبادة المباشرة لقوات العدو يجب أن تكون دائماً هي **الاعتبار المسيطر**... فعند تحقق نصر كبير يجب أن لا يكون هناك حديث عن الراحة، عن فسحة لالتقاط الأنفاس... ولكن عن المطاردة فقط، عن ملاحقة العدو مرة أخرى، والاستيلاء على عاصمته، ومهاجمة قواته الاحتياطية، وأي شيء آخر قد يمنح بلده العون والراحة». وسبب ذلك أن الحرب تليها المفاوضات وتقسيم الأراضي. فإن كنتَ لم تكسب سوى نصر جزئي، فسوف تخسر في المفاوضات حتماً ما ربحته في الحرب.

والحل بسيط: لا تترك لأعدائك أي خيارات. إمحقهم فتصبح أراضيهم ملكاً لك تقسمه كيف تشاء. إن الهدف من السلطة هو أن تسيطر على أعدائك سيطرة كاملة، وأن تخضعهم لإرادتك. فإن لم تكن لهم خيارات أخرى، فسيفعلون ما تطلب. إنك لا تستطيع أن تتوقف في منتصف الطريق. ولهذا القانون تطبيقات تتجاوز ميدان المعركة بكثير. فالمفاوضات هي الصل الخبيث الذي يقضم نصرك من أطرافه، ولذا لا تعطِ أعداءك شيئاً يتفاوضون عليه، لا أمل، ولا مجال للمناورة. بل اسحقهم وهذا هو كل شيء.

أدركْ هذا: في كفاحك لاكتساب السلطة ستثير منافسات وتخلق أعداء، وسيكون هناك أناس لا تستطيع أن تكسبهم إلى جانبك، إذْ أنهم سيبقون أعداء لك مهما يكن من أمر. ولكن أيًّا كان الجرح الذي أوقعته بهم، عن قصد أو عن غير قصد، فلا تحمل كراهيتهم لك على محمل شخصيّ. إعرف وأدرك فقط أنه لا إمكانية للسلام بينك وبينهم، خصوصاً ما دمت في السلطة. فإذا سمحت لهم بالبقاء، فسوف يسعون إلى الانتقام بتأكيد يشبه حتمية كون الليل يتبع النهار. ومن السخف أن تنتظر حتى يكشفوا أوراقهم؛ لأنه عندما يحين ذلك الوقت يكون الأوان قد فات، وهذا ما فهمته الإمبراطورة وو.

كن واقعياً: إن وجود عدو كهذا بالقرب منك، لن يجعلك تشعر بالأمن على الإطلاق. وتذكَّر درس التاريخ، وحكمة موسى وماو: وإياك أن تقطع نصف الطريق فقط.

والمسألة بالطبع ليست مسألة اغتيال، بل هي مسألة نفي. ذلك أن أعداءك عند إضعافهم بما فيه الكفاية، ثم نفيهم من بلاطك إلى الأبد، سيصبحون غير مؤذين، ولن يكون لهم أمل في استعادة عافيتهم، أو دسّ أنوفهم بطرق خبيثة أو ملتوية لزرع الشكوك وإيذائك. وإذا لم يكن بالإمكان نفيهم فافهم على الأقل أنهم يتآمرون عليك. ولا تأبه أبداً بأية مودة قد يتظاهرون بها. وسلاحك في مثل هذا الوضع هو حذرك نفسه. فإن كنت لا تستطيع نفيهم على الفور، فخطِّط لاختيار أفضل وقت للعمل والتصرف.

صورة: الصلّ المسحوق تحت قدميك إذا تركته حياً فإنه سيرفع رأسه ويلدغك بجرعةٍ مضاعفةٍ من السم والعدو المتروك قريباً منك يشبه صلاً نصف ميت تعالجه لتعيد إليه صحته. فالزمن يجعل سمّه أقوى.

الشاهد: لأنه يجب الملاحظة أن الرجال ينبغي ملاطفتهم أو إبادتهم؛ إذ أنهم سينتقمون للأضرار الصغيرة، ولكنهم لا يستطيعون الانتقام للأضرار العظمى؛ ولذا فإن الإيذاء الذي نوقعه بشخصٍ مّا يجب أن يكون من الضخامة بحيث لا نحتاج إلى الخوف من انتقامه. (نيقولو ماكيافيللي، 1469 ـ 1527).

الانقلاب

هذا قانون ينبغي عدم تجاهله إلاَّ نادراً. ولكن يحدث أحياناً بالفعل أن يكون من الأفضل أن تترك أعداءك يدمِّرون أنفسهم إن كان ذلك ممكناً، لأنه خير من أن تجعلهم يعانون على يديك. فالقائد الجيِّد في الحرب مثلاً يعرف أنه إذا هاجم جيشاً محاصراً فإن جنود ذلك الجيش سيقاتلون بشراسة أكبر. ولذا فإن من الأفضل أن يترك لهم طريقاً للهرب، ومنفذاً يخرجون منه. لأنهم عند تراجعهم يرهقون أنفسهم، فتهبط روحهم المعنوية في آخر الأمر من التراجع أكثر مما تهبط من الهزيمة التي تلحق بهم في ميدان المعركة. فعندما تضع أناساً في موقف دفاعي ميؤوس منه ـ ولكن فقط عندما تكون متأكداً من أنهم لا يملكون أية فرصة لاستعادة عافيتهم ـ يمكنك أن تتركهم يشنقون أنفسهم. اتركهم يكونون عوامل تدمير أنفسهم بأنفسهم، فالنتيجة ستكون هي هي نفسها، ولن تشعر أنت بأي سوء.

وأخيراً فإن سحقك أعداءك سيجعلهم يشعرون بالمرارة إلى درجة أنهم يقضون سنوات وسنوات في التخطيط للانتقام. وقد كان لمعاهدة فرساي مثل هذا الأثر على الألمان. وقد يجادل البعض في أنه من الأفضل على المدى البعيد أن يُظْهِرَ المرء بعض اللين والرأفة. والمشكلة أن رأفتك تنطوي على مخاطرة أخرى ـ إذ أنها قد تُجَرِّىءُ العدوَّ عليك، إذ أن صدره ما يزال يكنّ حقداً تفسح له الرأفة مجالاً للعمل. فمن الأحكم بشكل دائم تقريباً أن تسحق أعداءك. فإن كانوا سيخططون للانتقام بعد سنوات، فلا تجعل احتراسك يتراخى، بل اسحقهم مرة أخرى، هكذا ببساطة.

القانون

16

استخدم الغياب لزيادة الاحترام والتكريم

الحكم

إن زيادة التداول عن حده يرخص السعر: فكلما زادت مشاهدتك والسماع منك ظهرت مبتذلاً أكثر. فإذا كانت مكانتك راسخة في مجموعة مّا، فإن الانسحاب المؤقت منها يزيد الحديث عنك، وحتى الإعجاب بك. وعليك أن تتعلَّم متى تغادر. اخلق القيمة عن طريق القدرة.

انتهاك القانون ومراعاته

كان السير غليوم دي بالون من شعراء الطروبادور الجوَّالين في جنوب فرنسا في العصور الوسطى، متنقلاً من قلعة إلى قلعة مترنماً بالشعر، يلعب دور الفارس الكامل. وفي قلعة جافياك التقى بسيدة جميلة في البيت ووقع في غرامها، وهي المدام غُوليِلْما دي جافياك. وغنّى لها أغانيه، وأنشد أشعاره، ولعب معها الشطرنج. وشيئاً فشيئاً وقعت في غرامه. وكان له صديق هو السير بيير دي بارجاك كان يسافر معه، ويُسْتَقْبَلُ في القلعة كذلك. ووقع بيير في غرام سيدة أخرى في جافياك أيضاً، هي الفاتنة فيرنيتا ذات المزاج المتقلّب.

وذات يوم وقعت مشاجرة عنيفة بين بيير وفرنيتا. فطردته السيدة، فراح يبحث عن صديقه غليوم لرأب الصدع ومساعدته على العودة إلى الحظوة لديها. وكان غليوم على وشك مغادرة القلعة لفترة. ولكنه عند عودته استخدم سحره وأصلح ما بين بيير والسيدة. فشعر بيير أن حبه لها قد زاد عشرة أضعاف، وأنه ليس من حب في الواقع أقوى من الحب الذي يأتي بعد المصالحة. فأخبر غليومَ أنه كلما كان الخلاف قوياً وطويلاً زادت حلاوة الشعور الذي يأتي مع حلول السلام وعودة الوصال.

وكان السير غليوم، باعتباره من الطروبادور، يفتخر بأنه قد جرَّب كل مسرَّات الحب وآلامه. وعندما سمع صديقه يتكلَّم، أراد هو الآخر

الجمل والعصيّ الطافية

هرب أوّل رجل رأى الجمل. وتجرّأ الثاني على الاقتراب منه ولكن على مسافة. وتجرّأ الثالث على وضع رسن حول رأسه... ذلك أنّ الألفة الرائعة للكلفة تجعل كل الأشياء في هذا الوجود أليفة؛ لأن ما قد يبدو رهيباً وغريباً يصبح عادياً تماماً عندما تتاح لأعيننا برهة من الزمن للتكيف. وبما أنني أتحدث في هذا الموضوع، فقد سمعت عن حراس كانوا يتخذون مواقعهم على الساحل، فلمحوا شيئاً طافياً من بعيد، فلم يستطيعوا أن يقاوموا صرخة من حناجرهم: «شراع! شراع! سفينة حربية قويّة!». وبعد خمس دقائق صارت قارباً صغيراً لنقل الركاب والبريد، ثم زورقاً صغيراً ثم بالة، وأخيراً بعض العصيّ الطافية التي تعبث بها الأمواج. إنني أعرف كثيرين ممّن تنطبق عليهم هذه القصة.. وهم أناس تضخّمهم المسافة، غير أنهم عند الاقتراب منهم لا يبدون كباراً قط.

الخرافات المختارة
جان دي لافونتين
1621 - 1695

أن يعرف نعمة الصلح بعد مشاجرة. ولذلك تصنَّع غضبة عظمى مع السيدة غوليلما، فتوقف عن إرسال رسائل الغرام إليها، وغادر القلعة فجأة وظل بعيداً، حتى أثناء الأعياد والاحتفالات ومواسم الصيد، فأدى ذلك إلى تهيج السيدة وشعورها بالوحشة.

وأرسلت غوليلما رسلاً إلى غليوم ليكتشفوا ما الذي حدث، ولكنه ردَّهم على أعقابهم، ظناً منه أن ذلك سيغضبها، ويرغمه على أن ينشد الصلح، كما فعل بيير. غير أن غيابه كان له بدلاً من ذلك أثر معاكس: فقد جعل حب غوليلما له يزيد أكثر. فراحت السيدة تطارد فارسها وتبعث له بالرسل، ورسائل الغرام. وهذا ما لم يكن أحد قد سمع به في ذلك الزمان، إذ لم تكن السيدة تطارد شاعرها. وهو شيء لم يحبه غليوم، لأن اندفاع غوليلما جعله يشعر أنها فقدت شيئاً من كرامتها. ولم يعد متأكداً من خطته، بل لم يعد متأكداً من سيدته كذلك.

وأخيراً، وبعد عدة أشهر من انقطاع أخبار غليوم، تخلَّت عنه غوليلما فلم تعد ترسل له الرسل. فبدأ يتساءل: ألعلها غاضبة؟ ولعل الخطة قد تكون نجحت بعد كل شيء؟ إن كان ذلك كذلك فهو أفضل. فلن ينتظر أكثر. لقد حان وقت المصالحة. فارتدى أفضل ثيابه، وزيَّن حصانه بأجمل سرج مزركش، واختار خوذة رائعة، ورحل إلى جافياك.

وعندما سمعت غوليلما أن حبيبها قد عاد، هرعت لتراه، وركعت أمامه، وأسقطت قناعها لتقبِّله، وتوسَّلت إليه أن يعفو عن أي زلَّة سبَّبت غضبه. ولك أن تتصوَّر ارتباكه ويأسه ـ لقد فشلت خطته فشلاً ذريعاً. فلم تكن غاضبة، بل هي لم تغضب أبداً، بل إن الفراق لم يزد حبَّها إلاَّ عمقاً، وهكذا فلن يستمتع غليوم بلذة المصالحة بعد شجار. فعندما رآها ويئس من تذوّق تلك المتعة، قرَّر أن يحاول مرة أخرى. فأبعدها عنه بكلمات خشنة وإشارات تهديد. وعندئذ غادرته وقد حلفت أن لا تراه ثانيةً على الإطلاق.

وفي صباح اليوم التالي ندم الطروبادور على ما فعل. فعاد إلى

لفضائل الديك الخمس
بينما كان تُيِّنْ جار يخدم الدوق آي في لُو، غضب من ضآلة منزلته لدى الدوق. فقال لـيكه: «سأرحل بعيداً، مثل إوزّة الثلج»، فسأله

جافياك، ولكن السيدة رفضت أن تستقبله، وأوعزت إلى خدمها أن يطردوه ويبعدوه عبر جسر القلعة وإلى خلف التل. فهرب غليوم، وعندما عاد إلى غرفته انهار وشرع في البكاء: لقد ارتكب غلطة شنعاء.

وعلى مدى السنة التالية التي عجز فيها عن رؤية سيدته ذاق طعم الغياب، الغياب الرهيب الذي لا يزيد الحب إلاً لهيباً. فكتب واحدة من أجمل قصائده: «أغنيتي تصعد لتدعو بالرحمة» وأرسل عدة رسائل إلى غوليلما يشرح فيها ما صنع ويتوسل طالباً العفو.

وبعد الكثير من هذا وأمثاله، تذكَّرت غوليلما أغانيه الجميلة، وقوامه الوسيم، ومهاراته في الرقص وفي الصيد بالصقور، فوجدت نفسها تحنّ إلى إعادته. وكعقوبة له على قسوته، أمرته أن يقتلع ظفر الخنصر من يده اليمنى ويرسله إليها مع قصيدة تصف بؤسه وتعاساته.

ففعل ما طلبت. واستطاع غليوم في آخر الأمر أن يتذوَّق غاية المتعة. لذة صلح فاقت حتى تلك التي تذوقها صديقه بيير.

الدوق. «ماذا تقصد؟»، فرد تين جاو بقوله: «هل ترى الديك؟ إن عرفه رمز للطف والكياسة، ومخالبه القويَّة توحي بالقوَّة، وجرأته في مقاتلة أيّ عدوٍّ تدل على الشجاعة؛ وغريزته في دعوة الآخرين كلما حصل على الطعام تظهر نزعته لعمل الخير. وأخيراً وليس آخراً، فإن دقته في الحفاظ على مواعيد الزمن أثناء الليل تعطينا مثالاً على الصدق. غير أنه برغم هذه الفضائل الخمس، فإن الديوك تذبح يومياً لتملأ الأطباق على مائدتك. لماذا؟ لأن الديك موجود في متناول أيدينا ومن جهة أُخرى، فإن الإِوزَّة الثلجية تقطع في رحلة طيران واحدة ألف لي [نحو 350 ميلاً: المترجم] وعندما تستريح في حديقتك، فإنها تقتات على أسماكك وسلاحفك، وتنقر حبّات الدخن من محاصيلك، ورغم أنها لا تملك أيّاً من فضائل الديك الخمس، فإنك تقدرها تقديراً كبيراً بسبب ندرتها. وبما أن الأمر كذلك، فسوف أرحل بعيداً مثل الإوزّة الثلجية».

خرافات صينية قديمة
تحرير: يو هسيو صن، 1974

التفسير

في محاولة اكتشاف مسرَّات المصالحة، جرَّب غليوم دي بالون، عن غير قصد، صحة قانون الغياب والحضور. فعند بداية العلاقة، فإنك بحاجة إلى رفع درجة حضورك في عيون الآخر، فإذا غيَّبت نفسك في وقت مبكر أكثر من اللازم فقد تُنْسَى. ولكن عندما تنشغل بك عواطف حبيبك، وتتبلور مشاعر الحب فإن الغياب يثير ويلهب. كما أن عدم إعطاء سبب لغيابك يثير أكثر: إذ أن الآخر يفترض أن الخطأ منه (أو منها) وأثناء غيابك فإن خيال حبيبك يأخذ في التحليق، والخيال المستثار لا يمكن إلاَّ أن يجعل الحب أقوى. وعلى عكس ذلك، فكلما زادت ملاحقة غوليلما لغليوم كان حبه لها يتناقص. فقد صارت حاضرة أكثر من اللازم، وسهلة المنال أكثر من اللازم، ولم تترك مجالاً لخياله وتصوراته هو، إلى درجة أن مشاعره اختنقت. وعندما توقفت في النهاية

عن إرسال الرسل، استطاع أن يتنفس مرَّة أخرى، وأن يعود إلى خطته.

إن ما ينسحب، وما يصبح نادراً، يبدو فجأة أنه يستحق احترامنا وتكريمنا. أما ما يبقى مدة أطول من اللازم فيغمرنا بحضوره فإنه يجعلنا نحتقره. وفي العصور الوسطى كانت السيدات يعرِّضن فرسانهن باطراد لتجارب الحب واختباراته، فيرسلنهم في رحلات طويلة وشاقة في طلب شيء مّا ـ وكل ذلك لخلق نمط من الغياب والحضور. والواقع أنه لو لم يترك غليوم سيدته بادىء الأمر فربما كانت ستضطر إلى إرساله بعيداً عنها، وبذلك تخلق غيابها بنفسها.

إن الغياب ينقص العواطف الصغيرة ويلهب العواطف الكبرى، كما تطفىء الريح الشمعة وتلهب النار.

(لاروشفوكو، 1613 ـ 1680)

مراعاة القانون

على مدى قرون كثيرة، تحكم الآشوريون بآسيا العليا بقبضة حديدية. غير أنه في القرن الثامن قبل الميلاد، ثار عليهم أهل ميديا (إيران الشمالية الغربية الآن) فتحرَّروا منهم في آخر الأمر. فكان على الميديين أن يقيموا حكومة جديدة. وقد صمَّموا على تجنّب أي شكل من أشكال الطغيان، فرفضوا إعطاء أي رجل بمفرده سُلْطةً مطلقة، أو أن يقيموا ملكية. ولكن البلد بدون قائد سرعان ما سقط في الفوضى، وتصدَّع إلى ممالك صغيرة، وراحت كل قرية تقاتل ضد القرية الأخرى.

وفي إحدى هذه القرى كان يعيش رجل يدعى ديوسيز، بدأ ينشىء لنفسه سمعة بمعاملته المنصفة وقدرته على حل المنازعات.

وقد بلغ من نجاحه في ذلك في الحقيقة أنه سرعان ما صار يحال إليه أي نزاع قانوني ينشب في المنطقة. فتزايدت سلطته. وفي جميع أرجاء المنطقة كانت سمعة القانون قد انحطت ـ إذْ أنَّ القضاة كانوا فاسدين، ولم يعد أحد يعهد بقضيته إلى المحاكم، بل يلجأ إلى العنف

بدلاً من ذلك. وعندما شاعت أخبار حكمة ديوسيز، وعدم فساده، وحياده الذي لا يتزعزع، راحت القرى في أقاصي أرجاء المنطقة تلجأ إليه لحل مختلف أنواع القضايا، وسرعان ما أصبح قاضي تحكيم العدالة الوحيد في البلاد.

وفي أوج سلطته، قرَّر فجأةً أنه قد عانى من هذه التجربة ما فيه الكفاية. فلم يعد يريد أن يجلس في كرسي القضاء، ولا أن ينظر في القضايا، ولا أن يسوِّي المنازعات بين الأخ وأخيه، أو بين قرية وقرية. وشكا من أنه أمضى كثيراً من وقته يعالج مشاكل الناس الآخرين إلى درجة أنه أهمل أموره نفسها، فتقاعد. فهبط البلد مرة أخرى إلى حضيض الفوضى. ومع الانسحاب المفاجىء لمحكِّم قوي ذي نفوذ مثل ديوسيز، تزايدت الجريمة، وصار احتقار القانون أعظم من أي وقت مضى. وعقد الميديون من كل القرى اجتماعاً ليقرروا كيفية الخروج من محنتهم. فقال أحد زعماء القبائل: «إننا لا نستطيع الاستمرار في العيش في هذا البلد تحت هذه الظروف. دعونا نعيِّن من بيننا رجلاً يحكمنا كي نتمكَّن من العيش في ظل حكومة نظامية، بدلاً من أن نفقد بيوتنا كلها في غمرة هذه الفوضى».

وهكذا، على الرغم من كل ما عاناه الميديون تحت الطغيان الآشوري، قرَّروا إقامة ملكية وتسمية ملك. وكان الرجل الذي أرادوه أن يحكم أكثر من أي شخص آخر هو طبعاً ديوسيز ذو العقلية المنصفة. وكان إقناعه صعباً، لأنه لم يعد يريد أية علاقة باقتتال القرى وتشاحنها، ولكن الميديين توسَّلوا إليه وناشدوه ـ فبدونه هبط البلد إلى حالة من انعدام القانون. فوافق ديوسيز في آخر الأمر.

ومع ذلك فقد فرض شروطاً، منها بناء قصر هائل له، وتزويده بحراس، وبناء عاصمة يستطيع أن يحكم منها. فنفذت شروطه كلها، واستقر في قصره. وفي وسط العاصمة كان القصر محاطاً بالأسوار، بحيث لا يستطيع الناس العاديون أن يصلوا إليه أبداً. ثم وضع ديوسيز

شروط حكمه. فمنع المثول أمامه. ولم يعد أحد في البلاط الملكي قادراً على رؤيته أكثر من مرة في الأسبوع، وبإذنٍ منه فقط.

وحكم ديوسيز ثلاثة وخمسين عاماً، ووسَّع الإمبراطورية الميديّة، وأقام أسس ما صار فيما بعد يدعى بالإمبراطورية الفارسية في ظل حفيد حفيده كورش. وأثناء عهد ديوسيز تحوَّل احترام الناس له تدريجياً إلى نوع من العبادة: فأخذوا يعتقدون أنه ليس بشراً عادياً قابلاً للموت، بل هو ابن إله.

التفسير

كان ديوسيز رجلاً عظيم الطموح. فقرَّر منذ وقت مبكر أن البلد بحاجة إلى حاكم، وأنه هو رجل هذه المهمة.

وفي بلد مبتلى بطاعون الفوضى، فإن أقوى الرجال سلطة هو القاضي والمحكم. وهكذا بدأ ديوسيز حياته العملية بتعزيز سمعته كرجل لا غبار على إنصافه ولا مطعن فيه.

وفي أوج سلطته كقاضٍ أدرك ديوسيز صحة قانون الغياب والحضور: فبخدمة مثل هذا العدد الكبير من الزبائن، صار ملاحظاً ومتواجداً ومتاحاً أكثر من اللازم. ففقد الاحترام الذي كان يتمتَّع به من قبل. وصار الناس يأخذون خدماته على أنها تحصيل حاصل. فكانت الطريقة الوحيدة لاستعادة التبجيل والسلطة اللذين يريدهما هي أن ينسحب انسحاباً كاملاً ليدع الميديين يتذوَّقون كيف يكون طعم الحياة من دونه. وكما توقع فقد جاؤوه يتوسَّلون إليه أن يحكمهم.

وما أن اكتشف ديوسيز صحة هذا القانون حتى نفَّذه إلى الغاية النهائية من تحقيقه. ففي القصر الذي بناه له شعبه لم يكن يستطيع رؤيته سوى عدد قليل من رجال حاشيته، وحتى هؤلاء لم يكونوا يرونه إلاَّ نادراً. وكما كتب هيرودتس: «كانت هناك مخاطرة في أنهم إذا اعتادوا رؤيته فقد يؤدي ذلك إلى الغيرة والسخط، فتتبعهما المؤامرات. ولكن

إذا لم يره أحد، فإن الأسطورة سوف تنمو بأنه من طينة تختلف عن طينة البشر العاديين».

قال رجل لدرويش: «لماذا لا أراك مرَّات أكثر؟» فردَّ عليه الدرويش: «لأن عبارة (لماذا لم تأتِ لرؤيتي؟) أحلى في أذنيّ من عبارة (لماذا جئت مرّة أخرى؟)».

(الملاّ جامي: اقتباس من كتاب إدريس شاه المعنون: قافلة الأحلام، 1968).

مفاتيح السلطة

إن كل شيء في الدنيا يعتمد على الغياب والحضور. فالحضور القوي يجذب إليك السلطة والنفوذ والانتباه ــ فتشرق أسطع ممن حولك. ولكن هناك نقطة حتمية يصبح عندها الحضور أكثر من اللازم منتجاً لأثر عكسي: فكلما زادت رؤيتك والسماع منك تهبط قيمتك أكثر، لأنك تصبح عادة. ومهما حاولتَ أن تبدو مختلفاً فإن احترام الناس لك يقل شيئاً فشيئاً، بطريقة خفية، دون أن تدري لماذا. فيجب عليك أن تتعلَّم كيف تنسحب في اللحظة المناسبة قبل أن يطردك الناس على نحو لا شعوري. إنها لعبة الاختفاء والبحث.

وصحة هذا القانون يمكن تقديرها أسهل من أي شيء في قضايا الحب والإغواء. ففي المراحل الأولى من العلاقة يثير غياب الحبيب خيالك، مما يشكل نوعاً من الهالة حوله أو حولها. ولكن هذه الهالة تتلاشى عندما تعرف أكثر من اللازم، عندما لا يعود هناك مجال لخيالك يسرح فيه. فيصبح المحبوب شخصاً مثل كل الآخرين، يؤخذ حضوره على أنه تحصيل حاصل. ولهذا كانت غانية القرن السابع عشر الفرنسية نينودي لينكلو تنصح باستمرار ممارسة خدعة الانسحاب بعيداً عن الحبيب. وكتبت تقول: «إن الحب لا يموت أبداً من التجويع، بل إنه غالباً ما يموت من التخمة».

ففي اللحظة التي تسمح فيها لنفسك بأن تُعَامَلَ كأي شخص آخر،

يكون الأوان قد فات ـ إذْ يتم ابتلاعك وهضمك. ولمنع ذلك فإنك بحاجة إلى تجويع الشخص الآخر لرؤيتك. فأرغم الآخرين على احترامك بتهديدهم بإمكانية أن يفقدوك إلى الأبد؛ واخلق نمطاً من الحضور والغياب.

عند موتك، سيبدو كل شيء من حولك مختلفاً، فلسوف تحاط بهالة فورية من الاحترام. وسيتذكر الناس انتقادهم لك فيمتلئون بالأسى والشعور بالذنب؛ إذ أنهم يفتقدون حضورك الذي لن يعود قطّ. ولكنك غير مضطر إلى الانتظار حتى تموت: فبالانسحاب الكامل لفترة، يمكنك أن تخلق نوعاً من الموت قبل الموت الفعلي. وعندما تعود، سيكون الأمر كما لو أنك عدتَ من الموت ـ فيتعلّق بك جوّ من البعث، وسيرتاح الناس لعودتك. وهذه هي الطريقة التي جعل ديوسيز فيها نفسه ملكاً.

ولقد كان نابليون مدركاً لقانون الغياب والحضور عندما قال: «إذا شوهدتُ على المسرح كثيراً، فسيتوقف الناس عن ملاحظتي». واليوم، في عالم يغرقه الحضور من خلال طوفان من الصور، فإن لعبة الانسحاب لم تزدد إلاّ قوة وتأثيراً. فلم نعد نعرف متى ننسحب إلاّ نادراً، ولم يعد لأي شيء خصوصية حميمة. ولذا فإننا نشعر بالرهبة والهيبة إزاء أي شخص قادر على الاختفاء اختياراً. ولقد أوجد الكاتبان القصصيان جيروم ديفيد سالنجر وتوماس بينتشون أتباعاً يقلدونهم بشكل طقوسي في معرفة توقيت الاختفاء.

ولهذا القانون جانب آخر معروف أكثر في الحياة اليومية ولكنه يوضح صحته أكثر، وهو قانون الندرة في علم الاقتصاد. فعندما تسحب شيئاً من السوق، تخلق له قيمة فورية. ففي هولندا القرن السابع عشر، أرادت الطبقات العليا أن تجعل الزنبقة شيئاً أكثر من مجرَّد وردة جميلة، وأرادوها أن تكون نوعاً من الرمز للمكانة. فجعلوا هذه الوردة نادرة، بل يكاد الحصول عليها يكون مستحيلاً، وبذلك أشعلوا ما سمِّي فيما بعد

بهوس الزنبق. وصارت الزنبقة الواحدة ذات قيمة تعادل وزنها ذهباً. وبالطريقة نفسها في القرن العشرين، كان بائع اللوحات الفنية جوزيف دوفين يصرّ على جعل اللوحات التي يبيعها نادرة يتيمة إلى أقصى حد ممكن. ولكي يبقي أسعارها مرتفعة ومكانتها عالية، كان يشتري مجموعات كاملةً ويخزنها في قبوه. فصارت اللوحات التي يبيعها أكثر من لوحات مجرَّدة، صارت أشياء سحرية معبودة، وزادت قيمتها بسبب ندرتها. وقال ذات مرّة: «بإمكانك الحصول على كل الصور التي تريدها بخمسين ألف دولار لكل قطعة ـ فهذا سهل. أما الحصول على صور لقاء ربع مليون دولار لكل قطعة، فهذا يحتاج إلى عمل خارق!»

صـــورة:
الشمس: لا يمكن تقديرها
إلاّ عن طريق غيابها. فكلما طالت
أيام المطر زاد التشوق إلى الشمس. ولكن
أيام الحر إذا زادت عن حدها تجعل حضور
الشمس طاغياً. تعلَّم أن تجعل نفسك تغيب
واجعل الناس هم الذين يطالبون بعودتك.

امدد قانون الندرة ليشمل مهاراتك. واجعل ما تقدمه إلى العالم نادراً ويصعب العثور عليه. وعندئذ تزيد قيمته على الفور.

وتأتي دائماً لحظة يبقى فيها ذوو السلطة في مراكزهم مدة أطول مما هو مُرَحَّبٌ به، فنشعر بالملل منهم، ونفقد احترامنا لهم، ونراهم كأناس لا يختلفون عن باقي البشر، أي أننا في الواقع نراهم أسوأ من غيرهم لأننا حتماً نقارن مكانتهم الحالية في نظرنا بمكانتهم السابقة. فهناك فن معرفة وقت التقاعد. فإذا تم بطريقة صحيحة، فإنك تستعيد الاحترام الذي فقدته، وتحتفظ بجزء من سلطتك.

كان أعظم حكام القرن السادس عشر هو تشارلس الخامس ملك إسبانيا، وإمبراطور آل هابسبرغ الذي حَكَمَ إمبراطورية شملت في وقتٍ مّا كثيراً من أوروبا والدنيا الجديدة. ومع ذلك ففي أوج سلطته في سنة 1557، تقاعد وانسحب إلى دير في يوسطه. وأُسِرَت أوروبا كلها بانسحابه المفاجىء، وأخذ الناس الذين كانوا يكرهونه ويخافونه يسمونه فجأةً عظيماً. بل لقد راحوا يرونه قديساً. وفي العصر الحديث لم تحصل نجمة السينما غريتا غاربو على إعجابٍ أكثر مما جاءها عندما تقاعدت في سنة 1941. ورأى البعض أن غيابها جاء مبكراً أكثر من اللازم ـ فقد كانت في منتصف الثلاثينات من عمرها ـ ولكنها كانت من التعقل بحيث فضَّلت المغادرة حسب شروطها هي، بدلاً من الانتظار حتى يسأم جمهورها منها.

اجعل نفسك متاحاً موجوداً وسوف تتلاشى هالة السلطة التي خَلَقْتَهَا حول نفسك. ولكن اقلب اللعبة رأساً على عقب: واجعل نفسك أقل توافراً وتواصلاً مع الناس، وسوف تزيد قيمة حضورك.

الشاهد:
استخدم الغياب لخلق
الاحترام والتوقير. فإن الغياب
يضخم الشهرة إذا كان الحضور يقلل منها.
والرجل الذي يعتبر عند غيابه أسداً يصبح عند
حضوره مبتذلاً وسخيفاً. والمواهب تفقد بريقها إذا
صارت معروفة لنا أكثر من اللازم، لأن القشرة
الخارجية للذهن ترى بسهولة أكثر مما يُرَى لبّه
الغنيّ الداخلي. وحتى العبقري البارز يستفيد من
التقاعد كي يحترمه الناس، وكي تجعله
الأشواق التي يثيرها غيابه موقراً.

(بلتازار غراسيان، 1601 ـ 1658)

الانقلاب

لا ينطبق هذا القانون إلاً عند الوصول إلى مستوى معيَّن من السلطة. ولا تأتي الحاجة إلى الانسحاب إلاً بعد أن تكون قد رسخت حضورك؛ غادر قبل الأوان، ولن تزيد في احترامك، بل ستتعرَّض ـ ببساطة ـ للنسيان. فعند دخولك إلى مسرح العالم للمرة الأولى، اخلق صورة متميزة يمكن التعرّف عليها واستذكارها، ومشاهدتها في كل مكان. وإلى أن تتحقق هذه المكانة، يظل الغياب خطراً ـ إذْ أنه يطفىء اللهب بدلاً من أن يجعله يتوهج.

وبالمثل فإن الغياب في مجال الحب والإغواء لا يكون فعالاً إلا بعد أن تكون قد طوَّقتَ الشخص الآخر بصورة، بحيث يراك (أو تراك) في كل مكان. فكل شيء يجب أن يُذكِّر حبيبك بحضورك، بحيث أنك حينما تختار أن تبتعد بالفعل فإن حبيبك سيظل يفكِّر بك على الدوام. ويراك بعين عقله (أو تراك بعين عقلها) على الدوام كذلك.

تذكَّر: في البداية لا تجعل نفسك نادراً، بل متواجداً في كل مكان. ذلك أن ما يُرَى يُقَدَّر ويُحَبُّ هو وحده الذي سَيُفْتَقَدُ عند غيابه.

القانون
17

ابقِ الآخرين في رعب مقيم: كرّس جواً من استحالة التنبؤ بحركاتك

الحكم

البشر أبناء العادة، وفيهم تعطش لا يرتوي لرؤية ما هو معروف ومألوف في أعمال الناس الآخرين. وأن إمكانية التنبؤ بحركاتك تعطيهم إحساساً بالسيطرة. فاقلب الموائد، وتعمَّد أن تكون شخصاً يستحيل التنبؤ بحركاته، إذ إن السلوك الذي يبدو بلا تجانس ولا هدف سيبقيهم بلا توازن، فيرهقون أنفسهم في محاولة توضيح تحركاتك. وإذا أُخِذَت هذه الاستراتيجية إلى حدها الأقصى، فإنها تستطيع أن تخيف وتُرْهِب.

مراعاة القانون

في أيار/مايو سنة 1975، كان بطل الشطرنج بوريس سباسكي ينتظر بقلقٍ منافِسَهُ بوبي فيشر في العاصمة الآيسلندية ريكجافيك. وكان من المقرر أن يلتقي الرجلان من أجل بطولة العالم في الشطرنج، ولكن فيشر لم يصل في الوقت المحدَّد، فكانت المباراة معلَّقة. وكانت لدى فيشر مشاكل تتعلَّق بحجم نقود الجائزة، ومشاكل تتعلَّق بطريقة توزيع تلك النقود، ومشاكل تتعلَّق بالسَّوْقيات التعبوية لإقامة المباراة في آيسلندا. وكان من الممكن أن ينسحب في أي لحظة.

وحاول سباسكي أن يتذرَّع بالصبر. وقد شعر رؤساؤه الروس أن فيشر كان يهينه، وطلبوا منه أن ينسحب، ولكن سباسكي كان يريد مباراته. كان يعرف أنه قادر على تحطيم فيشر، ولم يكن يريد لأي شيء أن يفسد عليه أعظم انتصار في حياته الاحترافية. وعند تأخر فيشر عن الموعد قال سباسكي لرفيق له: «وهكذا يبدو أن كل عملنا قد لا ينتج عنه شيء». فأجابه: «ولكن ماذا نستطيع أن نفعل؟ إنه دور بوبي ليقوم بحركته. فإذا جاء فإننا سنلعب، وإذا لم يأتِ فإننا لن نلعب. فالرجل المستعد للانتحار هو الذي بيده زمام المبادرة».

وأخيراً وصل فيشر إلى ريكجافيك، ولكن المشاكل استمرت، وكذلك التهديد بالإلغاء. فقد كره القاعة التي كانت المباراة ستقام فيها، وانتقد الإضاءة، وتذمَّر من ضجة آلات التصوير، بل لقد كره حتى

الكرسيين اللذين كان سيجلس عليهما هو وسباسكي. فأخذ الاتحاد السوفييتي زمام المبادرة وهدَّد بسحب الرجل الذي يمثله.

وبدا أن هذه الخدعة فعلت فعلها؛ فبعد كل أسابيع الانتظار، والمفاوضات التي لا تنتهي، والتي تثير الأعصاب، وافق فيشر على اللعب. فشعر الجميع بالارتياح. ولم يكن أحد مرتاحاً أكثر من سباسكي. ولكن في اليوم الذي كان سيجري فيه التقديم الرسمي، وصل فيشر متأخراً جداً. وفي اليوم الذي تقرَّر أن تبدأ فيه «مباراة القرن» تأخر فيشر كذلك. غير أن العواقب في هذه المرة ستكون وخيمة. فإذا وصل متأخراً **أكثر من اللازم** فسيخسر المباراة الأولى. فما الذي كان يجري؟ هل كان يلعب نوعاً من لعبة ذهنية؟ أم هل كان بوبي فيشر خائفاً من بوريس سباسكي؟ وبدا للأساتذة الكبار المتجمعين، ولسباسكي أن هذا الفتى الشاب من بروكلين قد أصابته حالة رهيبة من الاهتياج العصبي البالغ. وفي الساعة الخامسة وتسع دقائق ظهر فيشر، قبل دقيقة واحدة بالضبط من إلغاء المباراة.

وللمباراة الأولى في مهرجان شطرنجي أهمية حسَّاسة، إذْ أنها تحدِّد الإيقاع على امتداد الشهور التالية. وهي على الأغلب صراع بطيء وهادىء، يهيء فيه اللاعبان نفسيهما للحرب ويحاول كل منهما قراءة خطط الآخر. بَيْدَ أن هذه اللعبة كانت مختلفة. فقد قام فيشر بحركة رهيبة في وقت مبكر، لعلها كانت الأسوأ في تاريخ حياته العملية. وعندما وضعه سباسكي في موقف دفاعي ميؤوس منه، بدا أنه سيستسلم. ومع ذلك كان سباسكي يعلم أن فيشر لا يستسلم قطّ، وحتى وهو يواجه عبارة «كش مات» كان يقاتل حتى النهاية المريرة، وبذلك يرهق خصمه. أما في هذه المرة فقد بدا مستسلماً. غير أنه انطلق فجأة في حركة جريئة جعلت الغرفة تئزّ بأصوات التعجب. وصدمت الحركة سباسكي، ولكنه صحا من الصدمة واستطاع أن يكسب اللعبة. ولكن لم يستطع أحد أن يحدِّد ما الذي كان ينويه فيشر. فهل خسر تلك الجولة

الأولى عمداً؟ أم هل تسرَّع وارتبك؟ هل فقد توازنه؟ بل هل جُنّ، كما ظنّ البعض؟

وبعد هزيمته في اللعبة الأولى، عاد فيشر إلى التذمّر بصوت أعلى حول الغرفة، وآلات التصوير، وكل شيء آخر. كما أنه فشل في الظهور في الوقت المناسب للعبة الثانية. وفي هذه المرة سئم منه منظمو المباراة فحكموا عليه بخسارتها. وبذلك خسر لعبتين في مقابل لا شيء. وهذا مركز لم يسبق أن عاد منه أحد قطّ ليفوز ببطولة شطرنج. ومع ذلك ففي الجولة الثالثة، كما يتذكّرها جميع الذين شهدوها، كانت في عين فيشر نظرة شرسة، وكان واضحاً أنها نظرة أقلقت سباسكي. ورغم الحفرة التي حفرها فيشر لنفسه، فقد بدا واثقاً من نفسه للغاية. وارتكب فعلاً ما بدا كأنه غلطة أخرى، كما فعل في الجولة الأولى ـ ولكن جوّ الثقة بالنفس الذي أظهره جعل سباسكي يشم رائحة فخ. ومع ذلك، ورغم شكوك الروسي فإنه لم يستطع تحديد الفخ، وقبل أن يدرك ما الذي جرى فاجأه فيشر بحركة «كش مات». والواقع أن تحركات فيشر غير المألوفة قد زعزعت أعصاب خصمه تماماً. وفي نهاية تلك اللعبة، قفز فيشر واندفع خارجاً وهو يصرخ لحلفائه ويدق راحة يده بقبضة يده الأخرى: «إنني أسحقه بقوة وحشية!».

وفي الجولات التالية قام فيشر بحركات لم يرها منه أحد قبل ذلك، حركات لم تكن معروفة عنه في أسلوبه. وبعد ذلك راح سباسكي يرتكب أخطاء. وبعد خسارة الجولة السادسة، بدأ يبكي. فقال أحد الأساتذة الكبار: «بعد هذا، يتعيَّن على سباسكي أن يسأل نفسه عما إذا كان من السليم أن يعود إلى روسيا». وبعد الجولة الثامنة قرَّر سباسكي أنه قد عرف ما الذي كان يجري. كان بوبي فيشر ينوِّمه مغناطيسياً؛ فقرَّر أن لا ينظر إلى عيني فيشر. ومع ذلك فقد خسر.

وبعد الجولة الرابعة عشرة دعا إلى مؤتمر للموظفين وأعلن: «إن هناك محاولة تجري للسيطرة على ذهني»، وتساءل عما إذا كان عصير

البرتقال الذي شربه اللاعبان على طاولة الشطرنج قد احتوى على دواءٍ مّا. وربما كانت هناك مواد كيميائية تضخ في الهواء. وأخيراً خرج سباسكي إلى العلن، فاتهم فريق فيشر بوضع شيء في الكراسي يؤثر على سباسكي ويغيِّر رأيه. ووضعت لجنة الأمن العام (الـ كي. جي. بي. في حالة تأهب: لقد كان بوريس سباسكي يحرج الاتحاد السوفييتي!

وتم تفكيك الكرسيين وتصويرهما بالأشعة السينية (×). ولم يعثر الكيميائي المختص على أي شيء غير عادي فيهما. والحقيقة أن الشيء الوحيد الذي عثر عليه أي شخص في أي مكان لم يكن سوى ذبابتين ميِّتتين في مكان تركيب الأضواء. وبدأ سباسكي يشكو من هلوسات، وحاول أن يستمر في اللعب، ولكن ذهنه أخذ يتحلَّل وينفصل عما حوله، فلم يعد قادراً على الاستمرار. وفي 2 أيلول/ سبتمبر، استسلم. ورغم أنه كان ما يزال شاباً نوعاً مّا، فإنه لم يتعافَ من هذه الهزيمة.

التفسير

في المباريات السابقة بين فيشر وسباسكي، لم يكن أداء فيشر جيِّداً، فقد كانت لسباسكي قدرة خارقة على قراءة خطط خصمه الاستراتيجية واستخدامها ضده. وكان سباسكي قابلاً للتكيّف وصبوراً، يبني هجمات تدحر خصمه، ليس في سبع حركات، بل في سبعين. وكان يهزم فيشر في كل مرة يلعبان فيها، لأنه كان يرى بعيداً إلى الأمام مسبقاً. فكان خبيراً نفسياً لامعاً لم يفقد سيطرته قطّ. وقد قال عنه أحد أساتذة الشطرنج: «إنه لا يكتفي بالبحث عن أفضل حركة، بل يبحث أيضاً عن الحركة التي ستزعج خصمه وتقلقه».

غير أن فيشر أدرك في آخر الأمر أن هذا كان واحداً من أسرار نجاح سباسكي. فقد كان يستفيد من سهولة التنبؤ بحركاتك، فيدحرك في لعبتك نفسها. وكان كل شيء فعله فيشر في مباريات البطولة محاولة لكسب زمام المبادرة إلى جانبه وإبقاء سباسكي فاقداً للتوازن. وكان من الواضح أن الانتظار الذي لا ينتهي قد ترك أثراً على نفسية سباسكي. غير

أن أقوى التأثيرات جاءت من أغلاط فيشر المتعمدة، وظهوره بمظهر من لا يملك خطة استراتيجية واضحة. والواقع أنه كان يفعل كل ما في استطاعته لخلط أنماطه القديمة بصورة مشوَّشة، حتى ولو أدَّى ذلك إلى خسارة المباراة الأولى، وفقدان حقه في الثانية من خلال تغيبه عنها.

وكان سباسكي معروفاً بهدوئه ورباطة جأشه وتعقله. ولكنه للمرة الأولى في حياته لم يستطع أن يفهم خصمه، فراح يذوب بالتدريج حتى صار في آخر الأمر هو الذي يبدو مجنوناً.

يحتوي الشطرنج على خلاصة جوهر الحياة على نحو مركَّز وكثيف: أولاً لأنك لكي تفوز يجب أن تكون صبوراً وبعيد النظر للغاية، وثانياً لأن اللعبة مبنية على أنماط وعلى عواقب كاملة لحركات تمَّت من قبل وسوف تجري مرة أخرى، بتحويرات طفيفة، في أية مباراة لوحدها. فيحلّل خصمك الأنماط التي تلعبها ويستخدمها في محاولة التنبؤ بحركاتك. وإن عدم السماح له بشيء قابل للتنبؤ به ليبني خطته على ذلك التنبؤ سوف يعطيك ميزة كبرى. وفي الشطرنج، كما في الحياة، عندما يعجز الناس عن فهم ما تفعل، فإنهم يبقون في حالة رعب، ينتظرون، غير متأكدين، ومحتارين مشوَّشين.

> إن الحياة في البلاط لعبة شطرنج جادة كئيبة تتطلَّب منا أن نعبِّىء قطعنا ونحشد بطارياتنا، ونرسم خطة، ونتابعها، ونتفادى خطة خصمنا، غير أن من الأفضل أحياناً أن نقوم بالمخاطرات، وأن نلعب بأكثر الحركات تقلباً وأصعبها إمكانية للتنبؤ بها.
>
> (جان دي لا برويير، 1645 ــ 1696)

مفاتيح السلطة

لا شيء يثير الرعب أكثر مما هو مفاجىء ويصعب التنبؤ به. ولهذا تخيفنا الزلازل والأعاصير كثيراً، لأننا لا نعرف متى تقع. وعندما تحدث واحدة منها، فإننا ننتظر حدوث التالية ونحن مذعورون. وهذا ــ إلى حدٍّ

أقل ـ هو تأثير السلوك الإنساني علينا عندما يكون غير متوقع ويصعب التنبؤ به.

إن الحيوانات تتصرَّف وفق أنماط ثابتة. ولذا فنحن قادرون على صيدها وقتلها. والإنسان هو الكائن الوحيد القادر على تغيير سلوكه عن وعي وقصد، وعلى الارتجال والتغلب على وزن النمط الرتيب والعادة. ومع ذلك فإن معظم الناس لا يدركون هذه القدرة أو القوة. فهم يفضِّلون الراحة في الروتين المألوف، وفي الاستسلام للطبيعة الحيوانية التي تجعلهم يكرِّرون الأفعال الإجبارية نفسها مرة بعد أخرى. وهم يفعلون ذلك لأنه لا يتطلَّب جهداً، ولأنهم يعتقدون خطأ أنهم إذا لم يقلقوا الآخرين فسوف يتركهم الآخرون وشأنهم.

إفهم: إن الشخص ذا السلطة يسرّب إلى النفوس نوعاً من الخوف بتعمّده إقلاق مَنْ حوله لإبقاء زمام المبادرة إلى جانبه. فأنت تحتاج أحياناً إلى الضرب بلا إنذار، لجعل الآخرين يرتجفون عندما تأتيهم الضربة من حيث لا يحتسبون. وهذا إجراء ظل ذوو السلطة يتخذونه طوال قرون.

كان فيليبو ماريا، آخر دوق لميلانو من آل فيسكونتي في إيطاليا القرن الخامس عشر، يتعمد عن وعي وقصد أن يفعل عكس ما يتوقعه منه الجميع. وعلى سبيل المثال كان ربما أغدق اهتماماً كبيراً ومفاجئاً على أحد رجال حاشيته، ثم عندما يتوقع ذلك الرجل ترفيعاً إلى منصب أعلى، يبدأ الدوق يعامله بمنتهى الاحتقار. فيحتار الرجل وربما يغادر البلاط، وعندئذ يستدعيه الدوق ويبدأ في معاملته بالحسنى مرة ثانية. فتتضاعف حيرة الرجل ويتساءل عما إذا كان توقعه للترفيع قد صار واضحاً إلى حد مؤذٍ للدوق، ويبدأ في التصرف كما لو أنه لم يعد يتوقع مثل ذلك التكريم. وعندئذ يلومه الدوق على نقص طموحه ويبعده عنه.

وكان سر التعامل مع فيليبو ماريا بسيطاً: لا تفترض أنك تعرف ماذا يريد. لا تحاول أن تحدس لتحزر ما الذي يسره؛ وإياك أن تبرز

إرادتك؛ وعليك فقط أن تستسلم لإرادته هو. ثم انتظر لترى ما سيحدث. ففي وسط الحيرة وانعدام اليقين اللذين يخلقهما الدوق، كان يحكم متميزاً غير منازَع، ومتمتعاً بالسلام.

إن استحالة التنبؤ بالحركة هي في الغالب الأعم خطة السيد أو الأستاذ. ولكن المحكوم أو الضحية يستطيع أيضاً أن يستخدمها بنجاح كبير ومؤثر. فإن وجدت نفسك محاصراً أو تواجه خصوماً يفوقونك عدداً، قم بسلسلة من الحركات غير المتوقعة، فبذلك تحير أعداءك إلى درجة أنهم يتراجعون أو يرتكبون خطأً في الحركة التكتيكية.

في ربيع سنة 1862، أثناء الحرب الأهلية الأميركية، كان الجنرال ستونوول جاكسون، ومعه قوة من 4600 من الجنود الانفصاليين يعذّبون قواتٍ اتحاديَّةً أكثر منهم في وادي شيناندواه. وفي تلك الأثناء، وفي مكان غير بعيد، كان الجنرال جورج برينتون ماكليلان على رأس قوة من تسعين ألفاً من الجنود الاتحاديين يزحف جنوباً من مدينة واشنطن في مقاطعة كولومبيا كي يحاصر ريتشموند (بولاية فيرجينيا) عاصمة الانفصاليين. وبينما كانت أسابيع الحملة تمر تَتْرَى، ظل جاكسون يقود جنوده مراراً خارج وادي شيناندواه، ثم يعيدهم إليه.

ولم يكن لحركاته هذه معنى، فهل كان يستعد للمساعدة في الدفاع عن ريتشموند؟ هل كان يزحف على واشنطن بعد أن تركها غياب ماكليلان بلا دعم؟ أكان متجهاً إلى الشمال لإحداث ذعر ودمار هناك؟ ولماذا تتحرك قواته في دوائر؟

وأدت تحركات جاكسون التي لا تفسير لها إلى جعل قادة الاتحاد يؤجلون الزحف على ريتشموند ريثما يتفهمون نواياه. وفي هذه الأثناء تمكن الجيش الجنوبي من ضخ التعزيزات في المدينة. فتحولت المعركة التي كان يمكن أن تسحق الانفصال إلى مأزق جمود. وقد استخدم جاكسون هذه الخطة التكتيكية مرة بعد أخرى عندما كان يواجه قوات متفوقة. وكان يقول: «شوِّش العدو وحيِّره وضلله وفاجئه دائماً إن كان

ذلك ممكناً. . . فمثل هذه الخطط تنجح في كل وقت، ورُبَّ جيش صغير يدمّر بذلك جيشاً كبيراً».

ولا يقتصر تطبيق هذا القانون على الحرب، بل يشمل أوضاع الحياة اليومية كذلك. فالناس يحاولون دائماً أن يقرأوا الدوافع الكامنة وراء أعمالك، وأن يستخدموا قدرتهم على التنبؤ بها ضدك. قُمْ بحركة لا تفسير لها أبداً وعندئذ تضعهم في موقف الدفاع، لأن عدم فهمهم لك يثير أعصابهم فيفقدهم رباطة جأشهم. وفي مثل هذه الحالة تستطيع أن تخيفهم بسهولة.

وقد لاحظ بابلو بيكاسو ذات مرة: «إن أفضل الحسابات هو غياب الحسابات. فعند حصولك على مستوى معين من الاعتراف فإن الآخرين يتصورون أنك عندما تفعل شيئاً، فإنما تفعله لسبب ذكي. ولذلك فإن من الحمق أن تخطط لحركاتك بدقة وعناية سلفاً أكثر من اللازم. بل إن من الأفضل لك أن تتصرف بشكل متقلب».

وقد عمل بيكاسو فترة مع بائع التحف الفنية بول روزنبرغ. وفي البداية أعطاه قدراً لا بأس به من الحرية في التعامل مع لوحاته، وذات يوم، وبلا سبب ظاهر، قال له إنه لن يعطيه أي عمل له ليبيعه. وكما أوضح بيكاسو، فإن روزنبرغ «سيقضي الساعات الثماني والأربعين التالية محاولاً أن يفهم السبب: هل سأحتفظ بالأشياء لبائع آخر؟ وبينما أستمر أنا في العمل والنوم، يمضي روزنبرغ وقته يضرب أخماساً في أسداس. ويعود إليّ بعد يومين وأعصابه متشابكة، وهو قلق، ليقول لي: «وبعد كل شيء يا صديقي، فإنك لن تتخلى عني إذا عرضت عليك كذا [ويسمي رقماً أعلى بكثير من السابق] لتلك اللوحات، بدلاً من الثمن الذي اعتدت على دفعه لك. أليس كذلك؟»».

إن صعوبة التنبؤ ليست سلاحاً للإرهاب فقط. إذ أن خلط أنماطك وتغييرها على أساس يومي بين حين وآخر سوف يثير حركة من حولك وينشط اهتمام الناس فيبدأون بالحديث عنك، ويعزون إليك دوافع

وتوضيحات لا علاقة لها بالحقيقة، غير أنها تبقيك ماثلاً في أذهانهم باطراد. وفي آخر الأمر فإنه كلما ازداد ظهورك بمظهر المتقلب، زاد الاحترام الذي تكنزه. فلا يتصرفُ بطريقة متوقعة سهلة التنبؤ سوى الذين يريدون أن يظلوا خاضعين في مركز ثانوي إلى النهاية.

صورة: الإعصار: ريحٌ لا يمكن التنبؤ
بها. تقلبات مفاجئة في مقياس الضغط
الجوي. تغيرات لا تفسير لها في
الاتجاه والسرعة. ولا يوجد
دفاع: فالإعصار يزرع
الرعب والحيرة.

الشاهد: الحاكم المتنور غامض إلى درجة أنه يبدو غير مستقر في أي مكان، وصعب التفسير إلى درجة أنه لا يبحث عنه أحد، فهو مستريح في السكون وعدم العمل في الأعالي، بينما وزراؤه يرتجفون في الأسفل. (هان - في - تزو، فيلسوف صيني من القرن الثالث قبل الميلاد).

الانقلاب

قد تعمل سهولة التنبؤ بحركاتك لمصلحتك في بعض الأحايين: فمن خلال خلق أنماط يعرفها الناس ويرتاحون لها، تستطيع أن تهدهدهم حتى يناموا. فقد هيأوا كل شيء حسب أفكارهم الجاهزة المسبقة عنك. وهذا شيء يمكنك استخدامه بطرق عديدة. فهو أولاً: يقيم لك ستارة من دخان تكون واجهة مريحة تنفذ من ورائها أعمالاً خادعة. وثانياً: يتيح لك فرصاً نادرة لعمل شيء معاكس للنمط تماماً، فتزعزع استقرار خصمك بعمق إلى درجة أنه يسقط على الأرض بدون أن تدفعه.

في سنة 1974، كان من المقرر أن يخوض محمد علي، وجورج فورمان، مباراة ملاكمة لبطولة العالم في الوزن الثقيل. وكان الجميع يعرفون ما الذي سيحدث. سيحاول جورج فورمان الكبير أن يسدد ضربة قاضية بينما يتراقص محمد علي من حوله، حتى يرهقه. فتلك كانت طريقة عليّ في القتال ونمطه. ولم يغيرها خلال أكثر من عشرة أعوام. ولكنها في هذه الحالة ظهرت وكأنها تعطي ميزة لفورمان: وكانت له ضربة مدمرة، فإذا انتظر فإن علياً سيأتي إليه إن عاجلاً أم آجلاً. غير أن علياً، أستاذ التخطيط الاستراتيجي، كانت لديه خطط أخرى: ففي المؤتمرات الصحفية التي سبقت المباراة الكبرى، قال إنه سيغير أسلوبه ويتبادل الضربات القاسية مع فورمان حتى النهاية. ولم يصدق أحد ذلك لمدة ثانية واحدة. وكان فورمان أقل الناس تصديقاً. فتلك الخطة من جانب عليّ ستكون انتحاراً؛ فعليّ كان يلعب دور الكوميدي المضحك كالمعتاد ثم، قبل المباراة، قام مدرب علي بإرخاء الحبال حول الحلبة. وهذا شيء يفعله المدرب إذا كان ملاكمه ينوي المصابرة والمطاولة في معركة مواجهة. ولكن لم يصدق أحد هذه الخدعة؛ فلا بد أنها كانت مصيدة.

ولذهول الجميع، عمل عليٌّ بالضبط ما قال إنه سيعمله. فبينما كان فورمان ينتظر منه أن يتراقص حوله، توجه إليه عليّ وراح يتبادل معه اللكمات في سجال. وبذلك قلب استراتيجية خصمه رأساً على عقب. واحتار فورمان، فانتهى به الأمر إلى إرهاق نفسه، لا في مطاردة عليّ بل في توجيه اللكمات بصورة وحشية، وفي تلقي اللكمات المضادة أكثر فأكثر. وأخيراً سدد له عليّ لكمة تقاطع دراماتيكية مفاجئة بيمناه طرحته أرضاً. إن عادة الافتراض بأن سلوك شخصٍ مّا سينطبق على أنماطه السابقة تبلغ من رسوخها أنه لم يكفِ لقلبها حتى تصريح عليّ الذي أعلن فيه أنه سيغير استراتيجيته. وهكذا سار فورمان برجليه إلى الفخ، الفخ الذي قيل له أن يتوقعه.

تحذير: إن صعوبة التنبؤ قد تعمل ضدك أحياناً، وخصوصاً إذا كنت في موقع ثانوي. فهناك أوقات يكون من الأفضل ترك الناس يشعرون بالراحة والاستقرار حولك بدلاً من إزعاجهم أو إقلاقهم. فإن صعوبة التنبؤ إذا زادت عن حدها قد يراها الناس علامة على عدم الحسم، أو حتى مؤشراً على مشكلة نفسية أخطر. فالأنماط قوية. وقد ترعب الناس بتمزيقها. ومثل هذه القوة ينبغي ألا تستخدم إلاً بحكمة وتعقّل.

القانون

18

لا تَبْنِ قلاعاً لحماية نفسك ـ فالعزلة خطرة

الحكم

العالم مكان خطر والأعداء في كل مكان. وعلى الجميع أن يحموا أنفسهم. وتبدو القلعة هي الأسلم. ولكن العزلة تعرّضك لأخطار أكثر من تلك التي تحميك منها ـ فهي تعزلك عن معلومات ثمينة؛ كما أنها تجعلك بارزاً للعيان وهدفاً سهلاً. وأفضل من ذلك أن تتجول بين الناس، وتجد حلفاء، وتختلط. فأنت محمي من أعدائك بجمهور الناس.

انتهاك القانون

كان شْثِين شِيه هْوَانْغ تي، أول إمبراطور للصين (221 ـ 210 ق .م.) أقوى رجل في زمانه. فإمبراطوريته كانت أوسع وأقوى من إمبراطورية الاسكندر الأكبر. وقد قهر جميع الممالك المحيطة بمملكته (شْثين) ووحَّدها في مملكة كبيرة تدعى الصين. ولكن في السنوات الأخيرة من حياته، لم يكن يراه إلاَّ قليلون، إن كان بإمكان أي أحد أن يراه أصلاً. وكان ينام في غرفة مختلفة عن سابقتها كل ليلة. وكان أي واحد تقع عينه عليه ولو بدون قصد، تقطع رأسه على الفور. ولم يكن يعرف أماكن تواجده إلاَّ حفنة من الرجال، فإذا كشفوا ذلك لأي أحد، فإنهم يُقْتَلون أيضاً.

لقد صار الإمبراطور يخاف الاتصال الإنساني إلى درجة أنه عندما كان يضطر لمغادرة القصر كان يسافر متنكراً بعناية كي لا يعرف أحد هويته. وفي رحلة كهذه عبر الأقاليم، مات فجأة. فحمل جثمانه وأعيد إلى العاصمة في عربة الإمبراطور مع عربة محملة بالسمك المملح تسير خلفها لإخفاء رائحة الجثة المتعفنة. فلم يقدر لأحد أن يعرف بموته. لقد مات وحيداً، بعيداً عن زوجاته، وأسرته، وأصدقائه، ورجال حاشيته، ولم يصحبه سوى وزير وحفنة من الخِصْيان.

التفسير

بدأ شيه هوانغ تي كملك لشْثِين، وكان مقاتلاً لا يخاف، وله

مسرحية الموت الاحمر

كان «الموت الأحمر» قد خرَّب البلاد زمناً طويلاً فلم يكن هناك وباء قاتل ولا بشع بهذا القدر من قبلُ أبداً وكان الدم تجسيده وخاتمه. احمرار الدم، والرعب الناجم عنه. فكانت هناك آلام حادَّة، ثم دوار مفاجىء، فنزيف راعف وفير من المسامات، مع شعور بالانحلال... وكانت النوبة كلها، وتطورها ونهاية المرض بالكامل تقع في غضون نصف ساعة.

ولكن الأمير بروسبيرو كان سعيداً وباسلاً وفطناً. وعندما هلك نصف سكان ممتلكاته، استدعى ألفاً من الفرسان والسيدات الأصحَّاء الأخلياء في بلاطه، وتراجع بهم إلى عزلة عميقة في أحد أديرته المحصَّنة. وكان هذا الدير بناءً واسعاً ورائعاً من نتاج ذوق الأمير الغريب والمهيب في الوقت نفسه. ويحيط به ويحتضنه جدار قوي شاهق. وكان في هذا الجدار بوّابات من الحديد. وبعد أن دخل رجال الحاشية جيء بأفران ومطارق ضخمة وتمّ تلحيم كل رتاج وسدادة قفل.

طموح جامح لا يحدّه شيء، وقد وصفه كُتَّاب ذلك العصر بأنه رجل ذو «أنف نحيل، وعينين تشبهان شعّتين، وصوت كصوت ابن آوى، وقلب نمر أو ذئب». وكان باستطاعته أن يظهر الرحمة أحياناً، ولكنه في أغلب الأحيان كان «يبتلع الرجال بلا تردد». فقد قهر المقاطعات المحيطة بمقاطعته عن طريق الخداع والعنف، وأوجد الصين، فصنع أمة واحدة وثقافة واحدة من أمم وثقافات شتى؛ وحطم النظام الإقطاعي. ولإبقاء الرقابة على الكثيرين من أفراد الأسر المالكة المبعثرين في أرجاء الممالك التابعة لمملكته، نقل مائة وعشرين ألفاً منهم إلى العاصمة، حيث أسكن أهم رجال الحاشية في قصر هْسِين ـ يانغ الشاسع. وعزز الأسوار الكثيرة على الحدود، وبنى منها سور الصين العظيم. ووحد قوانين البلاد، ولغتها المكتوبة، وحتى حجم عجلات عرباتها.

غير أن الإمبراطور الأول، كجزء من عملية التوحيد هذه، أعلن تحريم كتابات كونفوشيوس وتعاليمه، وهو الفيلسوف الذي كانت أفكاره وحياته الأخلاقية قد أصبحت من الناحية الفعلية شيئاً كالدين في الثقافة الصينية. وبناء على أمر شيه هوانغ تي، أحرقت آلاف الكتب التي لها علاقة بكونفوشيوس. وتقرر قطع رأس كل من يستشهد بكلام كونفوشيوس. وأوجد هذا عداوات كثيرة للإمبراطور، فصار خائفاً باستمرار، بل أصيب بجنون الارتياب. وتزايدت حالات الإعدام. ولاحظ الكاتب المعاصر هان ـ في ـ تزو أن «ملك شْيِين كان منتصراً على مدى أربعة أجيال، ومع ذلك يعيش في رعب مقيم وخوف من الدمار».

وبينما انسحب الإمبراطور أعمق فأعمق إلى داخل القصر لحماية نفسه بدأ يفقد سيطرته على المملكة ببطء. وراح الخصيان والوزراء يصوغون البرامج السياسية بدون موافقته، وحتى بدون علمه؛ وأخذوا يتآمرون عليه أيضاً. وانتهى به الأمر إلى أن أصبح إمبراطوراً بالاسم فقط، وبلغ من عزلته أنه لم يكد أحد يعرف أنه مات. ولعله قد سمّم

فقد قرروا أن لا يتركوا سبيلاً للدخول أو الخروج أو الحوافز المفاجئة لليأس أو نوبات السُّعار المندفع من الداخل. وكان الدير مزوّداً بمؤن وفيرة. وبمثل هذه الاحتياطات كان رجال الحاشية يستطيعون تحدّي العدوى. فالعالم الخارجي يستطيع أن يهتم بنفسه. وفي تلك الأثناء كان من الحمق أن يحزن المرء أو يفكّر. فقد زوّدهم الأمير بكل الوسائل العملية للمسرّة. فكان هناك مهرّجون، وشعراء ارتجاليون، وراقصات باليه، وموسيقيون، وجميلات، وشراب. وكان هؤلاء جميعاً ومعهم الأمن في الداخل. أما في الخارج فكان هناك «الموت الأحمر».

وحوالى نهاية الشهر الخامس أو السادس من هذه العزلة، وبينما كان الطاعون يعصف بالناس كأعنف ما يكون في الخارج، أقام الأمير بروسبيرو لأصدقائه الألف حفلةً تنكرية بالأقنعة كانت من أروع الأشياء غير المألوفة. فكانت تلك الحفلة التنكرية مشهداً شهوانياً... استمرّ فيها الصخب المعربد بشكل مدوّخ حتى دقّت الساعة منتصف الليل في آخر الأمر... وهكذا أيضاً، حدث، ربما قبل أن تتلاشى أصداء آخر دقّةٍ لتغطس في عالم الصمت، أنّ كان هناك أشخاص كثيرون في الحشد، قد لاحظوا من الفراغ ما جعلهم يتنبّهون لوجود شخص مقنّع لم يكن قد لفت انتباه أيّ فردٍ من قبل... كان ذلك الشخص

على أيدي وزرائه المتآمرين أنفسهم، الذين كانوا يشجعون انعزاله عن الناس.

فهذا ما تأتي به العزلة. تراجع إلى داخل قلعة، فتفقد اتصالك بمصادر قوتك وسلطتك. وتبتعد أذنك عن سماع ما يجري حولك، وتفقد إحساسك بالتناسب. وبدلاً من أن تكون أسلم، فإنك تقطع نفسك عن نوع المعرفة التي تعتمد عليها حياتك. فإياك أن تعزل نفسك بعيداً عن الشوارع إلى درجة تجعلك عاجزاً عن سماع ما يدور من حولك، بما في ذلك المؤامرات ضدك.

مراعاة القانون

أمر لويس الرابع عشر ببناء قصر في فرساي له ولبلاطه في ستينات القرن السابع عشر، فكان قصراً ملكياً لا شبيه له في العالم. وكما هي الحال في خلية النحل، كان كل شيء يدور حول شخص العاهل. فكان يعيش محاطاً بالنبلاء، الذين خصصت لهم شقق معششة حول شقته، وكان قربهم منه معتمداً على درجتهم ورتبتهم. وكانت غرفة نوم الملك تحتل مركز القصر حرفياً، وكانت بؤرة اهتمام الجميع. وفي كل صباح كان الملك يتلقى التحية في هذه الغرفة بطريقة كالطقوس تعرف **بالشروق**.

وفي الثامنة صباحاً، يقوم المعاون الأول للملك، الذي كان ينام عند قدم السرير الملكي، بإيقاظ صاحب الجلالة. ثم يفتح الوصفاء الباب لإدخال الذين لهم مهمة في **الشروق**. وكان ترتيب دخولهم دقيقاً: يدخل أولاً أبناء الملك غير الشرعيين، وأحفاده، ثم الأمراء والأميرات ذوو الدم الملكي، فطبيبه وجرّاحه، يتبعهم كبار موظفي خزانة الثياب، والقارىء الرسمي للملك، فالمسؤولون عن الترفيه عن الملك. وبعد ذلك يصل المسؤولون الحكوميون المختلفون، بحسب ارتفاع المراتب. وأخيراً وليس آخراً يأتي الذين يحضرون **الشروق** بدعوة خاصة. وما أن

طويلاً ونحيلاً، ومغطى من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه بملابس القبور. وكان القناع الذي يغطّي الوجه مصنوعاً بحيث يشبه سحنة ميّتة لجثة، بحيث تجد حتى أقربُ النظرات إليه صعوبة في كشف الغش في ذلك القناع. ومع ذلك، فقد كان يمكن للمعربدين المجانين المتواجدين في الحفلة أن يتحملوا ذلك كله، ولو لم يقبلوه. ولكن المتنكّر كان قد ذهب في تنكّره إلى حدّ أنه جعل من ذلك النوع من الأقنعة نمطاً يمثّل الموت الأحمر. فقد كان ثوبه ملطّخاً بالدم. وكان وجهه العريض بكل ملامح سحنته، مرشوشاً بالرّعب القرمزي... وعلى الفور، ألقى حشدٌ من المعربدين بأنفسهم في الشقّة السوداء. وأمسكوا بتلابيب المتنكّر الطويل القامة الذي وقف منتصباً بلا حراك في ظلّ الساعة الآبنوسيّة، وشهقوا برعب لا يوصف عندما اكتشفوا أن الأكفان الرهيبة، والقناع الذي يشبه جثث الأموات، التي تعاملوا معها بكل تلك الخشونة العنيفة، لم يكن في داخلها أي شكل ملموس. وبذلك أدركوا أن الموت الأحمر كان حاضراً. فقد تسلّل إليهم كلصٍّ في الليل، وأسقط المعربدين واحداً بعد الآخر في قاعات قصفهم المبلّلة بالدم، فمات كل منهم على الهيئة اليائسة لسقطته. بل لقد لفظت الساعة الآبنوسيّة آخر أنفاسها، هي الأخرى، مع آخر المرحين، وانطفأت شعلات المراجل، وسيطرت

الظلمة، والخراب، والموت الأحمر على الجميع سيطرة لا حدود لها.

قناع الموت الأحمر
إدغار آلن بو،
1809 - 1849

تصل هذه الصيغة الاحتفالية إلى نهايتها حتى يكون قد تكدس في الغرفة أكثر من مائة من رجال الحاشية الملكية والزوار.

وكان اليوم يُنَظَّم بحيث يوجه نشاط القصر كله إلى الملك ويمرّ عن طريقه. فكان لويس محاطاً على الدوام برجال الحاشية والموظفين، وكلهم يطلبون مشورته وحكمه. ورداً على أسئلتهم كلها كان جوابه المعتاد هو: «سوف أرى».

وكما لاحظ سان سيمون، «إذا التفت الملك إلى شخص مّا وطرح عليه سؤالاً، أو أبدى ملاحظة تافهة، فإن عيون الحاضرين جميعاً تتجه إلى ذلك الشخص. إذ أن ذلك كان اهتماماً يصبح موضعاً للحديث، ومؤشراً يدل على ازدياد النفوذ». ولم تكن هناك إمكانية للخلوة في القصر، حتى للملك ـ فقد كانت كل غرفة متصلة بأخرى، وكل قاعة تؤدي إلى غرف أكبر يتجمع فيها النبلاء باستمرار. وكانت أعمال كل واحد متداخلة ومعتمدة اعتماداً متبادلاً مع أعمال الآخرين. ولم يكن أي شيء أو أي شخص يمر بدون ملاحظة. وقد كتب سان سيمون: «لم يكن الملك يكتفي بالاهتمام بحضور كل طبقة النبلاء العليا في بلاطه، بل كان يطلب الشيء نفسه من الطبقة الدنيا كذلك. ففي شروقه وغروبه، وفي وجباته، وفي حدائقه في فرساي كان يتلفت حوله دائماً فيلاحظ كل شيء. وكان ينزعج ويتضايق إذا لم يعش أبرز النبلاء في البلاط بشكل دائم. أما أولئك الذين لا يظهرون أبداً أو لا يأتون إلاّ نادراً فكانوا يستثيرون سخطه الكامل. وإذا رغب أحد منهم في شيء كان الملك يقول بعجرفة: «أنا لا أعرفه». . فيكون ذلك الحكم قطعياً لا رجعة فيه.

التفسير

وصل لويس الرابع عشر إلى السلطة عند انتهاء حرب الفروند الأهلية الرهيبة. وكان المحرض الرئيسي على تلك الحرب هم النبلاء الذين كان سخطهم عميقاً على سلطة العرش المتعاظمة، وكانوا يحنّون

إلى أيام الإقطاع، عندما كان السادة اللوردات يحكمون إقطاعياتهم الخاصة ولم يكن للملك عليهم سلطة تذكر. وقد خسر النبلاء الحرب الأهلية، ولكنهم ظلوا زمرة مشاكسة ساخطة.

فتركيب ڤرساي الهيكلي إذن كان أكثر بكثير من نزوة متحللة لملك محب للبذخ. بل كان يخدم غرضاً حساس الأهمية، وهو قدرة الملك على إبقاء عينه وأذنه مسلطتين على كل شيء وكل شخص. فطبقة النبلاء المعتزة بنفسها تضاءلت لتصبح زمرة من المتشاحنين حول الحق في مساعدة الملك على ارتداء ملابسه في الصباح فلم تكن توجد فرصة للخلوة الحميمة أو الانعزال ههنا. ذلك أن لويس الرابع عشر قد تفهم ـ منذ وقت مبكر جداً ـ أن عزل الملك لنفسه هو شيء شديد الخطورة. ففي غيابه سوف تتنامى المؤامرات كأنها نبات الفطر بعد المطر، وتتبلور العداوات إلى زمرٍ وطوائف، ويندلع التمرد قبل أن تتاح له فرصة إبداء رد فعله. ولمكافحة هذا الخطر لم يكن يكفي تشجيع الحياة الاجتماعية والانفتاح، بل إن ذلك كله ينبغي تنظيمه وتوجيهه بصورة رسمية.

وقد ظلت هذه الظروف سائدة في ڤرساي طيلة عهد لويس كله، أي خمسين عاماً من السلم النسبي والهدوء، وطيلة هذه المدة لم يكن يسقط دبوس دون أن يسمعه لويس.

> إن الوحدة خطرة على العقل، دون أن تكون موائمة للفضيلة... تذكّر أن الشخص المتوحد هو مترفٍ بالتأكيد، ولعله مؤمن بالخرافات، وربما يكون مجنوناً.
>
> (الدكتور صاموئيل جونسون، ١٧٠٩ ـ ١٧٨٤)

مفاتيح السلطة

يجادل ماكيافيللي بأن القلعة، بالمعنى العسكري الدقيق، هي غلطة على الدوام. إذْ أنها تصبح رمزاً لانعزال السلطة، وهي هدف سهل لأعداء بانيها. فالقلاع المصممة للدفاع عنك إنما تقطعك عملياً عن

المساعدة وتقلل المرونة المتاحة لك. فهي قد تبدو منيعة. ولكن عند لجوئك إلى إحداها يصبح الجميع على علم بمكانك، وحتى لو لم ينجح الحصار ـ ولا حاجة لنجاحه ـ فإنه يحول قلعتك إلى سجن. والقلاع بمساحاتها الصغيرة والمحصورة مكشوفة جداً كذلك لانتشار الطاعون والأمراض المعدية. ومن الناحية التخطيطية الاستراتيجية، لا تقدم عزلة القلعة أي حماية، بل هي بالفعل تخلق من المشاكل أكثر مما تحلّ.

ونظراً لأن البشر مخلوقات اجتماعية بطبعها فإن السلطة تعتمد على التفاعل والتداول الاجتماعيين. ولتعزيز سلطتك يتعين عليك أن تضع نفسك في مركز الأشياء، كما فعل لويس الرابع عشر في ڤرساي. وينبغي أن يدور النشاط كله حولك، وأن تكون واعياً بكل ما يحدث في الشارع، وبكل شخص قد يدبّر ضدك مؤامرات. وبالنسبة لمعظم الناس يأتي الخطر حين يشعرون بأنهم مهددون. ففي مثل هذه الأوقات يميلون إلى التراجع ورصّ الصفوف، للعثور على الأمن في نوع من القلاع، غير أنهم في غمرة هذا كله يبدأون في الاعتماد على دائرة أصغر فأصغر للحصول على المعلومات، فيفقدون زاوية النظر الصحيحة إلى الأحداث من حولهم. كما يفقدون القدرة على المناورة ويصبحون أهدافاً سهلة. وتجعلهم عزلتهم يرتابون في الآخرين إلى حد الهوس. وكما في الحروب وفي معظم ألعاب التخطيط الاستراتيجي، فإن العزلة غالباً ما تسبق الاندحار والموت.

وفي حالات الخطر وانعدام اليقين، أنت بحاجة إلى مكافحة هذه الرغبة في الانكفاء إلى الداخل. وبدلاً من ذلك اجعل وصول الآخرين إليك أسهل، وابحث عن الحلفاء القدامى وكوّن تحالفات جديدة. وافرض نفسك على دوائر مختلفة أكثر فأكثر. فقد كانت هذه هي الخدعة التي طبقها ذوو السلطة قروناً متطاولة.

وُلِدَ السياسي الروماني شيشرون في طبقة النبلاء الدنيا، ولم تكن لديه فرصة تذكر لاكتساب السلطة. إلاّ إذا تدبَّر أمر إيجاد مكان له بين

الأرستقراطيين الذين كانوا يسيطرون على المدينة. وقد نجح في ذلك بشكل لامع، فحدَّد كل شخص له نفوذ، وتفهم كيف يرتبط ذوو النفوذ بعضهم ببعض، واختلط بهم في كل مكان، وعرف الجميع، وكانت له شبكه واسعة من الاتصالات، بحيث أي عدوٍّ هنا كان يمكن موازنته بحليف هناك.

وكان السياسي الفرنسي تاليران يلعب اللعبة بالطريقة نفسها. فرغم تحدّره من واحدة من أعرق الأسر الأرستقراطية في فرنسا، فقد كان يتعمَّد التركيز على البقاء دائماً على اتصال بما يحدث في شوارع باريس. مما أتاح له أن يتنبأ بالاتجاهات والمتاعب، بل كان يجد بعض السرور في الاختلاط بأنماط من المجرمين المحاطين بظلال من الشبهات. فزوَّدوه بمعلومات ثمينة. وكلما كانت هناك أزمة، وانتقال للسلطة ـ كما في نهاية حكومة الإدارة، وسقوط نابليون، وتنازل لويس الثامن عشر ـ كان تاليران يتمكَّن من البقاء، بل والانتعاش، لأنه لم يتقوقع على نفسه ضمن دائرة صغيرة، بل كان يصنع علاقات مع النظام الجديد.

ولهذا القانون صلة بالملوك والملكات، وذوي السلطة العليا: ففي اللحظة التي تفقد فيها الاتصال بشعبك، وتبحث عن الأمن في العزلة، يكون التمرد آخذاً في الاختمار. فلا تتصوَّر نفسك أبداً من السموّ بحيث يمكنك أن تقطع نفسك حتى عن أخفض المراتب. فبالتراجع إلى قلعة تجعل نفسك هدفاً سهلاً لرعاياك المتآمرين، الذين يعتبرون انعزالك إهانة لهم، وسبباً للعصيان.

وبما أن البشر مخلوقات اجتماعية، فإن هذا ينجم عنه أن الفنون الاجتماعية تجعلنا أناساً صحبتهم سارَّة لا يمكن ممارستها إلاَّ بالتعرض للتواصل والتداول باستمرار. فكلما زاد اتصالك بالآخرين، زادت كياستك وطمأنينتك. أما الانعزال من جهة أخرى فإنه يولِّد بشاعةً خرقاء في إشاراتك، ويؤدي إلى مزيد من العزلة، عندما يأخذ الناس في تجنّبك.

في سنة 1545، قرَّر الدوق كوزيمو دي مديتشي الأول أنه، لضمان خلود اسمه فسوف يوصي برسم لوحات جدارية للمصلَّى الرئيسي في كنيسة سان لورينزو في فلورنسا. وكان لديه كثير من الفنانين العظام كي يختار منهم. وفي آخر الأمر وقع اختياره على جاكوبو دا بونتورمو. وكان هذا الفنان قد طعن في السن، فأراد أن يجعل هذه اللوحات الكبيرة رائعته الفنية وتراثه الباقي. وكان قراره الأول هو عزل الكنيسة بأسوار وتقسيمات وستائر حاجبة. إذْ أنه لم يرد أن يشهد أيُّ شخص عملية خلق تحفته، أو يسرق أفكاره. وكان يريد أن يتفوَّق على مايكل آنجيلو نفسه. وعندما اقتحم بعض الشباب المصلى بدافع الفضول، قام جاكوبو بعزله وإغلاقه أكثر.

وملأ بونتورمو سقف المصلى بمشاهد إنجيلية ـ عملية الخلق، آدم وحواء، سفينة نوح، وهكذا دواليك. وفي أعلى الجدار الأوسط رسم المسيح بجلاله وهو يحيي الموتى يوم القيامة. وعمل الفنان في ذلك المصلى أحد عشر عاماً، ولم يكن يغادره إلاَّ نادراً، فقد تطور لديه رهاب من الاتصال بالبشر وكان يخشى سرقتهم لأفكاره.

ومات بونتورمو قبل أن يكمل تلك اللوحات الجدارية، التي لم تبق منها أية لوحة. ولكن كاتب عصر النهضة العظيم، فازاري، صديق بونتورمو الذي شاهد تلك اللوحات بُعَيْد وفاة الفنَّان، ترك وصفاً عن مظهرها. كان فيها انعدام كامل للتناسب، ومناظر تصطدم بأخرى، وشخصيات قصة إلى جانب شخصيات قصة أخرى بلا نظام في أعداد تبعث على الجنون. كان بونتورمو قد اعتراه هوس التفاصيل، بينما فقد أي إحساس بالتركيب الكلي الشامل للصورة. وتخلَّى فازاري عن وصف اللوحات الجدارية بالقول إنه لو استمر في ذلك «فسوف أُصاب بالجنون وأشتبك مع هذا الرسم، تماماً كما أعتقد أن جاكوبو، في الأعوام الأحد عشر التي أمضاها يعمل فيه قد شبك نفسه وشبك كل من رأى ذلك الرسم». وبدلاً من تتويج حياة بونتورمو العملية، فإن ذلك العمل كان سبب خرابه.

لقد كانت تلك اللوحات الجدارية تعادل بصرياً آثار العزلة على الذهن البشري: وهي آثار تمثلت في فقدان الإحساس بالتناسب، والهوس بالتفاصيل، مصحوبين بالعجز عن رؤية الصورة الأكبر، وإنتاج نوع من القبح المبالغ فيه الذي لم يعد يوصل شيئاً لمشاهده. فمن الواضح إذن أن العزلة مميتة للفنون الإبداعية كما هي مميتة للفنون الاجتماعية. فشكسبير هو أحد أشهر كاتب في التاريخ لأنه، كمختص في الدراما على المسرح الشعبي، قد انفتح على الجماهير، وجعل عمله سهل الوصول إلى الناس مهما كانت ثقافتهم وأذواقهم. فالفنانون الذين يحفرون لأنفسهم وِجَاراً منغلقاً في قلعتهم يفقدون الإحساس بالتناسب، فلا يوصل عملهم شيئاً إلاَّ لدائرتهم الضيِّقة. ومثل هذا الفن يبقى محصوراً ولا تأثير له ولا نفوذ.

وأخيراً فإن السلطة، بما أنها من خلق البشر، تتوسَّع حتماً عن طريق الاتصال بالناس الآخرين. وبدلاً من السقوط في عقلية القلعة، انظر إلى العالم بالطريقة التالية: إنه يشبه قُرسايَ واسعة، تتصل كل غرفة فيها بأخرى. وأنت بحاجة إلى القدرة على النفوذ بالانسياب إلى دوائر مختلفة والخروج منها، والاختلاط بأنماط شتى، إذ أن هذا النوع من قابلية الحركة والاتصال الاجتماعي يحميك من المتآمرين، الذين سيعجزون عن عزلك عن حلفائك. فبقاؤك متحركاً على الدوام يتيح لك الاختلاط والتمازج في غرف القصر، بحيث لا تجلس ولا تستقر في مكان واحد أبداً. وليس هناك صيَّاد يقدر على تسديد هدفه على مثل هذا الكائن السريع الحركة.

صورة: القلعة، مرتفعة في أعلى التل، تصبح القلعة رمزاً لكل ما هو كريه في القوة والنفوذ والسلطة. فيخونك سكان المدينة لأول عدوّ يأتي نحوهم وبالانقطاع عن الاتصال والمعلومات والأخبار، فإن القلعة تسقط بسهولة.

الشاهد: إن الأمير الجيِّد والحكيم، الذي يرغب في الحفاظ على شخصيته هذه وتجنّب إعطاء أبنائه فرصة ليصيروا ظالمين، لن يبني قلاعاً قطّ، كي يعتمد أبناؤه على النوايا الحسنة والإرادة الطيِّبة لرعاياهم، وليس على قوة القلاع.

(نيقولو ماكيافيللي، 1469 ـ 1527).

الانقلاب

إن اختيار العزلة لا يكاد يكون صحيحاً أو دالاً على سماحة النفس أبداً. فبدون توجيه أذنك إلى ما يحدث في الشوارع، ستعجز عن حماية نفسك. إن الشيء الوحيد الذي لا يستطيع التواصل الإنساني المستمر أن يسهله هو التفكير. إن وزن ضغط المجتمع الدافع نحو الانسجام وانعدام المسافة بينك وبين الآخرين، يمكن أن يجعل من المستحيل التفكير بوضوح فيما يحدث من حولك. ولذا فإن الانعزال باعتباره إجراءً مؤقتاً تلجأ إليه قد يساعدك على اكتساب زاوية النظر الصحيحة، فقد أنتجت السجون كثيراً من المفكِّرين الجادِّين، إذ أنه ليس لدينا ما نفعله في السجن سوى التفكير. فماكيافيللي لم يستطع تأليف كتابه: **الأمير** إلاّ عندما وجد نفسه منفياً ومنعزلاً في مزرعة بعيدة عن مؤامرات فلورنسا السياسية.

غير أن الخطر هو أن هذا النوع من العزلة يولّد كل أنواع الأفكار الغريبة والمنحرفة. فقد تكسب زاوية النظر الصحيحة إلى الصورة الأكبر، ولكنك تفقد الإحساس بصغرك ومحدودية قدراتك. كما أن عزلتك كلما ازدادت صار خروجك منها أصعب عندما تختار الخروج ـ ذلك أنها تغطسك عميقاً في وعث رمالها المتحرِّكة دون أن تلاحظ. فإن كنت محتاجاً إلى وقت للتفكير إذن، فاختر الانعزال كملجأ أخير فقط، ولا تتناول مثل هذا الدواء إلاّ بجرعات صغيرة. واهتمّ بإبقاء طريق عودتك إلى المجتمع مفتوحاً.

القانون

19

إعرف مع من تتعامل ـ لا تُغْضِب الشخص غير المقصود

الحكم

هناك أنواع كثيرة من الناس في العالم، ولا يمكنك أبداً أن تفترض أن رد فعل الجميع على خططك الاستراتيجية سيكون بالطريقة نفسها. إذا خدعت بعض الناس أو تفوَّقت عليهم في المناورة، فسوف يمضون بقية حياتهم في السعي للانتقام. فهم ذئاب في ملابس الحملان. وإذن فإن عليك أن تختار ضحاياك وخصومك بعناية ـ وإياك أن تغضب، أو تخدع الشخص غير المقصود.

الخصوم، والمغفلون، والضحايا: دراسة تمهيدية للنماذج

عندما تلتقي برجل يحمل سيفاً، أشهر سيفك: ولا ترتل شعراً لشخص ليس بشاعر.

من تشان: البوذي التقليدي
مقتبس في كتاب رعد في السماء
ترجمة توماس كليري، 1993

ستلتقي، في صعودك إلى السلطة، بسلالات كثيرة من الخصوم، والمغفلين، والضحايا. إن أعلى شكل من فن السلطة هو القدرة على التمييز بين الذئاب والحملان، والثعالب والأرانب، والصقور ونسور الجِيَف. فإذا أجدت هذا التمييز فإنك ستنجح بدون الحاجة إلى إرغام أي شخص بطريقة زائدة عن حدِّها. أما إذا كنت تتعامل بشكل أعمى مع كل من تصادفه في طريقك، فستكون حياتك مليئة بالأسى المستمر، إذا كنت ستعيش مثل هذه الحياة الطويلة أصلاً. فهناك أهمية حسَّاسة للقدرة على تمييز أنواع البشر، والتصرّف بموجب هذا التمييز. وفيما يلي أصعب وأخطر أنواع الأنماط الخمسة المستهدفة في الغابة كما حدَّدها الفنانون ــ في مجال الخداع وغيره ــ في الماضي.

الرجل المتغطرس والمغرور: رغم أن هذا الرجل قد يحاول إخفاء الأمر في البداية، فإن غروره الحساس المتفجِّر يجعله شديد الخطورة. ذلك أن أي ازدراء يتصوَّر أنه تعرَّض له سيؤدي إلى انتقام طاغٍ ساحق العنف. وقد تقول لنفسك: «ولكنني لم أقل سوى كذا وكذا في حفلة كان الجميع فيها سكارى. . .» ولكن ذلك لن يهم. فليس هناك عقلانية وراء رد الفعل الزائد عن الحد. ولذا لا تضيِّع الوقت في محاولة فهم مثل هذا الرجل. فإذا شعرت في أية نقطة أثناء تعاملك معه أن لديه غروراً زائد الحساسية زائد الانفعال، فاهرب. ومهما كان ما تأمله منه، فإنه لا يستحق بذل أي جهد.

انتقام لوب دي آغويري
تتضح شخصية [لوب دي] آغويري اتضاحاً كاملاً في حكاية من تاريخ غارسيلا نودي لافيغا، الذي يروي أن آغويري كان سنة 1548 أحد جنود فصيلة تحرس عبيداً من الهنود الحمر في مناجم

الرجل غير الآمن بشكل لا أمل فيه: لهذا الرجل علاقة بالنمط المغرور والمتغطرس، ولكنه أقل عنفاً؛ والتعرّف عليه أصعب. فذاته الأنانية هشَّة، وشعوره بنفسه قلق وغير مستقر. وإذا شعر بأنه هوجم أو خُدِع، فإن الأذى يظل يعتمل في داخله، فيهاجمك بعضّات قد تستمر إلى الأبد قبل أن تصل إلى حجمٍ يمكنك ملاحظته أو الشعور به. فإذا اكتشفتَ أنك قد خدعت أو آذيت رجلاً كهذا، فاختفِ لمدة طويلة. ولا تبقَ بالقرب منه، وإلاّ راح يقضمك رويداً رويداً حتى الموت.

السيد تشكك: وهذا نوع آخر من السلالات المذكورة أعلاه. فهو جوزيف ستالين مستقبلي. يرى ما يريد أن يرى في الآخرين ـ وهو أسوأ شيء في العادة ـ، ويتخيَّل أن الجميع يستهدفونه. والواقع أن السيد تشكك هو الأقل خطراً بين الثلاثة. فهو غير متوازن في الأصل، ولذا يسهل خداعه، تماماً كما كان ستالين نفسه ينخدع باستمرار. فاستغل طبيعته الشكاكة، لجعله ينقلب على الناس الآخرين. ولكن احترس، وكن حذراً إذا صرت أنت هدفاً لشكوكه.

الثعبان ذو الذاكرة الطويلة: أذا أُوذي هذا الرجل أو خُدِع، فإنه لن يظهر غضباً على السطح الخارجي، بل يُجْري حساباته وينتظر. ثم، عندما يكون في موقع يمكِّنه من قلب الموائد، فسوف ينتقم انتقاماً يتميَّز بالهدوء والدهاء وبرودة الأعصاب. ميّز هذا الرجل من حساباته ومكره في مختلف مجالات حياته. فهو في العادة بارد وغير عاطفي. فكن على حذر مضاعف من هذا الثعبان، وإذا كنت قد آذيته بطريقةٍ مّا فإمّا أن تسحقه سحقاً كاملاً، أو أن تبعده عن نظرك.

الرجل العادي، غير المدعي، وغير الذكي على الأغلب: قد تنتصب أذناك عندما تعثر على مثل هذه الضحيّة المغرية. ولكن خداع هذا الرجل أصعب مما تتصوَّر بكثير. ذلك أن إيقاعه في الفخ يتطلَّب في الغالب ذكاءً وخيالاً ـ وإحساساً بالمردودات الممكنة. فالرجل البليد لا يلتقط الطعم لأنه لا يتعرَّف عليه، إذ أن غفلته تصل إلى هذا الحد من

بوتوست [في بوليفيا] إلى مستودع تابع للخزينة الملكيّة. وقد حُمِّلَ الهنودُ بصورةٍ غير قانونية بكمّيّات كبيرة من الفضّة. فقبض موظّفٌ محليٌّ على آغويري، وحكم عليه بمائتي جلدة بدل غرامةٍ بسبب اضطهاده للهنود «وعندما تلقى الجندي آغويري إشعاراً بالحكم، توسّل إلى القاضي أن يعدمه بدل جَلْدِه، لأنه سيّدٌ بالولادة... ولكن توسّلاته لم تؤثّر على القاضي، الذي أمر المنفّذ أن يأتي بحيوان، وينفذ الحكم. فجاء المنفّذ إلى السجن، ووضع آغويري على الحيوان... وسيق الحيوان، وتلقّى الجندي جلدات السوط...». وعندما أطلق سراحه، أعلن عن نيته في قتل المسؤول الذي حَكَمَ عليه، وهو القاضي إيسكويفل. وانتهت مدّة ولاية إيسكويفل في منصبه فهرب إلى ليما، على بعد ثلاثمائة وعشرين فرسخاً. ولكن في غضون خمسة عشر يوماً، لحق به آغويري. فسافر القاضي الخائف إلى كويتو في رحلة امتدت إلى مسافة أربعمائة فرسخ. وخلال عشرين يوماً وصل آغويري إلى هناك. وحسب رواية غارسيلاسو «فإن إيسكويفل عندما سمع بوجوده انطلق في رحلة أخرى مبتعداً خمسمائة فرسخ أخرى إلى كوزكو. ولكن آغويري وصل إلى هناك في بضعة أيام، مسافراً على قدميه حافياً، قائلاً إن الرجل المجلود لا يحق له أن يركب حصاناً، أو يذهب إلى حيث يراه الآخرون.

عدم التمييز. والخطر من هذا الرجل لا يأتي من كونه سيؤذيك أو يسعى للانتقام، بل من كونه سيضيِّع وقتك وطاقتك ومواردك، وحتى عقلانيتك في محاولتك خداعه. فليكن لديك اختبار جاهز لمثل هذا الهدف ـ نكتة أو قصة. فإن كان رد فعله عليها حرفياً تماماً، فهذا هو نمط الرجل الذي تتعامل معه. فإذا استمررت فتحمَّل مخاطر ذلك بنفسك.

انتهاك القانون

الانتهاك الأول:

في أوائل القرن الثالث عشر، استطاع محمد، شاه خوارزم، أن يقيم، بعد حروب كثيرة، إمبراطوريةً امتدَّت غرباً إلى تركيا الحديثة وجنوباً إلى أفغانستان. وكان مركز الإمبراطورية هو العاصمة الآسيوية العظيمة سمرقند. وكان للشاه جيش قوي جيِّد التدريب، وكان باستطاعته أن يحشد مائتي ألف مقاتل في غضون أيام.

وفي سنة 1219، استقبل الشاه محمد سفارة من زعيم قَبَلِيٍّ جديد إلى الشرق منه، هو جنكيزخان. وشملت السفارة كل أنواع الهدايا إلى محمد العظيم، وكانت تمثل أفضل البضائع من إمبراطورية الخان المغولية الصغيرة الآخذة في التنامي. كان جنكيزخان يريد إعادة فتح طريق الحرير إلى أوروبا. وعرض أن يتقاسمه مع محمد، في الوقت الذي وعد فيه بالسلام بين الإمبراطوريتين.

ولم يكن محمد يعرف محدث النعمة القادم من الشرق هذا، الذي بدا له شديد الغرور يحاول أن يتحدَّث كَنِدٍّ مساوٍ لمن هو متفوِّق عليه بوضوح. فتجاهل عرض الخان. وحاول الخان مرة أخرى، فأرسل قافلة من مائة بعير، محمَّلة بأندر الأشياء التي كان قد نهبها من الصين. غير أن القافلة قبل وصولها إلى محمد صادرها إينالتشيك، حاكم المنطقة المجاورة لسمرقند فاستولى عليها لنفسه وقتل قادتها.

وكان جنكيزخان متأكداً من أن ما حدث كان خطأً ـ وأن إينالتشيك

وبهذه الطريقة لاحق آغويري قاضيه طيلة ثلاثة أعوام وأربعة أشهر».

وتعب إيسكويفل من هذه المطاردة. فبقي في كوزكو، التي كان يحكمها عمدة صارم شعر إيسكويفل أنه سيكون معه في أمان من آغويري. فاتخذ له بيتاً قرب الكاتدرائية، ولم يجرؤ على الخروج منه قطُّ إلاّ وهو مسلح بسيف وخنجر. «غير أن آغويري دخل بيته ظهراً ذات يوم اثنين، وطاف فيه بأجمعه، فعبر ممراً وصالوناً وغرفة نوم وغرفة داخلية كان القاضي يحتفظ بكتبه فيها، فوجده في آخر الأمر مستغرقاً في النوم فوق واحدٍ من كتبه، فطعنه حتى الموت، ثم خرج. ولكنه عندما وصل إلى باب البيت اكتشف أنه قد نسي قبّعته، فبلغ به الطيش أن عاد إلى الداخل واستردّها، ثم خرج يمشي في الشارع كأن شيئاً لم يكن».

الحلم الذهبي: الباحثون عن إِلْدُورَادُو
ووكر تشابمان، 1967

تصرَّف بدون موافقة محمد. فأرسل بعثة أخرى إلى محمد، يؤكد عرضه مرة أخرى ويطلب معاقبة ذلك الحاكم. وفي هذه المرة أمر محمد بقطع رأس أحد السفراء، وأعاد السفيرين الباقيين بعد حلق شعر رأسيهما ـ فكانت تلك إهانة مرعبة حسب قانون الشرف المغولي. فأرسل الخان رسالة إلى الشاه: «لقد اخترتَ الحرب. وما سيحدث سيحدث. أمّا ما هو فإننا لا نعلم، بل الله وحده هو الذي يعلم». ثم حشد قوَّاته وهاجم مقاطعة إينالتشيك في سنة 1220، حيث استولى على عاصمتها وأسر الحاكم، وأمر بإعدامه بصبّ الفضة المصهورة في عينيه وأذنيه.

وعلى مدى العام التالي، قاد الخان غارات في سلسلة من الهجمات غير النظامية التي تشبه حرب العصابات ضد جيش الشاه الذي كان أكبر من جيش الخان بكثير. وكانت طريقته جديدة كل الجدّة في ذلك العصر ـ فقد كان جنوده قادرين على الحركة الشديدة السرعة على ظهور الخيل. وقد أتقنوا فنّ إطلاق السهام من أقواسها أثناء الركوب. وقد أتاحت له سرعة حركة قوَّاته ومرونتها أن يخدع محمداً حول نواياه واتجاهات حركاته. وفي آخر الأمر استطاع أولاً أن يطوِّق سمرقند ثم يستولي عليها. فهرب محمد، وتوفي بعد ذلك بعام، بينما تحطَّمت إمبراطوريته الشاسعة ودُمِّرت. وصار جنكيزخان السيِّد الوحيد لسمرقند، وطريق الحرير، ومعظم آسيا الشمالية.

التفسير

إياك أن تفترض أن الشخص الذي تتعامل معه أضعف منك أو أقل أهميّة. فبعض الرجال لديهم حلم يجعل غضبهم من الإهانة بطيئاً، مما يجعلك تخطىء في الحكم على قدرة تحمّلهم، ولا تقلق من عواقب إهانتهم. غير أنك إذا أهنت شرفهم وعزّة أنفسهم، فسوف يغمرونك بطوفانٍ من العنف يبدو مفاجئاً وكاسحاً. . ، إذا فكَّر المرء في بطء غضبهم. فإذا أردت أن ترفض ما يعرضه الناس عليك فإن من الأفضل أن تفعل ذلك بطريقة مهذَّبة وفيها احترام لهم، حتى ولو شعرت أن طلبهم

وقح أو أن عرضهم سخيف. وإياك أن ترفضهم بشكل مهين حتى تعرفهم على نحو أفضل؛ فربما يكون مَنْ تتعامل معه هو جنكيزخان.

الانتهاك الثاني:

في أوائل العقد الثاني من القرن العشرين، شكَّل أبرع المحتالين في أميركا حلقة لفنَّاني الاحتيال مقرها في دنفر بولاية كولورادو. فكانوا في أشهر الشتاء ينتشرون في الولايات الجنوبية، يمارسون حرفتهم. وفي سنة 1920، كان جو فيوري، أحد زعماء الحلقة، يشق طريقه عبر تكساس، ويكسب مئات الألوف من الدولارات بألعاب الخديعة التقليدية. وفي فورت وورث، التقى بمغفل يدعى ج. فرانك نورفليت، وكان تاجر أبقار يملك مزرعة كبيرة. وسقط نورفليت في الفخ. فاقتنع بالثروة القادمة، فسحب رصيده المصرفي البالغ 45000 دولار، وسلَّمه إلى فيوري وشركائه، وبعد بضعة أيام أعطوه «ملايينه»، التي اتضح أنها كانت بضعة دولارات جيِّدة ملفوفة حول رزمة من قصاصات الصحف.

الغراب والخروف
جلست أنثى غرابٍ على ظهر خروفٍ، فراح يتنقّل بها جيئة وذهوباً على غير إرادة منه، فترة طويلة، وأخيراً قال لها: «لو أنك عاملتِ كلباً بهذه الطريقة للقيتِ ما تستحقِّين من أنيابه الحادَّة». فردّت أنثى الغراب على ذلك بقولها: «إنني أحتقر الضعيف، وأستسلم للقويّ. وأعرف مَنْ أستطيع أن أتنمّر عليه، ومَنْ يتعيَّن عليّ أن أتملّقه. وبذلك آمل أن أطيل عمري وأستمتع بحياةٍ طيِّبة».
خرافات
إيسوب، القرن السادس قبل الميلاد

كان فيوري ورجاله قد مارسوا هذه الأحابيل الخادعة مئات المرات من قبل. وكان المغفل في العادة يشعر بالحرج من حمقه إلى درجة أنه كان يتعلَّم درسه بهدوء ويتقبَّل خسارته. ولكن نورفليت لم يكن مثل المغفلين الآخرين. فذهب إلى رجال الشرطة، الذين أخبروه أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا له شيئاً يذكر، فقال لرجال الشرطة السرِّيين: «إذن سألاحق أولئك الناس بنفسي، وسوف أنال منهم، حتى لو استغرق ذلك باقي حياتي». فتولَّت زوجته إدارة المزرعة، بينما راح نورفليت يتجوَّل في البلاد، باحثاً عَمَّن سُلِبوا في اللعبة نفسها. فتقدَّم مغفَّل منهم، وتعرَّف الاثنان على واحدٍ من فنَّاني التحايل في سان فرانسيسكو، واستطاعا أن يوصلاه إلى السجن. فانتحر بدلاً من مواجهة حكم بالحبس فترة طويلة.

وتابع نورفليت ملاحقتهم، فتوصَّل إلى محتال آخر منهم في مونتانا، وشدّ وثاقه كالعجل، وجرَّه عبر الشوارع الموحلة إلى سجن

المدينة. ولم يكتف بالسفر عبر الولايات المتحدة، بل ذهب إلى إنكلترا، وكندا والمكسيك بحثاً عن جو فيوري، وكذلك عن يده اليمنى، المدعو: و.ب. سبنسر، فعثر على سبنسر في مونتريال، فطارده عبر الشوارع. فهرب سبنسر، ولكن المزارع نورفليت ظلّ على إثره، حتى لحق به في مدينة سولت ليك. ففضّل سبنسر رحمة القانون على ثورة غضب نورفليت، فسلّم نفسه.

وعثر نورفليت على فيوري في جاكسونفيل، بولاية فلوريدا، وحمله بنفسه ليواجه العدالة في تكساس. ولكنه لم يرد أن يتوقّف عند هذا الحدّ. وتابع طريقه إلى دونفر وهو مصمّم على تحطيم الحلقة بكاملها. فلم يصرف مبالغ طائلة من المال في هذه المطاردة فحسب، بل سنة أخرى من عمره كذلك، واستطاع أن يضع جميع زعماء حلقة النصب والاحتيال وراء القضبان، بل إن بعضهم ممّن لم يقبض عليهم بلغ ذعرهم منه حداً جعلهم يسلّمون أنفسهم كذلك.

وبعد خمسة أعوام من المطاردة دمّر نورفليت بمفرده أكبر تجمّع لفنّاني الاحتيال في أميركا. فأدّى الجهد إلى إفلاسه وتدمير زواجه ولكنه مات وهو راضٍ.

التفسير

يقبل معظم الناس ذلّ وقوعهم ضحايا للاحتيال بنوع من التسليم. فيتعلّمون درسهم، ويدركون أنه ليس هناك شيء اسمه غداء مجّاني. وأن طَمَعَهُم هو الذي أوقعهم عندما أملوا في الحصول على مال سهل. غير أن البعض يرفضون تناول دوائهم. وبدلاً من التفكير في سذاجتهم وجشعهم، يرون أنفسهم ضحايا أبرياء كلياً.

ومثل هؤلاء الرجال قد يبدون حَمَلَة رسالة تنشد العدالة والنزاهة، ولكنهم في الواقع يشعرون بعدم الأمان إلى حد مفرط. فوقوعهم ضحية الخداع والاستغفال يوقظ في داخلهم شكوكهم بأنفسهم وينشطها

فيحاولون بشكل مستميت أن يصلحوا الضرر. هل كان انتقام نورفليت من الحرج الذي شعر به نتيجة سلب المحتالين أمواله يستحق أن يرهن في سبيله مزرعته، ويحطِّم زواجه، ويقضي سنوات وهو يستدين المال ويعيش في الفنادق الرخيصة؟ بالنسبة لأمثال نورفليت في هذا العالم، فإن التغلب على حرجهم يستحق أي ثمن.

ولكل الناس مخاوف مقلقة من انعدام الأمن، وكثيراً ما تكون الطريقة الفضلى لخداع مغفل هي استغلال مخاوفه. أما في مجال السلطة فإن المسألة تتعلق بالدرجة. والشخص الذي يشعر بعدم الأمان أكثر من الآخرين بالتأكيد تُقدِّم حالتُه أخطاراً عظيمة. كن حذراً: إذا كنت تمارس الخداع أو التحايل من أي نوع، فادرس هدفك جيداً. فبعض الناس لا تحتمل مخاوفهم الأمنية وذاتيتهم الهشة أخف إيذاء أو إهانة. ولمعرفة ما إذا كنت تتعامل مع أناس من هذا النمط، اختبرهم أولاً، عن طريق نكتة على حسابهم مثلاً. فالشخص الواثق من نفسه سيضحك؛ أما الشخص القلق من انعدام أمنه بشكل زائد فسيبدي رد فعل كأنه تعرَّض لإهانةٍ شخصية. فإن كنت تشك في أنك تتعامل مع هذا النمط، فابحث عن ضحية أخرى.

الانتهاك الثالث:

في القرن الخامس قبل الميلاد، كان شُوُونْغ ـ إرْ، أمير شْيِين (في الصين الحالية) قد أرغم على الذهاب إلى المنفى. كان يعيش في حالة متواضعة ـ بل في فقرٍ أحياناً ـ منتظراً الوقت الذي يمكنه فيه الرجوع إلى الوطن واستئناف حياته كأمير. وكان ذات مرة ماراً عبر دولة شِينغْ، حيث عامله الحاكم بفظاظة، لأنه لم يعرف من هو. ورأى ذلك وزيرُ الحاكم، شو تْشَان، فقال: «إن هذا الرجل أمير له قيمته، فلو عاملته يا صاحب السمو بمجاملة عظيمة لجعلته مديناً لك بالعرفان!»، ولكن الحاكم لم يستطع أن يرى سوى حالة الأمير المتواضعة، فتجاهل هذه النصيحة وأهان الأمير ثانية. فحذَّر شو تشان سيدَه مرة أخرى، قائلاً: «إن كنت يا

صاحب السمو لا تقدر أن تعامل شُؤُونْغ ـ إِرْ بمجاملة، فينبغي أن تقتله. كي تتجنَّب كارثة في المستقبل». فلم يكن رد الحاكم إلاَّ التهكم.

وبعد سنين، تمكن الأمير في آخر الأمر من العودة، وتغيَّرت ظروفه كثيراً، فلم يَنْسَ من كانوا كرماء معه ومن كانوا وقحين أثناء سنوات فقره. وكان أقل ما يكون نسياناً لمعاملته التي لقيها على يدي حاكم شِينْغ. ففي أول فرصة حانت له حشد جيشاً كثيفاً وزحف على شينغ، فاستولى على ثماني مدن، ودمَّر المملكة، وأرسل ذلك الحاكم إلى المنفى بدوره.

التفسير

لا يمكنك أبداً التأكد من نوعية الشخص الذي تتعامل معه. فالرجل الذي لا أهمية له ولا موارد اليوم قد يصبح ذا سلطة غداً. فنحن ننسى كثيراً في حياتنا، ولكننا نادراً ما ننسى الإهانة.

فكيف كان لحاكم شِينْغ أن يعرف أن الأمير شُؤُونْغ ـ إِرْ كان من النمط الطموح، الماكر، الذي يحسب حساباته، باعتباره ثعباناً ذا ذاكرة طويلة؟ لم تكن هناك طريقة يعرف بها. قد يقول ـ ولكن بما أنه لم تكن هناك طريقة، فقد كان من الأفضل أن لا يغري بنفسه الأقدار باكتشاف ذلك. إذْ ليس هناك ما يمكن كسبه من إهانة شخص مّا دون ضرورة. ابتلعْ الحافز الدافع للإيذاء، حتى إذا كان الشخص الآخر ضعيفاً، لأن الرضا الناجم عن ذلك ضئيل بالمقارنة مع خطر إيذاء ذلك الشخص لك إن صار ذات يوم في مركز يمكنه من ذلك.

الانتهاك الرابع:

كان سنة 1920، عاماً رديئاً بشكل خاص لبائعي التحف الفنية الأميركيين. فأبناء جيل أقطاب اللصوصية من القرن الماضي ـ وهم كبار المشترين ـ كانوا قد بلغوا من العمر عتيّاً بحيث راحوا يتساقطون موتى كالذباب، ولم يكن قد برز مليونيرات جدد ليحلُّوا محلهم. وبلغت

الأمور من السوء حداً جعل عدداً من كبار البائعين، يقررون أن يجمعوا مواردهم معاً. فكان ذلك حدثاً لم يُسمع بمثله من قبل، إذْ أن بائعي التحف الفنية في العادة كانوا يتعايشون كالقطاط والكلاب.

وكان جوزيف دوفين، بائع التحف لأغنى ملوك المال في أميركا، يعاني أكثر من الآخرين في ذلك العام، وهكذا قرر أن يتماشى مع ذلك التحالف. فتكوَّنت المجموعة من أكبر خمسة بائعين في البلد. وبحثوا عن زبون جديد، فقرروا أن أفضل أمل أخير لهم هو هنري فورد، الذي كان أغنى رجل في أميركا آنذاك. ولم يكن قد دخل إلى سوق الفنّ بعد. فكان هدفاً كبيراً إلى درجة أن عملهم معاً كان شيئاً معقولاً لكسبه كزبون.

وقرَّر البائعون أن يجمعوا قائمة «أعظم مائة لوحة في العالم» (وتصادف أن كانت كلها موجودة عندهم في مخازنهم) ويعرضوها كلها على فورد. فبصفقة واحدة يستطيع أن يجعل نفسه أعظم جامع للوحات الفنية في العالم. وعملت المجموعة أسابيع متواصلة لإنتاج شيء رائع: هو مجموعة من ثلاثة مجلدات من الكتب الحاوية على نسخ من اللوحات، ونصوص لباحثين مختصين مرافقة لكل صورة. ثم قاموا بزيارة شخصية لفورد في منزله في ديربورن، بولاية ميشيغان. وهناك فوجئوا ببساطة بيته: لقد كان السيد فورد رجلاً غير متكلّف ولا متصنّع أبداً.

واستقبلهم فورد في غرفة مكتبته. وألقى نظرة على الكتاب فعبَّر عن ذهوله وفرحه. وبدأ البائعون المتحمسون يتخيَّلون ملايين الدولارات التي ستتدفق قريباً إلى خزائنهم. غير أن فورد رفع رأسه عن الكتاب في آخر الأمر وقال: «أيها السادة، إن كتباً جميلة كهذه، بصور ملوَّنة كهذه، لا بدّ أنها تكلّف كثيراً!» وعندئذ صرخ دوفين: «ولكن يا سيد فورد! نحن لا نتوقع منك أن تشتري هذه الكتب! لقد رتبناها خصيصاً من أجلك، كي نريك الصور. فهذه الكتب هدية لك». وبدا فورد محتاراً، فقال: «أيها السادة، هذا شيء لطيف جداً منكم، ولكنني لا أرى كيف

أستطيع أن أقبل هدية جميلة ونفيسة كهذه من غرباء». فأوضح دوفين لفورد أن النسخ التي في الكتاب تُظهِرُ اللوحات التي كانوا يأملون أن يبيعوها له. وأخيراً فهم فورد قصدهم، فهتف: «أيها السادة، ولماذا أريد شراء الصور الأصلية ما دامت الصور الموجودة هنا في هذه الكتب في غاية الجمال؟».

التفسير

كان جوزيف دوفين يفتخر بأنه يدرس ضحاياه وزبائنه سلفاً، فيتفهم نقاط ضعفهم وخصائص أذواقهم قبل الالتقاء بهم أصلاً. وقد أرغمه اليأس على التخلي عن هذا التخطيط الانتهازي مرة واحدة فقط، في هجمته على هنري فورد. وقد استغرق شفاؤه من إساءة حكمه في هذه المرة شهوراً، سواء من الناحية العقلية أم المالية. فقد كان فورد من نمط الرجال البسطاء العاديين غير المدعين الذين لم يكونوا يستحقون العناء. فكان تجسيداً للناس ذوي العقلية الحرفية الذين لا يملكون خيالاً كافياً للانخداع. واعتباراً من ذلك الحين فصاعداً، أخذ دوفين يوفّر طاقاته ليصرفها على أمثال ميلون ومورغان في هذا العالم ـ وهم رجال لديهم من المكر والبراعة ما يكفي لإيقاعهم في مصائده.

مفاتيح السلطة

إن القدرة على وزن الناس وتقويمهم ومعرفة مَنْ تتعامل معه هي واحدة من أهم المهارات في جمع السلطة والحفاظ عليها. فأنت بدونها أعمى. فلن تقتصر عندئذ على إيذاء الناس غير المقصودين بل إن الخطأ سيمتد إلى اختيارك للنماذج أو الأنماط التي تبذل الجهد في سبيل كسبها، وسوف تظن أنك تتملّق الناس بينما أنت في الواقع تهينهم. فقبل أن تشرع في أي حركة، ادرس مقاييس هدفك أو خصمك المحتمل. وإلاّ فسوف تضيّع الوقت وترتكب أخطاء. ادرس نقاط ضعف الناس، والشقوق في دروعهم، ومناطق اعتزازهم وغرورهم ومناطق خوفهم

وشعورهم بعدم الأمن. اعرف مداخلهم ومخارجهم حتى قبل أن تقرر إن كنت ستتعامل معهم أم لا.

وكلمتان أخيرتان للتحذير: أولاً، في قياس خصومك والحكم عليهم، إياك أن تعتمد على غرائزك، إذ أنك سترتكب أعظم أخطائك كلها إذا اعتمدت على مثل هذه المؤشرات غير الدقيقة. فلا شيء يمكن أن يحل محل جمع المعرفة المادية. ادرس خصمك وتجسَّس عليه مهما استغرق ذلك من وقت. فسوف يثمر جهدك هذا على المدى الطويل.

وثانياً، لا تثق بالمظاهر أبداً، إذ أن أي شخص له قلب ثعبان يستطيع أن يستخدم مظهراً من العطف والكرم لتغطيته؛ والشخص الصاخب المتبجح في مظهره الخارجي كثيراً ما يكون في حقيقته جباناً. تعلَّم أن تستشف المظاهر لترى ما وراءها من تناقضات. وإياك أن تثق بالنسخة التي يقدمها الناس عن أنفسهم، فهي نسخة لا يمكن الاعتماد عليها مطلقاً.

صورة: الصياد، إنه لا ينصب للثعلب المصيدة نفسها التي ينصبها للذئب، فلا يضع طعماً في مكان لا يلتقطه فيه أحد. إنه يعرف فريسته معرفة كاملة، عاداتها، ومخابئها، ويصطاد بموجب هذه المعرفة.

الشاهد: اقتنع انه لا يوجد أشخاص
تصل بهم التفاهة والضآلة إلى
درجة أنهم لن يكونوا قادرين على
إفادتك. إذ أنهم لن يفيدوك بالتأكيد
إن كنت قد عاملتهم باحتقار ذات
مرة. فحالات الظلم قد تُسامَح.
ولكن الاحتقار لن يسامَح إذْ أن عزَّة
انفسنا تجعلنا نتذكره إلى الأبد.
(اللورد تشسترفيلد، 1964 ــ ١٦٦٣)

الانقلاب

ما هو الخير الممكن أن يأتي من الجهل بالناس الآخرين؟ تَعَلَّمْ أن تميّز الأُسود عن الحملان، أو ادفع الثمن. أطع هذا القانون إلى امتداده بأبعاده الكاملة؛ فليس له حالة عكسية، ولا تكلف نفسك عناء البحث عن مثل هذه الحالة.

القانون

20

لا تلتزم بأحد

الحكم

إن الأحمق هو الذي يتسرَّع بالانحياز إلى طرف من الأطراف. لا تلتزم بأي طرف أو قضية سوى نفسك. فبالحفاظ على استقلالك تصبح سيد الآخرين ـ اجعل الناس يقف بعضهم ضد بعض، فبذلك يتبعونك وَيَلْحَقون بِك.

القسم الأول: لا تلتزم بأحد
بل دع الجميع يتوددون إليك

إذا سمحت للناس أن يشعروا بأنهم يملكونك إلى أي درجة، فإنك ستفقد كل سلطة عليهم. فبعدم إلزام عواطفك بشيء ستجعل الناس يحاولون كسبك بجدية أكثر. إبق مترفعاً وسوف تكسب السلطة التي تأتي من اهتمامهم ورغبتهم المحبَطة. العب دور الملكة العذراء (إشارة إلى الملكة آليزابيث الأولى التي جمعت حولها رغبات علية القوم في بلاطها دون الالتزام بأي منهم: المترجم). أعطهم الأمل، ولكن لا تشبع رغبة أحد منهم أبداً.

مراعاة القانون

عندما تسنَّمت الملكة آليزابيث الأولى عرش إنكلترا سنة 1558، كانت هناك جهود كبيرة للعثور على زوج لها. فنوقش الموضوع في البرلمان، وكان هو الموضوع الأساسي في الحديث بين الإنكليز من كل الطبقات؛ وكثيراً ما اختلفوا حول مَنْ ينبغي لها أن تتزوَّج، ولكن الجميع كانوا يعتقدون أنها ينبغي أن تتزوَّج في أقرب وقت ممكن، لأن الملكة يجب أن يكون لها ملك، وأن تحمل وتنجب ورثة للمملكة. وظلَّت المناقشات محتدمة سنوات طويلة. وفي هذه الأثناء، راح يتنافس على يد آليزابيث أكثر عزَّاب المملكة وسامة وجدارة، وهم السير روبرت ددلي، والإيرل أوف إسكس، والسير والتر رالي. فلم تثبطهم، غير أنها لم تَبْدُ

في عجلة من أمرها؛ وكثيراً ما تناقضت تلميحاتها حول الذي سيكون رجلها المفضَّل منهم. وفي سنة 1566، أرسل البرلمان وفداً إلى آليزابيث يحثها على الزواج قبل أن تصل إلى سن اليأس فتعجز عن الحمل وإنجاب الأطفال. فلم تجادل، ولم تحبط الوفد، ولكنها مع ذلك ظلَّت عذراء.

وبالتدريج، جعلتها اللعبة الدقيقة التي مارستها مع خُطَّابها موضوعاً لخيالات جنسية لا حصر لها، وهدفاً لعبادة طقوسية. واستخدم طبيب البلاط، سيمون فورمان، مذكرته اليومية لوصف أحلامه في فضّ بكارتها. ومثلها الرسامون على شكل ديانا وغيرها من الآلهة. وكتب الشاعر إدموند سبنسر وغيره قصائد مديح للملكة العذراء. وأُشير إليها على أنها «إمبراطورة العالم»، «تلك العذراء الفاضلة» التي تحكم العالم وتحرِّك الكواكب في أفلاكها. وكان خطابها الكثيرون عندما يتحدثون معها يستخدمون تلميحات جنسية جريئة، وهي جرأة لم تثبطها آليزابيث. بل فعلت كل ما في وسعها لإثارة اهتمامهم، ولإبقائهم على مبعدة منها في الوقت نفسه.

وفي طول أوروبا وعرضها، كان الملوك والأمراء يعرفون أن الزواج من آليزابيث سيقيم حلفاً بين إنكلترا وأية أمة. فتودَّد إليها ملك إسبانيا، وكذلك فعل أمير السويد، وآرشيدوق النمسا، فرفضتهم جميعاً بطريقة مهذبة.

وكانت القضية الدبلوماسية الكبرى في أيام آليزابيث، هي ثورة الأراضي المنخفضة الفلمنكية والهولندية، التي كانت آنذاك ممتلكات إسبانية. فهل تفكّ إنكلترا تحالفها مع إسبانيا وتختار فرنسا كحليف رئيسي لها على القارة، وبذلك تشجِّع الفلمنكيين الجرمان والهولنديين على الاستقلال؟ كان التحالف مع فرنسا يبدو بحلول سنة 1572، أحكم طريق تسلكه إنكلترا. فقد كان لدى فرنسا رجلان من ذوي الدم النبيل جديران بآليزابيث، هما: دوق آنجو، ودوق آلينصون، شقيقا الملك

الفرنسي. وكان لدى كل منهما ميزات، وقد أبقت آليزابيث آمال الاثنين حية. وظل الموضوع يجيش أعواماً. وقام دوق آنجو بعدة زيارات لإنكلترا. وقبَّل آليزابيث علناً أمام الناس، بل ناداها بأسماء التدليل؛ وبدت مستجيبة لعواطفه. وفي هذه الأثناء، بينما هي تغازل الأخوين، تم توقيع معاهدة أقامت سلاماً بين فرنسا وإنكلترا. وبحلول سنة 1582، شعرت آليزابيث أنه بات بوسعها أن تقطع حبل هذا الغزل. وبالنسبة لدوق آنجو، على وجه الخصوص، فعلت ذلك براحة كبيرة. فمن أجل الدبلوماسية كانت قد سمحت لنفسها بتلقي مغازلات رجل لم تكن تطيق حضوره، بل كانت تجده من ناحية جسدية مثيراً للاشمئزاز. وعندما صار السلام بين فرنسا وإنكلترا آمناً، تخلَّت عن الدوق الأملس المداهن بأقصى ما استطاعت من تهذيب.

وفي ذلك الحين كانت آليزابيث قد تجاوزت عمر الإنجاب، وبناء على ذلك فقد تمكَّنت من أن تعيش بقية عمرها كما ترغب، وماتت وهي الملكة العذراء. فلم تترك وريثاً مباشراً، ولكنها حكمت فترة من السلام الخصب الثقافي لا تُضاهَى.

التفسير

كان لآليزابيث سبب وجيه للزواج: فقد شهدت أخطاء ماري ملكة الاسكتلنديين، ابنة عمومتها. كان الاسكتلنديون يقاومون فكرة أن تحكمهم امرأة، ولذا توقعوا أن تتزوَّج ماري، وأن تتزوَّج بطريقة حكيمة. وكان الزواج من أجنبي فكرة مكروهة شعبياً. كما أن تفضيل أي بيت نبيل من شأنه فتح الباب لمنافسات رهيبة. وفي آخر الأمر اختارت ماري اللورد دارنلي، وهو كاثوليكي. وبذلك استثارت غضب بروتستانت اسكتلندا، وتبعت ذلك اضطرابات لا نهاية لها.

وكانت آليزابيث تعرف أن الزواج قد يؤدي على الأغلب إلى دمار الحاكمة الأنثى. فبالزواج والالتزام بالتحالف مع فريق أو أمة تتورَّط

الملكة في صراعات ليست من اختيارها. . وهي صراعات قد تغرقها في آخر الأمر أو تقودها إلى حرب لا طائل من ورائها. ثم إن الزوج يصبح الحاكم الفعلي، وكثيراً ما يحاول أن يستغني عن زوجته الملكة، كما حاول دارنلي أن يتخلّص من ماري. لقد تعلّمت آليزابيث الدرس جيداً. فكان لها هدفان كحاكمة: أن تتجنّب الزواج وأن تتجنّب الحرب. فاستطاعت أن تقرن بينهما بِتَذْلِيَةِ احتمال الزواج لتشكيل أحلاف. إذ أن لحظة التزامها بأي خطيب بمفرده ستكون هي لحظة فقدانها لسلطتها. فكان عليها أن ينبعث منها الغموض وإثارة الرغبة، فلا تحبط آمال أي شخص ولكنها لا تستسلم.

وفي غمرة لعبة الغزل والانسحاب التي امتدَّت على طول حياة آليزابيث، سيطرت على البلد، وعلى كل رجل سعى للتغلُّب عليها. وطالما كانت في مركز الانتباه فقد ظل زمام السيطرة في يدها. فحافظت على استقلالها فوق الجميع، وحَمَتْ سلطتها وجعلت نفسها موضع عبادة.

افضِّل ان اكون شحَّاذة وعازبة على أن اكون ملكة ومتزوجة.

(الملكة آليزابيث الاولى، 1533 ــ 1603)

مفاتيح السلطة

بما أن السلطة تعتمد كثيراً على المظاهر، فإن عليك أن تتعلَّم الأحابيل التي تعزِّز صورتك، ومنها رفض الالتزام بأي شخص أو مجموعة. فعندما تتمنَّع وتنأى بنفسك فإنك لن تستثير الغضب، بل تكسب نوعاً من الاحترام، إذ أنك ستبدو قوياً على الفور لأنك تضع نفسك بعيداً عن متناول أية قبضة، بدلاً من الخضوع للمجموعة، أو للعلاقة، كما يفعل معظم الناس. وهذه الهالة من القوة أو السلطة لا تزداد مع الزمن إلاَّ تنامياً. ومع تعاظم سمعة استقلالك، سيرغب فيك عدد من الناس أكثر فأكثر، وكلٌّ منهم يريد أن يكون هو الذي يجعلك

تلتزم. والرغبة مثل الفيروس: فإذا رأينا شخصاً يرغب فيه الآخرون، فإننا نميل إلى أن نجد هذا الشخص مرغوباً فيه أيضاً.

وفي لحظة التزامك، يختفي السحر. فتصبح كأي شخص آخر. ذلك أن الناس سيجربون كل الطرق الخفية والماكرة لجعلك تلتزم. فيعطونك الهدايا، ويمطرونك بخدماتهم ومِنَنهم، كل ذلك لإرغامك على الشعور بالعرفان. فشجِّع رعايتهم وحرِّك اهتمامهم، ولكن لا تلتزم بأي ثمن. اقبل الهدايا والمجاملات والألطاف إن كنت ترغب في ذلك. ولكن اعتنِ بالمحافظة على ترفعك الداخلي. إذْ أنك لا تستطيع أن تشعر نفسك بالعرفان لأحد، حتى ولو عن غير قصد.

ولكن تذكَّر: إن الهدف ليس تنفير الناس، ولا أن تبدو غير قادر على الالتزام. فمثل الملكة العذراء، أنت بحاجة إلى تحريك القِدْر، وإثارة الاهتمام، واجتذاب الناس بإمكانية كسبهم لك، فعليك أن تنحني لاهتمامهم بين حين وآخر إذنْ ـ ولكن ليس أكثر من اللازم.

كان الجندي والسياسي الإغريقي آلْسِيبْيادِس يلعب دوره على النحو الأكمل. فقد كان هو الذي أوحى بالأسطول الأثينيّ الكثيف الهائل الذي هاجم صقلية، وقاد ذلك الأسطول في سنة 414 ق.م. وعندما حاول حساده الأثينيون أن يسقطوه في وطنه بتهم ملفقة، هرب إلى أعداء أثينا الاسبارطيين، بدلاً من مواجهة المحاكمة لو عاد. ثم بعد هزيمة الأثينيين في سيراكيوز، غادر اسبارطة إلى فارس، رغم أن قوة اسبارطة كانت آخذة في التعاظم. غير أن الأثينيين والاسبارطيين جميعاً راحوا يتودَّدون إليه بسبب نفوذه لدى الفرس. وأمطره الفرس بأنواع من التكريم بسبب سلطته على الأثينيين والاسبارطيين. فقدَّم وعوداً لكل طرف، ولكنه لم يلتزم بأي طرف. وفي آخر الأمر كان يمسك بكل الأوراق.

فإن كنت تتطلَّع إلى السلطة والنفوذ فجرِّب خطط آلسيبيادس الانتهازية. ضع نفسك بين قوىً متنافسة، فاجتذب طرفاً بوعودك له

بالمساعدة، وعندئذ يلاحقك الجانب الآخر الراغب دائماً في التفوق على عدوِّه. فبينما يتبارى كل طرف مع الآخر لكسب اهتمامك فستبدو على الفور شخصاً ذا نفوذ عظيم ومرغوب فيه. وستكتسب سلطة أكثر مما لو تسرَّعت بالتزام طرف واحد. ولإتقان هذه الخطة التكتيكية إلى حد الكمال، فإنك تحتاج إلى إبقاء نفسك من الداخل متحرِّراً من التشابكات العاطفية، وأن تنظر إلى مَنْ حولك باعتبارهم بيادق في طريق صعودك إلى القمة. إنك لا تستطيع أن تجعل نفسك رهينة بخدمة أي قضية.

في غمرة انتخابات الرئاسة الأميركية سنة 1968، اتصل هنري كيسنجر هاتفيّاً بفريق ريتشارد نيكسون. وكان كيسنجر متحالفاً مع نيلسون روكفلر، الذي سعى للحصول على ترشيح الجمهوريين له لمنصب الرئاسة فلم ينجح. فعرض كيسنجر أن يساعد معسكر نيكسون بمعلومات داخلية قيِّمة عن مفاوضات السلام الڤيتنامية التي كانت جارية في باريس. إذْ كان لديه رجل في فريق التفاوض يبقيه على اطلاع على آخر التطورات. فقبل فريق نيكسون ذلك العرض بسرور.

غير أن كيسنجر كان في الوقت نفسه قد فاتح المرشح الديمقراطي هيوبرت هـ. همفري، وعرض عليه مساعدته كذلك. فطلب منه رجال همفري معلومات داخلية عن نيكسون فزوَّدهم بها، وقال لهم: «انظروا. لقد كرهت نيكسون طيلة سنوات». والواقع أنه لم يكن مهتماً بأي جانب. وكان ما أراده في الحقيقة هو ما حصل عليه: وعداً بمنصب وزاري رفيع المستوى من نيكسون ومن همفري على حدٍّ سواء. فصارت حياة كيسنجر العملية مؤمَّنة مضمونة أياً كان الفائز في الانتخابات.

وكان الفائز بالطبع هو نيكسون، وهكذا ذهب كيسنجر حسب الأصول إلى منصبه الوزاري. ومع ذلك فقد كان حريصاً على أن لا يظهر وكأنه صنيعة نيكسون. وعندما أُعيد انتخاب نيكسون سنة 1972، طُرِد من المناصب رجالٌ كانوا أكثر وفاءً له من كيسنجر. وكان كيسنجر أيضاً

المسؤول الكبير الوحيد من إدارة نيكسون الذي نجا من فضيحة ووترغيت وبقي ليخدم تحت حكم الرئيس التالي، جيرالد فورد. ذلك أنه حافظ على مسافة قليلة فاصلة، فازدهر وانتعش في أوقات كانت مضطربة.

إن الذين يستخدمون هذه الاستراتيجية كثيراً ما يلاحظون ظاهرةً غريبة: إن الناس الذين يسارعون إلى دعم الآخرين يميلون إلى أن لا يكسبوا احتراماً يذكر في هذه العملية، لأن الحصول على مساعدتهم يتم بسهولة شديدة. أما أولئك الذين ينتظرون على مبعدة فيجدون أنفسهم محاصرين بالمتضرعين إليهم. ذلك لأن ترفّعهم مصدر قوة لهم، فكل طرف يريدهم إلى جانبه.

عندما صار بيكاسو أنجح فنان في العالم، بعد سنوات الفقر في بواكير حياته، لم يلزم نفسه بالعمل مع هذا البائع أو ذاك، رغم أن البائعين راحوا يطوقونه من كل جانب بعروض مغرية ووعود كبرى. وبدلاً من ذلك ظهر وكأنه غير مهتم بخدماتهم؛ فجعلهم هذا الأسلوب يتحمسون بوحشية، وبينما راحوا يقتتلون عليه فإن ذلك لم يزد أسعار لوحاته إلاّ ارتفاعاً. وعندما أراد هنري كيسنجر، وزير خارجية الولايات المتحدة، أن يتوصل إلى انفراج مع الاتحاد السوفييتي، لم يقدم تنازلات أو إشارات تصالحية، بل راح يتودّد إلى الصين بدلاً من ذلك. فأثار هذا ثائرة السوفييت، ولكنه أفزعهم كذلك. إذ أنهم كانوا معزولين، فخافوا من ازدياد عزلتهم إذا اجتمعت الولايات المتحدة مع الصين. وهكذا أدّت حركة كيسنجر إلى دفعهم إلى مائدة المفاوضات. ولهذا التكتيك شبيه في مجال الإغواء. إذ أن ستاندال ينصحك، إذا أردت إغواء امرأة، بأن تغازل أختها أولاً.

إبق مترفعاً وسيأتي الناس إليك. إذ سيصبح كسب عواطفك نوعاً من التحدّي لهم. وما دمت تقلّد الملكة العذراء وتذكي آمالهم فإنك ستظل مغناطيسياً يجتذب الاهتمام والرغبة.

صــورة:
الملكة العذراء مركز
الاهتمام، والرغبة، والعبادة
فلم تخضع قطّ لهذا الخاطب أو
ذاك. بل إن الملكة العذراء أبقتهم
جميعاً يدورون حولها مثل الكواكب،
عاجزين عن الإفلات من فلكها،
ولكنهم لم يقتربوا منها
أكثر على الإطلاق.

الشاهد: لا تلزم نفسك بأي شخص ولا بأي شيء، لأن ذلك يجعلك عبداً، عبداً لكل إنسان... وقبل كل شيء، إبق نفسك حراً من الالتزام والتعهدات، إذ أنها هي تدبير الشخص الآخر لاجتذابك إلى سلطته ليطويك تحت جناحه...

(بلثازار غراسيان، ١٦٠١ ـ ١٦٥٨)

القسم الثاني: لا تلتزم بأحد ـ
ابق متسامياً فوق المعمعة

لا تدع الناس يجرُّونك إلى مشاجراتهم ومشاحناتهم الصغيرة. أَظْهِرْ لهم أنك مهتم ومؤيِّد، ولكن اعثر على طريقة للبقاء على الحياد؛ دع الآخرين يقومون بالاقتتال، وقف على مبعدة، مراقباً ومنتظراً. وعندما يرهق الاقتتال الأطراف المشتركة فيه، فإنهم سيكونون ناضجين للقطاف. والواقع أنك تستطيع أن تجعل إثارة المشاجرات بين الناس مهنة تمارسها، ثم تعرض عليهم وساطتك، فتكتسب سلطة كوسيط فيما بينهم.

مراعاة القانون

في أواخر القرن الخامس عشر، وجدت أقوى المدن ـ الدول الإيطالية ـ البندقية، وفلورنسا، وروما وميلانو ـ نفسها منغمسة في تناحر متواصل. وفوق صراعاتها ترفرف وتحوم الأمتان الفرنسية والإسبانية، على استعداد لالتقاط ما تقدران عليه من القوى الإيطالية التي أضعفها الاقتتال، وقد وقعت في وسطها دولة مانطُوَا الصغيرة، التي كان يحكمها الدوق الشاب جيان فرانشيسكو غونزاغا. وكان موقع مانطوا استراتيجياً في شمال إيطاليا. وبدت المسألة مسألة وقت قبل أن تبتلعها واحدة من القوى، فينتهي وجودها كدولة مستقلة.

وكان غونزاغا مقاتلاً شرساً وقائداً بارعاً للقوات، وقد أصبح نوعاً

الجدآن، والغربان، والثعلب

اتفقت الجدآن والغربان فيما بينها على تقاسم كل شيء يتم الحصول عليه من الغابة مناصفة. وذات يوم شاهدوا ثعلباً جرحه الصيادون مضطجعاً بلا حول ولا قوة تحت شجرة. فتجمهروا حوله. فقالت الغربان: «سنأخذ النصف العلوي من الثعلب». فقالت الجُدآن: «إذن فسنأخذ نحن النصف السفلي». وعندئذ ضحك الثعلب وقال: «كنت أظن دائماً أن الجدآن متفوقون

من قادة المرتزقة يعمل لأي طرف يدفع أفضل من غيره. وفي سنة 1490، تزوَّج إيزابيلا دِيسْتْ، ابنة حاكم دوقية إيطالية صغيرة أخرى هي دوقية فيرارا. وبما أنه كان يقضي معظم وقته بعيداً عن مانطوا، فقد وقعت مسؤولية الحكم بدلاً منه على إيزابيلا.

وجاء الاختبار الأول لها كحاكمة في سنة 1498، عندما كان ملك فرنسا لويس الثاني عشر يجهِّز جيوشه للهجوم على ميلانو. فبدأت الدول الإيطالية، بطريقتها القائمة على الغدر والخيانة، تبحث فوراً عن طرق للاستفادة من مصاعب ميلانو. ووعد البابا آليكساندر السادس بالتدخل، وبذلك أطلق يد فرنسا. كما أعطى البنادقة إشارة بأنهم لن يساعدوا ميلانو كذلك ـ وفي مقابل ذلك كانوا يأملون أن يعطيهم الفرنسيون مانطوا. وهكذا وجد حاكم ميلانو، لودوفيكو سْفُورْزَا، نفسه وحيداً تخلَّى عنه الجميع فجأة. فتوجه إلى إيزابيلا دِيسْتْ، التي كانت واحدة من أقرب أصدقائه (وقد أشيع أيضاً أنها كانت عشيقته)، وتوسَّل إليها أن تقنع الدوق غونزاغا بأن يهب لنجدته. وحاولت إيزابيلا، ولكن زوجها رفض أن يتحرَّك لأنه كان يرى أن قضية سفورزا لا أمل فيها. وهكذا انقضَّ لويس على ميلانو في سنة 1499، فأخذها بسهولة.

وراحت إيزابيلا تواجه مأزقاً: فإذا بقيت على ولائها للودوفيكو فسوف يتحرَّك ضدها الفرنسيون، ولكنها إذا تحالفت مع فرنسا بدلاً من ذلك، فسوف تكسب عداوات في أماكن أخرى من إيطاليا؛ مما يضع مانطوا في موقف حرج وخطير عند انسحاب لويس في آخر الأمر. وإذا تطلَّعت إلى البندقية أو روما لمساعدتها فسوف تقومان بابتلاعها، ببساطة، تحت ستار المجيء لمساعدتها. ومع ذلك كان عليها أن تفعل شيئاً مَا، إذ أن ملك فرنسا القوي كان ذا حضور ضاغط داهم وكأن أنفاسه تلفح رقبتها. فقرَّرت أن تصادقه، كما صادقت لودوفيكو سفورزا من قبل، بالهدايا المغرية، والرسائل الذكية المليئة بالفطنة والعبارات

في الخِلقة على الغربان، وعلى ذلك فيجب أن يحصلوا على الجزء العلوي من بدني، الذي يشكّل راسي جزءاً منه، بما فيه من المخ وغيره من الأفاوية اللطيفة» فقالت الجِدآن: «نعم، هذا صحيح، سنأخذ ذلك الجزء من الثعلب». فقالت الغربان: «كلا، أبداً، بل يجب أن نحصل عليه نحن، كما اتفقنا للتوّ». وهكذا نشبت حرب بين الطرفين المتنافسين، وسقط كثيرون من كلا الجانبين، ونجا القلائل الباقون بصعوبة. وبقي الثعلب هناك أياماً يقتات على مهل على الجِدآن والغربان الميّتة. ثم غادر المكان وهو مَرِحٌ وبصحة جيدة. وقال: «يستفيد الضعيف من مشاجرات الأقوياء».

خرافات هندية

الرشيقة. وبإمكانية مصاحبتها، لأن إيزابيللا كانت مشهورة كإمرأة ذات جمال وفتنةٍ آسرة لا تضاهى.

وفي سنة 1500، دعا لويس إيزابيللا إلى حفلة عظمى في ميلانو للاحتفال بانتصاره. وبنى ليوناردو دافنشي أسداً ميكانيكياً هائلاً. عندما يفتح فمه تتدفق منه زنابق طازجة، هي رمز الملكية الفرنسية. وفي الحفلة كانت إيزابيللا ترتدي واحداً من فساتينها الشهيرة (فقد كانت عندها خزانة ملابس أكبر مما تملكه أي أميرة في إيطاليا) ومثلما كانت تأمل بالضبط، فقد فتنت لويس وأسرته.. فتجاهل كل السيدات اللواتي تنافسن على إثارة اهتمامه. وسرعان ما صارت رفيقته الدائمة. وفي مقابل صداقتها تعهَّد بحماية استقلال مانطوا عن البندقية.

غير أن تراجع أحد الأخطار تلاه نشوء خطر آخر أكثر إثارة للقلق؛ وقد جاء هذه المرة من الجنوب، على شكل سيزار بورجيا. فقد بدأ بورجيا في سنة 1500، يزحف نحو الشمال باطراد مبتلعاً جميع الممالك الصغيرة في طريقه باسم أبيه، البابا آليكساندر. وكانت إيزابيللا تفهم سيزار فهماً كاملاً: فلا يمكن الثقة به، كما لا يمكن إهانته بحال من الأحوال. فكانت مضطرة إلى مصانعته بالتملق وإبقائه على مبعدة. وبدأت إيزابيللا بإرسال الهدايا إليه ـ صقور صيد، وكلاب ممتازة، وعطور، وعشرات من الأقنعة التي كانت تعرف أنه يرتديها دائماً كلما سار في شوارع روما. وأرسلت رسلاً يحملون تحيَّات فيها مداهنة متزلفة (رغم أن هؤلاء الرسل كانوا يعملون جواسيس لها كذلك). وفي إحدى المراحل سألها سيزار عما إذا كان يستطيع إيواء بعض القوات في مانطوا؛ فاستطاعت إيزابيللا أن تثنيه عن ذلك بأسلوب مهذَّب، إذْ أنها كانت تعلم جيداً أن القوات إذا رابطت في المدينة فلن تغادرها قطّ.

وحتى عندما كانت إيزابيللا تسحر سيزار بفتنتها، فقد أقنعت كل من حولها بالحرص على عدم التفوّه بكلمة قاسية واحدة عنه، فقد كان له جواسيس في كل مكان. وكان سيستخدم أية ذريعة للغزو. وعندما

إن ذوي القدرات العظيمة بطيئون في العمل. لأن تجنب المناسبات التي تلزم بها نفسك أسهل من إخراج نفسك من الالتزام سالماً. فمثل هذه المناسبات تمتحن قدرتك على الحكم. وتجنّبها أسهل من الخروج منها منتصراً. فكل التزام يؤدي إلى التزام أكبر فتقترب جداً من حافة الهاوية.

بلثازار غراسيان، 1601 ـ 1658

قبل بلثازار هذا بألف عام، سأل معاوية عَمْروَ بن العاص عما بلغ من دهائه فقال: كنت لا أدخل مدخلاً إلاّ وتمكّنتُ من الخروج منه سالماً. فردّ معاوية: أما أنا فلا أدخل في مدخل إلاّ إذا ضمنت السلامة فيه سلفاً.

وقال الشاعر:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له
بوادرُ تحمي صَفْوَه أن يكَدَّرا

أنجبت إيزابيللا طفلاً، طلبت من سيزار أن يكون العرَّاب. بل أَذَلَتْ أمامه بإمكانية المصاهرة بالزواج بين أسرتها وأسرته. وبطريقةٍ مّا فعلت هذه الأساليب فعلها، لأن سيزار اكتسح كل شيء في طريقه واستولى عليه.. ولكنه أبقى على مانطوا.

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا أورد الأمرَ أصدَرا وكانت العرب تقول: «اتّقوا غضب الحليم». لأن غضبه بطيء ولكنه إذا حدث كان مدمّراً.

[المترجم]

وفي سنة 1503، مات أبوه آليكساندر، وبعد بضع سنين خاض البابا الجديد، جوليوس الثاني، حرباً لطرد القوات الفرنسية من إيطاليا. وعندما انحاز حاكم فيرارا ـ آلفونصو، شقيق إيزابيللا ـ إلى جانب الفرنسيين، قرَّر جوليوس مهاجمته وإذلاله. ووجدت إيزابيللا نفسها وسط المعمعة من جديد: فالبابا في جانب، والفرنسيون وأخوها في الجانب الآخر. فلم تجرؤ على التحالف مع أي منهما. ولكن إهانة أي منهما كانت ستجلب كارثة كذلك. ومرة أخرى راحت تلعب لعبة الشك التي صارت خبيرة بها. فمن جهة أقنعت زوجها غونزاغا بالقتال إلى جانب البابا وهي تعلم أنه لن يقاتل بشدة كبيرة. ومن جهة أخرى سمحت للقوات الفرنسية بالمرور عبر مانطوا في طريقها لمساعدة فيرارا. وبينما راحت تشكو علناً من أن الفرنسيين قد «غزوا» أراضيها، فقد زودتهم سراً بمعلومات قيِّمة. ولكي تجعل الغزو يبدو معقولاً ظاهرياً لجوليوس، جعلت الفرنسيين يتظاهرون بنهب مانْطُوَا. وفعلت خطتها فعلها ثانيةً: فترك البابا مانطوا وشأنها.

وفي سنة 1513، وبعد حصار متطاول، دحر البابا فيرارا، وانسحب الفرنسيون. غير أن البابا، وقد أرهقه هذا الجهد، مات بعد أشهر قليلة. وبموته بدأت الدائرة الكابوسية من المعارك والمشاحنات الصغيرة تعيد نفسها.

لقد تغيَّرت أشياء كثيرة في إيطاليا أثناء عهد إيزابيللا. فقد جاء بابوات وذهبوا، وصعد سيزار بورجيا ثم سقط، وفقدت البندقية إمبراطوريتها. وغُزِيَتْ ميلانو، واضمحلَّت فلورنسا، ونُهِبَتْ روما على يد إمبراطور آل هابسبرغ الإسباني شارلس الخامس. وخلال هذا كله، لم

تنج مانطوا الصغيرة فحسب، بل ازدهرت، وصار بلاطها موضع حسد إيطاليا. وقيِّض لثرائها وسيادتها، أن يظلاَّ متماسكين قرناً كاملاً بعد وفاة إيزابيللا في سنة 1539.

التفسير

كانت إيزابيللا دِيسْتْ، تفهم وضع إيطاليا السياسي بوضوح مذهل. فما أن تنحاز إلى جانب أي من القوى في الميدان حتى تحكم على نفسك بالهلاك. فالقوي من شأنه أن يستولي عليك، والضعيف من شأنه أن يستنزفك. وأي تحالف جديد سيؤدي إلى عدو جديد. وبما أن هذه الدائرة كانت تثير مزيداً من المنازعات، فإن قوى أخرى سوف تُجَرُّ إليها، حتى لا تعود قادراً على تخليص نفسك، وفي نهاية الأمر سيكون من شأنك أن تنهار من الإنهاك المضني.

فوجَّهت إيزابيللا مملكتها عبر الطريق الوحيد الذي من شأنه أن يوصلها إلى برِّ الأمان. فلم تسمح لنفسها أن تفقد اتزان تفكيرها من خلال الولاء لدوق أو ملك. ولم تحاول إيقاف الصراع المستعر من حولها، لأن ذلك كان سيجرّها إلى أتونه. وعلى أية حال فقد كان في الصراع فائدة لها. فإذا كانت الأطراف المختلفة تقتتل حتى الموت، وتنهك نفسها في تلك العملية، فإنها لن تكون في وضع يمكِّنها من ابتلاع مانطُوا. وكان مصدر قوة إيزابيللا هو قدرتها البارعة على التظاهر بالاهتمام بشؤون كل طرف ومصالحه، بينما هي لم تلتزم عملياً إلاَّ بنفسها ومملكتها.

إذا دخلت في قتال ليس من اختيارك فإنك ستفقد كل مبادرة. لأن مصالح المتقاتلين تصبح مصالحك، وتصبح أنت أداة لهم. تعلَّم السيطرة على نفسك، وأن تكبح ميلك الطبيعي للانحياز إلى طرف من الأطراف والاشتراك في القتال. كن ودوداً وجذاباً لكل من المتقاتلين، ثم ابتعد عندما يتصادمون. فمع كل معركة سيصبحون أضعف، بينما تصبح أنت أقوى مع كل معركة تتجنَّبها.

انثى النسر والخنزيرة

بَنَتْ أُنثى نسرٍ عُشّاً على شجرة وفقست فيه صغارها. وجاءت خنزيرة بريَّة بجرائها تحت الشجرة. فكانت أنثى النسر تطير بعيداً وراء فرائسها، وتأتي بها إلى صغارها. وكانت الخنزيرة تقلب الأرض حول الشجرة وتصطاد في الغابة، فإذا جنّ عليها الليل جاءت لجرائها بشيء تأكله.

وعاشت أنثى النسر والخنزيرة في حسن جوار. فوضعت هرّة عجوزٌ خطّتها لتقضي على فراخ النسر وجراء الخنزيرة، فجاءت إلى أنثى النسر وقالت لها: «من الأفضل أن لا تطيري بعيداً. احذري من الخنزيرة. إنها تخطط لمؤامرة شريرة، وسوف تقوّض جذور الجشرة، فأنت ترينها تقلب التراب بفنطيستها طيلة الوقت».

ثم ذهبت القطة العجوز إلى الخنزيرة وقالت لها: «أيتها الخنزيرة، ليست لديك جارة طيّبة، فإني سمعت أنثى النسر تقول لفراخها: «يا فراخي العزيزة، سأطعمكم خنزيراً صغيراً لطيفاً، فما أن تذهب الخنزيرة حتى آتيكم بخنزير صغير رضيع».

ومنذ ذلك الحين لم تعد أنثى النسر تطير خلف الفرائس، ولم تعد الخنزيرة تذهب إلى الغابة. فهلكت فراخ الأولى وجراء الثانية جوعاً، وتغذّت عليهم السنورة العجوز.

خرافات
ليو تولستوي، 1910 - 1828

عندما يتصارع الجهلول (طائر طويل المنقار) وبلح البحر فإن صياد السمك هو المستفيد.

قول صيني قديم

مفاتيح السلطة

لكي تنجح في لعبة السلطة، يتعيَّن عليك أن تتحكَّم في عواطفك. ولكن حتى إذا نجحت في الحصول على مثل هذه السيطرة على النفس، فإنك لن تستطيع قطّ أن تسيطر على الأمزجة المتقلبة لمن حولك. ويمثل هذا خطراً كبيراً. فمعظم الناس يتصرفون وسط دوامة من العواطف، فيبدون ردود فعل باستمرار، فيثيرون مشاجرات وصراعات. فتحكمك بنفسك واستقلالك لن ينجم عنه إلاّ إقلاقهم وإثارة غيظهم. فيحاولون جرَّك إلى الدوامة، متوسلين إليك أن تنحاز إليهم في معاركهم التي لا تنتهي، أو أن تصالحهم لتُحِلَّ السلام فيما بينهم. فإذا خضعت لمناشداتهم العاطفية فسوف تجد ذهنك أنت ينشغل شيئاً فشيئاً بمشاكلهم هم. فلا تسمح لأي تعاطف أو شفقة تملكهما أن يمتصَّاك إلى داخل الأتون. فهذه لعبة لن تستطيع كسبها؛ إذْ أنَّ الصراعات لا يمكن إلاَّ أن تتكاثر وتتوالد.

ثمن الحسد

بينما كانت امرأة فقيرة واقفةً في السوق تبيع الأجبان، جاء قِطٌّ فاختطف قطعةَ جبن. ورأى كلبٌ السارق فحاول أن يأخذ منه قطعة الجبن. فصمد القط في وجه الكلب، واشتبك الاثنان، فنبح الكلبُ وَهَرَّ بخشونة، وبصق القطّ وخمش، ولكنهما لم يتمكّنا من حسم المعركة. فاقترح القطّ في آخر الأمر. «دعنا نذهب إلى الثعلب ونحكِّمه في هذه القضية». فقال الكلب: «موافق». فذهبا إلى الثعلب.

ومن جهة أخرى فإنك لا تستطيع أن تتنحَّى جانباً بشكل كامل، لأن ذلك سيسبب إهانةً لا ضرورة لها. فلكي تمارس اللعبة على نحو ملائم، يتعيَّن عليك أن تبدو مهتماً بمشاكل الآخرين، بل وأن تبدو أحياناً كأنك تنحاز إلى جانبهم. ولكن بينما ترسل إشارات خارجية سطحية من الدعم، فإن عليك أن تحافظ على طاقتك الداخلية، وعقلانيتك بإبقاء عواطفك غير مشتبكة أو مشغولة. ومهما حاول الناس بشدة أن يجرّوك إلى الداخل، فلا تدع اهتمامك بشؤونهم ومناحراتهم التافهة يتعدَّى السطح أبداً. اعطهم هدايا، واستمع إليهم بنظرة متعاطفة معهم. بل والعب دور الساحر الجذاب بين الفينة والفينة، ولكن من الناحية الداخلية، أبق كلاً من الملوك المتوددين وأمثال بورجيا من الغدارين،

على مبعدة منك جميعاً على حدٍّ سواء. إذ أنك برفض الالتزام، وبالحفاظ على استقلالك، تحتفظ بزمام المبادرة. فتظل تحركاتك خاضعة لاختيارك أنت، وليست ردود فعل دفاعية إزاء الدفع والسحب والجذب ممَّن هم حولك.

إن تباطؤك في سحب سلاحك قد يكون بحد ذاته سلاحاً، وخصوصاً إذا تركت الآخرين ينهكون أنفسهم بالاقتتال، ثم استفدت من استنزافهم المنهك.

ففي الصين القديمة، قامت مملكة شين ذات مرة تغزو مملكة هْسِينْغْ. فاعتقد هْوَانْ، حاكم مقاطعة مجاورة لها، أنه ينبغي عليه أن يهرع للدفاع عن هسينغ، ولكن مستشاره نصحه بالانتظار، قائلاً: «إن هسينغ لم تُدَمَّر بعد، وشين لم تُسْتَنْزَفْ بعد، وإذا لم تُستنزَف شين [فإننا] لن نكون ذوي تأثير كبير. وبالإضافة إلى ذلك فإن فضل دعم دولة في خطر ليس كبيراً بحجم فضيلة إحياء دولة مدمرة». فأخذ ذلك الحاكم بنصيحة مستشاره هذه. وكما توقع، فقد حصل هوانغ فيما بعد، على المجد من طرفيه، وهما: إنقاذ هسينغ من حافة الدمار، ومن ثم غزو شين المستنزَفة. فقد بقي خارج القتال حتى أنهكت القوات المشتركة فيه بعضها بعضاً. وعند تلك النقطة، كان تدخله سليماً.

فهذا ما يسمح لك به إمساكك عن الانغماس في المعمعة: وقتٌ لتضع نفسك في مركز الاستفادة من الوضع عندما يبدأ أحد الطرفين بالاندحار. ويمكنك أيضاً أن تسير في اللعبة خطوة أبعد، بالوعد بدعم كلا طرفي الصراع بينما أنت تناور لكي تكون أنت الطرف الخارج رابحاً من الصراع. فهذا هو ما فعله كاستروشيو كاستراكاني، حاكم مدينة لوكا الإيطالية في القرن الرابع عشر عندما كانت لديه مخططات ضد مدينة بيستويا. فقد كان حصارها باهظاً يكلف أرواحاً وأموالاً. ولكن كاستروشيو كان يعرف أن بيستويا فيها فئتان متنافستان تكره كل منهما الأخرى، وهما السود والبيض. فتفاوض مع السود، واعداً بمساعدتهم

فاستمع إلى حججهما بحكمة القاضي ثم وبّخهما قائلاً: «أيها الحيوانان الأحمقان، لماذا تستمرّان هكذا؟ فإن أردتما قسمت قطعة الجبن بينكما فترضيان كلاكما». فقال القط والكلب: «موافقان». فتناول الثعلب سكّينهُ وقطع الجبنة إلى قطعتين. ولكنه بدلاً من قَطْعِها بالطول، قَطَعَها بالعرض. فاحتجّ الكلب: «قطعتي أصغر!» فنظر الثعلب بحكمة من خلال نظّارتيه إلى قطعة الكلب، وقرّر: «أنت على حق، على حق تماماً!» وهكذا قضم قطعةً من حصة القطّ، قائلاً: «هذا سيجعلهما حصّتين متساويتين!» وعندما رأى القط ما فعل الثعلب شرع يولول: «انظر! لقد صارت حصّتي أصغر الآن!». فلبس الثعلب نظّارتيه، ونظر بحكمة إلى حصّة القطّ وقال: «أنت على حقّ! انتظر لحظة، وسأصحّح الوضع»، وعاد فقضم قطعة من حصّة الكلب. واستمرّ هذا الأمر طويلاً والثعلب يقضم تارةً من حصّة الكلب وتارةً من حصّة القطّ حتى أكل قطعة الجبن كلها أمام أعينهما.

مجموعة قصص شعبية
تحرير: ناثان أوسوبيل، 1948

ضد البيض؛ وبدون علمهم، وعد البيض بمساعدتهم ضد السود. وقد وفى كاستروشيو بوعوده للفريقين، فأرسل جيشاً إلى بوابة للمدينة يسيطر عليها السود، فرحَّب به الحرس وأدخلوه بالطبع. وفي تلك الأثناء دخل واحد آخر من جيوشه عبر بوابة يسيطر عليها البيض. واتحد الجيشان في وسط المدينة فاحتلاها وقتلا قادة الفئتين معاً، وأنهيا الحرب الداخلية، واستوليا على بيستويا لصالح كاستروشيو.

إن المحافظة على استقلالك يعطيك خيارات عندما يتبادل الناس الضربات ـ فتستطيع أن تؤدي دور الوسيط الساعي إلى السلام بينما أنت في الحقيقة منهمك في تأمين مصالحك الخاصة. وتستطيع أن تتعهد بمساعدة طرفه، وقد يتودَّد إليك الطرف الثاني بعرضٍ أعلى، أو قد تظهر أنك تتعامل مع الطرفين معاً، مثل كاستروشيو، ثم تحرِّض كلاً من الطرفين المتعاديين على الآخر.

وفي غالب الأحيان قد تتعرَّض لإغراء الانضمام إلى الطرف الأقوى عندما يندلع صراع، أو إلى الطرف الذي يعرض عليك مزايا ظاهرة في تحالف. فهذه مسألة فيها مخاطر. فأولاً كثيراً ما يكون من الصعب التنبؤ بالطرف الذي سيكسب في المدى البعيد. وحتى إذا كان حدسك صحيحاً وتحالفت مع الطرف الأقوى، فقد تجد نفسك مبلوعاً وضائعاً، أو منسياً لأن ذلك يناسب المنتصرين عند كسبهم للمعركة. ومن جهة أخرى فإنك إذا انضممت إلى الطرف الأضعف، فقد حكمت على نفسك بالهلاك. ولكن العب لعبة الانتظار، ولن تكون خاسراً.

في ثورة تموز/ يوليو 1830، في فرنسا، وبعد ثلاثة أيام من الشغب والاضطرابات، جلس السياسي الفرنسي تاليران ـ الذي أصبح عجوزاً ـ عند شبَّاكه في بيته بباريس، ينصت إلى النواقيس التي راحت تقرع إيذاناً بانتهاء الاضطرابات. فالتفت إلى مساعدٍ له وقال: «آه، النواقيس! إننا نفوز»، وسأله المساعد من هم «نحن» يا أميري؟ فأشار إليه تاليران أن

يلزم الهدوء، ثم ردَّ عليه: «لا تنطق بكلمة! سأقول لك مَنْ «نحن» غداً». كان يعرف أن الحمقى فقط هم الذين يتسرَّعون في وضع كهذا. وأن التعجل في الالتزام يجعلك تفقد القدرة على المناورة. كما أن احترام الناس لك يتناقص. فيفكِّرون أنك قد تلتزم قضيةً أخرى مختلفة غداً، ما دمت قد أعطيت نفسك بمثل هذه السهولة لهذه القضية. فالحظ السعيد إله متقلب كثيراً ما يمرّ من هذا الجانب إلى ذاك. فالالتزام بجانب واحد يحرمك من ميزة الوقت ورفاهية الانتظار. دع للآخرين أن يقعوا في غرام هذه الجماعة أو تلك؛ أما أنت فلا تهجم من ناحيتك، ولا تفقد اتزانك.

وأخيراً، فإن هناك مناسبات يكون أعقل تصرفٍ فيها هو أن تتخلّى عن كل تظاهر بمظهر الدعم، وبدلاً من ذلك تعلن على الملأ استقلالك واعتمادك على نفسك. فوقفة الاستقلال الباذخة الفخمة هامة على وجه الخصوص للذين يحتاجون إلى كسب الاحترام. وقد أدرك ذلك جورج واشنطن في عمله لتأسيس الجمهورية الأميركية الفتيّة على أرض صلبة. وبصفته رئيساً، فقد تجنَّب إغراء عقد تحالف مع فرنسا أو إنكلترا، رغم الضغط عليه كي يفعل. فقد كان يريد للبلد أن يكسب احترام العالم من خلال استقلالها. ورغم أن معاهدة مع فرنسا كان يمكن أن تساعده في الأمد القصير، فقد كان يعلم أن إقامة استقلال الأمة سيكون أكثر فعالية على المدى البعيد، لأن على أوروبا أن ترى الولايات المتحدة كقوة مساوية لها.

تذكَّر: ليس لك سوى طاقة محدودة وزمن محدود. وكل لحظة تهدرها على شؤون الآخرين تنقص من قدرتك. وقد تخشى من إدانة الناس لك باعتبارك شخصاً بلا قلب، ولكن حفاظك على استقلالك واعتمادك على نفسك سيكسب لك في آخر الأمر مزيداً من الاحترام ويضعك في مركز سلطة تستطيع منه أن تختار أن تساعد الآخرين بمبادرة تملكها أنت.

صورة: أجَمَة شجيراتٍ في الغابة، تلتصق شجيرة بأخرى فتشتبك مع جارتها بأشواكها وتمدّ الأجَمَة ببطءٍ مجالها غير القابل للاختراق. فلا يستطيع النموّ والارتفاع فوق الأجَمَة إلاّ ما يبقى على مبعدة ويقف منفصلاً.

الشاهد: اعتبر أن عدم التورُّط في اشتباك هو عمل أشجع من الفوز في المعركة، وحيث يوجد أحمق واحد متدخِّل من قبل، احرص على أن لا يكون هناك اثنان.

(بلثازار غراسيان، 1601 ـ 1658).

الانقلاب

إن قِسْمَيْ هذا القانون كليهما ينقلبان ضدك إن جعلته يزيد عن حدِّه. فاللعبة المقترحة هنا دقيقة وصعبة. فإذا حرَّضت أطرافاً أكثر من اللازم ضد بعضها بعضاً فقد تكشف الأطراف مناورتك فتتفق عليك معاً. وإذا أبقيت الأعداد المتزايدة من خُطَّاب ودك ينتظرون وقتاً أطول من اللازم فسوف لن توحي لهم بالرغبة، بل بعدم الثقة، ويبدأ الناس في فقدان اهتمامهم بك. وفي آخر الأمر قد تجد أن الأمر جدير بالتزام أحد الأطراف، ولو من أجل التظاهر فقط كي تثبت أنك قادر على الارتباط.

وحتى عند الالتزام فإن المفتاح يكمن في صيانة استقلالك الداخلي وحماية نفسك من التورط العاطفي. فحافظ على الخيار الصامت، أي قدرتك على الانسحاب أو المغادرة في أي لحظة لاستعادة حريتك إذا بدأ الطرف الذي أنت متحالف معه في الانهيار. وعند قفزك من السفينة فسيعطيك الأصدقاء الذين كسبتهم أثناء عملية التودد إليك كثيراً من الأماكن البديلة.

القانون

21

العب دور المغفل لتمسك بمغفل ـ اظْهِرْ أنَّك أبلد من هدفك

الحكم

لا أحد يحب الشعور بأنه أغبى من الشخص الآخر. فالخدعة إذن هي أن تجعل ضحاياك يشعرون بأنهم أذكياء ــ وليسوا أذكياء فقط، بل أذكى منك. وعندما يقتنعون بذلك، فإنهم لن يشُكُّوا أبداً في أن لديك أهدافاً خفية.

مراعاة القانون

في شتاء سنة 1872، كان المموِّل الأميركي آزبري هاربندنغ، يزور لندن عندما تلقَّى برقية: لقد تم اكتشاف منجم ماس في الغرب الأميركي. وقد جاءت البرقية من مصدر موثوق به ـ هو وليام رالستون، صاحب مصرف كاليفورنيا ـ ومع ذلك فقد اعتبرها هاربندنغ نكتة عملية، ربما أوحى بها الاكتشاف الحديث لمناجم الماس الضخمة في جنوب إفريقيا. صحيح أن الجميع كانوا متشككين عندما وردت أول التقارير عن اكتشاف الذهب في الولايات المتحدة الغربية، ثم اتضح أن تلك التقارير كانت صحيحة. أمّا ظهور منجم ماس في الغرب! عرض هاربندنغ البرقية على زميله المموِّل، البارون روتشيلد (واحد من أغنى رجال العالم)، قائلاً إنها لا بد أن تكون نكتة. غير أن البارون أجاب: «لا تكن متأكداً من ذلك بشكل زائد عن الحد، فأميركا بلد شاسع جداً، وقد أعطت العالم كثيراً من المفاجآت في السابق. فلعل لديها مفاجآت أخرى مختزنة». وعلى الفور عاد هاربندنغ إلى الولايات المتحدة في أول سفينة وجدها.

وعندما وصل إلى سان فرانسيسكو كانت في الجو إثارة حماسية تعيد إلى الذاكرة أيام هجمة الذهب في أواخر أربعينات القرن التاسع عشر. وكان الباحثان القاسيان فيليب أرنولد وجون سلاك هما اللذان عثرا على منجم الماس. ولم يبوحا بموقعه في وايومينغ، ولكنهما كانا قبل ذلك بعدة أسابيع قد اصطحبا إليه خبيراً محترماً للغاية. وسلكا به طريقاً

لا يفخر الإنسان بشيء أكثر من افتخاره بقدرته العقلية، لأنها هي التي بوّأته مكانته القيادية في عالم الحيوان. وإنه لأمرٌ متهوِّرٌ للغاية أن تجعل أيَّ شخص يرى أنك متفوق عليه بشكل حاسم في هذا المجال، وأن تجعل الآخرين يرون ذلك أيضاً... وعليه فبينما تستطيع الثروة والمكانة أن تعتمدا دائماً على معاملة محترمة في المجتمع، فإن هذا شيء لا تستطيع القدرة العقلية أن تتوقعه أبداً. بل إن تجاهل الناس لها هو أفضل معروفٍ يُسْدَى إليها وإذا تنبّه الناس إليها على الإطلاق، فإن السبب هو أنهم يعتبرونها قطعةً من الوقاحة، أو يرون أن صاحبها ليس له حق مشروع فيها، ومع ذلك فهو يجرؤ على الافتخار بها، ورداً على ذلك، وانتقاماً من سلوكه، يحاول الناس سراً أن يُذلّوه بطريقة أخرى. وإذا أجّلوا ذلك فإنما يؤجّلونه إلى فرصة مناسبة. فقد يكون الإنسان متواضعاً في سلوكه بالقدر المستطاع. ولكنه لا

متعرِّج الدوائر كي لا يحدس مكانه. وعند وصول الخبير قام بالمراقبة أثناء استخراج الماس من المنجم. وعند عودته إلى سان فرانسيسكو أخذ الجواهر المستخرجة إلى تجار مختلفين فقدَّر أحدهم قيمتها بمليون ونصف مليون دولار.

فطلب هاربندنغ ورالستون من آرنولد وسلاك أن يرافقاهما عائدين إلى نيويورك، حيث يقوم تاجر الجواهر شارلس تيفاني بالتدقيق في التقديرات الأصلية. فردَّ الباحثان عن الماس رداً قلقاً ــ فقد شمَّا رائحة فخ: كيف يثقان بسكان المدن الأنيقين المخادعين؟ وماذا إنْ تَدَبَّر تيفاني والممولون أمْر سرقة المنجم كله من تحت أنوفهم؟ حاول رالستون تخفيف مخاوفهما بإعطائهما مائة ألف دولار ووضع ثلاثمائة ألف دولار لحسابهما لدى طرف ثالث. فوافق صاحبا المنجم على ذلك.

وسافرت المجموعة الصغيرة إلى نيويورك، حيث عقد اجتماع في قصر صاموئيل ل. بارلو، بحضور زهرة أرستقراطيِّي المدينة ــ الجنرال جورج بريتون ماكليلان، قائد القوات الاتحادية في الحرب الأهلية؛ والجنرال بنيامين بتلر، وهوراس غريلي، رئيس تحرير صحيفة **النيويورك تريبيون**؛ وهاربندنغ؛ ورالستون؛ وتيفاني. ولم يتغيَّب سوى سْلاَكْ وآرنولد ــ فقد قرَّرا أن يذهبا للتنزه، باعتبارهما سائحين في المدينة.

وعندما أعلن تيفاني أن الجواهر حقيقية، وقيمتها تعادل ثروة، لم يكد الممولون يستطيعون السيطرة على حماسهم. فأبرقوا إلى روتشيلد وغيره من ملوك المال لإخبارهم عن منجم الماس ودعوتهم للمشاركة في استثماره. وفي الوقت نفسه، أخبروا المنقبين أنهم يريدون إجراء اختبار آخر. إذْ أنهم أصرُّوا على أن يذهب خبيرٌ من اختيارهم بصحبة سلاك وآرنولد إلى الموقع للتأكد من ثروته. فوافق المنقبان على م. وفي تلك الأثناء قالا إنهما مضطران إلى العودة إلى سان فرانسيسكو. أما الجواهر التي فحصها تيفاني فقد تركاها وديعة عند هاربندنغ.

يكاد يجعلهم يضربون صفحاً عن جريمة شموخ قامته فوقهم عقلياً. ففي ديوان بستان الورد، يقول [الشاعر الفارسي] السعدي:

«ينبغي عليك أن تعرف أن الحمقى يكرهون ملاقاة العقلاء أكثر مائة مرة من نفور العقلاء من صحبة الحمقى».

ومن جهة أخرى، فإن مما يوصى به في الحقيقة أن يتغابى المرء. فمثلما يلائم الدفءُ الجسمَ، فإن العقل يستفيد من الشعور بتفوقه؛ ويسعى المرء إلى الصحبة التي تعطيه مثل هذا الشعور، بالغريزة نفسها التي يقترب بها من الموقد أو يمشي في الشمس إن أراد أن يدفأ ولكن هذا يعني أنه سيتعرض للكراهية بسبب تفوقه. وإذا أراد المرء أن يحبه الآخرون، فإن عليه في الحقيقة أن يكون ناقصاً من الناحية العقلية.

آرثر شوبنهاور
1860 ـ 1788

قبل شوبنهاور بألف عام، تناول شعراؤنا الفحول هذا الموضوع من مختلف جوانبه، فقال أبو الطيِّب المتنبِّي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة يَنْعَمُ!

وقال أبو تمام:

ينال الفتى من رزقه وهو جاهلٌ
ويُكْدَىٰ الفتى في رزقه وهو عالمُ
ولو كانت الأرزاق تُجْرَىٰ على الحِجَىٰ
هَلَكْنَ إذنْ من جهلهنَّ البهائمُ!

وقال المعرِّي:

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً
تجاهلتُ حتى ظُنَّ أنِّي جاهلُ

وبعد عدة أسابيع التقى بالمنقِّبَيْن في سان فرانسيسكو رجل يدعى لويس جانين، وهو أفضل خبير تعدين في البلد. وكان جانين شكاكاً بالفطرة، مصمِّماً على التأكد من أن المنجم ليس زائفاً. وكان بصحبته هاربندنغ وعدة ممولين آخرين مهتمين بالموضوع. وكما كان الحال مع الخبير السابق، فقد اقتاد المنقبان الفريق عبر سلسلة معقَّدة من الوديان الضيِّقة بحيث شوَّشا تفكيرهم حول موقع مكانهم. وعند وصولهم إلى الموقع، أخذوا يراقبون جانين مذهولين وهو يحفر المكان طولاً وعرضاً، مسوِّياً التلال الصغيرة، وقالباً كتل الصخر حتى عثر على قطع من الزمرد والياقوت والصفِّير (الياقوت الأزرق الضارب إلى الخضرة) والماس أكثر من كل شيء. واستمر الحفر ثمانية أيام، وفي آخرها اقتنع جانين: فأخبر المستثمرين أنهم باتوا يملكون أغنى حقل في تاريخ التعدين. وقال لهم: «إن مائة رجل معهم الآلات الملائمة يكفون لجعله يضمن إرسال ماساتٍ قيمتها مليون دولار كل ثلاثين يوماً».

وقال الطغرائي:
أَهَبْتُ بالحظ لو ناديتُ مستمعاً
والحظُّ عَنّيَ بالجهال في شُغُلِ
عَلّي إن بدا فضلي ونَقْصُهُمو
نام عنهم أو تنبه لي!
وإن عَلانِي مَنْ دوني فلا عجبٌ
لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحلِ
[المترجم]

وعند العودة إلى سان فرانسيسكو بعد بضعة أيام، تصرَّف هاربندنغ ورالستون وشركاهم بسرعة لتشكيل شركة من المساهمين الخصوصيين الفرديين برأسمال قدره عشرة ملايين دولار. غير أنه كان عليهم أولاً أن يتخلَّصوا من آرنولد وسلاك. وكان ذلك يعني إخفاء حماسهم ـ فلم يكونوا بالتأكيد يريدون كشف القيمة الحقيقية للمنجم ـ. وهكذا لعبوا دور المتمارض أو المتماوت. فقالوا للمنقِّبَيْن: «من يدري إن كان جانين على حق، فإن المنجم قد لا يكون غنياً بقدر ما نفكِّر». فلم ينجم عن ذلك إلاَّ غضب المنقِّبَيْن. فجرَّب المموِّلون خطة تكتيكية أخرى فأخبروا الرجلين أنهما إذا أصرَّا على امتلاك حصص في المنجم فقد ينتهي الأمر إلى أن يسلبهما إياها ملوك المال والمستثمرون عديمو الضمير الذين سيديرون الشركة. وقالوا لهما إن من الخير لهما أن يقبلا بالسبعمائة ألف دولار المعروضة عليهما ـ وكان هذا مبلغاً هائلاً بمقاييس تلك الأيام ـ

ويضعا طمعهما جانباً. فكان هذا شيئاً بَدَا أن المنقبين فهماه، فوافقا أخيراً على أخذ المبلغ لقاء التوقيع على التخلي عن حقهما في الموقع للممولين، مع ترك خرائطه لهم.

وانتشر خبر المنجم كالنار في الهشيم. وتحرَّك المنقبون عبر ولاية وايومينغ. وفي الوقت نفسه شرع هاربندنغ ومجموعته بصرف الملايين التي جمعوها من مستثمريهم، فاشتروا معدات، واستأجروا أفضل العاملين في هذا المجال، وأنشئوا مكاتب باذخة في نيويورك وسان فرانسيسكو.

وبعد بضعة أسابيع، وفي رحلتهم الأولى إلى الموقع، علموا بالحقيقة القاسية المريرة: إذْ لم يعثروا على ماسة أو ياقوتة واحدة. فقد كان الأمر كله مزيفاً. فأصابهم الخراب. لقد اجتذب هاربندنغ ــ عن غير قصد ــ أغنى الرجال في العالم إلى أكبر عملية احتيال في القرن التاسع عشر.

التفسير

لقد نجح آرنولد وسلاك في خدعتهما الهائلة المذهلة ليس باستخدام مهندس مزيف، أو برشوة تيفاني: فقد كان الخبراء كلهم حقيقيين. وكلهم اعتقدوا بصدق بوجود المنجم وبقيمة الجواهر. ولم يكن ما خدعهم جميعاً سوى آرنولد وسلاك نفسيهما. فقد بدا الرجلان ريفيّين أخرقين ساذجين إلى درجة أن أحداً لم يعتقد ولو للحظة واحدة أنهما قادران على مثل هذه الخدعة الجريئة الوقحة. لقد راعى المنقبان ببساطة قانون التظاهر بأنهما أغبى من هدفهما ــ وهذه هي الوصية الأولى للمحتال الماكر.

وكانت التعبويات السُّوْقيَّة للخدعة بسيطة تماماً. فقبل أشهر من الإعلان عن «اكتشاف» منجم الماس، كان آرنولد وسلاك قد سافرا إلى أوروبا، حيث اشتريا بعض الجواهر الحقيقية بحوالي اثني عشر ألف

دولار (هي جزء من المال الذي كانا قد ادخراه من أيام عملهما في التنقيب عن الذهب)، ثم زرعا «المنجم» بهذه الجواهر التي استخرجها الخبير الأول وجاء بها إلى سان فرانسيسكو. أما تجار المجوهرات الذين قوّموا هذه الأحجار، ومعهم تيفاني نفسه فقد أصابتهم الحمى فقدَّروها بأكثر من قيمتها بكثير. ثم دفع رالستون للمنقِّبَيْن مائة ألف دولار كضمانة، فسافرا فوراً إلى آمستردام بعد رحلتهما إلى نيويورك، حيث قاما بكل بساطة بشراء أكياس من الجواهر غير المصقولة، قبل عودتهما إلى سان فرانسيسكو. وفي المرة الثانية التي زرعا فيها المنجم، كان فيه كثير من الجواهر تنتظر مَنْ يعثر عليها.

غير أن فاعلية الخطة لم ترتكز على مثل هذه الحيل، بل على حقيقة كون آرنولد وسلاك قد مَثَّلا دوريهما بإتقان كامل. ففي رحلتهما إلى نيويورك، حيث اختلطا بأصحاب الملايين وملوك المال، حيث ضخَّما صورتهما كريفيين ساذجين أخرقين.. فكانا يرتديان سراويل وسترات أصغر من حجمهما بدرجتين، ويمثلان عدم التصديق المدهوش إزاء كل شيء يريانه في المدينة الكبيرة. فلم يصدق أحد أن هذين المغفلين الريفيين قادران على خداع أكثر ممولي العصر مكراً وتجرداً من المبادىء الخُلُقيَّة. وبمجرَّد أن قبل بوجود المنجم كلٌّ من هاربندنغ، ورالستون، وحتى روتشيلد، فإن أي شخص يشك فيه إنما كان يطعن في ذكاء أنجح التجار ورجال الأعمال في العالم.

وفي خاتمة المطاف، دُمِّرت سمعةُ هاربندنغ، فلم تقم له قائمة بعد تلك الواقعة. وتعلَّم روتشيلد درسه فلم يسقط ضحية لخديعة بعدها قطّ، وأخذ سلاك أمواله واختفى عن الأنظار فلم يعثر له على أثر. أما آرنولد فعاد ببساطة إلى موطنه في كنتكي؛ فقد كان بيعه لحقوقه التعدينية صفقة مشروعة رغم كل شيء؛ وقد تلقى المشترون أفضل مشورة، فإذا ما نضب المنجم من الجواهر فتلك مشكلتهم. واستخدم آرنولد الأموال ليوسع مزرعته كثيراً وليفتح مصرفاً خاصاً به.

مفاتيح السلطة

إن شعورنا بأن شخصاً آخر أذكى منّا هو شعور لا يكاد يطاق. ونحن في العادة نبرره بطرق مختلفة: «لديه معرفة مستقاة من الكتب فقط، أما أنا فمعرفتي حقيقية». «لقد دفع لها والداها كي تتلقى ثقافة جيّدة. ولو كان لدى والديَّ أموال كأموال والديها، ولو كانت لي امتيازاتها...». «إنه ليس من الذكاء بقدر ما يظنّ»، وأخيراً وليس آخراً: «ربما كانت أعرف منّي بحقل اختصاصها الضيّق، ولكنها فيما وراء ذلك ليست ذكية على الإطلاق. وحتى إينشتاين كان ساذجاً خارج نطاق الفيزياء».

ونظراً لأن فكرة الذكاء شديدة الأهمية لغرور معظم الناس، فإن من المهم عدم إهانة قوة ذهن شخصٍ مّا أو الطعن فيها. فذلك ذنب لا يغتفر. ولكنك إن استطعت أن تجعل هذه القاعدة الحديدية تعمل لصالحك، فإنها تفتح أمامك كل أنواع طرائق الخداع. ولذا طَمْئِن الناسَ بدون وعي بأنهم أذكى منك، أو حتى بأن فيك شيئاً من البَلَه والغفلة؛ وعندئذ تستطيع أن تدحرهم بشكل حاسم. فشعور التفوق العقلي الذي تمنحهم إياه سوف يجرّد عضلات الشك لديهم من قوّتها.

في سنة 1865، كان المستشار البروسي أوتو فون بسمارك يريد من النمسا أن توقع معاهدة معينة. وكانت تلك المعاهدة في صالح بروسيا كلياً وضد مصالح النمسا. وكان على بسمارك أن يمارس تخطيطاً استراتيجياً كي يجعل النمسويين يوافقون عليها. ولكنّ المفاوض النمسوي، الكونت بلوم، لاعب ورق جشعاً. وكانت لعبته المفضلة هي «الكوينز». وكثيراً ما كان يقول إنه يستطيع الحكم على شخصية أي إنسان من الطريقة التي يلعب بها الكوينز. وكان بسمارك يعرف قول بلوم هذا.

وفي الليلة السابقة لبدء المفاوضات، تعمّد بسمارك ـ بكل براءة ـ أن يمارس لعبة كوينز مع بلوم. وقُدِّر للبروسي أن يكتب فيما بعد:

«كانت تلك آخر مرة لعبتُ فيها كوينز. وقد لعبت بتهور أذهل الجميع. وخسرت عدة آلاف تالر [عملة ذلك العصر]، ولكنني نجحتُ في خداع [بلوم]، لأنه ظنّني أكثر تهوُّراً ومغامرة مما أنا عليه، وهكذا استسلمت له في اللعبة». وبالإضافة إلى الظهور بمظهر المتهوِّر، فإن بسمارك مثَّل أيضاً دور الأحمق الذي لا عقل له. فتفوَّه بأشياء سخيفة مضحكة وتحرَّك بطريقة مضطربة خرقاء فيها فائض من الطاقة العصبية.

ونجم عن هذا كله أن شَعَرَ بلوم بأنه قد جمع معلومات قيِّمة. وكان يعرف أن بسمارك عدوانيّ ـ فقد كان لبسمارك مثل تلك السمعة، وقد لعب عمداً بطريقة أكدتها. وكان بلوم يعلم أن الرجال العدوانيين يمكن أن يكونوا حمقى ومتسرِّعين. وبناء على ذلك، فعندما حان الوقت لتوقيع المعاهدة، ظنَّ بلوم أن لديه ميزة. فقد اعتقد أن شخصاً أحمق غير مبالٍ مثل بسمارك، غير قادر على إجراء حسابات وخداع بعقل بارد وجأش رابط. ولذلك لم يلقِ على المعاهدة أكثر من نظرة عابرة قبل أن يوقِّعها ـ ولم يقرأ سطورها بدقة. وعندما جفَّ الحبر، أعلن بسمارك في وجه بلوم بقوة: «حسناً، لم أكن أعتقد أبداً أنني سأجد دبلوماسياً نمسوياً على استعداد لتوقيع تلك الوثيقة!».

عند الصينيين تعبير عن «التنكر في زي خنزير لقتل نمر». وفي ذلك إشارة إلى أسلوب الصيد القديم، عندما كان الصياد يرتدي جلد خنزير وفنطيسته، ويقلِّد شخيره. فيظن النمر القوي أن خنزيراً قادم نحوه، فيتركه يقترب، ويتلمَّظ على وجبة سهلة. ولكن الصياد هو الذي يملك الضحكة الأخيرة.

إن التنكر في زي خنزير يفعل العجب بالمتغطرسين والواثقين بأنفسهم ثقة زائدة عن الحد، مثل النمور. فكلما كان افتراسك أسهل في نظرهم، زادت السهولة التي تستطيع بها قلب الموائد. كما أن هذه الخدعة مفيدة إذا كنت طموحاً ولكنك تجد نفسك في موقع منخفض

على سلَّم الرتب. إن تظاهرك بأنك أقل ذكاءً مما أنت عليه، وحتى بـ
فيك شيئاً من الحمق، هو القناع الأكمل. اظهر كخنزير غير مؤذٍ.
وعندئذٍ لن يعتقد أحد أنك تضمر طموحاً خطراً. بل إنهم قد يرفّعونك مـ
دمت تبدو محبوباً ومطيعاً إلى هذا الحد. وقد استعمل هذه الخدعة كلٌ
من كلوديوس قبل أن يصبح إمبراطور روما، وأمير فرنسا الذي صار فيـ
بعد لويس الثالث عشر، عندما شعر الذين فوقهما أنه قد تكون لديهمـ
خطط للوصول إلى العرش. وعندما لعبا دور الأحمق في أيام شبابهمـ
تُرِكا وشأنهما. وعندما حان الوقت لتوجيه الضربة والتصرف بقوة
وحسم، فقد فاجآ الجميع وهم غافلون.

إن الذكاء هو الصفة الواضحة التي يتعيَّن تعمّد تخفيضها. ولكن لِـ
التوقف هناك؟ فالذوق والحنكة قريبان من مرتبة الذكاء على سلَّـ
الغرور. اجعل الناس يشعرون أنهم أكثر حنكة ودهاء مما هم عليه فتقـ
درجة احتراسهم وحذرهم. وكما كان آرنولد وسلاك يعرفان، فإن خلق
جوّ السذاجة الكاملة يمكن أن يفعل الأعاجيب. فقد كان أولئك
الممولون المزهوّون يضحكون عليهما من وراء ظهريهما، ولكن من كان
صاحب الضحكة الأكثر دوياً في آخر الأمر؟ وإذن فاجعل الناس على
وجه العموم يعتقدون أنهم أذكى وأدهى منك. فسيحتفظون بك بالقرب
منهم لأنك تجعلهم يشعرون برضاً أفضل عن أنفسهم، وكلما طال
وجودك قربهم، زادت الفرص المتاحة لك لتخدعهم.

صـــورة:
الأبّوسوم. عندما يتظاهر
بالموت فإنه يمارس لعبة
التغابي. ولذا فإن كثيراً من الحيوانات
المفترسة تتركه وشأنه. فمن يمكن أن يعتقد
أن مثل هذا المخلوق القبيح الغبيّ العصبي
الضئيل يمكن أن يقدر على هذا الخداع؟

الشاهد: اعرف كيف تستفيد من الغباء. فأعقل الناس يلعب هذه الورقة أحياناً. فهناك مناسبات تتكوّن فيها الحكمة القصوى من التظاهر بعدم المعرفة ـ يجب أن لا تكون جاهلاً، بل قادراً على التظاهر بالجهل. فليس هناك كبيرُ خيرٍ في أن يكون المرء حكيماً بين حمقى وعاقلاً وسط مجانين. إن من يتظاهر بالحمق ليس أحمق. إن أفضل طريق لكي تلقى استقبالاً حسناً هي أن تلبس جلد أغبى الوحوش.

(بلثازار غراسيان، 1601 ـ 1658).

الانقلاب

إن كشف الطبيعة الحقيقية لذكائك نادراً ما يثمر. وعليك أن تتعوَّد على تخفيض درجته عمداً طيلة الوقت. فإذا عرف الناس الحقيقة عن غير قصد ـ أي أنك في الواقع أذكى بكثير مما يدل عليه مظهرك ـ فسوف يكون إعجابهم بك لتحفظك أكثر ممّا لو جعلت ألمعيَّتك تظهر. وعند بدء صعودك إلى القمة طبعاً فإنك لا تستطيع التظاهر بغباء زائدٍ عن الحد. فقد ترغب أن تدع رؤساءك يعرفون، بطريقة خفية، أنك أذكى من المنافسة من حولك. غير أنك كلما صعدت السلَّم تعيَّن عليك أن تحاول طمس ألمعيتك إلى حدٍّ مّا.

على أن هناك وضعاً واحداً يثمر فيه قيامك بالعكس، عندما تستطيع أن تغطي خديعة مّا بإظهار الذكاء. ففي قضايا الأذكياء، كما هي الحال في معظم الأشياء، تكون المظاهر هي التي تدخل في الحساب. فإذا ظهرت كمالكٍ للسلطة والمعرفة، فإن الناس سيصدِّقون ما تقول. وهذا بدوره يمكن أن يكون مفيداً جداً في إنقاذك من ورطة أو إخراجك من مأزق.

كان بائع التحف الفنية جوزيف دوفين يحضر حفلة مسائية ذات مرة في نيويورك في منزل أحد بارونات المال. وكان قد باع ذلك البارون قبل وقت يسير لوحةً من أعمال الرسَّام والحفَّار الألماني آلبريخت ديورَرْ (1471 ـ 1528) بثمن مرتفع. وكان بين الضيوف ناقد فني فرنسي شاب

كان يبدو واسع المعرفة واثقاً بنفسه. وأرادت ابنة ملك المال أن تثير إعجاب هذا الرجل فعرضت عليه لوحة ديورَرْ التي لم تكن عُلِّقَت بعد. فدرسها الناقد فترة، ثم قال أخيراً: «أتعرفين، إنني لا أعتقد أن لوحة ديورَرْ هذه صحيحة». ثم لحق بالفتاة حالما هرعت لتخبر والدها بما قال، وأنصت بينما التفت القطب المالي قلقاً إلى دوفين بحثاً عن التطمين. فلم يزد دوفين على أن ضحك وقال: «كم هذا مسلٍّ للغاية. أتدرك أيها الفتى أن عشرين خبيراً فنياً آخرين على الأقل، هنا وفي أوروبا، قد خُدِعوا أيضاً، وقالوا إن اللوحة ليست أصيلة؟ وها أنت الآن ترتكب الغلطة نفسها». فأخافت لهجته، وطريقته في الحديث كأنه أستاذ وحجة ومرجع، الرجلَ الفرنسي، الذي اعتذر عن غلطته.

وكان دوفين يعرف أن اللوحات المزوَّرة قد أغرقت سوق الفن كأنها الطوفان، وأن كثيراً من اللوحات قد نسبت بطريقة مزيَّفة إلى الأساتذة القدامى. وقد بذل قصارى جهده لتمييز الحقيقي من المزوَّر. ولكنه في غمرة تحمسه للبيع كان كثيراً ما يبالغ في توكيد أصالة عملٍ مّا. فكل ما كان يهمّه هو أن يعتقد المشتري أنه قد اشترى لوحة لديورر، وأن دوفين نفسه قد أقنع كل شخص «بخبرته» من خلال هالة المرجعية التي كان يحيط بها نفسه، فلا يجرؤ أحد على الدنوّ منها. وهكذا، فإن من المهم أن يكون المرء قادراً على لعب دور الأستاذ عند الضرورة، وأن لا يفرض مثل هذا الموقف أبداً من أجل ذاته فحسب.

القانون

22

استخدم تكتيك الاستسلام: حوّل الضعف إلى قوة

الحكم

عندما تكون أنت الأضعف، فإياك أن تقاتل من أجل الشرف؛ واختر الاستسلام بدلاً من ذلك. فالاستسلام يعطيك فرصة لاسترداد عافيتك، وقتاً لتعذيب غالِبك وإزعاجه، وقتاً لانتظار قوّته التي تتضاءل. فلا تعطه متعة إشباع رغبته بمقاتلتك وهزيمتك – استسلم أولاً. فبإدارتك للخدّ الآخر تثير خصمك وتزعزع استقراره. اجعل الاستسلام أداة للقوة.

انتهاك القانون

تحتلّ جزيرة ميلوس موقعاً استراتيجياً في قلب البحر الأبيض المتوسط. وفي العصور الكلاسيكية القديمة، كانت أثينا تسيطر على البحر وعلى المناطق الساحلية المحيطة باليونان. ولكن إسبارطة، في بيلوبونيسيا (شبه الجزيرة التي تشكل جزءاً من جنوب البرّ الإغريقي) كانت المستعمِر الأصلي لميلوس. وأثناء الحرب البيلوبونيزية رفض أهل ميلوس أن يتحالفوا مع أثينا، وظلوا على ولائهم لإسبارطة الأم. وفي سنة 416 ق .م. أرسل الأثينيون حملة ضد ميلوس. غير أنهم قبل شن هجوم سنة شامل أرسلوا وفداً لإقناع أهل ميلوس بالاستسلام وبأن يصيروا حليفاً لأثينا بدلاً من التعرض للدمار والهزيمة.

قال الموفدون: «إنكم تعلمون كما نعلم أن مستوى العدالة يعتمد على التساوي في قوة الإرغام، وأن الأقوياء في الحقيقة يعملون ما يملكون القوة والسلطة لعمله، وأن الضعفاء يقبلون ما هم مضطرون لقبوله». وعندما أجاب أهل ميلوس بأن ذلك إنكار لفكرة الإنصاف، قال لهم الأثينيون إن الذين يملكون القوة والسلطة يقررون ما هو إنصاف وما هو إجحاف. فجادل أهل ميلوس بأن هذه السلطة تعود إلى الآلهة، لا البشر. فرد عضو في الوفد الأثيني: «إن رأينا في الآلهة ومعرفتنا بالبشر تقودنا إلى الاستنتاج بأن قانون الطبيعة العام والضروري هو أن يحكم المرء ما يستطيع».

شجرتا الكستناء والتين

تسلّق رجل شجرة تين، فكان يحني أغصانَها نحوه ويقطف ثمارها الناضجة ليضعها في فمه ليسحقها ويقضمها بأسنانه القاسية. وعندما رأت ذلك شجرة الكستناء هزّت أغصانها، وقالت بِخَشْخَشَةٍ مضطربة: «أيتها التينة! إن حماية الطبيعة لك أقل بكثير من حمايتها لي. انظري كيف تضع ثماري داخل لباس محكم وثيق، فهي تلفّها أولاً بأغلفة طريّة، فوقها قشرة قاسية ولكن بطانتها طريّة. ولم تكتفِ الطبيعةُ بكل هذه العناية، فأعطتنا هذه النتوءات الحادّة المستدقة المتلاصقة، بحيث لا تستطيع يد الإنسان أن تؤذينا». وعندئذ شرعت شجرة التّين تضحك، وبعد الضحك قالت: «إنك تعرفين جيداً أنّ الإنسان عنده من البراعة والإبداع ما يمكنه من حرمانك ـ حتى أنتِ ـ من صغارك. ولكنه في حالتك سوف يفعل ذلك بالعصيّ

ولم يتزحزح أهل ميلوس. وأصروا أن إسبارطة سوف تأتي للدفاع عنهم. فجابههم الأثينيون بأن الإسبارطيين شعب محافظ وعملي، وأنهم لن يساعدوا ميلوس، لأنه ليسي لديهم ما يكسبونه من ذلك، بل لديهم الكثير مما سيخسرونه.

وأخيراً بدأ أهل ميلوس يتحدثون عن الشرف، وعن مبدأ مقاومة القوة الوحشية. فقال الأثينيون: «لا تضللوا أنفسكم بالشعور الزائف بالشرف. فالشرف كثيراً ما يؤدي بالناس إلى الدمار عندما يواجههم خطر واضح يؤثر بطريقة مّا في عزة نفوسهم. فليس هناك من عار في الاستسلام لأعظم مدينة في بلاد الإغريق وهي تعرض عليكم مثل هذه الشروط المعقولة». وانتهت المداولة. وناقش أهل ميلوس الأمر فيما بينهم، وقرروا أن يثقوا بعون إسبارطة، وبإرادة الآلهة، وبقضيتهم المحقّة. فرفضوا عرض الأثينيين بطريقة مهذبة.

وبعد بضعة أيام هاجم الأثينيون ميلوس. فقاتلهم أهلها بشرف، حتى بدون الإسبارطيين، الذين لم يأتوا لإنقاذهم. وبعد عدة محاولات، استطاع الأثينيون أن يطوقوا مدينتهم الرئيسية ويحاصروها، فاستسلمت ميلوس في آخر الأمر. ولم يضع الأثينيون وقتاً. فقتلوا كل الرجال الذين استطاعوا أسرهم ممن هم في سن العسكرية، وباعوا النساء والأطفال كعبيد، وأسكنوا مستوطنيهم في الجزيرة التي لم ينج من أهلها سوى حفنة قليلة.

والحجارة. وعندما تتساقط ثمارك فسوف يدوسها بقدميه أو يضربها بالحجارة بحيث يبرز لبابها من الدروع مهشّمة ومشوّهة. أما أنا فتلمسني يداه بعناية، وليس - مثلك - بخشونةٍ أبداً».

ليوناردو دافنشي
1452 - 1519

التفسير

كان الأثينيون واحداً من أكثر الشعوب عمليةً في التاريخ. وقد قدموا أكبر ما استطاعوا من حجج عملية في جدلهم مع أهل ميلوس. عندما تكون أنت الطرف الأضعف فليس هناك ما يمكن كسبه من خوض قتال لا طائل من ورائه. فلا أحد يأتي لنجدة الضعيف – لأن المنجدين لن يزيدوا على تعريض أنفسهم للخطر. فالضعفاء وحيدون وعليهم أن

يستسلموا. فالقتال لن يكسبك شيئاً سوى الاستشهاد، وفي هذه العمـ
يموت كثير من الناس الذين لا يؤمنون بقضيتك.

ليس الضعف ذنباً، بل يمكن أن يصبح قوة إذا تعلمت كيف تشغـ
بشكل صحيح. فلو استسلم أهل ميلوس في المقام الأول، لاستطاعو
يجابهوا الأثينيين بالتخريب بطرق ذكية خفية، أو لحصلوا عـ
يستطيعون انتزاعه من التحالف، ثم تخلوا عنه عندما يضعف الأثينيو
الذين ضعفوا فعلاً بعد عدة أعوام من تلك الواقعة. فالحظوظ تتغـ
والأقوياء كثيراً ما يسقطون. فالاستسلام يخفي قوة عظيمة: فيهد
العدو حتى يستنيم للرضا عن نفسه، تعطيك فرصة لتعويض الخـ
واستعادة العافية، ووقتاً للتقويض، ووقتاً للانتقام. فلا تهدر ذلك
بالتضحية به لأجل الشرف في معركة لا تستطيع أن تكسبها.

كان فولتير يعيش في المنفى في لندن في وقت كانت فيه العواطف المعادية للفرنسيين في أوجها. وذات يوم عندما كان يسير في الشوارع رأى نفسه محاطاً بحشد غاضب من الناس الذين راحوا يصرخون: «اشنقوه! اشنقوا هذا الفرنسي!» فخاطبهم فولتير بهدوء بهذه الكلمات: «يا أبناء إنكلترا! إنكم ترغبون في قتلي لأنني فرنسي. ألا يكفيني عقوبة أنني لم أولد إنكليزياً؟» فهتف المتجمهرون لكلماته المتعقلة، ورافقوه بسلام إلى مكان سكناه.

كتاب الحكايات اللَّتي الصغير
تحرير: كليفتون فاديمان، 1985

إن الناس الضعفاء لا يستسلمون عندما ينبغي عليهم أن يفعلوا.

(الكردينال دي ريتز، 1613 ـ 1679)

مراعاة القانون

في وقتٍ مّا خلال عشرينات القرن العشرين، اقتنع الكاتـ
الألماني برتولت بريخت بقضية الشيوعية. ومنذ ذلك الحين
مسرحياته ومقالاته، وأشعاره تعكس الحماس الثوري. وأخذ
عامة يحاول أن يجعل بياناته العقائدية واضحة بقدر المستطاع. وعـ
وصل هتلر إلى السلطة في ألمانيا، صار بريخت وزملاؤه الشيوعيـ
مستهدفين. وكان له أصدقاء كثيرون في الولايات المتحدة ـ أميركيـ
يتعاطفون مع معتقداته، ومثقفون ألمان كانوا قد هربوا من هتلر.
على ذلك، هاجر بريخت إلى الولايات المتحدة سنة 1941، واختـ
يستقر في لوس آنجيلوس، حيث أمل أن يكسب عيشه من العمل
تجارة الأفلام.

وعلى امتداد السنوات القليلة التالية أخذ بريخت يكتب نصـ

للروايات السينمائية ذات ميول معادية للرأسمالية بحدّة. فلم يحصل على نجاح يذكر في هوليود؛ وهكذا قرر في سنة 1947، بعد أن كانت الحرب قد انتهت، أن يعود إلى أوروبا. غير أن السنة نفسها شهدت لجنة النشاطات المعادية لأميركا التي شكلها الكونغرس الأميركي وهي تبدأ تحقيقها في التغلغل الشيوعي المفترض في هوليود. فبدأت تجمع معلومات عن بريخت، الذي كان قد اعتنق الماركسية بشكل مكشوف. وفي 19 أيلول/ سبتمبر 1947، قبل شهر فقط من تاريخ مغادرة الولايات المتحدة كما كان يخطط، تلقى دعوة للمثول أمام اللجنة. وقد دعي معه أيضاً عدد من الكتَّاب والمنتجين والمخرجين، ممن عرفوا كمجموعة باسم الهوليوديين التسعة عشر.

وقبل الذهاب إلى واشنطن، اجتمع الهوليوديون التسعة عشر كي يقرروا خطة عمل. فقرروا اتباع نهج المواجهة. فبدلاً من الإجابة عن الأسئلة حول عضويتهم في الحزب الشيوعي، سيقرأون تصريحاتٍ معدة سلفاً تتحدى سلطة اللجنة وتجادل في كون أنشطتها غير دستورية. فحتى لو كانت هذه الاستراتيجية تعني السجن، فإنها ستكسب شهرة وشعبية لقضيتهم.

فاختلف معهم بريخت، وسألهم: ما الفائدة من لعب دور الشهيد وكسب قليل من العطف الشعبي العلني إذا كانوا سيخسرون في هذه العملية عرض مسرحياتهم، وبيع نصوصهم سنوات طويلة؟ كان يشعر أنهم أذكى بالتأكيد من أعضاء اللجنة. فلماذا ينزلون بأنفسهم إلى مستوى خصومهم بالمجادلة معهم؟ فلماذا لا يبزّون اللجنة في المكر بالتظاهر بالاستسلام لها بينما هم يسخرون منها بطريقة ذكيّة خفيّة؟ وأنصت الهوليوديون التسعة عشر لبريخت بأدب ثم قرروا التمسك بخطتهم، وتركوه يسلك نهجه وحده.

وأخيراً استدعت اللجنة بريخت في 30 تشرين الأول/ أكتوبر. وكان أعضاؤها يتوقعون منه أن يفعل ما فعله الآخرون من مجموعة

الهوليوديين التسعة عشر الذين أدلوا بشهاداتهم أمام اللجنة: أي
يجادل، ويرفض الإجابة على الأسئلة، ويتحدى حقّ الجمعية في عقد
جلساتها، بل يصرخ ويقذف بالشتائم والإهانات. غير أن بريخت
لدهشتهم الشديدة، كان صورة مثالية للانسجام والطيبة. إذ كان يرتدي
بذلة (وهذا شيء نادراً ما كان يفعله)، ويدخن سيجاراً (فقد سمع
رئيس اللجنة كان مدخن سيجار متحمساً)، فأجاب على أسئلتهم بأدب.
وبدا بصورة عامة أنه يحترم سلطتهم.

وعلى عكس الشهود الآخرين، أجاب بريخت عن سؤالهم عن
كونه منتسباً للحزب الشيوعي. فقال إنه ليس عضواً، وتصادف أن كان
ذلك صحيحاً. فسأله أحد أعضاء اللجنة: «أصحيح أنك كتبتَ عدداً من
المسرحيات الثورية؟» وكان بريخت قد كتب مسرحيات كثيرة ذات رسائل
شيوعية مكشوفة. ولكنه أجاب: «لقد كتبت عدداً من القصائد والأغاني
والمسرحيات في النضال ضد هتلر، ولذلك يمكن طبعاً أن تُعْتَبَرَ ثورية.
لأنني كنت بالطبع مؤيداً لإسقاط حكومته». فلم تواجه هذه التصريحات
أي تحدٍّ أو اعتراض.

وكانت إنكليزية بريخت أكثر من كافية. ولكنه استخدم مترجماً
طوال شهادته، فأتاحت له هذه الخطة أن يتلاعب باللغة بصورة دقيقة
معقدة. وعندما عثر أعضاء اللجنة على سطور ذات ميول شيوعية في
النسخ الإنكليزية من أشعاره، تلا تلك السطور بالألمانية للمترجم. وعند
ترجمتها كانت تبدو ــ بطريقةٍ مّا ــ بريئة لا ضير فيها. وعند إحدى
قرأ عضوٌ في اللجنة واحدة من قصائد بريخت الثورية بصوتٍ عالٍ
بالإنكليزية، وسأله عما إذا كان قد كتبها، فأجاب: «كلاّ. لقد كتبت
قصيدة ألمانية، وهي شديدة الاختلاف عن هذه». وقد حيّرتْ
المتهربةُ أعضاء اللجنة وأربكتهم. ولكن أدبه ولطفه واستسلامه
جعل من المستحيل عليهم أن يغضبوا منه.

وبعد ساعة فقط من الاستجواب، قرر أعضاء اللجنة أنهم

ما فيه الكفاية، فقال له رئيسها: «أشكرك شكراً جزيلاً. إنك مَثَلٌ جيد للشهود [الآخرين]». ولم يكتفِ الأعضاء بتركه طليقاً، بل عرضوا عليه أية مساعدة إن وقعت له أية مشاكل مع مسؤولي الهجرة الذين قد يعتقلونه لأسباب خاصة بهم. وفي اليوم التالي غادر بريخت الولايات المتحدة فلم يعد إليها أبداً.

التفسير

إن نهج المجابهة الذي اتبعه الهوليوديون التسعة عشر قد أكسبهم كثيراً من العطف، وبعد سنوات كسبوا إثبات براءتهم لدى الرأي العام. غير أنهم قد وُضِعوا أيضاً في القائمة السوداء، وخسروا سنوات ثمينة من وقت العمل المربح. ومن جهة أخرى فإن بريخت قد عبّر عن اشمئزازه من اللجنة بصورة غير مباشرة أكثر. فلم يغير معتقداته، ولم يعرّض قيمه للخطر ولم يساوم عليها. وبدلاً من ذلك فقد احتفظ باليد العليا أثناء شهادته القصيرة عن طريق التظاهر بالاستسلام بينما ظل يتحرك في دوائر متعرجة حول اللجنة بإجاباته الغامضة، بل إن أكاذيبه السافرة قد مرّت بلا نزاع ولا تحدٍّ، لأنها كانت مغلفة بالأحاجي الغامضة والتلاعب بالكلمات. وفي آخر الأمر، احتفظ بالحرية لمتابعة كتابته الثورية (بدلاً من التعرض للمعاناة أو السجن أو الاعتقال في الولايات المتحدة)، حتى مع سخريته الذكية من اللجنة وسلطتها بطاعته الكاذبة لها.

ليبق ماثلاً في ذهنك: إن الناس الذين يحاولون أن يُظْهِروا سلطتهم بشكل استعراضي يمكن أن تخدعهم بسهولةٍ خطةُ الاستسلام. ذلك أن إشارتك الظاهرية بالخضوع لهم تجعلهم يشعرون بأهميتهم. فيرضون باحترامك لهم؛ وعندئذ يصيرون أهدافاً أسهل لهجوم معاكس فيما بعد، أو لنوع السخرية غير المباشرة التي استعملها بريخت. وزّع سلطتك على الزمن، فلا تضحِّ بالقدرة على المناورة في المدى البعيد في سبيل أمجاد الاستشهاد التي لا تعيش طويلاً.

عندما يمر السيد العظيم فإن الفلاح العاقل ينحني له بعمق، ويضرط عليه بصمت.

(مَثَلٌ حبشي)

مفاتيح السلطة

إن ما يوقعنا في المتاعب في ميدان السلطة غالباً ما يكون هو رد فعلنا المفرد على تحركات أعدائنا ومنافسينا. ذلك أن رد الفعل المفرط يخلق مشاكل كان بوسعنا أن نتفاداها لو أننا تصرفنا بعقلانية أكثر. كما أنه يترك تأثيراً مرتداً علينا بصورة لا تنتهي، إذ أن العدو بدوره يتصرف برد فعل مفرط كذلك، يشبه كثيراً ما فعله الأثينيون بأهل ميلوس. فأول ما تمليه علينا غريزتنا دائماً هو رد الفعل، كي نقابل العدوان بنوع آخر من العدوان. ولكن عندما يدفعك شخص مّا في المرة القادمة، وتجد نفسك قد بدأتَ برد فعل، حاول ما يلي: لا تقاوم، ولا تردّ بالقتال. بل استسلم، وانحنِ، وأدر له الخد الآخر. وستجد بأن ذلك غالباً ما يحيّد سلوك الآخرين ـ فقد كانوا يتوقعون ـ بل يريدون ـ منك رد فعل بالقوة؛ وهكذا فإنهم يؤخذون على حين غِرَّة، فيحيرهم انعدام مقاومتك لهم. والواقع أنك بالاستسلام تسيطر على الموقف، لأن استسلامك جزء من خطة أكبر لهدهدتهم كي يعتقدوا بأنهم قد هزموك.

وهذا هو جوهر خطة الاستسلام التكتيكية: تبقى على صلابتك من الداخل، ولكنك من الناحية الخارجية تنحني. وبذلك تحرم خصومك من سبب يدعوهم للغضب، فيشعرون بالحيرة على الأغلب بدلاً من ذلك. وليس من المحتمل أن يكون رد فعلهم مزيداً من العنف يتطلب بدوره ردَّ فعل منك. وبدلاً من ذلك يتاح لك وقتٌ ومجال لتخطيط تحركاتك المضادة التي سَتُسقطهم. ذلك أن تكتيك الاستسلام هو السلاح الأمضى في المعركة التي يخوضها الذكي ضد الوحشي والعدوانيّ. وهو يتطلب سيطرة على النفس بالتأكيد: أما أولئك الذين يستسلمون بشكل حقيقي فعلي (وليس ظاهريّاً فقط) فإنهم يتخلّون عن

حريتهم، وقد يسحقهم عار هزيمتهم المذلّة. إن عليك أن تتذكر أنك تبدو مستسلماً **في الظاهر** فقط، كالحيوان الذي يتماوت لكي ينقذ جلده.

وقد رأينا كيف أنه يمكن أن يكون الاستسلام خيراً من القتال. فعند مواجهة خصم أقوى وهزيمة مؤكدة فإن الاستسلام غالباً ما يكون أفضل من الهرب أيضاً. ذلك أن الهرب قد ينقذك مؤقتاً، ولكن المعتدي سيلحق بك في آخر الأمر. أما إذا استسلمت بدلاً من ذلك، فستبقى لك فرصة للالتفاف حول عدوك وعضّه بأنيابك عن كثب ومن مكان قريب.

في سنة 473 ق.م. في الصين القديمة، تلقى غوجيان، ملك يو، هزيمة رهيبة على يد حاكم وُو في معركة فوجِيَاوْ. وأراد غوجيان أن يهرب. ولكن كان لديه مستشار طلب منه أن يستسلم ويضع نفسه في خدمة حاكم وُو. ومن هذا الموقع يستطيع أن يدرس الرجل ويخطط انتقامه منه. فقرر غوجيان أن يتبع هذه النصيحة. فأعطى ثروته كلها لذلك الحاكم، وذهب ليعمل في اصطبلات الغازي كواحدٍ من أقل الخدم شأناً. وأذلّ نفسه على مدى ثلاثة أعوام لذلك الحاكم، الذي اقتنع بولائه في آخر الأمر، فسمح له بالعودة إلى وطنه. غير أن غوجيان كان من الناحية الداخلية قد أمضى تلك الأعوام الثلاثة في جمع المعلومات والتخطيط للانتقام. وعندما أُصيبت وُو بجفاف رهيب، وأضعفتها اضطرابات داخلية، حشد غوجيان جيشاً وغزاها فانتصر بسهولة. تلك هي القوة الكامنة وراء الاستسلام: إنه يعطيك الوقت والمرونة لتخطيط ضربة معاكسة مدمّرة. ولو هرب غوجيان لخسر هذه الفرصة.

عندما بدأت التجارة الخارجية تهدد الاستقلال الياباني في منتصف القرن التاسع عشر، تداول اليابانيون في كيفية دحر الأجانب. وكتب الوزير هوتّا ماسايوشي مذكرة في سنة 1857، أثرت على السياسة اليابانية سنوات طويلة بعد ذلك: «ولذا فإنني مقتنع بأن سياسينا ينبغي أن تقوم على عقد تحالفات ودية، وإرسال السفن إلى بلدان أجنبية في كل مكان، وإجراء التجارة، وتقليد الأجانب في أفضل نواحيهم، وبذلك نصلح

عيوبنا ونواقصنا، ونرعى قوتنا الوطنية، ونستكمل تسلحينا، ثم نقوم تدريجياً بإخضاع الأجانب لتأثيرنا حتى تعرف جميع بلدان العالم في آخر الأمر بركات الهدوء الكامل ويتم الاعتراف بهيمنتنا في جميع أنحاء العالم». فكان هذا تطبيقاً ألمعياً للقانون: استخدم الاستسلام لكسب الوصول إلى عدوك. وتعلم أساليبه. وتقرب منه بالتزلف البطيء، وامتثل لعاداته وتقاليده من الخارج، ولكن حافظ من الداخل على ثقافتك الخاصة، وسوف تبرز منتصراً في نهاية المطاف. لأنه في الوقت الذي يعتبرك فيه ضعيفاً ومتخلفاً، فلا يتخذ أية احتياطات ضدك، تستخدم أنت الوقت للحاق به والتفوق عليه. وكثيراً ما تكون هذه الطريقة الناعمة اللطيفة النفيذة في الغزو المتسلل هي الأفضل، لأن العدو ليس لديه ما يرد عليه، أو يتهيأ له، أو يقاومه. ولو أن اليابان قاومت تغلغل التأثير الغربي بالقوة، لكان الاحتمال الأكبر أن تتعرض لغزو مدمر يغير ثقافتها تغييراً دائماً.

ويمكن أن يقدم لك الاستسلام أيضاً طريقة للسخرية من أعدائك وجعل قوتهم تنقلب ضدهم.. كما حدث لصالح بريخت. فقصة ميلان كونديرا النكتة المبنية على تجارب مؤلفها في معسكر عقابيّ في تشيكوسلوفاكيا، تروي كيف نظم حراس السجن سباق تناوب تبارى فيه الحراس ضد السجناء. فكانت هذه بالنسبة للحراس فرصة يستعرضون فيها تفوّقهم البدنيّ. وعرف السجناء أنهم من المتوقع أن يخسروا. فبذلوا جهوداً كبرى لتحقيق ذلك، متظاهرين باستخدام طاقة قصوى بجهدٍ مبالغ فيه بينما هم لا يكادون يتحركون، فيركضون بضع ياردات ثم ينهارون. ويعرجون، ويهرولون ببطء شديد، بينما راح الحراس يتراكضون سابقين قبلهم بسرعة تامة. وعن طريق المشاركة في السباق، وخسارته لبّوا طلبات الحراس بطاعة. ولكن «إفراطهم في هذه الطاعة» جعل ذلك الحدث موضع سخرية إلى درجة تحطيمه. فكانت الطاعة المفرطة ــ الاستسلام ــ هنا طريقة لإبراز التفوق بصورة معاكسة. أما المقاومة

فكانت ستورط السجناء في دائرة من العنف. وتهبط بهم إلى مستوى الحراس. غير أن **الإفراط في الطاعة** جعل الحراس سخفاء، ومع ذلك فلم يكن باستطاعتهم أن يعاقبوا السجناء معاقبة محقّة، فهم لم يفعلوا سوى ما طلبه الحراس.

فالسلطة دائماً في حالة مرنة من التمدد والتقلص، إذ أن اللعبة متميعة بطبيعتها، وهي مجال للصراع المستمر. فذوو السلطة يجدون أنفسهم بشكل دائم تقريباً متجهين إلى أسفل الأرجوحة في آخر الأمر. فإن وجدت نفسك معرضاً للضعف مؤقتاً، فإن تكتيك الاستسلام هو أفضل شيء لرفع نفسك مرة أخرى ـ إذْ أنه يخفي طموحك؛ ويعلمك الصبر وضبط النفس، وهما مهارتان أساسيتان في اللعبة؛ والاستسلام يضعك في أفضل مركز ممكن للاستفادة من الانزلاق المفاجىء لمن هزمك وظلمك. أما إن هربت أو قاتلت فإنك لا تستطيع الفوز في المدى البعيد. ولكن إذا استسلمت فإنك ستخرج ظافراً بصورة تكاد تكون دائمة.

صورة: شجرة
البلوط. إن شجرة
البلوط التي تقاوم
الريح تفقد أغصانها
واحداً بعد الآخر.
وعندما لا يبقى شيء
يحميها، ينكسر
الجذع في آخر الامر.
أمّا شجرة البلوط
التي تنحني فإنها تعيش
أكثر، وينمو جذعها بشكل أعرض،
وتكون جذورها أعمق وأعند.

الشاهد: سمعتم أنه قيل عين بعين وسنٌّ بسنّ، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر: بل من لطمك على خدك الايمن فحوِّل له الآخر ايضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن سخَّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين. (السيد المسيح، في إنجيل متى، 5:38 ـ 41)

الانقلاب

إن القصد من الاستسلام هو إنقاذ جلدك حتى تاريخ لاحق، عندما تقدر على توكيد ذاتك وفرض نفسك ثانية. فالمرء يستسلم كي يتجنَّب الاستشهاد بالضبط. ولكن هناك أوقاتاً لا يلين فيها العدو، ويبدو الاستشهاد هو المخرج الوحيد. وبالإضافة إلى ذلك، فإنك إن كنت مستعداً للموت فإن هناك آخرين سيكسبون قوة وإلهاماً من المثل الذي تضربه لهم.

ومع ذلك فإن الاستشهاد، عكس الاستسلام خطة غير مضبوطة ومليئة بالفوضى، وتعادل في عنفها العدوان الذي تقاتله. وفي مقابل كل شهيد شهير هناك ألوف لم يلهموا ديناً ولا ثورة، بحيث أن الاستشهاد إن كان يعطي قوة معيَّنة أحياناً، فإنه يفعل ذلك بطريقة يصعب التنبؤ بها. وأهم من ذلك أنك لن تكون موجوداً لتستمتع بالقوة، أيّاً كان نوعها. وهناك أخيراً شيء أناني ومتعجرف في الشهداء. فكأنهم يشعرون بأن أتباعهم أقل أهمية من مجدهم الشخصيّ الخاص بهم.

عندما تهجرك القوة وتتخلَّى عنك، فإن أفضل شيء هو أن تتجاهل الانقلاب العاكس لهذا القانون. اترك الاستشهاد وشأنه: إذْ أن الرقاص سوف يتأرجح عائداً إليك في نهاية الأمر، ويتعيَّن عليك أن تبقى حيّاً لتراه وهو قادم في اتجاهك.

القانون

23

ركّز قواك

الحكم

حافظ على قواك وطاقاتك بإبقائها مركّزة عند أقوى نقاطها. فإنك تكسب بالعثور على منجم غني وتعدينه في العمق أكثر مما تكسب من التفلُّت من منجم ضحل إلى آخر - فالكثافة تهزم الاتساع في كل مرة. وعند البحث عن مصادر قوى لترفعك، اعثر على الراعي الهام الوحيد، على البقرة السمينة التي ستعطيك حليباً لوقت طويل في المستقبل.

انتهاك القانون

في الصين في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، بدأت مملكة وُو حرباً مع المقاطعات الشمالية المجاورة التابعة للمملكة الوسطى. كانت وُو قوة متنامية، ولكن كان ينقصها تاريخ المملكة الوسطى وحضارتها العظيمان، اللذان ظلاً مركز الثقافة الصينية قروناً طويلة. وشعر ملك وُو أنه عند دحره المملكة الوسطى، سيرفع مكانته على الفور.

وبدأت الحرب بكثير من الضجيج الدعائي وبانتصارات عديدة. ولكنها سرعان ما جمدت وركدت، وكان كل انتصار على جبهة يترك جيوش وُو مكشوفةً للأخطار على جبهة أخرى. وقام مستشار الملك ووزيره الرئيسي، وُو تزو ــ هْسْيُو، بتحذيره من أن دولة يُويِهْ الهمجية إلى الجنوب قد بدأت تصعِّد نظرها وتصوِّبه في مشاكل وُو، ولديها خطط للهجوم. فلم يزد الملك على أن ضحك من مثل هذه المخاوف ــ فقد بقي انتصار واحد كبير وتسقط المملكة الوسطى في قبضته.

وفي سنة 490 ق.م. أرسل وُو تْزُو ــ هْسْيُو ولده إلى مكان بعيد آمن في مملكة شْئِي. وبعمله هذا أرسل إشارة إلى الملك بأنه غير موافق على الحرب، وبأنه يعتقد أن طموح الملك الأناني كان يودي بوُو إلى الخراب. وشعر الملك أن في ذلك خيانة. فوجَّه ضربة عنيفة إلى وزيره، فاتهمه بعدم الولاء. وفي نوبة غضب، أمره بقتل نفسه. وأطاع وُو تْزُو ــ هْسْيُو ملكه. ولكنه قبل أن يغرس سكيناً في صدره، صرخ: «اقتلع عينيَّ

الوزّة والحصان

كانت وزّةٌ تنقر في العشب، فظنَّت نفسها تعرّضت للإهانة من حصان كان يرعى بجوارها. فخاطبته بلهجة فيها حسٌّ: «إنني بالتأكيد أنبل وأكمل خَلقاً منك، لأن كل مدى قدراتك وطاقاتك محصور في بيئةٍ واحدة. فأنا أستطيع أن أمشي على الأرض جيداً مثلك. وبالإضافة إلى ذلك فإن لي جناحين أستطيع أن أرتفع بهما في الهواء، وأستطيع عندما أريد أن أرفّه عن نفسي في البرك والبحيرات وأنعش نفسي بمياهها الباردة. إنني أتمتّع بطاقاتٍ مختلفة كالتي تتمتع بها الطيور، والأسماك، وذوات الأربع». فسخر الحصان لها بشيء من الاحتقار وقال رداً عليها: «صحيح أنك تسكنين في ثلاث بيئات. ولكنك لا تبرزين بشكل متميزٍ في أيٍّ منها. صحيح أنك تطيرين، ولكن طيرانك ثقيل وأخرق وبلا رشاقة، فلا يحق لكِ أن تضعي نفسكِ على مستوى القبرة أو السنونو. وتستطيعين أن تسبحي على سطح المياه، ولكنك لا تستطيعين

أيها الملك، والصقهما على بوابة وُو، كي أرى الدخول الظافر لدولة يُوِيه».

وكما تنبأ وُو تْزو ـ هْسْيو، فقد مرَّ جيش يُوِيه بعد بضع سنين من تحت بوابة وُو. وبينما طوَّق المتوحشون القصر، تذكَّر الملك آخر كلمات وزيره ـ وشعر بعيني الرجل الميت المقلوعتين تحدِّقان إلى عاره. فلم يستطع أن يتحمَّل هذا الخزي، فقتل نفسه «مغطياً وجهه كي لا يلتقي بنظرة اللوم في عيني وزيره في العالم الآخر».

أن تعيشي فيها كالأسماك. فلا تستطيعين العثور على طعامك في تلك البيئة، ولا الانسياب بنعومة على امتداد قيعان الأمواج. وعندما تمشين، أو بالأحرى تتهادين على الأرض بأقدامك العريضة، ورقبتك الطويلة الممتدّة إلى الخارج، وتهسهسين على كل من يمرّ بك، فإنك تجلبين لنفسك احتقار كل من يراك. وأنا أعترف بأنني مخلوق لأتحرّك على الأرض فقط؛ ولكن كم هو رشيق شكلي! وما أجمل انفتال أطرافي! وما أكمل بناء جسمي كلّه! وما أعظم قوّتي! وكما هي مذهلة سرعتي! إنني أفضل أن أبقى محصوراً في بيئة واحدة أنال فيها الإعجاب، على أن أكون وزّة على الإطلاق!»

خرافات من بوكاشيو وتشوسر
الدكتور جون إيكين، 1747 ـ 1822

التفسير

إن قصة وُو أمثولة لكل الامبراطوريات التي حاق بها الدمار بتمدّدها أكثر من اللازم. فمثل هذه الإمبراطوريات تسكرها خمر النجاح ومرض الطموح فتتوسَّع إلى أبعاد بشعة غير متناسبة، فيحيق بها خراب يكون كلياً. وهذا ما حدث لأثينا القديمة، التي كانت تتشهى جزيرة صقلية البعيدة النائية، فانتهى بها الأمر إلى خسارة إمبراطوريتها. وقد مدَّد الرومان حدود إمبراطوريتهم لتشمل أقاليم شاسعة؛ وبذلك زادوا تعريض أنفسهم للأخطار، وفرص قيام قبيلة متوحشة أخرى بغزوهم. فأدَّى توسعهم غير المفيد إلى طيّ إمبراطوريتهم في مجاهل النسيان.

وبالنسبة للصينيين، فإن مصير مملكة وُو، يقدّم درساً أولياً لما يحدث لك عندما تشتت قواك على جبهات عديدة، فيجعلك الكسب الآنيّ العاجل تغفل ببصرك عن الأخطار البعيدة. ويقول صُنْ ـ تزو: «إذا لم تكن في خطر، فلا تقاتل». ويكاد هذا القانون يكون جسدياً، إذْ أنَّ أي شيء يُنْضَخُ أكثر من أي تناسب، سوف ينهار حتماً. فالعقل يجب أن لا يتوزع متنقلاً من هدف إلى هدف أو يلهيه النجاح من الإحساس بالقصد والانسجام. فما هو مركز، ومتجانس، ومرتبط بماضيه، يكون قوياً. أما ما هو مشتَّت، ومنقسم، ومتضخم فإنه يتعفَّن ويسقط على الأرض. وكلما زاد انتفاخه المنفوش كان سقوطه أقسى.

مراعاة القانون

كانت بدايات أسرة روتشيلد المصرفية متواضعة في الحي اليهودي المغلقة (الغيتو) في فرانكفورت بألمانيا. فكانت قوانين المدينة القاسية تجعل من المستحيل على اليهود أن يختلطوا بالناس خارج الغيتو، ولكن اليهود حوَّلوا ذلك إلى ميزة. لأنه جعلهم معتمدين على الذات، ومتحمسين للحفاظ على ثقافتهم بكل ثمن. وكان ماير آمشيل، أول روتشيلديّ يجمع ثروة من إقراض المال بالربا في أواخر القرن الثامن عشر، يفهم جيداً القوة التي تنجم عن هذا النوع من التركيز والتجانس المنسجم.

فأولاً: تحالف ماير آمشيل مع أسرة واحدة، هي أسرة الأمراء القوية لثورن وتاكسيس. وبدلاً من توسيع خدماته على نحو «منفلش»، فقد جعل نفسه الصيرفيّ الأول لهؤلاء الأمراء. وثانياً: لم يعهد بأي شيء من عملياته التجارية إلى غرباء، بل استخدم أطفاله وأقاربه اللصيقين به. وكلما زاد اتحاد الأسرة وتماسكها على أضيق نطاق، تزايدت قوتها واتسع نفوذها. وسرعان ما كان أولاد ماير آمشيل الخمسة يديرون أعماله. وعندما كان يحتضر في سنة 1812، رفض أن يسمّي وريثاً رئيسياً له. وبدلاً من ذلك، نصَّب أولاده جميعاً لمتابعة تقاليد الأسرة، كي يظلوا متحدين، ويقاوموا أخطار الانتشار وتسلل الغرباء إلى داخلهم.

وعندما سيطر أبناء ماير آمشيل على تجارة العائلة، قرَّروا أن مفتاح الحصول على الثروة على نطاق أوسع هو تأمين موطىء قدم في تمويلات أوروبا ككل، بدلاً من البقاء مشدودين إلى أي بلد أو أمير. ومن بين الإخوة الخمسة، كان ناثان قد فتح دكاناً في لندن. وفي سنة 1813، انتقل جيمس إلى باريس. وبقي آمشيل في فرانكفورت. واستقر سولومون في ڤيينا. أما أصغرهم، كارل، فقد ذهب إلى نابولي. وبإمساك جميع مناطق النفوذ هكذا، استطاعوا أن يشدِّدوا قبضتهم على أسواق أوروبا المالية.

إحذر من تشتيت قواك. وكافح لتركيزها باستمرار. إن العبقرية تعتقد أنها تستطيع أن تفعل كل ما يفعله الآخرون، ولكن من المؤكد أنها ستندم على كل نفقةٍ أساءت الحكم في صرفها.

يوهان فون غوته
1832 - 1749

غير أن هذه الشبكة الواسعة الانتشار، عَرَّضت آل روتشيلد بالطبع للانكشاف أمام الخطر ذاته الذي كان أبوهم قد حذَّرهم منه، وهو خطر الانتشار، والتمدُّد، والانقسام، والتنازع. فتجنَّبوا هذا الخطر. ورسَّخوا أنفسهم كأكبر قوة في عالم المال والسياسة في أوروبا، باللجوء مرة أخرى إلى استراتيجية الغيتو ـ أي إبعاد الغرباء، وتركيز قواهم. فأسَّس آل روتشيلد أسرع نظام للسعاة في أوروبا، مما أتاح لهم الحصول على أخبار الأحداث قبل منافسيهم جميعاً. بل لقد احتكروا المعلومات احتكاراً عملياً. وكانت اتصالاتهم ومراسلاتهم الداخلية تكتب بلغة بيديش فرانكفورت، وبشفرة لا يستطيع حلّها سوى الإخوة الخمسة. فلم تكن هناك فائدة من سرقة المعلومات منهم، لأنه لم يكن أحد سواهم يستطيع فهمها. واضطر مموّل حاول اختراق هذه العشيرة والتسلُّل إليها إلى الاعتراف بأنه: «حتى أذكى الصيارفة وأدهاهم لا يستطيعون شق طريقهم في متاهة آل روتشيلد المتشابكة».

وفي سنة 1824، قرَّر جيمس روتشيلد أن الوقت قد حان للزواج. فوضع ذلك الروتشيلديين أمام معضلة، لأنه كان يعني إدخال عنصر خارجي غريب إلى عشيرتهم، غريب قد يخون أسرارهم. ولذلك قرَّر جيمس أن يتزوَّج من ضمن صفوف العائلة. فاختار ابنة أخيه سولومون. فبلغت سعادة الإخوة ذروتها ـ إذْ كان هذا هو الحلّ الأمثل لمشكلات زواجهم. وصار اختيار جيمس هو السياسة المعتمدة في الأسرة. وبعد ذلك بعامين، زوَّج ناثان ابنته لابن سولومون. وفي السنوات التالية، دبَّر الإخوة الخمسة ثماني عشرة زيجة بين أولادهم وبناتهم، وكانت ست عشرة زيجة منها معقودة بين أبناء العمومة من الدرجة الأولى.

وقال أخوهم سولومون: «نحن نشبه آلية الساعة. كل قطعة فيها أساسية». وكما هي الحال في الساعة، كان كل جزء من أعمالهم التجارية يتحرَّك بالانسجام مع كل الأجزاء الأخرى. وكانت عمليات التشغيل الداخلية خفية عن العالم الخارجي الذي لم يكن يرى إلاّ

حركات عقارب الساعة. وبينما تعرَّضت الأسر القوية الأخرى لعمليات هبوط وتدهور لا رجعة فيها ولا يقظة منها خلال النصف الأول المضطرب الجيَّاش من القرن التاسع عشر، فقد استطاعت أسرة روتشيلد المنغلقة على نفسها بشكل ضيِّق ومحكم أن تحافظ على ثروتها التي لم يسبق لها مثيل، بل وأن توسِّع هذه الثروة.

التفسير

لقد ولد الروتشيلديون في عصر غريب. فقد جاؤوا من مكان لم يتغيَّر طيلة قرون. ولكنهم عاشوا في زمن ولدت فيه الثورة الصناعية، والثورة الفرنسية، وسلسلة لا تنتهي من الاضطرابات والتقلبات. فأبقى الروتشيلديون ماضيهم حيّاً. وقاوموا أنماط التبعثر في عصرهم. ولذلك فإنهم رمز لقانون التركيز.

ولا أحد يمثل ذلك خيراً من جيمس روتشيلد، الولد الذي استقر في باريس. ففي حياته شهد اندحار نابوليون، وإعادة ملكية آل بوربون، وملكية أورليانز البرجوازية الرأسمالية، والعودة إلى النظام الجمهوري، وأخيراً تتويج نابليون الثالث إمبراطوراً. وقد تغيَّرت الأساليب والأزياء والطرائق الفرنسية بخطوات شديدة التسارع خلال هذا الجيشان كله. فقام جيمس بتوجيه أسرته وكأن الغيتو موجود في داخلها، دون أن يبدو عليه أنه من بقايا الماضي الغابر. فلم تستطع الأسرة أن تنتعش وتزدهر وسط هذه الفوضى إلاَّ بإبقائها مشدودة إلى الماضي بهذه الطريقة المحكمة فكان التركيز هو أساس قوة آل روتشيلد، وثروتهم، واستقرارهم.

> إن أفضل استراتيجية على الدوام هي أن يكون المرء قوياً جداً؛ بصورة عامة أولاً، ثم عند النقطة الحاسمة... ليست هناك استراتيجية أعلى ولا أبسط للمرء من إبقاء قواه مركَّزة... وباختصار، فإن المبدأ الأول هو: تصرَّف بمنتهى التركيز.
>
> كتاب: حول الحرب، تأليف: كارل فون كلاوزفيتز، 1780 ـ 1831.

مفاتيح السلطة

إن العالم مبتلى بانتشار الانقسام فيه أكثر وأكثر ـ فضمن كل بلد، هناك جماعات سياسية، وأسر، وحتى أفراد. فنحن جميعاً في حالة تشتُّت كلّي، وانتشار متوزع، ولا نكاد نقدر على إبقاء أذهاننا مركَّزة في اتجاه واحد قبل أن يتجاذبنا ألف اتجاه آخر. فمستوى الصراع في العالم الحديث أعلى من ذي قبل، وقد أدخلناه في صميم حياتنا.

والحل يكمن في شكلٍ من أشكال التراجع إلى داخل أنفسنا، إلى الماضي، وإلى أشكال من التركيز في الفكر وفي العمل. وكما كتب شوبنهاور: «العقل حجم من التركيز والكثافة، وليس حجماً من الاتساع والامتداد». وكان نابليون يعرف قيمة تركيز القوى ضد أضعف نقطة للعدو ـ إذْ كان ذلك سرّ نجاحه في ميدان القتال. ولكن قوة إرادته وعقله كانت مقولبة بشكل مماثل حول هذه الفكرة. فوضع هدف واحد في الذهن، والتركيز الكلي على هذا الهدف، واستخدام هذه المؤهلات ضد الناس الأقل تركيزاً، الناس الذين هم في حالة تشتُّت ـ فمثل هذا السهم يصيب هدفه في كل مرة ويتغلَّب على العدو.

كان كازانوفا يعزو نجاحه في الحياة إلى قدرته على التركيز على هدف واحد، والضغط عليه حتى يتهاوى. كانت قدرته على تكريس نفسه تكريساً كاملاً للنساء اللواتي يرغب فيهن هي التي جعلته شديد الإغواء. فطوال الأسابيع أو الشهور التي كانت واحدة من تلك النساء تعيشها في فلكه، لم يكن يفكِّر في غيرها. وعندما كان مسجوناً في «القنوات» الغدَّارة في قصر الدوج في البندقية، وهو سجن لم يهرب منه أحد قطّ، ركَّز ذهنه على هدف وحيد هو الهرب، يوماً بعد يوم. بل إن تغيير الزنازين، الذي كان يعني أن شهوراً من حفر الأنفاق قد ذهبت سدى، لم يثبط عزمه. فقد أصرّ وثابر حتى أفلح في الهرب في آخر الأمر. وكتب بعد ذلك يقول: «لقد كنت أعتقد دائماً أن المرء عندما يرسخ في ذهنه أنه يريد القيام بعملٍ مّا، وعندما ينشغل بالتخطيط له

مستبعداً كل ما عداه، فلا بدّ أن ينجح مهما كانت المصاعب. ومثل هذ
الرجل المصمِّم يستطيع أن يصير وزيراً أعظم أو بابا».

ركِّز على هدف وحيد، على مهمة واحدة، ثم ألحّ عليها بضرباتك
حتى تخضعها. وفي عالم السلطة ستحتاج باستمرار إلى مساعدة من
الآخرين، مِمَّنْ هم في العادة أقوى منك. فالأحمق يتنقل من شخص إلى
آخر، معتقداً أنه سيبقى وينجو بنشر نفسه على هذا النحو. غير أن من
لوازم قانون التركيز أنك توفِّر طاقة كبيرة، وتحصل على سلطة أكثر
بإلحاق نفسك بمصدر ملائم وحيد من مصادر القوة. فلقد دمَّر العا
نيقولا تيسلا حياته بالاعتقاد بأنه يحافظ على استقلاله بطريقةٍ مّا بعدم
اضطراره لخدمة سيِّدٍ أوحد. بل لقد رفض عرضاً سخياً تلقاه من ج.ب
مورغان وفي خاتمة المطاف كان معنى استقلال تيسلا أنه لم يستطع
الاعتماد على راعٍ واحد، بل كان مضطراً على الدوام إلى التزلف
للعشرات منهم. ولَم يدرك خطأه إلاَّ في وقت متأخر من حياته.

وقد تصارع مع هذه المشكلة كل الرسامين والكتاب العظام في
عصر النهضة. ولم يفعل ذلك واحدٌ أكثر من الكاتب بيترو آريتينو في
القرن السادس عشر. فطوال حياته كان يعاني من ذلّ مضايقات الاضطر
إلى إرضاء هذا الأمير وذاك. وأخيراً شعر بأنه تلقى من هذه المضايقات
ما فيه الكفاية، فقرَّر أن يتودَّد إلى شارلس الخامس، واعداً ذلك
الإمبراطور بتكريس خدمات قلمه القوي له. وهكذا اكتشف أخيراً الحرية
التي تأتي من الالتحاق بمصدر قوة وحيد. فقد عثر مايكل آنجيلو على
حريته مع البابا جوليوس الثاني، وغاليليو مع آل ميديتشي. وفي آخر
الأمر، فإن الراعي الأوحد يقدر ولاءك، ويصير معتمداً على خدماتك.
وعلى المدى البعيد، فإن السيد هو الذي يخدم العبد.

وأخيراً فإن السلطة نفسها توجد دائماً بأشكال مركزة. وفي أية
منظمة فإن من المحتوم أن تسيطر على الأمور مجموعة صغيرة. وهي
غالباً لا تضم ذوي الألقاب. فيجب عليك أن تكتشف من المتحكم

بعمليات التشغيل، ومن هو المدير الحقيقي خلف الكواليس. وكما اكتشف ريشيليو في بداية صعوده إلى القمة على المسرح السياسي الفرنسي في أوائل القرن السابع عشر، لم يكن لويس الثالث عشر هو الذي يقرر الأشياء، بل أمّه. ولذلك ألحق ريشيليو نفسه بها، وطار عبر صفوف رجال الحاشية، كأنه منجنيق، طيلة المسافة صُعُداً إلى القمة.

يكفي أن تعثر على النفط مرة واحدة ــ فعندئذٍ تصبح ثروتك مضمونة طول حياتك.

صورة: السهم. إنك لا تستطيع أن تصيب هدفين بسهم واحد. فإذا شطحت أفكارك، فإنك تخطىء قلب العدو. فيجب أن يصير العقل والسهم واحداً. فبمثل هذا التركيز العقلي والبدني فقط يستطيع سهمك أن يصيب الهدف ويخترق القلب.

الشاهد: قَدِّرْ للكثافة قيمةً أكثر من الاتساع. فالكمال في النوعية، لا في الكمية. فالاتساع وحده لا يرتفع أبداً فوق مستوى المتوسط. ومن سوء حظ ذوي الاهتمامات العامة الواسعة أنهم بينما يملكون إصبعاً في كل كعكة، فليست هناك كعكة يملكونها. فالكثافة تعطي بروزاً ووجاهة، وترتفع إلى مستوى البطولة في القضايا السامية الجليلة (بلثازار غراسيان، 1601 ــ 1658).

الانقلاب

هنالك أخطار في التركيز، ولحظات يكون فيها الانتشار هو الحركة التكتيكية الملائمة. فعند مقاتلة الوطنيين للسيطرة على الصين، كان ماوتسي ــ تونغ والشيوعيون يخوضون حرباً طويلة الأمد على جبهات عديدة، مستخدمين التخريب والكمائن أسلحة رئيسية لهم. فالانتشار كثيراً ما يكون مناسباً للطرف الأضعف؛ بل إنه في الواقع مبدأ حساس الأهمية في حرب العصابات. فعندما تقاتل جيشاً أقوى منك، فإن تركيز

قواك لا يزيد على أن يجعلك هدفاً أسهل. فالأفضل من ذلك هو ـ
تتلاشى في المشهد وتحبط آمال عدوك بتهربك من الحضور والتواجد
أمامه في مكان واحد.

إن ربط نفسك بمصدر قوة وحيد ينطوي على خطر بارز. فإذ
مات ذلك الشخص، أو غادر، أو سقط من عليائه وفَقَدَ حظوته، فإنك
سوف تعاني. وهذا ما حدث لسيزار بورجيا، الذي كان يستمد قوّته من
والده البابا آلكساندر السادس. فقد كان البابا هو الذي أعطى سيز ـ
جيوشاً يقاتل بها، وحروباً يخوضها باسمه. فعندما توفي فجأة (ربما
بالسُّمّ) صار سيزار كالميّت. فقد كسب أعداء كثيرين على مدى السنين.
وخسر حماية أبيه. وإذن ففي الحالات التي تحتاج فيها إلى حماية فربما
كثيراً ما يكون من الحكمة أن تلتف وتتسلّق حول عدة مصادر للقوة.
ومثل هذه الحركة تكون حكيمة بصورة خاصة في فترات الاضطراب
الكبير والتغير العنيف، أو عندما يكون أعداؤك عديدين. فكلما زاد
عدد الرعاة والسادة الذين تخدمهم تناقصت المخاطر التي تتعرَّض لها إذ
خسر أحدهم سلطته. بل إن مثل هذا الانتشار يمكنك من أن تثير أحدهم
ضد الآخر. وحتى لو ركزت على مصدر القوة الوحيد فإن عليك مع
ذلك أن تمارس الحذر، وتتهيَّأ لليوم الذي لا يعود فيه سيدك أو حاميك
موجوداً ليساعدك.

وأخيراً فإن تركيز ذهنك على هدف واحد بصورة مفرطة قد
يجعلك مدعاة لملل لا يطاق، ولا سيما في الفنّ. فقد كان رسَّام عصر
النهضة باولو أوتشيلّو مهووساً بهاجس زاوية النظر إلى درجة أن لوحاته
تبدو مصطنعة لا حياة فيها. بينما اهتم ليوناردو دافنشي بكل شيء
الهندسة المعمارية، والرسم، والنحت، والميكانيك. وهكذا كـ ـ
الانتشار مصدر قوّته. ولكن مثل هذه العبقرية نادرة. أما نحن الباقين فـ ـ
من الأفضل لنا أن نقف إلى جانب الكثافة والتركيز ولو كنّا على خطأ

القانون

24

العب دور رجل الحاشية الأمثل

الحكم

إن رجل الحاشية الأمثل ينتعش ويزدهر في عالم يدور فيه كل شيء حول السلطة والبراعة السياسية. فقد أتقن فن التحرك غير المباشر؛ وهو يتملَّق ويداهن، ويستسلم لمن هم أعلى منه. ويؤكد سلطته على الآخرين بأكثر الطرق مواربة وكياسة. تعلَّم أن تطبِّق قوانين رجال الحاشية ولن يكون هناك حدّ للمدى الذي يمكنك الصعود إليه في البلاط.

مجتمع البلاط

من حقائق الطبيعة البشرية أن تركيب مجتمع البلاط يُشَكِّلُ نفسـ
بالتفافه حول السلطة. وفي الماضي كان البلاط يجتمع حول الحاكـ
وكانت له مهمات كثيرة. فبالإضافة إلى إبقاء الحاكم لاهياً بالتسلية، فقـ
كانت طريقته لترسيخ مراتب العائلة المالكة، والنبلاء، والطبقات العـ
ولإبقاء النبلاء خاضعين وقريبين من الحاكم، بحيث يتمكن من مراقبتهـ
والبلاط يخدم السلطة بطرق كثيرة، ولكنه أكثر من كل شيء يمجـ
الحاكم، فيزوِّده بصورة مصغَّرة عن العالَم الذي يجب أن يناضل ليرضـ

وكانت مهنة رجل الحاشية لعبة خطرة. فقد كتب رحَّالة عربي في
القرن التاسع عشر زار بلاط درفور، فيما يعرف اليوم باسم السودان، أن
رجال الحاشية كان عليهم أن يفعلوا كل ما يفعله السلطان. فإذا أصيب
بجرح فإن عليهم أن يصابوا بالجرح نفسه، وإذا سقط من على حصانه
أثناء الصيد، كانوا يسقطون. وكان مثل هذا التقليد يظهر في البلاط في
جميع أنحاء العالم. غير أن المتاعب الأكبر كانت تأتي من إغضاب
الحاكم. فأية حركة خاطئة كانت تعني الموت أو النفي. فكان رجل
الحاشية الناجح مضطراً إلى السير على حبل مشدود، بحيث يسرّ ويكرّ
ليس إلى حدٍّ مفرط، ويطيع الحاكم ولكن يميِّز نفسه بطريقةٍ مّا عن رجال
الحاشية الآخرين، ولكن في الوقت نفسه لا يميِّز نفسه على نحو يشعر
الحاكم بعدم الأمان.

الكلبان

تَصادَفَ ذات مرة أن باربوس، الكلب المخلص الذي يخدم سيِّده بحماس، قد رأى كلبةَ حضن صغيرة من معارفه ذات شعر مفتول تدعى جوجو، جالسة على وسادة وثيرة عند الشرفة، فاقترب منها بشغف، كطفل يقترب من أبيه، وكاد يغصّ باكياً من عاطفته، وراح يهزّ ذيله تحت الشرفة ويتراقص حولها وهو يقول بلهجة فيها انتحاب: «ما نوع الحياة التي تعيشينها يا جوجوتكا منذ أن أدخلك السيد إلى قصره؟ لا شك أنك تتذكّرين كيف كنّا نعاني الجوع معاً في الساحة. فما هو نوع خدمتك الحالية؟» فأجابت جوجوتكا: «إنني أرتكب خطيئة لو تذمّرت من حظّي السعيد. فسيِّدي لا يكاد يشبع منّي. وأنا أعيش في وسط الثراء والوفرة، وآكل وأشرب من أوانٍ فضيّة. وأتمتع باللعب المرح مع سيِّدي، وإذا تعبت فإنني أستريح على السجّاد أو على وسادة وثيرة. فكيف حالك أنت؟» فرد باربوس وهو يترك ذيله يتدلّى كالسّوط،

ولقد أتقن رجال الحاشية العظام علم التلاعب بالناس طوال التاريخ. فهم يشعرون العاهل بملوكيته أكثر، ويجعلون كل شخص آخر يخشى سلطتهم. وهم سَحَرَةُ مظاهر، لعلمهم بأن معظم الأشياء في البلاط يُحْكَم عليها بحسب مظهرها. ورجال الحاشية العظام لطفاء كيِّسون ومهذبون. وعدوانيتهم مقنَّعة وغير مباشرة. كما أنهم يتقنون استخدام الكلمات، فلا يقولون أبداً أكثر مما هو ضروري. ويستخرجون أكثر ما يمكن استخلاصه من كلمة مدح أو إهانة. وهم مغناطيس مسرَّات ـ يحبّ الناس أن يكونوا بالقرب منهم لأنهم يعرفون كيف يَسُرُّون، ومع ذلك فهم لا يتزلَّفون ولا يُذلّون أنفسهم. ورجال الحاشية العظام يفوزون بالحظوة لدى الملوك، متمتعين بمزايا ذلك المنصب. وكثيراً ما ينتهي بهم الأمر إلى أن يصبحوا أقوى من الحاكم، لأنهم سحرة في تجميع النفوذ المتراكم.

كما يتدلّى رأسه: «أنا لا أزال أعيش كما كنت، وأعاني البرد والجوع، وهنا، بينما أحرس بيت سيدي، يتعين عليّ أن أنام عند أسفل الجدار، وأنتقع في المطر، وإذا نبحتُ في الوقت غير المناسب جُلِدْت بالسوط. ولكنكِ يا جوجو كنتِ صغيرة وضعيفة، فكيف فُزْتِ بالحظوة، بينما أكاد أنا أخرج من إهابي بلا فائدة؟ فما الذي تفعلينه؟» فقالت جوجو ساخرة: «إنه لسؤال لطيف تطرحه! إنني أمشي على قائمتيّ الخلفيتين».

خرافات
إيفان كريلوف
1768 ـ 1844

وينبذ كثيرون حياةَ البلاط اليوم ويعتبرونها أثراً من الماضي، وطرفة تاريخية، فيجادلون، حسب رأي ماكيافيللي «وكأن السماء، والعناصر، والبشر قد غيَّروا نظام حركتهم وقوَّتهم، وصاروا مختلفين عما كانوا في العصور القديمة». ربما لم يعد هناك ملوك شموس. ولكن لا يزال هناك أناس كثيرون يعتقدون أن الشمس تدور حولهم. وربما يكون البلاط الملكي قد اختفى أو كاد، أو فقد سلطته على الأقل، ولكن البلاطات ورجال الحاشية لا يزالون موجودين، لأن السلطة لا تزال موجودة. ولم يعد يطلب من رجل الحاشية أن يسقط من على حصانه إلاَّ نادراً، ولكن القوانين التي تحكم سياسة البلاط ثابتة، لا تتغيَّر بمرور الزمن، تماماً كقوانين السلطة وجاذبية القوة. فهناك الكثير ممّا يمكن تعلمه إذن من رجال الحاشية العظام، في الماضي وفي الحاضر.

قوانين سياسة البلاط

تجنَّب التفاخر: ليس من الحكمة أبداً أن تثرثر عن نفسك بلا توقف، أو أن تلفت إلى أعمالك انتباهاً مفرطاً في زيادته. لأنه كلما زاد

حديثك عن أعمالك تزايد الشك الذي تثيره. كما أنك تثير من الحسد بين زملائك ما يكفي لإغرائهم بالخيانة والطعن في الظهر. كن حذراً، بل شديد الحرص من التطبيل لإنجازاتك. وتحدَّث عن نفسك دائماً بأقل ممّا تتحدث عن الآخرين. فالتواضع هو المفضل على وجه العموم.

مارِس عدم الاكتراث: لا تظهر كأنك تعمل بصورة شاقة، بل يجب أن تظهر موهبتك وكأنها تدفق طبيعي يأتي بسهولة عفوية تجعل الناس يعتقدون أنك عبقري، ولست مهووساً بالعمل. وحتى عندما يتطلّب شيءٌ مّا عملاً وعَرَقاً غزيراً، اجعله يبدو كأنه شيء لا مشقة فيه ولا تعب. فالناس يفضلون أن لا يروك تتعب وتكدح، فهذا مظهر آخر من مظاهر التفاخر. بل إن تعجبهم من إنجازك العمل برشاقة وسهولة خير من تعجبهم من كثرة العمل الذي اقتضته تلك المسألة.

اقتصد في التملُّق: قد يبدو مَنْ هم أعلى منك وكأنهم لا يشبعون من التملُّق. ولكن أي شيء يزيد عن حده ـ حتى وإن كان جيِّداً ـ يفقد قيمته. كما أن كثرة التملُّق تثير الشكوك بين زملائك. فتعلَّم أن تتملَّق بأسلوب غير مباشر ـ كأن تقلِّل من قيمة إسهامك مثلاً، لتجعل سيِّدك يبدو أفضل.

إعمل على أن يلاحظك الآخرون: هناك مفارقة هي أنك لا تستطيع أن تعرض نفسك بصفاقة، ومع ذلك فإن عليك أن تسعى كي يلاحظك الآخرون. ففي بلاط لويس الرابع عشر، كان كُلّ مَنْ يقرِّر الملك أن ينظر إليه يرتفع في مراتب البلاط على الفور. ولن تتاح لك فرصة الصعود إن لم يلاحظك الحاكم في غمار رجال الحاشية. وهذه مهمة تتطلّب كثيراً من الفنّ. وكثيراً ما تكون بادىء الأمر مسألة أن يُرى المرء. بالمعنى الحرفي للكلمة، اهتم بمظهرك الجسدي، وأوجد طريقة لإعطاء تميّز في أسلوبك وصورتك، تميّز يبرز بطريقة خفية ذكية لبقة.

غيّر أسلوبك ولهجتك بحسب الشخص الذي تتعامل معه: إن الاعتقاد الكاذب بالمساواة ـ أي الفكرة القائلة بأن تحدث وتصرف

إن من الحكمة أن يكون المرء مهذّباً، وبناءً عليه فإن من الغباء أن يكون جلفاً. إن كسب الأعداء بقلّة التهذيب المتعمدة وغير الضرورية هو شيء يعادل في حمقه الانطلاق بإحراق بيتك. ذلك أن التهذيب فيشه ـ أي قطعة عملة مزوّرة بالتأكيد، ومن الحمق أن يبخل المرء بها. فالرجل المتعقل يكون سخيّاً بها... فالشمع، وهو المادة القاسية والهشّة بطبيعتها يمكن أن يصبح طرياً بإدخال قليل من الدفء عليه، بحيث يمكن أن يتكيف بأي شكل تريده. وبالطريقة نفسها فإنك بكونك مهذّباً وودوداً تستطيع أن تجعل الناس مطواعين يلبون لك طلباتك حتى وإن كانوا ميالين إلى النكد وسوء

النية. ومن هنا فإن التهذيب بالنسبة إلى الطبيعة الإنسانية مثل الدفء بالنسبة إلى الشمع.

آرثر شوبنهاور
1960 - 1788

بالطريقة نفسها مع الجميع مهما كانت رتبتهم سيجعلك بطريقةٍ مّا مثلاً يحتذى في الحضارة ـ إنما هو خطأ رهيب. فالذين هم أدنى منك سيعتبرون ذلك نوعاً من التنازل، وهو كذلك بالفعل، والذين هم أعلى منك سيتضايقون، حتى ولو لم يعترفوا بذلك. إن عليك أن تغيِّر أسلوبك وطريقتك في الحديث لتناسب كل شخص على حدة فتخاطب كلاً بما يفهم. وليس هذا كذباً، بل هو تمثيل. والتمثيل فن، وليس موهبة من الله. فتعلّم هذا الفن. وهذا ينطبق بشكل صحيح أيضاً على الثقافات الشديدة التنوع في البلاط الحديث. فلا تفترض أبداً أن معاييرك في السلوك والحكم هي الشاملة الشائعة عالمياً. فعدم القدرة على التكيّف مع ثقافة أخرى ليست قمة الهمجية فحسب، بل هي ضارة بك تضعك موضع المحروم.

لا تكن ناقلاً للأخبار السيِّئة: إن الملك يقتل الرسول الذي يأتيه بالأخبار السيِّئة. هذه مقولة مكرَّرة مبتذلة ولكن فيها شيئاً من الصحة. إن عليك أن تكافح، بل وأن تكذب وتغش عند الضرورة، حتى لا يكون نقل الأخبار السيِّئة من نصيبك أبداً، بل من نصيب أحد زملائك. اجلب أخباراً جيِّدة فقط، وسوف يعتاد سيدك على السرور عند اقترابك منه.

لا تفتعل صداقة أو علاقة حميمة مع سيِّدك قطّ: إنه لا يريد صديقاً له كتابع. بل إنه يريد تابعاً فحسب. فلا تقترب منه بطريقة سهلة وودية، أو تتصرَّف وكأنك على أفضل علاقة به ـ فهذا امتياز له هو. فإذا شاء هو أن يتعامل معك على هذا المستوى، فاتخذ دور الصديق الحذِر. وإلاَّ فاتجه بتصرفك إلى الناحية الأسلم وهي إبقاء المسافة بينك وبينه واضحة.

لا توجه نقداً مباشراً لمن هم فوقك أبداً: قد يبدو هذا شيئاً واضحاً. غير أن هناك أوقاتاً يكون فيها شيء من النقد ضرورياً ــ وعندئذ فإن الصمت أو عدم تقديم النصيحة يعرِّضك لمخاطر من نوع آخر. غير أن عليك أن تتعلَّم صياغة نقدك ونصيحتك بشكل غير مباشر ومهذَّب

بقدر المستطاع. فكِّر مرَّتين، أو ثلاثاً، قبل أن تقرِّر أنك قدَّمتهما مداورة بشكلٍ كافٍ. ولا بأس أن يكون لطفك زائداً، وكذلك كياستك وذكاؤك.

اقتصد في طلب المعروف ممَّن هم فوقك: لا شيء يزعج السيد أكثر من اضطراره لرفض طلب شخصٍ مّا. فذلك يثير شعوره بالذنب وبالغضب. وليكن طلبك للمعروف نادراً بقدر الإمكان. واعرف متى تتوقَّف. وبدلاً من أن تكون في موقف المتضرِّع، فإن من الأفضل دائماً أن تكسب المعروف أو الجميل، بحيث يمنحك إياه السيد بإرادته. وأهم من ذلك كله: لا تطلب معروفاً بالنيابة عن شخص آخر، ولا سيما إذ كان صديقاً على وجه الخصوص.

لا تمزح حول المظاهر والأذواق: إن الفطنة الحية والبديهة الحاضرة ومزاج الدعابة مؤهلات ضرورية لرجل الحاشية الجيِّد، وهناك أوقات تكون فيها الفظاظة الخشنة ملائمة وجذابة. ولكن تجنَّب أي نوع من المزاح حول المظهر والذوق، فهما مجالان شديدا الحساسية. وخصوصاً مع مَنْ هم فوقك. بل لا تحاول ذلك حتى عندما تكون بعيداً عنهم. وإلاَّ فإنك تحفر قبرك بنفسك.

لا تكن ساخر البلاط: عبِّر عن إعجابك بالعمل الطيِّب للآخرين. أما إذا انتقدت أترابك ومرؤوسيك باستمرار، فإن شيئاً من ذلك النقد سيرتد عليك ويحوم حولك كالغمامة الرمادية أينما ذهبت. وسوف يتأوه الناس عند كل تعليق ساخر جديد. وسوف يتضايقون منك. فبالتعبير عن إعجاب متواضع بإنجازات الآخرين، تلفت الانتباه لإنجازاتك أنت. وهذه مفارقة. ذلك أن القدرة على التعبير عن التعجب والذهول، على أن يظهر التعبير جاداً ومقصوداً، هي موهبة نادرة وآخذة في التلاشي ولكن الناس ما زالوا يقدرونها تقديراً عالياً.

كن رقيباً على نفسك: المرآة اختراع معجز؛ فبدونه ترتكب خطايا كبرى ضد الجمال واللياقة. فأنت بحاجة أيضاً إلى مرآة لأعمالك. وقد يأتي ذلك أحياناً من الآخرين الذين يخبرونك بما يرونه فيك. ولكن

ليست هذه هي أكثر ما يُعْتَمَدُ عليه من طرق. فيجب أن تكون أنت المرآة، تدرِّب ذهنك على محاولة رؤية نفسك كما يراك الآخرون. هل تتصرَّف بخنوع مفرط؟ وهل تحاول أن ترضي الآخرين بشكل مفرط؟ وهل تبدو متلهفاً إلى حدِّ الجزع على كسب الاهتمام، بحيث تعطي انطباعاً بأنك آخذ في الانحدار؟ كن رقيباً على نفسك، وسوف تتجنَّب جبلاً من الأخطاء.

تحكَّم في عواطفك: عليك، كالممثل في مسرحية عظيمة، أن تتعلَّم أن تبكي وتضحك عندما تتلقَّى أمراً بذلك أو عندما يكون ذلك ملائماً. وعليك أن تكون قادراً على إخفاء غضبك وإحباطك، وتتظاهر بالرضا والموافقة. وعليك أن تتحكَّم بتعابير وجهك. وسمِّ ذلك كذباً إن أحببت. ولكن إن كنت تفضِّل أن لا تمارس اللعبة، وأن تكون صادقاً ومواجهاً على الدوام، فلا تتذمَّر إذا سمَّاك الآخرون بغيضاً ومتغطرساً.

تكيَّف وروح العصر: إن تكلفاً خفيفاً لفترة ماضية قد يكون جذاباً ما دمت تختار فترة ماضية تبعد عن الزمن الراهن عشرين عاماً على الأقل؛ فارتداء الزي الذي كان سائداً قبل عشرة أعوام يثير السخرية، إلاَّ إذا كنت تتمتَّع بلعب دور مهرِّج البلاط. إن على روحك وطريقة تفكيرك أن تواكبا العصر، حتى إذا كان العصر يؤذي أحاسيسك. غير أن تفكيرك إن كان اقتحامياً على نحو مفرط فلن يفهمك أحد. فبروزك في هذا المجال أكثر من اللازم ليس فكرة جيدة على الإطلاق؛ فالأفضل لك أن تكون قادراً على الأقل على تقليد روح العصر.

كن مصدراً للسرور: فذلك أمر حسَّاس الأهمية. فمن القوانين الواضحة للطبيعة البشرية أننا نهرب مما هو كريه وبغيض، أما الفتنة والوعد بالمسرة فيجتذباننا كالهوام نحو اللهب. فاجعل نفسك لهباً وستصعد إلى القمة. وبما أن الحياة مليئة بالمنغِّصات والسرور فيها نادر يأتي في الفلتات، فستصبح شخصاً لا يُسْتَغْنَى عنه كالطعام والشراب. وقد يبدو هذا أمراً واضحاً. ولكن ما هو واضح كثيراً ما يتعرَّض للتجاهل

وعدم التقدير. وهناك درجات لذلك، فليس كل واحد قادراً على أداء دور صاحب الحظوة، لأنه ليس كل واحد متمتعاً بنعمة الفطنة والجاذبية. غير أننا جميعاً قادرون على السيطرة على صفاتنا البغيضة، والتعتيم عليها عند الضرورة.

إن الرجل الذي يعرف أن البلاط هو السيد المتحكِّم في إشاراته، ونظرات عينيه وملامح وجهه يكون عميق الغور، لا يمكن النفاذ إليه؛ يبدِّد المساعي الخبيثة، ويبتسم لاعدائه، ويسيطر على انزعاجه، ويخفي عواطفه المشبوهة، ويكذِّب قلبه، ويتحدَّث ويتصرَّف بعكس مشاعره.

(جان دي لابروييه، 1645 ـ 1696)

مشاهد من حياة البلاط: أعمال مثالية وأخطاء قاتلة

المشهد الأول

كان أرسطو العظيم أستاذاً وموجهاً للاسكندر الأكبر، فاتح حوض البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط، وصولاً إلى الهند. وقد ظلَّ الاسكندر طيلة حياته مكرِّساً اهتمامه للفلسفة وتعاليم أستاذه. وقد شكا لأرسطو ذات مرة أنه خلال حملاته الطويلة لم يكن لديه أحد يستطيع أن يناقش معه قضايا فلسفية. فردَّ عليه أرسطو باقتراح أن يصطحب كالستين، التلميذ السابق لأرسطو، والفيلسوف الواعد بحد ذاته، في الحملة التالية.

وكان الاسكندر قد درَّب كالستين على مهارات رجل الحاشية ولكن ذلك الشاب كان في سرِّه يسخر من تلك المهارات. إذ كان يؤمن بالفلسفة المحضة، وبالكلمات غير المنمَّقة، وبالتحدُّث عن الحقيقة العارية. وكان يفكِّر أنه إذا كان الاسكندر يحبّ التعلُّم إلى هذه الدرجة، فإنه لن يستطيع الاعتراض على رجل يقول ما بذهنه بصراحة. وأثناء واحدة من حملات الاسكندر الكبرى، تحدَّث كالستين بما في ذهنه مرَّة

أكثر من اللازم، فكانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير، فأمر الاسكندر بقتله.

التفسير

إن الصدق في البلاط هو لعبة الأحمق. فإياك أن تنشغل بحبِّ ذاتك إلى درجة الاعتقاد بأن السيد مهتم بانتقاداتك له، مهما كانت دقة تلك الانتقادات.

المشهد الثاني

بدءاً من سلالة هان، قبل ألفي عام، قام الباحثون الصينيون بتجميع سلسلة من الكتابات أطلقوا عليها اسم **التواريخ الواحد والعشرين**، وهي سيرة رسمية لحياة كل سلالة، اشتملت على قصص، وإحصائيات، وأرقام، وتواريخ للحروب. وقد احتوى كل تاريخ على فصل بعنوان: «أحداث غير عادية». وهنا، ضمن تعداد الزلازل والفيضانات، تظهر أحياناً بشكل مفاجىء، أوصاف لمظاهر غريبة وشاذة، كخروف ذي رأسين، وإوزّ يطير إلى الوراء، ونجوم تظهر فجأة في أنحاء مختلفة من السماء، وهكذا دواليك. أما الزلازل فقد أمكن التحقق منها تاريخياً؛ وأما الوحوش والظواهر الطبيعية الغريبة، فقد كان من الواضح أنها أُدْخِلَت عن قصد. وهي متجمّعة كالعناقيد. فما المعنى المحتمل لذلك؟

لقد كان الإمبراطور الصيني يُعْتَبَرُ أكثر من إنسان ـ كان قوّة من قوى الطبيعة. . ومملكته مركز العالم، بل الكون كله، وكل شيء يدور حوله، إذْ كان يمثّل كمال العالممكان انتقاده، أو انتقاد أي من أعماله، يعني انتقاد النظام الإلهيّ. فلم يكن أي وزير أو رجل حاشية يجرؤ على الاقتراب من الإمبراطور حتى بأقل كلمة تحذير. ولكن الأباطرة لم يكونوا معصومين، فكانت المملكة تعاني من أخطائهم بشدة. فكان إدخال مشاهدة الظواهر الغريبة في تواريخ البلاط، هو الطريقة الوحيدة لتحذيرهم. وهكذا، فعندما يقرأ الإمبراطور عن الإوزّ الطائر إلى الوراء،

والأقمار الخارجة عن أفلاكها، يدرك أنه يتلقى تحذيراً. إذْ أن أعمـ
تخلّ بتوازن الكون، وتحتاج إلى تغيير.

التفسير

عند رجال الحاشية الصينيين، كانت مشكلة كيفية توجيه النصـ
للإمبراطور قضية هامة. فعلى مدى السنين، مات الألوف منهم وهـ
يحاولون تحذير سادتهم وإسداء المشورة لهم. فلكي تتم انتقاداتهـ
بسلام، كان يجب توجيهها بطريقة غير مباشرة. غير أنها إذا كانت غـ
مباشرة أكثر من اللازم فلن يتنبَّهوا إليها أو يعبأوا بها. فكانت التواريـ
عندهم هي الحلّ: فهي لا تحدِّد شخصاً بعينه باعتباره موضع النقد، كـ
أنها تجعل النصيحة غير شخصية بقدر المستطاع، ولكنها تدع الإمبراطو
يعرف خطورة الوضع.

إن سيدك لم يعد مركز الكون، ولكنه ما يزال يتصوَّر أن كل شيء
يدور حوله. فعند انتقادك له فإنه يرى الشخص الناقد، ولا يرى النقد
نفسه. فمثل رجال الحاشية الصينيين، يتعيَّن عليك أن تجد طريقة
للاختفاء خلف التحذير. استخدم الرموز وطرقاً أخرى غير مباشرة لرسـ
صورة للمشاكل القادمة، بدون أن تضع رقبتك على النطع.

المشهد الثالث

في بواكير الحياة العملية للمعماري الفرنسي جول مانسار، كان
يتلقى طلبات لتصميم إضافات صغرى لفرساي، يوصي بها الملك لويس
الرابع عشر. وكان يرسم خططه لكل تصميم، عاملاً على التأكد من اتباع
تعليمات لويس بشكل وثيق. ثم يقدِّم تصاميمه لصاحب الجلالة.

وقد وصف رجلُ الحاشية سان سيمون أسلوبَ مانسار في التعامل
مع الملك: «كانت براعته تتركز بشكل خاص في أن يعرض على الملك
خططاً يتعمَّد أن تتضمَّن شيئاً من النقص، له علاقة على الأغلب

بالحدائق، التي لم تكن مجال اختصاص مانسار. فكان الملك ـ كما يتوقع مانسار ـ يضع إصبعه على المشكلة بالضبط، ويقترح كيفية حلها. وعندئذٍ يصيح مانسار لجعل الجميع يسمعون بأنه ما كان له أن يرى المشكلة التي عثر عليها الملك بهذه البراعة الأستاذية وحلّها؛ ثم يتفجَّر مانسار إعجاباً، معترفاً بأنه ليس سوى تلميذٍ متواضع إلى جانب الملك».
وفي الثلاثين من عمره، بعد أن استخدم هذه الأساليب مرة تلو أخرى، تلقى طلباً ملكياً متميِّزاً: فعلى الرغم من أن مانسار كان أقل موهبة وخبرة من عدد من المصممين الفرنسيين الآخرين، فقد طلب منه أن يتولى مسؤولية توسيع مدينة ڤرساي، إذ صار معماريّ الملك منذ ذلك الحين فصاعداً.

التفسير

كان مانسار قد رأى في شبابه كم من الحرفيين الملكيين في خدمة لويس الرابع عشر فقدوا مناصبهم، لا لنقص في مواهبهم، بل نتيجة لغلطة اجتماعية باهظة الكلفة. فقرَّر أن لا يرتكب مثل هذه الغلطة. وظل يكافح دائماً لجعل لويس يشعر بالرضا عن نفسه، ولتغذية غرور الملك بأكبر قدر ممكن من العلانية.

فإياك أن تتصوَّر أن المهارة والموهبة هما وحدهما كل ما يهم. ففي البلاط يكون تفنن رجل الحاشية أهمّ من موهبته. فلا تصرف على دراساتك وقتاً يبلغ من طوله أن يجعلك تهمل مهاراتك الاجتماعية. وأعظم هذه المهارات جميعاً، هي: قدرتك على جعل السيد يبدو أكثر موهبة ممَّن هم حوله.

المشهد الرابع

كان جان ـ بابتيست إيسابي، قد أصبح الرسَّام غير الرسمي للبلاط النابوليوني. وأثناء مؤتمر ڤيينا سنة 1814، بعد أن سجن نابليون المدحور

على جزيرة إلبا، قام المشتركون في تلك الاجتماعات، التي كانت تقرر مصير أوروبا، بدعوة إيسابي إلى تخليد تلك الأحداث التاريخية في لوحة ملحمية.

وعند وصول إيسابي إلى ڤيينا، زاره تاليران، المفاوض الرئيسي عن الفرنسيين. وأوضح للفنان بأنه نظراً لدوره في مجريات المؤتمر فإنه يتوقع أن يحتل مركز المشهد في اللوحة العتيدة. فوافق إيسابي على ذلك بصورة وديّة. وبعد أيام قلائل، اقترب منه أيضاً دوق ويلنغتون، المفاوض الرئيسي عن الإنكليز، وقال له شيئاً يشبه كثيراً ما قاله تاليران. فوافق إيسابي، المهذَّب دائماً، على أن الدوق ينبغي فعلاً أن يكون في مركز الاهتمام.

وفي الاستديو، فكَّر إيسابي في هذا المأزق، فإذا سلَّط الضوء على أيٍّ من الرجلين، فقد يخلق انشقاقاً دبلوماسياً، ويثير كل أنواع الغضب في وقت كان فيه السلام والوفاق يتعرَّضان لموقف حسَّاس الأهمية. غير أنه عندما أزيح الستار عن اللوحة في آخر الأمر، شعر كل من تاليران وويلنغتون بالرضا لحصولهما على التكريم. إذ كانت اللوحة تصوِّر قاعة كبيرة ملأى بالدبلوماسيين والسياسيين من جميع أنحاء أوروبا. ومن جانب بدا دوق ويلنغتون داخلاً إلى الغرفة وكل الأنظار متجهة إليه، إذ أنه «مركز» الاهتمام، بينما يجلس تاليران... في وسط الصورة تماماً.

التفسير

كثيراً ما يكون إرضاء السيد صعباً. ولكن إرضاء سيدين بلمسة واحدة ضربة معلِّم تتطلَّب عبقرية رجل حاشية عظيم. ومثل هذه المحن مألوفة في حياة رجل الحاشية. إذ أنه عندما يهتم بسيد يغضب سيداً آخر، فعليك أن تجد طريقة للمناورة للخروج من هذا المأزق بسلام لأنه يشبه المرور بين سيلا وتشاريبديس [وحشان في الأساطير الإغريقية كانا يرعبان البحارة في مضيق مسينا قرب صقلية]. فالسادة يجب أن يتلقوا ما يستحقون. وإياك أن تثير غضب أحدهم بإرضاء الآخر.

المشهد الخامس

اشتهر جورج بروميل، المعروف أيضاً ببروميل الوسيم في أواخر القرن الثامن عشر، فبرز في مجتمعه بشدة أناقة مظهره، وإضفائه شعبية كبيرة على أبازيم الأحذية (التي سرعان ما راح يقلِّدها كل غندور شديد التألُّق) وببراعته في الكلام. فكان بيته في لندن البقعة الوحيدة للأزياء والموضة. وكان بروميل هو الحجة والمرجع في كل ما له علاقة بالأناقة. فإن كره حذاءك فإنك تغيّره على الفور وتشتري ما يرتديه هو. وقد أتقن فنّ تشكيل العقدة في ربطة العنق؛ وقيل إن اللورد بايرون كان يمضي ليالي كثيرة أمام المرآة ليفهم السرّ الكامن وراء عُقَد بروميل المثالية الكمال.

وكان من أكبر المعجبين ببروميل أمير ويلز، الذي كان يتصوَّر نفسه شاباً عصرياً صاحب ذوق في ملابسه. وعندما التحق بروميل ببلاط الأمير (وتلقى معاشاً ملكياً)، راح يشعر بسلطته بثقة بالنفس هناك وصلت إلى حد جعله يلقي بالنكت حول وزن الأمير، فيشير إليه بلقب بيغْ بِنْ. وبما أن رشاقة الوزن كانت من الصفات الهامة للغندور آنذاك، فقد كان ذلك نقداً صاعقاً شادهاً. وأثناء العشاء ذات مرة، كانت الخدمة بطيئة، فقال بروميل للأمير: «اقرع الجرس يا بيغْ بِنْ» فقرع الأمير الجرس، ولكنه عندما جاء الخادم الخصوصي أمره الأمير أن يخرج بروميل من الباب، وأن لا يسمح له بالدخول مرة أخرى أبداً.

ورغم سقوط حظوته لدى الأمير، فقد استمر بروميل في معاملة كل من حوله بالغطرسة نفسها. وبدون الدعم الذي توفره رعاية الأمير، فقد غرق بروميل في الديون بشكل رهيب. غير أنه استمر في أساليبه الوقحة. وسرعان ما تخلى عنه الجميع، فمات في فقر مدقع يرثى له، وحيداً ومجنوناً.

التفسير

كانت فطنة بروميل الوسيم الحاضر البديهة واحدة من أهم الصفات

التي حبَّبته إلى أمير ويلز. ورغم أنه كان الحَكَمَ والمرجع في أمور الذوق والأناقة فإن ذلك لم يشفع له من تلقي العقوبة بسبب مزاحه حول مظهر الأمير. ولا سيما بحضوره وعلانية. فإياك أن تمزح حول بدانة شخصٍ مّا، حتى ولو بصورة غير مباشرة ـ ولا سيما عندما يكون سيدك. ذلك أن دور الفقراء عبر التاريخ مليئة بالأشخاص الذين مزحوا بمثل هذه الأساليب على حساب سادتهم.

المشهد السادس

كان البابا أربان الثامن، يريد أن يذكره التاريخ لمهاراته في كتابة الشعر، وهي مهارات كانت ـ لسوء الحظ، متواضعة، أو متوسطة على أفضل تقدير. وفي سنة 1629، قام الدوق فرانسيسكو ديست (الذي كان يعرف ادعاءات البابا الأدبية) بإرسال الشاعر فولفيو تيستي كسفير له إلى الفاتيكان. وتكشف إحدى رسائل تيستي إلى الدوق لماذا وقع الاختيار عليه: «وعندما انتهت مناقشتنا، ركعت كي أغادر، ولكن قداسته أشار بيده ثم سار إلى غرفة أخرى كان ينام فيها. وعندما وصل إلى طاولة صغيرة، التقط رزمة من الأوراق، والتفت إليَّ بوجه باسم وقال لي: «نريد من سيادتكم أن تستمعوا إلى بعض تآليفنا المنظومة»، وقرأ عليَّ قصيدتين طويلتين جداً تقلِّدان أسلوب بندار [الشاعر الغنائي الإغريقي الكبير الذي عاش من 522 إلى 442 ق.م.]، إحداهما في مدح العذراء المقدَّسة، والأخرى عن الكونتيسة ماتيلدا».

ولا نعرف بالضبط ماذا كان رأي تيستي في هاتين القصيدتين الطويلتين جداً، لأنه كان من الخطر عليه أن يذكر رأيه بحرية، حتى في رسالة. ولكنه تابع يقول: «وقد تابعت مزاج قداسته بالتعليق على كل بيت من الشعر بالمديح المطلوب، وبعد أن قبَّلت قدم قداسته لهذه البركة التي اختصني بها [قراءة شعره]، غادرت المكان». وبعد أسابيع، عندما قام الدوق نفسه بزيارة البابا، استطاع أن يتلو أبياتاً كاملة من شعر البابا

ويمتدحها بشكل كان كافياً لجعل البابا «شديد الفرح بحيث بدا كأنه فقد عقله».

التفسير

في قضايا الذوق، لا يشبع سيدك من أية كمية من الخنوع تبديها له. فالذوق من أشد أقسام الذات تحسساً، فإياك والطعن أو التشكّك في ذوق السيد ـ فشعره رائع السمو، ولباسه كامل لا مغمز فيه، وأسلوبه مثال يحتذى للناس جميعاً.

المشهد السابع

ذات مساء، في الصين القديمة، كان تشاو، حاكم هان من سنة 358 إلى 333 ق.م، قد سكر حتى غلبه النوم في حدائق القصر. فمرَّ من الحدائق حامل تاج البلاط، الذي كانت مهمته الوحيدة هي الاهتمام بلباس رأس الحاكم، ورأى سيده نائماً بدون سترة. وبما أن الجوّ كان آخذاً في البرودة، فقد ألقى حامل التاج بسترته على جسد الحاكم، وغادر المكان.

وعندما أفاق الحاكم ورأى السترة عليه سأل مرافقيه: «مَنْ وضع مزيداً من الملابس على جسدي؟» فأجابوا: «حامل التاج». وعلى الفور نادى الحاكم على حامل سترته وعاقبه على إهمال واجباته، ثم طلب حامل التاج وأمر بقطع رأسه.

التفسير

لا تتعدَّ حدودك. واعمل ما أنت مكلَّف به، حسب أقصى ما لديك من طاقات، ولا تفعل شيئاً غير ذلك أبداً. فمن الأخطاء الشائعة اعتقادك بأنك إن فعلت أكثر فإن ذلك سيكون أفضل. فليس جيِّداً أبداً أن تبدو كأنك تفرط في محاولاتك، لأن ذلك يعرِّضك للظنّ بأنك تخفي نقصاً مّا. ذلك أن إنجازك مهمة لم تكلّف بها لا يزيد على أن يجعل

الناس يرتابون بك. فإن كنت حامل تاج فكن حامل تاج فحسب. ووفّر طاقتك الزائدة لتستخدمها وأنت خارج البلاط.

المشهد الثامن

ذات يوم، وبقصد التسلية والمرح، أبحر الرسّام الإيطالي من عصر النهضة، فرَا فيليبو ليبِّي (1406 ـ 1469) مع بعض أصدقائه في قارب صغير على مبعدة من سواحل آنكونا. هناك أسرتهم سفينتان شراعيتان مغربيتان كبيرتان، ونقلتاهم مقيّدين بالسلاسل إلى السواحل البربرية في شمال إفريقيا، حيث بيعوا كعبيد. وهكذا راح فيليبو يكدح طيلة ثمانية عشر شهراً، بلا أمل في العودة إلى إيطاليا.

وفي عدة مناسبات شاهد فيليبو الرجل الذي اشتراه يمرّ بصورة عابرة، فقرَّر ذات يوم أن يرسم مخططاً لصورة الرجل مستخدماً قطعة فحم مستخرجة من النار. وكان لا يزال مصفداً في أغلاله. فوجد جداراً أبيض، فرسم عليه صورة بالطول الكامل لمالكه بملابسه المغربية. وسرعان ما سمع المالك بذلك، لأنه لم يسبق لأحدٍ أن رأى مثل هذه البراعة في الرسم في تلك الأماكن. فبدت تلك الموهبة كمعجزة، كأنها عطية من الله. وبلغ من سرور المالك بها أن أعطى فيليبو حريته في الحال واستخدمه في بلاطه. وجاء جميع الرجال الكبار في بلاد البربر لرؤية الصورة الرائعة بالألوان الكاملة التي شرع فيليبو برسمها. وأخيراً، وعرفاناً بهذا التكريم الذي أضفته اللوحة على مالك فيليبو، قام المالك بإعادة الفنان سالماً إلى إيطاليا.

التفسير

نحن الذين نكدح من أجل الآخرين قد أسرنا القراصنة بطريقةٍ مَا وباعونا عبيداً أرقاء. ولكن معظمنا، مثل فْرَا فيليبو، ولو بدرجة أقل، يملك موهبةً مَا، قدرة على عمل شيء مَا أفضل مما يعمله الآخرون. قدِّم لسيدك هدية من مواهبك، وسترتفع فوق رجال الحاشية الآخرين.

ودعه يأخذ الفضل عند الضرورة، لأن ذلك سيكون مؤقتاً فقط. استخدمه كمنصة قفز، كطريقة لعرض موهبتك وشراء حريتك من العبودية في خاتمة المطاف.

المشهد التاسع

كان لآلفونصو الأول خادم قال للملك إنه رأى في المنام في الليلة السابقة أن آلفونصو قد أعطاه هدية من الأسلحة والخيل والملابس. وكان آلفونصو رجلاً كريماً جليلاً، فقرَّر أن من المسلِّي أن يحقِّق هذا الحلم، فسارع إلى منح الخادم تلك الهدايا بالضبط.

وبعد برهة قصيرة أعلن الخادم نفسه أنه شاهد حلماً آخر يعطيه فيه آلفونصو كومة كبيرة من الفلورينات الذهبية. فابتسم الملك وقال له: «لا تصدِّق الأحلام من الآن فصاعداً؛ إنها تكذب».

التفسير

في التعامل مع رؤيا الخادم الأولى، ظل آلفونصو هو المسيطر. فبتحقيق الحلم زعم لنفسه قدرة شبه إلهية، ولو بطريقة خفيفة فيها شيء من الدعابة. غير أن كل مظهر للسحر كان قد اختفى في الحلم الثاني. إذ أنه لم يكن سوى لعبة احتيال قبيحة من جانب الخادم. فلا تفرِّط في طلباتك إذن، بل اعرف متى تتوقَّف. إن العطاء امتياز للسيد دون سواه، فهو الذي يعطي ما يشاء عندما يشاء، ويفعل ذلك دون حث أو تحريض. فلا تعطه فرصة رفض طلباتك. فالأفضل أن تكسب أنواع التكريم دون أن تطلبها، بل لأنك تستحقها، فتُضْفَى عليك كمنحة.

المشهد العاشر

كان الرسَّام الإنكليزي العظيم للمناظر الطبيعية الريفية جوزيف مالورد وليام تيرنر (1775 ــ 1851) معروفاً باستخدامه للألوان، التي كان يطبقها بألمعية، وبتقزح غريب. بل إن الألوان في لوحاته كانت مذهلة بحيث لم يكن الفنانون الآخرون يرغبون في أن تُعَلَّق لوحاتُهُ إلى جانب

لوحاتهم. . لأنها كانت تجعل كل شيء حولها يبدو قاتماً.

وذات مرة، كان من سوء طالع الرسام السير توماس لورانس أن يرى رائعة تيرنر المعنونة **كولون** معلَّقة في معرض بين لوحتين من أعماله. فاشتكى بمرارة لصاحب المعرض، الذي لم يرضه، لأنه يجب في آخر الأمر تعليق لوحات **شخصٍ** مّا إلى جانب لوحات تيرنر. ولكن تيرنر سمع بشكوى لورانس. وقبل افتتاح المعرض، قلّل بريق السماء الذهبية في **كولون**، فجعل ألوانها قاتمة كقتامة الألوان في أعمال لورانس. فاقترب من تيرنر صديق له كان قد رأى لوحته تلك، وفي عينيه نظرة ذعر، وسأله: «ما الذي فعلته بصورتك!» فأجاب تيرنر: «حسناً، لقد كان لورانس المسكين شديد التعاسة. ولم أضف على اللوحة سوى هباب مصباح سيزول عن اللوحة بعد المعرض.

التفسير

إن كثيراً من مصادر قلق رجال الحاشية لها علاقة بالسيد الذي تكمن فيه معظم الأخطار. ومع ذلك فإن من الخطإ أن تعتقد أن السيد هو الوحيد الذي يقرِّر مصيرك. فأترابك ومرؤوسوك يلعبون أدواراً متكاملة كذلك. ذلك أن البلاط هو خلطة حساء من أنواع السخط، والمخاوف، والحسد القويّ. وعليك أن ترضي كل شخص يحتمل أن يؤذيك ذات يوم. فتحرف سخطهم وحسدهم بعيداً عنك، وتوجّه عداوتهم إلى أناس آخرين.

وكان تيرنر، وهو رجل الحاشية البارز، يعرف أن حظه السعيد وشهرته يعتمدان على زملائه من الرسامين، تماماً كما يعتمدان على بائعي لوحاته ومَنْ يضعونه تحت رعايتهم. وكم من العظماء أسقطهم زملاؤهم الحاسدون! فتعتيم لمعانك مؤقتاً خير من أن تعاني من مقاليع الحسد وسهامه.

المشهد الحادي عشر

كان ونستون تشرشل فناناً هاوياً. وبعد الحرب العالمية الثانية

صارت لوحاته نفائس يتنافس عليها جامعو التحف. بل إن الناشر الأميركي هنري لويس، مؤسس مجلتي تايم ولايف كان يحتفظ بلوحة فيها منظر طبيعيّ ريفيّ من رسم تشرشل في مكتبه الخاص بنيويورك.

وذات مرة قام تشرشل، أثناء جولة له في الولايات المتحدة، بزيارة لوس في مكتبه. فنظر الرجلان إلى تلك اللوحة معاً. فأبدى الناشر ملاحظة: «إنها صورة جيدة، ولكنني أعتقد أنها تحتاج إلى شيء في الجزء الأمامي، كخروف... ربما». ولرعب هنري لوس، اتصلت به أمينة سر تشرشل في اليوم التالي، وطلبت منه إرسال اللوحة إلى إنكلترا. ففعل لوس ذلك وهو يخشى أن يكون قد أزعج رئيس الوزراء السابق. غير أن اللوحة شحنت له بعد بضعة أيام وفيها تحوير طفيف. كان هناك خروف وحيد يرعى بسلام في مقدمتها.

التفسير

من حيث المكانة والشهرة، كان تشرشل أعلى بكثير من لوس. ولكن لوس كان بالتأكيد رجلاً ذا نفوذ، فدعونا نتصور مساواةً طفيفة بينهما. ومع ذلك، فما الذي كان تشرشل يخشاه من ناشر أميركي؟ ولم الانحناء لنقد أحد هواة الفن؟

إن البلاط ـ وهو في هذه الحالة عالم الدبلوماسيين ورجال الدولة بكامله، ومعهم أيضاً الصحفيون الذين يتوددون إليهم ـ هو مكان للاعتماد المتبادل. ومن عدم الحكمة مضايقة ذوي النفوذ أو إهانة أذواقهم، حتى ولو كانوا دونك أو مساوين لك. فإن كان رجل مثل تشرشل يستطيع ابتلاع نقد رجل مثل لوس، فإنه يثبت أنه رجل حاشية بلا نظير. (ولعل تصحيحه للوحة كان يوحي بشيء من التنازل كذلك. ولكنه قام به بطريقة ذكية خفية بحيث لم يلاحظ لوس أية استهانة به). قلِّد تشرشل؛ وأضف الخروف. لأن من المفيد دائماً أن تلعب دور رجل الحاشية الذي يمتثل، حتى عندما لا تكون في خدمة سيد.

اللعبة الحساسة لرجال الحاشية: تحذير

كان تاليران رجل حاشية محنك، وخصوصاً في خدمة سيده نابليون. وفي الأيام الأولى لتعرُّف كل منهما على الآخر، قال نابليون ذات مرة بصورة عابرة: «سآتي للغداء في بيتك في أحد هذه الأيام». وكان لتاليران منزل في أوتْوِيلْ.. في ضواحي باريس. فأجاب: «سوف يسرني ذلك يا عزيزي الجنرال، وبما أن بيتي قريب من غابة بولون، فإنك تستطيع أن تسلي نفسك بشيء من الرماية عند العصر».

فقال نابليون: «لا أحب الرماية. ولكنني أهوى الصيد، فهل هناك أي خنازير برية في غابة بولون؟». كان نابليون من كورسيكا، حيث كان صيد الخنازير البرية رياضة كبرى. غير أنه بسؤاله عن وجود خنازير برية في إحدى حدائق باريس كان يفضح نفسه كشخص ريفي يكاد يكون أخرق. غير أن تاليران لم يضحك، ولكنه لم يستطع أن يقاوم نكتة عملية على حساب الرجل الذي كان سيده في السياسة، وإن لم يكن كذلك في الدم والنبالة، إذ أن تاليران كان سليل أسرة أرستقراطية قديمة. وهكذا ردّ على سؤال نابليون: «إنها قليلة جداً أيها الجنرال، ولكنني أجرؤ على القول إنك ستعثر على واحد منها».

وتم ترتيب الأمر على أساس أن نابليون سيصل إلى بيت تاليران في السابعة من صباح اليوم التالي، حيث يمضي صبيحة ذلك اليوم ويتم «صيد الخنازير البرية» بعد الظهر. وطيلة الوقت لم يتحدث الجنرال المتحمس إلاّ عن صيد الخنازير. وفي تلك الأثناء، كان تاليران قد أرسل خدمه إلى السوق لشراء خنزيرين أسودين ضخمين وأخذهما إلى تلك الحديقة الكبرى.

وبعد الغداء، انطلق الصيادون وكلابهم إلى غابة بولون. وعند إشارة سرية متفق عليها، أطلق الخدم أحد الخنزيرين. فصاح نابليون بفرح: «أرى خنزيراً برياً»، ثم قفز على حصانه ليبدأ بالمطاردة. وتخلف عنها تاليران. واستغرق الأمر نصف ساعة من القفز في الحديقة حتى تم

الإمساك بالخنزير «البري» في آخر الأمر. غير أن أحد مساعدي نابليون اقترب منه في لحظة الانتصار، وكان يعرف أن ذلك الحيوان لا يمكن أن يكون خنزيراً برياً، ويخشى من أن يصبح الجنرال موضع السخرية إذا انكشفت القصة، وقال لنابليون: «سيدي، إنك تدرك طبعاً أن هذا الحيوان ليس برياً، بل هو خنزير عادي».

فاستشاط نابليون غضباً، وانطلق على حصانه مسرعاً نحو منزل تاليران. وأدرك في الطريق أنه سيصبح موضوعاً لنكت كثيرة، وأن الانفجار على تاليران سيجعل نابليون موضع سخرية أكثر. فمن الأفضل أن يريه حسّ دعابة. ومع ذلك فإنه لم يحسن تغطية سخطه.

وقرر تاليران أن يهدىء من ذات نابليون الجريحة. فطلب منه أن لا يذهب إلى باريس، بل إلى الحديقة مرة أخرى للصيد، حيث توجد أرانب كثيرة هناك، وأن صيدها كان من الهوايات المفضلة لدى لويس السادس عشر، يزجي فيها أوقات فراغه. بل عرض تاليران أن يقدم لنابليون مجموعة من البنادق التي كانت تخص لويس. وبكثير من الملق والتزلف أقنع نابليون بالموافقة على الصيد.

واتجه الموكب نحو الحديقة في المساء المتأخر. وفي الطريق قال نابليون لتاليران: «أنا لست لويس السادس عشر. وبالتأكيد لن أستطيع أن أقتل أرنباً واحداً». ومع ذلك، ولسبب غريب بما فيه الكفاية، كانت الحديقة تعجّ بالأرانب، فقتل نابليون خمسين منها على الأقلّ، وتغيّر مزاجه من الغضب إلى الرضا. غير أنه في نهاية حفلة الصيد الصاخبة هذه، اقترب منه المساعد نفسه وهمس في أذنه: «في الحقيقة يا سيدي، لقد بدأت أعتقد أن هذه ليست أرانب برية، وإني لأشك في أن ذلك النذل، تاليران، قد رتّب نكتة أخرى على حسابنا». (وكان المساعد على حق، ذلك أن تاليران كان في الحقيقة قد أعاد خدمه إلى السوق، حيث اشتروا عشرات الأرانب، وأطلقوها من ثم في غابة بولون).

فركب نابليون حصانه وانطلق مسرعاً لا يلوي على شيء عائداً إلى

باريس مباشرة. وهدد تاليران بعد ذلك وحذره من إخبار أي شخص بما حدث؛ فإذا أصبح نابليون موضع السخرية في باريس، فسوف تنفتح على تاليران أبواب جهنم.

واستغرق الأمر شهوراً حتى استطاع نابليون أن يثق بتاليران مرة أخرى. ولم يغفر له بشكل كلي إذلاله إياه.

التفسير

إن رجال الحاشية يشبهون السحرة. فهم يلعبون بالمظاهر على نحو مخادع. فلا يَدَعون مَنْ حولهم يرون إلاً ما يريدونهم أن يروه. ومع وجود مثل هذا القدر الكبير من الخداع والتلاعب، فإن من الجوهري أن تمنع الناس من رؤية حيلك والاطلاع على براعتك في المكر وخفة اليد.

وكان تاليران بشكل طبيعي هو الساحر الأكبر في فن تصرف رجال الحاشية. ولولا مساعد نابليون لأفلت تاليران تماماً في عملية إرضاء سيده، وفي ترتيب نكتة على حساب الجنرال في الوقت نفسه. ولكن عمل رجل الحاشية فن ذكي خفي معقد. غير أن تجاهل المصايد والأخطاء غير المقصودة يمكن أن يدمّر أفضل أنواع الخدع. فلا تخاطر أبداً بالتعرض للانكشاف في مناوراتك. وإياك أن تدع الناس يرون أساليبك وتدابيرك، لأن ذلك إن حدث فسوف تتغير مكانتك في أعين الناس على الفور، وتتحول من رجل حاشية ذي أساليب عظيمة إلى وغدٍ مُقْرِفٍ كريه. فاللعبة التي تمارسها دقيقة وحساسة. فطبّق عليها أقصى ما لديك من اهتمام بتغطية حيلك الماكرة. ولا تدع سيدك يكشف قناعك أبداً.

القانون

25

أَعِدْ تشكيل نفسك

الحكم

لا تقبل الأدوار التي يفرضها أو يدسّها عليك المجتمع. وأعد تشكيل نفسك بتكوين هويّة جديدة يكون من شأنها أن تكسب الاهتمام، ولا تشعر الجمهور بالسأم أو الملل. وكن السيد المسيطر على صورتك بدلاً من أن تترك الآخرين يحددونها لك. وأدخل في إشاراتك وأعمالك العلنية تدابير مفاجئة لافتة للنظر – وعندئذٍ يتسع نفوذك وتبدو صورتك أكبر من الحياة.

مراعاة القانون الأولى

أقام يوليوس قيصر أول المعالم البارزة في مجتمعه الروماني سنة 65 ق.م، عندما تسلم منصب **المحتسب**، الموظف المكلف بتوزيع المؤن من الحبوب والأشغال والألعاب العامة. وقد بدأ ظهوره في أعين عامة الناس بتنظيم سلسلة من المشاهد المرتبة باحترافٍ مُحْكَمٍ بعناية وبتوقيت جيد ـ كصيد الحيوانات المتوحشة، واستعراضات المصارعة الغريبة المتهورة، والمباريات المسرحية. وفي مناسبات عديدة كان يدفع كلفة هذه المشاهد والاستعراضات من جيبه الخاص. وهكذا صار يوليوس قيصر بالنسبة للرجل العادي مرتبطاً ارتباطاً لا يمّحي بهذه الأحداث المحبوبة كثيراً. وبينما كان يرتقي ببطء ليحصل على منصب القنصل، استفاد من شعبيته بين الجماهير كأساس لسلطته. فقد خلق لنفسه صورة رجل الاستعراضات العامة العظيم.

وفي سنة 49 ق.م، كانت روما على حافة حرب أهلية بين الزعيمين المتنافسين، قيصر وبومبي. وفي ذروة التوتر، قام قيصر، مدمن المسرح، بحضور عرض مسرحي. وبعد ذلك تجول في الظلام، وهو غارق في التفكير، عائداً إلى معسكره على ضفاف روبيكون، النهر الذي يفصل إيطاليا عن بلاد الغال (فرنسا الحالية) حيث كان قيصر يقود حملاته. وكان الزحف بجيشه عبر نهر روبيكون عَوْداً إلى إيطاليا سيعني بدء حرب أهلية مع بومبي.

إن الإنسان الذي يريد أن يكوّن ثروته في عاصمة العالم القديم هذه [روما]، يتعيّن عليه أن يكون حرباء، في قابليته لأن يعكس ألوان البيئة المحيطة به ـ ومثل بروتيوس في قابليته لاتخاذ كل شكل وهيئة. وعليه أن يكون طرياً، مرناً، متزلّفاً، متقرّباً، وغامضاً، ووضيعاً في غالب الأحيان، مخلصاً في بعض الأحيان، وغدّاراً في أحيان أخرى، يخفي على الدوام جزءاً من معرفته، وينهمك في لهجة صوت واحدة، ويتقن التحكم في سحنته، وقادراً على أن يكون بارداً كالثلج في حين يكون كل شخص آخر ناراً مشتعلة؛ وإن كان لسوء الحظ غير متدين في قلبه ـ وهذا شيء مألوف عند من يملك المتطلبات الواردة أعلاه ـ، فعليه أن يبقي الدين في ذهنه، أي ظاهراً على ملامح وجهه، وعلى شفتيه، وفي سلوكه؛ وعليه أن يتألّم بصمت وهدوء إن كان رجلاً شريفاً وهو يعرف ضرورة

وأمام ضباط أركانه ناقش قيصر الأمر من جانبيه معاً، مشكّلاً الخيارات كأنه ممثل على المسرح، وسلف سابق لهاملت. وأخيراً، ومن أجل إنهاء مناجاته الذاتية، أشار إلى شبح كان مظهره يبدو بريئاً على حافة النهر ـ وهو جندي فارع الطول كان ينفخ نفيراً في بوق، ثم يعبر الجسر فوق نهر روبيكون ـ ثم أعلن: «دعونا نقبل هذا كإشارة من الآلهة، ونتبعهم إلى حيث يشيرون، للانتقام من أعدائنا الغدّارين. سبق السيف العَذْل». وقد تحدث بهذا كله بطريقة تَنَبُّئِيَّة ودراميّة مفاجئة، وهو يشير إلى النهر وينظر إلى ضباطه في عيونهم مباشرة. كان يعرف أن دعم أولئك الضباط له لم يكن أكيداً. ولكن خطابه غلبهم على أمرهم، بإشعارهم بأهمية هذه اللحظة، وبالحاجة إلى انتهاز الفرصة واستغلال الزمن. ولو كان الخطاب واقعياً أكثر أو اعتيادياً لما كان له المفعول نفسه. وهكذا التف الضباط حول قضيته. فعبر قيصر وجيشه نهر روبيكون، وعند حلول العام التالي كان بومبي قد اندحر؛ مما جعل قيصر دكتاتور روما.

ممارسته لخطيئة النفاق، وإن أي رجل تكره روحه مثل هذه الحياة يتعين عليه أن يغادر روما ويبحث عن حظه وثرته في مكان آخر. ولا أدري إن كنت أمتدح نفسي أم ألتمس الأعذار، ولكنني من كل تلك الصفات كنت أمتلك واحدة فقط، هي المرونة.

مذكراتي
جيوفاني كازانوفا
1725 ـ 1798

وفي فن الحرب، كان قيصر دائماً يؤدي دور القائد بِحَيَوِيَّةٍ بالغة. فكان خيّالاً بارعاً كأي واحد من جنوده. وكان يتفاخر بالتفوق عليهم في الأعمال التي تتطلب شجاعة وجَلَداً وقدرة على التحمل. فكان يدخل المعركة على صهوة أقوى جواد، بحيث يراه جنوده في غمرة القتال يَحُثُّهُمْ ويضع نفسه دائماً في الوسط، كرمز شبه إلهي للسلطة، وكنموذج لهم يُحْتَذَى. ومن بين كل جيوش روما، كان جيش قيصر هو الأشد إخلاصاً وولاء. فكان جنوده، كالناس العاديين الذين كانوا يحضرون حفلاته واستعراضاته، يتعلقون به وبقضيته.

بعد اندحار بومبي، تنامت الاستعراضات الممتعة في حجمها بصورة لم تشهد لها روما مثيلاً من قبل. وصارت سباقات العربات أكثر روعة، ومعارك المتصارعين أكثر لفتاً للأنظار برهبتها، وراح قيصر ينظم مبارزات حتى الموت بين النبلاء الرومان. ونظم معارك بحرية تمثيلية

هائلة على بحيرات اصطناعية. وكانت المسرحيات تُمَثَّلُ في كل حيّ روماني. وبُنِيَ مسرح ضخم جديد ينحدر بشكل مفاجىء من على الصخرة التاربيّة. واحتشدت الجماهير من جميع أنحاء الإمبراطورية لتشهد هذه الأحداث. وامتلأت جوانب الطرقات المؤدية إلى روما بخيام الزوار. وفي سنة 45 ق.م، وقَّتَ قصيرُ دخوله إلى المدينة بحيث يحدث أقصى قدر ممكن من التأثير والمفاجأة، فعاد إلى روما بكليوباترا، بعد حملته المصرية. ونظم مشاهد عامة أكثر إفراطاً في البذخ والفخفخة.

وكانت هذه الأحداث أكثر من تدابير لإلهاء الجماهير. فقد وسعت إحساس العامّةِ بشخصية قيصر بصورة مفاجئة، وجعلته يبدو أكبر من الحياة. وكان قيصر سيّد صورته العامّة التي كان على وعي دائم بها. فعندما كان يظهر أمام الحشود، كان يرتدي أثوابه الحمراء اللافتة للأنظار. إذ لم يكن يريد أن يبعده أحد من مركز المسرح إلى مؤخرته. وكان مغروراً بشكل كبير ومعروف حول مظهره ـ فقد قيل إن أحد أسباب استمتاعه بتكريم مجلس الشيوخ والشعب أنه في هذه المناسبات كان يستطيع أن يرتدي إكليل غار يخفي صلعه. وكان قيصر خطيباً مِصْقَعاً. فكان يعرف كيف يقول الكثير بكلمات قليلة. وكان يعرف بحدسه اللحظة التي ينهي فيها الخطاب ليترك أقصى قدر من التأثير. ولم يعجز أبداً عن تضمين حالات ظهوره العام مفاجأةً مّا ـ إعلاناً مباغتاً يزيد تلك المناسبات إثارة.

وكانت لقيصر شعبية هائلة في صفوف الشعب الروماني، فكرهه منافسوه وخافوا منه. وفي منتصف شهر آذار/مارس من سنة 44 ق.م، أحاطت به مجموعة من المتآمرين بقيادة بروتوس وكاشيوس في مجلس الشيوخ وطعنوه حتى الموت. غير أنه حتى في موته احتفظ بإحساسه بالدراما. فسحب أعلى ردائه فوق وجهه، وترك الجزء السفلي ينسدل على ساقيه، مما سمح له أن يموت ميتةً كريمة وجثمانه مغطى. وحسب رواية المؤرخ الروماني سويتونيوس كانت كلماته الأخيرة لصديقه القديم

بروتوس، الذي كان على وشك توجيه طعنة أخرى له، باللغة اليونانية، وكأنه يتدرب لإنهاء مسرحية: «وأنت أيضاً، يا بنيّ؟».

التفسير

كان المسرح الروماني حدثاً للجماهير، تحضره حشود لا يمكن تصورها اليوم. فكان المتفرجون، المجتمعون في صالات هائلة، يتسلون بمسرحيات هزلية صاخبة، أو يتأثرون بالمآسي العالية. وكان يبدو أن المسرح يحتوي على جوهر الحياة بشكلها الروائي المركّز. فكان له، كالطقوس الدينية، تأثير فوري قوي على الرجل العادي.

ولعل يوليوس قيصر كان أول شخصية عامة تفهم العلاقة الحيوية بين السلطة والمسرح. وكان ذلك بسبب اهتمامه المهووس بالدراما. فتصاعد بهذا الاهتمام عن طريق جعل نفسه ممثلاً ومخرجاً على مسرح العالم. فكان يتلو كلماته وكأنها نصٌّ روائي. وكان يؤشر ويتحرك وسط الجمهور، بإحساس دائم بمظهره وكيف يبدو أمام متفرجيه. فكان يُضَمّن ذخيرته الروائية مفاجآت، فيبني في خطاباته صراعاً دراميا يجعل ظهوره في مكان سنة يشبه الدخول إلى المسرح. وكانت إشاراته من الاتساع بحيث يفهمها الرجل العادي على الفور.

لقد وضع قيصر المثال النموذجي لكل الزعماء وأصحاب السلطة. وعليك أن تتعلم مثله أن تضخم أفعالك من خلال تقنيّات المسرح، مثل المفاجأة، وإثارة الترقب المتوتر أو اللهفة، وخلق التعاطف، والتحديد الرمزي. ومثله أيضاً، يجب عليك أن تكون واعياً بجمهور مستمعيك ـ وبما يسرهم وبما يثير سأمهم وضجرهم ـ . وعليك أن تتدبر وضع نفسك في المركز كي تلفت الانتباه، وكي لا تتراجع إلى مؤخرة المسرح بأي ثمن.

مراعاة القانون الثانية

في سنة 1831، قامت امرأة شابة تدعى أورورا دوبان دوديفان بترك

زوجها وعائلتها في المقاطعات وانتقلت إلى باريس. كانت تريد أن تكون كاتبة؛ وقد شعرت أن الزواج أسوأ من سجن، لأنه لم يترك لها الوقت ولا الحرية لمتابعة عاطفتها المشبوبة. ففي باريس أرادت أن تؤسس استقلالها وتتدبر معيشتها بالكتابة.

غير أنها بعد وقت قصير من وصولها إلى العاصمة، كانت مضطرة إلى مواجهة بعض الحقائق القاسية. فللحصول على أي قدر من الحرية في باريس، ينبغي أن يكون معك مال. والمال بالنسبة للمرأة لا يأتي إلاّ عن طريق الزواج أو البغاء. ولم تستطع أي امرأة قطّ أن تقترب من أمر تدبير معيشتها بالكتابة. فالنساء كنّ يكتبن على سبيل الهواية، بدعم من أزواجهن أو من إرثٍ يَرِثْنَهُ. والواقع أنه عندما عرضت دوديفان كتابتها على أحد المحررين قال لها: «يجب عليك أن تنتجي أطفالاً يا سيدتي، وليس أدباً».

كان واضحاً أن دوديفان قد جاءت إلى باريس لتحاول المستحيل. غير أنها في آخر الأمر ابتكرت خطة استراتيجيةٍ لعمل ما لم تعمله امرأة قبلها على الإطلاق. . استراتيجية إعادة خلق نفسها بصورة كاملة، بتلفيق صورة عامة لنفسها من صنعها الخاص. ففي السابق كان يُفْرَضُ على النساء الكاتبات دور جاهز، هو دور فنانة من الدرجة الثانية، تكتب معظم مؤلفاتها للنساء الأخريات. فقررت دوديفان أنه إن كان لا بدّ لها من دور تلعبه، فإنها ستقلب اللعبة رأساً على عقب: ستلعب دور رجل.

وفي سنة 1832، قبل أحد الناشرين قصتها الكبرى الأولى المعنونة: **إنديانا**. واختارت أن تنشرها تحت اسم مستعار هو «جورج صاند». فافترضت باريس كلها أن الكاتب الجديد المثير للإعجاب هو ذَكَر. وكانت دوديفان ترتدي ملابس الرجال أحياناً قبل أن تخلق «جورج صاند» (إذْ إنها كانت دائماً تجد القمصان الرجالية وسراويل الركوب القصيرة مريحة لها أكثر من غيرها). وعندما صارت شخصية عامة، أخذت تبالغ في هذه الصورة. فأضافت إلى خزانة ثيابها معاطف رجالية

طويلة، وقبعات رمادية، وجزمات ثقيلة وربطات عنق مزركشة مُغَنْدَرَة. وشرعت في تدخين السيجار، وفي التعبير عن نفسها في الحديث كرجل، دون أن تخشى من السيطرة على الحديث، أو استعمال كلمة نابية.

وفُتِنَ الناس بهذه الكاتبة الغريبة «الذكر/الأنثى». وعلى عكس الكاتبات الأخريات، وجدت صاند نفسها مقبولة في طغمة من الفنانين الذكور. وراحت تتعاطى معهم الخمر والتدخين، بل أقامت علاقات غرامية مع أشهر فناني أوروبا ـ آلفريد دي موسيه، وفرانزليست، وفردريك شوبان. وكانت هي التي تبادر بالمغازلة، وكذلك بالهجر. وكانت تتحرك كما تشاء.

وفَهِمَ الذين عرفوا صاند أن شخصيتها الذكورية كانت تحميها من عيون الناس المتلصصة. وعندما كانت تخرج إلى العالم، كانت تستمتع بلعب ذلك الدور إلى أقصى حد؛ وإذا خلت إلى نفسها كانت تظل هي هي. كما أدركت أن شخصية «جورج صاند» قد تصبح تافهة مبتذلة أو يسهل التنبؤ بها. ولتجنب ذلك راحت تعمد إلى تغيير الشخصية التي خلقتها بين الحين والآخر بصورة مفاجئة. فبدلاً من إقامة العلاقات مع المشاهير، كانت تتدخل في السياسة على نحو متطفل، وتقود المظاهرات، وتلهم الطلبة العصيان. فلم تسمح لأحد أن يملي عليها حدود الشخصية التي خلقتها. وبعد زمن طويل من موتها، وبعد أن كفّ معظم الناس عن قراءة قصصها، ظلت التحركات المسرحية لتلك الشخصية الأكبر من الحياة تفتن الناس وتلهمهم.

التفسير

طيلة الحياة العامة لجورج صاند كان لدى معارفها والفنانين الآخرين الذين قضوا وقتاً في صحبتها شعور بأنهم أمام رجل. ولكنها في يومياتها ومع أقرب الأصدقاء إليها، مثل غوستاف فلوبير كانت تعترف بأن لا رغبة لديها في أن تكون رجلاً، ولكنها تلعب دوراً للاستهلاك

العمومي. فما كانت تريده في الحقيقة هو القدرة على تقرير شخصيته والبتّ فيها بنفسها. وقد رفضت القيود التي كان المجتمع سيفرضه عليها. غير أنها لم تحصل على نفوذها بكونها نفسها، بل خلقت شخصية تستطيع أن تكيفها باستمرار حسب رغباتها، شخصية اجتذبت الاهتمام وأعطتها حضوراً.

إفهم هذا: يريد العالم أن يوكل إليك دوراً في الحياة. وبمجرد أن تقبل الدور تحكم على نفسك بالإخفاق. إذ أن سلطتك محدودة بالقَدْر الضئيل المخصص للدور الذي اخترته أو فُرِضَ عليك أن تؤديه. غير أن الممثل، من جهة أخرى، يلعب أدواراً كثيرة. فتمتع بتلك القوة السريعة التقلب، وإذا كانت بعيدة عن متناولك، فلا أقل من أن تلفق هوية جديدة تصنعها بنفسك، هوية لا تقيدها حدود يعيّنها لك عَالَمٌ حاسدٌ أو ساخط. فهذا النوع من الفعل المتحدي هو بروميثي (نسبة إلى بروميثيوس، أو هرقل الذي تحدى الآلهة وأعطى سر النار للبشر)، فهو يجعلك مسؤولاً عن صنيعتك التي خلقتها بنفسك.

إن هويتك الجديدة ستحميك من العالم لأنها بالضبط ليست «أنت». بل هي زيٌّ ترتديه وتخلعه. ولا حاجة بك لأخذها على محمل شخصي. وهويتك الجديدة تجعلك متفرداً منفصلاً، وتعطيك حضوراً مسرحياً. فالجالسون في الصفوف الخلفية يرونك ويسمعونك. أما الذين في الصفوف الأمامية فيتعجبون من وقاحتك وصلفك.

> الا يتحدث الناس في المجتمع عن رجل بصفته ممثلاً عظيماً؟ هم لا يقصدون بذلك انه يشعر، بل إنه يبدع في استثارتهم رغم انه لا يشعر بشيء.
>
> (دنيس ديدرو، ١٧١٣ ـ ١٧٨٤)

مفاتيح السلطة

إن الشخصية التي يبدو أنك قد ولدت بها ليست بالضرورة أنت

فبالإضافة إلى الخصائص التي ورثتها فقد ساعد أصدقاؤك وأترابك في تشكيل شخصيتك. والمهمة البروميثيوسية الثقيلة على كاهل الأقوياء هي السيطرة على العملية، ومنع الآخرين من تقييدهم وقولبتهم. أَعِدْ تصنيع نفسك كشخصية قوية. وينبغي أن يكون عملك في تشكيل نفسك كالطين واحداً من أعظم وظائف حياتك وأكثرها مدعاة للمسرة. فهذا العمل يجعلك من حيث الجوهر فناناً ـ فناناً تخلق نفسك.

والواقع أن فكرة خلق الذات تأتي من عالَم الفن. فَعَلَى مدى آلاف السنين، كان الملوك وكبار رجال الحاشية فقط هم الذين لديهم الحرية لتشكيل صورتهم العامة، والبت في هويتهم الخاصة بهم. وبالمثل كان الملوك وأغنى النبلاء (اللوردات) هم وحدهم الذين يستطيعون تأمل صورهم الذاتية في الفن وتغييرها عن وعي وقصد. أما باقي أبناء البشرية فيلعبون الدور المحدود الذي يطلبه منهم المجتمع، وليس لديهم أي وعي يذكر بذواتهم.

ويمكن اكتشاف تحول في هذه الحالة في لوحة فاليسكويز المعنونة: **المعبودون**، المرسومة سنة 1656. إذ يظهر الفنان على يسار اللوحة، واقفاً أمام الرسم أثناء عملية خلقه له، ولكن ظَهْرَ الرسم متجه إلينا ـ فلا نستطيع أن نراه. وإلى جانبه تقف أميرة ومرافقوها وأحد أقزام البلاط، وكلهم يتفرجون عليه وهو يعمل. أما الناس الواقفون لكي يرسمهم الفنان فهم غير مرئيين بصورة مباشرة، ولكننا نستطيع أن نراهم في انعكاسات ضئيلة في مرآة على الجدار الخلفي ـ ملك إسبانيا وملكتها اللذان يجب أن يكونا جالسين في مكانٍ مّا في المقدمة، خارج الصورة.

ويمثل الرسم تغيراً مفاجئاً في الطاقات الفعالة للسلطة، والقدرة على البتّ في مركز المرء في المجتمع، لأن فاليسكويز، الفنان، له موقع أهم وأبرز من موقع الملك والملكة. وبمعنىً مّا فإنه أقوى منهما، لأنه هو المسيطر على الصورة، **صورتهما**. ذلك أنه لم يعد يرى نفسه الفنان المستعبَد التابع. بل أعاد صنع نفسه كرجل ذي سلطة. والحق أن الفنانين

والكتاب كانوا ـ بعد الأرستقراطيين ـ أول الناس الذين تلاعبوا عمـ
وبصورة مكشوفة بصورتهم في المجتمع الغربيّ، وتلاهم بعد ذلـ
الشباب المتغندرون والبوهيميون الذين لا يقيمون وزناً للأعراف
الاجتماعية. أما اليوم، فإن مفهوم خلق الذات قد تسلل إلى باقي
المجتمع، وصار مثالاً يتطلعون إليه. ومثل فاليسكويز، يجب أن تطلـ
لنفسك القوة أو السلطة للبت في موقعك في اللوحة، وأن تخلق صورتـ
بنفسك.

وأول خطوة في عملية خلق الذات هي الوعي بالذات، أي وعيـ
بذاتك كممثل، والسيطرة على مظهرك وعواطفك. وكما قال ديدرو، فـ
الممثل الرديء، هو الممثل المخلص دائماً. فالناس الذين يضعو
قلوبهم على أكفهم ويخرجون بها علماً إلى المجتمع هم متعبو
ومحرجون. فعلى الرغم من إخلاصهم، يصعب أخذهم على محمـ
الجدّ. فالذين يبكون علانية قد يستدرجون العطف. ولكن العطـ
سرعان ما يتحول إلى تهكم وسخط على هواجسهم الذاتية المتسلطة. .
نشعر أنهم يبكون للحصول على الاهتمام، ويميل جزء خبيث فينا إلى
حرمانهم من تلبية تلك الرغبة.

فالممثلون الجيدون يسيطرون على أنفسهم بشكل أفضل. إذ أنهم
يستطيعون أن يمثلوا الإخلاص والعواطف القلبية، ويستطيعون أن يفتعلو
دمعة ونظرة رحيمة كلما شاؤوا، ولكنهم غير مضطرين للشعور بذلك
فهم يخرجون العاطفة من أجوافهم بشكل يستطيع الآخرون فهمه. فتمثيـ
الطريقة قاتل في العالم الحقيقي. إذ لا يستطيع أي حاكم أو قائد يمثـ
دوره إن كان مضطراً إلى جعل كل العواطف التي يظهرها حقيقية. فتعـ
ضبط النفس إذن. واعتمد مطاطية الممثلين، الذين يستطيعون أن يقولبو
وجوههم على قياس العاطفة المطلوبة.

والخطوة الثانية في عملية خلق الذات هي تنويع على استراتيجية

جورج صاند: خلق شخصية تعلق في الذاكرة، وتفرض الانتباه، وتقف أعلى من الممثلين الآخرين على المسرح. ولقد كانت هذه هي اللعبة التي مارسها أبراهام لينكولن. كان يعرف أن الرجل الريفي العاديّ البسيط هو النوع الذي لم يسبق لأميركا أن انتخبته رئيساً من قبل أبداً ولكنها ستبتهج بانتخابه. ورغم أن كثيراً من هذه الصفات كانت ظاهرة فيه بشكل طبيعي، فقد ضخّمها وأبرزها: القبعة والملابس واللحية (فلم يكن هناك رئيس بلحية من قبل). وكان لينكولن أيضاً أول رئيس يستخدم الصور الفوتوغرافية لنشر صورته، مما ساعده على خلق أيقونة «الرئيس العادي البسيط».

غير أن المسرحية تحتاج إلى ما هو أكثر من مظهرٍ مثيرٍ للاهتمام، أو لحظة موقف بارز بمفردها. فالمسرحية يستغرق حدوثها وقتاً، لأنها واقعة تتكشف أبعادها تدريجياً. فإيقاعها وتوقيتها لهما أهمية حساسة. ذلك أن هُودِيني، على سبيل المثال كان يستطيع أن يستكمل تخليص نفسه في ثوانٍ أحياناً، غير أنه كان يطيلها إلى دقائق، ليجعل جمهوره يتصبب عرقاً.

إن مفتاح إبقاء المتفرجين منفعلين متلهفين على حافات مقاعدهم هو جعل الأحداث تتكشف ببطء، ثم جعلها تتسارع في اللحظة المناسبة. حسب نمط وإيقاع تتحكم بهما أنت. فالحكام العظام، من نابليون إلى ماوتسي ـ تونغ، قد استخدموا التوقيت المسرحي لمفاجأة جمهورهم وإلهائه. وقد كان فرانكلين ديلانو روزفلت، يفهم أهمية تدبير أحداث سياسية حسب ترتيب وإيقاع معيَّنين.

وفي موسم انتخاباته الرئاسية في سنة 1932، كانت الولايات المتحدة في وسط أزمة اقتصادية رهيبة. فالمصارف كانت تفلس بتواترٍ مفزع. وبعد وقت قصير من فوز روزفلت في الانتخابات، تراجع إلى ملتجأ منعزل. ولم يقل شيئاً عن خططه أو تعييناته الوزارية. بل رفض أن

يلتقي بالرئيس الذي سيخلفه، هربرت هوفر، لمناقشة عملية نقل السلطة. وعندما حان وقت تدشين رئاسة روزفلت، كان البلد في حالة من القلق الشديد.

وفي خطابه الافتتاحي، غيّر روزفلت إيقاع السرعة. فألقى خطاباً قوياً أوضح فيه أنه ينوي أن يقود البلد في اتجاه جديد تماماً، وأزاح بشكل كاسح كل إشارات سابقيه المتخوفة. ومنذ ذلك الحين فصاعداً راحت إيقاعات خُطَبِه، وقراراته العامة، وتعييناته الوزارية، وتشريعاته الجريئة تتكشف بمعدلٍ سرعتُهُ لا تصدَّق. وصارت الفترة التي تلت بداية رئاسته تعرف باسم «المائة يوم». إذ أن نجاحها في تغيير المزاج العام في البلد قد نجم جزئياً عن إيقاع روزفلت البارع واستخدامه للتناقض المسرحي المفاجىء. فكان يثير ترقب مستمعيه وتلهفهم، ثم يفاجئهم بسلسلة من الإشارات الجريئة التي كانت تبدو أضخم وأكبر تأثيراً لأنها كانت تأتي من الفراغ. يجب عليك أن تتعلم كيف تنظم إيقاع الأحداث بطريقة مماثلة، فلا تكشف أوراقك كلها دفعة واحدة، بل تكشفها بطريقة تزيد في تأثيرها الدراميّ المفاجىء.

فالمسرحية الجيدة لا يقتصر تأثيرها على تغطية حشد من الخطايا. بل إنها تستطيع كذلك أن تُرْبِكَ عدوك وتخدعه. فأثناء الحرب العالمية الثانية، كان الكاتب المسرحي الألماني برتولت بريخت يعمل في هوليود ككاتب للمشاهد السينمائية. وبعد الحرب استدعي للمثول أمام لجنة مكافحة النشاط المعادي لأميركا التابعة للكونغرس الأميركي بسبب تعاطفه المفترض مع الشيوعية. وكان الكتاب الآخرون الذين تم استدعاؤهم للشهادة يخططون لإهانة أعضاء اللجنة بموقف عاطفي غاضب. وكان بريخت أعقل منهم. فقد قرر أن يتلاعب باللجنة كأنه يعزف على كمان. فيفتن أعضاءها ويخدعهم في الوقت نفسه. فقام بمراجعة أجوبته بعناية؛ وجاء معه ببعض المرتكزات، ولا سيما سيجار راح ينفخ دخانه وهو يعلم أن رئيس اللجنة يحب السيجار. وشرع بالفعل

يخادع اللجنة بأجوبة مصنّعة جيداً، غامضة، ومضحكة، وذات حدّين. وبدلاً من تقريع غاضب نابع من القلب، راح يداورهم بإنتاج مسرحي كان قد دبّره مسبقاً، فتركوه حراً طليقاً تماماً.

وتشمل التأثيرات المسرحية في ذخيرتك «البادرة الكريمة». وهي عمل في لحظة الذروة يرمز لانتصارك أو جرأتك. فلقد كان العبورُ الدراميُّ لنهر روبيكون **بادرةً كريمةً مفتعلة** من قيصر ــ حركة بهرت الجنود وأعطت قيصر أبعاداً بطولية. وعليك أيضاً أن تقدر أهمية مداخل المسرح ومخارجه. فعندما التقت كليوباترا بقيصر للمرة الأولى في مصر، وصلت إليه ملفوفة في سجادة مطويّة رتبت أمر فَرْشِها عند قدميه. كما أن جورج واشنطن ترك السلطة مرتين بتبجّح وضجيج (أولاً بصفته جنرالاً، ثم بصفته رئيساً رفض أن يحكم فترة ولاية ثالثة)، فأظهر أنه يعرف كيف يجعل اللحظة شيئاً محسوباً وهاماً من حيث التوقيت والرمز المليء بالمعاني. إن عمليات دخولك وخروجك ينبغي تخطيطها وتصنيعها بالدقة نفسها.

وتذكَّر أن الإفراط في التمثيل قد يعطي نتيجة عكسية ــ فهو طريقة أخرى لصرف جهد مفرط في محاولة لفت الأنظار أو اجتذاب الاهتمام. فقد اكتشف الممثل ريتشارد بيرتون في وقت مبكر من حياته العملية أنه بوقوفه ساكناً تماماً على المسرح كان يجذب الاهتمام لنفسه ويبعده عن الممثلين الآخرين. فمن الواضح أن ما تفعله ليس هو المهم، فالأهم منه هو الطريقة التي تفعله بها. فكياستك ولباقتك، وسكونك الطاغي على المسرح الاجتماعي لها تأثير أكثر من إفراطك في أداء دورك، وفي التحرك الزائد أكثر من اللازم.

وأخيراً: تعلَّم أن تؤدي كثيراً من الأدوار، وأن تكون ما يتطلبه منك مقتضى كل لحظة، وأن تكيف قناعك للحالة ــ وكن متقلباً في الوجوه التي ترتديها، أي البس لكل حالة لبوسها. فقد كان بسمارك يتقن هذه اللعبة تماماً. فكان أمام الأحرار واحداً منهم، وعند الصقور صقراً.

فلم يكن من الممكن فهمه. وما لا يمكن فهمه لا يمكن استهلاكه.

صورة:
إله البحر الإغريقي بروتيوس. كانت
قوته تنبع من قدرته على تغيير شكله كما
يشاء بحيث يكون ما تتطلبه منه اللحظة التي هو فيها.
وعندما حاول مينيلاوس، أخو آغا ممنون، أن يقبض
عليه، حوّل بروتيوس نفسه إلى أسد، ثم إلى أفعى، وفهد،
وخنزير بري، وماءٍ جارٍ، وأخيراً إلى شجرة كثيفة الأوراق.

الشاهد: إعرف كيف تكون كل الأشياء لكل الناس، أي بروتيوس متكتماً: عالمـ بين العلماء، وقدّيساً بين القدّيسين. فهذا هو فنّ كسب الجميع إلى جانبك، إذ أنّ شبيه الشيء منجذب إليه. لاحظ الأمزجة والطباع وكيّف نفسك لمزاج كـل شخص تلتقيه. وتتبع طبعَ الجادّ والمرح، كلاً في دوره، مغيّراً مزاجك بشكر خفي حريص، مع الشجيّ ومع الخَلِيّ. (بلتازار غراسيان، 1601 ـ 1658)

الانقلاب

لا يوجد في الحقيقة انقلاب في هذا القانون الهام: فالمسرح الرديء هو مسرح رديء. فحتى الظهور بالمظهر الطبيعي يتطلب فناً ـ وبكلمة أخرى: تمثيلاً. فالتمثيل الرديء لا يخلق سوى الإحراج وبالطبع ينبغي أن لا تفرط في التمثيل ـ تجنّب الإشارة المتكلفة المفتعلة. ولكن ذلك مسرح رديء على أية حال، ما دام ينتهك القوانين المسرحية المضادة للإفراط في التمثيل التي ظلت سارية المفعول قروناً طويلة. فمن حيث الجوهر الأساسي لا يوجد انقلاب لهذا القانون.

القانون

26

ابقِ يديك نظيفتين

الحكم

يجب أن تبدو مثالاً للكياسة والكفاءة، فيداك لا تتلوثان قط بالأخطاء والأفعال الشنعاء. فحافظ على مثل هذا المظهر النظيف بلا بُقَع باستخدام الآخرين ككباش فداء، ومخالب قط للتغطية على تورطك.

القسم الأول: اخْفِ أخطاءك ـ
احتفظ بكبش فداء قريب ليتلقى اللوم

إن نظافة اسمنا وسمعتنا تعتمد على ما نخفيه أكثر من اعتمادها على م
نكشفه. فالجميع يخطئون. ولكن البارعين فعلاً يتدبرون أمر إخفـ
أخطائهم، ويضمنون وقوع اللوم على شخص آخر. فيجب إبقاء كبش
فداء جاهز وقريب دائماً لمثل هذه اللحظات.

عدالة شِيلْم

أصابت محنةٌ عظيمةٌ مدينةَ شِيلْم ذات يوم. فقد قتل إسكافيُّ المدينة واحداً من زبائنه. فجيء به للمثول أمام القاضي، الذي حكم عليه بالإعدام شنقاً. وعندما تُلِيَ الحكم، نهض أحد رجال المدينة وصرخ: «اسمعني من فضلك يا سيادة القاضي ـ لقد حكمت بالإعدام على إسكافيّ المدينة! وهو الوحيد عندنا، فإن شنقته فمن يصلح أحذيتنا؟» فصرخ جميع أهالي شِيلْم «من؟ من؟» بصوت واحد. فهزّ القاضي رأسه موافقاً وأعاد النظر في حكمه، وقال: «يا أهل شيلم الطيبين، إن ما تقولونه صحيح. فبما أن لدينا إسكافياً واحداً، فإن تركه يموت خطأً في حق

مراعاة القانون الأولى

في أواخر القرن الثاني الميلادي، وبينما كانت إمبراطورية هـ
الصينية القوية تنهار في بطء، برز القائد العظيم والوزير الإمبراطوري
تسآو تسآو باعتباره أقوى رجل في البلد. وفي سعيه لتوسيع قاعدة سلطـ
وتخليص نفسه من آخر منافسيه، شرع في حملة للاستيلاء على السهـ
الأوسط ذي الأهمية الاستراتيجية الحيوية. وأثناء محاصرة مدينة هـ
فيه، أخطأ خطأً طفيفاً في حساب توقيت وصول إمدادات الحبوب مـ
العاصمة. وبينما كان ينتظر وصول الشحنة، شَحّت أقوات الجيش
واضطر تسآو تسآو إلى إصدار الأمر لرئيس لجنة التموين بتخفيض كميـ
الإعاشة.

وكان تسآو تسآو يمسك بزمام الجيش على نحو محكم، ويديـ
شبكة من المخبرين. وسرعان ما أبلغه جواسيسه بأن الرجال يتذمرون.
ويشكون من كونه هو يعيش جيداً بينما هم أنفسهم لا يكادون يجدون مـ

المجتمع. وبما أن في المدينة شخصين مختصين بإصلاح السطوح، فليُشنق أحدهما بدلاً من الإسكاف»

مجموعة قصص شعبية تحرير ناثان أوسوبيل، 1948

يكفي لطعامهم. فلعل تسآو تسآو يحتفظ بالطعام لنفسه ـ هكذا راحوا يغمغمون. فلو انتشر التذمر فقد يجد تسآو تسآو نفسه يواجه تمرداً. وهكذا استدعى رئيس لجنة التموين إلى خيمته، وقال له:

«أود أن أطلب منك أن تعيرني شيئاً. ويجب أن لا ترفض»، فرد عليه رئيس لجنة التموين: «ما هو؟»، فقال تسآو تسآو: «أريد أن أستعير رأسك لأعرضه على الجنود». فصرخ الرئيس: «ولكنني لم أرتكب ذنباً!»، فقال تسآو تسآو وهو يتنهد: «ولكنني إذا لم أعدمك فسوف يحدث تمرد. فلا تحزن، لأنني سأرعى أسرتك بعد ذهابك». وعندما طُرِحَ الطلب بهذه الطريقة، لم يبق لرئيس لجنة التموين خيار، فاستسلم لمصيره، وتم قطع رأسه في ذلك اليوم نفسه. وعندما رأى الجنودُ رَأْسَهُ معروضاً على الملأ توقفوا عن التذمر. وقد كشف بعضهم ما وراء هذه الإشارة من تسآو تسآو، ولكنهم حافظوا على هدوئهم، لأن عنفه أذهلهم وأرعبهم. وقبلت غالبيتهم روايته عمّن يستحق اللوم، وهكذا فضلوا الإيمان بحكمته وعدالته بدلاً من قسوته وعدم كفاءته.

التفسير

وصل تسآو تسآو إلى السلطة في وقت مضطرب للغاية. ففي غمرة الصراع على التفوق في إمبراطورية هان المتداعية، راح الأعداء يبرزون من جميع الجوانب. وقد تكشفت معركة السهل الأوسط عن صعوبة أكثر مما كان قد تصوره. وأثار نقص المال والمؤن قلقاً مستمراً. فلا عجب إن كان ـ تحت مثل هذا الضغط ـ قد نسي أن يطلب المؤن في الوقت المناسب.

وما أن اتضح أن ذلك التأخير كان غلطة حرجة حساسة، وأن الجيش كان يجيش بالعصيان، حتى صار تسآو تسآو أمام خيارين هما: الاعتذار وانتحال المعاذير، أو تقديم كبش فداء. وبما أنه كان يفهم أساليب عمل السلطة وأهمية المظاهر، فإنه لم يتردد لحظة واحدة. فنظر حوله بحثاً عن أنسب رأس، وقدمه ضحية على الفور.

إن وقوع الأخطاء بين الفينة والفينة أمر محتوم. فالعالم أصعب من أن يمكن التنبؤ به. غير أن ذوي السلطة لا تهلكهم الأخطاء التي يقعون فيها، بل الطريقة التي يعالجون بها تلك الأخطاء. فيتعيَّن عليهم، مثل الجراحين، أن يبتروا الورم بسرعة وبحركة نهائية حاسمة. فالأعذار والاعتذارات سلاح مغلول لا ينفع لهذه العملية الحسَّاسة والدقيقة؛ والأقوياء يتجنَّبونها. فبالاعتذار تفتح على نفسك كل أنواع الشكوك بكفاءتك، وبنواياك، وبأية أخطاء أخرى لعلك لم تعترف بها. فالمعاذير لا ترضي أحداً والاعتذارات تتعب الجميع وتشعرهم بالضيق. والخطأ لا يختفي بالاعتذار، بل يتعمَّق ويتعفَّن. فالأفضل أن يُسْتَأْصَلَ في الحال فأبعد الأنظار عن نفسك، وركِّز الانتباه على كبش فداء ملائم قبل أن يتسنّى للناس الوقت للتفكير في مسؤوليتك، أو في احتمال نقص كفاءتك.

أفضِّل أن أخون العالم كله، على أن أدع العالم يخونني.

(الجنرال تسأو تسأو، حوالي 155 – 220م)

مراعاة القانون الثانية:

ظل سيزار بورجيا يخوض الحملات أعواماً طويلة للسيطرة على أجزاء كبيرة من إيطاليا باسم والده، البابا آليكساندر. وفي سنة 1500 م. استطاع أن يستولي على رومانا، في إيطاليا الشمالية. وكانت المنطقة قد خضعت على مدى سنين لسلسلة من السادة الجشعين الذين نهبوا ثرواتها لأنفسهم. وفي غياب الشرطة أو أي قوة تحفظ النظام، انحدرت إلى حضيض الخروج على القانون، بحيث خضعت مناطق بكاملها لحكم اللصوص والأسر المتناحرة. ولإقامة النظام، عيَّن سيزار نائباً عنه في قيادة المنطقة: روميرو دي أوركو، وكان «رجلاً قاسياً وقوياً ونشيطاً» حسب رواية نيقولو ماكيافيللي. ومنح سيزار دي أوركو سلطات مطلقة

وبنشاط وعنف، أقام دي أوركو نظاماً للعدالة قاسياً وحشياً في

رومانا، وسرعان ما خلَّصها من معظم عناصرها الخارجة على القانون. ولكنه في غمرة حماسه تجاوز الحدود أحياناً. وبعد عامين سخط عليه السكان المحليون، بل كرهوه. وفي كانون الأول/ ديسمبر سنة 1502 م، اتخذ سيزار إجراءً حاسماً. ولكنه أعلم الناس أولاً أنه لم يوافق على أعمال دي أوركو القاسية والعنيفة، التي نبعت من طبيعة نائبه القاسية. ثم، في 22 كانون الأول/ ديسمبر سنة 1502، سَجَن دي أوركو في مدينة سيسينا، وفي اليوم التالي لعيد الميلاد صحا أهل المدينة ليجدوا منظراً غريباً في وسط الساحة العامة: جسد دي أوركو بلا رأس، مرتدياً بذلة باذخة وعلى الكتفين رداءٌ أرجواني، والرأس مغروس إلى جانبها على عمود، بينما وضعت السكين الدامية ونطع الجلاد بجانب الرأس. وكما اختتم ماكيافيللي تعليقه على المسألة، فإن «وحشية هذا المشهد تركت الناس مشدوهين وراضين في الوقت نفسه».

التفسير

كان سيزار بورجيا أستاذاً يتقن لعبة السلطة. وكان دائماً يخطِّط مسبقاً لعدة تحركات، فنصب لخصومه أدهى المصايد. ولذا كرَّمه ماكيافيللي ورفعه فوق الآخرين جميعاً في كتابه: **الأمير**. وقد تنبأ سيزار بالمستقبل بوضوح مذهل في رومانا. إذْ لن يعيد النظام إلى المنطقة سوى العدالة الوحشية. وسوف تستغرق العملية عدة أعوام، وسيرحِّب الناس بها في بادىء الأمر. غير أنها سرعان ما تكسب أعداء كثيرين، وسوف يغضب المواطنون من فرض مثل هذه العدالة غير المتسامحة عليهم، ولا سيما على يد غرباء خارجيين. وإذن فإن سيزار نفسه لا يمكن أن يكون وكيل هذه العدالة. إذْ أن كراهية الناس سوف تسبِّب مشاكل زائدة عن الحد في المستقبل. وهكذا اختار الرجل الوحيد الذي يمكن أن يقوم بالمهمة القذرة، وكان سيزار يعرف سلفاً أنه ما أن تنتهي تلك المهمة حتى يكون عليه أن يعرض رأس دي أوركو على عمود. فكبش الفداء في هذه الحالة كان قد خُطِّطَ له منذ البداية.

بالنسبة لتسآو تسآو، كان كبش الفداء رجلاً بريئاً براءة كلِّية. أما في حالة رومانا، فقد كان كبش الفداء السلاح الهجومي في ترسانة سيزار، مما أتاح له القيام بالعمل القذر بدون أن يلطخ يديه بالدماء. وفي حالة هذا النوع الثاني من كباش الفداء، فإن من الحكمة أن تفصل نفسك عن رجل البلطة عند نقطة معيَّنة؛ فإمّا أن تتركه معلَّقاً في الهواء، مثل سيزار، وحتى أن تجعل نفسك الرجلَ الذي يأتي به للمثول أمام العدالة. وبذلك لا تصبح متحرِّراً من التورُّط في المشكلة فحسب، بل تظهر كأنك أنت الشخص الذي كنسها.

> كان أهل أثينا يحتفظون بانتظام بعدد من المخلوقات المنحطة التي لا فائدة فيها على حساب الخزينة العامة؛ وكلما أصابت المدينة كارثة، كالطاعون أو الجفاف أو المجاعة... كانت [كباش الفداء هذه] تقاد هنا وهناك... ثم يُضَحَّى بها، على ما يبدو بالرجم خارج المدينة.
>
> (كتاب الغصن الذهبي، لمؤلفه السير جيمس جورج فريزر، 1854 ـ 1941)

مفاتيح السلطة

إن استخدام كبش فداء قديم قدم الحضارة نفسها. ويمكن العثور على أمثلة له في الحضارات حول العالم. والفكرة الأساسية من وراء هذه الأضاحي هي نقل الذنب والخطيئة إلى شخصية خارجية، سواء أكانت شيئاً، أم حيواناً، أم رجلاً، ثم تُنْفَى تلك الشخصية أو تُدَمَّر. فالعبرانيون اعتادوا أن يأخذوا عنزةً حيَّةً (ولعل عبارة كبش الفداء جاءت من هنا) فيضع الكاهن يديه الاثنتين معاً على رأسها وهو يعترف بخطايا بني إسرائيل. وبعد أن ينقل تلك الخطايا إلى العنزة على هذا النحو، كانت العنزة تُقاد بعيداً لتُتْرَك في البريَّة. وعند الأثينيين والآزتيك كان كبش الفداء بشراً، وعلى الأغلب شخصاً يُغَذَّى ويُنَشَّأ لهذا الغرض. وبما أنهم كانوا يعتقدون أن المجاعات والطواعين إنما هي أشياء توقعها الآلهة بالبشر عقاباً لهم على ظلمهم، فإن الناس لم يكونوا يعانون من المجاعة

والطاعون فحسب، بل كذلك من اللوم والشعور بالذَّنْب. فيحرِّرون أنفسهم من الذنب بتحويله إلى شخص بريء، يُقْصَدُ بموته إلى إرضاء القوى الإلهية، وإبعاد الشر بنفيه من بين ظهرانيهم.

إن عدم النظر إلى الداخل بعد وقوع خطإٍ أو جريمة إنما هو رد فعل إنساني للغاية، فالناس يبحثون بدلاً من ذلك في الخارج لإلصاق اللوم والذنب بضحية مناسبة. فعندما كان الطاعون يعصف بمدينة طيبة، بحث أوديب عن سببه في كل مكان، في كل مكان إلاَّ في داخله وفي ذنبه بزواجه من أمه المحرَّمة عليه، مما أغضب الآلهة، وسبَّب الطاعون. فهذه الحاجة العميقة إلى نقل الذنب إلى الخارج، وإسقاطه على شخص أو شيء آخر، لها قوة هائلة، يعرف البارعون كيف يلجمونها لمصلحتهم إن تقديم الأضاحي هو أحد الطقوس، ولعله أقدمها. كما أن الطقوس ينبوع للسلطة. ففي قتل دي أوركو، لاحظ الطريقة الرمزية والطقوسية التي عُرِضَ بها جسده. فقد استجاب لها مواطنو رومانا. وبما أننا نميل، بشكل طبيعي، إلى البحث في الخارج بدلاً من الداخل، فإننا نسارع إلى قبول ذَنْب كبش الفداء.

وتبدو التضحية الدامية بكبش الفداء أثراً من بقايا الماضي الهمجيّ. ولكن ممارستها مستمرة إلى يومنا هذا، ولو بصورة غير مباشرة ورمزية؛ إذْ أن السلطة تعتمد على المظاهر. وينبغي أن يظهر أن أصحاب السلطة لا يرتكبون أخطاء على الإطلاق، ولذا فإن استخدام أكباش الفداء لا يزال له شعبية كما كان في أي وقت مضى. فأي زعيم من زعماء العالم الحديث يقبل تحمل المسؤولية عن أخطائه؟ إنه يبحث عن آخرين ليلقي باللوم عليهم. فعندما فشلت ثورة ماو تسي ـ تونغ فشلاً ذريعاً، لم يقدم أي اعتذارات أو معاذير للشعب الصيني. وبدلاً من ذلك قام ـ كما فعل تسآو من قبله ـ بتقديم ضحايا، من بينم أمين سره الشخصي وعضو الحزب الرفيع المنزلة شْيِنْ بو ـ تا.

كانت لفرانكلين ديلانو روزفلت سمعة بالصدق والنزاهة والإنصاف. غير أنه طيلة حياته العملية واجه مواقف كثيرة كان فيه اللطف يعني كارثة سياسية ـ ومع ذلك لم يكن يستطيع أن يظهر كصاحب أيّ سلوك عنيف أو غير أخلاقي ـ . ولذا فقد راح أمين سره، لويس هاو، يلعب الدور الذي مارسه دي أوركو من قبل. فكان هو الذي يتعاطى صفقات الغرف الخلفية، والتلاعب بالصحافة، والمناورات الخفية في الحملات الانتخابية. وكلما ارْتُكِب خطأ، أو خدعة قذرة تناقض صورة روزفلت المرسومة بعناية، وانكشف ذلك للناس، كـ لويس هاو، يُسْتَخْدَمُ ككبش فداء، ولم يتذمَّر قطّ.

وبالإضافة إلى نقل اللوم بشكل مناسب، يمكن استخدام كبش الفداء كإنذار للآخرين. ففي سنة 1631، تم طبخ مؤامرة لإزاحة الكردينال الفرنسي ريشيليو من السلطة، وهي المؤامرة التي عُرفت باسم «يوم المغفلين». وكادت تنجح. فقد اشتركت فيها المراتب العليا من الحكومة، بما فيها الملكة الوالدة. ولكن ريشيليو نجا، بسبب حظه وتواطئه، وتغاضيه وتستّره.

وكان أحد المتآمرين الرئيسيين رجلاً يدعى ماريياك، وهو حامل الأختام. ولم يكن ريشيليو قادراً على حبسه دون الإشارة بإصبع الاتهام إلى الملكة الوالدة؛ وهذا تكتيك خطر للغاية، وهكذا استهدف أخاه، وهو مشير في الجيش. ولم يكن ذلك الرجل ضالعاً في المؤامرة. غير أن ريشيليو كان يخشى وجود مؤامرات أخرى تختمر في الجوّ، وخصوصاً في الجيش. فقرَّر أن يجعل من المشير أمثولة لمن يعتبر. فقدَّمه للمحاكمة بتهم ملفقة وأعدمه. وبهذه الطريقة عاقب المذنب الحقيقي بطريقة غير مباشرة، بعد أن كان ذلك المذنب يظن نفسه محمياً. وبذلك حذّر أي متآمرين في المستقبل بأنه لن يتوانى عن التضحية بالأبرياء لحماية سلطته.

والواقع أنه كثيراً ما يكون من الحكمة اختيار أكثر الضحايا براءة ككبش للفداء. إذْ أن مثل أولئك الناس ليست لديهم قوة كافية لمقاتلتك. وقد تبدو احتجاجاتهم الساذجة زائدة عن حدها، أو بكلمات أخرى، قد تبدو كمؤشّر على ذنبهم. ولكن احذر أن تخلق شهيداً. فمن المهم أن تظل **أنت** الضحية، والقائد المسكين الذي خانه انعدام الكفاءة فيمن حوله. وإذا ظهر كبش الفداء مفرط الضعف وعقوبته مفرطة القسوة، فقد ينتهي بك الأمر كضحية لترتيباتك نفسها. وهكذا يتعيَّن عليك أحياناً أن تعثر على كبش فداء أقوى، بحيث يستدر عطفاً أقل على المدى البعيد.

في هذا السياق، أظهر التاريخ مرة بعد أخرى قيمة استخدام شخص شديد القرب من السيد ككبش فداء. وهذا معروف بأنه «سقوط صاحب الحظوة». فمعظم الملوك يكون لديهم شخص مفضَّل في البلاط، شخص يختارونه من بين الجميع، وأحياناً بلا سبب ظاهر، ليغدقوا عليه الإكرام والإنعام والاهتمام. ولكن مثل هذا الرجل المفضَّل يمكن استخدامه ككبش فداء ملائم في حالة وجود ما يهدِّد سمعة الملك. فالناس سيؤمنون بذنب كبش الفداء ـ وإلاَّ فلماذا يضحِّي الملك بالشخص المفضَّل لديه إن لم يكن مذنباً؟ كما أن رجال الحاشية الآخرين، الساخطين أصلاً على ذلك الرجل المقرَّب، سيفرحون لسقوطه. وفي الوقت نفسه يتخلَّص الملك من رجل ربما كان يعرف عن الملك أكثر من اللازم، وقد يكون متغطرساً ومحتقِراً للملك. فاختيار الشخص المقرَّب ككبش فداء له قيمة تساوي «سقوط صاحب الحظوة». وقد تخسر صديقاً أو مساعداً. ولكن إخفاء أخطائك على المدى الطويل أهم من التمسك بشخص يحتمل أن ينقلب ضدك ذات يوم. وبالإضافة إلى ذلك فإنك قادر دائماً على العثور على مقرَّب مفضَّل جديد يحلّ محلّه.

صورة: العنزة البريئة. في يوم الغفران، يجلب الكاهن الأكبر عنزة إلى المعبد، ويضع يديه على رأسها، ويعترف بذنوب شعبه، ناقلاً الذنب إلى الحيوان غير المذنب، الذي يقاد بعدئذٍ إلى البرية ويترك. فتختفي معه خطايا الشعب وملامته.

الشاهد: لا يتكوّن الحمق من ارتكاب الحماقة، ولكن من العجز عن إخفائها. نكل ابن آدم خطّاء، ولكن العقلاء يخفون الأخطاء التي سقطوا فيها، بينما يعلنها الحمقى على الملأ. فالسمعة تعتمد على ما هو مخبّأ أكثر من اعتمادها على ما هو مُشَاهَد. فإن لم تكن تستطيع أن تكون طيّباً، فكن حريصاً.

(بلثازار غراسيان، 1601 ـ 1658).

القسم الثاني: استفد من مخلب القط

في الخرافة، يمسك القرد بمخلب صديقه القط، ويستخدمه لالتقاط ثمار الكستناء المشوية من النار، وبذلك يحصل على الثمار التي يشتهيها، دون أن يؤذي نفسه.

فإذا كان هناك شيء كريه أو غير شعبي يتعيَّن عمله، فإن قيامك به بنفسك يعرِّضك لمخاطر شديدة للغاية. وعندئذ تحتاج إلى مخلب قطّ - إلى شخص يقوم بالعمل القذر الخطِر نيابة عنك. فمخلب القط يلتقط لك ما تحتاج إليه، ويؤذي مَنْ تحتاج إلى إيذائه، ويحجب الناس عن ملاحظة كونك أنت المسؤول. دع شخصاً آخر يكون هو الجلاَّد، أو حامل الأخبار السيِّئة، بينما لا تأتي أنت إلاَّ بالمرح والأخبار السارَّة.

مراعاة القانون الأولى

القرد والقط

كان هناك قرد وقطّ قد تآخيا في العبث والمزاح، وكان لهما سيِّد واحد. فكان كل تخريب يحدث في البيت يتحوّل على أيدي باغ ونوم إلى كارثة...

وذات يوم في الشتاء، شوهد الاثنان يجلسان بالقرب من نار المطبخ كالمعتاد. وبين جمرات الفحم المحمرة كان الطبّاخ قد وضع بعناية بعض ثمار الكستناء المتفخة كي

في سنة 59 ق.م، كانت ملكة مصر المقبلة كليوباترا في العاشرة من عمرها عندما شهدت سقوط والدها، بطليموس الثاني عشر، ونفيه على يد بناته الكبيرات، أخوات كليوباترا. وقد برزت إحدى البنات، وهي بيرنيس، كقائدة للتمرد، ولكي تضمن أنها ستحكم مصر وحدها، فقد حبست أخواتها الأخريات واغتالت زوجها. وربما كان ذلك ضرورياً كخطوة عملية لضمان حكمها. ولكن قيام واحدة من أفراد الأسرة المالكة، وملكةٍ لا أقلّ، بإيقاع مثل هذا العنف بأسرتها نفسها قد أرعب رعاياها وأثار ضدها معارضة قوية. وبعد أربعة أعوام استطاعت هذه

المعارضة أن تعيد بطليموس إلى السلطة. فقام على الفور بقطع رؤوس بيرنيس وأخواتها الأخريات الأكبر منها.

وفي سنة 51 ق.م، توفي بطليموس، تاركاً أربعة من أطفاله الباقين لوراثته. وحسب التقاليد السائدة في مصر، قام الابن الأكبر، بطليموس الثالث عشر (الذي كان عمره عشرة أعوام فقط آنذاك) بالزواج من شقيقته كليوباترا (التي كانت في الثامنة عشرة)، وتسلّم الزوجان العرش معاً كملك وملكة. ولم يرضَ أيٌّ من الأطفال الأربعة عن هذا الوضع، إذ كان كلّ واحد منهم ـ وذلك يشمل كليوباترا ـ يريد مزيداً من السلطة. وهكذا نشأ صراع بين كليوباترا وبطليموس، إذْ راح كل منهما يحاول أن يزيح الآخر جانباً.

وفي سنة 48 ق.م، وبمساعدة شطر من الحكومة كان يخشى طموح كليوباترا، تمكن بطليموس من إرغام أخته على الهرب من البلاد، وتركته حاكماً وحيداً. ولكنها راحت تخطِّط وهي في المنفى. كانت تريد أن تحكم وحدها وتعيد مصر إلى مجدها الغابر، وهو هدف شعرت أنه لا أحد من الورثة الصغار الآخرين قادر على تحقيقه؛ ومع ذلك فإنها لن تستطيع تحقيق أحلامها ما داموا أحياء. وقد أوضحت لها أمثولة بيرنيس أنه لن يخدم الملكة أي واحد شوهد وهو يغتال أمثالها. فحتى بطليموس الثالث عشر لم يجرؤ على اغتيال كليوباترا، رغم علمه بأنها ستتآمر عليه من الخارج.

وفي غضون سنة من نفي كليوباترا، وصل الدكتاتور الروماني يوليوس قيصر إلى مصر، مصمِّماً على جعلها مستعمرة رومانية. وعندئذٍ رأت كليوباترا فرصتها. فعادت إلى دخول مصر متنكِّرة، وقطعت مئات الأميال حتى وصلت إلى قيصر في الاسكندرية. وتروي الأسطورة أنها هرَّبت نفسها إلى حضرته ملفوفة داخل سجادة فرشت تحت قدميه برشاقة، متكشفة عن الملكة الشابة. وبدأت كليوباترا فوراً في لفّ حبائلها حول الروماني، مستغلَّة حبّه للمشاهد الاستعراضية واهتمامه

يشويها، ومنها انبعث مع الدخان رائحة حادة وصلت بعطرها الزيتيّ إلى أنف القرد الماكر، باغ، الذي قال: «يا توم! هل نستطيع، أنت وأنا، أن نتقاسم هذه الأشياء الحلوة التي وضعها هنا الطبّاخ؟ لو كان لي مثل مخالبك لحاولت بسرعة: أعرني يدك ـ ستكون هذه ضربة معلم!». وبعد أن قال ذلك، أمسك بمخلب زميله الجاهز، والتقط به الفاكهة، وحشرها في فكّه.

وعندئذ جاءت ربة البيت المشرقة، فسارع اللّصان المغيران إلى الهرب. فتلقى توم عقوبة مؤلمة على دوره في عملية السطو، بينما تلقى باغ المدلّل طبقاً من الأفاوية.

خرافات
جان دي لافونتين
1695 ـ 1621

بالتاريخ المصري، وصبَّت عليه مفاتن أنوثتها، وسرعان ما رضخ لها قيصر وأعادها إلى عرشها.

واهتاج إخوة كليوباترا الصغار، فقد تغلَّبت عليهم بمناورتها. ولم ينتظر بطليموس ما سيحدث بعد ذلك. فاستدعى من قصره بالاسكندرية جيشاً عظيماً للزحف على المدينة ومهاجمة قيصر. وعلى الفور قام قيصر بوضع بطليموس وبقية أسرته في الإقامة الجبرية. ولكن آرسينو، أخت كليوباترا الصغرى، هربت من القصر ووضعت نفسها على رأس القوات المصرية الزاحفة، معلنةً نفسها ملكة على مصر. وأخيراً وجدت كليوباترا فرصتها: فأقنعت قيصر أن يطلق سراح بطليموس من الإقامة الجبرية، بموجب اتفاقية يتفاوض فيها على هدنة. وكانت بالطبع تعلم أنه سيفعل عكس ذلك، وأنه سيقاتل آرسينو للسيطرة على الجيش المصري. ولكن ذلك سيكون من شأنه أن يفيد كليوباترا، لأنه سيقسم الأسرة المالكة، وأفضل من ذلك أنه سيعطي قيصر فرصة قتل إخوتها في المعركة.

انثى الغراب، والكوبرا، وابن آوى

كان هناك ذات مرة غراب وزوجته وقد أقاما عشاً على شجرة تين البنغال. فزحفت حية ضخمة إلى داخل الفراغ في جذع الشجرة وأكلت الفراخ عندما فقست. ولم يُرِدِ الغراب أن ينتقل لأنه كان يحب الشجرة كثيراً. وهكذا ذهب إلى صديقه ابن آوى طالباً نصيحته. فتم وضع خطة للعمل، وأخذ الغراب وزوجته يطيران هنا وهناك تنفيذاً لها. وعندما اقتربت الزوجة من بركةٍ رأت نساء البلاط يسبحن فيها، وقد تركن على حافتها لآلئهنّ وقلائدهنّ ومجوهراتهنّ وملابسهنّ وسلسلة ذهبية. فتناولت السلسلة الذهبية بمنقارها وطارت باتجاه

وتلقى قيصر تعزيزات عسكرية من روما، فدحر المتمردين بشكل كاسح. وأثناء التراجع المصري غرق بطليموس في النيل. ووقعت آرسينو في أسر قيصر، الذي أرسلها إلى روما كسجينة. كما أعدم الأعداء العديدين الذين تآمروا على كليوباترا، وسجن آخرين ممن كانوا يعارضونها. وتزوَّجت كليوباترا الوريث الوحيد الباقي، بطليموس الرابع عشر، كي تعزِّز موقعها كملكة بلا منازع ـ وكان عمر بطليموس هذا أحد عشر عاماً فقط ـ وكان أضعف الجميع. وبعد أربعة أعوام مات مسموماً في ظروف غامضة.

وفي سنة 41 ق.م، مارست كليوباترا على قائد روماني آخر هو مارك آنطونيو، الخطط نفسها التي نجحت في استخدامها على يوليوس قيصر. فبعد أن أَغْوَتْهُ المحت له أن أختها آرسينو، السجينة في روما، كانت قد تآمرت لتدميره. فصدَّقها آنطونيو وأمر بإعدام آرسينو في الحال، وبذلك تخلَّصت كليوباترا من آخر الورثة الذين كانوا يشكِّلون تهديداً لها.

شجرة تين البنغال، والخصيان يطاردونها. وعندما وصلت إلى الشجرة ألقت بالسلسلة في الحفرة، وحالما تسلّق رجال الملك الشجرة لاستعادة السلسلة، شاهدوا قلنسوة الكوبرا المنتفخة. وهكذا قتلوها بهراواتهم، واستردوا السلسلة وعادوا إلى البركة. فعاش الغراب وزوجته سعيدين بعد ذلك أبداً.

قصة من البانشاتانترا [مجموعة من الخرافات السنكريتية] من القرن الرابع. معادة روايتها في حرفة السلطة، لمؤلفه ر. ج. هـ. سيو، 1979

التفسير

حسب الأسطورة، نجحت كليوباترا من خلال مفاتنها الآسرة. ولكن سلطتها كانت ناجمة في الحقيقة من قدرتها على جعل الناس يفعلون ما تشير به عليهم دون أن يعرفوا أنها تتلاعب بهم. فلم يكتف قيصر وآنطونيو بتخليصها من أخطر أقاربها ـ بطليموس الثالث عشر وآرسينو ـ بل إنهم شتّتوا جميع أعدائها، سواء في الحكومة أم في الجيش. فصار الرجلان مخلبيْ قِطٍّ في يدها. ودخلا النار من أجلها. وقاما بالعمل القبيح والضروري، وحمياها من الظهور بمظهر محطِّمة أقاربها الصغار وأهلها المصريين. وفي نهاية المطاف وافق الرجلان كلاهما على رغبتها في حكم مصر، ليس كمستعمرة رومانية، بل كمملكة مستقلة حليفة. وقد فعلا ذلك كله لصالحها دون أن يعرفا أنها كانت تتلاعب بهما. فقد كان هذا إقناعاً خفياً ذكياً من أقوى الأنواع.

فالملكة لا ينبغي لها قَطُّ أن تلوّث يديها بالمهام القذرة، ولا يستطيع الملك أن يظهر على الملأ ووجهه ملطَّخ بالدم. ومع ذلك فإن السلطة لا تقدر أن تعيش بدون سحق الأعداء باستمرار ـ وستظل هناك دائماً مهمات صغيرة قذرة يتعيَّن القيام بها لإبقائك على العرش. ولذ فأنت ـ مثل كليوباترا ـ بحاجة إلى مخلب قِطّ.

وهذا المخلب في العادة شخص من خارج الدائرة المباشرة التي تحيط بك. ولذا فسيكون من غير المحتمل أن يدرك كيف يجري استغلاله (أو استغلالها). ومثل هؤلاء المغفلين موجودون في كل مكان ـ فهم أناس يتمتعون بإسداء المعروف لك، ولا سيما إذا ألقيت إليهم عَظْمَةً أو عَظْمتين من أصغر نوع في المقابل ـ . ولكن أثناء تأديتهم لمهمات قد تبدو بريئة بما فيه الكفاية، أو لها تبرير كامل على الأقل. فإنهم في الحقيقة يمهِّدون لك السبيل، وينشرون المعلومات التي تغذيهم بها، ويقوِّضون أناساً وهم لا يدركون أنهم غرماؤك ومنافسوك، بحيث

يعزِّزون قضيتك دون قصدٍ منهم، فيلطِّخون أيديهم بينما تبقى يداك نظيفتين تماماً.

مراعاة القانون الثانية

في أواخر عشرينات القرن العشرين الماضي، اندلعت الحرب الأهلية في الصين عندما راح الحزبان الوطني والشيوعي يقتتلان للسيطرة على البلاد. وفي سنة 1927، أقسم زعيم الوطنيين تْشَيَانْغ كاي ـ تِشيكْ أن يقتل الشيوعيين عن آخرهم. وعلى مدى الأعوام القليلة التالية كاد يحقِّق هذه المهمة. فقد ضغط على أعدائه بشدّة، حتى أرغمهم، في سنة 1934 ـ 1935، على المسيرة الطويلة، وهي تراجع لمسافة ستة آلاف ميل من الجنوب الشرقي إلى أقاصي الشمال الغربي، عبر أراضٍ وعرةٍ قاسية تمزَّقت فيها معظم صفوفهم ومراتبهم. وفي سنة 1936 كان تشيانغ يخطِّط لهجوم أخير لإبادتهم عن آخرهم. غير أنه تعرَّض لتمرد، فقبض عليه جنوده وسلَّموه للشيوعيين، ولم يكن بوسعه سوى توقع أسوأ شيء.

كيف تذاع الأخبار

عندما أسلم عمر بن الخطاب، أراد أن ينشر خبر إسلامه ليصل الناس جميعاً بسرعة. فذهب ليرى جميل بن معمر الجمحي الذي كان مشهوراً بسرعة نقله للأسرار. فكان إذا أُخبِرَ بِسِرٍّ أَعْلَمَ كُلَّ الناس به على الفور. فقال له عمر: «لقد أسلمت. فلا تقل شيئاً. وابقِ الأمر مبهماً، ولا تذكره أمام أي إنسان». فخرج جميل إلى الطرقات وراح يصرخ بأعلى صوته: «أتعتقدون أن عمر بن الخطاب لم يسلم؟ لا تصدّقوا ذلك! إنني أخبركم بأنه قد أسلم!».

فانتشر خبر إسلام عمر في كل مكان. وكان ذلك بالضبط هو ما قصد إليه.

الخدعة الذكية:
كتاب الحكمة والأحابيل العربية
القرن الثالث عشر

غير أن اليابانيين بدأوا غزوهم للصين في هذه الأثناء. ولدهشة تشيانغ الشديدة، فإن القائد الشيوعي ماو تسي ـ تونغ لم يقتله، بل عرض عليه صفقة بدلاً من ذلك: يتركه الشيوعيون طليقاً، ويعترفون به قائداً لقواتهم وقواته، إذا وافق على أن يقاتل إلى جانبهم ضد عدوّهم المشترك. وكان تشيانغ يتوقَّع التعذيب والإعدام؛ ولذا لم يستطع أن يصدِّق حظه. لقد أصبح هؤلاء الحمر شديدي اللين. وكان تشيانغ يعرف أنه إذا لم يقاتل معركة في مؤخرة جيشه ضد الشيوعيين فإنه يستطيع أن يهزم اليابانيين، ثم يستدير بعد بضع سنين ليدمِّر الحمر بسهولة. فلم يكن لديه أي شيء يخسره، وكل شيء ليربحه من الموافقة على شروطهم.

وانطلق الشيوعيون ليقاتلوا اليابانيين بأسلوبهم المعتاد، بخطط حرب العصابات وفق مبدأ: اضرب واهرب، بينما راح الوطنيون يخوضون حرباً تقليدية نظامية أكثر. فنجح الجانبان معاً في طرد اليابانيين

بعد سنوات عديدة. وعندئذٍ أدرك تشيانغ، أخيراً، ما الذي كان يرمي إليه ماوْ مِنْ خططه. فجيش تشيانغ هو الذي تلقّى ثقل وطأة المدفعية اليابانية، وقد أصابه ضعف شديد جعله محتاجاً إلى بضع سنين كي يستعيد عافيته. أما الشيوعيون فلم يكتفوا بتجنّب أية ضربة مباشرة من اليابانيين في تلك الأثناء، بل استغلّوا الوقت لاستعادة قوّتهم، وللانتشار وكسب جيوب ومواقع للنفوذ في جميع أنحاء الصين. وحالما انتهت الحرب ضد اليابانيين، بدأت الحرب الأهلية كرَّة أخرى، ولكن الشيوعيين في هذه المرة أحاطوا بالوطنيين واكتنفوهم وهزموهم حتى أخضعوهم ببطء. فقد استخدم ماو اليابانيين كمخلب قطّ، فحرثوا الحقول لصالح الشيوعيين عن غير قصد، وأتاحوا لهم إمكانية الانتصار على تْشَيَانْغْ كاي ـ تشيك.

التفسير

لو وقع عدو قوي مثل تشيانغ كاي ـ تشيك أسيراً في يد أي واحد من معظم القادة، لتأكّدوا من قتله، ولكنهم بعملهم هذا كانوا سيخسرون الفرصة التي استغلها ماو. فبدون تشيانغ المجرِّب الخبير كقائد للوطنيين، ربَّما كان القتال لطرد اليابانيين سيستغرق وقتاً أطول بكثير، وتكون له نتائج مدمِّرة. وكان ماو أعقل بكثير من أن يجعل غضبه يفسد عليه فرصة قتل عصفورين بحجر واحد. ومن حيث الأساس والجوهر، فقد استخدم ماو مخلبيّ قِطّ لمساعدته في الوصول إلى النصر الكلّي. فأولاً، قدَّم لتشيانغ ببراعة طُعْمَ تولّي مسؤولية الحرب ضد اليابانيين. فقد كان يعلم أن الوطنيين بقيادة تشيانغ سيقومون بالقسم الأكبر من القتال الضاري، وينجحون في إخراج اليابانيين من الصين، إذا لم يقلقوا أنفسهم بقتال الشيوعيين في الوقت نفسه. وإذن فقد كان الوطنيون هم مخلب القطّ الأول، الذي استخدم لطرد اليابانيين. ولكن ماو كان يعلم أيضاً أنه في عملية قيادة الحرب ضد الغزاة، فإن المدفعية اليابانية، يدعمها الطيران، سوف تمزِّق القوات التقليدية للوطنيين، فتسبِّب لهم أضراراً لا يستطيع

الأحمق والرجل العاقل

كان رجل عاقل يسير وحده، فأزعجه شخص أحمق راح يرمي بالحجارة على رأسه. فالتفت ليواجهه وقال له: «أيّها الشاب العزيز، لقد أجدت الرمي! أرجوك أن تقبل هذه الفرنكات القليلة. فقد عملت بمشقة تكفي لحصولك على ما هو أكثر من الشكر. إذ إن كل جهد يستحق جائزة. ولكن هل ترى هذا الرجل الذي هناك؟ إنه يستطيع أن يدفع لك أكثر منّي. فأَهْدِهِ بعض حجارتك وستكسب أجراً حسناً». وأغرى الطعمُ ذلك الرجلَ الغبيَّ، فهرع ليكرر الإهانة نفسها على المواطن الطيب الآخر. وفي هذه المرة لم يكن أجره هو المال. فقد هجم الرجال العاملون،

الشيوعيون إيقاع مثلها بهم إلاّ على مدى عقود من السنين. فلماذا يضيِّع الشيوعيون وقتاً وأرواحاً إذا كان اليابانيون يستطيعون إنجاز المهمة بسرعة؟ وهكذا كانت هذه السياسة الحكيمة باستعمال مخلب قِطّ بعد مخلب قِطّ آخر هي التي أتاحت للشيوعيين أن ينتصروا.

هناك استخدامان لمخلب القطّ: لإنقاذ المظاهر، كما فعلت كليوباترا، ولتوفير الطاقة والجهد. والحالة الأخيرة على وجه الخصوص تتطلَّب أن تخطِّط عدة حركات سلفاً، بحيث تدرك أن حركة مؤقتة إلى الوراء (مثل إطلاق سراح تشيانغ) يمكن أن تؤدي إلى قفزة عملاقة إلى الأمام. فإن كنت قد تعرَّضت للضعف مؤقتاً، وتحتاج إلى وقت لتستعيد عافيتك، فكثيراً ما يخدمك جيداً أن تستخدم مَنْ حولك لغرضين في الوقت نفسه، كستار لإخفاء نواياك، وكمخلب قِطّ للقيام بعملك نيابة عنك. ابحث عن طرف ثالث قوي له عدوٌّ مُشْتَرَكٌ معك (ولو لأسباب مختلفة)، ثم استغل قوَّتهما المتفوِّقة لجعل كل منهما يوجِّه إلى الآخر ضرباتٍ كانت ستكلِّفك طاقة أكبر بكثير، ما دمت أنت الأضعف. بل يمكنك أن تقودهما بلطف إلى الاقتتال. وابحث دائماً عن صاحب النزعة الأكثر عدوانيةً ـ كمخلب قطّ محتمل ـ فكثيراً ما يكونان أكثر من مستعدين للدخول في قتال. ويمكنك اختيار المعركة الملائمة لأغراضك تماماً لتؤجِّجها بينهما.

وأمسكوا بتلابيبه، وضربوه ضرباً مبرحاً وكسروا عظامه كلها.

في بلاط الملوك أشخاص مزعجون كهذا، ممّن لا عقل لديهم. وهم يجعلون سيدهم يضحك على حسابك. فهل يتعين عليك أن تُسْكِتَ قهقهاتهم بعقوبة خشنة؟ قد لا تكون لديك قوة كافية. فالأفضل أن تُقْنِعَهُمْ بمهاجمة شخص آخر يستطيع أن يرد لهم الصاع صاعين.

خرافات منتقاة
جان دي لافونتين
1621 ـ 1695

مراعاة القانون الثالثة

كان كورياما ديزن خبيراً في التشا ـ نو ـ يو (الماء الساخن للشاي، حفلة الشاي اليابانية)، وتلميذاً لتعاليم أستاذ الشاي العظيم صِنْ فوركيو. وفي حوالي سنة 1620، علم ديزن أن صديقاً له هو شينو سويمون قد استدان مبلغاً كبيراً من المال (300 ريو) لمساعدة قريب له تورَّط في الدين. ولكن على الرغم من أن سويمون تمكَّن من إنقاذ قريبه، فإنه في الواقع لم يزد على أن نقل العبء منه إلى نفسه. وكان ديزن يعرف سويمون جيِّداً، فقد كان لا يهتم بالنقود ولا يفهم عنها شيئاً يذكر. وكان

من الممكن أن يقع في المتاعب بسهولة من خلال بطئه في تسديد القرض، الذي قدَّمه إليه تاجر غني يدعى كواشيا سينيمون. ومع ذلك فلو عرض ديزن على سويمون أن يساعده في تسديد القرض لرفض بسبب كبريائه، بل لربما شعر بالإهانة.

وذات يوم، قام ديزن بزيارة صديقه، وبعد أن طافا في الحديقة ونظرا إلى أزهار الفادانيا الحمراء والقرنفلية التي زرعها سويمون، انسحبا إلى غرفة الاستقبال. وهناك رأى ديزن لوحة من رسم الأستاذ كانو طينيو، فهتف: «آه، هذه تحفة فنية رائعة... لا أدري متى رأيت أي شيء أحبه أكثر من مثل هذه اللوحة». وبعد فورات عديدة من هذا المديح، لم يبق لسويمون أي خيار، فقال: «حسناً، بما أنك تحبّها إلى هذا الحدّ، فإني آمل أن تتكرَّم عليَّ بقبولها».

فرفض ديزن في بادىء الأمر، ولكنه استسلم وقبلها عندما ألحَّ عليه سويمون. وفي اليوم التالي، تلقَّى سويمون بدوره رزمة من ديزن، وفي داخلها مزهرية جميلة لطيفة ومعها رسالة طلب فيها ديزن من صديقه أن يقبلها كرمز لتقديره للوحة التي تلطَّف سويمون بإهدائها له في اليوم السابق. وأوضح له أن المزهرية قد صنعها صن نوركيو بنفسه، وهي تحمل كتابة منقوشة من الإمبراطور هيديوشي. فإذا لم يهتم سويمون بالمزهرية فيمكنه ـ كما اقترح عليه ديزن في رسالته ـ أن يهديها إلى أحد أتباع التشا ـ نو ـ يو وربما إلى التاجر كاواشيا سانيمون، الذي كثيراً ما كان يعبِّر عن رغبته في اقتنائها. وتابع ديزن يقول في رسالته: «لقد سمعت أن لديه قطعة جميلة من الورق [مستند قرض الثلاثمائة ريو] تحبّ كثيراً أن تحصل عليها. فمن الممكن أن ترتِّب معه عملية تبادل».

فأدرك سويمون ما الذي كان صديقه يرمي إليه. وهكذا أخذ المزهرية لصاحب القرض. فهتف سانيمون عندما عرض عليه سويمون تلك المزهرية: «كيف حصلت على هذه؟ لطالما سمعت بها ولكن هذه هي أول مرة أراها فيها. وإنها لكنز نفيس إلى درجة أنه لا يُسْمَحُ

الطير الهندي

كان عند تاجرٍ طيرٌ في قفص. وكان يعتزم الذهاب إلى الهند، البلد الذي جاء منه الطير. فسأله إن كان يستطيع أن يجلب له أي شيء عند عودته. فطلب الطيرُ حريّته، ولكن طلبه رُفض. فطلب منه الطير أن يزور غابةً في الهند ويُعْلِمَ طيورها الحرّة أنه قد أسره. ففعل التاجر ذلك. ولم يكد ينتهي من كلامه حتى سقط من على شجرة طير متوحشٌ كطيره، إلى الأرض فاقد الوعي. فظن التاجر أنه لا بُدّ أن يكون من أقرباء طائره، وشعر بالحزن لكونه قد تسبب في موته. وعندما عاد إلى وطنه سأله الطير عما إذا كان قد جاء بأخبار طيّبة من الهند، فقال التاجر: «كلاّ، وأخشى أن تكون أخباري سيئة، فقد سقط أحد أقاربك عند قدميّ عندما ذكرت

بخروجها من البوَّابة!». وعلى الفور عرض مبادلة المزهرية بسند القرض، مع إعطاء سويمون 300 ريو إضافية. ولكن سويمون، الذي لم يكن يهتم للمال، كان يريد استعادة سند القرض فقط، فأعطاه إياه سانيمون بسرور. وعندئذ هرع سويمون إلى بيت ديزن ليشكره على دعمه المقدَّم بطريقة بارعة.

التفسير

كان كورياما ديزن، يفهم أن إسداء الجميل لا يتأتّى ببساطة على الإطلاق: فإذا تم بضجة وبروز واضح، فإن متلقيه يشعر بأنه واقع تحت وطأة العرفان. وهذا بدوره قد يعطي صاحب المعروف سلطة معيَّنة، ولكنها سلطة ستدمِّر نفسها في آخر الأمر، لأنها تثير السخط والمقاومة. ولكن المعروف المُسدَى بصورة غير مباشرة، وبلطف وكياسة له سلطة أقوى بعشرة أضعاف. وكان ديزن يعلم أن النهج المباشر لن ينجم عنه سوى مضايقة سويمون أو إهانته. غير أنه عندما جعل صديقه يعطيه اللوحة، فقد أتاح لسويمون أن يشعر أنه هو الآخر قد سرَّ صديقه بهدية. وفي النهاية، خرج الأطراف الثلاثة من المواجهة وهم يشعرون بالرضا، كلٌ بطريقته الخاصة. ومن حيث الجوهر، فإن ديزن قد جعل نفسه مخلب قِطّ، أي أداة استخراج حبات الكستناء من النار. ولا بدّ أنه قد شعر بشيء من الألم لفقدان المزهرية. ولكنه لم يكسب اللوحة فحسب، بل كسب ما هو أهم من ذلك: سلطة رجل الحاشية. فرجل الحاشية يستخدم اليد اللابسة للقفاز ليلطف وقع الضربات، ويخفي ندوب جروحه، ويجعل عملية الإنقاذ أكثر أناقة ونظافة. كما أنه بمساعدة الآخرين يساعد نفسه. فمثال ديزن يقدِّم نموذجاً لكل معروف يتم إسداؤه بين الأصدقاء والأتراب: فلا تفرض معروفك على أصدقائك أبداً. بل ابحث عن طرق لجعل نفسك مخلب قطّ. وبذلك تنقذ أصدقاءك من محنتهم دون أن تفرض نفسك عليهم، أو تجعلهم يشعرون بوطأة العرفان بجميلك.

كونك أسيراً». وما إن سمع الطير كلمات التاجر حتى انهار وسقط إلى قاع القفص. فاعتقد التاجر أن «خبر موت قريبه قد قتله أيضاً». فالتقط الطير بأسف ووضعه في إفريز النافذة. فعاد الطير إلى الحياة على الفور وطار إلى شجرة قريبة، وقال: «إنك تعلم الآن أن ما ظَنَنْتَهُ كارثةً كان في الحقيقة خبراً طيباً لي. وكيف وصلتني الرسالة، واقتراح كيف يجب عليّ أن أسلُك لأحرّر نفسي. هذه الرسالة قد وصلتني عن طريقك يا آسري». وطار بعيداً، وقد تحرّر في آخر الأمر.

قصص الدراويش
إدريس شاه،
1967

على المرء أن لا يكون مفرطاً في الاستقامة المباشرة.
إذهب وانظر إلى الغابة. فالاشجار المستقيمة تُقْطَع،
أما الأشجار المعوجّة المتلوّية فتُتْرَكُ واقفة.

(كوتيليا: فيلسوف هندي من القرن الثالث ق.م.)

مفاتيح السلطة

قد تتصوَّر كقائد أن الاجتهاد المطَّرد والظهور بمظهر من يعمل بكدح ومشقّة أكثر من الآخرين جميعاً، يرمز إلى السلطة. غير أن لذلك في الحقيقة أثراً عكسياً. إذْ أنه يشير ضمناً إلى الضعف. فلماذا تشتغل بمثل هذه المشقّة؟ لعلَّك غير كفء، ومضطر إلى بذل جهد إضافيّ لتعويض عجزك؛ ولعلَّك واحد من الذين لا يعرفون كيف يفوِّضون الآخرين، فتضطر إلى التدخل في كل شيء. أما ذوو السلطة الأقوياء حقاً، من جهة أخرى، فإنهم لا يبدون في عجلة من أمرهم، ولا محمَّلين بأعباء أثقل من المعتاد. فبينما يشغِّل الآخرون أصابعهم حتى العظم، يعمل ذوو السلطة بتمهل. فهم يعرفون كيف يعثرون على الأشخاص الملائمين ليبذلوا الجهد، بينما ذوو السلطة يوفرون طاقتهم ويُبْقُون أيديهم خارج النار. وبالمثل، فلعلك تعتقد أنك بأخذ العمل القذر بنفسك، بتدخلك المباشر في كل الأعمال الكريهة، تفرض سلطتك وتزرع الخوف في النفوس. والواقع أنك بذلك تجعل نفسك قبيحاً وتسيء إلى منصبك الرفيع. فذوو السلطة الحقيقيون يبقون أيديهم نظيفة، ولا تحيط بهم إلاَّ الأشياء الطيِّبة. والتصريحات الوحيدة التي يطلقونها لا تتحدَّث إلاَّ عن الإنجازات المجيدة.

وكثيراً ما تجد أن من الضروري طبعاً أن تصرف طاقة أو أن تقوم بعمل شرير ولكنه ضروري. غير أنك يجب أن لا تظهر أبداً بوصفك القائم بهذا العمل. اعثر على مخلب قِطّ. طوِّر فنَّ العثور على مثل هؤلاء الناس، واستخدامهم، والتخلُّص منهم في الوقت المناسب بعد انتهائهم من تنفيذ دور مخلب القطّ.

عشية معركة نهرية هامة، وجد تشوكو ليانغ (المخطِّط الاستراتيجي الصيني العظيم في القرن الثالث الميلادي) نَفْسَهُ عرضةً لتهمة ملفَّقة هي العمل سرّاً لصالح الطرف الآخر. وقد طلب منه قائده أن يجهِّز مائة ألف سهم للجيش في غضون ثلاثة أيام للبرهنة بذلك على ولائه. وبدلاً من صناعة تلك الأسهم، وهي مهمة مستحيلة، أخذ ليانغ (دزينة) من القوارب، وألصق على جوانبها أكداساً من القش. وفي المساء المتأخر، حيث كان الضباب يغلِّف النهر، أطلق القوارب لتطفو على صفحة الماء باتجاه معسكر العدوّ. فخشي العدوّ وجود مكيدة دبَّرها تشوكو ليانغ المخادع، فلم يهاجم تلك القوارب (التي لم تكد تكون ظاهرة للعيان) بقوارب من عنده، بل أمطرها بالسهام من على الضفة. وعندما استمرَّت قوارب ليانغ في زحفها الوئيد، ضاعف العدو مطر سهامه التي راحت تعلق وتلتصق بالقش السميك. وبعد عدة ساعات قام الرجال المختبئون في تلك القوارب بقيادة يانغ في مجرى النهر بسرعة، حيث التقى بهم تشوكو ليانغ، وجمع مائة ألف من الأسهم المنغرسة فيها.

ولم يكن تشوكو ليانغ يقوم بعمل يستطيع الآخرون أن يعملوه من أجله ـ وكان دائماً يفكِّر في حيل كهذه. فمفتاح تخطيط مثل هذه الاستراتيجية هو القدرة على التفكير المسبق وببعد نظر، وعلى تخيُّل طرق يمكن بها اجتذاب الآخرين بِطُعْمٍ يقنعهم بالقيام بالمهمة لأجلك.

ومن العناصر الجوهرية لإنجاح عمل هذه الاستراتيجية إخفاء هدفك، وتغليفه بالغموض، كالقوارب المعادية التي تظهر بصورة معتمة وسط الضباب. فعندما لا يستطيع خصومك أن يعرفوا قصدك على نحو أكيد، فسوف يكون ردّ فعلهم تصرفاً بطرق غالباً ما تعمل ضدهم على المدى البعيد. والواقع أنهم سيصيرون مخالب قطّ لك. فإذا مَوَّهت نواياك، فسيصبح من السهل عليك كثيراً أن تقودهم إلى تحركات تحقِّق ما تريد عمله بالضبط، ولكنك تفضِّل أن لا تعمله بنفسك، مثل كرة

داود بتشبع

وكان عند تمام السنة، في وقت خروج الملوك إلى الميدان، أن داود أرسل يوآب وعبيده معه وجميع إسرائيل. فأخربوا بني عمون وحاصروا رِبَّة، وأما داود فأقام في أورشليم. وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد أليست هذه بتشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي... وكتب داود مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا. وكتب في المكتوب:

البليارد التي تتقافز من على الجوانب بضع مرَّات قبل أن تتجه إلى الجيب الصحيح المستهدف.

كان فنَّان التحايل الأميركي في مطلع القرن العشرين، يالو كِيْد وِيلْ، يعرف أنه مهما كانت البراعة التي يتجه بها إلى ضحيته المثالية من الأثرياء المغفلين، فإنه إذا اقترب بنفسه من ذلك الرجل مباشرة، وهو غريب عنه، فإن المغفل قد يرتاب في الأمر. وهكذا كان وِيلْ يعثر على شخص يعرفه المغفل من قبل، كي يستخدمه كمخلب قطّ، ـ شخص له مرتبة اجتماعية أقلّ بحيث لا يكون هو نفسه هدفاً محتملاً ـ ، ولذا فإنه يكون أقل مدعاة للشك. ثم يثير وِيلْ اهتمام هذا الرجل بمخطَّط واعد بثروة لا تصدَّق. وعندما يقتنع بأن المخطط حقيقي، فإن مخلب القطّ هذا كثيراً ما يقترح، بدون تحريض، إشراك رئيسه أو صديقه الثريّ. وبما أن هذا الرجل لديه مال أكثر للاستثمار، فإنه سيزيد حجم المبالغ المراهن بها في المخطَّط، مما يزيد حصص كل من يعنيهم الأمر. ثم يقوم مخلب القطّ بتوريط المغفل الثري الذي هو هدف وِيلْ من البداية، والذي لن يشك بوجود فخ، ما دام الذي أغواه هو مرؤوسه الموثوق به. وكثيراً ما تكون مثل هذه التدابير هي أفضل طريقة للاقتراب من شخص ذي سلطة ونفوذ: استخدم شريكاً أو مرؤوساً لاصطياد هدفك الأساسي الأول. فمخلب القطّ يعزِّز مصداقيتك ويحميك من المظهر غير الحميد الذي يجعلك تبدو مندفعاً وملحاحاً في تودُّدك.

إن أسهل الطرق وأكثرها فاعلية لاستخدام مخلب القطّ كثيراً ما تكون بزرع معلومات فيه ينقلها إلى هدفك الأساسي. ذلك أن المعلومات المزوَّرة أو المزروعة سلاح قوي، وخصوصاً إذا انتشرت على يد مغفل لا يرتاب فيه أحد. ولسوف تجد أن من السهل عليك جداً أن تلعب دور البراءة، وتغطي نفسك كمصدر لتلك المعلومات المضلِّلة.

كان المعالج الاستراتيجي الدكتور ملتن هـ. إيريكسون كثيراً ما يصادف بين مرضاه زوجين تريد الزوجة العلاج ولكن الزوج يرفضه رفضاً

«اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت». . . فجعل يوآب أوريا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه. فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب، فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثي أيضاً. فارسل يوآب واخبر داود بجميع امور الحرب. . . فلما سمعت امرأة أوريا الحثي أنه قد مات رجلها ندبت بعلها ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت امرأته وولدت له ابناً.

العهد القديم
صموئيل الثاني، 11: 1 ـ 26

قاطعاً. وبدلاً من أن يهدر الدكتور إيريكسون طاقةً في محاولة التعامل مع الزوج مباشرة، كان يقابل الزوجة على انفراد، وأثناء حديثها كان يقاطعها بتفسيراتٍ لسلوك الزوج يعرف أنه لو سمعها لثارت ثائرته. وكان من المؤكد أن الزوجة ستخبر زوجها بما قاله الطبيب. وبعد بضعة أسابيع تكون فورة غضب الزوج قد وصلت حداً يجعله يصرّ على حضور الجلسات مع زوجته كي يصحّح للطبيب خطأه وسوءَ فهمه.

وأخيراً، فإنك قد تجد حالات تكسب منها سلطة عظيمة في آخر الأمر عن طريق تقديم نفسك كمخلب قط. فهذه خدعة رجل الحاشية الأمثل. ورمزها هو السير وولتر رالي، الذي فرش معطفه ذات مرة على الأرض الموحلة كي لا تلوّث الملكة آليزابيث الأولى حذاءها. فعندما تجعل نفسك أداة لحماية سيّدٍ أو ندٌ لك من الأشياء البغيضة أو الخطرة تكسب احتراماً هائلاً تظهر فوائده عاجلاً أو آجلاً. وتذكَّر: إنك كلما جعلت مساعدتك خفية ذكية ولبقة بدلاً من أن تكون متبجحة وثقيلة الوطأة، فإن جزاءها سيكون مُرْضِياً وقوياً أكثر.

صورة: مخلب القطّ. للقطّ أظفار
طويلة لالتقاط الأشياء. تغطيها براثن
ناعمة مبطنة ومحشوة. أمسك قطّاً واستخدم
مخلبه لالتقاط الأشياء من النار، ولخدش عدوك به،
وللّعب بالجرذ قبل التهامه. وقد تؤذي القطّ أحياناً،
ولكنه في غالب الأحيان لا يشعر بشيء.

الشاهد: إفعل اي شيء سارٌ بنفسك، واي شيء كريه عن طريق أطراف ثالثة. فباعتماد المسار الأول تكسب الحظوة، وباتخاذ المسار الثاني تبعد عن نفسك النيّة السيّئة. فالقضايا الهامة كثيراً ما تتطلّب الجوائز والعقوبات. فليخرج منك كل شيء طيّب فقط، وليخرج كل شيء شرير من الآخرين. (بلثازار غراسيان، ١٦٠١ ــ ١٦٥٨).

الانقلاب

ينبغي استخدام مخلب القطّ وكبش الفداء بحذر ودقّة شديدين. فهما يشبهان ستارين يخفيان عن أعين الناس تورّطك في عمل قذر؛ فإذا ارتفع الستار في أي لحظة، وشوهدتَ أنتَ باعتبارك المتلاعبَ، والمسيطر على الدمى، فإن الحركة الحيوية سوف تنقلب، بحيث يرى الناس يدك في كلِّ مكان وسوف تُلامُ على كوارث ربما لم تكن لك يدٌ فيها. فما أن تتكشَّف الحقيقة حتى تأخذ الأحداث في التصاعد خارج نطاق سيطرتك مثل كرة الثلج.

في سنة 1572، تآمرت الملكة الفرنسية كاترين دي ميديتشي للتخلُّص من غاسبارد دي كوليني، وهو أميرال في الأسطول الفرنسي، وعضو قيادي في مجتمع الهوغونوت (البروتستانت الفرنسيين). وكان كوليني قريباً من ابن كاترين، شارلس التاسع، وقد خشيت من نفوذه المتنامي على الملك الشاب. وهكذا رتَّبت أمر اغتياله على يد أحد أفراد أسرة غايز، وهي واحدة من أقوى العشائر الملكية في فرنسا.

غير أن كاترين كانت لديها في السرّ خطة أخرى. كانت تريد من الهوغونوت أن يلوموا آل غايز على مصرع واحد من قادتهم، وأن ينتقموا له. وهكذا سوف تمسح الخصمين المهدِّدين لها أو تؤذيهما بضربة واحدة.. وهما كوليني وآل غايز. ومع ذلك أخفقت الخطتان كلتاهما. فقد أخطأ القاتل هدفه وأصاب كوليني بجراح فقط. وبما أن كوليني كان يعرف كاترين كعدوَّةٍ له، فقد شكَّ بقوة أنها هي التي رتَّبت هذا الهجوم عليه، وقد أخبر الملك بذلك. وفي آخر الأمر أدَّت محاولة الاغتيال الفاشلة والجدل الذي أثارته إلى تفجير سلسلة من الأحداث وردود الأفعال التي نجمت عنها حرب أهلية دامية بين الكاثوليك والبروتستانت، توَّجتها مذبحة عشية عيد سان بارثولوميو المرعبة، التي قتل فيها ألوف من البروتستانت.

إذا اضطررت لاستخدام مخلب قطّ أو كبش فداء في عمل ذي

عواقب عظمى، فكن شديد الحذر: فالشيء إذا زاد عن حدّه قد ينقلب إلى ضدّه. وكثيراً ما يكون من الأحكم استخدام مثل أولئك المغفلين في جهود أكثر براءة، حيث الأخطاء وإساءة الحسابات لا ينجم عنها أذى خطير.

وأخيراً، فإن هناك لحظات يكون من المفيد فيها أن لا تموّه تورطك أو مسؤوليتك، بل أن تتحمَّل اللوم والمسؤولية عن بعض الأخطاء. ذلك أنه إذا كانت لديك سلطة، ومركزك فيها آمن، فإنه ينبغي عليك أحياناً أن تلعب دور التائب، فترسم على محياك نظرة أسىً وندم، وتطلب عفو أولئك الأضعف منك. إنها لعبة الملك الذي يستعرض تضحياته الخاصة لصالح شعبه. وبالمثل فإنك قد ترغب في بعض المناسبات أن تظهر وكأنك أداة العقاب لكي تزرع الخوف والرعشة في قلوب مرؤوسيك. فبدلاً من مخلب القطّ، تريهم يدك القوية الباطشة كإشارة تهديد. ولكن العب هذه الورقة بتحفظ واحتياط دون إسراف. لأنك إذا أفرطت في ممارستها، فإن الخوف سينقلب إلى غضب وكراهية. وقبل أن تدرك ذلك، فإن مثل هذه العواطف ستشعل ضدك شرارة معارضة قوية تطيح بك ذات يوم. تعوَّد على استخدام مخلب القطّ - فهذا أسلم.

القانون

27

استغل حاجة الناس إلى الإيمان لخلق أتباع طقوسيين

الحكم

في الناس رغبة جامحة للإيمان بشيءٍ مّا. فاجعل نفسك النقطة المركزية لهذه الرغبة بإعطائهم قضية، وإيماناً جديداً يتبعونه. ابقِ كلماتك غامضة ولكن ملأى بالوعود. وشدِّدْ على الحماس أكثر من العقلانية والتفكير الواضح. واعطِ اتباعك الجدد طقوساً يؤدونها. واطلب منهم أن يقدِّموا تضحيات بالنيابة عنك. وفي غياب الدين المنظم الصحيح والقضايا الكبرى، فإن نظامك الإيماني الجديد سيأتيك بسلطة لم يسمع بها أحد من قبل.

علم التدجيل، أو: كيف تخلق طقساً بخمس خطوات سهلة

عند بحثك، كما ينبغي، عن طرقٍ تُكْسِبُكَ أكبر قدرٍ من السلطة بأقل قدر من الجهد، فسوف تجد أن خلق أتباع طقوسيين هو واحدٌ من أكثر الطرق فاعلية. ذلك أن امتلاك عدد كبير من الأتباع يفتح كل أنواع الإمكانيات للخداع؛ فلن يقتصر الأمر على عبادتك من قبل هؤلاء الأتباع، بل إنهم سيدافعون عنك ضد أعدائك، وسيضطلعون طوعاً بالعمل على إغواء الآخرين بالانضمام إلى مذهبك الطقوسي الناشىء. وسيرفعك هذا النوع من السلطة إلى مملكة أخرى. فلا تعود مضطراً إلى الكفاح أو استخدام حيلة أو ذريعة لفرض إرادتك. لأنك تصبح معبوداً معصوماً من الخطإ.

فلنضع نصب أعيننا أن التوراة الحاليّة مليئة بالتحريف والأكاذيب والأوهام والمبالغات، وأنها لم تدوّن إلا في الأسر البابلي.

[المترجم]

لقد كان من مصلحة الدجال أن يتكاثر عدد الناس الميالين إلى التصديق، وأن يتضخم عدد مريديه إلى كتلٍ كبيرة تضمن لانتصاراته مجالاً أكبر باطراد. وقُدِّر لذلك أن يحدث أثناء انتشار شعبية العلم، من عصر النهضة وعلى امتداد القرون التالية. ومع النمو الهائل للمعرفة وانتشارها من خلال الطباعة في العصر الحديث، تزايد أيضاً جمهور أنصاف المتعلمين السذج المتحمسين، فرائس المشعوذ، فصاروا هم الأكثرية حقاً. بحيث أمكن إقامة سلطة حقيقية على أساس رغباتهم، وآرائهم، وتفضيلاتهم وما يرفضونه. وهكذا اتسعت إمبراطورية الدجال مع استعراض المعرفة الحديث؛ إذ أنه كان يعمل على أساس العلم؛

وقد تظن أن خلق مثل هؤلاء الأتباع مهمة هائلة الضخامة، ولكنها في الواقع بسيطة نسبياً. ذلك أننا كبشر لدينا حاجة ماسة إلى الإيمان بشيء، أي شيء. وهذا يجعلنا شديدي السذاجة، فنحن، ببساطة، لا نتحمَّل فترات طويلة من الشك أو من الفراغ الناجم عن انعدام ما نؤمن به. فإذا أدليتَ أمامنا قضيّة جديدة، أو إكسيراً، أو مخططاً للإثراء السريع، أو آخِرَ تَوَجُّهٍ تقنيّ، أو حركة فنيَّة، فسنقفز من الماء دفعة واحدة لالتقاط الطعم. انظر إلى التاريخ: إن وقائع الاتجاهات والطقوس التي اجتذبت جموعاً كبيرةً من الأتباع يمكن أن تملأ مكتبة. وبعد بضعة عقود، أو سنوات، أو أشهر، فإنها (بصورة عامة) تبدو سخيفة، ولكنها في وقتها تبدو جذابة، ومتسامية، بل وسماويَّة.

وفي غمرة اندفاعنا للاعتقاد بأي شيء، فإننا نصنع قديسين وحالات إيمان من لا شيء. فلا تدع هذه السذاجة تذهب هدراً. واجعل نفسك موضع العبادة. واجعل الناس يشكِّلون طائفة طقوسية من حولك.

لقد أتقن الدجَّالون الأوروبيون الكبار فن تجميع المعجبين الطقوسيين حولهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر. فقد كانوا يعيشون، كما نعيش نحن اليوم، في فترة تحوُّل انتقالية. وكان الدين المنظَّم آخذاً في الأفول، والعلم آخذاً في الصعود. وكان الناس يائسين في بحثهم المتشوِّق للالتفاف حول دعوة جديدة يؤمنون بها. وقد بدأ الدجَّالون كباعة متجولين للأكاسير الصحية، والمركَّبات الكيميائية التي تختصر الطريق إلى الثراء. وكانوا يتحرَّكون بسرعة من مدينة إلى أخرى فيركِّزون على المجموعات الصغيرة حتى يعثروا صدفةً على حقيقة من حقائق الطبيعة البشرية: وكلما كبرت المجموعة التي يحشدونها حول أنفسهم، كان ذلك يجعل ممارستهم للخداع أسهل.

وهكذا كان الدجال يوقف نفسه على منصّة خشبيَّة عالية (ومن هنا جاءت عبارة «الواقف على المنبر») كوصف للدجالين. وتحتشد الجموع حول الدجَّال. والناس في ظروف التجمّع هذه يكونون أكثر تأثراً بالعواطف، وأقل قدرة على المحاكمة العقلية. ولو خاطبهم الدجال بشكل انفرادي، فلربما وجده كلٌّ منهم سخيفاً. ولكنهم عندما يضيعون وسط الجموع، فإنهم يقعون في المزاج الجماعي للانتباه المشدود المشدوه. ويصبح من المستحيل عليهم أن يجدوا مسافة يبتعدون بها عن المعمعة ليرتابوا. وتختفي أية نواقص أو عيوب في أفكار الدجال في غمرة حماس الجموع. فالعاطفة الثائرة والحماس يكتسحانهم كالعدوى، بل يكون ردّ فعلهم عنيفاً ضد أي شخص يجرؤ على نشر بذور الشك. وعن طريق الدراسة الواعية المتعمدة لهذه الحركة على مدى عقود من التجربة، وكذلك التكيّف للأوضاع عند حدوثها، أتقن الدجَّالون علم

مهما قام بتحريفه كزعمه إنتاج الذهب بتقنية مستعارة من الكيمياء، أو أنواع البلسم العجيبة التي يزعم أنها من أدوات الطب، فلم يعد يستطيع أن يتوجه بخطابه إلى جمهور جاهل تماماً إذ إن الأميين يحميهم منطقهم البدهي العفوي البسيط من أباطيله، فأفضل جمهوره هم أنصاف المتعلمين، الذين يحل محل منطقهم البسيط شيء من المعلومات المشوهة، ممَّن يكونون قد التقوا بالعلم وشيء من التربية والتعليم في وقتٍ مّا، ولو باختصار وبدون نجاح... فغالبية الجمهور من عامة الناس تميل دائماً إلى التعجب من الأشياء الغامضة وكان ذلك صحيحاً بصورة خاصة في فتراتٍ تاريخية معينة، عندما بدت أسس الحياة الآمنة وقد اهتزّت. ولم يعد من الممكن الاعتماد على القيم القديمة، الاقتصادية والروحية التي ظلت طويلاً مقبولةً كحقائق يقينية مؤكدة. فعندئذٍ تضاعف عدد المغفلين المصدِّقين للدجّالين والمشعوذين. وهؤلاء المغفّلون هم الذين وصفهم أحد الإنكليز في القرن السابع عشر بأنهم «قتَلَةُ أنفسهم».

قوة الدجّال

غريت دي فرانسيسكو، 1939

اجتذاب الجمهور والاحتفاظ به مشدوداً، وقولبته إلى أتباع، وتحويل الأتباع إلى طائفة طقوسية.

وقد تبدو أحابيل الدجَّالين اليوم طريفة وغريبة، ولكن لا يزال بيننا ألوف من الدجَّالين يستخدمون الطرق المجرَّبة - الصحيحة - التي حَسَّنها أسلافهم قبل قرون، فلم يغيِّروا سوى أسماء الأكاسير، وحدَّثوا مظهر طقوسهم وجدَّدوه. ونحن نجد هؤلاء الدجَّالين المحدَّثين في كل ميادين الحياة ـ في التجارة، والأزياء، والسياسة، والفن. ولعل كثيرين منهم يتبعون تقاليد الدجل دون أن تكون لديهم أية معرفة بتاريخه. ولكنك تستطيع أن تكون أكثر منهجية وتعمّداً. فاتبع ـ ببساطة - الخطوات الخمس التي أتقنها أسلافنا الدجَّالون على مدى السنين لتكوين الطوائف الطقوسية.

الخطوة الأولى: أبقِ الأمر غامضاً؛ أبق الأمر بسيطاً: لكي تخلق طائفة طقوسية، يتعيَّن عليك أولاً أن تجتذب الاهتمام. وينبغي أن لا تفعل ذلك بالأعمال، التي هي واضحة وسهلة القراءة، ولكن من خلال الكلمات التي هي ضبابية وخدَّاعة. ويجب أن تتضمَّن خطبك ومحادثاتك ومقابلاتك الأولى عنصرين هما: الوعد من جهة بشيء عظيم وتحويلي، والغموض الكلِّي من جهة أخرى. فهذا المزيج سيحرِّك كل أنواع الأحلام الغائمة في نفوس مستمعيك، الذين يربطون الأمور بطرائقهم الخاصة، ويرون ما يريدون أن يروه فقط.

ولجعل غموضك جذَّاباً، استخدم كلمات ذات طنين عظيم، ولكن معناها غائم، كلمات مليئة بالحرارة والحماس. فالعناوين البرَّاقة للأشياء البسيطة قد تساعد، وكذلك استخدام الأرقام وخلق كلمات جديدة لمفاهيم غامضة. فهذا كله يخلق عنك الانطباع بأن لديك معرفة متخصصة، ويضفي على أقوالك قشرة من العمق. وبالأسلوب نفسه، حاول أن تجعل موضوع طقوسك جديداً وطازجاً، بحيث لا يفهمه إلاَّ قليلون. فإذا طبَّقت ذلك بشكل صحيح، فإن مزيج الوعود الغامضة

والمفاهيم الغائمة والجذّابة معاً، والحماس الناري سوف تثير نفوس الناس، وبذلك تتشكّل حولك مجموعة.

وإذا تحدَّثت بغموض مفرط فلن تكون لك مصداقية. ولكن الأخطر من ذلك أن تكون دقيقاً. فإذا أوضحت للناس بالتفصيل الفوائد التي سيكسبونها من اتباع مذهبك، فسوف يتوقعون منك أن ترضيهم.

وينبغي أن تكون دعوتك بسيطة، فذلك من مستلزمات غموضها. فمعظم مشاكل الناس لها أسباب معقَّدة: كالاضطراب العصبي الوظيفي العميق الجذور، والعوامل الاجتماعية المترابطة فيما بينها، وهي جذور تعود إلى الزمن الماضي، والكشف عنها صعب للغاية. غير أن قليلين فقط لديهم الصبر على التعامل مع ذلك كله؛ فمعظم الناس يريدون أن يسمعوا أن حلاً بسيطاً سيعالج مشاكلهم. إن القدرة على تقديم مثل هذا الحل ستعطيك سلطة عظيمة وتخلق لك أتباعاً. وبدلاً من شروح الحياة الحقيقية المعقَّدة، عُدْ إلى الحلول البدائية لأسلافنا، للمعالجات الشعبية الريفية العتيقة، لأنواع الترياق الغامض الشافي لجميع العلل.

الخطوة الثانية: ركِّز على البصريّ والحسّيّ أكثر من الفكري: وعندما يبدأ الناس في التجمُّع حولك، فسوف يظهر خطران: هما السأم والتشكك. فالسأم سيجعل الناس يذهبون إلى مكانٍ آخر؛ أما التشكك فسيتيح لهم مسافة من الابتعاد تجعلهم يفكِّرون بشكل عقلاني في أي شيء تعرضه عليهم، مما يقشع الضباب الذي كنتَ قد خلقته بتفنن، فتنكشف أفكارك على حقيقتها. فأنت إذن بحاجة إلى تسلية السَّئِمين، وإبعاد المتشكِّكين الساخرين.

وأفضل طريقة للقيام بذلك هي من خلال المسرح أو الأدوات التي من نوعه. أحط نفسك بالبذخ، ودوِّخ أتباعك بالروعة البصرية واملأ أعينهم بالمشهد الآسر الأخّاذ. لأن ذلك لن يقتصر على منعهم من رؤية سخف أفكارك، والثقوب في نظامك الاعتقادي، بل إنه سيجتذب المزيد من الاهتمام، والمزيد من الأتباع. تَوَجَّهْ إلى حواسهم جميعاً. استخدم

البوم التي كانت إلهة

ذات ليلة مظلمةٍ غارت نجومها كانت هناك بوم تجلس على غصن شجرة بلوط. فحاول خُلْدَان أرضيان أن يتسلّلا بهدوء دون أن يحسّ بهما أحد، فصاحت بهما البوم: «أنتما!». فارتجفا في خوف وذهول، وسألا: «من؟» إذ أنهما لم يستطيعا أن يصدقا أن من الممكن أن يراهما أحد في ذلك الظلام الكثيف. فقالت البوم: «أنتما الاثنان!» فهرع الخلدان ليخبرا مخلوقات الحقل والغابة أن البوم أعقل الحيوانات وأعظمها، لأنها تستطيع أن ترى في الظلام، ولأنها تستطيع أن تجيب على كل سؤال. فقال الكاتب [طائر كبير يقتات بالزواحف]: «سنرى حقيقة هذا الأمر». وقام بزيارة البوم في ليلة مظلمة أخرى، وسألها: «كم مخلباً أخفي؟» فقالت البوم: «اثنين». وكان ذلك صحيحاً. قال الكاتب: «هل تستطيعين أن تعطيني تعبيراً آخر لكلمة «أي» أو «بعبارة أخرى»، فقالت البوم: «ذلك هو...»، فسارع الكاتب عائداً إلى الحيوانات الأخرى، وأبلغها بأن البوم فعلاً أعظم وأحكم حيوان في العالم، لأنها تستطيع أن ترى في الظلام، ولأنها تستطيع أن تجيب على كل سؤال. قال ثعلب أحمر: «وهل تستطيع أن ترى في النهار

البخور للرائحة، والموسيقى الهادئة للسمع، والخرائط والرسوم البيانية الملوَّنة للعين. بل لعلك تدغدغ الذهن، ربما باستخدام أدوات أو أجهزة تكنولوجية جديدة تعطي مذهبك الطقوسي مسحة علمية كاذبة ـ ما دمت لا تجعل أي شخص يفكِّر. واستخدم ما هو غريب ـ من الثقافات النائية، والعادات الغريبة ـ لخلق تأثيرات مسرحية. ولجعل أكثر الأمور تفاهة وابتذالاً تبدو علامات أو إرهاصات بشيء فوق العادة وخارج على المألوف.

الخطوة الثالثة: اقتبس أشكال الدين المنظَّم لهيكلة المجموعة: وعند نموّ أتباعك المذهبيين، يحين الوقت لتنظيمهم كطائفة طقوسية. فأوجد طريقة متسامية ومريحة. فلطالما كانت للأديان المنتظمة سلطة لا تُنَازَع على أعداد كبيرة من البشر، ولا تزال لها مثل هذه السلطة حتى في عصرنا المفروض أنه علمانيّ. وحتى إذا كان بريق الدين قد خبا إلى حدٍّ مّا، فإن أشكاله لا يزال يرنّ فيها صدى النفوذ والسلطة. فمن الممكن استغلال التداعيات الشامخة والمقدَّسة للدين المنظَّم استغلالاً لا نهاية له. فاخلق طقوساً لأتباعك؛ ونظِّمهم في مراتب تجعل لهم صفوفاً ودرجات من القداسة، وامنحهم أسماءً وألقاباً تتردَّد فيها أصداء المعاني الدينية الإضافية؛ واطلب منهم تضحيات تملأ خزائنك وتزيد سلطتك. ولتأكيد الطبيعة شبه الدينية لما تجمعه، تحدَّث وتصرَّف كأنك نبيّ. فأنت في آخر الأمر لستَ دكتاتوراً، بل كاهن، ومرشد روحي، وحكيم، وعرَّاف، أو أي كلمة أخرى تخفي سلطتك الحقيقية في ضباب الدين بشكل فضفاض.

الخطوة الرابعة: موّه مصادر دخلك: وبعد تنامي جماعتك وقيامك بهيكلتها على شكل طائفة طقوسية، وشروع خزينتك في الامتلاء بأموال أتباعك، فإن عليك أن لا تبدو أبداً متعطشاً للمال والسلطة التي يأتي بها. بل يجب عليك في هذه اللحظة بالذات أن تموِّه مصادر دخلك.

إن أتباعك يريدون أن يؤمنوا بأنهم إذا اتبعوك فإن جميع أنواع

أيضاً؟» فأكدت هذا السؤالَ زغبةٌ (حيوان من القوارض شبيه بالسنجاب) وكلبٌ فرنسيٌّ صغير وقالا: «نعم، وهل ترى في النهار أيضاً؟» فضحكت كل المخلوقات على هذا السؤال السخيف، وهجموا على الثعلب الأحمر وأصدقائه وطردوهم من المنطقة. ثم أرسلوا إلى البوم رسولاً طلب منها أن تكون زعيمتهم. وعندما ظهرت البوم بين الحيوانات كانت الشمس تشرق بسطوع في عزّ الظهيرة. فأخذت تسير ببطء شديد، مما أعطاها مظهر الوقار الشديد. فراحت تحملق فيما حولها بعينين واسعتين مبحلقتين، ممّا أعطاها هالةً من الأهمية الرهيبة. فصرخت دجاجة من صخرة بليموث: «إنها إلهة!» فالتقط الآخرون الصرخة ورددوا: «إنها إلهة». وتبعوا البوم أينما ذهبت. وعندما بدأت تصطدم بالأشياء، اصطدموا بالأشياء أيضاً. وأخيراً جاءت إلى شارع عريض وراحت تحملق في منتصفه وكل المخلوقات الأخرى تتبعها. وفي الحال، لاحظ صقر كان مرافقاً للموكب شاحنة قادمة نحوهم بسرعة خمسين ميلاً في الساعة، فأبلغ الكاتب، الذي أبلغ البوم بدوره: «هناك خطر قادم» فسألت البوم: «وذلك هو؟...» فأخبرها الكاتب به، وسألها: «ألست خائفة؟» فسألت البوم: «من؟» وكانت هادئة لأنها لم تستطع أن ترى الشاحنة. فصرخت المخلوقات كلها مرة أخرى: «إنها آلهة!» وكانت ما تزال

الأشياء الطيّبة ستقع في حجورهم. وبإحاطة نفسك بالفخفخة تصبح برهاناً حياً على سلامة نظامك الاعتقادي. فلا تكشف قطّ عن كون ثروتك قد جاءت في الحقيقة من جيوب أتباعك. وبدلاً من ذلك، اجعلها تبدو وكأنها ناجمة عن صحة أساليبك وصدق معاملتك. فأتباعك سيقلّدون كل حركة من حركاتك اعتقاداً بأنها ستجلب لهم النتائج نفسها. وسوف تعميهم حماستهم في هذا التقليد عن الطبيعة التدجيلية لثروتك.

تردد هذا الهتاف عندما دمستها الشاحنة، فاصيبت بعض الحيوانات بجروح فقط، غير أن الغالبية، بما فيها البوم، قُتِلَتْ.

العبرة: إنك تستطيع أن تخدع أغلب الناس أغلب الوقت.

كرنفال ثورير
جيمس ثورير، 1894 ـ 1961

الخطوة الخامسة: أقم حركية «نحن» ضد «هم»: فإذا صارت جماعتك كبيرة ومزدهرة، ومغناطيسياً يجتذب المزيد من الجزئيات. غير أنك إن لم تكن حريصاً، فإن الجمود سيبدأ في التسلُّل إلى صفوف حركتك، ويبدأ الوقت والسأم في سلب جماعتك جاذبيتها. ولإبقاء أتباعك متحدين، يجب عليك عندئذٍ أن تفعل ما فعلته الأديان وأنظمة الاعتقاد جميعاً من قبل.

أولاً، تأكّد من كون أتباعك يؤمنون بأنهم جزء من نادٍ خصوصيَ مقصور عليهم وحدهم. توحِّدهم رابطة من الأهداف المشتركة. ومن ثم ـ لتقوية هذه الرابطة ـ اصنع أو افتعل فكرة وجود عدو مراوغ مصمِّم على تدميركم، وأن هناك قوة من غير المؤمنين مستعدّة لعمل أي شيء لإيقافكم. ويمكن وصف أي شخص خارجيّ يحاول فضح الطبيعة الدَّجَلية لنظامك الاعتقادي بأنه عضو في تلك القوة المراوغة المنحرفة.

فإن لم يكن لك أعداء فاخترع عدوّاً. لأنك إذا قدَّمْتَ لجماعتك دميةً من قش يوجِّهون إليها ردود أفعالهم فإنهم سوف يتماسكون ويتلاحمون. فلديهم دعوتك ليؤمنوا بها، والمارقون ليدمِّروهم.

مراعاة القانون

المراعاة الأولى:

في سنة 1653، زعم رجل من ميلانو في السابعة والعشرين من عمره يدعى فرانسيسكو جوزيبي بوري، أنه شاهد رؤيا، وراح يطوف في

المدينة يخبر الناس جميعاً أن المَلَكَ الكبير ميكائيل قد تراءى له وأعلن أنه قد اختير ليكون القائد العام لجيش البابا الجديد، الذي سيكون من شأنه أن يسيطر على العالَم ويعيد إليه حيويته. كما كشف المَلَكُ بأن بوري صارت لديه قدرة على رؤية ما في نفوس الناس، وأنه سوف يكتشف حجر الفلاسفة قريباً ـ وهي مادة بحث الناس عنها طويلاً، ويمكنها تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ـ. وقد تأثر الأصدقاء والمعارف الذين سمعوا بوري يشرح لهم رؤاه بعد أن شهدوا التغيّر الذي طرأ عليه. ذلك أنه كان قد خصَّص حياته في السابق لمعاقرة الشراب، ومعاشرة النساء، وتعاطي المَيْسِر. فتخلَّى عن ذلك كله، وانغمس في دراسة الكيمياء والحديث عن التصوُّف ومسائل السحر والتنجيم.

وكان ذلك التحوُّل مفاجئاً ويشبه المعجزة، وكانت كلمات بوري مليئة بالحماس إلى درجة أنه بدأ يخلق أتباعاً. ولسوء الحظ بدأت محاكم التفتيش الإيطالية تلاحظه كذلك ـ وكانت تقيم الدعاوى على كل من يتعاطى السحر والتنجيم ـ وهكذا غادر إيطاليا وراح يجوب أوروبا، من النمسا إلى هولندا، مخبراً الجميع بأن كل من يتبعه فسوف يُمْنَحُ كل الغبطة. وكان يجتذب أتباعاً حيثما أقام. وكانت طريقته بسيطة: إذ يتحدَّث عن رؤياه، التي تنامت بدخول المزيد من التفاصيل المنقحة إليها شيئاً فشيئاً. وعَرَضَ أن «ينظر إلى داخل» روح كل من يؤمن به ويصدِّقه (وكان هؤلاء كثيرين). فكان يبدو وكأنه في غيبوبة، ويحدِّق في التابع الجديد عدة دقائق، ثم يزعم أنه قد شاهد روح ذلك الشخص، ومدى تنوّره، وإمكانيته للوصول إلى العَظَمَة الروحية. فإن كان فيما يراه شيء واعد، ضمّ ذلك الشخص إلى نظام أتباعه الآخذ في التنامي. . وكان ذلك شيئاً مشرفاً له حقاً.

وكان في نظامه الطقوسي ست درجات، يعيِّن التلاميذ في كلٍّ منها حسبما يَلْمَحُ بوري في أرواحهم. وبالعمل والإخلاص الكلّي للطائفة يمكنهم التخرج بالصعود إلى مرتبة أعلى. وكان بوري ـ الذي أسموه

«صاحب السموّ» و«الدكتور العالمي» ـ يطالبهم بأشدّ الأيمان صرامةً أن يحلفوا على ملازمة الفقر. وكان واجبهم هو إعطاؤه كلَّ ممتلكاتهم وأموالهم. ولكنهم لم يكونوا يبالون بذلك، لأن بوري قال لهم: «سوف أصل قريباً في دراساتي الكيميائية إلى خاتمة سعيدة باكتشاف حجر الفلاسفة، وبهذه الوسيلة سيكون لدينا جميعاً كل ما نرغب فيه من الذهب».

لكي يصبح المرء مؤسساً لدين جديد، يتعين عليه أن يكون معصوماً من الناحية النفسية في معرفته لنمط معين من أوساط الناس الذين لم يدركوا بعد أنهم جماعة تعيش معاً.

فردريك نيتشه
1844 ـ 1900

ومع تعاظم ثروته بدأ بوري يغيِّر طراز حياته. فكان يستأجر أروع شقة في المدينة التي استقرَّ فيها مؤقتاً، ويؤثِّثها بأفخر الأثاث والرياش والتحف التي بدأ يقتنيها. وكان يطوف شوارع المدينة في عربة مرصَّعة بالمجوهرات تجرها ستة خيول سوداء رائعة. ولم يكن يبقى مدة مفرطة الطول في مكان واحد؛ وعندما اختفى، قائلاً إنه يملك أرواحاً أخرى سيضمّها إلى قطيعه، لم يزد غيابُه سمعَتَه إلاّ تنامياً. وصار مشهوراً، رغم أنه في الواقع لم يفعل شيئاً واحداً مادياً ملموساً على الإطلاق.

الناس بسطاء العقول، وتسيطر عليهم حاجاتهم المباشرة، إلى درجة أن الرجل المخادع يجد دائماً كثيرين ممّن هم على استعداد للانخداع.

نيقولو ماكيافيللي
1469 ـ 1527

ومن جميع أنحاء أوروبا، جاء العميان، والمقعدون واليائسون لزيارة بوري، لأن الشائعات قد انتشرت بأن لديه قوىً شافية. ولم يكن يطلب أجراً على خدماته، مما جعله يبدو أكثر روعة وغرابة، بل لقد زعم بعضهم أنه قد اجترح معجزات علاجية في هذه المدينة أو تلك. وعن طريق الإشارة إلى منجزاته بالتلميح فقط، شجع خيال الناس لتضخيمها إلى أبعاد خيالية. وعلى سبيل المثال فإن ثروته جاءت في الواقع من المبالغ الطائلة التي كان يجمعها من مجموعته المختارة من التلاميذ أو الأتباع الأغنياء على نحو متزايد؛ ومع ذلك فقد افترض الناس أنه في الحقيقة قد أتقن استخدام حجر الفلاسفة. واستمرَّت الكنيسة تطارده وتستنكر ممارسته للهرطقة والسحر. وكان ردّ بوري على هذه الاتهامات هو الصمت المهيب، مما عزَّز سمعته وجعل أتباعه أكثر تحمساً في عاطفتهم المؤيِّدة له، لاعتقادهم أن العظماء فقط هم الذين يتعرَّضون للاضطهاد، رغم كل شيء. فكم من الناس فهموا السيد

المسيح في زمانه؟ لم يكن بوري مضطراً لقول كلمة واحدة ـ وهكذا راح أتباعه يسمُّون البابا المسيح الدجَّال.

وراحت سلطة بوري تنمو وتنمو، إلى أن غادر مدينة أمستردام ذات يوم (حيث كان قد استقر لفترة) وهرب سراً بمبالغ هائلة من الأموال والمجوهرات الماسيّة التي كان قد اؤتمن عليها (وكان قد زعم بأنه يستطيع إزالة العيوب من قطع الماس بقوة ذهنه الموهوب). أما الآن فقد صار هارباً مطارداً. وأخيراً لحقت به محاكم التفتيش. فقضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته سجيناً في روما. ولكن الإيمان بقواه السحرية والتنجيمية كان عظيماً إلى درجة أنه ظلَّ إلى يوم وفاته يتلقَّى زيارات من الأثرياء المؤمنين به، وكانت من بينهم كريستينا، ملكة السويد. فزوَّدوه المال والمواد وبذلك أتاحوا له أن يستمر في بحثه عن حجر الفلاسفة المراوغ.

معبد الصحة

[في أواخر ثمانينيات القرن الثامن عشر]، كان الدجال الاسكتلندي جيمس غراهام... يكسب أتباعاً كثيرين وثروة عظيمة في لندن... وكان [غراهام] يجري استعراضاً لتقنية علمية كبيرة. وفي عام 1772... كان قد زار فيلادلفيا، حيث لقي بنيامين فرانكلين واهتم بتجاربه في الكهرباء، ويبدو أن تلك التجارب قد ألهمته أن يضع جهازاً في «معبد الصحة»، وهو مؤسسة خرافية فتحها في لندن ليبيع أكاسيره... وفي الغرفة الرئيسة التي كان يستقبل فيها مرضاه، كانت تقف «أكبر مضخة هواء في العالم» لتساعده في «تحقيقاته الفلسفية» في المرض، ومعها أيضاً «موصّل معدني مذهل»، وهي قاعدة ملمعة مزخرفة تحيط بها أنابيق وقوارير من «الأثير وغيره من جوهر المستقطرات»... وحسب رواية ج. إنّيموسر الذي نشر تاريخاً للسحر في عام 1844 في لايبزغ، فقد كان بيت غراهام «... يجمع بين ما هو مفيد وما هو سارّ. فقد كانت الأبهة الباذخة معروضة في كل مكان. وحتى في الباحة الخارجية، كما أكد شاهد

التفسير

يبدو أن بوري كان، قبل تشكيل طائفته، قد عثر بالصدفة على اكتشاف عام. فقد تعب من حياة الغواية، فقرَّر التخلِّي عنها وتكريس نفسه للسحر والتنجيم الذي كان من اهتماماته الأصيلة. ولكن لا بدَّ أنه قد لاحظ أنه عندما أشار إلى التجربة الصوفية (بدلاً من الإرهاق الجسدي) كمصدر لتحوُّل حياته، فقد أراد الناس من كل الطبقات أن يسمعوا منه المزيد. وأدرك السلطة التي يمكن أن يكسبها إذا عزا التغير إلى شيء خارجيّ وغامض، فذهب إلى أبعد من ذلك برؤاه المصطنعة. وكلما كانت الرؤية أعظم، وزادت الأضاحي التي راح يطلبها، كانت قصته تبدو أكثر إثارة للإعجاب والتصديق.

تذكَّر: لا يهتم الناس بالحقيقة عن أسباب التغيّر. فهم لا يريدون أن يسمعوا أنه جاء من العمل الشاق، أو من أي شيء عادي مبتذل كالإرهاق أو السأم أو الاكتئاب؛ بل هم شديدو التعطُّش للإيمان بشيء حالم، أو من خارج هذا العالم. إنهم يريدون أن يسمعوا عن الملائكة،

والتجارب الخارجة عن الجسد. فأشبع رغباتهم. ولمَّح إلى المصدر الصوفي لتغيير شخصيّ. لفّ تجربتك بألوان أثيرية. وتكيَّف لحاجات الناس: فالمسيح يتعيَّن عليه أن يعكس رغبات أتباعه. **واستهدف** الأعالي دائماً. وكلما كان وهمك أكبر وأجرأ، كان ذلك أفضل.

المراعاة الثانية

في منتصف القرن الثامن عشر، انتشرت شائعة في صفوف المجتمع الراقي في أوروبا، أن طبيباً ريفياً سويسرياً يدعى مايكل شوباش، كان يمارس نوعاً مختلفاً من الطب: فيستعمل القوى العلاجية في الطبيعة لإحداث شفاءٍ أشبه بالمعجزة. وسرعان ما بدأ الأغنياء من جميع أنحاء القارة، بأمراضهم الخطيرة والطفيفة على حدٍّ سواء، يتقاطرون إلى قرية لانْغْنُو، حيث كان شوباش يعيش ويعمل، في جبال الألب. وأثناء صعودهم المجهد عبر الممرَّات الجبلية، كانوا يشاهدون أروع المناظر الطبيعية التي تستطيع أوروبا تقديمها. وما أن يصلوا إلى لانغنو حتى يكونوا قد شعروا بالتحوّل، وبأنهم آخذون في التماثل للشفاء.

وكان شوباش، الذي صار يعرف ببساطة باسم «الطبيب الجبلي»، يملك صيدلية صغيرة في البلدة. فصار هذا المكان مشهداً حاشداً تماماً: إذ راحت جموع من الناس من بلدان مختلفة تزدحم في الغرفة الصغيرة التي تصطف على جدرانها زجاجات ملوَّنة مليئة بالأدوية العشبية. وبينما كان معظم أطباء ذلك العصر يصفون تراكيب كريهة الرائحة تحمل عناوين لاتينية غير مفهومة (كتلك الأسماء التي لا تزال الأدوية تحملها على الأغلب)، كانت أدوية شوباش تحمل أسماء مثل «زيت الغبطة»، أو «قلب الوردة» أو «ضد الوحش» ـ وكان طعمها حلواً ولذيذاً.

وكان على زوَّار لانغنو أن ينتظروا بصبر ريثما تتاح لهم زيارة الطبيب الجبليّ، لأن نحو ثمانين رسولاً كانوا يصلون إلى الصيدلية كل يوم، حاملين قوارير من البول من جميع أنحاء أوروبا. فقد كان شوباش

عيان، كان يبدو أن الفن، والاختراع والثراء قد تحمَّمت عن آخرها. فعلى الجدران الجانبية في الغرف، كان هناك وهج على شكل قوس ينبعث من ضوء كهربائي مصطنع؛ فكانت أشعة النجوم تومض، بينما وضعت قطع شفافة من الزجاج من كل الألوان باختيار بارع وذوق سليم. ويؤكد لنا شاهد العيان نفسه أن ذلك كله كان آسراً ويرتقي بالخيال إلى أعلى مستوى». وكان الزوار يتلقون صحيفة مطبوعة عن قواعد العيش الصحي. وفي شقة آبولّلو العظمى قد يشاركون في طقوس غامضة، تصحبها أناشيد مرتّلة: «التحية لك أيها الهواء الحيوي الأثيري! ويا أيها السحر المغناطيسيّ، تحية لك!» وبينما كانوا يحيّون سحر المغناطيسية، كانت النوافذ تعتّم لتُظْهِر سقفاً مرصعاً بالنجوم و«إلهة وردية للصحة» جميلة في كوة... وكان معبد الصحة هذا يزدحم بالزوار في كل مساء. وصارت زيارته موضة، وكذلك تجربة السرير الرسمي الذي طوله اثنا عشر قدماً، وهو «السرير النوراني العظيم» الذي يقال إنه شافٍ لجميع الأمراض... وكان هذا السرير، حسب رواية إينيموسر «يقف في غرفة رائعة، فيها أسطوانة تؤدي إليها من غرفة مجاورة لإيصال التيارات الشافية... وفي الوقت نفسه، كانت كل أنواع الروائح السارة، والأعشاب المقوية، والبخور الشرقي تُجْلبُ عبر أنابيب

يزعم أنه يستطيع تشخيص المرض من النظر ببساطة إلى عيّنة من البول وقراءة وصف مكتوب للوجع (وكان بالطبع يقرأ الوصف المكتوب بعناية شديدة قبل أن يصف الدواء». وعندما كان يحصل على دقيقة من الفراغ (فقد كانت عيّنات البول تستغرق الكثير من وقته)، كان يستدعي الزائر إلى مكتبه في الصيدلية، ثم يفحص عيّنة بوله، موضحاً أن مظهره يدلّه على كل ما يريد معرفته. وكان يقول إن أهل الريف لديهم إحساس بهذه الأشياء ـ إذْ أن حكمتهم تأتي من عيشتهم البسيطة وحياتهم شبه الإلهية التي ليس فيها شيء من تعقيدات حياة الحَضَر في المدن ـ . وكانت هذه الاستشارة الشخصية تشمل أيضاً نقاشاً حول الطريقة التي يستطيع بها المرء أن تجعل روحه تنسجم مع الطبيعة.

زجاجية. وكان السرير «السماوي» نفسه يستند إلى ستة أعمدة صلبة شفافة؛ وكانت أغطيته من حرير الأطلس الأرجواني والأزرق السماوي المفروش على حشية مشبعة بالمياه العربية العابقة بالبخور لتناسب أذواق البلاط الفارسي. وقد أطلق على الغرفة التي فرش فيها اسم قدس الأقداس... وبالإضافة إلى ذلك كله كانت هناك الأنغام الشجية الرخيمة من الهارمونيكا ومن الناي الناعم، والأصوات المنسجمة المتوافقة، والأُرغن الكبير».

قوة الدجال
غريت دي فرانسيسكو، 1939

وقد ابتكر شوباش أشكالاً عديدة من المعالجة كان كل منها يختلف اختلافاً عميقاً عن الممارسات الطبية المعتادة في زمانه. فكان على سبيل المثال يؤمن بالعلاج بالصدمة الكهربائية. ولأولئك الذين كانوا يتساءلون عما إذا كان ذلك متمشياً مع إيمانه بالقوة الشافية في الطبيعة كان يوضّح بأن الكهرباء ظاهرة طبيعية، وأنه لم يكن يفعل أكثر من تقليد قوة البرق. وقد زعم أحد مرضاه أنه مسكون بسبعة شياطين. فشفاه الطبيب بالصدمات الكهربائية، وبينما كان يعطيه تلك الصدمات، كان يهتف بأنه يستطيع أن يرى الشياطين تتطاير من جسم ذلك الرجل، واحداً إثْرَ آخر. كما ادعى رجل آخر أنه ابتلع عربة قش مع سائقها، وأنهما كانا يسبِّبان له آلاماً كثيفة في صدره. واستمع إليه الطبيب الجبلي بصبر، زاعماً أنه قادر على سماع فرقعة السوط في بطن الرجل، ووعده أن يشفيه، وأعطاه مسكناً، ومطهِّراً مسهِّلاً. فنام الرجل على كرسي خارج الصيدلية. وعندما أفاق تقيّأ، وبينما كان يتقيّأ مرَّت من أمامه عربة قش مسرعة (وكان الطبيب الجبلي قد استأجرها لهذه المناسبة)، وجعلته فرقعة سوطها يشعر أنه قد طردها من بطنه بطريقةٍ مّا، تحت رعاية الطبيب.

وعلى مدى الأعوام، راحت شهرة الطبيب الجبلي تنمو. وصار

ذوو السلطة يستشيرونه ـ وحتى الكاتب غوته وجد طريقه إلى قريته ـ وأصبح ذلك الطبيب مركزاً لأحد طقوس الطبيعة حيث كان كل شيء طبيعي يُعْتَبَرُ جديراً بالعبادة. وكان شوباش حريصاً على خلق تأثيرات يكون من شأنها إمتاع مرضاه وإلهامهم. وقد كتب أستاذ زاره ذات مرة: «إن المرء قد يقف أو يجلس بصحبة الناس، ويلعب الورق، أحياناً مع امرأة شابة، وقد تقام حفلة موسيقية حيناً، أو وليمة غداء أو عشاء حيناً آخر، وقد تُقدَّمُ رقصةُ باليه حيناً ثالثاً. فحرّية الطبيعة تتحد في كل مكان مع مسرَّات دنيا المجتمع الراقي. وإذا لم يكن الطبيب قادراً على شفاء أي مرض، فإنه يستطيع على الأقل أن يعالج الوساوس وحالات الاكتئاب».

التفسير

بدأ شوباش حياته العملية كطبيب قروي عادي. وكان يستخدم في عيادته أحياناً بعض الأدوية الريفية التي ترعرع معها. والظاهر أنه قد لمس بعض النتائج، لأن تلك الصبغات العشبية وأشكال المعالجة الطبيعية سرعان ما صارت من اختصاصه. والواقع أن أشكال علاجه الطبيعية كانت لها بالفعل تأثيرات نفسية عميقة على مرضاه. وبينما كانت العقاقير العادية في ذلك الزمن تخلق خوفاً وألماً، كانت معالجات شوباش مريحة ومهدئة. وكان التحسن الناجم عنها في مزاج المريض عنصراً أساسياً في حالات الشفاء التي كان يحدثها. وقد آمن مرضاه بمهاراته إيماناً بلغ من عمقه أنه أيقظ إرادتهم لاستعادة صحتهم. فبدلاً من السخرية من شروحهم غير المعقولة لأوجاعهم، كان شوباش يستخدم وساوسهم لجعل الأمر يبدو وكأنه نَفَّذَ لهم علاجاً عظيماً.

وتعلِّمنا حالة الطبيب الجبلي درساً ثميناً في خلق أتباع شبه طقوسيين. فأولاً، يجب عليك أن تجد طريقة لشغل إرادة الناس، ولجعل إيمانهم بقواك راسخاً إلى درجة أنهم يتخيَّلون كل أنواع الفوائد. فستكون لإيمانهم صفة تحقِّق ذاتها، ولكن عليك أن تتأكَّد من كونك

أنت، لا إرادتهم الخاصة، الجالب لهذا التحوُّل. فأوجد الاعتقاد، أو القضية، أو الخيال لجعلهم يؤمنون بعاطفة حماسية جارفة، وسوف يتخيَّلون الباقي، فيعبدونك باعتبارك الشافي، والنبيّ، والعبقري، وأي شيء تحبّ.

وثانياً، يعلِّمنا شوباش القوة الأبدية الدائمة للإيمان بالطبيعة وبالبساطة. فالطبيعة في الحقيقة ملأى بكثير ممّا هو مرعب، كالنباتات السامَّة، والحيوانات الشرسة، والكوارث المفاجئة والطواعين. والإيمان بالصفة الشافية والمريحة في الطبيعة إنما هو في الحقيقة أسطورة مركَّبة، وحلم خيالي. غير أن اللجوء إلى الطبيعة قد يجلب قوة عظيمة، وخصوصاً في الأوقات المعقَّدة والضاغطة.

قوة اكذوبة

كان يعيش في مدينة تارنوبول رجل اسمه ريب فيفل. وبينما كان جالساً في بيته ذات يوم، مندمجاً في تلموده بعمق، سمع ضجة صاخبة في الخارج. وعندما اتجه إلى النافذة، رأى عدداً كبيراً من المازحين المهرجين الصغار، ففكر أنهم «يدبرون واقعة جديدة من الأذى والإزعاج» فصرخ بهم: «أيها الأطفال، اركضوا إلى الكنيس بسرعة». ثم انحنى إلى الخارج، وارتجل لهم أول قصة خطرت بباله، «فسوف ترون هناك وحشاً بحرياً، ويا له من وحش! إن له خمسة أقدام، وثلاث أعين، ولحيةً كلحية العنز، إلاّ أنها خضراء!».

وبالفعل فقد اشمعلّ الأطفال، وعاد ريب فيفل إلى دراساته. وابتسم في لحيته على الفكرة التي خدع بها أولئك الأوغاد الصغار. ولم يمض وقت طويل حتى قوطعت دراساته من جديد، وبسبب وقع خطى متراكضة

غير أن هذا اللجوء تنبغي معالجته على نحو صحيح. ابتكر نوعاً من مسرح الطبيعة، تكون فيه أنت المخرج الذي ينتقي ويختار الصفات التي تلائم الخيالات الحالمة السائدة في عصرك. وقد أتقن الطبيب الجبلي ذلك الدور، مستغلاً الحكمة المحلية والفطنة، فأخرج علاجاته وكأنها مقاطع مسرحية. فلم يتحد بالطبيعة؛ ولكنه بدلاً من ذلك قولب الطبيعة لجعلها شيئاً طقوسياً، وتركيباً مصطنعاً. ولخلق تأثير «طبيعي» يتعيَّن عليك في الواقع أن تعمل بجهد ومشقَّة جاعلاً الطبيعة مسرحية، ووثنية بشكل ممتع. وإلاَّ فلن يلاحظ أحد شيئاً. فالطبيعة أيضاً يجب أن تتبع الاتجاهات وتكون تقدمية.

المراعاة الثالثة

في سنة 1788، في سن الخامسة والخمسين، كان الطبيب والعالِم فرانز مِسْمَرْ، على مفترق طرق. فقد كان رائداً في دراسة المغناطيسية الحيوانية ـ الاعتقاد بأن الحيوانات فيها مادة مغناطيسية، وأن الطبيب أو الاختصاصيّ يستطيع إنجاز علاجات شافية كالمعجزات بالعمل في هذه المادة المشحونة ـ غير أن نظرياته في ڤيينا، حيث كان يعيش، جوبهت بالسخرية والتهكم من المؤسسة الطبِّية. ففي علاج النساء من التشنج،

كان مِسْمَر يزعم أنه حقَّق الشفاء في عدد من الحالات. وكان أكثر إنجازاته مدعاة للفخر هو إعادته للبصر لفتاة عمياء. ولكن طبيباً آخر فحص الفتاة قال إنها ظلَّت عمياء كما كانت، وهو تقويم وافقته عليه الفتاة نفسها. وردَّ مِسْمَر على ذلك بأن أعداءه مصمِّمون على التشهير به عن طريق كسب الفتاة إلى صفِّهم. ولكن هذا الزعم لم يؤدِّ إلاَّ إلى استدراج المزيد من السخرية. كان واضحاً أن أهل فْيينا ذوي التفكير اليقظ المتزن ليسوا هم الجمهور الملائم لتلقي نظرياته، وهكذا قرَّر أن ينتقل إلى باريس ليبدأ من جديد.

واستأجر شقة فاخرة في مدينته الجديدة، وقام بتزيينها على نحو ملائم. فكان الزجاج الملوَّن في معظم النوافذ يخلق شعوراً دينياً، بينما تنتج المرايا على جميع الجدران تأثيراً مغناطيسياً. وأعلن الطبيب أنه سيقدِّم في شقته عروضاً توضح قوى المغناطيس الحيواني، موجِّهاً الدعوة للمرضى والمكتئبين كي يستشعروا تلك القوة. وسرعان ما راح الباريسيون من كل الطبقات (ولكن الغالبية من النساء، اللواتي كان يظهر أن الفكرة قد اجتذبتهن أكثر من الرجال) يدفعون للدخول لمشاهدة المعجزة التي وعدهم بها مِسْمَر.

وفي داخل الشقة كانت روائح براعم البرتقال والبخور الغريب تهب وتضوع من خلال فتحات تهوية خاصة. وبينما كان المبتدئون يدلفون إلى البهو، حيث كانت تجارب العرض ستجري، سمعوا موسيقى قيثارة مع الأصوات المهدهدة لمغنية أنثى آتية من غرفة أخرى. وفي وسط البهو كانت هناك حاوية طويلة بيضويّة مليئة بماءٍ زَعَمَ مِسْمَرْ أنه قد تمَّت مغنطته. وكان هناك قضبان حديدية طويلة قابلة للتحريك ناتئة من ثقوب في غطاء الحاوية المعدنيّ. وأعطيت للزوار تعليمات بأن يجلسوا حول الحاوية، وأن يضعوا هذه القضبان الممغنطة على أجزاء أجسامهم التي فيها آلام أو مشاكل، ثم يشبكوا أيديهم بأيدي جيرانهم، وقد اقترب كل منهم من الآخر في جلوسه بالقدر المستطاع ليساعدوا القوة المغناطيسية

هذه المرة. وعندما ذهب إلى النافذة رأى عدداً من اليهود يجرون. فصاح فيهم: «إلى أين تركضون؟» فأجابوه: «إلى الكنيس! ألم تسمع؟ إن هناك وحشاً بحرياً... إنه مخلوق بخمسة أرجل، وثلاث أعين، ولحية كلحية العنز، إلاّ أنها خضراء!» فضحك ريب فيفل بمرح، وهو يفكر في الخدعة التي ابتدعها. وعاد يجلس إلى تلموده.

غير أنه لم يكد يبدأ في التركيز حتى سمع جلبة صاخبة في الخارج فماذا رأى؟ كان هناك حشد عظيم من الرجال والنساء والأطفال يركضون جميعاً نحو الكنيس. فصاح فيهم وهو يمد رأسه إلى خارج النافذة: «ما الأمر؟» فأجابوه: «يا له من سؤال! ألا تعلم؟ أمام الكنيس بالضبط يوجد وحش بحري. إنه مخلوق بخمسة أرجل، وثلاث أعين، ولحية كلحية التيس، إلاّ أنها خضراء!» وبينما هرع الحشد راكضاً لاحظ ريب فيفل أن الحاخام كان بينهم. فصرخ: «يا إله العالم! إذا كان الحاخام نفسه يركض معهم، فلا بد أن شيئاً ما يحدث، فحيث يوجد دخان، توجد نار!» وبدون أي مزيد من التفكير، تناول ريب فيفل قبعته، وغادر بيته وشرع يجري هو الآخر، وهو يتمتم لنفسه وقد انقطع نَفَسُهُ من الركض نحو الكنيس: «من يدري؟».

مجموعة قصص شعبية يهودية
تحرير ناثان أوسوبيل، 1948

على المرور بين أجسادهم. وأحياناً كانوا يُرْبَطون كل منهم إلى الآخر بحبال.

ثم يغادر مِسْمَرْ الغرفة، ويدخل «مساعدو ممغنِطِين» ـ كلهم شباب وسيمون أقوياء البنية ـ ومعهم جرارٌ زجاجية من المياه الممغنطة يرشُّون منها، ويفركون السائل الشافي على أجسادهم فيدلكونه ليدخل في جلودهم ويحرِّكونهم إلى حالة تشبه الغيبوبة. وبعد بضع دقائق تغلب على النساء حالة من الانفعال الهذياني. فيأخذ بعضهن في النحيب، وبعض آخر في الصراخ وتمزيق شعرهن، بينما تشرع أخريات في الضحك بشكل هستيري، وفي أوج هذا الهذيان يعود مِسْمَرْ إلى دخول البهو، مرتدياً ثوب حرير هفهاف مطرَّز بورود ذهبية ويحمل بيده عصا بيضاء ممغنطة. فيدور حول الحاوية ماسحاً على أجساد المرضى ومهدئاً لهم حتى يعود الهدوء. فكانت نساء كثيرات فيما بعد ينسبن السلطة والنفوذ اللذين يمارسهما عليهن إلى نظرته الثاقبة التي كنَّ يعتقدن أنها تهيِّج أو تهدِّىء السوائل المغنطيسية في أجسادهن.

وفي غضون أشهر من وصوله إلى باريس، صار مِسْمَرْ هو البدعة السائرة التي أقبل عليها الناس بحماس. وكان من بين مؤيديه ماري آنطوانيت نفسها، ملكة فرنسا، وزوجة لويس السادس عشر. وكما حدث في ڤيينا، فقد أدانته كلية الطب الرسمية. ولكن ذلك لم يهمّ، فقد دفع له أتباعه من التلاميذ والمرضى مبالغ محترمة.

ووسَّع مِسْمَر نظرياته ليعلن أن البشرية كلها يمكن جعلها تعيش حالة انسجام عن طريق قوة المغناطيس. وكان لهذا المفهوم جاذبية كبيرة أثناء الثورة الفرنسية. وانتشر مذهب طقوسي أطلق عليه اسم المِسْمَرِية في طول البلاد وعرضها؛ وفي مدن كثيرة نشأت «جمعيات الانسجام» لتدلي بدلوها في التجارب المغناطيسية. وطارت لهذه الجمعيات شهرة سيِّئة فيما بعد: فقد أخذت تميل إلى الانقياد لمتحلِّلين راحوا يحوِّلون جلساتها إلى نوع من ممارسة الجنس الجماعي.

وفي أوج شعبية مِسْمَرْ، نشرت لجنة فرنسية تقريراً مبنياً على خبرة سنوات من اختبار نظرية المغناطيسية الحيوانية. وكان الاستنتاج هو: إن آثار المغناطيس على الجسد تأتي في الحقيقة من نوع من الهستيريا الجماعية والإيحاء الذاتي. وكان التقرير معزَّزاً تعزيزاً جيِّداً بالوثائق، وقد حطم سمعة مِسْمَرْ في فرنسا. فغادرها وتقاعد. غير أنه لم تمضِ بضع سنوات حتى راح مقلِّدون له ينجِّمون في جميع أنحاء أوروبا. وانتشر المذهب الطقوسيّ المِسْمَرِيّ من جديد، وكان عدد أتباعه أكثر من أي وقت مضى.

التفسير

يمكن تقسيم حياة مِسْمَر العملية إلى قسمين. فعندما كان في ڤيينا كان من الواضح أنه آمن بنظريته، وفعل كل ما استطاع لإثباتها. ولكن خيبة أمله المتنامية وعدم موافقة زملائه جعلته يتبنَّى استراتيجية أخرى. فانتقل أولاً إلى باريس، حيث لا يعرفه أحد، وحيث وجدت نظرياته المتطرِّفة تربة أخصب، ثم توجه إلى حبِّ الفرنسيين للمسرح والاستعراضات المشهدية، جاعلاً شقته نوعاً من العالم السحري الذي كانت حمولته الزائدة من الروائح والمناظر والأصوات تدخل زبائنه في غيبوبة. وكان الشيء الأهم منذ ذلك الحين فصاعداً لم يعد يمارس مغناطيسيته إلاّ على مجموعة من الناس، لأن المجموعة تعطي الجوّ الذي تكون للمغناطيسية فيه تأثيرها الصحيح والملائم، بحيث يُعدي كلٌّ مؤمن مؤمناً آخر فيتغلَّبون على أيِّ فردٍ متشكِّك.

وهكذا عَبَرَ مِسْمَر من كونه مدافعاً أكيداً عن المغناطيسية إلى دور الدجَّال الذي يستخدم كل أنواع الحيل والمكر والخداع للإمساك بالجمهور. وكانت أكبر خدعة هي استغلال الرغبات الجنسية المكبوتة التي تجيش كالفقاقيع تحت السطح في جوّ المجموعة. ففي المجموعة هناك تشوُّق للوحدة الاجتماعية، وهو تشوُّق أقدم من الحضارة، يصرخ طلباً للاستيقاظ. ويمكن إدراج هذه الرغبة تحت قضية توحيدية. ولكن

تحتها يوجد شهوة جنسية مكبوتة يعرف الدجّال كيف يستغلها ويتلاعب بها لأغراضه الخاصة.

وهذا هو الدرس الذي يعلّمنا إياه مِسْمَر: إن ميلنا للتشكُّك والمسافة التي تتيح لنا المحاكمة العقلانية تتحطَّم كلها عندما ننضم إلى مجموعة. ذلك أن الدفء والعدوى في المجموعة يتغلَّبان على الفرد المتشكِّك. فهذه هي السلطة التي تكسبها من خلق طائفة طقوسية وكذلك من استغلال ميول الناس الجنسية المكبوتة، حيث تقودهم إلى الاعتقاد بأن مشاعرهم المهتاجة هي إشارات لقوتك الصوفية. فأنت تكسب سلطة ليس لها مثيل بالتعامل مع رغبات الناس غير المتحقّقة لنوع من الوحدة الوثنية بالاتصال الجنسي المختلط والعلاقات غير الشرعية العشوائية.

وتَذَكَّرْ أيضاً أن معظم الطوائف المذهبية تمزج الدين بالعلم. فخذ آخر توجهات التكنولوجيا أو آخر بدعة مستحوذة على الناس وامزجها مع قضية نبيلة، وإيمان صوفي، وشكل جديد من أشكال الشفاء، وسوف تنفلت من عقالها تفسيرات الناس لمذهبك الطقوسي الهجين، وسوف يعزون إليك قوىً لم تكن تفكِّر حتى في ادعائها لنفسك.

صورة: المغناطيس: قوة غير مرئية تجذب إليها الأشياء التي تصبح بدورها ممغنطة، فتجذب إليها قطعاً أخرى، وتزداد القوة المغناطيسية للكل باطّراد، ولكنك إذا أبعدت المغناطيس الأصلي فإن هذا الكل يتساقط متبعثراً. فَأَصْبِحْ أنت المغناطيسَ، القوَّةَ الخفية التي تجتذب خيالات الناس وتشدّها معاً، وما أن يتجمَّعوا حولك كالعنقود، حتى تعجز كل القوى عن انتزاعهم بعيداً عنك.

الشاهد: يحقِّق الدجَّال سلطته العظمى ببساطة عن طريق فتح إمكانية إيمان الناس بما هم مستعدون للإيمان به أصلاً... فالناس الذين يُصَدِّقون لا يستطيعون أن يحافظوا على مسافة فاصلة؛ فهم يتجمَّعون حول صانع الأعاجيب، ويدخلون في هالته الشخصية، ويُسْلِمون أنفسَهُمْ للوهم بجدِّية صارمة ثقيلة، كالمواشي (غْرِيث دي فرانسيسكو).

الانقلاب

إن أحد أسباب خلق أتباع هو أن الجماعة كثيراً ما يكون التحايل عليها أسهل من خداع الفرد، كما أن ذلك يعطيك سلطة أكبر. غير أن السلطة تأتي مع خطر. فإذا كشفتك الجماعة فسوف تجد نفسك لا تواجه نفساً مخدوعة واحدة فحسب، بل حشداً غاضباً سيمزقك إرباً بِحِدَّةٍ مماثلة للحدَّة التي اتبعوك بها ذات مرة. فقد كان الدجَّالون يواجهون هذا الخطر باستمرار. وكانوا دائماً مستعدين للانتقال إلى خارج المدينة كلما اتضح بشكل حتميّ أن أكاسيرهم ليس لها فاعلية، وأن أفكارهم لم تكن سوى خدعة زائفة. فإذا كانت حركتهم مفرطة في بطئها فإنهم يدفعون حياتهم ثمناً لذلك. ذلك أنك عند تعاملك مع الجموع تلعب بالنار، ويجب عليك أن تبقي عينيك مفتوحتين باستمرار لرؤية أي شرارة شك، وأي أعداء قد يقلبون الجمهور ضدَّك. فعندما تتلاعب بعواطف حشد من الناس، عليك أن تعرف كيف تتكيَّف، بحيث تتناغم على الفور مع جميع الأمزجة والرغبات التي قد تُظْهِرُها الجماعةُ. استعمل الجواسيس، وكن مسيطراً على زمام الأمور، مستعداً لكل الاحتمالات، وابقِ حقائبك جاهزة للرحيل.

ولهذا السبب ربما تفضّل في كثير من الأحيان أن تتعامل مع الناس واحداً واحداً. ذلك أن عزلهم عن بيئتهم الطبيعية يمكن أن يكون له الأثر نفسه لوضعهم في مجموعة ـ فيجعلهم أكثر عرضةً للتأثير بالإيحاء والترهيب. اختر المغفل الملائم، وإذا استشفّ نواياك وكشفك، فقد يثبت أن الهرب منه أسهل من الهرب من حشد كبير.

القانون

28

ادخل معمعة العمل بجرأة

الحكم

إذا لم تكن متأكداً من سياق عملٍ مّا، فلا تحاوله. إذ إن حالات الشك والتردُّد عندك ستنتقل بعدواها إلى أدائك في التنفيذ. فالتخوف خَطِر: والأفضل هو الشروع في العمل بجرأة، لأن أي أخطاء ترتكبها عن طريق الصفاقة يمكن تصحيحها بالمزيد من الصفاقة. فالجميع يعجبون بالجريء، ولا أحد يكرِّم الرعديد المخلوع الفؤاد.

الجرأة والتردُّد: مقارنة نفسية مختصرة

إن الجرأة والتردُّد يَسْتَدْرِجان ردود فعلٍ مختلفة جداً في أهدافهما. فالتردُّد يضع العقبات في طريقك، والجرأة تزيلها. وعندما تفهم ذلك، فستجد أن من الجوهري أن تتغلَّب على جبنك الطبيعي، وتمارس فنّ الصفاقة. وفيما يلي بعض أبرز التأثيرات النفسية للجرأة والتخوُّف.

كلما كانت الكذبة أجرأ، كان ذلك أفضل: لدينا جميعاً نقاط ضعف. وجهودنا ليست كاملة قطّ. ولكن الشروع في العمل بجرأة له تأثير سحري هو إخفاء عيوبك. ويعرف فنانو الاحتيال أنه كلما كانت الكذبة أجرأ، أصبحت أكثر إقناعاً. فالوقاحة الصرفة للقصة تجعلها أكثر قابلية للتصديق، وتبعد الأنظار عن تناقضاتها. وعندما تنهمك في تركيب حيلةٍ مّا، أو تشرع في أي نوع من التفاوض، اذهب إلى أبعد ممّا خطَّطت. اطلب القمر، وسيدهشك عدد المرّات التي يمكنك الحصول عليه فيها.

الأُسُودُ تطوف حول الفريسة المتردِّدة: للناس حاسة سادسة يستشعرون بها نقاط ضعف الآخرين. فإذا أظهرت في مقابلة أولى استعدادك لقبول التسوية التوفيقية، والتنازل، والتراجع فإنك توقظ الأسد حتى في الناس الذين ليسوا بالضرورة متعطِّشين للدماء. فكل شيء يعتمد على التفهم والإدراك. وما أن تظهر للناس كشخص من النوع الذي

المغامِران

إن طريق المسرّات لا يؤدي إلى المجد أبداً! فإنجازات هرقل الضخمة كانت نتيجة مغامرة كبرى. ورغم أن التاريخ والخرافات لا يظهر فيهما أن هرقل كان له أي منافس يُذْكَر، فإن من المسجَّل مع ذلك أن الفارس الجوّال، برفقة زميل مغامر، كان يبحث عن حظه في بلد مليء بالخيالات والأحلام. ولم يكن قد ابتعد كثيراً في أسفاره عندما لاحظ مرافقه عموداً نقشت عليه العبارات التالية: «أيها المغامر الشجاع، إن كنت ترغب في اكتشاف ما لم يره فارس جوال مِن قَبْلُ، فما عليك إلاّ أن تعبر هذا السيل، وتأخذ في ذراعيك فيلاً من الحجر، وتحمله في نَفَسٍ واحد إلى قمة هذا الجبل الذي يبدو رأسه البارز مندمجاً في السماء. ولكن مرافق الفارس قال: «ولكن الماء قد يكون عميقاً، وسريعاً كذلك، وحتى لو عبرناه، فقد يعرقلنا الفيل الثقيل؟ يا له من مشروع سخيف!» ثم لاحظ بتفلسف وبحسابات دقيقة أن الفيل قد يمكن حمله أربع خطوات، ولكن إيصاله إلى قمة الجبل في نَفَسٍ واحد، فإن ذلك

يسارع إلى اتخاذ موقف الدفاع، ويكون مستعداً للتفاوض والإذعان، حتى يأخذوا في إصدار الأوامر إليك بلا رحمة.

الجرأة تولّد الخوف، والخوف يخلق السلطة: إن الحركة الجريئة تجعلك تبدو أكبر وأقوى ممّا أنت عليه في الحقيقة. فإن جاءت فجأة بتسلّل الأفعى وسرعتها، فإنها توحي بخوف أشدّ وأكثر. وبالترهيب بحركة جريئة، تسجّل سابقة. وفي كل مواجهة لاحقة، سيتخذ الناس منك موقف الدفاع، وهم مذعورون من ضربتك القادمة.

قطع نصف الطريق، بنصف إرادة، يحفر قبراً أعمق: إذا شرعت في عمل بأقل من الثقة الكلّية، فإنك تضع عقبات في طريقك ذاته. وعندما تنشأ مشكلة، فإنك ستحتار وترتبك، وترى خيارات حيث لا توجد خيارات، وبذلك تخلق لنفسك مزيداً من المشاكل عن غير قصد. فالأرنب المذعور عندما يتراجع مبتعداً عن الصياد، يهرع إلى مصايده على نحو أسهل.

التردُّد يخلق فجوات، والجرأة تمحقها: عندما تأخذ وقتاً للتفكير، ولكي تتردَّد وتتلجلج، فإنك تخلق فجوة تتيح للآخرين أن يفكِّروا كذلك. فتخوفك يصيب الناس بعدوى طاقة خطرة ومحرجة ويستدرج الارتباك. فالشكّ يقفز منقضّاً في كل الاتجاهات.

أمّا الجرأة فتدمّر مثل هذه الفجوات، فسرعة الحركة وطاقة العمل لا تتركان للآخرين فسحة للشك أو القلق. فالتردُّد عند الإغواء قاتل، إذ يجعل ضحيتك واعية بنواياك. أمّا الحركة الجريئة فتتوّج الإغواء بالانتصار: إذْ أنّها لا تترك وقتاً للتأمُّل.

الصفاقة تفصلك عن القطيع: إن الجرأة تعطيك حضوراً وتجعلك تبدو أكبر من الحياة. فالجبناء يتلاشون في ورق الجدران. أمّا الجريئون فيجذبون الاهتمام. وما يجذب الاهتمام يجذب السلطة، إذْ أننا لا نستطيع أن نبعد أعيننا عن الوقحاء، ولا نستطيع إلاّ أن ننتظر حركتهم التالية بتلهف.

ليس في مقدور أي إنسان، إلاّ أن يكون صورة مصغرة لفيل لا يصلح إلاّ أن يكون مركّباً على رأس عصا. وعندئذٍ فأي شرف سيكون في مثل هذه المغامرة؟ فقال المرافق: «هناك خدعةٌ مّا في هذه الكتابة وإنها للغز لا يصلح إلاّ لتسلية طفل. ولذلك فإنني سأتركك أنت وفيلك».

ثم غادر المفكر بذلك المنطق، ولكن الرجل المغامر هجم بعينين مغمضتين عبر الماء، فلم يمنعه عمقه ولا عنف جريانه من خوضه. وحسبما هو وارد في النقش رأى الفيل على الضفة الأخرى فأخذه وحمله إلى القمة؛ وهناك رأى مدينة تنبه سكانها على صوت صرخة الفيل، فهبّوا بسلاحهم. ولكن المغامر لم يخف من شيء، إذ أنه كان مصمّماً على أن يموت بطلاً. غير أن الناس قد أرهبهم حضوره، فأذهله أن يسمعهم ينادون به خلفاً لملكهم الذي كان قد توفي قبل ذلك بوقت قصير.

إن المشاريع العظمى لا يحققها إلاّ أصحاب النفوس المغامرة. أما أولئك الذين يحسبون بدقة أكثر مما ينبغي كلّ صعوبة أو عقبة يحتمل أن تعترض طريقهم، فإنهم سوف يضيعون الوقت في التردّد. وهو الوقت الذي يغتنمه الجريئون لتحقيق أسمى الأهداف.

خرافات
جان دي لافونتين
1695 - 1621

مراعاة القانون

المراعاة الأولى

في أيار/مايو سنة 1925، وجد خمسةٌ من أنجح تجّار الخردوات المعدنية الفرنسيين أنفسهم مدعوين إلى اجتماع «رسمي» ولكنه «سرّي للغاية» مع نائب المدير العام لوزارة البريد والبرق في فندق كريلّون، الذي كان آنذاك أكثر الفنادق فخفخة وبذخاً في باريس. وعندما وصل التجار، كان المدير العام نفسه، ويدعى السيّد لاستيغ، هو الذي التقى بهم في جناح أنيق بالطابق الأعلى.

ولم تكن لدى التجار فكرة عن سبب استدعائهم إلى هذا الاجتماع، فكانوا يتفجّرون بالفضول. وبعد المشروبات، شرح لهم المدير الأمر بقوله: «أيها السادة، إن هذه قضية عاجلة تتطلّب سرّيّة كاملة. إن الحكومة ستضطرّ إلى هدم برج إيفل». وأنصت التجار في صمت وذهول بينما كان المدير يوضح أن البرج ـ كما ورد مؤخراً في الأخبار ـ بحاجة ماسّة إلى إصلاحات. وكان المقصود منه في الأصل أن يكون هيكلاً مؤقتاً (المعرض سنة 1889)، وستضطر الحكومة إلى صرف الملايين إن أرادت ترميمه. وكثير من الباريسيين يعتبرونه قذىً في العين وسوف يسرّهم أن يروه يختفي. وبمرور الزمن فسوف ينساه حتى السيّاح ـ غير أنه سيستمر في العيش في الصور والبطاقات البريدية. وقال لاستيغ: «أيها السادة، إنكم جميعاً مدعوون لتقديم عرض للحكومة لشراء برج إيفل».

انطلق للعمل دائماً دون هواجس بسبب الطيش أو التهور، فالخوف من الفشل في ذهن القائم بالعمل هو في عين الناظر دليل مبكر على الفشل... فالأعمال تكون خطرة عندما يكون هناك تشكّك في حكمتها؛ وعندئذ فإن من الأسلم أن لا يفعل المرء شيئاً.

بلثازار غراسيان
1601 ـ 1658

ثم أعطاهم أوراقاً من قرطاسية الحكومة مليئة بالأرقام، كوزن معادن البرج بالأطنان. ونتأت عيونهم عندما حسبوا كم يستطيعون أن يربحوا من هذه الخردوات. ثم اقتادهم لاستيغ إلى سيارة ليموزين كانت بالانتظار وأخذهم معه إلى برج إيفل. ولوّح بشارة رسمية في يده، وطاف بهم في المنطقة، وهو يحكي لهم قصصاً مسلية. وفي نهاية

الزيارة شكرهم، وطلب منهم أن يوصلوا عروضهم إلى جناحه في غضون أربعة أيام.

وبعد بضعة أيام من تسليم العروض، تلقى واحد من الخمسة، يدعى السيد ب. إشعاراً بأن عرضه هو الفائز، وأنه من أجل تأمين البيع يتعيَّن عليه الحضور إلى الجناح في غضون يومين، حاملاً شيكاً مصدَّقاً بمبلغ يزيد على ربع مليون فرنك (أي ما يعادل اليوم مليون دولار) ـ وهو ربع الثمن الكلِّي. وعند تسليم الصك يتلقى الوثائق المؤكدة لملكيته لبرج إيفل. فتحمَّس السيد ب. ـ إذ أنه سوف يُذْكَرُ في التاريخ على أنه الرجل الذي اشترى ذلك المَعْلَمَ اللعين وهدمه. ولكنه عندما وصل إلى الجناح، وبيده الصك، كان الشك قد بدأ يراوده حول القضية بِرُمَّتها. فلماذا يتم اللقاء في فندق، بدلاً من مبنى حكوميّ؟ ولماذا لم يسمع شيئاً من مسؤولين آخرين؟ فهل هذه مكيدة؟ خديعة؟ وبينما كان يستمع إلى لاستيغ وهو يناقش ترتيبات تهديم البرج، تردَّد وفكَّر في الانسحاب.

غير أنه أدرك فجأةً أن المدير قد غيَّر لهجته. وبدلاً من التحدُّث عن البرج، راح يتذمَّر من قلَّة راتبه، ومن رغبة زوجته في معطف فرو، وكم هو مثير للحنق أن يشتغل بمشقة دون أن يلقى تقديراً. وهكذا اكتشف السيد ب. أن هذا الموظف الحكومي الكبير كان يطلب رشوة. فكان أثر ذلك عليه هو الشعور بالراحة، وليس بالسخط. فقد تأكد أن لاستيغ حقيقي، إذ أنه في جميع مقابلاته السابقة مع الموظفين البيروقراطيين الفرنسيين، كانوا يطلبون شيئاً من الرشوة حتماً. فعادت إليه ثقته بنفسه، فأعطى المدير عدة آلاف من الفرنكات، ثم سلَّمه الصك المصدَّق. وفي مقابل ذلك تلقَّى الوثائق، بما فيها استمارة بيع ذات منظر مثير للإعجاب. فغادر الفندق وهو يحلم بالأرباح والشهرة التي ستهبط عليه.

غير أن السيد ب.، وعلى مدى الأيام القليلة التالية، بينما كان ينتظر مراسلة من الحكومة، بدأ يدرك أن هناك خللاً مّا. وبعد بضع

مكالمات هاتفية اتضح له أنه لم يكن هناك نائب مدير سنة باسم لاستيغ، ولا خطط لتدمير برج إيفل. لقد سُلِبَ منه مبلغٌ زاد على ربع مليون فرنك!

ولم يذهب السيد ب. إلى الشرطة أبداً. فقد كان يعلم أي نوع من السمعة سيلحق به إذا انكشف للناس أنه وقع ضحية أكبر عملية نصب وقحة ومضحكة في التاريخ. فبالإضافة إلى الفضيحة العلنية المذلّة، ستكون المسألة انتحاراً تجارياً.

التفسير

لو حاول الكونت فكتور لاستيغ، فنان الاحتيال الخارق للعادة، أن يبيع قوس النصر، أو جسراً على نهر السين، أو تمثالاً لبلزاك، لما صدَّقه أحد. ولكن برج إيفل كان أضخم وأقل احتمالاً من أن يصير جزءاً من عملية نصب. بل لقد كان الاحتمال من الضآلة بحيث استطاع لاستيغ أن يعود إلى باريس بعد ذلك الوقت بستة أشهر و«يعيد بيع» برج إيفل إلى تاجر خردوات آخر، ولقاء ثمن أعلى ـ مبلغ يعادل اليوم أكثر من مليون ونصف مليون دولار!

إن اتساع النطاق يخدع العين البشرية، فهو يشتّتنا ويشعرنا بالرهبة. وهو واضح بذاته إلى درجة أننا لا نستطيع أن نتصوَّر أن هناك وهماً وشَرَكَ خديعة منصوباً. سلِّح نفسك بالضخامة والجرأة، وامدد أحابيلك إلى أقصى مدى تصل إليه، ثم تجاوزها إلى ما هو أبعد. وإذا شعرتَ بأن المغفل تساوره الشكوك، فافعل كما فعل لاستيغ الجَسُور. فبدلاً من الانسحاب أو تخفيض سعره، قام ـ ببساطة ـ برفع ذلك السعر، فطلب رشوة، وحصل عليها. ذلك أن رفع السعر يضع الشخص الآخر في موقف الدفاع، ويقمع تأثير التآكل الناجم عن المساومة والشكوك، ويتغلّب على الآخر بجرأته.

المراعاة الثانية

على فراش الموت في سنة 1533، قام فاسيلي الثالث، الدوق

قصة هوة ساينغ

في كوخ متواضع مسقوف بالقش في وادي نامان، كان يعيش زوجان فقيران هما السيد والسيدة هوه ساينغ. وقد حبس الرجل نفسه سبع سنوات لم يكن يفعل فيها شيئاً سوى قراءة الكتب في غرفته الباردة...

وذات يوم قالت له زوجته وقد غلبتها الدموع: «انظر هنا يا رجلي الطيِّب، ما الفائدة من قراءتك لكل هذه الكتب؟ لقد أمضيتُ شبابي أغسل وأخيط ملابس الآخرين، ومع ذلك فليس عندي سترة زائدة أو تنورة ألبسها، ولم أذق طعم الزاد منذ ثلاثة أيام، وأشعر بالجوع والبرد ولم أعد أطيق ما أنا فيه!»... وعندما سمع العالم الذي بلغ منتصف العمر هذه الكلمات، أغلق كتابه... وهبَّ واقفاً على قدميه و... بدون أن يقول كلمة أخرى، انطلق إلى الخارج.. وعندما وصل إلى قلب المدينة، أوقف رجلاً عابراً وقال له: «مرحباً يا صديقي! مَنْ هو أغنى رجل في المدينة؟» فأجابه: «أيها الريفي المسكين! ألا تعرف بيونسي المليونير؟ ههنا بيته اللامع المسقوف بالآجرّ، الذي تخترقه اثنتا عشرة بوابة». فوجَّهَ هوه ساينغ خطواته نحو بيت الرجل الغني. وبعد أن دخل من البوابة الكبيرة، فتح باب غرفة الضيوف على مصراعيه وخاطب مضيفه: «إنني بحاجة إلى عشرة آلاف يانغ كرأسمال لمشروعي التجاري، وأريدك أن تقرضني المال». فقال الرجل

الأكبر لموسكو، وحاكم روسيا شبه المتحدة، بتنصيب ابنه إيڤان الرابع، الذي لم يتجاوز عمره ثلاثة أعوام، خلفاً له. وعيَّن زوجته الشابة، هيلينا، وصيَّة عليه حتى يبلغ أشدّه ويستطيع ممارسة الحكم بنفسه. وفرحت الأرستقراطية بذلك سرّاً (وهي طبقة النبلاء المعروفة باسم البويار). فقد ظلَّ دوقات موسكو سنوات طويلة يحاولون أن يمدُّوا سلطتهم على إقطاعيات البويار. ومع موت فاسيلي وكون وريثه مجرَّد طفل في الثالثة، وكون المسؤولة عن الدوقيّة امرأة شابة، فقد مَنَّى البويار أنفسهم بأنهم سيتمكّنون من طيّ مكاسب الدوق، وانتزاع السيطرة على الدولة، وإذلال الأسرة المالكة.

وكانت هيلينا الشابة تعي هذه الأخطار، فلجأت إلى صديقها الموثوق، الأمير إيڤان أوبولنسكي، لمساعدتها في الحكم. ولكنها ماتت فجأة بعد خمسة أعوام من العمل كوصية، إذْ سمَّمها أحد أفراد أسرة شويسكي، أكثر عشائر البويار إثارة للرهبة. واستولى أمراء آل شويسكي على الحكومة، وألقوا أوبولنسكي في غياهب السجن، حيث بقي حتى مات فيه جوعاً. وفي سن الثامنة، صار إيڤان يتيماً محتقراً. أما أي بويار أو عضو في الأسرة يظهر الاهتمام به فقد نُفِيَ أو قُتِلَ على الفور.

وهكذا أخذ إيڤان يطوف في القصر، جائعاً، زريّ الثياب، وغالباً مختبئاً خوفاً من آل شويسكي، الذين راحوا يعاملونه بخشونة كلما رأوه. وكانوا في بعض الأيام يبحثون عنه، ويلبسونه الأثواب الملكية، ويناولونه صولجاناً، ويضعونه على العرش ـ كنوع من الطقوس الساخرة التي يتهكّمون بها على ادعاءاته الملكية، ثم يطردونه بعيداً. وذات مساء قام العديد منهم بمطاردة المطران ـ رئيس الكنيسة الروسية ـ في أبهاء القصر، فالتجأ إلى غرفة إيڤان. وتفرَّج الصبيّ في ذعر ورعب بينما دخل آل شويسكي، ووجَّهوا الإهانات، وشرعوا يضربون المطران بلا رحمة.

وكان لإيڤان صديق واحد في القصر، بويار، اسمه فورونتزوف كان يعزيه وينصحه. وذات يوم، بينما كان فورونتزوف والمطران الجديد

الغني: «حسناً يا سيدي، إلى اين أرسل المال؟» فردّ سانغ: «إلى سوق آنسونغ، تحت رعاية وكيل بالعمولة» فقال بيونسي: «حسناً يا سيدي. سوف أسحب المال على حساب كيم، أكبر تاجر بالعمولة في سوق آنسونغ. وسوف تحصل على المال هناك». فودعه سانغ وانصرف. وبعد انصرافه سأل الضيوفُ الآخرون جميعاً بيونسي عن سبب إعطائه كل هذا المبلغ لغريب يشبه الشحّاذين، واسم عائلته غير معروف لديه. ولكن الرجل أجاب وعلى وجهه سيما الانتصار: «رغم أنه كان رثّ الملابس، فقد تحدث بوضوح، وقصد إلى موضوعه دون أن يظهر أي شيء من الشعور بالخجل أو النقص، على عكس الناس العاديين الذين يريدون أن يقترضوا مالاً من أجل دَيْنٍ ميت لن يُقْضَى. إن رجلاً كهذا إما أن يكون مجنوناً أو أنه واثق بنفسه في عمله التجاري. ولكن إذا حكمنا بموجب النظرة الجريئة غير الخائفة في عينيه، وصوته المدوي، فإنه رجل غير عادي، ذو دماغ متفوق، وهو جدير بثقتي. إنني أعرف المال، وأعرف الرجال. فالمال كثيراً ما يجعل الرجل صغيراً. ولكن رجلاً مثل هذا يثمّر المال. وإنني لسعيد لأنني ساعدتُ رجلاً كبيراً على القيام بعمل تجاري كبير».

خلف كواليس القصور الملكية في كوريا
هاتاي ـ هونغ، 1983

يتشاوران في غرفة الطعام بالقصر، اقتحم الغرفة عدد من أفراد آل شويسكي، وانهالوا بالضرب المبرح على فورونتزوف، وأهانوا المطران بتمزيق أثوابه والدوس عليها بأقدامهم. ثم نفوا فورونتزوف من موسكو.

وطوال هذا كله حافظ إيڤان على صمت صارم. وبدا للبويار أن خطتهم قد نجحت. فقد بدا لهم أن الفتى تحوَّل إلى أبله مذعور ومطيع، وأنهم يستطيعون أن يتجاهلوه الآن، بل ويتركوه وشأنه. ولكن في مساء يوم 29 كانون الأول/ ديسمبر 1543، قام إيڤان، الذي بلغ الثالثة عشرة من عمره آنذاك، بدعوة الأمير آندريه شويسكي للمجيء إلى غرفته. وعندما وصل الأمير، كانت الغرفة ممتلئة بحرَّاس القصر. فأشار إيڤان الصغير بإصبعه إلى آندريه، وطلب منهم أن يقبضوا عليه ويقتلوه، ويلقوا بجثته إلى الكلاب الضخمة في الوِجَار الملكي. وعلى امتداد الأيام القليلة التالية أمر إيڤان بالقبض على جميع الأصدقاء المقرَّبين لآندريه ونفيهم. وأُخِذَ البويار على حين غِرَّة بشجاعته المفاجئة، فأصيبوا بذعر قاتل من هذا الفتى، الذي صار يعرف ـ فيما بعد ـ باسم إيڤان الرهيب، الذي ظل يخطِّط وينتظر خمسة أعوام، لتنفيذ هذا العمل الواحد السريع والجريء، الذي أمَّن له السلطة على مدى عقود لاحقة.

التفسير

إن العالم مليء بالبويار، وهم الأناس الذين يحتقرونك، ويخشون طموحك، ويحرسون بغيرة شديدة ممالك سلطتهم الآخذة في الانكماش. فأنت، بحاجة إلى تثبيت سلطتك، وكسب الاحترام. ولكن البويار سوف يهبُّون للعمل لإعاقتك في اللحظة التي يشعرون فيها بجرأتك المتنامية. وقد واجه إيڤان هذا الوضع بالطريقة التالية: طأطأ رأسه، ولم يظهر طموحاً ولا سَخَطاً. بل انتظر. وعندما حان الوقت كسب حراس القصر إلى جانبه. وكانوا قد بدأوا يكرهون آل شويسكي القساة. وما إن وافقوا على خطة إيڤان حتى ضرب ضربته بسرعة

الأفعى، مشيراً بإصبعه إلى شويسكي دون إعطائه وقتاً ليبدر منه أي رد فعل.

تفاوضْ مع بويار، وستخلق له فرصاً. إن أي تسوية توفيقية صغيرة ستعطيه موطىء إصبع القدم الذي يحتاج إليه ليمزقك إرباً. إن الحركة المباغتة الجريئة، بدون نقاش ولا إنذار تمحق مثل هذا الموطىء محقاً؛ وترسِّخ سلطتك. كما أنك بذلك ترهب المتشكِّكين والمحتقِرين وتكسب ثقة الكثيرين الذين يعجبون بالمتصرفين بجرأةٍ ويمجِّدونهم.

المراعاة الثالثة

في سنة 1514، كان بيترو آرِيتينو، البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، يعمل بوظيفة منخفضة الرتبة كمساعد طبَّاخ لأسرة رومانية ثرية. وكانت لديه طموحات للوصول إلى العظمة ككاتب، وإلهاب العالم باسمه، ولكن أنّى لخادم متواضع أن يأمل في تحقيق مثل هذه الأحلام؟

وفي ذلك العام تلقّى البابا ليو العاشر من ملك البرتغال سفارة شملت كثيراً من الهدايا كان من أبرزها فيل عظيم هو الأول في روما منذ أيام الإمبراطورية. وقد أخذ البابا يعبد هذا الفيل ويمطره بالاهتمام والهدايا. ولكن على الرغم من حبِّه ورعايته فإن ذلك الفيل، الذي كان يدعى «هانو» أُصيب بمرض مميت. واستدعى البابا الأطباء الذين سقوا الفيل خمسمائة رطل من الدواء المسهِّل والمطهِّر، ولكن بلا جدوى. فقد مات الحيوان، ولزم البابا حداداً عليه. ولكي يعزِّي نفسه استدعى الرسَّام العظيم رافائيل وأمره أن يرسم لوحة بالحجم الطبيعي لهانو فوق قبره، وينقش عليه: «ما أخذته الطبيعة أعاده رافائيل بفنِّه».

إن الخوف، الذي يضخم الأشياء دائماً، يجسد خيالات الناس، فيجعلها تأخذ شكل أي شيء يتصورون وجوده في أفكار أعدائهم، بحيث أن الأشخاص الخائفين نادراً ما ينجون من الوقوع في المضايقات المربكة، التي تنجم عن أخطار وهمية متخيلة... وكان الدوق، صاحب الشخصية المسيطرة المليئة دائماً بالخوف وعدم الثقة، من بين جميع الرجال الذين رأيتهم في حياتي، أكثر الرجال قابلية لاتخاذ خطوات خاطئة، بسبب ذعره من احتمال الوقوع في الخطأ... وهو في ذلك يشبه الأرانب البرية.

الكردينال دي ريتز
1613 - 1679

وعلى امتداد الأيام القليلة التالية، وُزِّع في روما كتيِّب سبَّب كثيراً من المرح والضحك، عنوانه: «آخر وصية وشهادة للفيل هانو»، وجاء فيه: «إلى وريثي الكردينال سانتا كروتشيه، أتبرَّع بِرُكَبِي، كي يتمكَّن من تقليد انحناءاتي... ولِوَرِيثِي الكردينال سانتي كواترو أُعطي فكَّيَّ، كي

يتمكّن أن يبتلع جميع عائدات المسيح بسهولة أكثر. . . ولوريثي الكردينال مديتشي أعطي أُذنيَّ، كي يتمكّن من سماع ما يفعله كل شخص. . .» وللكردينال غراسي، الذي شاعت عنه سمعة الفحش، تبرَّع الفيل بالعضو المناسب، الضخم الحجم جداً، من جسده.

وتابع الكتيِّب المجهول المؤلِّف على هذا النحو فلم يوفِّر أحداً من عظماء روما، حتى البابا، مستهدفاً أفضل ما هو معروف من نقاط الضعف عن كل واحد منهم. وانتهى الكتيِّب بسطور من الشعر: «احرص على أن يكون آريتينو صديقك / لأنه عدوٌّ سيِّىء جداً/ فكلماته وحدها تستطيع تدمير البابا العالي المقام/ فليحرس الله الجميع من لسانه».

التفسير

بِكُتَيِّبٍ صغيرٍ واحد، قام آريتينو، الخادم ابن الإسكاف، بقذف نفسه إلى الشهرة. فقد سارع كل شخص في روما لاكتشاف هوية هذا الفتى الجريء. وحتى البابا، الذي وجد وقاحته مسلِّية، بحث عنه وانتهى به الأمر إلى توظيفه في الخدمة البابوية. وعلى مدى السنين صار يعرف بلقب «بلاء الأمراء»، وكسب له لسانه العضوض احترام العظماء وخشيتهم، من ملك فرنسا إلى إمبراطور آل هابسبرغ.

وكانت خطته الاستراتيجية بسيطة: فعندما تكون صغيراً ومغموراً مثل داوود، فإن عليك أن تجد غولياث (جالوت) لتهاجمه. وكلما كبر هدفك زاد الاهتمام الذي تكسبه. وكلما كان الهجوم أجرأ، زاد بروزك من بين الجموع، وزاد الإعجاب الذي تحصل عليه. فالمجتمع مليء بالذين تراودهم أفكار عظيمة، ولكن تنقصهم الشجاعة لطبعها ونشرها. فكن الصوت المعبِّر عما يشعر به عامة الناس ـ لأن التعبير عن المشاعر المشتركة قويٌّ دائماً. ففتِّش عن أبرز هدف ممكن، واقذفه بأجرأ رمية من مقلاعك. وسوف يستمتع العالم بالمشهد، وسوف يكرم المستضعف ـ الذي هو أنت ـ بالمجد والسلطة.

الولد والنبتة القرّاصة

لسعت نبتةٌ قرّاصةٌ ولداً كان يلعب في الحقول. فركض إلى أمه في البيت وأخبرها أن عشبةً كريهة قد لمسته وقرصته. فقالت له: «إن

مفاتيح السلطة

إن معظمنا متخوِّفون. فنحن نريد أن نتجنَّب التوتر والصراع ونريد أن يحبنا الجميع. وقد نفكِّر في عمل جريء، ولكننا نادراً ما نخرجه إلى الحياة، إذ أننا مذعورون من العواقب، وممّا قد يفكِّر به عنا الآخرون، ومن العداوة التي سنثيرها إذا تجرَّأنا على تجاوز مكاننا المعتاد.

ورغم أننا قد نموِّه خوفنا بأنه قلق بشأن الآخرين، ورغبة في عدم إيذائهم أو مضايقتهم، فالحق أن العكس هو الصحيح، لأننا في الحقيقة غارقون في ذواتنا، قلقون على أنفسنا، وكيف يفهمنا الآخرون. ولكن الجرأة، من ناحية أخرى، موجَّهة إلى الخارج. وكثيراً ما تجعل الناس يشعرون بأنهم مرتاحون وعلى سجيتهم، لأنها أقل شعوراً بالذات، وأقل تعرضاً للكبت.

ويمكن رؤية ذلك على نحو أوضح في الإغواء. ذلك أن جميع أبطال الإغواء العظام، ينجحون عن طريق الوقاحة. فجرأة كازانوفا لم تكن تتكشَّف بالاقتراب من المرأة التي يرغب فيها، أو بكلمات جسورة تتملَّقها، بل كانت تتألف من قدرته على الاستسلام لها بصورة تامّة، وجعلها تعتقد أنه سيفعل أي شيء تطلبه، حتى المخاطرة بحياته. وقد فعل ذلك أحياناً. فكانت المرأة التي يكرِّمها، بهذا الاهتمام السخيّ، تفهم أنه لا يبخل عليها بشيء. وكان ذلك أكثر تملقاً للمرأة من المدائح. ولم يكن يُظهِر أي تردّد أو شكّ، في أية لحظة، أثناء عملية الإغواء، لأنه ـ ببساطة ـ لم يشعر بالتردُّد أو الشك على الإطلاق.

إن جزءاً من سحر الإغواء هو أنه يشعرنا بأننا منغمسون، وخارجون من إطار ذواتنا مؤقتاً، وكذلك من الشكوك المعتادة التي تتخلَّل حياتنا. ففي اللحظة التي يتردَّد فيها المغوي ينهار السحر، لأننا نصبح واعين بالعملية، وبالجهود المتعمدة المبذولة لإغوائنا، وبوعيهم بذواتهم. إذ أن الجرأة توجِّه الانتباه إلى الخارج وتبقي الوهم حيّاً. وهي لا تستدرج أي صعوبة أو إحراج. وهكذا فإننا نعجب بالجريئين، ونفضِّل

لمسك إياها يا ولدي هو الذي جعلها تقرصك. وفي المرة القادمة التي تعبث بها بنبتة قراصة، اقبض عليها بشدةٍ وإحكام ولن تؤذيك».

إن أردت القيام بأي عمل، فاعمله بجرأة.

خرافات
إيسوب، القرن السادس قبل الميلاد

كيفية الانتصار في الحب
أما بالنسبة لأولئك الذين تركوا أثراً على قلبك فقد لاحظت أنك رعديد مخلوع الفؤاد. وهذه صفة قد تؤثر على البورجوازي. ولكن عليك أن تهاجم قلب المرأة الخيرة بأسلحة أخرى... وأقول لك نيابةً عن النساء: ليست منا امرأة لا تفضل

أن نبقى بالقرب منهم، لأن ثقتهم بأنفسهم تعدينا، وتجرّنا إلى خارج مجال الانطواء الداخلي على الذات والتأمل في أنفسنا.

وقليلون هم الذين يولدون جريئين. وحتى نابليون كان مضطراً إلى تربية هذه العادة في ميدان القتال، حيث كان يعلم أن الأمر أمر حياة أو موت. أما في الأجواء الاجتماعية، فقد كان خشناً ساذجاً ومتهيباً. ولكنه تغلب على ذلك وتدرب على ممارسة الجرأة في كل نواحي حياته لأنه رأى قوتها الهائلة، وكيف يمكنها أن تكبّر حجم الرجل (حتى ولو كان في الحقيقة صغيراً على نحو يلفت الأنظار، مثل نابليون). كما أننا نرى هذا التغيير في إيڤان الرهيب، الولد البسيط غير المؤذي الذي يحوّل نفسه فجأة إلى فتىً يتحكم بالسلطة، عن طريق الإشارة بإصبعه واتخاذ إجراء جريء.

إن عليك أن تمرّن جرأتك وتُطَوِّرَها. فكثيراً ما تجد أن لها استخدامات. وإن أفضل مكان للبدء هو عالم المفاوضات الدقيق، ولا سيما تلك المناقشات التي يُطْلَبُ فيها منك أن تعرض سعرك. فما أكثر المرات التي نخفّض قيمتنا بطلب سعر مفرط في الرخص. فعندما اقترح كريستوفر كولومبوس على البلاط الإسباني تمويل رحلته إلى الأميركَتَيْن، قدَّم أيضاً طلباً جريئاً إلى حدّ الجنون، وهو أن يطلق عليه لقب «أميرال المحيط الكبير». فوافق البلاط. وكان السعر الذي وضعه هو السعر الذي تلقاه ـ فقد طلب أن يعامَلَ باحترام، وهكذا كان. وكان هنري كيسنجر يعرف أيضاً أن الطلبات الجريئة في المفاوضات تنجح أكثر من البدء بتنازلات جزئية متقطعة، ومحاولة الالتقاء مع الطرف الآخر في منتصف الطريق. اجعل قيمتك عالية، ثم ـ كما فعل الكونت لاستيغ ـ ارفعها أعلى. إفهم: إذا كانت الجرأة غير طبيعية، فإن التهيّب غير طبيعي كذلك، بل هو صفة مكتسبة، يلتقطها المرء من رغبته في تجنب النزاع، فإذا استولى عليك التهيّب، إذن، فاقتلعه من جذوره. ذلك أن مخاوفك من عواقب عمل جريء هي بعيدة جداً عن التناسب مع الحقيقة. بل إن

شيئاً من الخشونة في المعاملة على احترام مفرط أكثر مما ينبغي. فالرجال يخسرون من خلال الخطأ قلوباً أكثر من التي تنقذها الفضيلة. فكلما زاد الخوف الذي يبديه العشيق معنا، كان حقاً له مقلقاً لكبريائنا. وكلما زاد احترامه لمقاومتنا، زادت مطالبتنا له باحترام إضافي. ونقول لكم بإرادتنا يا معشر الرجال: «آه، باسم الشفقة، لا تعتبرونا شديدات الفضيلة والعفاف، لأنكم بهذا الافتراض ترغموننا على التمسك بشيء أكبر مما ينبغي منهما...» إننا نكافح باستمرار لإخفاء حقيقة كوننا قد سمحنا لأنفسنا بأن نُحَبّ. ضع امرأةً في موقع يجعلها تقول إنها لم تستسلم إلاّ لنوع من العنف، أو للمفاجأة: وأقنعها بأنك لا تقلل من قيمتها، وسأجيبك بالنيابة عن قلبها... إن قليلاً من الجرأة الإضافية من جانبك سوف يريحك ويريحها. هل تذكر ما قاله لك السيد لاروشفوكو مؤخراً: «إن الرجل العاقل الواقع في الحب قد يتصرف كمجنون. ولكن لا ينبغي له، ولا يستطيع، أن يتصرّف كأبله».

حياة نينو دي لينكلو، ورسائلها، وفلسفتها الأبيقورية [الباحثة عن اللذة]
نينو دي لينكلو، 1705 ـ 1620

عواقب التهيّب أسوأ منها في الحقيقة، إذ أنك بالتهيب تخفض قيمتك، وتخلق دائرة أو حلقة مفرغة تحقق ذاتها من الشك والمصائب. تذكر: إن المشاكل الناجمة عن حركة وقحة يمكن تمويهها، وحتى معالجتها، بالمزيد من الوقاحة بصورة أعظم.

صورة: الأسد والأرنب. لا يترك الأسد
فجوات في طريقه فحركاته كاسحة
للغاية، ونكّاه سريعان وقويان للغاية.
أما الأرنب الجبان فيسفعل أي شيء
ليهرب من الخطر، ولكنه في تسرعه
للتراجع والفرار، يسقط في المصايد،
ويقفز بالضبط إلى داخل فكوك أعدائه.

الشاهد: إنني أعتقد بالتأكيد أن التهور افضل من الحذر، لأن الثروة امرأة. وإذا أردت السيطرة عليها فمن الضروري أن تقهرها بالقوة؛ ويمكن الملاحظة بأنها تسلس قيادها بالسماح للجريئين بالتغلب عليها بدلاً من الذين يتحركون ببرودٍ. ولذلك فإنها ـ كالمرأة ـ صديقة للشباب، لأنهم اقل حذراً، وأكثر شراسة، ويسيطرون عليها بصفاقة أعظم.
(نيقولو ماكيافيللي، 1469 ـ 1527).

الانقلاب

ينبغي أن لا تكون الجرأة أبداً هي الاستراتيجية وراء كل أعمالك، إذ أنها أداة تكتيكية للاستخدام في اللحظة المناسبة. خطِّط وفكّر سلفاً، واجعل آخر عنصر هو الحركة الجريئة التي ستأتيك بالنصر. وبكلمات أخرى، بما أن الجرأة هي استجابة يتعلمها المرء، فإنها كذلك استجابة تتعلم التحكم بها واستخدامها عندما تشاء. فبقاؤك في الحياة مسلحاً بالصفاقة وحدها سيكون مدعاة للسأم، وقاتلاً أيضاً. إذْ أنك ستزعج

عدداً من الناس زائداً عن الحدّ، كما يُثْبِتُ العاجزون عن السيطرة على جرأتهم. ومنهم لولا مونتيز؛ فصفاقتها جلبت لها انتصارات، وأدّت إلى إغوائها لملك بافارية، ولكن نظراً لعجزها عن لجم جرأتها، فقد أدت تلك الصفاقة أيضاً إلى سقوطها ـ في بافارية، وفي إنكلترا، وفي أي مكان اتجهت إليه. فقد تجاوزت الحدود بين الجرأة ومظهر القسوة، وحتى الجنون. وتعرض إيڤان الرهيب للمصير نفسه: فعندما جاءته قوة الجرأة بالنجاح، لازَمَها والتصق بها إلى حد أصبحت معه نمطاً من العنف والسَّاديَّة لازمه طول حياته (السَّاديَّة هي استقطار اللذة من إيلام الآخرين، وتُنْسَبُ إلى المركيز دي صاد: المترجم).

إن التهيب لا مكان له في عالم السلطة. غير أنك كثيراً ما تستفيد من القدرة على التظاهر به زيفاً. وعندئذ لا يعود تهيباً بالطبع، بل سلاحاً هجوميّاً: إذ أنك تستدرج الناس بتظاهرك بالخجل، وهذا أفضل جداً لتمكينك من الانقضاض عليهم بجرأة فيما بعد.

القانون

29

خطّط طوال الطريق حتى النهاية

الحكم

إن الإنهاء هو كل شيء. فخطِّط طيلة الطريق كله حتى تصل إليه، آخذاً في الحسبان كل العواقب، والعقبات، وتقلبات الحظ المحتملة التي قد تعاكس عملك الجدي الشاق وتعطي المجد للآخرين. وبالتخطيط حتى الختام لن تتغلب عليك الظروف وستعرف متى تتوقف. وَجِّه الحظَّ بلطفٍ، وساعده على البتّ في المستقبل بالتفكير مقدماً وإلى مدى بعيد.

انتهاك القانون

لا يوجد سوى عدد قليل جداً من الرجال القادرين على التفكير والشعور بما هو أبعد من اللحظة الراهنة . وهؤلاء هم الاستثناء ..

كارل فون كلاوز فيتز
1780 ـ 1831

في سنة 1510، أبحرت سفينة من جزيرة هِسْبَانيولا (حالياً هاييتي وجمهورية الدومينيكان) إلى فنزويلا، حيث كانت ستنقذ مستعمرةً إسبانيةً محاصرة. وبعد خروجها من الميناء بعدة أميال، نزل من خزانة المؤن شخص هاربٌ خفية: هو فاسكو نونيز دي بالبوا، نبيل إسبانيّ كان قد جاء إلى الدنيا الجديدة بحثاً عن الذهب، ولكنه غرق في الديون وهرب من دائنيه بالاختباء في الخزانة.

وكان هوس الذهب قد تملّك بالبوا منذ أن عاد كولومبوس إلى إسبانيا من رحلته بقصص عن مملكة خرافية لم تُكْتَشَفْ بَعْدُ، وتُدْعَىٰ إلدورادو. فكان بالبوا واحداً من أوائل المغامرين الذين جاؤوا بحثاً عن أرض الذهب الكولومبوسيّة. وكان قد قرر منذ البداية أنه سيكون الشخصَ الذي يكتشفها عن طريق الصفاقة المحضة والتصميم العنيد. أمّا وقد تحرر من دائنيه، فلن يوقفه شيء.

الضفدعان

سكنت ضفدعان في البركة نفسها، ولكنها جفّت بفعل حرارة الصيف، فتركاها وانطلقتا معاً للبحث عن سكن آخر. وأثناء بحثهما مرّتا صدفةً ببئر عميقة فيها ماء وفير. وعندما شاهدتاها قالت إحداهما للأخرى: «فلننزل ونجعل سكنا في هذه البئر لأنها ستقدم لنا

ولسوء حظه، فإن صاحب السفينة، وهو قاضٍ غنيٌّ يدعى فرانسيسكو فرنانديز دي إنصيصو، ثارت ثائرته عندما علم بخبر الراكب الهارب، وأمر بترك بالبوا على أول جزيرة يمرّون بها. غير أنهم قبل أن يعثروا على أي جزيرة تلقى إنصيصو خبراً بأن المستعمرة التي كان عليه أن ينقذها قد هُجِرَتْ. فكانت هذه فرصة بالبوا. فأخبر البحارة عن رحلاته السابقة إلى بنما وعن الإشاعات التي سمعها عن وجود الذهب

في تلك المنطقة. فأقنع البحارة المتحمسون إنصيصو بالإبقاء على حياة بالبوا، وبتأسيس مستعمرة في بنما. وبعد أسابيع أطلقوا على مستوطنهم الجديدة اسم «دارْيِينْ».

المأوى والغذاء»، فردت عليها الأخرى بحذرٍ أكبر: «ولكن افترضي أن الماء قد خذلنا، فكيف سنخرج عندئذٍ من مثل هذا العمق الكبير؟».

لا تفعل شيئاً دون النظر في العواقب.

خرافات
إيسوب، القرن السادس قبل الميلاد

وكان أول حاكم لداريين هو إنصيصو. ولكن بالبوا لم يكن بالرجل الذي يدع الآخرين يسرقون زمام المبادرة. فشن حملة ضد إنصيصو في أوساط البحارة، الذين أوضحوا في خاتمة الأمر أنهم يفضلون بالبوا كحاكم. فهرب إنصيصو إلى إسبانيا خوفاً على حياته. وبعد شهور، عندما وصل ممثل للتاج الإسباني ليثبّت نفسه بصفته حاكماً رسمياً جديداً لداريين، أُعيد من حيث أتى. وفي رحلة عودته إلى إسبانيا غرق هذا الرجل، وكان غرقه حادثاً مفاجئاً. ولكن بموجب القانون الإسباني، فإن بالبوا قد اغتال الحاكم واغتصب منصبه.

وكان تبجح بالبوا بالشجاعة قد أنقذه من الورطات والمآزق في الماضي. أما الآن فقد بدا أن أحلامه بالثروة والمجد قد حكم عليها بالإخفاق. فلكي يضع يده على إلدورادو ـ هذا إذا اكتشفها ـ فسيكون بحاجة إلى موافقة الملك الإسباني، وهي موافقة لن يحصل عليها قطّ باعتباره خارجاً عن القانون. فكان هناك حلّ واحد فقط. فقد أخبر الهنود البَنَميّون بالبوا عن محيط شاسع على الجانب الآخر لبرزخ أميركا الوسطى، وقالوا له إنه إذا اتجه إلى الجنوب على هذا الساحل الغربيّ، فسوف يصل إلى أرض الذهب الخرافية، التي أطلقوا عليها اسماً رَنَّ في أذنيه بما يشبه «بيرو». فقرر بالبوا أن يعبر غابات بنما الغدّارة ليصبح أول أوروبي تستحم قدماه في هذا المحيط الجديد. ومن هناك سيزحف إلى إلدورادو. فإن فعل ذلك نيابة عن إسبانيا، فسوف يكسب عرفان الملك إلى الأبد ويؤمّن إنقاذ نفسه ـ فكان عليه فقط أن يتحرك ويعمل قبل أن تأتي السلطات الإسبانية لاعتقاله.

وهكذا انطلق بالبوا في سنة 1513، مع مائة وتسعين جندياً. وفي منتصف الطريق عَبْرَ البرزخِ (الذي كان عرضه حوالى تسعين ميلاً عند

تلك النقطة)، لم يبق معه سوى ستين جندياً، إذْ سقط معظمهم ضحية الأحوال القاسية ـ من الحشرات المصاصة للدماء، إلى الأمطار الغزيرة كالسيول الجارفة، والحمّى. وأخيراً، من على قمة جبل أصبح بالبوا أولَ أوروبيّ تقع عيناه على المحيط الهادي. وبعد أيام زحف بدرعه إلى داخل مياهه، رافعاً علم قشتالة، ومدعياً ملكيّة كلّ بحاره، وأراضيه، وجزره باسم التاج الإسبانيّ.

انظر إلى النهاية، مهما كان الشيء الذي تفكر فيه. فكثيراً ما يعطي الله رجلاً مّا لمحة من السعادة، ومن ثم يدمّره تدميراً تاماً.

التواريخ
هيرودوتس، القرن الخامس قبل الميلاد

واستقبل هنود المنطقة بالبوا بهدايا من الذهب والجواهر واللآلىء النفيسة التي لم يَرَ مثلها في حياته. وعندما سألهم من أين جاءت تلك الهدايا، أشاروا إلى الجنوب، إلى أراضي قبائل الإِنْكَا. ولكن بالبوا لم يكن قد بقي لديه سوى عدد ضئيل من الجنود. فقرر أن يعود مؤقتاً إلى داريين، وأن يرسل الجواهر والذهب إلى إسبانيا كبادرة حسن نية، ويطلب جيشاً كبيراً لمساعدته على غزو إلدورادو.

وعندما وصلت أخبار عبور بالبوا الجريء للبرزخ، واكتشافه للمحيط الغربيّ، وغزوه المزمع لإلدورادو، صار المجرم السابق بطلاً. فتمَّ تنصيبه على الفور حاكماً للأرض الجديدة. ولكن قبل وصول خبر اكتشافه هذا، كان الملك والملكة قد أرسلا (دزينةً) من السفن الحربية، تحت إمرة رجل يدعى بيدرو آرياس دافيلا (بيدرارياس) ومعه أوامر بالقبض على بالبوا بتهمة القتل، وبأن يتولى دافيلا حكم المستعمرة. وما إن وصل إلى بنما حتى علم بأنه قد تمَّ العفو عن بالبوا، وأن عليه أن يتقاسم حكم المستعمرة مع المجرم السابق الخارج على القانون.

هناك حديث نبوي شريف عن الرجل يعيش حياة سعيدة طويلة فيُغْمَسُ في جهنم غمسةً واحدةً يوم القيامة ثم يُخْرَجُ منها فيُسْأَلَ: «هل رأيت نعيماً قطّ؟» فيقول: لا! والرجل يعيش حياة مليئة بالألم والعذاب فيُغْمَسُ في الجنّة غمسةً واحدةً يوم القيامة، ثم يُخْرَجُ منها فيُسْأَلَ: «هل رأيت بؤساً قطّ؟» فيقول: لا! ويقول الإمام عليّ كرّم الله وجهه: «الغنى والفقر... بعد العرض على الله!».

[المترجم]

ومع ذلك فقد شعر بالبوا بالقلق. كان الذهب هو حلمه، وإلدورادو هي رغبته. وفي متابعة هذا الهدف كاد يموت مرَّات كثيرة. ولم يكن يطيق أن يتقاسم الثروة والمجد مع قادم جديد. كما أنه سرعان ما اكتشف أن بيدرارياس رجل غيور مرير، وغير سعيد بهذا الوضع مثله. ومرَّة أخرى، كان الحلّ الوحيد أمام بالبوا هو الإمساك بزمام المبادرة باقتراح عبور الغابة بجيش أكبر من ذي قبل، يحمل الأدوات والمواد لبناء

الملك، والصوفي، والجرّاح
يحكى أن ملك بلاد التتر في قديم الزمان خرج يتمشى مع بعض رجاله النبلاء. وكان على جانب الطريق رجل من الأبدال (صوفي متجوّل) [بل

السفن. وعند الوصول إلى ساحل المحيط الهادي سيخلق أسطولاً ضخماً (أرمادا) يغزو به الإنكا. ولدهشته الكبيرة، وافق بيدرارياس على الخطة ـ ولعلَّه أحسَّ بأنها لن تنجح قطّ. ومات كثيرون من الرجال خلال هذا الزحف الثاني عبر الغابة. وتعفَّن الخشب الذي كانوا يحملونه في الأمطار الجارفة. وكالمعتاد، فإن ذلك لم يُخِفْ بالبوا ـ فلن تستطيع أي قوة في العالم أن تحبط خطته. وعندما وصل إلى المحيط الهادي بدأ بقطع الأشجار للحصول على أخشاب جديدة. ولكن الرجال الذين بقوا له كانوا أقل وأضعف من أن يشنوا غزواً. ومرَّة أخرى اضطرَّ بالبوا إلى العودة إلى دارين.

وعلى أية حال، كان بيدرارياس قد دعا بالبوا للعودة كي يناقش معه خطة جديدة. وفي ضواحي المستوطنة، لقيه فرانسيسكو بيزارو، صديقه القديم الذي صحبه في العبور الأول للبرزخ. ولكن ذلك كان فخّاً: كان بيزارو على رأس مائة جندي، فطوَّق صديقه السابق وألقى القبض عليه وأعاده إلى بيدرارياس، الذي حاكمه بتهمة التمرد. وبعد بضعة أيام، سقط رأس بالبوا في سلَّة، ومعه رؤوس أكبر أتباعه الموثوقين. وبعد سنوات، وصل بيزارو نَفْسُهُ إلى بيرو. وابتلع النسيان أعمال بالبوا.

التفسير

معظم الرجال تحكمهم قلوبُهم، لا رؤوسُهم. فخططهم غامضة، وعندما يواجهون عقبات، يرتجلون لها حلولاً ملفَّقة كيفما اتفق. ولكن الارتجال لن يزيد على إيصالك إلى الأزمة التالية، وهو ليس أبداً بديلاً للتفكير سلفاً بعدة خطوات، وللتخطيط حتى النهاية.

كان بالبوا يحلم بالمجد والثروة، ولديه خطة غامضة لتحقيق حلمه. ومع ذلك فإن أعماله الجريئة، واكتشافه للمحيط الهادي، قد نُسِيتْ إلى حدٍّ كبير، لأنه ارتكب ما يعرف في عالم السلطة بالخطيئة النهائية العظمى: فقد قطع جزءاً من الطريق، تاركاً الباب مفتوحاً لآخرين

الأبدال جماعة من الصوفية، مقامهم دون مقام القطب أو الولي، وعددهم أربعون لا تخلو منهم الأرض، فكلما مات واحد منهم حلّ محله آخر، حتى يلقوا الله وهم ثابتون على إيمانهم، ويقال إنهم ـ أو جلّهم ـ في بلاد الشام: المترجم] فصاح البدل: «من يعطيني منكم مائة دينار فأقدم له نصيحة طيبة» فتوقف السلطان وقال: «ما هذه النصيحة الطيبة التي ثمنها مائة دينار، أيها البدل؟» فأجاب: «أيها السيد، مُرْ بدفع المال إليّ وسأعرفك بها على الفور». ففعل الملك وهو يتوقع أن يسمع شيئاً خارقاً للعادة فقال الدرويش: «نصيحتي هي هذه: لا تبدأ شيئاً إلاّ بعد أن تفكّر فيما ستكون نهايته». وعندئذ ضحك النبلاء والحاضرون جميعاً. قائلين إن البدل كان حكيماً عندما طلب المال سلفاً. ولكن الملك قال لهم: «ليس لديكم سبب للضحك على النصيحة الطيّبة التي قدّمها لي هذا البدل. فلا أحد يجهل حقيقة أننا ينبغي أن نفكر جيداً قبل أن نشرع في أي عمل. ولكننا مذنبون يومياً بعدم تذكر ذلك، والعواقب وخيمة. إنني أقدر نصيحة هذا الدرويش تقديراً عالياً».

وقرر الملك أن يبقي تلك النصيحة ماثلة في ذهنه على الدوام. وأمر بأن تكتب بماء الذهب على الجدران، بل وأن تُحْفَرَ حفراً على طبقه الفضّيّ. ولم يمض طويل وقت بعد ذلك حتى رغب متآمرٌ في قتل الملك. فقدم رشوةً وعدٍ بالتعيين في

كي يتولّوا الأمور. إن رجل السلطة الحقيقي كان سيملك من التعقل ما يجعله يرى الأخطارَ على مبعدة قبل الوصول إليها ـ والمنافسين الذين سيرغبون في مشاطرته غزواته، ونسورَ الجيف التي ستحوم حوله عند سماع كلمة «ذَهَبٍ». لقد كان على بالبوا أن يبقي معرفته بالإنكا سرّاً إلى ما بعد غزوه لبيرو. إذ أن ثروته، ورأسه، لن يكونا سليمين إلاّ عندئذٍ. أما وقد وصل بيدرارياس إلى المسرح، فإن أي رجل سلطةٍ وتَعَقُّل كان سيخطّط لقتله أو لحبسه، والسيطرة على الجيش الذي جاء به لغزو بيرو. ولكن بالبوا كان منغلقاً على نفسه في متطلبات كل لحظة بلحظتها، ويتصرَّف دائماً بردود فعل عاطفية، دون أن يفكِّر بشكل مسبق على الإطلاق.

ما الفائدة من امتلاك أعظم حُلُمٍ في العالم، إذا حَصَدَ الآخرون الفوائد والأمجاد؟ إياك وفقدان رأسك على حُلمٍ غامض مفتوح النهايات. خطِّط إلى النهاية.

منصب رئيس الوزراء للجراح الملكي إذا غرس مبضعاً مسموماً في ذراع الملك. وعندما حان وقت فصد الملك، جيء بإناء فضّي لتلقي الدم المفصود. وفجأة انتبه الجرّاح إلى الكلمات المحفورة عليه: «لا تبدأ شيئاً إلاّ بعد أن تفكر فيما ستكون نهايته». وعندئذ فقط أدرك أن المتآمر إذا صار ملكاً فإنه سيأمر بقتل الجراح حالاً، وعندئذٍ لن يكون مضطراً للوفاء بالتزامه في الصفقة. وعندما رأى الملكُ الجراحَ يرتجف سأله عمّا دهاه. وهكذا اعترف بالحقيقة في تلك اللحظة نفسها. فأُلقي القبض على المتآمر. وأرسل الملك في استدعاء جميع الذين كانوا حاضرين عندما قدم له البدلُ النصيحةَ، وقال لهم: «ألا تزالون تضحكون من الدرويش؟».

قافلة الأحلام
إدريس شاه،
1968

مراعاة القانون

في سنة 1863، قام رئيس وزراء بروسيا، أوتو فون بسمارك، باستعراض رقعة شطرنج القوى الأوروبية كما كانت عليه آنذاك. وكان اللاعبون الرئيسيون هم إنكلترا، وفرنسا، والنمسا. وكانت بروسيا نفسها واحدة من دول عديدة في الاتحاد الألماني المهلهل التحالف. وكانت النمسا، العضو المهيمن على التحالف، حريصة على إبقاء الدويلات الألمانية الأخرى ضعيفة، ومنقسمة، وخاضعة. وكان بسمارك يؤمن أن من المقدَّر لبروسيا أن تكون شيئاً أعظم بكثير من مجرَّد صبي خادم للنمسا.

وقد مارس بسمارك اللعبة بهذه الطريقة: كانت حركته الأولى هي شن حرب على الدانمرك الضعيفة المتواضعة لاستعادة الأراضي البروسية السابقة في شيلزفيغ ـ هولشتاين. وكان يعلم أن دمدمات الاستقلال

البروسية هذه قد تقلق فرنسا وإنكلترا، وهكذا جنَّد النمسا وأشركها في الحرب زاعماً أنه يستعيد شيلزفيغ ـ هولشتاين لمصلحة النمسويين. وفي غضون أشهر قليلة حُسِمَت الحرب. فطالب بسمارك بجعل الأراضي المفتوحة حديثاً جزءاً من بروسيا. فثارت ثائرة النمسويين بالطبع، ولكنهم توصلوا إلى تسوية، فوافقوا أولاً على إعطاء شيلزفيغ للبروسيين، وبعد سنة باعوهم هولشتاين. فبدأ العالم يرى أن النمسا آخذة في الضعف وأن بروسيا آخذة في الصعود.

وكانت حركة بسمارك التالية هي الأجرأ: ففي سنة 1866، أقنع ملكَ بروسيا، وليام، بالانسحاب من الاتحاد الألماني، وبأن يشن الحرب بعمله هذا على النمسا نفسها. وأبدت زوجة الملك وليام، وابنه ولي العهد، وأمراء الممالك الألمانية الأخرى، معارضةً عنيفةً لمثل هذه الحرب. ولكن ذلك لم يخوِّف بسمارك، الذي نجح في فرض النزاع، فتغلَّب جيش بروسيا المتفوِّق على النمسويين في حرب الأسابيع السبعة الوحشية القصيرة. وعندئذ أراد الملك والجنرالات البروسيون أن يزحفوا إلى ڤيينا، وأن يستولوا على أكبر مساحة ممكنة من أراضي النمسا. ولكن بسمارك أوقفهم ـ وقدَّم نفسه على أنه مؤيِّد للسلام. وكانت النتيجة أنه استطاع أن يعقد معاهدة مع النمسا تمنح بروسيا والدويلات الألمانية الأخرى حكماً ذاتياً تاماً وكلِّياً. وعندئذٍ تمكَّن من فرض بروسيا في مركز القوة المسيطرة في ألمانيا وعلى رأس اتحاد كونفدرالي جديد تكوَّن في شمال ألمانيا.

إن مَنْ يسأل العرافين عن المستقبل إنما يتخلى من غير قصد منه عن حدسٍ داخلي بالأحداث القادمة هو أدقّ وأضبط بألوف المرّات من أي شيء قد يقوله له المنجمون.

والتر بنيامين
1892 ـ 1940

وبدأ الفرنسيون والإنكليز يقارنون بسمارك بآتيلا، زعيم قبائل الهون الجرمانية القديمة، ويخشون أن تكون لديه مخطَّطات تآمرية على أوروبا كلها. فعند بدء سيره على طريق الغزو، لم يعد أحد قادراً على معرفة أين سيتوقَّف. وبالفعل فقد أثار بسمارك حرباً مع فرنسا بعد ذلك بثلاثة أعوام. فقد بَدَا أولاً وكأنه يعطي الإذن بإلحاق بلجيكا بفرنسا، ثم غيَّر رأيه في اللحظة الأخيرة. وراح يلعب لعبة القط والفأر حتى أثار ثائرة

الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث، وحرَّض ملكه هو ضد الفرنسيين. ولم يستغرب أحد عندما اندلعت الحرب في سنة 1870. فانضم الاتحاد الألماني الحديث التكوين إلى الحرب على فرنسا بحماس. ومرة أخرى حطَّمت آلةُ الحرب البروسية وحلفاؤها جيشَ العدو في غضون أشهر. ورغم أن بسمارك كان يعارض احتلال أي أرض فرنسية، فقد أقنعه جنرالاته بأن الألزاس ـ اللورين ستصبح جزءاً من الاتحاد.

وعندئذٍ بدأت أوروبا كلها تخشى من الحركة التالية للوحش البروسي، الذي يقوده بسمارك، «المستشار الحديدي». والواقع أن بسمارك أسَّس الإمبراطورية الألمانية بعد ذلك بعام، وتوّج ملك بروسيا إمبراطوراً، وصار بسمارك نفسُه أميراً. ولكن حدث بعدئذٍ شيء غريب: فلم يعد بسمارك يثير مزيداً من الحروب. وبينما كانت القوى الأوروبية الأخرى تختطف الأراضي للاستعمار في قارات أخرى، فقد قيَّد اكتسابَ ألمانيا للمستعمرات تقييداً قاسياً. إذ أنه لم يكن يريد مزيداً من الأراضي لألمانيا، بل مزيداً من الأمن. وظل طيلة حياته الباقية يناضل للحفاظ على السلم في أوروبا ولمنع المزيد من الحروب. وافترض الجميع أنه قد تغيَّر، ولطفت حدَّته سنواتُ التقدُّم في العمر. لقد فشلوا في فهمه. فقد كانت تلك آخر حركة في خطته الأصلية.

التفسير

هناك سبب بسيط يجعل معظم الناس لا يعرفون متى يتوقفون عن الهجوم. فهم لا يكوّنون فكرة ملموسة عن هدفهم. فما أن يحققوا نصراً حتى تنفتح شهيتهم للمزيد. ويكاد التوقف ـ أي استهداف هدفٍ مَّا تم الالتزام به والتوقف عنده ـ يكون شيئاً غير إنساني في الواقع. إن الشخص الذي يذهب إلى أبعد من اللازم في انتصاره يخلق ردَّ فعل يؤدي إلى الأفول بشكل محتوم. والحل الوحيد هو التخطيط للمدى البعيد. فَتَنَبَّأْ بالمستقبل بوضوح يعادل وضوح نبوءات الآلهة على جبل الأولمب، الذين ينظرون من خلال الغيوم فيرون نهايات كل الأشياء.

لقد كان لبسمارك هدف واحد منذ بداية حياته العملية: هو تشكيل دولة ألمانية مستقلة تقودها بروسيا. فقد أثار الحرب مع الدانمرك لا لغزو الأراضي، بل لتحريك القومية البروسية وتوحيد البلاد. ولم يحرض على الحرب مع النمسا إلاً ليكسب الاستقلال البروسي. (ولهذا رفض الاستيلاء على أراضٍ نمسوية). وأثار الحرب مع فرنسا ليوحِّد الممالك الألمانية ضد عدوٍّ مشترك، ومن ثم ليهيِّىء لتشكيل ألمانيا موحدة.

وما إن تحقق ذلك حتى توقف بسمارك. فلم يدع النصر يدير رأسه، ولم يخضع لإغراء المناداة بالمزيد، بل أمسك باللجام بإحكام، وكلما طالب الجنرالات، أو الملك، أو الشعب البروسي بفتوحات جديدة، كان بسمارك يصدّهم. إذْ أنه لم يُرِدْ أن يسمح لشيء بإفساد جمال ما حَقَّقَ، ولم يرد أن يأتي هذا الإفساد بالتأكيد عن طريق الخِفّة التي كانت تدفع مَنْ حَوْلَهُ إلى محاولة تجاوز الغاية التي خطّط لها بكل تلك العناية.

> تُبيِّن التجربةُ أن المرء إذا استشف من بعيدٍ الخططَ التي سيتم الاضطلاع بها، فإنه يستطيع التصرف بسرعة عندما تحين لحظة تنفيذها.
>
> (الكردينال ريشيليو 1585 ـ 1642)

مفاتيح السلطة

حسب علم الكونيّات عند الإغريق الأقدمين، كان من المعتَقَد أن الآلهة لديهم رؤية كاملة في أعماق المستقبل، فكانوا يرون كل ما هو قادم، تماماً حتى التفاصيل الدقيقة. أما البشر، من جهة أخرى، فكان يُنْظَرُ إليهم على أنهم ضحايا القدر، محبوسون في لحظتهم الآنيّة وفي عواطفهم، عاجزون عن رؤية ما هو أبعد من الأخطار الداهمة. أما الأبطال ـ مثل أوديسوس ـ الذين استطاعوا أن ينظروا إلى ما يتجاوز الحاضر، وأن يخططوا لعدة خطوات سلفاً، فقد بَدَوْا كأنهم يَتَحَدَّوْنَ

القدرَ، ويقاربون الآلهة في قدرتهم على البتّ في المستقبل. ولا تزال هذه المقارنة صحيحة ـ إذ إن الذين يخططون من بيننا بصورة مسبقة، ويصبرون حتى تثمر خططهم يبدون وكأنهم يملكون سلطة شبه إلهية.

ونظراً لأن معظم الناس حبيسون في لحظتهم الآنيّة بحيث لا يخططون بهذا النوع من بعد النظر، فإن القدرة على تجاهل الأخطار والمسرّات المباشرة تترجم إلى سلطة. إنها سلطة القدرة على التغلب على ميل البشر إلى إبداء رد الفعل تجاه الأشياء عند حدوثها. وسلطة تمرين المرء نفسه بدلاً من ذلك على الابتعاد إلى الوراء، وتخيل أشياء أكبر تتشكل فيما وراء رؤية المرء المباشرة. فمعظم الناس يعتقدون أنهم واعون بالمستقبل في الواقع، وأنهم يخططون ويفكّرون بشكل مسبق. غير أنهم واهمون في ذلك في العادة. فما يفعلونه في الحقيقة هو الاستسلام لرغباتهم، ولما يريدون أن يكون عليه المستقبل. فخططهم غامضة، ومبنيّة على تخيلاتهم بدلاً من واقعهم. وقد يعتقدون أنهم يفكّرون على طول الطريق حتى النهاية، ولكنهم في الحقيقة لا يركزون إلاّ على لمسة الختام السعيد، فيخدعون أنفسهم بقوة رغبتهم.

في سنة 415 ق .م، هاجم الأثينيون القدامى صقلية، معتقدين أن حملتهم ستأتيهم بالثروة، والسلطة، والإنهاء السعيد للحرب البيلبونيزية التي كانت قد طالت ستة عشر عاماً حتى ذلك الحين. فلم يفكروا في أخطار قيامهم بغزو بعيد عن وطنهم إلى هذه الدرجة؛ ولم يتنبأوا بأن الصقليين سيقاتلون بطريقة أشرس من المتوقع بكثير لأن المعارك تدور في وطنهم، ولا بأن جميع أعداء أثينا سيتحدون ضدهم، ولا بأن الحرب ستندلع على جبهات عديدة، تجعل توزيع قواتهم واهياً ورقيقاً بصورة مفرطة. وهكذا كانت الحملة الصقلية كارثة كاملة، أدت إلى تدمير واحدة من أعظم الحضارات في التاريخ كله. وقد جرّت الأثينيين قلوبُهم

إلى هذه الكارثة، وليس عقولهم. فلم يروا سوى فرصة المجد، وليس الأخطار التي كانت تلوح في الأفق.

وقد حلل هذه الظاهرةَ الكردينالُ رِيتْزْ الفرنسي الذي عاش في القرن السابع عشر، وكان يفتخر برؤيته المعمقة للخطط الإنسانية ولماذا تفشل في معظم الحالات. وفي سياق تمرد تَزَعَّمَهُ ضد الملكية الفرنسية سنة 1651، كان الملك الشاب لويس الرابع عشر قد غادر باريس مع بلاطه فجأةً، واستقر في قصر خارج العاصمة. فقد كان وجود الملك قريباً من قلب الثورة إلى هذا الحدّ عبئاً هائلاً على الثوار، فتنفسوا الصعداء. غير أن ذلك قد ثبت أنّ فيه سقوطهم، إذْ أن غياب البلاط من باريس أعطاه مجالاً للمناورة أكبر بكثير من ذي قبل. وقد كتب الكردينال دي ريتْزْ فيما بعد: «إن أكثر الأسباب شيوعاً لأخطاء الناس في العادة هو خوفهم من الخطر الراهن، وعدم خوفهم بما فيه الكفاية من الخطر البعيد».

وكم من الأخطاء نتجنبها إذا استطعنا أن نرى الأخطار البعيدة التي تلوح في الأفق وهي آخذة في التشكل. وكم من الخطط سنجهضها في الحال إذا أدركنا أننا لا نتفادى خطراً صغيراً إلاّ لنقع في خطر أكبر منه. إن الجزء الأكبر من السلطة لا يكمن فيما تفعله، بل فيما لا تفعله. ـ في الأعمال المتهورة والحمقاء التي تمتنع عنها قبل أن توقعك في المتاعب. فخطّطْ بالتفصيل قبل أن تتصرف ـ ولا تدع الخطط الغامضة تودي بك إلى المتاعب. هل ستؤدي هذه الخطة إلى عواقب غير مقصودة؟ هل سأثير ضدي أعداءاً جديدين؟ هل سيستفيد شخص آخر من جهودي؟ إن الخواتيم غير السعيدة أكثر شيوعاً من السعيدة ـ فلا تجعل هواك مع الخاتمة السعيدة التي يتخيلها ذهنك يميل برأيك ويسيطر عليك.

لقد تحولت انتخابات سنة 1848، في فرنسا إلى صراع بين لويس آدولف ثيير، رجل النظام، والجنرال لويس يوجين كافيناك، مثير الرعاع

اليمينيّ. وعندما أدرك ثيير أنه متخلف بشكل لا أمل معه في هذا السباق المرتفع الثمن، بحث بشكل يائس عن حل. فوقعت عينه على لويس بونابرت، حفيد شقيق الجنرال العظيم نابليون، ونائب متواضع في البرلمان. وكان هذا البونابرت يبدو أن فيه شيئاً من البَلَه. ولكن اسمه وحده يستطيع أن يجعله يفوز في الانتخابات في بلد متشوّق إلى حاكم قوي. فسوف يصبح دميةً في يدي ثِيِيرْ، ثم يقذف به خارج المسرح في آخر الأمر. وقد نجح الجزء الأول من الخطة نجاحاً كاملاً... وتم انتخاب لويس بونابرت بأغلبية كبيرة. وكانت المشكلة هي أن ثيير لم يتنبأ بحقيقة بسيطة واحدة: هي أن ذلك «الأبله» كان رجلاً له طموح هائل. فبعد ثلاثة أعوام حلّ البرلمان، وأعلن نفسه إمبراطوراً، وحكم فرنسا ثمانية عشر عاماً أخرى، مما أرعب ثِيِيرْ وحزبه.

إن الإنهاء هو كل شيء. إنّ نهاية العمل هي التي تقرر من سيحصل على المجد، والمال، والجائزة. فاختتامك لعملك يجب أن يكون شفاف الوضوح، وعليك أن تبقي ذلك ماثلاً في ذهنك. كما أن عليك أن تفكر في كيفية إبعاد نسور الجيف التي تحوم فوق رأسك، محاولةً أن تقتات على جثةٍ من صنعك. وعليك أن تتوقع سلفاً الأزمات الكثيرة المحتملة التي قد تغريك بالارتجال. وقد تغلب بسمارك على هذه الأخطار لأنه كان يخطط حتى النهاية، ويبقى سائراً على خطّه وفي طريقه المرسوم خلال كلّ أزمة، ولم يسمح للآخرين قطّ أن يسرقوا المجد. وعندما كان يصل إلى هدفه، كان يتراجع إلى داخل قوقعته كالسلحفاة. فهذا النوع من ضبط النفس شبه إلهي.

عندما ترى عدة خطواتٍ مسبقاً، وتخطّط تحركاتك طوال الطريق حتى النهاية، فلن تعود معرضاً لإغراء عاطفتك أو للرغبة في الارتجال. فوضوحك يخلّصك من القلق والغموض اللذين هما السببان الأوّليّان لفشل كثيرين في إيصال أعمالهم إلى خاتمة ناجحة. إنك إذا رأيت الاختتام فإنك لن تتسامح مع أي انحراف.

صورة:
الآلهة على جبل
الأوليمب ينظرون إلى أعمال
البشر من على الغيوم. وهم يرون
سلفاً نهايات جميع الأحلام التي تؤدي إلى
الكارثة والمأساة. ويضحكون على عجزنا عن رؤية
ما وراء اللحظة الآنية، وعلى الكيفية التي نضلّل بها أنفسنا.

الشاهد: إن عدم الدخول أبداً من الأصل أسهل بكثير من إخراج نفسك! إن علينا أن نتصرف على عكس القصبة، التي ترفع بداية ظهورها ساقاً مستقيمة ولكنها فيما بعد، وكأنها أنهكت... تصنع عدة عقود كثيفة، مشيرة بذلك إلى أنها لم تعد تملك قوتها واندفاعها الأصليّين. فينبغي علينا أن نبدأ بلطف وبرود، موفرين جهدنا للمواجهة، وطعناتنا القوية لإنهاء المهمة. فالأمور في بداياتها تخضع لتوجيهنا وتقع تحت سيطرتنا، غير أنها عندما تنطلق في حركتها كثيراً ما تكون هي التي تقودها وتكتسحنا في مسارها (مونتين، 1533 ـ 1592).

الانقلاب

من المقولات المكررة بين المخطِّطين الاستراتيجيين أن خطتك يجب أن تشمل بدائل وأن تحتوي على قدر من المرونة. وهذا صحيح بالتأكيد. فإذا انحبست في خطة بشكل متزمت مفرط الجمود، فإنك ستعجز عن التعامل مع تقلبات الحظ المفاجئة. فعند تفحصك لاحتمالات المستقبل والبتّ في هدفك، يتعين عليك أن تبني البدائل وتفتح طرقاً جديدة نحو ذلك الهدف.

غير أن معظم الناس يخسرون من الإفراط في التخطيط ومن الجمود أقل مما يخسرونه بسبب الغموض والميل إلى الارتجال باستمرار

في مواجهة الظروف. فليس هناك من غرض حقيقي من التفكير في انقلاب يعكس تَوَجُّهَ هذا القانون، لأنه لا يمكن أن يأتي أي خير من رفض التفكير المسبق في المستقبل ببعد نظر، والتخطيط حتى النهاية. فإن كان تفكيرك واضحاً وبعيد النظر بما فيه الكفاية، فسوف تفهم أن المستقبل غير مؤكد ولا مضمون، وأن عليك أن تكون مستعداً للتكيف منفتحاً عليه. ولا يتيح لك هذه الحرِّيَّة إلاَّ هدفٌ واضح وتخطيط بعيد المدى.

القانون

30

اجعل منجزاتك تبدو بلا جهد

الحكم

ينبغي أن تبدو أعمالُكَ طبيعيةً، ومنفذةً بيسرٍ وراحةٍ. ويجب إخفاء كل الكدح والخبرة العملية الداخلة في تلك الأعمال، وكذلك الحيل البارعة. فعندما تتصرف، تصرف سهواً رهواً بلا جهد وكأن باستطاعتك أن تفعل أكثر من ذلك بكثير. تجنب إغراء الكشف عن مدى المشقة الجادّة التي تتجشّمها في عملك ـ لأن ذلك لا يزيد على إثارة التساؤلات. ولا تعلِّم حيلك أحداً من الناس، وإلاّ فإنها سوف تُسْتَخْدَمُ ضدك.

مراعاة القانون الأولى

لحفلة الشاي اليابانية المسماة «تشا ـ نو ـ يو» (الماء الحار للشاي) أصولٌ عريقةٌ في العصور القديمة. ولكنها وصلت إلى أوج رقّتها وصفائها في القرن السادس عشر، في أيام أشهر ممارسيها، صَنْ نُو رِيكْيُو. فعلى الرغم من عدم تحدره من عائلة نبلاء، فإنه صعد إلى سلطة عظيمة، فأصبح أستاذ الشاي المفضل للإمبراطور هيديوشي، ومستشاراً هاماً في القضايا الجمالية، وحتى السياسية. وبالنسبة لريكيو كان سر النجاح يتكون من الظهور بشكل طبيعي، وإخفاء المرء الجهدَ الكامن وراء عمله.

وذات يوم ذهب ريكيو وابنه إلى بيت أحد معارفه من أجل حفلة شاي. وفي طريقهما إلى الدخول، لاحظ الابن أن البوابة الجميلة التي تبدو عليها سيماء العراقة على مدخل بيت مضيفهما تعطي انطباعاً موحياً بالوحدة الموحشة. فقال الأب: «لا أعتقد ذلك، بل تبدو وكأنها جُلِبَتْ من معبد جبلي في مكان ناءٍ، وأن العمل الذي تطلبه جلبها لا بد أن يكون قد كلّف كثيراً من المال». فإذا كان صاحب البيت قد وضع هذا القدر من الجهد في بوابة واحدة، فسيظهر ذلك في حفلة الشاي عنده ـ وبالفعل اضطر صن نو ريكيو إلى مغادرة الحفلة في وقت مبكر، لعدم قدرته على تحمل التصنع، والجهد المتكلف الذي تكشفت عنه، بلا قصد.

كَانُو تانْيُو
الفنان الأستاذ

ذات مرة، استدعى دِيث مَاسَامُيونُ الفنانَ تانيو ليزخرف له زوجاً من الستائر الذهبية طولهما سبعة أقدام. فقال الفنان إنه يعتقد أن مخططات بالأبيض والأسود سوف تناسبهما، وعاد إلى بيته بعد أن تمعّن فيهما جيداً. وفي صباح اليوم التالي جاء مبكراً وقد صنع كمية كبيرة من الحبر غمس فيها حدوة حصان كان قد أحضرها معه، ثم شرع يطبعها على إحدى الستارتين بكاملها. ثم رسم عبرها خطوطاً بفرشاة كبيرة. وفي تلك الأثناء حضر ماساميون للتفرج على عمله. فلم يستطع أن يسيطر على انزعاجه، فراح يدمدم: «يا له من خليط فوضوي بغيض!» ثم انفتل يخطو عائداً إلى شقته. فأخبر الخدمُ تانيو أن سيدهم كان في مزاج سيِّء حقاً. فقال الرسّام: «إذن فما كان عليه أن يتفرج وأنا منهمك في

وذات أمسية أخرى، بينما كان ريكيو يتناول الشاي في بيت صديق له، لاحظ أن مضيفه ذهب إلى الخارج وحمل مصباحاً في الظلام، وقطف ليمونة من على شجرة، وجاء بها إلى الداخل. ففُتِنَ ريكيو بهذا العمل. كان المضيف يريد تتبيل طبق سيقدمه. فذهب إلى الخارج بعفوية ليحصل على الليمونة لهذا الغرض. ولكن عندما قدم الرجل الليمونة مع كعكة أوساكا مصنوعة من الرُّز، أدرك ريكيو أنه كان قد خطط لقطف الليمونة من البداية كي يقدمها مع هذه الأفاوية الغالية. فلم تعد الإشارة تبدو عفوية ـ بل كانت طريقة أراد المضيف بها إثبات براعته. وهكذا كشف فجأة وبلا قصد عن مدى المشقة التي تجشمها. وبعد أن رأى ريكيو ما فيه الكفاية، اعتذر بلباقة عن تناول الكعكة، واستأذن وغادر.

وخطَّط الإمبراطور هيديوشي ذات مرة لزيارة ريكيو من أجل حفلة شاي. وفي الليلة التي سبقت وقت مجيئه بدأ الثلج في الهطول. وفكر ريكيو بسرعة، فنشر وسادات وثيرة تنطبق بالضبط على كل واحد من حجارة العبور المؤدية عبر الحديقة إلى منزله. وقبيل الفجر نهض ورأى أن هطول الثلج قد توقف فأزاح الوسادات. وعندما وصل هيديوشي تعجب من الجمال البسيط للمشهد: ـ حجارة العبور التامة الاستدارة، التي لا يعيقها الثلج ـ ولاحظ كيف أنها لا تلفت النظر إلى الطريقة التي حقَّق بها ريكيو ذلك، بل تلفت النظر إلى الإشارة المهذبة ذاتها.

وبعد وفاة صُنْ نُو رِيكْيُو، تركت أفكارُهُ أثراً عميقاً على ممارسة حفلة الشاي. وكان طوكوغاوا شوغون يورينوبو، ابن الإمبراطور العظيم إياسو، تلميذاً لتعاليم ريكيو. وكان لديه في حديقته مصباح حجري صنعه أستاذ شهير. وذات يوم سأل اللورد ساكاي تادا كاتسو إن كان يستطيع أن يأتي ليراه. فردّ يورينوبو بأن ذلك سيشرّفه. وأمر العاملين في حدائقه أن يرتبوا كلَّ شيء من أجل الزيارة. وكان أولئك العاملون يجهلون مفاهيم تشا ـ نو ـ يو، فظنوا أن المصباح الحجري مشوه الشكل، وأن نوافذه أصغر من أن ترضي الذوق الراهن. فطلبوا من عامل

عملي.. بل عليه أن ينتظر حتى ينتهي». ثم تناول فرشاةً أصغر وأجرى بها لمساتٍ هنا وهناك، وبينما كان يفعل ذلك تحولت طبعات حدوة الحصان إلى سرطانات. بينما تحوّلت اللمسات الكبيرة العريضة إلى أَسَل (نبات أوراقه أسطوانية كالقصب). ثم اتجه إلى السّتارة الثانية فرشقها بقطرات من الحبر غطّتها. وعندما أضاف إليها لمسات بفرشاته هنا وهناك تحولت إلى رفوف من السنونو، فوق شجراتٍ من الصفصاف. وعندما رأى ماساميون العمل عند انتهائه، كان فرحه الشديد ببراعة الفنان معادلاً لانزعاجه الشديد عندما لم يستطع أن يفهم البقع على السّاتر.

شانويو ـ حفلة الشاي اليابانية
م. ل. سادلر،
1962

محلي أن يوسع النوافذ. وقبل بضعة أيام من زيارة اللورد ساكاي، كان يورينوبو يطوف في الحديقة. وعندما لاحظ النوافذ المتغيرة انفجر غضبه.. وكان مستعداً لأن يخوزق بسيفه، الأحمقَ الذي دمّر المصباح، فخرّب جماله الكيّس الطبيعي وحطم الغاية المقصودة كلها من زيارة اللورد ساكاي.

غير أنه عندما انفثأت (خَفَّتْ) حدة غضبه، تذكر أنه كان في الأصل قد اشترى اثنين من هذه المصابيح، وأن الثاني كان في حديقته في جزيرة كيشو. فاستأجر سفينة ضخمة لصيد الحِيْتَان بكلفة كبيرة، مع أعظم المجدفين الذين استطاع العثور عليهم، وأمرهم أن يحضروا له المصباح في غضون يومين. وهي مهمة صعبة حسب أفضل الأوصاف. ولكن الملاحين جدفوا ليلاً ونهاراً، وكان من حظهم أن هبت رياح مؤاتية طيبة فوصلوا في الوقت المناسب تماماً. ولسرور يورينوبو الشديد، كان هذا المصباح الحجري أروع من الأول، لأنه ظل واقفاً دون أن يلمسه أحد طيلة عشرين عاماً في خميلة خيزران، فحصل على مظهر عتيق رائع وغطاء رقيق من الطحالب. وعندما وصل اللورد ساكاي في وقت لاحق من ذلك اليوم نفسه، أشعره المصباح بالهيبة والرهبة، إذْ أنه كان أروع مما تصور. وكان رشيقاً ومتحداً مع عناصر الطبيعة من حوله. ولحسن الحظ لم تكن لديه فكرة عن الوقت والجهد اللذين تجشمهما يورينوبو لخلق هذا التأثّر الجليل المتسامي.

التفسير

استاذ المصارعة

كان هناك ذات مرة أستاذ مصارعة يتقن 360 خدعةً وطريقة للإمساك بالخصم. وقد أحب واحداً من تلاميذه بصورة خاصة، فعلمه 359 خدعةً منها على امتداد فترة من الزمن. وبطريقةٍ مّا، لم يصل به إلى الخدعة

عند صُنْ نُو رِيكْيُو، كانت قمة الجمال هي ظهور شيء مّا بشكل طبيعي وكونه رشيقاً بصورة عفوية تكاد تكون صدفة. فمثل هذا الجمال يأتي بدون إنذار ويبدو أنه لم يكلف أي جهد. فالطبيعة تخلق مثل هذه الأشياء بقوانينها وعملياتها الخاصة بها. ولكن البشر مضطرون إلى خلق تأثيراتهم عن طريق العمل والتدبير المفتعل. وعندما يكشفون الجهد الذي تجشموه لخلق التأثير، كان ذلك يفسد التأثير. فالبوابة جاءت من

مكان بعيد مفرط البعد، وقطف الليمونة بدا متكلفاً متصنعاً.

كثيراً ما يتعين عليك أن تستخدم الحيل وبراعة الإبداع لخلق تأثيراتك ـ كالوسائد في الثلج، والرجال الذين يجدفون بلا كلل طوال الليل ـ ولكن يجب أن لا يشكّ جمهورُك في الجهد أو التفكير الداخلَيْن في إنتاج تلك التأثيرات. فما يقلد الطبيعة بالظهور بمظهر الشيء الذي لا جهد فيه فإنه يقرب في قوته مما تبلغه الطبيعة.

مراعاة القانون الثانية

ذات مرة أعلن فنان الإفلات الكبير هاري هوديني عن عمله بوصفه «الممكن المستحيل» (وهذا يشبه ما يسميه العرب: السهل الممتنع ـ المترجم). والحق أن الذين شهدوا عمليات إفلاته الدراميَّة المفاجئة كانوا يشعرون أن ما يفعله على المسرح يناقض الأفكار البديهية المعروفة عن الطاقة البشرية.

وذات مساء في سنة 1904، كان جمهور من 4000 متفرج يملأ صالة المسرح لمشاهدة هوديني يقبل تحدياً: هو الإفلات من زوجٍ من القيود وُصِفَت بأنها أقوى الأغلال التي اْختُرِعَتْ. كان فيهما ستّ مجموعات من الأقفال، وتسع رِيَشٍ تطوق كل معصم؛ وكان صانعٌ من برمنغهام قد أمضى خمسة أعوام في تركيبها. وقال الخبراء الذين فحصوها إنهم لم يروا من قبل شيئاً بمثل ذلك التعقيد قطّ، وإن ذلك التعقيد كان يجعل الإفلات منها مستحيلاً باعتقاد أولئك الخبراء.

وراقب الجمهورُ الحاشدُ الخبراءَ وهم يثبون الأغلال في رسغي هوديني، ثم دخل فنان الإفلات خزانةً سوداء على المسرح. ومضت الدقائق. وكلما زاد مرور الوقت، كان يبدو بصورة متزايدة أن هذه الأصفاد ستكون هي أول ما قَهَرَ هوديني. وعند نقطة مّا برز من الخزانة وطلب إزاحة الأصفاد مؤقتاً ريثما يخلع سترته لأن الجوّ حارّ في الداخل. فرفض ذلك الذين كانوا يتحدونه، وشكّوا في كون طلبه خدعة

الأخيرة. ومع مضيّ الشهور اكتسب الشاب كفاءة في هذا الفن جَعَلَتْهُ يَبُزُّ أيَّ شخصٍ يجرؤ على مواجهته في الحلبة. وصار يتباهى ببراعته الفائقة إلى درجة أنه تبجّح أمام السلطان بأنه يستطيع أن يتغلب على أستاذه بسهولة لولا احترامه لسنه وعرفانه بجميل تعليمه

فغضب السلطان من قلة احترامه وأمر بإقامة مباراة في الحال بحضور البلاط الملكي. وعند قرع الجرس، اندفع الشاب إلى الأمام بصرخة متحمّسة، ولكنه جوبه بالخدعة الستين بعد الثلاثمائة. فأمسك الأستاذ بتلميذه السابق، ورفعه عالياً فوق رأسه، ثم ألقى به في جلبة صاخبة عند ارتطامه بالأرض. فهتف السلطان وجموع الحاضرين بصوتٍ عالٍ وعندما سأل السلطانُ الأستاذَ كيف استطاع التغلبَ على مثل هذا الخصم القوي، اعترف الأستاذ بأنه احتفظ لنفسه بأسلوب سرّيّ لمثل هذه الحالة بالذات. ثم حكى قصة آلام أستاذ للرماية عَلَّم تلاميذَه كلَّ شيء يعرفه. فكان المسكين يتذمّر: لم يتعلم منّي الرِّمايةَ أحدٌ إلاّ وحاول أن يستخدمني كهدفٍ في آخر الأمر.

قصة من السعدي، كما هي مروية في حرفة السلطة

ر. ج. هـ. سيو، **1979**

كي يكتشف منها كيف تعمل تلك الأقفال. ولكنه لم يرتدع، وبدون أن يستخدم يديه استطاع أن يتدبر أمر رفع السترة فوق كتفيه، وقلبها على قفاها. ويخرج سكيناً صغيرة من جيب جلبابه بأسنانه، وبتحريك رأسه قَطَعَ السترة وفصلها عن ذراعيه. وبتحرير نفسه من السترة، خَطَا عائداً إلى داخل الخزانة، بينما كان صوت الجمهور يدوي بالموافقة على رشاقته وكياسته وبراعته.

وأخيراً، وبعد أن أبقى الجمهور ينتظر ما فيه الكفاية، برز من الخزانة مرة أخرى وقد تحررت يداه، ورفع الأصفاد عالياً بانتصارٍ ليراها الناس. وحتى يومنا هذا لا يعرف أحد كيف استطاع الإفلات. ورغم أنه استغرق ساعة تقريباً ليحرر نفسه، فلم يكن يبدو عليه القلق أبداً، ولم تظهر منه أي علامة على الشك. والحق أنه بدا في آخر الأمر أن هوديني قد أطال عملية الإفلات كطريقة لزيادة الإثارة والدراما، ولجعل الجمهور يقلق - لأنه لم يكن هناك إشارة أخرى سوى أن الأداء كان سهلاً ليس إلاً. وكان التذمر من الحَرّ جزءاً من التمثيلية. أما المشاهدون لهذا الأداء وغيره من أعمال هوديني، فلا بد أنهم شعروا أن هوديني يعبث بهم. وبَدَا كأنه يقول إن الأصفاد لا شيء، وإنه كان قادراً على الإفلات منها في وقت مبكر أكثر، بل والإفلات مما هو أسوأ منها بكثير.

وعلى مدى السنين، أفلت هوديني من جثة «وحش بحري» محنط (نصف أخطبوط، ونصف وحش كالحوت انغرس في رمال الساحل قرب بوسطن)؛ ووضع نفسه في ظرف مختوم هائل الحجم خرج منه دون أن يمزق الورق؛ واخترق جدراناً مصمتة من الآجرّ، وأفلت بالتلوّي من سترة مجانين مكتّفة له وهو يتدلى عالياً في الهواء، وقفز من على جسور إلى مياه مثلوجة بينما كانت يداه وساقاه مقيدة في الأغلال والسلاسل؛ وغطس نفسه في صناديق زجاجية مليئة بالماء ويداه مقيدتان، بينما المتفرجون يراقبونه وهو يحرر نفسه، ويناضل لمدة تقرب من الساعة دون أن يبدو عليه أنه يتنفس. وفي كل مرة كان يبدو عليه أنه

يتحرش بالموت ومع ذلك كان ينجو برباطة جأش فوق طاقة البشر. وفي أثناء ذلك كله لم يقل شيئاً عن أساليبه، ولم يقدم أي دليل على كيفية إنجاز حيله. وترك المشاهدين والنقاد يتكهنون، بينما راحت قوته وسمعته تتعاظمان من خلال صراعهم مع ما لا يمكن تفسيره. ولعل أكثر حيله إثارة للذهول كانت إخفاءه لفيل وزنه نصف طن أمام أعين المتفرجين. وهو إنجاز كرره على المسرح طيلة ما يزيد على تسعة عشر أسبوعاً. ولم يوضح أحد في الحقيقة كيف كان يفعل ذلك، لأن الصالة التي كان يمارس فيها خدعته لم يكن فيها ـ ببساطة ـ أي مكان يمكن أن يختفي فيه فيل.

إن عمليات إفلات هوديني بلا جهد قد جعلت البعض يظنون أنه كان يستخدم قوى سحرية، وأن قدراته الروحية كانت تمنحه سيطرة خاصة على جسمه. ولكن فنان إفلاتٍ ألماني يدعى كليبّيني زعم أنه يعرف سرّ هوديني: وهو أنه كان يستخدم أدوات معقدة. كما زعم كليبّيني أنه قد هزم هوديني في تحدٍّ للإفلات من أصفاد تقيّد المعصمين في هولندا.

ولم يكن هوديني يبالي بكل أنواع التكهنات التي انتشرت عن أساليبه، ولكنه لم يكن يتسامح مع أي كذبة سافرة، وفي سنة 1902، تحدى كليبّيني في مبارزة للإفلات من قيود معصم. فقبل كليبّيني التحدي. وعن طريق جاسوس، اكتشف الكلمة السريَّة لفتح زوج من قيود المعصمين الفرنسية ذات الأقفال التوافقية المركَّبة من حروف شيفرة من النوعية التي كان هوديني يحبّ استعمالها. وكانت خطته هي اختيار هذه القيود بالذات ليفلت منها على المسرح. وهذا سيكون من شأنه أن يفضح زيف هوديني ـ بإظهار كون «عبقريته» كامنةً ـ ببساطة ـ في استخدام أدوات ميكانيكية.

وفي ليلة التحدي، تماماً كما خطط كليبّيني، عرض عليه هوديني أن يختار من بين القيود. فانتقى القيود ذات القفل المركب الذي تفتحه

كلمة سرية. بل لقد تمكن من الاختفاء خلف ستارة لإجراء اختبار سريع، ثم برز بعد ثوانٍ وهو واثق من النصر.

وتصرف هوديني وكأنه أحس بوجود عملية احتيال، فرفض أن يصفّد هوديني بالأغلال. وتجادل الرجلان، وشرعا يتقاتلان، بل يتصارعان معاً على خشبة المسرح. وبعد بضع دقائق تخلى هوديني عن رفضه وبدا عليه أنه غاضب وخائب الأمل، فصفّد كليبّيني بالقيود. وعلى مدى الدقائق القليلة التالية بذل كليبّيني جهده لتخليص نفسه. كان هناك خطأٌ مّا ـ فقبل دقائق فقط كان قد فتح القيود وراء الستار، أما الآن فلم تعد الشيفرة نفسها تعمل. فتصبب عرقاً، وأجهد ذهنه، ومرت ساعات، وغادر المتفرجون الصالة، وأخيراً استسلم كليبّيني المرهَق الذليل وطلب فكّ إساره.

ذلك أن الأقفال التي فتحها كليبّيني خلف الستار بكلمة «C-L-E-F-S» (التي معناها «مفاتيح» باللغة الفرنسية) لم تعد تنفتح إلاً بكلمة «F-R-A-U-D» (التي معناها «احتيال»). ولم يفهم كليبّيني كيف استطاع هوديني إنجاز هذا العمل الخارق، بتغيير شيفرة الأقفال.

تذكّرنا هذه القصة بقول الشاعر:

أعلمه الرماية كل يوم
فلما اشتدّ ساعده رماني
وكم علمتُهُ نظم القوافي
فلما قال قافية.. هَجَاني!
[المترجم]

أيّن مدى قدراتك غيرَ معروف. فالرجل الحكيم لا يسمح لأحد بسبر غور معرفته وقدراته عن آخرها. بل يسمح لك بأن تعرفها ولكن لا يسمح لك بفهمها. فهو لا يدع أحداً يعرف مدى قدراته، لئلاّ يصاب (العارف) بخيبة أمل. فلا يتيح لأحدٍ أبداً فرصة سبر غوره بشكل كامل. لأن الحدس والتخمين والشكوك حول مدى مواهبه تولد تبجيلاً أكثر من المعرفة الدقيقة لتلك المواهب، مهما كانت عظيمة.

بلثازار غراسيان
1601 ـ 1658

التفسير

رغم أننا لا نعرف بالتأكيد كيف كان هوديني ينجز معظم عملياته الحاذقة بالإفلات، فإن هناك شيئاً واحداً واضحاً. لم يكن في عمله شيء من السحر والشعوذة أعطاه قواه. بل كان هناك عمل شاق وتدريب لا ينتهي، وقد استطاع أن يخفي ذلك عن العالم بعناية. فلم يكن هوديني يترك أي شيء للحظّ ـ بل كان منهمكاً في دراسة كيف تَعْمَلُ الأقفال ليلاً ونهاراً، وفي البحث في حيلٍ تدجيلية فيها خفة يد وعمرها قرون متطاولة، والعكوف على كتب عن الميكانيك، وأي شيء يستطيع استخدامه. وكل لحظة لم يصرفها في البحوث كان يصرفها في تدريب جسمه وإبقائه لدناً مرناً سهل التثني على نحو استثنائي، ويتعلم كيف يتحكم بعضلاته وبتنفسه.

وفي وقت مبكر من حياة هوديني العملية، تعلّم خدعةً قديمة من أستاذ ياباني عجوز كان يطوف معه: فتعلم منه كيف يبتلع كرةً من العاج ثم يتقيؤها. وقد تدرب على ذلك بصورة لا تنتهي، مستعملاً حبة بطاطا مقشرة مربوطة بخيط ـ فكان يتلاعب بها صعوداً ونزولاً بعضلات حنجرته، حتى بلغت تلك العضلات من القوة ما يكفي لجعلها تحرك حبة البطاطا بدون الخيط. وكان منظمو تحدي قيود المعصمين في لندن يفتشون جسمه سلفاً تفتيشاً كامل الدقة. ولكن لم يكن أحد قادراً على تفتيش حنجرته، حيث كان يستطيع إخفاء أدوات صغيرة تساعده على الإفلات. ومع ذلك فقد كان كليبّيني مخطئاً بصورة أساسية. فلم تكن أدوات هوديني هي التي تتيح له الإفلات، بل تدريبه، وعمله، وبحوثه.

والواقع أن كليبّيني قد لقي هزيمة كاملة في لعبة الذكاء والفطنة على يد هوديني، الذي رتب الأمر بكامله. فترك خصمه يتعلم كلمة السرّ للقيود الفرنسية، ثم استدرجه إلى اختيار تلك القيود بالذات على المسرح، ثم، خلال تصارع الرجلين، استطاع هوديني الماهر، أن يغير الشيفرة إلى كلمة F-R-A-U-D. وكان قد أمضى أسابيع بكاملها يتدرب على هذه الحيلة. ولكن المتفرجين لم يشاهدوا أياً من ذلك العرق والكدح وراء الكواليس. ولم يكن هوديني عصبياً أبداً. بل كان يجعل الآخرين عصبيّين. . (وكان يتعمد إطالة الوقت الذي يستغرقه الإفلات، كطريقة لرفع وتيرة الدراما المثيرة، وجعل المشاهدين يتململون). وكانت عمليات إفلاته من الموت رشيقةً وسهلة على الدوام، فجعلته يبدو إنساناً متفوقاً.

يجب عليك، باعتبارك شخصاً ذا سلطة، أن تبحث وتتدرب بصورة لا تنتهي قبل أن تظهر علناً للملأ، سواء على المسرح أم في أي مكان آخر، وإياك أن تفضح عرقك وكدحك الكامنين خلف موقفك العلنيّ. ويعتقد البعض أن مثل هذا الكشف سيظهر مثابرتهم وصدقهم ونزاهتهم، غير أنه في الواقع لا يزيد على جعلهم يبدون أضعف، أو كأن

أي شخص يتدرب ويعمل في ذلك المجال يمكنه أن يحقق ما حققوه، أو كأنهم ليسوا في الحقيقة أكفاء للمهمة. فاحتفظ بجهدك وأحابيلك لنفسك، وعندئذ ستبدو وكأنك تملك رشاقة أحد الآلهة ولياقته وتحرره من التكلف. ذلك أن المرء لا يرى مصدر سلطة الآلهة مكشوفاً، بل يرى تأثيراتها فحسب.

قد يستغرق نظمنا لبيتٍ واحد [من الشعر] ساعات؛ ومع ذلك فإنه إذا لم يظهر وكأنه فكرة خطرت لنا في لحظة، فإن رتقنا وتفكيكنا لأجزائه سيكون عبثاً كالعدم.

لعنة آدم، تأليف: وليام بتلر ييتس، ١٨٦٥ ـ ١٩٣٩

مفاتيح السلطة

إن أوّل أفكار الإنسانية عن السلطة جاءت من المواجهات البدائية مع الطبيعة ـ وميض البرق في السماء، والطوفان المفاجىء، وسرعة الحيوان المتوحش وضراوته. فهذه القوى لم تكن تتطلب تفكيراً، ولا تخطيطاً ـ، بل كانت تشعرنا بالرهبة والهيبة بظهورها المفاجىء، ورشاقتها، وسلطانها على الحياة والموت. ويظلّ هذا هو نوع السلطة الذي كنا دائماً نريد أن نقلده. وعن طريق العلم والتكنولوجيا استطعنا أن نعيد خلق سرعة الطبيعة وجلال سلطانها. ولكن هناك شيئاً مفقوداً. فمكائننا شديدة الضجيج والتقلب المتشنّج، وهي تكشف عن جهدها. وحتى أفضل منتجات التكنولوجيا كلها لا تستطيع أن تقتلع إعجابنا بالأشياء التي تتحرك بيسر وسهولة بلا جهد ولا تكلف. إن قدرة الأطفال على إخضاعنا لإرادتهم ناجم عن نوع من الفتنة الآسرة التي نشعر بها إزاء مخلوق أقل انغماساً في التفكير منّا وأكثر رشاقة. فنحن عاجزون عن العودة إلى مثل هذا الحال. ولكننا إذا استطعنا أن نخلق مظهر هذا النوع من اليسر، فإننا سنوحي للآخرين بنوع من الرهبة البدائية التي كانت الطبيعة دوماً توحي بها إلى البشر.

ومن أوائل الكتّاب الأوروبيين الذين بَسَطوا هذا المبدأ ودافعوا عنه، كاتب جاء من أكثر البيئات بعداً عن الطبيعة، من بلاط عصر النهضة. ففي كتاب **رجل الحاشية**، المنشور في سنة 1528، يصف بلثازار كاستيليوني الأساليب الشديدة التعقيد والمقنّنة لمواطن البلاط الأمثل. ومع ذلك، يتعين على رجل الحاشية ـ كما يوضح كاستيليوني ـ أن ينفذ هذه الإشارات بما يسميه بالإيطالية «سبريزاتورا»، أي (القدرة على جعل الصعب يبدو سهلاً). فهو يحثّ رجل الحاشية على أن «يمارس في كل الأشياء نوعاً معيناً من اللامبالاة يخفي كل التصنع ويجعل أي شيء يقوله المرء أو يفعله يبدو غير متكلف ويخرج منه بلا جهد». إننا جميعاً نعجب بإنجاز عمل غير عاديّ. ولكنه إذا تمّ بصورة طبيعية ولائقة في كياستها، فإن إعجابنا سيتضاعف عشر مرات ـ «بينما. . . يبيّن الجهد المبذول في العمل الذي يقوم به المرء، و. . . إظهار التفاخر بذلك أن هناك نقصاً شديداً في الكياسة، ويجعل كل شيء يتناقص، مهما كانت قيمته».

إن جزءاً كبيراً من فكرة «سبريزاتورا» قد جاء من عالم الفنّ. ذلك أنّ جميع فناني عصر النهضة العظام كانوا يعتنون بإخفاء عملهم تحت الأغطية. فلم يكونوا يسمحون بأن يعرض على الجمهور سوى التحفة الفنية المكتملة. وكان مايكل آنجيلو يمنع حتى البابوات من رؤية أعماله أثناء اشتغاله فيها. وكان فنان عصر النهضة حريصاً دائماً على إبقاء الاستديو الذي يعمل فيه مغلقاً أمام رعاته وأمام عامة الناس على حد سواء، ليس خوفاً من التقليد، ولكن لأن رؤية الاشتغال في الأعمال الفنية من شأنها أن تشوه سحر تأثيرها، وجوّ اليسر والسهولة والجمال الطبيعي الذي أضفته عليها الدراسة المضنية سراً.

وكان فاساري، رسام عصر النهضة، وأول ناقد فني عظيم، يسخر من أعمال باولو أوتشيلّو، الذي كان مهووساً بقوانين زاوية النظر. ذلك أن الجهد الذي كان أوتشيلّو يبذله في تحسين مظهر زاوية النظر كان

سافراً في أعماله بشكل مفرط ـ فكان يجعل رسومه قبيحة، ومفتعلة يغلب عليها الجهد المبذول لخلق تأثيراتها. فالاستجابة نفسها تتكون لدينا عندما نشاهد أداءً تمثيلياً يبذل فيه الممثلون جهداً مفرطاً: إذ إن رؤيتهم يتجشمون كل هذه المشقة في محاولاتهم تُبَدِّدُ الوهم (الذي يعيش فيه المتفرج). كما أنها تشعرنا بعدم الراحة. ومن جهة أخرى فإن الممثلين الهادئين اللبقين يجعلوننا نسترسل على سجيتنا، ويخلقون الوهم بأنهم لا يمثلون، بل يتصرفون بشكل طبيعي غير متصنّع، حتى عندما يكون كل ما يعملونه منطوياً على عمل وجهد وتدريب.

إن فكرة سْبْرِيزَاتُورَا (جعل الصعب يبدو سهلاً) لها صلة بكل أشكال السلطة، لأن السلطة تعتمد اعتماداً حيوياً على المظاهر، وعلى الأوهام التي تخلقها. فمنشوراتك تشبه الأعمال الفنية: يجب أن تكون لها جاذبية بصرية، وأن تخلق آمالاً وتطلعات، بل وتُمْتِعْ. أما عندما تكشف عن تفاصيل العمل الداخلية لإبداعك، فإنك تصبح مجرد إنسان عادي بين الآخرين، إذْ أن الشيء المفهوم لا يوحي بالهيبة ـ لأننا نقول لأنفسنا إننا نستطيع أن نعمل مثله لو كان لدينا الوقت والمال. فتجنّب إغراء استعراض مدى مهارتك ـ فإن الشيء الأبرع من ذلك بكثير هو إخفاء آليات براعتك.

ولقد أدى تطبيق تاليران لهذا المفهوم في حياته اليومية إلى تضخيم هالة السلطة المحيطة به بشكل كبير. فلم يكن يحب أن يشتغل بصورة مضنية على الإطلاق، وهكذا جعل الآخرين يشتغلون له، ويقومون بالتجسس، والبحث، والتحليل المفصّل. ومع وجود كل هذا العمل تحت تصرفه لم يكن يبدو عليه أي توتر أو إجهاد لنفسه. فعندما كان جواسيسه يكشفون له عن قرب وقوع حدث معين، كان يذكر في أحاديثه الاجتماعية أنه يشعر بقرب وقوعه. وكانت نتيجة ذلك أن الناس راحوا يظنون أنه يستشف الغيب. وكانت عباراته القصيرة المليئة باللبّ والفطنة والدعابة تبدو دائماً وكأنها تلخص الوضع تلخيصاً كاملاً. ولكنها كانت

تقوم على كثير من البحث والتفكير. وللمسؤولين الحكوميين، ومن ضمنهم نابليون نفسه، كان تاليران يعطي الانطباع بأن لديه سلطة هائلة ـ وكان ذلك أثراً يعتمد كلياً على اليسر الظاهر الذي كان يحقق فيه منجزاته.

وهناك سبب آخر لجعلك تخفي طرقك المختصرة وأحابيلك: وهو أنك عندما تترك هذه المعلومات تخرج إلى العلن فإنك تعطي الناس أفكاراً يمكن أن يستخدموها ضدك، فَتَفْقِدُ مزايا الاحتفاظ بالصمت. إننا نميل إلى أن نريد أن يعرف العالم ما عملناه ـ فنحن نريد إرضاء غرورنا بكسب التصفيق لعملنا المضني وبراعتنا، بل إننا قد نريد تعاطفاً مع الساعات التي أمضيناها حتى وصلنا إلى نقطة إبداعنا الفني. تَعَلَّم التحكمَ بهذا النزوع إلى الثرثة لأن تأثيره غالباً ما يكون عكس ما تتوقع. وتذكّر: كلما زاد الغموض المحيط بتصرفاتك، بَدَتْ سلطتك أكثر إثارة للهيبة. إذْ أنك تظهر بأنك الشخص الوحيد القادر على القيام بالعمل الذي تؤديه. كما أن الظهور بمظهر المالك الوحيد لموهبة محصورة فيك يعطي انطباعاً عن قوة هائلة. وأخيراً فإنه نظراً لكونك تحقق منجزاتك بكياسة ويسر، فسيعتقد الناس أنك قادر على تحقيق أكثر لو أنك حاولت بجدِّيَّة ومشقة أكبر. وهذا لا يستدرج الإعجاب فحسب، بل وشيئاً من الرهبة كذلك. فقواك لم تنفتح على مصاريعها بعد ـ ولذلك لا يستطيع أحد أن يسبر غور حدودها.

صورة: حصان السباق. من مكان مرتفع
وقريب نرى التوتر، والجهد المبذول للسيطرة
على الحصان، والأنفاس المبهورة المؤلمة المنفعلة.
ولكن من المسافة التي نجلس فيها للمراقبة، فإن ما
نراه هو الرشاقة وسباحة الحصان في الهواء. فَابْقِ الآخرين
على مسافة منك، ولن يروا سوى اليسر الذي تتحرك به.

الشاهد: إن أي عمل يصحبه [عدم المبالاة]، مهما كان ضئيلاً لا يكشف عن مهارة الشخص الذي يقوم به فحسب، ولكنه كثيراً ما يجعله يبدو أعظم مما هو في الحقيقة. وذلك لأنه يجعل الناظرين إليه يعتقدون أن الرجل الذي يحسن الأداء بكل هذا اليسر لا بد أنه يملك مهارة أعظم مما لديه في الواقع.

(بلثازار كاستيليون، ١٤٧٨ ـ 1529).

الانقلاب

إن السريّة التي تحيط بها أعمالك يجب أن تبدو خفيفة الظل في روحها. فالتحمس لإخفاء عملك قد يخلق انطباعاً كريهاً يكاد يكون جنون ارتياب في الآخرين (بارانويا): وبأنك تأخذ اللعبة على محمل الجدّ بصورة مفرطة. ولقد كان هوديني حريصاً على أن يجعل إخفاء حيله يبدو لعبةً، وجزءاً من الاستعراض. فلا تَعْرِضْ عَمَلَكَ حتى يكتمل وتوضع عليه لمسات الاختتام. ولكن إذا بذلت جهداً مفرطاً في التكتم عليه تحت الأغطية فستكون مثل الرسام بونتورمو، الذي أمضى السنوات الأخيرة من عمره وهو يبخىء لوحاته الجدارية عن عيون عامة الناس، فلم ينجح إلاَّ في دفع نفسه نحو الجنون. احتفظ بحسّ الدعابة دائماً قريباً منك وفي متناول يدك.

وهناك أيضاً مرات يكون فيها كشف التشغيلات الداخلية لمشاريعك شيئاً يستحق الجهد. وكل ذلك يعتمد على ذوق جمهور المتفرجين، وعلى الأوقات التي تشتغل فيها. فقد أدرك ب .ت. بارنوم أن جمهوره يريد أن يشعر بالمشاركة في عروضه وأن فَهْمَ أحابيلِهِ كان يسلّي الناسَ ويمتعهم، ولعل سبب ذلك يعود إلى أن كشف زيف الناس الذين يبقون مصادر قوتهم مخفيةً عن الجماهير كان يثير إعجاب الروح الديمقراطية لأميركا. وكان الجمهور أيضاً يقدر حس الدعابة والصدق والنزاهة لدى صاحب العرض. وأوصل بارنوم هذا إلى الحد الأقصى

بنشر المعلومات عن دجله ومخادعته في سيرته الذاتية الشعبية التي كتبها في أوج حياته العملية.

وما دام الكشف الجزئي عن الحيل والأساليب مخطَّطاً بعناية، وليس نتيجة الحاجة المنفلتة للثرثرة غير المسيطر عليها فإنه الغاية في البراعة، إذ إنه يعطي الجمهور وهماً بالتفوق والمشاركة، حتى عندما يظل الكثير مما تفعله مخفياً عنهم.

القانون

31

تحكَّم بالخيارات واجعل الآخرين يلعبون بالأوراق التي توزعها

الحكم

إن أفضل الأحابيل هي تلك التي يبدو أنها تعطي الشخص الآخر خياراً: فيشعر ضحاياك بأنهم هم المسيطرون، بينما هم في الحقيقة دُمًى لك. اعطِ الناس خيارات تأتي في صالحك مهما كان الخيار الذي ينتقونه من بينها. ارغمهم عى الاختيار بين الأهون من الشرّين اللذين يخدمان غرضك على حد سواء. ضعهم فوق قرنَيْ أزمة، بحيث يتلقون نطحةً أينما توجهوا.

مراعاة القانون الأولى

منذ أوائل عهد إيڤان الرابع، الذي عرف فيما بعد باسم إيڤان الرهيب، كان عليه أن يواجه حقيقة بغيضة: فقد كان البلد بحاجة ماسة إلى الإصلاح. ولكن كانت تنقصه السلطة لتنفيذه. وقد جاء أكبر تحديد مقيّد لسلطته من البويار، وهم طبقة الأمراء الروس الذين كانوا يسيطرون على البلد ويرهبون الفلاحين.

وفي سنة 1553، عندما كان إيڤان في الثالثة والعشرين، سقط مريضاً. وبينما كان يرقد في فراشه، مقترباً من الموت، طلب من البويار أن يقسموا يمين الولاء لابنه كقيصر جديد. فتردد بعضهم، بل إن بعضهم رفض. وعندئذٍ، وفي ذلك المكان، رأى إيڤان أن لا سلطة له على البويار. وتعافى من مرضه. ولكنه لم ينس ذلك الدرس أبداً: فالبويار مصممون على تدميره. والحق أن كثيرين منهم هربوا في السنوات التالية إلى أعداء روسيا الرئيسيين، بولندا وليتوانيا، حيث راحوا يتآمرون ليعودوا وليسقطوا القيصر. وحتى الأمير آندري كوربسكي، أقرب الأصدقاء لإيڤان، انقلب عليه فجأةً، فهرب إلى ليتوانيا سنة 1564، وصار أقوى أعداء إيڤان.

وعندما بدأ كوربسكي بتجميع القوات لشن غزو، بدت السلالة الملكية في وضع خطر مترجرج أكثر من أي وقت مضى. فمع تدبير النبلاء المهاجرين غزواً من الغرب، وضغط التَّتَر من الشرق، والبويار

غَضِبَ المستشارُ الألمانيُّ بسمارك من الانتقادات المستمرة التي كان يوجهها إليه رودولف ڤيرخَاوْ (الأخصّائي الألماني في علم الأمراض والسياسي من جماعة الأحرار، 1821-1902)، فأرسل إليه مساعديه ليعرضوا عليه تحدي بسمارك له في مبارزة. فقال فيرخاو: «إن لي أن أختار الأسلحة، ما دمتُ أنا الطرفَ المعروض عليه التحدّي. وإنني أختار هذه»، ورفع إلى الأعلى قطعتي سجق كبيرتين تبدوان متشابهتين، وتابع: «إن إحداهما مصابة بجراثيم قاتلة. أما الأخرى فهي سليمة تماماً. دعوا معاليه يقرر ما القطعة التي سيأكلها وأنا سآكل الأخرى». وجاءت رسالة في الحال تقريباً بأن المستشار قد قرر إلغاء المبارزة.

كتاب الحكايات البنّي الصغير
تحرير كليفتون فاديمان، 1985

يثيرون الاضطراب من الداخل، فإن حجم روسيا الشاسع جعل الدفاع عنها كابوساً. فأيّاً كان الاتجاه الذي سيوجه فيه إيڤان ضربة، فيسترك نفسه مكشوفاً على الجانب الآخر. فلن يستطيع مواجهة هذه الهيدرا الكثيرة الرؤوس إلاً إذا امتلك سلطة مطلقة (الهيدرا أفعوان خرافي ذو تسعة رؤوس قتله هرقل، فكان كلما قطع أحد الرؤوس نبت بدلاً منه رأسان: المترجم) ولم تكن له مثل تلك السلطة.

وغرق إيڤان في التفكير حتى صباح الثالث من كانون الأول/ ديسمبر سنة 1564، عندما أفاق مواطنو موسكو على مشهد غريب. كانت هناك مئات من الزحّافات تملأ الساحة التي أمام قصر الكرملين، محملة بكنوز القيصر، وبتموينات للبلاط كله. وتفرجوا غير مصدقين على القيصر ورجال بلاطه يركبون الزحافات ويغادرون المدينة. وبدون أن يوضح لماذا، اختار مقراً له في قرية جنوبيّ موسكو. وطيلة شهر كامل، أمسك نوعٌ من الرعب بخناق المدينة، لأن الموسكوفيين كانوا يخشون من كون إيڤان قد تخلّى عنهم للبويار المتعطشين للدماء. فأغلقت الدكاكين وراحت جموع المشاغبين الغوغائيين تتجمع كل يوم. وأخيراً، في 3 كانون الأول/ديسمبر سنة 1565، وصلت رسالة من القيصر تشرح أنه لم يعد يطيق خيانات البويار، وأنه قرر التنازل عن عرشه نهائياً وإلى الأبد.

وعندما قُرِئَت الرسالة على الملأ بصوت عال، كان لها أثر مفزع. إذ راح التجار وعامة الناس يلومون البويار على قرار إيڤان. وتدفقوا إلى الشوارع، فأرعبوا النبلاء بثورتهم. وسرعان ما توجهت مجموعة من الوفود تمثل الكنيسة، والأمراء، والشعب، برحلة إلى قرية إيڤان، وتوسلت إلى القيصر، باسم أرض روسيا المقدسة، أن يعود إلى العرش. وأنصت إيڤان، ولكنه رفض تغيير رأيه. غير أنه بعد أيام من سماع توسلاتهم عرض على رعاياه خياراً: فإمّا أن يمنحوه سلطات مطلقة ليحكم كما يهوى، بدون تدخل من البويار، أو أن يجدوا لهم قائداً آخر.

وفي مواجهة خيار بين الحرب الأهلية والقبول بسلطة مستبدّة، «اختار» كل قطاع من الشعب الروسي تقريباً حكم قيصر قوي، ودعوا إيفان إلى العودة إلى موسكو، وإعادة القانون والنظام. وفي شباط/ فبراير عاد إيفان إلى موسكو بكثير من الاحتفال. ولم يعد الروس قادرين على الشكوى إذا تصرف بطريقة مستبدّة، فقد أعطوه هذه السلطة بأنفسهم.

الكذاب

ذات مرة كان هناك ملكٌ لأرمينيا. وكان ذا طبع غريب وبحاجة إلى شيء جديد يلهيه. فأرسل رسله في جميع أنحاء البلاد ليعلنوا في الناس: «اسمعوا! أيما رجل منكم يستطيع أن يثبت أنه أفظع كذاب في أرمينيا فسوف يتلقى تفاحةً مصنوعةً من الذهب الخالص، من يدي صاحب الجلالة الملك!». فبدأ الناس يتقاطرون بأعداد كبيرة إلى القصر من كل مدينة وقرية صغيرة في البلد، أناس من مختلف الرتب والظروف، أمراء، وتجار، ومزارعون، وقساوسة، أغنياء، وفقراء، طوال، وقصار، سمان، وعجاف. فلم يكن هناك نقص في الكذابين في البلاد. وروى كل منهم قصته للملك. غير أنه كحاكم، كان قد سمع كل أنواع الأكاذيب من الناحية العملية. فلم تقنعه أية واحدة من الأكاذيب التي سمعها بأنها هي الأفضل.

وكان الملك قد بدأ يملّ من هوايته الجديدة، ويفكّر بأن يلغي المباراة كلها دون الإعلان عن أي فائز فيها، عندما ظهر أمامه شخص فقير مهلهل الثياب، يحمل تحت ذراعه إبريقاً من الفخار. فسأله صاحب الجلالة: «ماذا أستطيع أن أعمل من

التفسير

كان إيفان الرهيب يواجه مأزقاً رهيباً. فالاستسلام للبويار كان من شأنه أن يؤدي إلى دمار أكيد، ولكن الحرب الأهلية ستجلب نوعاً مختلقاً من الخراب. وحتى لو خرج إيفان من مثل هذه الحرب منتصراً، فإن البلد سيصاب بالدمار، وتصبح انقساماته أقوى من أي وقت مضى. ففي الماضي كان سلاحه المختار هو القيام بحركة جريئة هجوميّة. أما الآن (سنة 1565) فإن ذلك النوع من الحركة سينقلب ضده ـ فكلما زادت مواجهته لأعدائه سوءاً، كان رد الفعل الذي سيشعله أسوأ.

إن نقطة الضعف الرئيسية في عرض العضلات هو أنه يثير الحنق ويؤدي في آخر الأمر إلى ردّ يجعل سلطتك تتآكل. وكان إيفان خَلاّقاً على نحو هائل في استخدام السلطة، فرأى بوضوح أن الطريق الوحيد إلى نوع النصر الذي كان يريده هو الانسحاب المزيف. فلن يرغم البلد على تبنّي موقفه، بل سيعطيه «خيارين»: فإمّا تنازله، وما يتبعه من فوضى أكيدة، أو تسلمه سلطة مطلقة. ولدعم حركته، أوضح أنه يفضل التنازل. وقال «ادعوني إلى تنفيذ تهديدي، وارتقبوا ما سيحدث». فلم يَدْعُهُ أحد إلى تنفيذ تهديده. فبالانسحاب شهراً واحداً فقط، أطلع بلده على لمحة من الكابوس الذي سوف يلي تنازله ـ غزو تتري، وحرب أهلية، وخراب. (وقد قيض لهذه الكوارث أن تحدث في آخر الأمر، بعد وفاة إيفان، في «عصر الاضطراب» سيِّىء الصيت).

فالانسحاب والاختفاء هما من الطرق التقليدية للسيطرة على الخصوم؛ إذ أنّك تعطي الناس إحساساً بكيفية تساقط الأشياء وتبعثرها

بدونك، وتعرض عليهم «اختياراً»: إمّا أن أبقى بعيداً، وتتحملوا العواقب، أو أعود تحت ظروف أمليها أنا. وبهذه الطريقة من التحكم بخيارات الناس، فإنهم ينتقون الاختيار الذي يعطيك السلطة، لأن البديل كريه للغاية. وبذلك تلوي ذراعهم، ولكن بصورة غير مباشرة. إذ يظهر أن لديهم اختياراً. وكلما شعر الناس بأن لديهم خياراً فإنهم يدخلون إلى مصيدتك بطريقة أسهل بكثير.

أجلك؟» فقال الرجل الفقير وهو مذهول ومحتار قليلاً: «يا سيدي! من المؤكّد أنك تتذكّر؟ إنك مدين لي بإناء من الذهب. وقد جئتُ للحصول عليه». فصرخ الملك: «إنك لكذّابٌ أشِر، وأنا لستُ مديناً لك بأية أموال!» فقال الرجل الفقير: «كذّاب أشر؟ أنا؟ إذن أعطني التفاحة الذهبية!» وأدرك الملك أن الرجل كان يحاول أن يخدعه، فبدأ يتملّص: «كلاّ، كلاّ! لستَ كاذباً!» فقال الرجل: «إذن فأعطني إناء الذهب الذي أنت مدين به لي». ورأى الملك المأزق، فأعطاه التفاحة الذهبية.

حكايا وخرافات شعبية أرمنية
يعيد روايتها: شارلي داونينغ، 1993

مراعاة القانون الثانية

وجدت نينو دي لنكلو، الغانِيَةُ الفرنسية في القرن السابع عشر، أن حياتها فيها مسرات معينة. فقد كان عشاقها متحدرين من الأسر المالكة والأرستقراطية، وكانوا يدفعون لها جيداً، ويمتعونها بحضور بديهتهم وفطنة عقولهم، ويشبعون حاجاتها الحسية الشرهة، ويعاملونها كأنها نِدٌّ لهم تقريباً. ومثل هذه الحياة كانت مفضلةً على الزواج إلى ما لا نهاية. غير أن أمّها ماتت فجأة في سنة 1643، وتركتها وحيدة تماماً في العالم ـ بلا أسرة، ولا دوطة، ولا شيء تستند إليه. فأصابها نوع من الذعر، ودخلت ديراً، فأدارت ظهرها لعشاقها اللامعين المشهورين. وبعد سنة غادرت الدير وانتقلت إلى ليون. وعندما عادت إلى الظهور في باريس في آخر الأمر، في سنة 1648، تقاطر العشاق والخُطّاب إلى بابها بأعداد أكبر من ذي قبل، لأنها كانت أذكى غانيات زمانها وأكثرهن اندفاعاً، وكان حضورُها قد ٱفْتُقِدَ كثيراً.

غير أن مُلاحقيها اكتشفوا أنها قد غيّرت طريقتها القديمة في عمل الأشياء، وأقامت نظاماً جديداً للخيارات. فالدوقات، والسادة الإقطاعيون والأمراء الذين كانوا يريدون أن يدفعوا لقاء خدماتها يمكنهم الاستمرار في ذلك. ولكنهم لم يعودوا المسيطرين. إذْ أنها ستنام معهم عندما تريد، حسب نزواتها. فكل ما تشتريه لهم أموالهم لن يتعدى الاحتمال. فإن كان يحلو لها أن تنام معهم مرة في كل شهر فقط، فليكن.

أما الذين لم يريدوا أن يكونون من **الدافعين**، كما أسمتهم نينو، فيمكنهم الانضمام إلى مجموعة كبيرة ومتنامية من الرجال الذي أسمتهم **شهداءها**. وهم الذين يزورون شقتها بشكل أساسي من أجل صداقتها، وذكائها العضوض، وعزفها على العود، وصحبة أنشط العقول المفكرة في ذلك العصر، بما في ذلك موليير، ولاروشفوكو وسان إفرمون. غير أن لأولئك **الشهداء** إمكانية أيضاً: إذ أنها ستختار من بينهم بصورة منتظمة شخصاً ذا **حظوة**، رجلاً يصبح عشيقها دون أن يضطر إلى الدفع، وستترك نفسها له بصورة كاملة طالما ظلت راغبة في ذلك ـ لمدة أسبوع، أو بضعة أشهر، أو أطول من ذلك في حالات نادرة. **فالدافع** لم يكن يستطيع أن يصبح ذا **حظوة**؛ ولكن **الشهيد** لم تكن له ضمانة كي يصبح ذا **حظوة**، بل يمكن أن يظل خائب الأمل طيلة حياة كاملة. فالشاعر شارليفال مثلاً لم يتمتع بالحظوة لدى نينو على الإطلاق، ولكنه لم يتوقف عن زيارتها، فلم يكن يريد الاستغناء عن صحبتها.

وعندما وصلت أخبار هذا النظام إلى المجتمع الفرنسي المهذب، صارت نينو عرضة للعداوة الشديدة. ذلك أن عملية قلبها لمركز الغانية جعلت الملكة الأم ورجال بلاطها ينظرون إلى الأمر على أنه فضيحة. غير أنهم أصيبوا بالهلع عندما لم يثبط ذلك خُطَّابَ وُدِّها من الذكور ـ بل إنه في الحقيقة زاد أعدادهم وقوَّى رغباتهم. وصار مما يشرف المرء أن يكون **دافعاً**، يساعد نينو على المحافظة على طراز معيشتها وصالونها البرّاق، ويرافقها أحياناً إلى المسرح، وينام معها عندما تختار هي. بل لقد كان **الشهداء** أكثر تميزاً، بتمتعهم بصحبتها دون دفع ثمن لها، محتفظين بالأمل في أن يصبحوا من ذوي **الحظوة** لديها ذات يوم، مهما كان ذلك الأمل بعيداً. وقد حفزت هذه الإمكانية كثيرين من النبلاء الشباب حالما انتشر بينهم خبر يقول إنه ليست هناك غانية تبزّ نينو في فن الغرام. وهكذا دخل في شبكتها المتزوجون والعزّاب، والعجائز والشباب، وانتقوا واحداً من الخيارين المعروضَيْن عليهم. فأرضاها ذلك إرضاءً وفيراً.

التفسير

كانت حياة الغانية تَسْتَتْبِعُ إمكانية سلطة حُرِمَتْ منها المرأة المتزوجة. ولكن كان فيها أخطار واضحة كذلك. فقد كان الرجل الذي يدفع ثمن خدمات الغانية يتملكها من حيث الجوهر، فيقرر متى يستطيع امتلاكها، ومتى يتركها فيما بعد. وعندما كانت الغانية تتقدم في السن، كانت خياراتها تضيق، مع قلة عدد الرجال الذين يختارونها. ولكي تتجنب حياة الفقر، كانت تضطر إلى تجميع ثروتها وهي شابة ما تزال. ولذا كان الطمع الأسطوري للغواني يعكس ضرورة عملية ولكنه كان أيضاً يقلل بريق إغواء الغانية، ما دام الرجال يرون أنّ من المهم لهم أن يكونوا مرغوبين، ولكن كان مما يُنَفِّرهم أن تهتم شريكتهم بأموالهم اهتماماً مفرطاً. ولذلك فإن الغانية كانت تواجه مصيراً صعباً كالحاً كلما تقدم بها العمر.

قال ج. ب. مورغان الأكبر ذات مرة لجوهريٍّ لأحد معارفه إنه مهتم بشراء دبوس وشاح رأسه من اللؤلؤ. وبعد بضعة أسابيع فقط، وقع الجوهريّ على لؤلؤة رائعة. فركّبها بطريقة لائقة وأرسلها إلى مورغان، ومعها فاتورة بخمسة آلاف دولار. وفي اليوم التالي أعيدت إليه الرزمة. وكانت مذكّرة مورغان المرفقة بها تقول: «إنني أحبّ الدبوس، ولكنني لا أحب الثمن. فإذا قبلت الصك المرفق بأربعة آلاف دولار، فأرجوك أن تعيد إليّ الصندوق دون كسر ختمه». فرفض الجوهري الغاضب ذلك الصكّ وطرد الرسولَ باشمئزاز. وفتح الصندوق ليستعيد منه دبّوسه المرفوض، غير أنه وجد أنه قد أزيل من موضعه، وحل محله صكّ بخمسة آلاف دولار.

كتاب الحكايا الصغير البُنّي
تحرير: كليفتون فاديمان،
1985

وكانت نينو دي لنكلو مصابة بالرعب من أي نوع من الاعتماد على غيرها. وكانت في وقت مبكر قد ذاقت نوعاً من المساواة مع عشاقها. فلم تكن لترضى بنظام يترك لها مثل تلك الخيارات البغيضة. وكان من الغرابة بمكان أن النظام الذي ابتكرته كبديل قد بَدَا مُرْضياً لخُطّابِ ودّها بقدر إرضائه لها كذلك. فربما كان الدافعون مضطرين إلى الدفع، ولكن كون نينو لا تنام معهم إلاّ عندما تريد كان يبعث فيهم رعشة إثارة لم تتوفر مع كل غانية أخرى: إذْ أنها كانت تستسلم نتيجة لرغبتها هي. كما أن تمكن الشهداء من تجنب وصمة الاضطرار إلى الدفع كان يعطيهم شعوراً بالتفوق؛ فبوصفهم أعضاء في أُخُوّة المعجبين بنينو، كان لديهم احتمال أن يصبحوا ذات يوم من ذوي الحظوة لديها. وأخيراً فإن نينو لم ترغم خُطّاب ودّها على الاندراج تحت أي فئة: فقد كان بوسعهم «اختيار» أي جانب يفضلونه ـ وهي حرية كانت تترك لهم جانباً من كبرياء الذكور.

فهذه هي السلطة الكامنة في إعطاء الناس خياراً، أو وَهْمَ خيار. إذ أنهم يلعبون بأوراق أنت وزعتَها عليهم. وبينما كانت البدائل التي وضعها

إيفان تنطوي على مخاطرة معينة ـ لأن أحد الخيارات كان سيؤدي إلى إفقاده سلطته ـ فإن نينو خلقت وضعاً يعود فيه كل خيارٍ إلى مصلحتها. فمن الدافعين كانت تتلقى الأموال التي تحتاج إليها لإدارة صالونها. ومن الشهداء كانت تحصل على أقصى ما في السلطة. فاستطاعت أن تحيط نفسها بباقة من المعجبين، بحريم من الذكور تختار منهم عشاقها.

غير أن النظام قد اعتمد على عامل حساس الأهمية، وهو إمكانية تحول شهيد إلى ذي حظوة، مهما كان الاحتمال بعيداً. إن وَهْمَ كون الثروة، أو المجد، أو إشباع الرغبة الحسية قد تسقط يوماً في أحضان ضحيتك هو إغراءٌ لا يقاوَم فيما تنطوي عليه لائحة خياراتك. إن ذلك الأمل، مهما كان ضئيلاً سيجعل الرجال يقبلون أكثر الأوضاع إثارة للسخرية، لأنه يترك لهم خيار الحلم، وهو خيار هامّ للغاية. إن وَهْمَ الخيار، مشفوعاً بإمكانية الحظ السعيد في المستقبل، سيجلب أشد المغفّلين عناداً إلى شبكتك البراقة.

مفاتيح السلطة

إن كلمات مثل «حرية» و«خيارات» و«انتقاء» توحي بقوة احتمال تتجاوز حقيقة الفوائد التي تستتبعها. وعند الفحص الدقيق للخيارات التي نملكها ـ في السوق، في الانتخابات، في وظائفنا . نجد أنها تميل إلى أن تكون لها حدود جديرة بالملاحظة. فهي مسألة اختيار ببساطة بين: أَلِفْ وبَاءْ، بينما تخرج باقي الأبجدية من الصورة. ومع ذلك، فما دام أضأل سرب باهت من الاختيار موجوداً يرفرف على الأفق، فإننا نادراً ما نركِّز على الخيارات المفقودة. بل إننا «نختار» أن نعتقد بأن اللعبة عادلة، وأننا نملك حريتنا. فنحن نفضِّل أن لا نفكِّر أكثر من اللازم في عمق حريتنا في الاختيار.

إن عدم الرغبة في سبر غور خياراتنا الصغيرة ينبع من حقيقة كون الحرية الزائدة عن حدِّها تخلق نوعاً من القلق. فعبارة «خيارات غير

محدودة» لها على الأذن وَقْعٌ واعد غير محدود، ولكن الخيارات غير المحدودة سيكون من شأنها أن تشلّنا، وتحيط بالغيوم قدرتنا على الاختيار. فالنطاق المحدود للخيارات المتاحة لنا يريحنا.

وهذا يزوِّد الأشخاص البارعين والمحتالين الماكرين بفرص هائلة للخداع؛ ذلك أن الناس الذين يختارون بين البدائل يجدون أن من الصعب الاعتقاد بأنهم عرضة للتلاعب، أو أنهم ضحية خديعة. إنهم لا يستطيعون أن يروا أنك تسمح لهم بقدر ضئيل من حرية الإرادة، في مقابل كثير من القوة لفرض إرادتك عليهم. وإذن فإن إيجاد نطاق ضيق من الخيارات ينبغي أن يكون دائماً جزءاً من أحابيلك. وهناك قول مؤثور: «إذا استطعت أن تجعل الطير يدخل إلى القفص من تلقاء نفسه، فسيكون غناؤه فيه أجمل بكثير من المعتاد».

والطرق التالية هي من أكثر الأشكال شيوعاً لـ «التحكم في الخيارات»:

لَوِّن الخيارات: وهذا هو الأسلوب الأكثر تفضيلاً عند هنري كيسنجر. فَبِصِفَتِهِ وزيراً لخارجية الرئيس ريتشارد نيكسون كان يعتبر نفسه أكثر معلوماتٍ من رئيسه، ويعتقد أنه في معظم المواقف يستطيع أن يتخذ أفضل القرارات وحده. ولكنه إذا حاول أن يبتَّ في السياسة فسوف يزعج رجلاً عُرِفَ عنه أنه واحدٌ من الناس الذين يشعرون بعدم الأمان، بل قد يثير غضبه الشديد. وهكذا كان كيسنجر يقترح ثلاثة خيارات أو أربعة لكل موقف، ويقدِّمها بطريقة يبدو منها أن الخيار المفضَّل لديه هو دائماً أحسن حلّ بالمقارنة مع الخيارات الأخرى. وقد ابتلع نيكسون الطُّعم مرة بعد أخرى. ولم يكن يشكّ أبداً في أنه يتحرَّك إلى حيث يدفع به كيسنجر. وهذا تدبيرٌ ممتاز للاستخدام عندما يكون السيِّد مِمَّن يشعرون بعدم الأمان.

أَرْغِم المقاوِم: كان الدكتور ملتون هـ. إيريكسون أحد رواد المعالجة بالتنويم المغناطيسي في خمسينات القرن العشرين، وكانت

إحدى المشاكل الرئيسية التي تواجهه هي انتكاسة المريض. فكان مرضاه ربما بدا عليهم أنهم آخذون في التحسن بسرعة. غير أن استجابتهم الظاهرية للعلاج كانت تخفي مقاومة عميقة: فسرعان ما كانوا يرتكسون عائدين إلى عاداتهم القديمة، فيلقون باللوم على الطبيب ويتوقفون عن مراجعته. ولتجنّب ذلك، شرع إيريكسون يأمر بعض المرضى بالانتكاس، وبِجَعْلِ أنفسهم يشعرون بأن حالتهم من السوء كما كانت عندما راجعوه أول مرة ـ وبأن يعودوا إلى المربَّع الأول. وفي مواجهة هذا الخيار، كان المرضى «يختارون» في العادة أن يتجنَّبوا الارتكاس. وهذا بالطبع ما كان يريده إيريكسون في الحقيقة.

وهذا أسلوب جيِّد للاستخدام مع الأطفال، وغيرهم من الأشخاص المتصفين بالعناد، مِمَّن يتمتعون بعمل عكس ما تطلبه منهم: فادفعهم إلى «اختيار» ما تريدهم أن يفعلوه عن طريق الظهور بمظهر المدافع عن العكس.

غيِّر ميدان اللعب: في ستينات القرن التاسع عشر، شرع جون د. روكفيللر بإيجاد احتكار للنفط. فلو حاول ذلك، فإن شركات النفط الصغرى بكاملها كانت قد فهمت ما كان يعمل وقاومته. وبدلاً من ذلك بدأ سرّاً في شراء شركات سكك الحديد التي كانت تنقل النفط. وعندما راح بعد ذلك يحاول السيطرة على شركة معيَّنة للنفط ويلقى مقاومة، كان يذكِّر أصحاب تلك الشركة باعتمادهم على سكك الحديد. فكان رفض شحن نفطهم، أو رفع أجور الشحن ببساطة، قد يدمِّر تجارتهم. وهكذا غيَّر روكفيللر ميدان اللعب، بحيث كانت الخيارات الوحيدة التي تبقى لصغار منتجي النفط هي الخيارات التي يعطيها لهم.

وبهذا التكتيك يعرف خصومك أن هناك ضغطاً يلوي ذراعهم. ولكن هذا لا يهمّ. فالخطة مؤثرة ضد مَنْ يقاومون مهما كان الثمن.

الخيارات المتقلصة: كان تاجر اللوحات الفنية في أواخر القرن التاسع عشر، آمبرويز فولارد، من الذين أتقنوا هذا الأسلوب. فكان

الزبائن يأتون إلى دكانه لرؤية بعض لوحات سيزان، فيعرض عليهم ثلاث لوحات، ويهمل ذكر الأسعار، ويتظاهر بأنه قد أخذته سِنَةٌ من النوم. فيضطر الزوار إلى المغادرة دون أن يقرّروا شيئاً، ويعودون في العادة في اليوم التالي لرؤية اللوحات مرة أخرى. ولكن فولارد كان في تلك المرة يخرج لهم لوحاتٍ أقل إثارة للاهتمام، متظاهراً بأنه ظنّها هي اللوحات نفسها. فينظر الزبائن إلى المعروضات الجديدة وهم مذهولون. ويغادرون للتفكير فيها، ثم يعودون مرة أخرى. فيحدث الشيء نفسه تكراراً: إذ يعرض عليهم فولارد لوحاتٍ أقل قيمة أيضاً. وأخيراً يدرك المشترون أن من الأفضل لهم أن يلتقطوا ما يعرضه عليهم، لأنهم قد يضطرون في الغد إلى الموافقة على شيء أَرْدَأ، وربما بأسعار أغلى.

ومن التنويعات على هذا الأسلوب رفع السعر في كل مرة يتردَّد فيها الزبون ويمضي يوم آخر. فهذه خدعة تفاوض ممتازة للاستخدام ضد المصابين بتردّد مزمن يمنعهم من الحسم. إذ أنهم سيقْبَلون عندئذٍ فكرةَ أنهم سيحصلون اليوم على صفقة أفضل مما لو انتظروا إلى الغد.

الرجل الضعيف على حافة الهاوية: إن الضعاف هم أفضل مَنْ يمكن التلاعب بهم للتحكم بخياراتهم. كان الكردينال دي ريتْز، مثير الشغب الكبير في القرن السابع عشر، يعمل كمساعد غير رسمي لدوق أورليانز، الذي اشتهر بتردده الشديد. فقد كان إقناع الدوق باتخاذ أي إجراء صراعاً متصلاً ـ فقد كان يتردَّد، ويزن الخيارات، وينتظر حتى اللحظة الأخيرة، ويصيب كلَّ من حوله بقرحة من شدة القلق. ولكن ريتز اكتشف طريقة للتعامل معه: فكان يصف كل أنواع الأخطار، ويبالغ فيها إلى أقصى حدٍّ ممكن، حتى يرى الدوق هوّة فاغرة فاها لابتلاعه في كل اتجاه. سوى اتجاه واحد: هو الذي كان ريتز يَدفعه إليه.

وتشبه هذه الخطةُ تكتيكَ «تلوين الخيارات». ولكن يتعيَّن عليك أن تكون أكثر عدوانيةً مع الضعاف، فاستغلّ عواطفهم، واستعمل خوفهم

ورعبهم لتحريضهم على العمل، لأنك لو حاولت الإقناع العقلي لوجدوا دائماً طريقة للتسويف.

الإخوة في الجريمة: وهذا أسلوب تقليدي يتبعه فنانو التحايل. ويتلخص في اجتذاب ضحاياك إلى خطة إجرامية، فتخلق بينك وبينهم رابطة من الدماء والذنوب، فيشاركون في الخديعة، ويرتكبون جريمة (أو يظنون أنهم ارتكبوا ـ انظر قصّة سام جيزيل في القانون الثالث من هذا الكتاب)، وعندئذ يسهل التلاعب بهم. فقد قام سيرج ستافيسكي، فنان التحايل الفرنسي في عشرينات القرن العشرين، بتوريط الحكومة في أحابيله وحيله بصورة متشابكة، إلى درجة أن الدولة لم تجرؤ على ملاحقته قضائياً، و«اختارت» أن تتركه وشأنه. فكثيراً ما يكون من الحكمة أن تورط في أحابيلك الشخص الذي يحتمل أن يسبّب لك أكبر كميةٍ من الإذى بالذات إذا فشلتَ. ويمكن أن تكون عملية التوريط خفية وذكية ـ فحتى التلميح بتورطهم يضيّق مجال خياراتهم ويشتري لك سكوتهم.

قرون المأزق: وهذه فكرة مثَّلتها وأوضحتها عملية الزحف اللعينة التي قام بها الجنرال وليام شيرمان عبر ولاية جورجيا أثناء الحرب الأهلية الأميركية. فعلى الرغم من أن الكونفدراليين الجنوبيين كانوا يعرفون الاتجاه الذي يسير فيه شيرمان، فإنهم لم يعرفوا قطّ إن كان سيهاجم من اليسار أم من اليمين، لأنه قسم جيشه إلى جناحين ـ بحيث إذا تراجع المتمردون عن جناح، فسوف يجدون أنفسهم في مواجهة الجناح الآخر. وهذا أسلوب تقليدي للمحامين في أثناء المحاكمات. فالمحامي يستدرج الشاهد للبتّ بين تفسيرين محتملين لواقعة مّا، بحيث يؤدي التفسيران كلاهما إلى فتح ثغرة في روايته. والشاهد مضطر إلى الإجابة على أسئلة المحامي، ولكن مهما كان ما يقوله فسيؤذي به نفسه. ومفتاح هذه الحركة هو توجيه الضربة بسرعة: إِحْرِم الضحيّة من الوقت للتفكير في مخرج. وبينما هو يتلوَّى بين قرني المأزق، فإنه يحفر قبره بنفسه.

إفهم: في صراعك مع منافسيك، كثيراً ما يكون من الضروري أن تؤذيهم. وإذا كنتَ أداةَ معاقبتهم فتوقَّع منهم هجوماً معاكساً ـ توقع الانتقام. غير أنهم إذا ظهروا لأنفسهم أنهم كانوا هم أدوات مصيبتهم، فسوف يستسلمون بهدوء. فعندما غادر إيڤان موسكو متجهاً إلى قريته الريفية، وافق المواطنون الذين طلبوا منه العودة، على طلبه الحصول على سلطة مطلقة. وعلى مدى السنين، خفَّت كراهيتهم له على الإرهاب الذي أطلقه في البلد، لأنهم، بعد كل شيء، كانوا هم أنفسهم الذين منحوه سلطته. ولذا فإن من الجيِّد دائماً أن تسمح لضحاياك باختيار السمّ، وأن تخفي بأقصى قدرٍ ممكن تورطك في تزويدهم به.

صورة: قرنا الثور. يدفعك الثور إلى الزاوية بقرنيه معاً. لا بقرنٍ واحد، يمكنك الهرب منه؛ ولكن بزوج من القرون يصطادانك في قبضتهما، فإذا هربت يميناً أو شمالاً ففي الحالين معاً تتحرَّك إلى راسيهما الثاتبين فتتلقى النطحة منهما.

الشاهد: ذلك أن الجروح وكل شرٍّ آخر يوقعه الناس بأنفسهم عفويّاً، وباختيارهم الذاتي هي على المدى الطويل أقل إيلاماً من تلك التي يوقعها بهم الآخرون (نيقولو ماكيافيللي، 1496، 1527).

الانقلاب

إن التحكم في الخيارات له غرض رئيسي واحد: هو أن تتنكَّر بصفتك أداة للسلطة والعقاب، وإذن فإن هذا التكتيك يحقق أفضل نجاح للذين سلطتهم هشّة، والذين لا يستطيعون العمل بشكل مكشوف أكثر من اللازم دون أن يثيروا شبهةً، وحنقاً وغضباً. غير أنه حتى كقاعدة عامة، نادراً ما يكون من الحكمة أن يراك الناس تمارس السلطة مباشرة، وبقوة، مهما بلغ مقدار قوَّتك أو شعورك بالأمان. إذْ أن إعطاء الناس وَهْمَ الاختيار يظل في العادة أكثر كياسةً وأفعل تأثيراً.

ومن جهة أخرى، فإنك بتحديد خيارات الناس تحدِّد خياراتك أحياناً. فهناك مواقف يكون فيها من مصلحتك أن تسمح لمنافسيك بدرجة كبيرة من الحرية: فبينما تراقبهم وهم يعملون، فإنك تعطي نفسك فرصاً غنية للتجسس عليهم، وتجميع المعلومات، والتخطيط لأحابيلك. وكان مصرفيّ القرن التاسع عشر، جيمس روتشيلد، يحبّ هذه الطريقة: ذلك أنه كان يشعر أنه إذا حاول التحكم بحركات خصومه، فسوف يفقد فرصة رصد خطتهم الاستراتيجية والتخطيط لعمل أو إجراء أكثر فاعلية. فكان كلما سمح لهم بحرية أكبر على المدى القصير، زادت قوة عمله ضدهم على المدى الطويل.

القانون

32

داعب خيالات الناس

الحكم

كثيراً ما يتجنَّب الناس الحقيقة لأنها قبيحة وبغيضة. فلا تتوجَّه إلى الحقيقة والواقع ما لم تكن مستعداً للغضب الذي ينجم عن الصحوة من الوهم أو السحر. فالحياة قاسية وضاغطة بكربها إلى درجة أن الناس القادرين على صنع الأحلام أو استدعاء الخيالات والأوهام يشبهون الواحات في الصحراء: فالجميع يتقاطرون إليهم. إن هناك سلطة كبرى في فتح مساراتٍ لخيالات الجماهير.

مراعاة القانون

ظلّت البندقية، المدينة ـ الدولة، غنيةً زمناً طويلاً إلى درجة أن مواطنيها راحوا يشعرون أن القَدَرَ نفسه يقف إلى جانب جمهوريتهم الصغيرة. ففي العصور الوسطى وحتى أوج عصر النهضة في آخر القرن الخامس عشر، جعلها احتكارها العملي للتجارة مع الشرق أغنى مدينة في أوروبا. وتحت حكومة جمهورية خيِّرة، كان البنادقة يتمتعون بحريات لم تعرفها قطّ إلاّ مدنٌ إيطالية قليلة جداً. ومع ذلك فقد تغيَّرت حظوظهم فجأة في القرن السادس عشر، وقد أدّى فتح الدنيا الجديدة إلى تحوُّل السلطة إلى الجانب الأطلسي من أوروبا ـ أي إلى الإسبان والبرتغاليين، وبعد ذلك إلى الهولنديين والإنكليز. فلم تعد البندقية قادرة على المنافسة اقتصادياً، وراحت إمبراطوريتها تتضاءل بالتدريج. فكانت الضربة النهائية هي الخسارة المدمِّرة لإحدى ممتلكاتها النفيسة في البحر الأبيض المتوسط، وهي جزيرة قبرص، التي انتزعها الأتراك من البنادقة في سنة 1570م.

وعندئذ أفلست الأسر النبيلة في البندقية، وبدأت المصارف تطوي نشاطها. وخيَّم على المواطنين نوعٌ من التشاؤم والاكتئاب. فقد عرفوا ماضياً برَّاقاً ـ عاشوا خلاله أو سمعوا عنه قصصاً ممَّن هم أكبر منهم سناً. وكان قرب تلك السنوات المجيدة منهم شيئاً مذلاً. فكان البنادقة نصف مصدّقين أن إلهة الحظ كانت تمارس عليهم نكتة فحسب، وأن

الأيام القديمة ستعود عما قريب. ولكن ماذا كان بوسعهم أن يفعلوا ريثما يحين ذلك الوقت؟

وفي سنة 1589، بدأت الإشاعات تحوم حول البندقية عن وصول رجل غامض رجل إلى براغادينو (المتبجِّح)، وهو أستاذ في الكيمياء، ورجل كسب ثروة لا تصدَّق، من قدرته ـ كما قيل ـ على مضاعفة كميات الذهب عن طريق استعمال مادة سرِّيَّة. فانتشرت الإشاعة بسرعة، لأنه حدث قبل ذلك ببضعة أعوام أن أحد نبلاء البندقية كان ماراً عبر بولندا فسمع رجلاً متعلِّماً يتنبأ بأن البندقية ستستعيد مجدها وسلطتها الماضيين إذا استطاعت العثور على رجل يفهم الفنّ الكيميائي لصناعة الذهب. وهكذا فعندما وصل إلى البندقية خبر الذهب الذي يملكه هذا البراغادينو ـ فقد كان يرنّ المسكوكات الذهبية في يديه باستمرار، وقد ملأت الأشياء الذهبية قصره. بدأ بعض الناس يحلمون: بواسطته قد تزدهر مدينتهم كرَّةً أخرى.

وبناء على ذلك توجه أفراد أهمّ الأسر النبيلة في البندقية معاً إلى بريشيا، حيث كان براغادينو يعيش. فطافوا بقصره، وراحوا ينظرون برهبة بينما كان يعرض عليهم قدراته في صناعة الذهب، فيأخذ مقداراً ضئيلاً من معادن يبدو أنها تافهة ويحوِّلها إلى عدة أونصات من مسحوق الذهب. وتهيَّأ مجلس شيوخ البندقية لمناقشة فكرة توجيه دعوة رسمية إلى براغادينو للإقامة في البندقية على حساب المدينة عندما وصلهم فجأة خبرٌ يقول إنهم كانوا يتنافسون على خدماته مع دوق مانطوا. وسمعوا عن الحفلة الرائعة التي أقامها براغادينو في قصره للدوق، والتي ظهرت فيها ملابسُ بأزرار ذهبية، وساعاتٌ من الذهب، وأطباقٌ من الذهب... وهلمَّ جرا. وبسبب القلق من خسارة براغادينو لصالح مانْطُوَا، صوَّت مجلس الشيوخ بما يقرب من الإجماع على دعوته إلى البندقية، واعدين إيّاه بجبل الأموال الذي سيحتاج إليه كي يستمر في أسلوب معيشته الباذخ ـ ولكن فقط إذا جاءهم على الفور.

وفي أواخر تلك السنة (1589) وصل براغادينو الغامض إلى البندقية. وكان منظره يوحي بالرهبة والهيبة، بعينيه الداكنتين الثاقبتين تحت حاجبين كثيفين، وكلبي الحراسة الضخمين اللذين يرافقانه في كل مكان. فاتخذ مقره في قصر فخم على جزيرة غويديكا، وأخذت الجمهورية تموِّل ولائمه، وملابسه الغالية الثمن، وجميع نزواته الأخرى. وانتشر نوعٌ من حمَّى الكيمياء خلال البندقية. ففي زوايا الشوارع، شرع البائعون الجوَّالون يبيعون الفحم، وأدوات التقطير، والأكوار، وكتب تشرح كيفية الاشتغال في الكيمياء. وبدأ الجميع في ممارسة الكيمياء ـ الجميع ما عدا براغادينو.

ولم يَبْدُ على الكيميائي أنه مستعجل للبدء في صنع الذهب لإنقاذ البندقية من الخراب. فكان من الغرابة بمكان أن ذلك لم ينجم عنه سوى زيادة شعبيته وأتباعه. فقد ازدحم الناس من جميع أنحاء أوروبا، وحتى من آسيا، لملاقاة هذا الرجل اللافت للأنظار. ومرَّت الشهور تترى، وتوالت الهدايا إلى براغادينو من جميع الجوانب. ومع ذلك لم يعطِ أي علامة على إنجاز المعجزة التي توقع البنادقة بثقة أنه سينتجها. غير أن المواطنين بدأوا في آخر الأمر يفقدون صبرهم، ويتساءلون إن كانوا سينتظرون إلى الأبد. وقد حذرهم الشيوخ أولاً أن لا يستعجلوه ـ إذ أنه شيطان متقلِّب المزاج يحتاج إلى مداهنة. وأخيراً بدأ النبلاء يتعجبون أيضاً ويتساءلون. ووقع مجلس الشيوخ تحت الضغط ليعرض على الناس مردوداً لاستثمار المدينة الآخذ في التضخم كالبالون.

ولم يكن لدى براغادينو سوى الاحتقار للشكاكين، ولكنه ردَّ عليهم، فقال إنه قد أودع في دار سكّ النقود في المدينة المادةَ الغامضة التي تُضاعفُ الذهبَ، وأن بإمكانه استعمال المادة كلها دفعة واحدة لمضاعفة الذهب مرة واحدة. ولكن كلما كان استعمال المادة في العملية أبطأ، زاد مردودها. فإذا تركت المادة وشأنها في علبة مختومة سبعة أعوام، فإن المادة ستضاعف الذهب الذي في دار السكّ ثلاثين مرة.

فوافق معظم أعضاء مجلس الشيوخ على الانتظار لحصاد منجم الذهب الذي وعدهم به براغادينو. غير أن آخرين غضبوا: سبع سنوات عجاف أخرى، يعيش فيها هذا الرجل عيشة ملوكية على المعلف العام! ووجدت هذه العواطف صدى ردَّده كثيرون من عامة المواطنين. وأخيراً طلب أعداء الكيميائي أن يُظْهِر برهاناً على مهاراته: كمية كبيرة من الذهب، وبسرعة.

واستمر براغادينو على أنفته المتعجرفة، مُظْهِراً أنه مكرس لفنه، وردَّ بأن البندقية قد خانته بفقدانها للصبر، ولذا فإنها ستخسر خدماته. ثم غادر المدينة، فذهب أولاً، إلى مدينة بادوا القريبة، ثم إلى ميونيخ في سنة 1590، بناء على دعوة من دوق بافارية، الذي كان ـ مثل مدينة البندقية بكاملها ـ قد عرف الثراء العظيم، ثم وقع ضحية الإفلاس نتيجة لتهتكه وإسرافه، فراح يأمل في استعادة ثروته من خلال خدمات الكيميائي الشهير. وهكذا استأنف براغادينو التمتع بالترتيب المريح الذي كان قد عرفه في البندقية، فتكرَّر النمط نفسه.

التفسير

كان الشاب القبرصي مَامُوغْنَا قد عاش عدة أعوام في البندقية قبل أن يعيد تجسيد نفسه باسم الكيميائي براغادينو. وشهد كيف حلَّ الظلام الكئيب على المدينة، وكيف كان الجميع يأملون في الخلاص على يد مصدر غير محدَّد. وبينما كان الدجالون الآخرون يتقنون الحيل اليومية القائمة على خفّة اليد، فإن ماموغنا قد أتقن فهم الطبيعة الإنسانية. فكانت البندقية هي هدفه منذ البداية، وهكذا سافر إلى الخارج، وكسب أموالاً عن طريق شَعْوَذاتِه الكيميائية، ثم عاد إلى إيطاليا، حيث أقام دكانه في بريشيا. وهناك خلق لنفسه سمعة كان يعرف أنها سوف تنتشر لتصل إلى البندقية. بل إن هالة سلطته ستبدو من بعيد أكثر إثارة للإعجاب في الواقع.

وفي البداية، لم يستخدم ماموغنا العروض الفجّة المبتذلة لإقناع الناس بمهاراته الكيميائية. فقد كان قصره الفخم، وملابسه الفاخرة، ورنين الذهب في يديه... كان ذلك كله حجة تتفوّق على أي شيء عقلانيّ.. وأسس ذلك له الدائرة التي استمرَّت في الحركة. وأكدت ثروتُهُ الواضحةُ سُمْعَتَهُ ككيميائي، بحيث أعطاه الرعاة (مثل دوق مانطوا) أموالاً، مما أتاح له أن يعيش في بحبوحة، وأدَّى ذلك بدوره إلى تعزيز سمعته ككيميائي... وهكذا. وعندما ترسَّخت هذه السمعة، وراح الدوقات والشيوخ يتقاتلون عليه، لم يلجأ إلى الضرورة التافهة لاستعراض مهاراته المزعومة إلاً مرَّة واحدة. غير أنه عندما حلَّ ذلك الوقت كان من السهل أن ينخدع به الناس. فقد كانوا يريدون أن يؤمنوا. فالشيوخ البنادقة الذين تفرجوا عليه وهو يضاعف الذهب كانوا بحاجة ماسة إلى الإيمان بحيث عجزوا عن ملاحظة الأنبوب الزجاجي الممتد عبر كمّه، والذي سرَّب منه مسحوقَ الذهب مع الحفنة الضئيلة من المعادن. فكان بألمعيته وتقلبه الكيميائي الذي تحلم به خيالاتهم ـ وما أن خلق لنفسه هالة كهذه، حتى عجز الناس عن ملاحظة أحابيله البسيطة.

هذه هي سلطة الخيالات التي تترسَّخ جذورها فينا، وخاصة في أوقات الندرة والهبوط. فنادراً ما يعتقد الناس أن مشاكلهم تنبع من سيئاتهم وغبائهم بالذات. فاللوم يتحمَّله شخصٌ مّا أو شيءٌ مّا هناك في الخارج، الآخر، العالم، الآلهة ـ وهكذا يأتي الخلاص من الخارج كذلك. ولو وصل براغادينو إلى البندقية، مسلَّحاً بتحليل مفصَّل للأسباب الكامنة وراء انحطاط المدينة الاقتصادي، والخطوات العنيدة الحثيثة التي قد يتطلبها تغيير سير الأمور، لتعرض للاحتقار. ذلك أن الحقيقة كانت مفرطة السوء، والحلّ كان مؤلماً للغاية. وهو في غالبيته نوع العمل الشاق المضني الذي كرَّسه أجداد البنادقة ليخلقوا منه إمبراطوريتهم. أما الخيال من جهة أخرى ـ وفي هذه الحالة، كان هو

وهم الكيمياء الحالم. فكان من السهل فهمه، كما أنه سائغ أكثر، وبلا حدود.

للحصول على السلطة، يتعيَّن عليك أن تكون مصدر مَسَرَّة لمن حولك، والمسرَّة تأتي من استغلال حالات الناس. فإياك أن تَعِدَهُمْ بتحسّنٍ تدريجي عن طريق العمل الشاق، بل عِدْهم بالقمر، وبالتحوُّل المفاجىء والعظيم، وبوعاء الذهب.

لا يحتاج أي إنسان إلى اليأس من كسب اتباع لأغرب الفرضيَّات، إن كان لديه ما يكفي من الفن لعرضها في ألوان ملائمة.

ديفيد هيوم، ١٧١١ - ١٧٧٦

مفاتيح السلطة

لا يستطيع الخيال أن يعمل وحده قطّ. بل هو يتطلَّب الستارة الخلفيّة لما هو رتيب وأرضي دنيوي. إن ضغط الحقيقة الخانق هو الذي يتيح للخيال أن يرسخ جذوره ويزهر. ولقد كانت الحقيقة في البندقية في القرن السادس عشر هي الانحطاط وفقدان النفوذ. وكان الخيال المقابل يصف استعادةً مفاجئةً لأمجاد الماضي عن طريق معجزة الكيمياء. وبينما لم تزد الحقيقةُ إلاّ سوءاً، عاش البنادقة في عالمٍ سعيد من الأحلام استعادت فيه مدينتهم ثراءَها وسلطانها الخرافيين بين عشية وضحاها بتحويل التراب إلى ذهب.

إن الشخص الذي يستطيع أن ينسج خيالاً من حقيقة ثقيلة الوطأة يتوصل إلى قوة لا مثيل لها. ولذا فعندما تبحث عن الوهم الذي سيسيطر على الجماهير، أَبْقِ عينك مركّزةً على الحقائق العادية المبتذلة التي تضغط علينا جميعاً بشكل ثقيل. ولا تُلْهِيَنَّكَ تصورات الناس البراقة عن أنفسهم وعن حياتهم؛ فابحث واحفر عميقاً عمّا هم سجناء في داخله. وعند عثورك عليه، يصبح لديك المفتاح السحري الذي يضع في يديك سلطة عظمى.

ورغم أن الأزمنة تتغير، وكذلك الناس، فلنتفحّص بضع حقائق خانقة تدوم، وفرص اكتساب السلطة التي تقدّمها:

الحقيقة: التغيير بطيء وتدريجي. وهو يتطلب عملاً شاقاً جاداً، وقليلاً من الحظّ، وكمية لا بأس بها من التضحية بالذات، وكثيراً من الصبر.

الخيال: إن تحولاً مفاجئاً سيأتي بتغيير كلّي لحظوظ المرء، متجاوزاً العمل، والحظ، والتضحية بالذات، والزمن في ضربةٍ خياليةٍ واحدة.

وهذا بالطبع هو الوهم المثالي الممتاز للمشعوذين الذين يتسكعون بيننا حتى هذا اليوم. وقد كان هو مفتاح نجاح براغادينو. قَدِّمْ وعداً بتغيير عظيم وكلّي، من الفقر إلى الغنى، ومن المرض إلى الصحة، ومن التعاسة إلى نشوة السعادة ـ وسيكون لك أتباع.

كيف أصبح ليونارد ثورنيسر، الدجال الألماني الكبير في القرن السادس عشر، طبيباً لبلاط أمير براندنبرغ دون أن يدرس الطبّ على الإطلاق؟ لقد كان ثورنيسر يقدم أكاسِرَ حلوةَ المذاق ووعوداً بالشفاء الفوري، بدلاً من عمليات البتر، والعَلَق، والمطهرات الخبيثة الطعم (الأدوية الشائعة في ذلك الزمن). فكان رجال الحاشية من الطبقة الراقية على وجه الخصوص يطلبون محلوله من «الذهب القابل للشرب» الذي كان يكلّف ثروة. فإذا أصابك مرض لا تفسير له، فإن ثورنيسر يستطلع لك الأبراج ليصف طلسماً. فمن يستطيع أن يقاوم مثل هذا الوهم ـ الصحة والسعادة بدون تضحية ولا ألم!

الحقيقة: إن المملكة الاجتماعية فيها قوانين وحدود قاسية جامدة. ونحن نفهم هذه الحدود، ونعرف أننا مضطرون للتحرك ضمن الدوائر المعروفة لدينا نفسها، يوماً إِثْرَ يوم.

الخيال: إننا قادرون على دخول عالم جديد كلياً، فيه قوانين مختلفة ووعد بالمغامرة.

في أوائل القرن الثامن عشر، كانت مدينة لندن كلها تتزّ بالحديث عن شخص غامض غريب، شاب يدعى جورج سالمنصّر، كان قد وصل ممّا يعتبره معظم الإنكليز، أرض الخيال: من جزيرة فرموزا (تايوان الآن)، على مقربة من ساحل الصين. وكانت جامعة أوكسفورد قد استأجرت سالمنصّر لتدريس لغة تلك الجزيرة؛ وبعد بضعة أعوام ترجم الإنجيل إلى اللغة الفرموزية، ثم ألف كتاباً عن تاريخ فرموزا وجغرافيتها ـ صار على الفور من أفضل الكتب مبيعاً .. وأخذ أفراد العائلة المالكة يدعون هذا الشاب إلى الطعام والشراب. وفي كل مكان يذهب إليه، كان يتحف مضيفيه بقصص عجيبة عن وطنه وعاداته الغريبة.

غير أنه بعد موت سالمنصّر هذا كشف وصيتُه أنه لم يكن في الحقيقة سوى رجل فرنسي واسع الخيال. وكان كل شيء قاله عن فرموزا ـ أبجديتها، ولغتها، وأدبها، وحضارتها كلها ـ من اختراعه. لقد اعتمد على جهل عامة الإنكليز بذلك المكان لكي يلفق قصة بارعة التركيب لَبّت رغبتهم فيما هو عجيب وغريب. وقد أعطته السيطرة الصارمة على أحلام الناس الخطرة في الحضارة البريطانية فرصةً كاملة لاستغلال خيالهم.

كما أن الخيال الغرائبيّ يستطيع بالطبع أن يلامس ما هو جنسيّ. غير أنه يجب أن لا يقترب منه بشكل مفرط، لأن الجسدي يعيق سلطة الخيال؛ فالجسدي يمكن رؤيته، والإمساك به، ثم الملل منه ـ فهذا هو مصير معظم الغواني. ذلك أن المفاتن الجسدية للعشيقة إنما تشحذ شهوة السيد لمسرات أخرى ومختلفة، لجمال جديد يعبده. فلكي يأتي الخيال بالسلطة ينبغي أن يظل غير متحقق إلى حدٍ مّا، وأن يكون غير حقيقيّ بالمعنى الحرفي للكلمة. وعلى سبيل المثال، فإن الراقصة ماتاهاري، التي صعدت إلى مكانة عامة بارزة في باريس قبل الحرب العالمية الأولى، كان منظرها عادياً تماماً. فقد كانت سلطتها نابعة من الخيال الذي خلقته عن كونها غريبة ومجلوبة، غير قابلة لأن يعرفها أو يحل

لغزها أحد. فالأمور المحرمة التي استغلّتها كانت هي انتهاك القوانين الاجتماعية أكثر من أن تكون جنساً.

ومن الأشكال الأخرى للخيال الغرائبيّ الأمل ـ ببساطة ـ في التخلص من السأم. ففنانو التدجيل والخداع يحبون أن يستغلّوا ثقل وطأة عالم العمل، وانعدام المغامرة فيه. ويمكن أن تنطوي أحابيلهم ـ مثلاً ـ على استعادة كنز إسباني مفقود مع مشاركة ممكنة من آنسةٍ مكسيكيّة مغرية، وعلاقة مع رئيس بلد أميركي لاتينيّ ـ وأي شيء يقدم خلاصاً من الرتابة المملّة.

الحقيقة: المجتمع مجزّأ ومليء بالصراع.

الخيال: يستطيع الناس أن يتجمعوا معاً في وحدة صوفية للأرواح.

في عشرينات القرن العشرين، كوّن المحتال أوسكار هارتزل ثروةً سريعة من عملية نصب تاريخية قديمة معروفة باسم السير فرانسيس دريك (الأميرال الإنكليزي ذي الاسم الأسطوري الذي عاش في القرن السادس عشر 1543 ـ 1596، ونهب المستعمرات الإسبانية في الدنيا الجديدة، وشارك في دحر الأرمادا الإسبانية التي كانت تنوي غزو إنكلترا سنة 1588: المترجم) ـ وهي عملية تتكون أساساً من تقديم وعدٍ لأيّ مغفل يتصادف أن يحمل اسم «دريك» بإعطائه حصة كبيرة من «كنز دريك» المفقود منذ زمن طويل، والموجود تحت يد هارتزل. وقد وقع الألوف عبر الغرب الأوسط الأميركي ضحايا هذه الخديعة، التي حوّلها هارتزل ببراعة إلى حملة عنيفة ضد الحكومة، وكل شخص آخر يحاول إبعاد ثروة دريك عن أيدي ورثته الشرعيين. وقد نشأ اتحاد صوفي لآل دريك المقهورين، راح يعقد تجمهرات واجتماعات عاطفية. قدم وعداً بتشكيل اتحاد من هذا القبيل فتحصل على كثير من السلطة، ولكنها سلطة خطرة يمكن أن تنقلب ضدك بسهولة. فهذا خيال يستغلّه المهرجون الدهمائيون.

الحقيقة: الموت: لا يمكن إعادة الموتى، والماضي لا يمكن تغييره.

الخيال: قلبٌ مفاجئ لهذه الحقيقة التي لا تطاق.

لهذه الخديعة تنويعات كثيرة، ولكنها تتطلب براعة عظيمة وذكاءً حاذقاً ماكراً.

لقد اعترف الناس منذ زمن طويل بجمال فنّ الرسام الهولندي جان فيرمير (1632 ـ 1675) وأهميته. ولكن لوحاته قليلة العدد، ونادرة للغاية. غير أنها بدأت تظهر في سوق الفن في ثلاثينات القرن العشرين. واستدعي الخبراء للتحقق منها، فأعلنوا أنها حقيقية. وكان امتلاك هذه اللوحات الجديدة لفيرمير جديراً بتتويج الحياة العملية لأي جامعٍ للتحف الفنية. إذ كانت تشبه بعث العزيز إلى الحياة. وهكذا تم بعث فيرمير بطريقة غريبة.

ولم يظهر إلاّ فيما بعد أن لوحات فيرمير الجديدة هذه إنما كانت من عمل مزوّر هولندي في منتصف العمر يدعى هان فان ميغِرين وقد اختار فيرمير لخديعته لأنه كان يفهم الخيال. إذْ أن الرسوم ستبدو حقيقية لأن عامة الناس، وكذلك الخبراء، كانوا يريدون، بالضبط وبصورة يائسة، أن يعتقدوا بأنها حقيقية.

تَذَكَّرْ: إن مفتاح الخيال هو بعد المسافة. فالبعيد له بريق وإغراء ووعد، ويبدو بسيطاً وبلا مشاكل. ولذا ينبغي أن يكون ما تقدمه غير قابل للفهم. وإياك أن تجعله مألوفاً على نحو ثقيل الوطأة، بل أبقه سراباً من بعيد، يتراجع كلما اقترب نحوه المغفّل. ولا تكن مباشِراً أكثر من اللازم أبداً في وصفك للخيال ـ بل أَبْقِهِ غامضاً. وباعتبارك مزوراً للخيالات والأوهام، دع ضحيتك تقترب اقتراباً يكفي للرؤية والتعرض للإغراء، ولكن أَبْقِ الضحيةَ على مبعدة تكفي لجعله يستمر في أحلامه ورغباته.

صورة: القمر لا يمكن
الوصول إليه، وهو دائماً يغير
شكله، ويختفي ثم يعود للظهور.
ونحن ننظر إليه، ونتخيّل ونتعجب،
ونتساءل، ونتشوّق ـ وهو غير معروفٍ
لنا أبداً، بل إنه مستمر في استثارة
الأحلام. فلا تُقَدِّمْ ما هو واضح، بل
عِدْ بتقديم القمر.

الشاهد: الكذبة إغواء وفتنة، شيء مصنوع يمكن زخرفته حتى يتحول إلى خيال. ويمكن إدراجه في زيّ مفهوم صوفيّ. فالحقيقة باردة، واقع رصين، وليس استيعابها مريحاً جداً. أما الكذبة فهي مستساغة أكثر. إن أكثر الناس تعرضاً للاحتقار في العالم هو الشخص الذي يذكر الحقيقة دائماً، فلا يشطح بخياله قَطّ... لقد وَجَدْتُ أن التحليق مع الوهم مُرْبِحٌ ومثير للاهتمام أكثر بكثير من قول الحقيقة. (جوزيف ويل، المعروف أيضاً بلقب «الغلام الأصفر» 1875، 1976).

الانقلاب

إذا كان في الانفتاح على خيالات الجماهير سلطة، فإنه لا يخلو من خطرٍ كذلك. فالخيال يحتوي عادة على عنصر من اللعب. فالجمهور يدرك نصف إدراك أنه يتعرض لخدعة، غير أنه يبقي الحلم حياً على أية حال، مستذوقاً الإغراء والالتهاء المؤقت عن الأشياء اليومية العادية التي تقدمها. فابق الأمور خفيفة ـ وإياك أن تقترب من المكان الذي يُتَوَقَّعُ منك فيه أن تعطي نتائج من الناحية العملية. إذ أن ذلك المكان قد يثبت أنه خطر للغاية.

بعد أن استقر براغادينو في ميونيخ وجد أن البافاريين ذوي الأذهان المتزنة لديهم إيمان بالكيمياء أقل بكثير من إيمان البنادقة المزاجيين. فلم يكن يؤمن بها في الحقيقة سوى الدوق، لأنه كان بحاجة يائسة إليها

لإنقاذه من الورطة التي غرق فيها حتى صار بلا أمل. وعندما شرع براغادينو يمارس لعبته المعروفة من الانتظار، ويقبل الهدايا ويتوقع الصبر، غضب عامة الناس. فقد كان المال يُصْرَف ولا يعطي نتائج. وفي سنة 1592 طالب البافاريون بالعدالة، وفي آخر الأمر وجد براغادينو نفسه يتأرجح من حبل المشنقة.. لأنه وعد ولم يفِ بوعده، تماماً كما فعل في السابق.. غير أنه في هذه المرة أساء تقدير مدى احتمال مضيفيه وأثبت عَجْزَهُ عن تحقيق خيالهم أنه قاتل.

وشيء واحد أخير: إياك أن ترتكب خطأ التصور بأن الخيال هو وَهْمٌ دائماً. إنه بالتأكيد يتناقض مع الحقيقة، ولكن الحقيقة نفسها تكون أحياناً مُمَسْرَحَةً ومقدمةً بأسلوب معين يجعل الخيال يصبح رغبةً في الأشياء البسيطة. فالصورة التي أوجدها أبراهام لينكولن عن نفسه مثلاً كمحامٍ ريفي من إنتاج محلي له لحية جعله رئيسَ الرجل العادي.

وأوجد ب .ت. بارنوم تمثيلية ناجحة مع توم ثامْبْ، وهو قزم كان يرتدي أزياء يقلد بها القادة المشهورين من الماضي، مثل نابليون، ويسخر منهم على نحو شرير. فكان العرض يسرّ الجميع، صعوداً حتى الملكة فكتوريا، باقترابه من خيال ذلك العصر: كفى مشاهد من حياة حكام التاريخ المغرورين المزهوين، فالإنسان العادي يعرف أكثر من الجميع. فَعَكَسَ توم ثامب النمط المعهود للخيال الذي كان فيه الشيء الغريب وغير المعروف يصبح مثالياً. ولكن التمثيلية استمرت تحترم القانون، إذْ تحتها كان يكمن الخيال الزاعم أن الرجل البسيط لا مشاكل له، وهو أسعد من الأقوياء ذوي السلطة والأغنياء ذوي المال.

وقد مثّل كلٌّ من لينكولن وثوم ثَامْبْ (المعروف لدى العامة عندنا بلقب «عقلة الإصبع») دور الرجل العادي، مع الحرص على إبقاء مسافة بينهما وبينه، فإذا أتيح لك أن تلعب بهذا الخيال فعليك أن تحرص أيضاً على إبقاء مسافة، ولا تجعل شخصية الرجل العادي التي تلعبها مألوفة بإفراط، وإلاَّ فإنها لن تبرز على أنها خيال.

القانون

33

اكتشف أداة الضغط على كل شخص

الحكم

في كل إنسان نقطة ضعف، فجوة في سور القلعة. ونقطة الضعف هذه قد تكون عدم الشعور بالأمن، أو عاطفة أو حاجة لا يمكن ضبطها والسيطرة عليها؛ وقد تكون أيضاً مَسَرَّةٌ صغيرة خفيّة. ومهما كانت فإنها عند العثور عليها تكون هي أداة الضغط التي يمكنك أن تديرها كما تدير أسنان البرغي لمصلحتك.

العثور على أداة الضغط: خطة عمل استراتيجية

لدينا جميعاً مقاومة. فنحن نعيش بدرع دائم ملفوف على أنفسنا ليحمينا من التغيير ومن الأعمال المتطفلة لأصدقائنا ومنافسينا. ونحن لا نحب شيئاً أكثر من تركنا نعمل الأشياء بطريقتنا الخاصة. إن مناطحة هذه المقاوِمَاتِ باستمرار تكلفك كثيراً من الطاقة. غير أن من أهم الأشياء التي ينبغي إدراكها عن الناس هو أن لديهم جميعاً نقاط ضعف، جزء من درعهم النفسي لا يقاوم، بل ينحني لإرادتك إذا عثرتَ عليه وقمتَ بالضغط. وبعض الناس تكون نقاط الضعف فيهم واضحة مكشوفة، بينما يخفيها آخرون. وكثيراً ما يكون الذين يموّهون نقاط ضعفهم هم المعرضون للرضوخ على نحو أكثر فاعلية من خلال ذلك الشقّ في درعهم.

وعند تخطيط هجومك، أَبْقِ المبادىء التالية ماثلةً في ذهنك:

انتبه للإشارات والعلامات غير الواعية: كما يقول سيغموند فرويد: «لا يستطيع إنسان أن يكتم سراً. فإذا صمتت شفتاه، فإنه يثرثر بأصابعه؛ فالخيانة التي تنم عنه تنزّ من كل واحدة من مَسَامَاتِه». وهذا مفهوم حساس الأهمية في البحث عن نقطة ضعف شخصٍ مّا ـ وهي تنكشف عن طريق إشارات تبدو غير هامّة وكلمات عابرة.

والمفتاح ليس ما تبحث عنه فحسب، بل أين تبحث وكيف تبحث. فالمحادثة اليومية تقدم أغنى منجم بنقاط الضعف. وهكذا درِّب

نفسك على الاستماع. وابدأ بأن تبدو مهتماً على الدوام ـ ذلك أن ظهور أذنٍ متعاطفة يحثّ كل شخص على الكلام. ومن الحيل البارعة التي كان يستعملها تاليران، السياسي الفرنسي في القرن التاسع عشر، هي الظهور بمظهر المنفتح على الشخص الآخر، ومشاطرته سرّاً مّا. وقد يكون ذلك السر مصنوعاً تماماً، وقد يكون حقيقيّاً ولكن لا أهمية كبيرة له عندك ـ فالمهم أنه يجب أن يبدو خارجاً من القلب، فذلك يستدرج في العادة استجابة ليست صريحة كصراحتك فحسب، بل أكثر أصالة .وهي استجابة تكشف نقطة ضعف.

فإذا شككت في أن شخصاً مّا لديه نقطة ضعف مخصوصة فاسبر غَوْرَه بحثاً عنها بطريقة غير مباشرة. وعلى سبيل المثال، إذا شعرتَ بأن رجلاً في حاجة إلى أن يُحَبّ فتملّقه علناً، فإذا تقبل مدائحك، مهما كانت سافرة، فإنك على الطريق الصحيح. ودَرِّبْ عينك على ملاحظة التفاصيل ـ كيف يدفع شخصٌ مّا إكرامية للنادل، وما الذي يسرّ شخصاً مّا، والرسائل الخفية المستقاة من الملابس. واكتشِفِ الأشياءَ المعبودةَ عند الناس والتي يفعلون أي شيء للحصول عليها. فلعلك تستطيع أن تصبح مجهزَ ما يحبونه ويتخيلونه. تذكّر: بما أننا جميعاً نحاول أن نخفي نقاط ضعفنا، فليس هناك ما يمكن تعلمه من سلوكنا الواعي. إن ما ينزّ في الأشياء الصغيرة خارج سيطرتنا الواعية هي بالضبط ما تريد أنت معرفته.

اعثر على الطفل البائس: تبدأ معظم نقاط الضعف من الطفولة. قبل أن تبني النفس دفاعاتها التعويضية. فربما كان الطفل مدللاً وطلباته ملبّاة في مجال معين، أو لعلّ حاجة عاطفية معينة بقيت بلا تلبية؛ ومع نمو الطفل فإن التدليل أو النقص قد يُدْفَنَان ولكنهما لا يختفيان أبداً. فالمعرفة بحاجة الطفولة تعطيك مفتاحاً قوياً لضعف شخصٍ مّا.

ومن علامات هذا الضعف أنك عندما تلمسه فإن الشخص كثيراً ما يتصرف كطفل. فابحث إذن عن أي سلوك كان يجب أن يكون قد انتهى

مع نمو الشخص. فإذا كان ضحاياك أو منافسوك قد حرموا من شيء سنة في طفولتهم فقدمه لهم أو قدّمْ صورة طبق الأصل له. فإذا كشفوا عن ذوقٍ سريّ مّا، أو انغماس في شيء خفيٍّ مّا، فاعطه لهم، وأطلق لهم العنان لإشباع تلك الرغبة، وسيعجزون عن مقاومتك.

ابحث عن المتناقضات: إن الخصلة العلنية كثيراً ما تخفي عكسها. فالناس الذين يدقون على صدورهم غالباً ما يكونون من أكبر الجبناء. وربما أخفى المظهرُ الخارجيُّ المفرطُ الاحتشام، جوهراً داعراً فاسقاً؛ وكثيراً ما يكون الجامدون، بشكل تقليدي، هم الصارخون (ضمناً) في طلب المغامرة؛ أما الخجولون، فهم المتشوقون جداً إلى لفت الأنظار. فبالبحث خلف المظاهر كثيراً ما تعثر لدى الناس على نقاط ضعف تعاكس الخصائل التي يكشفونها لك.

جِدْ حلقة الوصل الضعيفة: في بحثك عن نقاط الضعف أحياناً لا يكون المهم «ماذا»، بل «من». ففي نُسَخِ اليوم عن البلاط هناك غالباً شخصٌ مّا خلف الكواليس لديه كثير من السلطة، ونفوذ هائل على الشخص الموجود سطحياً على القمة. إن وسطاء السلطة القابعين خلف الكواليس هؤلاء هم نقطة ضعف المجموعة. اكسب ودّهم وسوف تؤثر على الملك بصورة غير مباشرة. والبديل الممكن لذلك، حتى في مجموعة من الناس، تعطي مظهر أناس يتصرفون بإرادة واحدة ـ كما هي الحال في مجموعة واقعة تحت الهجوم، فهي ترصّ صفوفها لمقاومة شخص خارجي. هناك دائماً حلقة ضعيفة في السلسلة. فاعثر على الشخص الذي ينحني تحت الضغط.

املأ الفراغ: إن الفراغين العاطفيين الرئيسيّين اللذين يتعين ملؤهما هما انعدام الأمن وانعدام السعادة. ففاقدو الأمن يتعطشون لأي نوع من الاعتراف الاجتماعي بهم. أما بالنسبة للمصابين بتعاسة مزمنة فابحث عن جذور تعاستهم. فالناس غير الآمنين وغير السعداء هم أعجز الناس عن

ارفنغ لازار
كان [الوكيل الهوليودي الكبير] ارفنغ لازار متلهّفاً ذات مرة لبيع روايةٍ لـ [قطب الاستديوهات] جاك ل. وارنر. فأوضح

تمويه ضعفهم وإخفائه. إن القدرة على ملء فراغاتهم العاطفية هي مصدر عظيم للسلطة التي يمكن إطالتها بلا حدود.

تَغَذَّ على العواطف الخارجة عن السيطرة: قد تكون العاطفة الخارجة عن السيطرة هي خوف الارتياب الجنوني في الآخرين (البارانويا) - وهو خوف غير متناسب مع الوضع. أو أي دافع خسيس كالشهوة، والطمع، والغرور، والكراهية. فالناس الواقعون في براثن هذه العواطف كثيراً ما يعجزون عن ضبط أنفسهم، ويمكنك أن تقوم بالسيطرة نيابة عنه.

حالات مراعاة القانون

المراعاة الأولى

في سنة 1615، قام أُسقف لوصون البالغ من العمر ثلاثين عاماً والذي عرف فيما بعد باسم الكردينال ريشيليو، بإلقاء خطاب أمام ممثلي الطبقات الثلاث في فرنسا، وهم رجال الدين، والنبلاء، والعامة. وكان ريشيليو قد انتُخِبَ ليعمل ناطقاً باسم رجال الدين - فكانت تلك مسؤولية هائلة، لرجل لا يزال شاباً وغير معروف جيداً. وفيما يتصل بكل القضايا الهامة في ذلك الوقت، كان الخطاب يتبع خط الكنيسة. ولكن عندما اقترب الخطاب من نهايته، عمل ريشيليو شيئاً لا علاقة له بالكنيسة، وله كل العلاقة بمستقبل حياته العملية. فتوجَّه ريشيليو إلى عرش الملك لويس الثالث عشر، الذي كان في الخامسة عشرة من عمره، وإلى أمه الملكة ماري دي مديتشي، التي كانت تجلس إلى جانب لويس باعتبارها الوصية الحاكمة لفرنسا حتى يبلغ ابنها سن الرشد. وقد توقع الجميع من ريشيليو أن يقول الكلمات اللطيفة المعتادة للملك الشاب. غير أنّه، بدلاً من ذلك، التفت مباشرة إلى الملكة الأم، وإليها فقط. وأنهى خطابه في الواقع بمديح مستفيضٍ لها يبعث على الغثيان لانطوائه على الرياء، مديح بلغ من توهّجه أنه ضايق بعض الناس في الكنيسة. ولكن الابتسامة على

الأمر [لكاتب المشاهد السينمائية غارسون كانين] قائلاً: «لقد اجتمعتُ به مطوّلاً اليوم، ولكنني لم أذكر الأمر له، بل إنني لم أطرحه للبحث أصلاً» فسألته: «لماذا؟»، فقال: لأنني سأنتظر حتى عطلة نهاية الأسبوع ما بعد القادم، عندما أذهب إلى بالم سبرنغز»، فقلت له: «إنني لا أفهم». فقال: «لا تفهم؟ إنني أذهب إلى بالم سبرنغز في نهاية كل أسبوع، ولكن وارنر غير ذاهب إلى هناك في عطلة نهاية هذا الأسبوع، فلديه عرض مسبق لفيلم أو ارتباطٌ مّا، ولذا فإنه لن يأتي حتى نهاية الأسبوع التالي، وعندئذٍ سأطرح الموضوع عليه». فقلت له: «يا إرفنغ، إنك تزيدني حيرة على حيرة». فقال إرفنغ وقد فرغ صبره: «انظر. إنني أعرف ما أفعل. وأعرف كيف أبيع وارنر. فهذا نوع من المواد لا يرتاح له، ولذا فإن عليّ أن أوجّه إليه بها ضربة قاسية أفاجئه بها كي أحصل منه على الموافقة». فسألته: «ولكن لماذا في بالم سبرنغز؟» فأجاب: «لأنه في بالم سبرنغز يذهب كل يوم إلى حمام المياه المعدنية في المنتجع، وسأكون هناك عند وصوله. وهناك شيء له خصوصية في جاك، فهو في الثمانين من عمره، وهو مغرور جداً. وهو لا يحب أن يراه الناس عارياً. وهكذا سأتجه إليه عارياً في المنتجع - أقصد عندما يكون هو عارياً -... حسناً، سأكون أنا عارياً كذلك، ولكنني لا أهتم بمن قد يراني. أما هو

وجه الملكة بينما كانت تلعق مدائح ريشيليو بتلذذ، كانت شيئاً لا يُنْسَىٰ.

وبعد عام، قامت الملكة الأم بتعيين ريشيليو وزيرَ دولة للشؤون الخارجية، فكان ذلك انقلاباً لا يصدّق بالنسبة للأسقف الشاب. إذْ أنه بذلك قد دخل إلى الدائرة الداخلية للسلطة. فراح يدرس أعمال البلاط كما لو كانت هي الآلات الداخلية للساعة. كان هناك إيطالي يدعى كونيسنو كونسيني هو صاحب الحظوة لدى الملكة الأم، بل عشيقها. وهذا دور لعله قد جعله أقوى رجل في فرنسا. وكان كونسيني مغرور ومتغندراً يسرف في أناقته، فاستغل ريشيليو هذه النزعة فيه إلى الحد الأقصى - فراح يهتم بإرضائه وكأنه هو الملك. وفي غضون أشهر، صار ريشيليو من ذوي الحظوة لدى كونسيني. ولكن شيئاً حدث في سنة 1617، قلب كل شيء رأساً على عقب. ذلك أن الملك، الذي كان حتى ذلك الحين يظهر كل إشارة على أنه أبله دبّر اغتيال كونسيني وحبس كل المرتبطين به. وبهذا العمل، أمسك الملك بزمام الأمور في البلد بضربة واحدة، فكنس الملكة الأم جانباً.

فيهتم. فسوف أتجه إليه عارياً وأبدأ بالحديث من هذا الشيء. وعندئذ فإنه سيشعر بحرج شديد. وسيريد الابتعاد مني، وأسهل طريقة لذلك أن يقول «نعم»، لأنه يعرف أنه إذا قال «لا» فسوف ألتصق به وأظل أتحاور معه بلا كلل. فلكي يتخلص مني، فإنه سيقول «نعم» على الأرجح. وبعد أسبوعين، قرأت عن حصول الأخوين وارنر على ملكية ذلك الشيء بالذات. فاتصلت بلازار هاتفياً وسألته كيف أتم الصفقة. فسألني: «كيف تظن أنني فعلتها؟ لقد خففت عليه الصدمة، وأنهيت الأمر بالطريقة التي قلت لك إنني سأطبقها، وقد نجحت».

هوليود
غارسون كانين، 1974

فهل مارس ريشيليو اللعبة بطريقة خاطئة؟ لقد كان قريباً من كونسيني ومن ماري دي مديتشي كليهما، وقد فقد مستشاروهما ووزرائهما الآن كل حظوة، بل إن بعضهم قد اعتُقِلَ. وكانت الملكة الأم نفسها حبيسة اللوفر، وكأنها سجينة من الناحية العملية. فلم يُضِعْ ريشيليو وقتاً. وقرر أنه إذا كان الجميع قد تخلّوا عن ماري دي مديتشي فسوف يقف إلى جانبها. كان يعرف أن لويسَ لا يستطيع التخلص منها، لأن الملك ما يزال صغير السن جداً. وكان على أية حال شديد التعلق بها دائماً. ولما كان ريشيليو هو الصديق الوحيد ذو السلطة الذي بقي لماري، فقد أدى المهمة الثمينة كصلة للوصل بين الملك وأمه. وفي مقابل ذلك تلقى حمايتها، واستطاع أن ينجو من انقلاب القصر، بل ويزدهر وينتعش. وعلى مدى السنوات القليلة التالية زاد اعتماد الملكة عليه، وفي سنة 1622، دفعت له ثمن ولائه. فعن طريق شفاعة حلفائها

في روما رُفّع ريشيليو إلى رتبة الكاردينال القوية ذات السلطة.

وبحلول سنة 1623، وقع الملك لويس في متاعب. فلم يكن لديه أحد يثق به ليتلقى مشورته، ورغم أنه كان شاباً ولم يعد صبياً، فقد ظلت روحه طفولية. وكانت شؤون الدولة صعبة عليه؛ أمَّا وقد أخذ العرش، فلم تعد ماري وصية عليه، ومن الناحية النظرية لم تكن لديها أية سلطة. ولكنها كانت لا تزال قريبة من أُذُنِ ولدها ومسموعة الكلمة عنده. فظلّت تكرر على مسامعه أن ريشيليو هو منقذه المحتمل الوحيد: وفي بادىء الأمر لم يكن لويس ليقبل ذلك، إذ أنه كان يكره الكردينال بعنف، ولا يتقبل وجوده إلاً مراعاة لحبّه لأمه. غير أنه صار في آخر الأمر منعزلاً في بلاطه، ومُقْعَداً بسبب تردده، فاستسلم لأمّه، وجعل ريشيليو مستشاره في البداية، ثم رئيساً لوزرائه فيما بعد.

وعندئذ لم يعد ريشيليو بحاجة إلى ماري دي مديتشي، توقف عن زيارتها والتزلّف إليها. وتوقف عن الاستماع إلى آرائها، بل راح يجادلها ويعارض رغباتها. وركّز على الملك بدلاً منها، فجعل نفسه عنصراً لا يستغني عنه سيده. وكان كل رؤساء الوزارة السابقين يتفهمون عقلية الملك الطفولية، فحاولوا إبعاده عن المتاعب؛ أما ريشيليو فاستغلّه بطريقة أخرى، متعمداً دفعه إلى مشروع طموح بعد آخر، مثل الحملة الصليبية ضد الهوغونوت (البروتستانت الفرنسيين)، وأخيراً زجّه في حرب متطاولة مع إسبانيا. وأدت ضخامة هذه المشاريع، إلى جعل الملك أكثر اعتماداً على رئيس وزرائه القوي، الوحيد القادر على حفظ النظام في المملكة. وهكذا، على مدى الأعوام الثمانية عشر التالية، راح ريشيليو يحكم فرنسا ويقولبها حسب رؤيته الخاصة، مستغِلاً ضَعْفَ الملك، فوحّد البلد وجعله قوةً أوروبيةً صلبةً طيلة عدة قرون بعد ذلك.

التفسير

كان ريشيليو يرى كل شيء كأنّه حملة عسكرية، ولم تكن هناك أية حركة استراتيجية أهمّ عنده من اكتشاف نقاط ضعف العدو، وممارسة

للاشياء الصغيرة اهميتها

ومع مرور الزمن رأيتني أبحث عن نقاط الضعف الصغيرة... فالأشياء الصغيرة هي التي تهم. وفي إحدى المناسبات، حاولت التأثير على رئيس مصرف في أوماها. وكانت الصفقة [المزيفة] تنطوي على شراء نظام سكك الحديد في شوارع أوماها، ويشمل ذلك جسراً على نهر المسيسيبي. وكان المفروض أن رؤسائي

الضغط عليه. فمنذ وقت مبكر، عندما ألقى خطابه سنة 1615، كان يبحث عن الحلقة الضعيفة في سلسلة السلطة، ورأى أن تلك الحلقة هي الملكة الوالدة. ليس لأن ماري دي مديتشي كانت ضعيفة بوضوح ـ فقد كانت تحكم فرنسا وولدها معاً؛ ولكن ريشيليو رأى أنها في الحقيقة كانت امرأة لا تشعر بالأمان، وتحتاج إلى رعاية مستمرة من أحد الذكور، فأمطرها بالعاطفة والاحترام، بل أخذ يتملق صاحبَ الحظوةَ لديها، كونسيني. وكان يعلم أن يوماً سيأتي عندما يتولى الملك الأمور، ولكنه كان يدرك أيضاً أن لويس يحب أمه حباً جماً، وسيظل دائماً طفلاً في علاقته معاً. وإذن، فإن الطريق للسيطرة على لويس ليس بكسب ودّه، الذي قد يتغير بين عشية وضحاها، بل بكسب السيطرة على أمه، التي لن تتغير مودته لها.

وما إن حصل ريشيليو على المركز الذي رغب فيه ـ رئاسة الوزراء ـ حتى ألقى بالملكة الأم جانباً، منتقلاً إلى الحلقة الضعيفة التالية في السلسلة: شخصية الملك لويس نفسه. فقد كان فيه جزء يبقيه على الدوام طفلاً لا حول له يحتاج إلى سلطة أعلى. وهكذا بنى ريشيليو سلطته وشهرته على أساس ضعف الملك.

تذكّر: عند دخول البلاط، ابحث عن الحلقة الضعيفة. فالشخص المسيطر كثيراً ما لا يكون الملك أو الملكة، بل هو شخصٌ مّا خلف الكواليس، صاحبِ الحظوة، الزوج أو الزوجة، وحتى مهرج البلاط. وقد تكون في هذا الشخص نقاط ضعف أكثر حتى من الملك نفسه، لأن سلطته تعتمد على جميع أنواع العوامل المتقلّبة الخارجة عن سيطرته.

وأخيراً، عند تعاملك مع الأطفال الضعفاء الذين لا يستطيعون اتخاذ القرارات، استغلّ ضعفهم ودفعهم إلى مغامرات جريئة. فيضطرون إلى الاعتماد عليك. أكثر فأكثر لأنك ستصبح الشخص البالغ الذي يعتمدون عليه لإخراجهم من المآزق والاتجاه بهم نحو السلامة.

ألمان، وأن عليّ أن أتفاوض مع برلين. وبينما كنت في انتظار كلمة منهم قدمت اقتراحي لمشروع شركة تعدين مزيفة. وبما أن ذلك الرجل كان غنياً، فقد قررت أن أقامر بمبالغ كبيرة... وفي تلك الأثناء كنت أمارس لعبة الغولف مع المصرفيّ، وزرته في بيته، وذهبت معه ومع زوجته إلى المسرح. ورغم أنه أظهر اهتماماً بمشروع صفقتي الخاصة بالشركة المساهمة المذكورة، فإنه لم يكن قد اقتنع به بعد. وقد بيّنتُ إلى حد أنه كان مطلوباً استثمار مليون وربع مليون دولار فيه، أقدم منها تسعمائة ألف ويقدم الصيرفي ثلاثمائة وخمسين ألفاً. ومع ذلك فقد ظل يتردد. وذات مساء، بينما كنت في بيته مدعواً إلى العشاء، وكنت متعطّراً بعطرٍ يدعى «بنفسج نيسان»، من صنع كوتي، ولم يكن استخدام نفحة العطر آنذاك يُعْتَبَرُ تَخَنُّثاً عند الرجل، فاعتبرتْ زوجةُ الصيرفي ذلك العطرَ شيئاً جميلاً، وسألتني: «من أين حصلت عليه؟» فأجبتها: «إنها خلطةٌ نادرة، يصنعها لي خصيصاً عطارٌ فرنسي، فهل تحبينها؟» فردّت: «إنني أعشقها». وفي اليوم التالي، تفحصت عدّتي فأبصرت فيها زجاجتين فارغتين، وكلاهما من صنع فرنسي. فذهبت إلى دكان في وسط المدينة واشتريت عشر أونصات من «بنفسج نيسان» من صنع كوتي، وعبّأتها في الزجاجتين الفرنسيتين وختمتُهما بعناية، وغلّفتُهما بورق رقيق شبه شفّاف.

المراعاة الثانية

في كانون الأول/ ديسمبر 1925، نظر نزلاء أفخم فندق في بالم بيتش، في فلوريدا باهتمام عندما وصل رجل غامض بسيارة رولز رويس يقودها سائق ياباني. وعلى مدى الأيام القليلة التالية راحوا يدرسون هذا الرجل الأنيق الذي كان يمشي متوكئاً على عصا فاخرة، وهو يتلقى برقيات في كل الأوقات ولا ينهمك إلاَّ في أقصر المحادثات. وقد سمعوا أنه كونت، يدعى الكونب فكتور لاستيغ، ينحدر من أغنى الأسر في أوروبا ـ وكان هذا هو كل ما استطاعوا أن يكتشفوه عنه.

ويمكنك أن تتخيل ذهولهم إذن عندما جاء لاستيغ يوماً إلى واحدٍ من أقل نزلاء الفندق تميزاً، ويدعى هيرمان لُولَرْ، وهو رئيس شركة هندسية، وشرع معه في محادثة. وكان لولر قد كوّن ثروته حديثاً آنذاك، وكانت إقامة علاقات اجتماعية شيئاً هاماً جداً عنده. فشعر بالتكريم والرهبة من هذا الرجل المصقول المحنك، الذي يتحدث بلغة إنكليزية مثالية، فيها لمحة من لكنة أجنبية. وفي غضون الأيام التالية صار الرجلان صديقين.

وكان لولر بالطبع يقوم بمعظم الحديث. فاعترف ذات ليلة بأن تجارته كانت سيئة الأداء، مع توقع مزيد من المتاعب. وفي المقابل أَسَرَّ لاستيغ إلى صديقه الجديد أنه هو أيضاً يعاني مشاكل مالية خطيرة، فقد استولى الشيوعيون على عقارات أسرته وكل موجوداتها وأرصدتها. وكان أكبر سناً من أن يبدأ بتعلم حرفة ويذهب إلى العمل. ولكنه لحسن الحظ قد عثر على الحلّ وهو «آلة تصنع النقود» فهمس لولر في أذنه وهو نصف مصدوم: «هل تزوّر؟» فأجاب لاستغ بالنفي، وشرح كيف تستطيع آلته أن تضاعف العملة الورقية بدقة كاملة. فإذا وضعتَ فيها ورقة من فئة الدولار فسيكون لديك دولاران في غضون ست ساعات وكلاهما صحيح تماماً. واستمر يشرح كيف تم تهريب الآلة من أوروبا، وكيف كان الألمان قد طوروها لإضعاف البريطانيين، وكيف قدمت تلك الآلة الدعم للكونت

وفي ذلك المساء، مررت بيت الصيرفيّ وأهديت الزجاجتين لزوجته وقلت لها: «لقد تمّت تعبئتهما لي خصيصاً في كولون». وفي اليوم التالي زارني الصيرفي في غرفتي بالفندق. كان العطر قد سحر زوجته، فاعتبرتْهُ من أروع العطور التي استخدمَتْها طيلة حياتها وأغربها. ولم أقل للصيرفي إنه يستطيع الحصول على كل ما يريد من هذا العطر في أوماها نفسها. وأضاف الصيرفي: «لقد قالت لي إنني محظوظ لاتصالي برجل مثلك». ومنذ ذلك الحين تغير موقفه. فقد كان لديه إيمان كامل بأحكام زوجته... ودفع لي الثلاثمائة وخمسين ألف دولار. وكان هذا أكبر رقم قياسي سجلتُهُ كمكسب من [أحابيلي].

وِيلْ «الغلام الأصفر» 1875 ـ 1976

سنوات عديدة، وهكذا دواليك. وعندما أصرّ لولر على أن يرى عرضاً لعمل الآلة ذهب الاثنان إلى غرفة لاستيغ، حيث أخرج الكونت صندوقاً رائعاً من خشب الماهوغاني، فيه شقوق محفورة ومقابض وأقراص مدرّجة. وراقب لولر الكونت وهو يدخل ورقة من فئة الدولار في الصندوق. وبالفعل سحب لاستيغ من الصندوق في صباح اليوم التالي ورقتين لا تزالان رطبتين من أثر المواد الكيميائية.

وأعطى لاستيغ الدولارين للولر الذي أخذهما فوراً إلى مصرف محلي فقبلهما المصرف على أنهما أصليتان. وعندئذ بدأ التاجر يتوسل بلاستيغ على نحو محموم كي يبيعه الآلة. فأوضح الكونت أن هناك آلة واحدة فقط، فقدم له لولر عرضاً سخياً هو 25000 دولار، وكان هذا مبلغاً محترماً آنذاك (يعادل أكثر من 400000 دولار بأسعار عملة اليوم). ورغم ذلك بدا لاستيغ مُحْجِماً: إذ أنه لم يشعر بأنه محقّ في جعل صديقه يدفع مثل هذا المبلغ، ومع ذلك وافق على البيع في آخر الأمر، فقال: «أعتقد أن ما تدفعه لي ليس هاماً أبداً، لأنك بعد كل شيء سوف تستعيد المبلغ في غضون أيام قليلة بمضاعفة أوراقك النقدية»، ثم جعل لولر يقسم أن لا يبوح بوجود الآلة لأناس آخرين وقَبِلَ منه المبلغ. وفي وقت لاحق من اليوم نفسه غادر لاستيغ الفندق. وبعد عام، وبعد كثير من المحاولات الفاشلة لمضاعفة الأوراق النقدية، ذهب لولر إلى رجال الشرطة بقصة كيفية خداع لاستيغ له بورقتين من فئة الدولار، وبعض المواد الكيميائية، وصندوق من الماهوغاني لا قيمة له.

التفسير

كانت للكونت لاستيغ عينا نِسْرٍ تَرَيَانِ نقاط ضَعْف الآخرين. وكان يرى هذه النقاط في أصغر الإشارات. وعلى سبيل المثال، كان لولر يعطي الخدم إكراميات مفرطة، وكان يبدو عصبياً في الحديث مع البوّاب، وكان يتحدث عن تجارته بصوت عال. فَعَلِمَ لاستيغ أن نقطة ضعفه هي حاجته إلى الاعتراف الاجتماعي به، وإلى الاحترام الذي

يعتقد أن ثروته قد أكسبته إياه كما كان لديه شعور مزمن بعدم الأمن. وكان لاستيغ قد جاء إلى الفندق صياداً يبحث عن فريسة. وعثر في لولر على المغفّل الكامل ـ وهو رجل متعطش لشخص يسدّ فراغاته النفسية.

ولذا فعندما عرض لاستيغ صداقته على لولر، كان يعرف أنه يعرض عليه الاحترام الفوري من النزلاء الآخرين. وباعتبار لاستيغ يحمل لقب الكونت، فإنه كان يعرض على لولر أيضاً (وهو التاجر المحدث النعمة) الوصولَ إلى عالم الثراء العريق ذي البريق. وأما الضربة القاضية فكانت أن لاستيغ يملك آلة سيكون من شأنها تخليص لولر من همومه، بل إنها ستضعه على قدم المساواة مع لاستيغ نفسه، الذي استخدم تلك الآلة أيضاً للحفاظ على مكانته. فلا عجب إذا ابتلع لولر الطعم.

وبمناسبة الحديث عن هذا الموضوع، فإن هناك حقيقة أخرى تستحق الذكر، وهي هذه: إن الرجل يُظْهِرُ شخصيته من خلال الطريقة التي يتعامل بها مع السفاسف ـ لأنه عندئذٍ يغفل عن حذره. وكثيراً ما تقدم هذه الغفلة فرصة جيدة لمراقبة طبيعة الإنسان ذات الأنانية التي لا حدود لها، وعدم اهتمامه بالآخرين على الإطلاق. وإذا برزت هذه العيوب في الأشياء الصغيرة، أو في سلوكه العام، فإنك ستجد أنها كامنة أيضاً وراء تصرفه في القضايا الهامة، رغم أنه قَدْ يُمَوِّهُ هذه الحقيقة. وهذه فرصة ينبغي أن لا تضيع. فإذا كان الإنسان غير مراعٍ لحقوق الآخرين في القضايا اليومية الصغيرة ـ توافه الحياة ـ، ولا يبحث إلاّ عما هو مفيد ومناسب له، مع الإضرار بحقوق الآخرين، وإذا كان يتحل لنفسه ما يخصّ الجميع على حد سواء،

تذكّر: عند بحثك عن مغفلين، ابحث دائماً عن الساخطين والتعساء والشاعرين بعدم الأمن. فمثل هؤلاء الناس مليئون بنقاط الضعف ولهم احتياجات تستطيع أن تلبيها لهم، فالحاجة هي الشق الذي تضع فيه إظفر إبهامك ثم تديره كيف تشاء.

المراعاة الثالثة

في سنة 1559، مات ملك فرنسا هنري الثاني في معرض مثاقفة ومبارزة. فتولى ابنه العرش وأصبح الملك فرنسيس الثاني، ولكن في الخلفيّة كانت تقف زوجة هنري، الملكة كاترين دي مديتشي، وهي امرأة كانت قد أثبتت منذ زمن طويل براعتها في شؤون الدولة. وعندما مات فرانسيس في العام التالي سيطرت كاترين على البلد كوصية لابنها التالي دوره في الصعود إلى العرش والذي سَيُعْرف في قابل الأيام بالملك شارل التاسع، وكان في ذلك الوقت ما يزال صبياً في العاشرة.

وكان التهديدان الرئيسيان لسلطة الملكة يأتيان من أنطوان دي بوربون ملك نافار وشقيقه لويس، الأمير القوي لمقاطعة كوندي. وكان كل منهما يستطيع المطالبة بالحق في الخدمة كوصيّ بدلاً من كاترين التي كانت بعد كل شيء إيطالية، أي أجنبية. فسارعَتْ كاترين إلى تعيين

فإنك تتأكد أنه ليس في قلبه عدل، وأنه سيكون وَغداً على نطاق كلّي شامل، وأنه لا يغلّ يديه سوى القانون والإجبار.

آرثر شوبنهاور
1860 - 1788

أنطوان قائداً عسكرياً للمملكة برتبة فريق، وهو لقبٌ بَدَا أنه أرضى طموحه. وكان يعني أيضاً أن عليه أن يبقى في البلاط، تحت أنظار كاترين. وأثبتت حركتها التالية أنها أشد ذكاء وأدهى. فقد اشتهر عن أنطوان ولعه بالنساء الشابات. وهكذا عينت الملكة أكثر وصيفاتها جاذبية، وهي لويز دي رُويهْ، خصيصاً لإغوائه. وعندما أصبحت خليلته ذات العلاقة الحميمة به راحت تُبلغ كاترين بكل أعماله. ونجحت الحركة بألمعية جعلت كاترين تعين واحدة أخرى من وصيفاتها لتولي أمر أمير كوندي. وهكذا تَشَكَّل «فريقُها الطائر» من الفتيات اللواتي استخدمتهن لإبقاء الذكور في البلاط تحت سيطرتها دون أن يشكّوا في أي شيء.

وفي سنة 1572، زوجت كاترين ابنتها، مارغريت دي فالوا، من هنري ابن أنطوان والملك الجديد لنافار. وكان جلبُ عائلة ظلت تكافح ضد كاترين دائماً إلى مكان قريب من السلطة إلى هذا الحدّ حركةً خطرةً. وهكذا لكي تضمن ولاء هنري سلّطت عليه أجمل فتيات «فريقها الطائر»، شارلوت دي بون، بارونة سواف. وقد فعلت كاترين ذلك رغم أن هنري كان متزوجاً من ابنتها. وفي غضون أسابيع، كتبت مارغريت دي فالوا في مذكراتها: «لقد أوقعت المدام دي سواف زوجي في حبائلها إلى درجة أننا لم نعد ننام معاً، بل ولا نتحدث».

وكانت البارونة جاسوسة ممتازة، وساعدت على إبقاء هنري تحت سيطرة كاترين. وعندما صار ابن الملكة الأصغر، دوق آلينصون قريباً من هنري بصورة حميمة، خافت أن يتآمر الاثنان عليها، فسلّطت البارونة على ابنها كذلك. فقامت هذه العضوة الألعن في الفريق الطائر بإغواء آلينصون بسرعة، وسرعان ما اقتتل الشابان عليها فانتهت صداقتهما بسرعة كذلك، وانتهى معها أي خطر للتآمر.

التفسير

منذ وقت شديد التبكير، رأت كاترين السلطان الذي تملكه عشيقة

على رجلٍ ذي سلطة. فزوجها نفسه، هنري الثاني، كان قد اتخذ واحدة من ألعن العشيقات، وهي ديان دي بواتييه فتعلمت من تلك التجربة أن رجلاً كزوجها كان يريد أن يشعر بأنه قادر على الفوز بأية امرأة بدون الاعتماد على مكانته، التي ورثها ولم يكسبها. ومثل هذه الحاجة كانت فيها نقطة ضعف عمياء هائلة: فما دامت المرأة قد بدأت العلاقة بالتظاهر بأنها قد وقعت فريسة، فإن الرجل سيعجز عن ملاحظة كون العشيقة راحت ـ مع مرور الزمن ـ تمارس سلطة عليه، كما فعلت ديان مع هنري. وكانت خطة كاترين الاستراتيجية أن تستغل هذا الضعف لتديره لمصلحتها. وكل ما كان عليها أن تفعله هو تسليط أجمل النساء في بلاطها «فريقها الطائر»، على الرجال الذين كانت تعلم أنهم يشاطرون زوجها نقطة ضعفه المكشوفة.

تذكَّر: ابحث دائماً عن العواطف الجياشة، والهواجس المستحوِذة المتسلطة التي لا يمكن السيطرة عليها. فكلما كانت العاطفة أقوى، صار الشخص أكثر عرضة للانكشاف. وقد يبدو هذا مستغرباً لأن الرجال العاطفيين يبدون أقوياء. غير أنهم في الحقيقة يملؤون المسرح بحركاتهم الدرامية فيلهون الناس عن مدى ضعفهم وقلة حيلتهم في الواقع. إن احتياج الرجال إلى غزو قلوب النساء يكشف عن ضعف هائل ظل يحيلهم إلى مغفلين عبر آلاف السنين. فانظر إلى أكثر جوانب شخصياتهم وضوحاً للعيان ـ إلى طمعهم، وشهوتهم، وخوفهم الشديد. فهذه هي العواطف التي لا يستطيعون إخفاءها، والتي ليس لهم عليها سوى أقل سلطان ممكن. وما لا يستطيع الناس التحكم به، تتحكم به أنت.

المراعاة الرابعة

كانت آرابيلْلاً هَانْتِنْغْتُون، زوجة كوليس بوتّر هانتنغتون (1821 ـ 1900)، القطب الرائد في بناء سكك الحديد في أميركا في أواخر القرن التاسع عشر، تنحدر من أصول متواضعة، فكانت تكافح دوماً للاعتراف الاجتماعي بها في أوساط أترابها الأثرياء. فكانت عندما تقيم حفلاً في

معركة فرزاليا

وعندما وصل الجيشان [جيش يوليوس قيصر وجيش بومبي] إلى فرزاليا وعَسْكَرا هناك جميعاً، جَرَتْ أفكار بومبي بالطريقة نفسها التي كانت تجري بها من قبل، ضد القتال... ولكن مَنْ حوله كانوا على ثقة عظيمة بالنجاح... وكأنهم قد انتصروا بالفعل... وكان الخيالة على وجه الخصوص عنيدين في الإلحاح على القتال، لأنهم كانوا مسلحين جيداً، ويمتطون بشجاعةٍ صهواتِ الخيول الجيِّدة التي يقتنونها، ويعتمدون على قدراتهم وعلى ميزة أعدادهم، فقد كانوا خمسة آلاف في مقابل ألفٍ من رجال قيصر. ولم تكن أعداد المشاة تقل عن ذلك في نسبتها. فقد كان مشاة بومبي خمسةً وأربعين ألفاً، في مقابل اثنين وعشرين ألفاً لعدوّهم [وفي اليوم التالي] بينما كان المشاة مشتبكين بجِدَّةٍ في المعركة، جاء حصان بومبي إلى الخاصرة بثقة، وفتح صفوف [خيالته] على مدى مساحة واسعة جداً لتمكينهم من تطويق الجناح الأيمن لقيصر. ولكن قبل الاشتباك خرج إليهم رجال قيصر وهاجموهم، ولم يقذفوا برماحهم من على بُعْد، ولم يطعنوا الأفخاذ والسيقان، على عادتهم في القتال القريب، ولكنهم استهدفوا وجوههم، إذْ هكذا كانت تعليمات قيصر لهم، على أمل أن الشباب، الذين لم يكونوا يعرفون الكثير عن المعارك والجراح، وقد جاؤوا بشعورهم الطويلة،

قصرها في سان فرانسيسكو لا يذهب إليه من أهل النخبة إلاً القليل. إذ كان معظمهم يعتبرونها امرأة تستغل جمالها للحصول على المال والهدايا من الرجال، فليست من طبقتهم. وبسبب ثروة زوجها الخرافية، كان تجار اللوحات الفنية يتزلفون إليها، ولكن بنظرة استعلائية متنازلة لأنهم كانوا يرون فيها مُحْدَثَةَ نعمة. فلم يعاملها بطريقة مختلفة عن ذلك سوى رجل واحد: هو التاجر جوزيف دوفين.

وخلال السنوات القليل الأولى من علاقة دوفين بآرابيلْلاً، لم يقم بمحاولة لبيعها تحفاً فنية غالية. وبدلاً من ذلك راح يصحبها إلى الدكاكين الفاخرة، ويثرثر بلا نهاية عن الملكات والأميرات اللواتي يعرفهن، وهكذا، حتى صارت تعتقد في آخر الأمر أنه رجل يعاملها كندٌ له، بل كمتفوقة عليه، في المجتمع الراقي. وفي تلك الأثناء، إذا كان دوفين لم يحاول أن يبيعها لوحات فنية، فقد ثقفها بطريقة خفية ذكية في مجال أفكاره الجمالية، أي علّمها أن أفضل الأعمال الفنية هي أغلاها ثمناً. وبعد أن تَشَرَّبت منه آرابيلْلاً طريقته في رؤية الأشياء، راح يتصرف وكأنها كانت دائماً ذات ذوق عذب رفيع، رغم أن تذوقها للجمال قبل أن تعرفه كان في الحضيض.

وعندما مات كوليس هانتنغتون سنة 1900، ورثت آرابيلْلاً ثروة. فشرعت فجأة في شراء اللوحات الغالية كأعمال رمبراندت وفيلاسكويز مثلاً - ومن دوفين حصراً. وبعد سنوات، باعها لوحة «الولد الأزرق» من أعمال الرسام الإنكليزي توماس غِينْزْبَرَةْ (1727 - 1788) بأغلى ثمنٍ دُفِعَ في عمل فنّي في ذلك الحين، فكان ذلك شراءً مثيراً للذهول قامت به عائلة لم تكن في السابق تظهر اهتماماً يذكر بتجميع الأعمال الفنية.

في زهرة عمرهم، وذروة جمالهم، سيكونون أكثر تخوفاً من مثل هذه الضربات، بحيث لا يهتمون بالمغامرة، بالتعرض للخطر في الوقت الراهن، ولا للعار الشائن في المستقبل.

وهكذا كان، لأنهم لم يستطيعوا تحمل طعنات الرماح، بل ولم يعودوا يطيقون النظر إليها فراحوا يستديرون ويُغَطّون وجوهَهُمْ ليحافظوا عليها. وعندما انفرط عقد نظامهم، استداروا للهرب في الحال، وبذلك دمّروا كل شيء بطريقة مخزية، لأن أولئك الذين هزموهم طوّقوا المشاة وانقضوا على مؤخرتهم فمزقوهم شذر مذر.

وكان بومبي يقود الجناح الآخر للجيش. فلما رأى أن فرسانه قد تمزّقوا على هذه الشاكلة ولاذوا بالفرار، لم يعد هو نفسه، ولم يتذكر أنه بومبي العظيم، ولكن - مثل شخص حرمته الآلهة من كل أحاسيسه - تراجع إلى خيمته دون أن يتفوّه بكلمة. وجلس هناك ينتظر الواقعة، حتى تم دحر جيشه كله.

حياة يوليوس قيصر
بلوتارخ، حوالى 46 - 120م.

التفسير

لقد تفهم جوزيف دوفين آرابيلْلاً هانتنغتون على الفور، وعرف ما الذي يؤثر فيها ويجعلها تستجيب. كانت تريد أن تشعر بأنها هامة، وأنها

في وسطها الملائم في المجتمع الراقي. وكان شعورها بعدم الأمن حادًّا بسبب خلفيتها الطبقية المتواضعة، فكانت تحتاج إلى توكيد مكانتها الاجتماعية الجديدة. فانتظر دوفين. وبدلاً من المسارعة إلى محاولة إقناعها باقتناء التحف الفنية، شرع يستغلّ نقاط ضعفها بطريقة خفية ذكية. فجعلها تشعر بأنها تستحق اهتمامه، ليس لأنها زوجة واحد من أغنى أثرياء العالم، ولكن بسبب شخصيتها الخاصة لذاتها. فأذابتها هذه الطريقة تماماً. فلم يعاملها على الإطلاق بطريقة استعلائية متنازلة؛ وبدلاً من إلقاء المحاضرات عليها، راح يشرّبها أفكاره بشكل غير مباشر. فكانت النتيجة أن جعلها واحدة من أفضل زبائنه وأخلصهم، وكذلك باعها «الولد الأزرق».

إن حاجة الناس إلى توكيد مكانتهم واعتراف المجتمع بها، وحاجتهم إلى الشعور بأهميتهم هي أفضل نقاط الضعف للاستغلال. فهي أولاً حاجة عالمية، وهي ثانياً سهلة الاستغلال جداً. فكل ما عليك أن تفعله هو إيجاد طرق تجعل الناس يحسون بشعورٍ أفضل عن ذوقهم، وعن مكانتهم الاجتماعية، وعن ذكائهم. وما أن تقع السمكة في الصنارة، حتى تصبح أنت قادراً على سحبها مرة بعد أخرى على مدى سنوات ـ لأنك تملأ دوراً إيجابياً، فأنت تعطي هؤلاء الناس ما لا يستطيعون الحصول عليه بمفردهم. وقد لا يشكّون أبداً في أنك تديرهم كما تدير البرغي تحت إبهامك. وإذا شعروا بذلك فقد لا يعبأون، لأنك تجعلهم يتمتعون بشعور أفضل عن أنفسهم. وهذا شيء جدير بأي ثمن.

المراعاة الخامسة

في سنة 1862، قام ملك بروسيا وليام بتسمية أوتوفون بسمارك رئيساً للوزراء ووزيراً للشؤون الخارجية. وكان بسمارك معروفاً بجرأته، وطموحه ـ واهتمامه بتقوية الجيش. وبما أن وليام كان محاطاً بالأحرار

في حكومته، ومجلس وزرائه، وهم سياسيون كانوا يريدون في الأصل تقييد سلطاته، فقد كان من الخطر عليه تماماً أن يضع بسمارك في هذا المركز الحساس، وقد حاولت زوجته أوغسطا أن تثنيه عن ذلك، ولكن على الرغم من أنها كانت في العادة تفرض رأيها عليه، فإن وليام أصرّ على موقفه في هذه المرة.

وبعد أسبوع واحد فقط من استلام هذا المنصب، ألقى بسمارك خطاباً في عدد من الوزراء لإقناعهم بالحاجة إلى توسيع الجيش. وختمه بالقول: «إن المسائل الكبرى في عصرنا لن تُحْسَمَ بالخُطَبِ وقرارات الأغلبية، بل بالحديد والدم». وقد تم توزيع خطابه في جميع أنحاء ألمانيا على الفور. وقد صرخت الملكة في وجه زوجها بأن بسمارك ذو نزعة عسكرية همجية ينوي اغتصاب السيطرة على بروسيا، وأن على وليام أن يطرده. ووافق معها الأحرار في الحكومة. وكانت صرخة الاحتجاج من العنف بحيث بدأ وليام يخشى أن ينتهي به الأمر على المقصلة، مثل ملك فرنسا لويس السادس عشر، إذا استمر يحتفظ ببسمارك كرئيس للوزراء.

وكان بسمارك يعلم أنَّ عليه أن يصل إلى الملك قبل فوات الأوان. كما عَرَفَ بأنه قد أخطأ، وأنه كان عليه أن يضبط نغمة كلماته النارية ومع ذلك، فبينما كان يتأمَّل خطته الاستراتيجية قرَّر أن لا يعتذر، بل أن يفعل العكس تماماً. فقد كان يعرف الملك جيداً.

وعندما التقى الرجلان، كان وليام ـ كما هو متوقع ـ قد اهتاج بشدة تحت تأثير الملكة. فكرَّر خشيته من الموت بالمقصلة. ولكن بسمارك لم يزد على أن قال: «نعم، وعندئذ سنموت معاً! إننا لا بد أن نموت عاجلاً أم آجلاً، وهل هناك طريقة للموت محترمة أكثر؟ أنا سأموت مقاتلاً في سبيل قضية ملكي وسيدي. أما جلالتك فسوف تموت وأنت تُعمِّد بدمك حقوقك الملكية التي مَنَحَك إياها لطفُ الله. وسواء

أكان ذلك على المقصلة أم في ميدان المعركة فلا فرق في المغامرة بالجسد وبالحياة في سبيل الحقوق التي جاد بها لطف الله!». واستمر على هذه الشاكلة يناشد في وليام شعُورَهُ بالشرف وبجلال مركزه على رأس الجيش. فكيف يسمح الملك للناس بالتآمّر عليه؟ ألم يكن شرف ألمانيا أهم من المماحكة حول كلمات؟ وهكذا لم يكتفِ رئيس الوزراء بإقناع الملك أن يقف لزوجته ولبرلمانه بالمرصاد فحسب، بل أقنعه كذلك ببناء الجيش. وكان ذلك هو هدف بسمارك على طول الخطّ.

التفسير

كان بسمارك يعلم بأن الملك يشعر بأن مَنْ حوله يتنمَّرون عليه. وكان يعرف أن لوليام خلفيةً عسكرية، وإحساساً عميقاً بالشرف، وأنه كان يشعر بالخجل من تخاذله أمام زوجته وأمام حكومته. وكان وليام يتحرَّق سرّاً لأن يكون ملكاً عظيماً وقوياً. ولكنه لم يجرؤ على التعبير عن هذا الطموح لأنه كان يخشى أن ينتهي به الأمر مثلما انتهى بلويس السادس عشر. وبينما يخفي التظاهر بالشجاعة على الأغلب خوفَ الشخص ووَجَلَه، كان خوفُ وليام يخفي حاجَتَه إلى إظهار الشجاعة والدقّ على صدره.

وأحسَّ بسمارك بالتشوّق إلى المجد تحت واجهة وليام المسالمة، وهكذا استغلَّ شعور الملك بعدم الأمان حول رجولته. فدفعه في آخر الأمر إلى ثلاث حروب، وإلى خلق الإمبراطورية الألمانية. إن الوَجَلَ ضعفٌ يمكن استغلاله بشكل قوي فعَّال. فالأرواح الوجلة كثيراً ما تتشوَّق إلى عكس هذه الصفة، ـ إلى أن تكون كنابليون. ومع ذلك تنقصها القوة الداخلية. وتستطيع أنت من حيث الجوهر أن تكون نابليونها، فتدفعها إلى أعمال جريئة تخدم احتياجاتك بينما تجعلها معتمدة عليك أيضاً. تذكَّر: انظر إلى النقائض، وإياك أن تأخذ الظواهر بقيمتها الاسمية.

صورة: أداة التعذيب
اللولبية. عدوك لديه
أسرار يحرسها.
ويفكّر أفكاراً لا
يكشفها ولكنها تظهر
بطرق لا يَدَ له فيها.
وهناك في مكانٍ مّا
شقٌّ من الضعف، على
رأسه، أو في قلبه، أو
فوق بطنه. وعند عثورك
على الشق ضع إبهامك
عليه وأدِرْهُ كيفما شئت.

الشاهد: اكتشف أداة الضغط على كل شخص. إن ذلك هو فن تشغيل إراداتهم. وهو يحتاج إلى مهارة أكثر من حاجته إلى تصميم. ويجب أن تعرف أين يمكن الوصول إلى كل شخص للتأثير عليه. فكل إرادة لها دافع خاص يختلف حسب الذوق. فكل الرجال عَبَدَةُ أوثان، فبعضهم يعبد الشهرة، وبعضهم يعبد مصلحته الشخصية، ومعظمهم يعبد شهوته. وتتكوّن المهارة من معرفة هذه الأوثان المعبودة لتشغيلها واستغلالها. فمعرفة الينابيع الرئيسية للحوافز يضع في يديك مفتاح إرادة الشخص.

(بلتازار غراسيان، ١٦٠١ ـ ١٦٥٨)

الانقلاب

إن استغلال نقاط ضعف الناس فيه خطر واحد. إنك قد تثير عملاً لا تستطيع السيطرة عليه.

ففي ألعابك المتصلة بالسلطة، فإنك تنظر دائماً إلى عدة خطوات سلفاً، وتخطط بموجب ذلك ـ وأنت تستغل حقيقة كون الناس أكثر عاطفية وعجزاً عن الرؤية المسبقة البعيدة النظر. ولكن عندما تستغل نقاط ضعفهم، والمجالات التي ليس لهم عليها إلاّ أضعف السيطرة،

فإنك قد تطلق من العقال عواطفَ ربما قلبت خططك رأساً على عقب. إدفع الناس الوجلين إلى عمل جريء، وقد يشتطون؛ وعند تلبيتك لحاجتهم إلى الانتباه والاعتراف فقد يحتاجون إلى أكثر مما تريد أن تعطيهم. فالعنصر الطفولي الضعيف الذي تستغله قد ينقلب ضدك.

وكلما كان الضعف عاطفياً أكثر، زاد حجم الخطر المحتمل. فاعرف الحدود في هذه اللعبة إذن، ولا تجعل سيطرتك على ضحاياك تدير رأسك. فأنت تبحث عن السلطة، وليس عن التلذذ بالسيطرة.

القانون

34

كُن مَلَكِياً بطريقتك الخاصة: تصرَّف كَمَلِك لتُعامَل كَمَلِك

الحكم

إن الطريقة التي تتصرف بها كثيراً ما تكون هي التي تقرر الطريقةَ التي تُعامَلُ بها: ففي المدى الطويل يؤدي الظهور بمظهر الشخص الخشن الفظّ، أو العادي إلى إفقادك احترام الناس. إذ أن الملك يحترم نفسه، ويوحي للآخرين بالعاطفة نفسها. فتصرفك بأسلوب ملوكي وثقة بسلطاتك يجعلك تبدو مهيأً لِلَبْسِ التاج.

انتهاك القانون

في تموز سنة 1830، انفجرت في باريس ثورةٌ أرغمت الملك شارل العاشر على التنازل. فاجتمعت لجنة من أعلى السلطات في البلد لانتخاب خليفة له. فكان الرجل الذي انتقوه هو لويس فيليب، دوق أورليانز.

وكان واضحاً من البداية أن لويس فيليب سيكون طرازاً من الملوك مختلفاً، ليس لأنه متحدر من فرع مختلف من العائلة المالكة، ولا لأنه لم يرث التاج بل أعطته إياه لجنة، مما جعل شرعيته موضع تساؤل. بل لأنه كان يكره الاحتفالات وزخارف الملك؛ وكان له أصدقاء بين الصيارفة أكثر مما له بين النبلاء؛ ولم يكن أسلوبه هو خلق نوع جديد من الحكم الملكي، كما فعل نابليون، بل التقليل من أهمية مكانته، كي يختلط على نحو أفضل بالتجار والأهالي من الطبقة الوسطى الذين استدعوه للقيادة. وهكذا فإن الرموز التي ارتبطت بلويس فيليب لم تكن الصولجان ولا التاج، بل القبعة الرمادية والمظلة التي كان يمشي فيها باختيال في شوارع باريس كأنه برجوازي خارج في جولة للتنزُّه. وعندما وجه الدعوة إلى جيمس روتشيلد، أهم صيرفي في فرنسا لزيارته في قصره، عامله كندٍّ له. وعلى عكس أي ملك سبقه، فإنه لم يتحدَّث مع السيد روتشيلد عن التجارة والأعمال فحسب، بل كانت التجارة والأعمال هي كلّ حديثه حصراً بالمعنى الحرفي للكلمة، لأنه كان يحب المال، وقد كدَّس ثروة ضخمة.

إياك أن تفقد احترامك لنفسك، أو ترفع الكلفة معها أكثر من اللازم حتى وأنت وحيد. ولتكن نزاهتك نفسُها هي مقياس الاستقامة. وكن مديناً لقسوة حكمك على نفسك أكثر من اعتمادك على كل المفاهيم أو المبادىء الخارجية. وامتنع عن السلوك غير اللائق، وذلك بدافع فضيلتك نفسها بدلاً من الخوف من قيود السلطة الخارجية. انظر إلى نفسك بهيبة، ولن تحتاج إلى المعلم الذي ابتكره خيال [الشاعر الروماني] سينيكا.

بلثازار غراسيان، 1601 ـ 1658

ومع المسيرة البطيئة لعهد «الملك البرجوازي»، راح الناس يحتقرونه. فالأرستقراطية لم تكن تستطيع أن تتحمَّل مَلِكاً غير مَلَكِي، وفي غضون بضعة أعوام انقلبوا عليه. وفي تلك الأثناء، فإن الطبقة الفقيرة الآخذة في التنامي، بما فيها من المتطرفين الذين طاردوا شارل العاشر، لم تجد ما يرضيها في حاكم لا يتصرف كملك ولا يحكم كرجل من أبناء الشعب. أما المصرفيون الذين كان لويس فيليب مديناً لهم بالعرفان أكثر من الجميع، فسرعان ما أدركوا أنهم هم المسيطرون على البلد، وليس هو. فأخذوا يعاملونه باحتقار متزايد. وذات يوم، في بداية رحلة بالقطار نُظِّمَت للعائلة المالكة وَبَّخَهُ جيمس روتشيلد بالفعل، وعلى رؤوس الأشهاد، بسبب تأخره. كان الملك ذات مرة قد خلق خبراً لافتاً للأنظار بمعاملته الصيرفيّ كَنِدٍّ له؛ أما الآن فإن الصيرفيَّ راح يعامل الملك كشخص دونه منزلةً.

وفي آخر المطاف عادت إلى الظهور تمردات العمال التي كانت قد أطاحت بِسَلَفِ لويس فيليب. فقمعها الملك بالقوة. ولكن ما الذي كان الملك يدافع عنه بهذه الوحشية؟ ليس المؤسسة الملكية، التي كان يحتقرها، ولا الجمهورية الديمقراطية، التي كان حكمه يمنعها. وهكذا فقد بدا أن ما كان يدافع عنه في الحقيقة هو ثروته وثروة الصيارفة ـ ولم تكن هذه طريقةً تلهم مواطنيه الولاء له.

ففي أوائل سنة 1848، شرع الفرنسيون من كل الطبقات يتظاهرون للمطالبة بإصلاحات انتخابية، تجعل البلد ديمقراطياً حقاً. وبحلول شباط/فبراير من تلك السنة، كان المتظاهرون قد صاروا عنيفين. ولتخفيف سخط السكان، طرد لويس فيليب رئيسَ وزرائه وعيَّن بدلاً عنه شخصاً من الأحرار. ولكن ذلك أدى إلى عكس النتيجة المتوخّاة: فقد شعر الناس أنهم يستطيعون التأمّر على الملك. فتحوَّلت المظاهرات إلى ثورة كاملة، برصاص البنادق، والمتاريس في الشوارع.

وفي ليلة 23 شباط/فبراير، طوَّق القصرَ حشدٌ من الباريسيين.

وبطريقة مفاجئة أدهشت الجميع، تنازل لويس فيليب في تلك الأمسية نفسها وهرب إلى إنكلترا، فلم يترك خليفةً، ولا حتى توصية بأحد - بل إن حكومته بأكملها طوت حقائبها وانحلّت مثل سيركٍ جوّال يغادر المدينة.

التفسير

لقد تعمّد لويس فيليب أن يبدّد الهالة التي تحيط بالملوك والقادة بصورة طبيعية. فقد سخر من رموز العظمة، لاعتقاده بأن عالماً جديداً كان آخذاً في الشروق ينبغي فيه على الحكّام أن يتصرّفوا ويكونوا مثل المواطنين العاديين. وكان على حق. فقد كان هناك عالم قادم بالتأكيد، بدون ملوك ولا ملكات. غير أنه كان مخطئاً خطأً عميقاً في تنبّه بتغيّر في آليات حركة السلطة.

وفي بداية الأمر كانت قبعة الملك ومظلته تسليان الفرنسيين ولكنهما سرعان ما صارتا مزعجتين. كان الناس يعرفون أن لويس فيليب ليس، في الواقع، مثلهم على الإطلاق. وأن القبعة والمظلة كانتا، من حيث الجوهر، نوعاً من الخدعة لتشجيعهم على التخيّل بأن البلد أصبح فجأة أكثر مساواة. غير أن الواقع هو أن فوارق الثروة لم تكن أعظم مما كانت عليه آنذاك. وكان الفرنسيون يتوقعون أن يكون في حاكمهم شيء من خصال رجل الاستعراضات، وأن يكون له حضور. فحتى المتشدّد روبسبير، الذي وصل إلى السلطة زمناً قصيراً أثناء الثورة الفرنسية، كان يتفهم ذلك. ومن المؤكد أن نابليون، الذي حوّل الجمهورية الثورية إلى نظام إمبراطوري، كان يعرف ذلك في أعماقه. والحق أن الفرنسيين كشفوا عن رغبتهم الحقيقية، حالما هرب لويس فيليب عن المسرح، فانتخبوا حفيد شقيق نابليون رئيساً. ولم يكن معروفاً من الناحية العملية، ولكنهم كانوا يأملون أن يعيد خلق الهالة القوية لذلك القائد الكبير، نابليون، ليمسح بذلك الذكرى البشعة «للملك البرجوازي».

قد يقع الناس الأقوياء في إغراء اصطناع هالة الرجل العادي،

محاولين أن يخلقوا الوهم بأنهم متماثلون بشكل أساسي مع رعاياهم أو مرؤوسيهم. ولكن الناس الذين يُقْصَدُ من هذه الإشارة الزائفة أن تثير إعجابهم يكشفون حقيقتها بسرعة، فيفهمون أنهم لا يُعْطَوْنَ مزيداً من السلطة، وأنه يظهر فقط أنهم مشاركون في مصير الرجل القوي ذي السلطة، فالنوع الوحيد الذي يمكن أن ينجح من مثل هذه الإشارات لعامة الناس هو النوع الذي اصطنعه فرانكلين روزفلت، وهو أسلوب يقول إن الرئيس يشاطر عامة الناس قِيَمَهُمْ وأهدافهم حتى مع بقائه من النخبة الراقية في أعماقه. ذلك أنه لم يتظاهر قطّ بإلغاء المسافة التي تفصله عن الجمهور.

فالقادة الذين يحاولون تذويب المسافة عن طريق التودُّد المزيَّف يفقدون بالتدريج قدرتهم على الإيحاء بالولاء أو الخوف أو الحب، وبدلاً من ذلك يستدرجون الاحتقار. فهم مثل لويس فيليب عديمو الإلهام إلى درجة أنهم غير جديرين حتى بالمقصلة. وأفضل ما يستطيعون عمله هو الاختفاء ببساطة في ظلام الليل، كأنْ لم يَغْنَوْا بالأمس.

مراعاة القانون

هيبوقليدس في سيسيون

وفي الجيل التالي، صارت العائلة أكثر شهرة من ذي قبل من خلال الامتياز التكريمي الذي أضفاه عليها كليستينز، حاكم سيسيون. وكانت له ابنة... هي آغاريستا، التي أراد أن يزوجها من أفضل رجل في اليونان. وهكذا أذاع إعلاناً عاماً أثناء الألعاب الأولمبية، التي كان قد فاز فيها بسباق العربات، وكان مؤدّى ذلك الإعلان أن أيّ إغريقي يرى نفسه صالحاً لمصاهرة كليستينز عليه أن يقدّم نفسه في سيسيون في

عندما كان كريستوف كولومبوس، يبحث عن تمويل لرحلته الأسطورية، كان كثيرون، ممن حوله، يعتقدون أنه متحدر من الأرستقراطية الإيطالية. وقد تم تمرير هذا الرأي إلى التاريخ، عن طريق سيرة حياة بعد وفاة المستكشف كتبها ابنه، فوصفه فيها بأنه من نسل الكونت كولومبو، من قلعة كوكارو في منطقة مونتفيرات. وقد قيل عن كولومبوس بدوره إنه من نسل القائد الروماني الأسطوري كولونيوس، وإن اثنين من أبناء عمومته الأقربين كان المفروض أنهما يتحدران مباشرة من أحد أباطرة القسطنطينية. وهذه خلفية لامعة حقاً. ولكنها لم تكن أكثر من خيال لامع، لأن كولومبوس كان، في الواقع، ابن دومينيكو كولومبو، الحائك المتواضع الذي فتح دكاناً للمشروبات عندما كان

كولومبوس شاباً، والذي كان يحصل على معيشته بعد ذلك من بيع الجبن.

وكان كولومبوس نفسه هو الذي خلق الأسطورة عن خلفيته، لأنه كان يشعر منذ وقت مبكر بأن القدر قد اختاره من بين الناس لتحقيق أشياء عظيمة، وأنه يحمل في دمه نوعاً من الخصال الملوكية. وبناء على ذلك فقد كان يتصرَّف وكأنه متحدِّر فعلاً من أصول نبيلة. وبعد حياة عملية خالية من الأحداث كتاجر على مركب تجاري، استقر كولومبوس، الذي هو في الأصل من جنوا، في مدينة لشبونة. واستخدم قصة ملفقة عن خلفيته النبيلة، فتزوَّج من أسرة لشبونية عريقة لها اتصالات ممتازة بالأسرة البرتغالية المالكة.

وعن طريق أنسبائه، دبَّر بطرق ملتوية اجتماعاً مع ملك البرتغال، خوياو الثاني، وقدَّم له طلباً بتمويل رحلة متجهة غرباً بهدف اكتشاف طريق أقصر إلى آسيا. وفي مقابل الإعلان بأن أي اكتشافات تتحقق ستتم باسم الملك، كان كولومبوس يريد سلسلة من الحقوق: لقب الأميرال الأكبر للبحر المحيط؛ ومنصب نائب الملك في أية أراضٍ يكتشفها؛ وعشرة بالمائة من التجارة مع مثل هذه الأراضي في المستقبل؛ على أن تكون هذه الحقوق جميعاً وراثية وإلى الأبد. قدَّم كولومبوس هذه المطالب رغم أنه لم يكن في السابق سوى تاجر. وكان لا يكاد يفقه شيئاً عن الملاحة، فلم يكن يستطيع تشغيل رُبْعِيَّة (أداة ملاحية لقياس الارتفاع تتألف من قوس مقسم إلى تسعين درجة)، ولم يكن قد قاد مجموعة من الرجال قطّ. وباختصار: لم تكن لديه أية مؤهلات على الإطلاق للرحلة التي كان يقترحها. وبالإضافة إلى ذلك، لم يتضمن طلبُهُ أية تفاصيل عن كيفية تنفيذ خططه، إذ لم يكن فيه سوى وعود غامضة.

وعندما انتهى كولومبوس من إعلانه، ابتسم خوياو الثاني: ورفض العرض بأدب، ولكنه ترك الباب مفتوحاً للمستقبل. وهنا لا بد أن كولومبوس قد لاحظ شيئاً لن ينساه أبداً. فحتى عندما كان الملك يرفض

غضون ستين يوماً - أو قبل ذلك إن شاء - لأن كليستينيز بنوي - في غضون عام بعد اليوم الستين - أن يعقد قران ابنته على زوجها المقبل. وقد أمر بإقامة مضمار للسباق وحلبة للمصارعة خصيصاً لهذا الغرض. وفي الحال بدأ الخاطبون في الوصول، وفيهم كل إغريقي الجنسية يملك شيئاً يفخر به في بلده أو في نفسه... وبدأ كليستينيز بالطلب [من كل واحد من الخاطبين العديدين] أن يذكر اسم بلده ونسب عائلته، ثم استضافهم في بيته لمدة عام، كي يتعرّف عليهم جيداً، وكان يفتح معهم حديثاً، أحياناً بشكل فردي، وأحياناً بشكل جماعي، ويختبر كلاً منهم بشأن خصائص رجولته، وطبعه، ومزاجه، وثقافته، وسلوكه... ولكن أهم اختبار من بينها كان اختبار سلوكهم على مائدة العشاء. وقد استمر هذا كله طيلة مدة بقائهم في سيسيون، وقد ظل يظهر لهم كرم ضيافته على الدوام. ولسبب أو لآخر أعجبه اثنان من سكان أثينا. ومن هذين الاثنين كان المفضل لديه هو هيبوقليدس بن تيساندر. . وأخيراً حلّ اليوم المحدد لعقد القران، الذي يتعين فيه على كليستينيز أن يعلن اختياره. فأحيا ذلك اليوم بالتضحية بمائة ثور، وأقام حفلة عظيمة لم تقتصر الدعوة فيها على الخاطبين، بل شملت كل وجيه معروف في سيسيون. وعندما انتهى العشاء، بدأ الخاطبون يتنافسون في الموسيقى

طلبات البحَّار، فقد عاملها على أنها مشروعة. فلم يضحك على كولومبوس، ولا تساءل عن خلفيته وأوراق اعتماده. والواقع أن الملك قد أعجب بجرأة مطالب كولومبوس وكان واضحاً أنه مرتاح بصحبة رجل يتصرف بمثل هذه الثقة. ولا بد أن الاجتماع قد أقنع كولومبوس بأن غرائزه كانت مُحِقَّة: فبمطالبته بالقمر، رفع مكانته على الفور، لأن الملك افترض أن رجلاً يضع لنفسه مثل هذا الثمن لا بد أنه جدير به بطريقة مّا، إلاّ إذا كان مجنوناً. ولم يظهر على كولومبوس أنه مجنون.

وبعد بضع سنين انتقل كولومبوس إلى إسبانيا. فاستخدم اتصالاته البرتغالية ليتحرك في دوائر عليا في البلاط الإسباني، حيث تلقى مساعدات من ممولين مشهورين، وجلس على موائد الدوقات والأمراء. ولجميع هؤلاء كرَّر طلبه لتمويل رحلة إلى الغرب ـ وطالب أيضاً بالحقوق التي طلبها من خوياو الثاني. وكان بعضهم، مثل دوق مادينا القوي، يريدون المساعدة، ولكنهم لم يستطيعوا، إذ كانت تنقصهم السلطة لمنحه الألقاب والحقوق التي يريدها. ولكن كولومبوس لم يتراجع. وسرعان ما أدرك أن هناك شخصية واحدة قادرة على تلبية طلباته، وهي الملكة إيزابيللا. وفي سنة 1487، تمكَّن في آخر الأمر من تدبير لقاء مع الملكة. ورغم أنه لم يستطع إقناعها بتمويل الرحلة، فقد سحرها تماماً وصار من الضيوف الكثيري التردد على القصر.

وفي سنة 1492، قام الإسبان في آخر الأمر بإجلاء الفاتحين العرب الذين كانوا قد استولوا على أجزاء من البلد قبل ذلك بقرون عديدة. ومع زوال عبء الإنفاق الحربي عن الخزينة، شعرت إيزابيللا أنها تستطيع أخيراً أن تستجيب لطلبات صديقها المستكشف كولومبوس. فقرَّرت تمويل ثلاث سفن بتجهيزاتها، ورواتب بحَّارتها، ومعاش متواضع لكولومبوس. والأهم من ذلك أنها نظَّمت عقداً منحته فيه الألقاب والحقوق التي كان يصرّ عليها. وكان الشيء الوحيد الذي حرمته إياه ـ وفي ثنايا التفاصيل الدقيقة للعقد فقط ـ هو العشرة بالمائة من عائدات

وفي الحديث أمام الآخرين. وفي هذين المجالين كليهما كان هيرقليدس هو الذي اثبت انه اشجع بطل. وفي آخر الأمر، بعد تناول المزيد من الشراب، طلب من عازف الناي أن يعزف له لحناً وشرع يرقص على إيقاعه. ولعله رقص حتى ارضى نفسه. غير ان كليستينز الذي كان يراقب اداءه، بدأت تخامره شكوك خطيرة حول الأمر كله. وعلى الفور، بعد توقف قصير، أرسل هيرقليدس في طلب طاولة؛ فلمّا جيء له بها صعد إليها، فأدّى أولاً بعض رقصات من لاكونيا، ثم من آتيكا، وانتهى به الأمر إلى الوقوف على رأسه، وضبط الإيقاع بتحريك ساقيه في الهواء. ولقد كانت تلك الرقصات سيئة بما فيه الكفاية. ولكن كليستينز ضبط نفسه واستطاع أن يتجنب الانفجار، رغم أنه كره فكرة أن يكون لديه صهر كهذا. ولكنه عندما رأى هيرقليدس يستمر في ضرب الهواء بساقيه مع حركة الإيقاع لم يعد يستطيع التحمل. فصاح: «يا ابن تيساندر، لقد أبعدت برقصك هذا احتمال زواجك».

التواريخ
هيرودوتس، القرن الخامس قبل الميلاد

أية أراضٍ يكتشفها: إذ كان طلباً سخيفاً، لأنه لم يرد وضع حد زمني له (ولو بقي هذا الشرط في العقد لكانت نتيجته جعل كولومبوس وورثته أغنى أسرة على هذا الكوكب. ولم يكن كولومبوس يقرأ التفاصيل الدقيقة أبداً).

وعندما رضي كولومبوس عن تلبية شروطه أقلع بسفنه في تلك السنة نفسها (1492) بحثاً عن الممرّ إلى آسيا (وقبل المغادرة حرص على استئجار أفضل ملاَّح استطاع العثور عليه لمساعدته على الوصول إلى هناك). وقد فشلت البعثة في العثور على مثل ذلك الممرّ. ومع ذلك فعندما قدَّم كولومبوس طلباً للملكة لتمويل مشروع رحلة أكثر طموحاً من الرحلة الأولى، في السنة التالية (1493)، وافقت. إذْ أنها كانت قد بدأت ترى أن كولومبوس مقدَّر له أن يحقق أشياء عظيمة.

التفسير

كان كريستوف كولومبوس كمستكشفٍ، متوسط القدرة على أفضل تقدير. فكان يعرف عن البحر أقلّ ممّا يعرفه البحَّار العاديّ المتوسِّط على سفنه. ولم يكن قادراً قطّ على تحديد خطوط الطول ودوائر العرض لمكتشفاته. وكان يظن الجزرَ قارَّاتٍ شاسعة. وكان يسيء معاملة طواقم سفنه. ولكنه في مجال واحد كان عبقرياً: كان يعرف كيف يبيع نفسه، وإلاَّ فكيف يمكن توضيح الطريقة التي استطاع بها، ابن بائع الأجبان، والتاجر البحريّ ذو المستوى المنخفض، أن يتقرَّب من أعلى الأسر المالكة والأرستقراطية ويفوز بالحظوة لديها؟

وكانت لكولومبوس قدرة مذهلة على أن يفتن النبلاء ويسحرهم. وكانت كلها ناجمة عن الطريقة التي يتصرَّف بها. فقد كان يبرز شعوراً بالثقة لا يتناسب إطلاقاً مع إمكانياته. ولم تكن ثقته محاولة عدوانية قبيحة لترويج نفسه كمُحْدَثِ نعمة - بل كانت ثقة بالنفس هادئة رزينة. والواقع أنها كانت ذات الثقة التي يعرضها النبلاء في العادة عن أنفسهم. فالأقوياء ذوو الطراز الأرستقراطي القديم لم يكونوا يشعرون بالحاجة إلى

إثبات أنفسهم أو توكيدها؛ فلأنهم نبلاء، كانوا يعرفون أنهم يستحقون أكثر على الدوام، وكانوا يطالبون بذلك. وإذن فقد شعروا بنوع من القرابة الفورية مع كولومبوس، لأنه كان يتصرَّف على غرارهم بالضبط. مرتفعاً فوق جمهور العامّة، ومقدَّراً له التوجه إلى عظائم الأمور.

إفهم: إنه ضمن سلطتك أن تحدِّد ثمنك بنفسك. فالطريقة التي تتصرَّف بها تعكس ما تعتقده بنفسك. فإن طلبت ثمناً قليلاً، فحرِّك قدميك وطأطىء رأسك. وسيفترض الناس أن ذلك يعكس شخصيتك. ولكن هذا السلوك ليس أنت ـ بل هو فقط الطريقة التي اخترتَ أن تقدِّم بها نفسك للناس الآخرين. ويمكنك بكل سهولة أن تقدِّم واجهة كولومبوسية: من الابتهاج، والثقة، والشعور بأنك مولود كي تلبس تاجاً.

عند كل المخادعين الكبار هناك حدث جدير بالاهتمام هم مدينون له بسلطتهم. ففي عمل الخداع الفعلي تتغلب عليهم ثقتهم بأنفسهم. وهذه الثقة هي التي تتحدث بصورة معجزة وملزمة لمن هم حولهم.

(فردريك نيتشه، 1844، 1900)

مفاتيح السلطة

نبدأ حياتنا كأطفال، بكثير من الحماس والمرح والحيوية، متوقعين كل شيء من الدنيا، ومطالبين بكل شيء. ويستمر هذا بصورة عامة في أول غزواتنا في المجتمع، حالما نبدأ حياتنا العملية. ولكن مع تقدمنا في السن، فإن حالات الصدّ والفشل التي نتعرَّض لها تقيم حدوداً لا تزداد مع الزمن إلاّ صلابة. فنبدأ في توقع أشياء أقل من الدنيا، ونقبل حدوداً هي في الواقع أشياء فرضناها على أنفسنا. ونبدأ في الانحناء، وتحية الآخرين باحترام، والاعتذار حتى عن أبسط المطالب. والحلّ إزاء هذه الآفاق المتقلّصة، هو أن نتعمَّد إرغام أنفسنا على الذهاب في الاتجاه المعاكس، وأن نقلِّل من أهمية حالات الفشل ونتجاهل الحدود المقيِّدة،

وأن نجعل أنفسنا نطالب بما يطالب به الطفل، ونتوقع الكثير كما يتوقع الطفل. ولتحقيق ذلك يجب أن نستخدم استراتيجية خاصة على أنفسنا. ولْنُسَمِّها استراتيجية التاج.

وتقوم استراتيجية التاج هذه على سلسلة بسيطة من الأسباب والنتائج. فإذا آمنَّا أننا مقدَّرٌ لنا الإتيان بأشياء عظيمة، فإن هذا الإيمان يشعّ إلى الخارج، تماماً كما يخلق التاج هالة حول الملك. فهذا الإشعاع الخارجيّ يُعْدي الناس من حولنا، إذْ أنهم سيعتقدون أنه لا بدَّ أن لنا أسباباً تجعلنا نشعر بالثقة إلى هذا الحدّ. فالذين يرتدون التيجان لا يبدو أنهم يشعرون بإحساس داخلي بالقيود التي تحدِّد ما يستطيعون أن يطلبونه، أو ما يقدرون على تحقيقه. فهذا يشع إلى الخارج كذلك. فتختفي الحدود والقيود. استخدم استراتيجية التاج وسيدهشك عدد المرات التي ستثمر فيها. وخذ مثلاً أولئك الأطفال السعداء الذين يطلبون كل ما يريدون، ويحصلون عليه. فتوقعاتهم الكبرى هي سرّ سحرهم وجاذبيتهم. والبالغون يتمتعون بمنحهم ما يرغبون به. تماماً كما تمتعت إيزابيللا بتلبية رغبات كولومبوس.

وطوال التاريخ كان هناك أناس من منابت غير متميزة ـ أمثال ثيودورا البيزنطية، وكولومبوس، وبيتهوفن، ودزرائيلي. استطاعوا أن يتدبَّروا أمر تشغيل استراتيجية التاج وهم يؤمنون في صلابة بعظمتهم إلى درجة أنها تصبح نبوءة تحقِّق ذاتها. والسرّ في ذلك بسيط: فليغلب عليك إيمانك بنفسك. وحتى عندما تعلم أنك تمارس على نفسك نوعاً من خداع الذات، تصرَّف كملك. فمن المحتمل أن تُعامَلَ كملك.

وقد يفصلك التاج عن الناس الآخرين. ولكن جعل ذلك الفصل حقيقياً شيء يعود إليك: إن عليك أن تتصرَّف بشكل مختلف، مُبَيِّناً المسافة التي تفصلك عمَّن حولك. ومن طرق توكيد اختلافك عنهم أن تتصرَّف دائماً بوقار وكرامة، مهما كانت الظروف. فلويس فيليب لم يعطِ أي إحساس بأنه مختلف عن الآخرين ـ بل كان ملكاً صيرفياً. وفي

اللحظة التي هدَّده فيها رعاياه، انهار. وقد أحسَّ الجميع بذلك فانقضّوا. ونظراً لأن لويس فيليب كانت تنقصه الكرامة الملكية وصلابة القصد، فقد بدا كأنه مُدَّعٍ فتم إسقاط التاج من على رأسه بسهولة.

وينبغي عدم الخلط بين التصرف الملكي وبين الغطرسة. فقد تبدو الغطرسة حقاً من حقوق الملك، ولكنها في الواقع تشير إلى انعدام الأمن. إنها النقيض الكامل للسلوك الملوكي.

إن هيلا سيلاسي، الذي حكم إثيوبيا أربعين عاماً، بدءاً من سنة 1930، كان ذات مرة شاباً يدعى ليج طافاري. وكان ينحدر من أسرة ملكية، ولكن لم تكن أمامه فرصة حقيقية للوصول إلى السلطة، لأن مكانته كانت منخفضة على سلّم خلافة الملك الذي كان على العرش آنذاك، مينيليك الثاني. ومع ذلك فقد أظهر منذ سنٍّ مبكرة ثقةً بالنفس وتصرفاً ملكياً لائقاً أدهش الذين حوله جميعاً.

ففي سن الرابعة عشرة، ذهب طافاري ليعيش في البلاط، فأثار إعجاب مينيليك على الفور وصار صاحب حظوة عنده. فقد أَنْشَدَهَ الملك برباطة جأش طافاري تحت النار، وصبره، وثقته الهادئة بنفسه. أما النبلاء الآخرون الشباب، بغطرستهم، وصخبهم المتبجح، وحسدهم فكانوا يتآمّرون على هذا المراهق الضئيل الحجم المعتمد على الكتب والنظريات. ولكنه لم يغضب أبداً ـ فالغضب سيكون علامة انعدام الشعور بالأمن، وهو ما لا يريد أن ينحدر إليه. فقد كان هناك أناس حوله يشعرون بأنه سيصعد إلى القمة ذات يوم، لأنه كان يتصرَّف كما لو كان قد وصل إلى القمة.

وبعد سنوات، في سنة 1936، عندما احتلَّ الفاشيون الإيطاليون إثيوبيا، وكان طافاري في المنفى ـ وقد صار اسمه هيلا سيلاسي. ألقى خطاباً في عصبة الأمم دفاعاً عن قضية بلده. فضايقه الإيطاليون الذين كانوا بين المستمعين بالشتائم البذيئة، ولكنه حافظ على موقفه المتمسك بكرامته وترفّعه، وكأنه لم يتأثر بذلك أبداً. فرفعه هذا الموقف وجعل

أعداءه يَظْهَرون أشدّ قبحاً. فالترفع يظل في الواقع هو القناع الذي ينبغي استخدامه تحت الظروف الصعبة: إذْ أنه يعطي الانطباع بأنه لا يمكن أن يؤثر فيك شيء، وكأن لديك كل الوقت في العالم لتردّ على مهل. فهذا موقف قوي للغاية.

وللسلوك الملوكي استخدامات أخرى. فقد كان فنانو النصب والاحتيال يعرفون منذ زمن طويل قيمة الواجهة الأرستقراطية؛ فهي إمّا أن تنزع سلاح الناس وتجعلهم أقل تشكّكاً، أو أنها ترهبهم وتجعلهم يتخذون موقف الدفاع ـ وكما كان الكونت فكتور لاستيغ يعلم، إذْ أنّك عندما تجعل مغفلاً يتخذ موقف الدفاع فإنك تحكم عليه بالسقوط. وكان رجل الأحابيل يَالُوكِيدْ أيضاً كثيراً ما يتخذ بهرجات وزركشات لرجل غني، ومعها موقف عدم المبالاة. فكان يشير إلى طريقة سحريةٍ مّا لتنمية الأموال ثم يقف مترفعاً، كالملك، ينضح بالثقة وكأنه في الحقيقة ذو ثروة خرافية، بحيث يتوسل المغفلون لمشاركته كي تتاح لهم فرصة الحصول على نصيب من الثروة التي كان يعرضها عليهم بمثل هذا الوضوح.

وأخيراً، فلتعزيز الأحابيل النفسية الداخلية المنطوية ضمن إبراز السلوك الملكي، هناك خطط استراتيجية لمساعدتك على خلق التأثير. وأولها استراتيجية كولومبوس: قدّم طلباً جريئاً على الدوام. ضع لنفسك ثمناً مرتفعاً ولا تتردَّد.

وثانياً: توجه بطريقة مترفعة إلى أعلى شخص في المبنى. فإن ذلك يضعك مباشرة على المستوى نفسه مع الموظف التنفيذي الكبير الذي تستهدفه. إنها استراتيجية داوود وجالوت (غولايات): إذ أنك باختيارك خصماً عظيماً، تعطي عن نفسك انطباعاً بالعظمة.

وثالثاً: قدِّم هدية من نوعٍ مّا لمن هم فوقك. وهذه سياسة الذين لديهم راعٍ. فبإعطاء راعيك هديةً فإنك من حيث الجوهر تقول له إنكما متساويانِ. إنها لعبة التحايل القديمة، أنْ تعطي لكي تأخذ. فعندما أراد بيترو آريتينو، كاتب عصر النهضة، أن يجعل دوق مانطوا راعيه التالي،

كان يعرف أنه إذا تصرَّف كعبد خاضع ذليل فإن الدوق سيظنه تافهاً؛ وهكذا اقترب من الدوق بالهدايا، وفي هذه الحالة كانت الهدايا لوحات من عمل صديق الكاتب، تيزيانو فيشيللي تِتْيان (1487. 1576)، أحد أعظم رسامي عصر النهضة، فأدَّى قبول الهدايا إلى خلق نوع من المساواة بين الدوق والكاتب. وتمت إراحة الدوق بإشعاره أنه يتعامل مع رجل من طابعه الأرستقراطي ذاته. وهكذا موَّل آريتينو بسخاء. فاستراتيجية الهدايا ذكية وألمعيّة، لأنك لا تستجدي. بل أنت تطلب المساعدة بطريقة مترفّعة توحي بالمساواة بين شخصين، وكل ما هنالك أن أحدهما يتصادف أن معه مالاً أكثر.

تذكّر: إن تحديد ثمنك أمر متروك لك. اطلب ثمناً أقلّ، وسيكون ذلك هو ما تحصل عليه بالضبط. غير أنك إذا طلبتَ أكثر، فإنك ترسل إشارة بأنك جدير بفدية ملك. وحتى أولئك الذين يرفضون طلبك يحترمونك على ثقتك بنفسك. وسيثمر هذا الاحترام في نهاية الأمر بطرقٍ لا تستطيع تخيُّلها.

صورة: التاج. ضعه على رأسك، وسوف تتخذ موقفاً مختلفاً
ـ موقفاً هادئاً ومع ذلك فإنه يشع بالثقة المطمئنة. وإياك
أن تظهر شكّاً أو أن تفقد كرامتك تحت التاج، وإلاّ فإنه
لن يعود مناسباً لمقاسك. وسوف يبدو مقدراً لمن
هو أجدر منك. ولا تنتظر تتويجاً. فأعظم
الأباطرة يتوّجون أنفسهم.

الشاهد: ينبغي على كل شخص أن يكون ملوكياً بطريقته الخاصة. دع أعمالك في جوِّها نفسه تكون جديرة بملك، حتى ولو لم تكن أعمالاً ملوكية. كن سامياً في أعمالك، شاهقاً في أفكارك. وفي كل ما تقوم به، أظهر أنك تستحق أن تكون ملكاً حتى لو لم تكن كذلك في الحقيقة.

(بلثازار غراسيان، 1601. 1658)

الانقلاب

إن الفكرة الكامنة وراء اتخاذ سمت الثقة الملوكية هو فصل نفسك عن الناس الآخرين. ولكنك إذا أفرطت في ذلك فإنه سيكون نهايتك. وإياك أن تخطىء بالاعتقاد أنك ترفع نفسك بإذلال الناس. فليس الشموخ فوق الجمهور بارتفاع مفرط فكرةً حسنةً أبداً ـ إذ أنك تجعل نفسك هدفاً سهلاً. وهناك أوقات يكون فيها اتخاذ موقف أرستقراطي خطراً بارزاً.

ففي أربعينات القرن السابع عشر، واجه شارل الأول، ملك إنكلترا، سخطاً عاماً عميقاً على الملكية كمؤسسة. فقد انفجرت الثورة في طول البلاد وعرضها، بقيادة أوليفر كرومويل. ولو استجاب شارل لروح العصر برؤية متعمقة، فأيّد الإصلاحات، وأظهر أنه يضحّي ببعض سلطته، لاختلف التاريخ. وبدلاً من ذلك، انقلب إلى موقف أكثر ملوكية، فقد بدا شديد الغضب من الهجوم على سلطته، وعلى مؤسسة الملكية الإلهية المصدر. فأهان الناسَ بتصلّبه الملوكي، وحثّهم ذلك على الاستمرار في ثورتهم. وفي خاتمة المطاف فَقَدَ شارل رأسه، حرفياً.

إفهم: إنك تشعّ ثقةً، لا غطرسة ولا احتقاراً.

وأخيراً: فإنه صحيح أنك تستطيع أحياناً أن تحصل على شيء من السلطة من خلال اصطناع نوع من الخشونة الجافية، التي سوف تثبت أنها مسلية بتطرفها. ولكن مدى كسبك لهذه اللعبة بتجاوز الحدود، وفصل نفسك عن الآخرين بالظهور بأنك أخشن منهم وأشد غلاظةً، ينبغي أن لا يُنسيك أنها لعبة خطرة: فسيكون هناك دائماً أناس أخشن منك. وسوف يُسْتَبْدَلُ بك بسهولة في الموسم التالي شخصٌ أصغر سناً، وأسوأ.

القانون

35

اتقن فنّ التوقيت

الحكم

إياك أن تبدو مستعجلاً - فالعَجَلةُ تفضح نقصاً في سيطرتك على نفسك، وعلى الزمن. إظهر صبوراً دائماً، كانك تعرف أن كل شيء سيكون مرجعه إليك في آخر المطاف. وتَحَرَّ اللحظة المناسبة. وتحسَّس روح العصر، والاتجاهات التي ستحملك إلى السلطة. تعلَّم أن تقف على حدة عندما لا يكون الوقت قد نضج بعدُ، وأن تضرب ضربتك بشدة عندما تصل الثمرة إلى النضوج.

مراعاة القانون

بدأ جوزيف فوشيه حياته العملية كمدرسٍ فرنسيٍّ في الثانويات الدينيّة غريب الأطوال يصعب وصفه، متجوّلاً من مدينة إلى مدينة طيلة القسم الأكبر من عقد الثمانينات في القرن الثامن عشر، يدرس الرياضيات للصبيان والفتية الصغار. ومع ذلك فإنه لم يلزم نفسه بالكنيسة إلزاماً كاملاً، ولم يقسم اليمين كقسيسٍ أبداً ـ فقد كانت لديه خطط أكبر من ذلك. فَانتظرَ فرصتَهُ وأبقى خياراته مفتوحة. وعندما انفجرت الثورة الفرنسية سنة 1789، لم يعد فوشيه ينتظر. فتخلص من جلبابه الكَنَسِيّ، وأطال شعره، وأصبح ثَوْرِيّاً. فقد كانت هذه روح العصر. فإذا فاته القارب في هذه اللحظة الحرجة فإن ذلك سيعني كارثة. ولم يُضِعْ فوشيه الفرصة. فصادق الزعيم الثوري روبسبير وصعد بسرعة في مراتب الثوار. وفي سنة 1792، انتخبته مدينة نانتز ممثلاً لها في المؤتمر الوطني (الذي أُوجِدَ في ذلك العام لتأطير دستور جديد للجمهورية الفرنسية).

وعندما وصل فوشيه إلى باريس ليتخذ مقعده في المؤتمر، كان انشقاق عنيف قد وقع بين اليعاقبة المعتدلين والمتطرفين. وشعر فوشيه أنه لن يخرج أي من الطرفين منتصراً في المدى الطويل. فالسلطة نادراً ما ينتهي بها الأمر في أيدي الذين يبدأون ثورة، ولا حتى في أيدي الذين يطورونها؛ بل إن السلطة تلتصق بالذين يوصلونها إلى نتيجة. وكان ذلك هو الطرف الذي أراد فوشيه أن يكون فيه.

درس سرتوريوس

وراحت قوة سرتوريوس تتزايد بسرعة، لأن جميع القبائل بين الإيبرو والبيرانيس جاءت لتنضم إليه، وتقاطرت إليه القوات من كل حدب وصوب. غير أنه كان منزعجاً من انعدام الانضباط وكثرة الثقة المفرطة في صفوف هؤلاء البرابرة الواصلين الجدد، الذين راحوا يصرخون عليه بضرورة مهاجمة العدوّ، فلم يكن لهم صبر على خطواته التكتيكية التأجيلية. ولذلك حاول أن يكسبهم إلى جانبه بالنقاش. ولكنه عندما رأى أنهم ساخطون، ومصرّون على مطالبهم بصرف النظر عن الظروف، تركهم يجربون حظهم وسمح لهم بالاشتباك مع العدو، على أمل أن يتلقوا هزيمة قاسية، دون أن يتعرضوا للسحق الكامل، لعل ذلك يجعلهم أميل إلى إطاعة أوامره في المستقبل. فحدث الأمر كما توقع، فتوجه سرتوريوس لإنقاذهم، وشكّل نقطة تجمع للهاربين، واقتادهم إلى معسكره بسلام. فكانت خطوته التالية هي إحياء

كان إحساسه بالتوقيت خارقاً. فقد بدأ كمعتدل، لأن المعتدلين كانوا هم الأكثرية. غير أنه عندما حان الوقت للبتّ في إعدام أو عدم إعدام لويس السادس عشر، رأى أن الناس كانوا يصرخون في طلب رأس الملك، فألقى بصوته الحاسم ـ لصالح المقصلة. وعندئذ صار متطرفاً. ومع ذلك فعندما وصل التوتر إلى الغليان في باريس، تنبأ بخطر الارتباط اللصيق أكثر من اللازم بأي زمرة، وهكذا قبل منصباً في المقاطعات، حيث كان يستطيع أن يبقى مغموراً لفترة من الزمن. وبعد بضعة أشهر عين في منصب قنصل في ليون، حيث أشرف على إعدام عشرات الأرستقراطيين. غير أنه في لحظة معينة أمر بوقف عمليات القتل هذه، لأنه شعر بأن مزاج البلد آخذ في التحول. وعلى الرغم من الدم الذي كان يلوث يديه، فقد حيّاه مواطنو ليون وهتفوا له باعتباره منقذاً لهم ممّا صار يُعْرَفُ بالإرهاب.

وحتى ذلك الحين، لعب فوشيه أوراقه بألمعية. ولكن في سنة 1794، استدعاه صديقه القديم روبسبير إلى باريس لمساءلته عن أعماله في ليون. وكان روبسبير هو القوة المحركة وراء الإرهاب. وكان قد دحرج الرؤوس ذات اليمين وذات الشمال. وبدا أن فوشيه، الذي لم يعد يثق به روبسبير، مقدرٌ لرأسه أن يكون هو التالي. وعلى مدى الأسابيع القليلة التالية نشأ صراع شديد: فبينما راح روبسبير يصرخ علناً ضد فوشيه، متهماً إياه بمطامح خطرة، وداعياً إلى القبض عليه، كان فوشيه المخاتل الماكر يعمل بصورة غير مباشرة، يكسب التأييد بهدوء في صفوف أولئك الذين سئموا من تحكم روبسبير الدكتاتوري. وكان فوشيه يحاول كسب الوقت، ويعرف أنه كلما طال وقت نجاته زاد عدد المواطنين الساخطين الذين يستطيع تجميعهم ضد روبسبير. فقد كان عليه أن يحصل على دعم واسع قبل أن يتحرك ضد زعيم قوي. فحشد دعماً في أوساط المعتدلين واليعاقبة معاً، مستغلاً الخوف الواسع الانتشار من روبسبير ـ فقد كان كل واحد يخشى أن يكون دوره هو التالي للذهاب

روحهم المعنوية الواهنة. وهكذا دعا إلى اجتماع عام بعد بضعة أيام. وقبل الاجتماع أبرز حصانين، أحدهما عجوز وضعيف والآخر كبير ومفعم بالحيوية، وله ذيل مناب لافت للنظر بكثافته وجمال شعره. وإلى جانب الحصان الضعيف وقف رجل طويل قوي، بينما وقف إلى جانب الحصان القوي شخص قصير ضئيل البنية. وعند إعطاء الإشارة جذب الرجل القوي ذيل حصانه وحاول بكل قوته أن يشده إليه، وكأنه سيقطعه، بينما راح الرجل الضعيف يشدّ الشعرات من ذيل الحصان القوي واحدة فواحدة. أما الرجل القوي، فبعد أن جذب بكل قوته فلم يحقق شيئاً، وأضحك المشاهدين على هذه العملية، تخلى عن المحاولة في آخر الأمر. وأما الرجل الضعيف فقد استطاع بسرعة أن يجرّد ذيل حصانه من الشعر تماماً. فنهض سرتوريوس على قدميه وقال: «تستطيعون أن تروا، يا أصدقائي وحلفائي، أن المثابرة أكثر فاعلية من القوة الوحشية، وأن هناك صعوبات كثيرة لا يمكن التغلب عليها إذا حاولتم أن تعملوا كل شيء في الوقت نفسه دفعة واحدة، ولكنها ترضخ لكم إن تغلبتم عليها شيئاً فشيئاً. فالحقّ أن الجهد الثابت المتواصل لا يقاوَم. فهذه هي الطريقة التي يمسك فيها الزمن بأعظم قوى الأرض ويخضعها. فعليكم أن تتذكروا أن الزمن حليف جيد وصديق لكل الذين

إلى المقصلة. وقد أثمر هذا كله في 27 تموز/ يوليو سنة 1794، إذ انقلب المؤتمر على روبسبير وراح أعضاؤه يصرخون لإسكات خطاب روبسبير الطويل المعتاد. فألقي القبض عليه بسرعة. وبعد بضعة أيام كان رأس روبسبير، وليس فوشيه، هو الذي سقط في السلَّة.

يستخدمون ذكاءهم لاختيار اللحظة المناسبة ولكنه أخطر عدو لمن يهجمون على العمل في اللحظة غير المناسبة.

حياة سرتوريوس
بلوتارخ، حوالى 46 - 120م

وعندما عاد فوشيه إلى المؤتمر بعد موت روبسبير، قام بأكبر حركاته بعداً عن المتوقَّع. فبعد أن قاد المؤامرة على روبسبير، كان من المتوقع أن يجلس مع المعتدلين. ولكن العجيب أنه غيَّر ولاءه مرة أخرى فانضم إلى اليعاقبة المتطرفين. ولعلها كانت المرة الأولى في حياته التي ينضم فيها إلى الأقلية. كان من الواضح أنه شعر برد فعلٍ آخذٍ في التململ: كان يعلم أن الزمرة المعتدلة التي أعدمت روبسبير، وكانت على وشك الاستيلاء على السلطة، سوف تبادر إلى تدشين دورة جديدة من الإرهاب، ضد المتطرفين هذه المرة. وإذن فإن فوشيه بانضمامه إلى اليعاقبة، كان يجلس مع شهداء الأيام التالية ـ الناس الذين سَيُعْتَبَرُون غير ملومين على المتاعب القادمة نحوهم. فالانحياز إلى ما كان سيصبح الطرفَ الخاسر كان مناورةً محفوفة بالمخاطر بالطبع. ولكن لا بدَّ أن فوشيه قد حَسَبَ أنه يستطيع المحافظة على رأسه وقتاً يكفي لإثارة السكان ضد المعتدلين بحيث يراقبهم وهم يسقطون من السلطة. وبالفعل، فعلى الرغم من أن المعتدلين طالبوا باعتقاله في كانون الأول/ ديسمبر 1795، وكانوا سيرسلونه إلى المقصلة، فإن وقتاً أطول من اللازم كان قد مضى حتى فات الأوان. فقد فقدت الإعدامات شعبيتها بين الناس، ونجا فوشيه من دورة البندول مرة أخرى.

وتولَّت الأمور حكومة أخرى، هي حكومة الإدارة. غير أنها لم تكن حكومة يعاقبة، ولكن معتدلة، أكثر اعتدالاً من الحكومة التي أعادت فرض عهد الإرهاب. وقد حافظ فوشيه المتطرِّف على رأسه. ولكن كان عليه أن يحافظ على هدوئه ويعود مغموراً. فانتظر بصبرٍ سنواتٍ عديدة، متيحاً للوقت أن يليِّن المشاعر المريرة ضده، ثم اقترب من حكومة

الإدارة وأقنعها بأن لديه حماساً شديداً جديداً، هو جمع المعلومات الاستخبارية. فصار جاسوساً مأجوراً للحكومة وأبدع في هذه الوظيفة بامتياز. فكوفىء في سنة 1799، بجعله وزيراً للشرطة. وعندئذٍ لم يعد ذا سلطة مخولة فحسب، بل طلب مدّ تجسسه إلى كل زاوية في فرنسا ـ وتلك مسؤولية كان من شأنها تعزيز قدرته الطبيعية على تشمّم الاتجاه الذي تهبّ منه الريح. والواقع أنه كان من أوائل النزعات الاجتماعية التي اكتشفها شخصيةُ نابليون، الجنرال الشاب المندفع الذي كان مصيره ـ كما رآه فوشيه في الحال . مرتبطاً ارتباطاً متشابكاً مع مستقبل فرنسا. وعندما شنَّ نابليون انقلابه العسكري في 9 تشرين الثاني/نوفمبر سنة 1799، تظاهر فوشيه بأنه كان نائماً. والواقع أنه نام طيلة ذلك اليوم بأكمله. وبذلك قدم نابليون مساعدة غير مباشرة (لأنه كان المظنون، بعد كل شيء، أن وظيفة فوشيه هي منع الانقلابات العسكرية) . ولذا فقد احتفظ به نابليون وزيراً للشرطة في العهد الجديد.

وعلى امتداد السنوات القليلة التالية، راح نابليون يعتمد على فوشيه أكثر فأكثر. بل لقد أعطى لهذا الثورويّ السابق لقباً، هو دوق أوترانتو. وكافأه بثروة عظيمة. غير أنه بحلول سنة 1808، شعر فوشيه، الذي كان يتناغم دائماً مع إيقاع حركة العصر، بأن خط مسيرة نابليون آخذ في الانحدار. فحربه العبثية مع إسبانيا، البلد الذي لا يشكل خطراً على فرنسا، كان علامة على أنه أخذ يفقد الإحساس بالتناسب. وكان من طبيعة فوشيه أن لا يؤخذ على حين غِرَّة وهو على سفينة آخذة في الغرق. فشرع يتآمر مع تاليران على إسقاط نابليون. ورغم أن المؤامرة فشلت ـ وطرد تاليران؛ وبقي فوشيه، ولكن مقيد الصلاحيات تحت الرقابة . فإنها عمَّمَتْ بين الناس سخطاً متنامياً على الإمبراطور، الذي بدا أنه راح يفقد سيطرته. وبحلول سنة 1814، تهاوت سلطة نابليون وتغلبت عليه قوات التحالف في آخر الأمر.

وكانت الحكومة التالية إعادة للملكية، على شكل لويس الثامن

عشر شقيق لويس السادس عشر. وكان أنف جوزيف فوشيه كعهده، سريع التشمم لما تحمله الريح من إرهاصات التغيير الاجتماعي التالي، فشعر بأن لويس الثامن عشر لن يستمر طويلاً، فلم يكن لديه أي شيء من حاسة التمييز التي عند نابليون. وهكذا عاد فوشيه ثانيةً إلى ممارسة لعبة الانتظار، فجعل نفسه مغموراً، وابتعد عن الأضواء. وبالفعل هرب نابليون من جزيرة إلبا في شباط/ فبراير سنة 1815، حيث كان مسجوناً. فشعر لويس الثامن عشر بالذعر. كانت سياساته قد نفّرت المواطنين، الذين كانوا يصرخون في طلب عودة نابليون. فلجأ لويس إلى الرجل الوحيد الذي ربما كان باستطاعته أن ينقذ له جلده... وهو فوشيه: المتطرف السابق الذي كان قد أرسل أخاه، لويس السادس عشر، إلى المقصلة، ولكنه كان الآن واحداً من أكثر الساسة شعبية وإثارة للإعجاب في فرنسا. غير أن فوشيه لم يكن ليقف إلى جانب خاسر: فرفض طلب لويس للمساعدة بالتظاهر بأن مساعدته غير ضرورية - وبحلف يمين بأن نابليون لن يعود إلى السلطة (رغم أنه كان يعرف عكس ذلك). وبعد وقت قصير بالطبع، كان نابليون يُطْبِقُ على باريس بجيشه الجديد المكون من المواطنين.

ورأى الملك لويس عهده على وشك الانهيار، وشعر بأن فوشيه قد خانه، وبأنه متأكد من أنه لا يريد مثل هذا الرجل القوي القادر مع فريق نابليون، ولذا أمر باعتقال الوزير وإعدامه. وفي 16 آذار/ مارس سنة 1815، طوّق رجال الشرطة عربة فوشيه في إحدى جادّات باريس. فهل كانت هذه نهايته؟ ربما، ولكن ليس في الحال: فأخبر رجالَ الشرطة أنه لا يمكن اعتقال وزير سابق في الحكومة في الشارع. فصدّقوا هذه القصة وسمحوا له بالعودة إلى بيته. غير أنهم في وقت متأخر من ذلك اليوم جاؤوا إلى بيته وأعلنوا أنه مقبوض عليه. فهز فوشيه رأسه واستأذن من الضباط أن يسمحوا له بغسل وجهه وتغيير ثيابه قبل أن يغادر بيته للمرة الأخيرة. فأذِنوا له. فغادر فوشيه الغرفة. وتتابع مرور الدقائق ولم يعد

كان للسيد شِيهْ ولدان: أحدهما يحب التعلُّم، والآخر يحب الحرب. فقدّم الأوّل تعليماته الأخلاقية في بلاط شِيِي الذي أعجب بها فجعله معلماً. بينما تحدث الآخر عن الاستراتيجية في بلاط شُوْر الميال للحرب، فعُيِّن جنرالاً. وعندما سمع السيد مينغ، المفلس المعدم، بهذه النجاحات، أرسل ولديه ليتبعا مَثَلَ أولاد شِيهْ. فعرض الأول تعليماته الأخلاقية في بلاط شْيِنْ، ولكن ملك شْيِن قال: «إن الدول تتنازع بعنف في الوقت الراهن، وكل أمير منهمك في تسليح قواته حتى أسنانها. فإذا اتّبعت ثرثرات هذا المتزمّت فإننا سرعان ما نتعرّض للإبادة». وهكذا أمر بخصي ذلك الشخص. وفي تلك الأثناء عرض أخوه الثاني عبقريَّة العسكرية في بلاط وَيْ. ولكن ملك وَيْ قال: «إن دولتي ضعيفة. فإذا اعتمدتُ على القوات بدلاً من الدبلوماسية، فسوف نتعرض للمحق بسرعة. ومن جهة أخرى، فإنني إذا تركتُ آكل النار هذا يذهب، فسيعرض خدماته على دولة أخرى، وعندئذٍ ستعرض

فوشيه. وأخيراً دخل رجال الشرطة إلى الغرفة التالية ـ حيث رأوا سُلَّماً متكئاً على نافذة مفتوحة يؤدي نازلاً إلى الحديقة في الأسفل.

وفي ذلك اليوم والذي تلاه مشّط رجال الشرطة باريس بحثاً عن فوشيه. ولكن في ذلك الحين كانت مدافع نابليون مسموعة عبر المسافات، وكان الملك ورجاله جميعاً مضطرين إلى الهرب من المدينة. وحالما دخل نابليون باريس، خرج فوشيه من مخبئه. لقد احتال على الجلاد مرة أخرى. فقد حيّا نابليونُ وزيرَ شرطته السابق وأعاده بسرور إلى منصبه القديم. وخلال الأيام المائة التي بقي فيها نابليون في السلطة، حتى واترلو، كان فوشيه، من حيث الجوهر، هو الذي يحكم فرنسا. وبعد سقوط نابليون، عاد لويس الثامن عشر إلى العرش. وبقي جوزيف فوشيه، كقط بتسع أرواح، ليخدم حكومة جديدة. وعندئذ كانت سلطته ونفوذه قد تعاظما إلى درجة أنه، حتى الملك، لم يكن ليجرؤ على تحديه.

للمناعب». وهكذا أمر بتر قدمي ذلك الشخص. لقد فعلت العائلتان الشيءَ نفسَهُ تماماً، ولكن إحداهما أجادت اختيار التوقيت على نحو صحيح، والثانية أخطأت في ذلك. وهكذا فإن النجاح لا يعتمد على الاستدلال المنطقي، بل على توقيت الإيقاع.

لي تزُو: مقتبس في كتاب: في المنظار الصينيّ دنيس بلودوُورث، 1967

التفسير

في فترة من الاضطراب العنيف لا مثيل لها في السابق، انتعش جوزيف فوشيه بإتقانه فن التوقيت. ولذا فإنه يعلمنا عدداً من الدروس الأساسية.

أولاً: إن من المهم الاعتراف بروح العصر. لقد كان فوشيه دائماً ينظر إلى خطوتين مسبقاً. ويعثر على الموجة التي ستحمله إلى السلطة فيركبها. فعليك دائماً أن تعمل بمواكبة العصر، وأن تتوقع التغييرات والمنعطفات وتتنبّأ بها. ولا تدع القارب يفوتك. وقد تكون روح العصر غامضة أو غير واضحة أحياناً. فتعرف عليها ليس مما هو أعلى الأصوات أو أوضحها، بل عن طريق ما هو مخفي وخامل في سُبات. فتطلع سلفاً إلى نابليونات المستقبل، بدلاً من التمسك بأطلال الماضي.

وثانياً: إن التعرف على الرياح السائدة لا يعني بالضرورة الجريَ

معها. إن أي حركة اجتماعية قوية تخلق رد فعل قوي. وإن من الحكمة التنبؤ بما سيكون عليه رد الفعل ذاك؛ كما فعل فوشيه بعد موت روبسبير. فبدلاً من ركوب الموجة العارمة في لحظتها انتظر حتى ينحسر المدّ إلى جَزْرٍ كي يعيدك إلى السلطة. وفي بعض الأحيان راهن على رد الفعل الآخذ في الاختمار والجيشان وضع نفسك في طليعته.

وأخيراً: كان لفوشيه صبر عجيب. فبدون التذرع بالصبر سيفاً ودرعاً لك فإن توقيتك سيفشل، وستجد نفسك خاسراً حتماً. فعندما كان العصر معاكساً لفوشيه لم يصارعه، ولم يثر عاطفياً، ولم يضرب بشكل متهور. بل حافظ على برودة أعصابه وعلى رباطة جأشه وهو مغمور بعيداً عن الأضواء. وراح يبني التأييد في صفوف المواطنين، فهذا التأييد دعامة صعوده التالي إلى السلطة. وكلما وجد نفسه في الموقف الأضعف، كان يحاول كسب الوقت، الذي كان يعرف أنه سيكون دائماً من حلفائه إذا كان صبوراً. وإذن فأَدْرِك اللحظةَ التي يتعين عليك فيها أن تختفي وسط العشب أو تنساب منزلقاً تحت صخرة، وكذلك اللحظة التي تكشف فيها عن أنيابك وتهاجم.

كان سلطان [فارس] قد حكم على شخصين بالإعدام وكان أحدهما يعرف مدى حب السلطان لحصانه. فعَرَضَ أن يعلّم الحصان الطيران في غضون سنة، في مقابل الإبقاء على حياته. وتخيل السلطان نفسَهُ راكباً الحصان الطائر الوحيد في العالم، فوافق. فنظر السجين الآخر إلى صديقه وهو غير مصدّق، فقال: «أنت تعلم أن الخيل لا تطير. فما الذي جعلك تطلع بفكرة مجنونة كهذه؟» فقال [السجين الأول]: «ليس الأمر كذلك، إذ إنني أعطيت نفسي أربع فرصٍ لنيل الحرّيّة. فأولاً: قد يموت الملك في غضون السنة، وثانياً: قد أموت أنا، وثالثاً: قد يموت الحصان، ورابعاً: . . . قد أعلم الحصان أن يطير!».

حرفة السلطة

ر. ج. هـ. سْيُو، 1979

المسافة نستطيع أن نستعيدها، أما الزمن، فلا أبداً.

نابليون بونابرت 1769 ـ 1821

مفاتيح السلطة

الوقت مفهوم مصطنع خلقناه بأنفسنا كي نجعل انعدام الحدود في الأبدية والعالم أكثر قابلية للاحتمال، وأكثر إنسانية. وبما أننا بَنَيْنَا مفهوم الوقت، فإننا أيضاً قادرون على قولبته إلى حدّ مّا، وأن نمارس به الخدع والأحابيل. فوقت الطفل طويل وبطيء وفيه امتدادات شاسعة. أما زمن البالغ فيمرّ كاسحاً بسرعة مخيفة. فالوقت إذن يعتمد على الإدراك الحسي الذي نعرف أنه يمكن تغييره بالإرادة. فهذا هو الشيء الأول الذي ينبغي فهمه في إتقان فن التوقيت. فإذا كان الاضطراب الداخلي الناجم

عن جيشان العواطف يجعل الوقت يتحرك أسرع، فإن ذلك يتبعه أنه عندما نتحكم باستجاباتنا العاطفية للأحداث، فإن الوقت سيتحرك بصورة أبطأ بكثير. وهذه الطريقة المتغيرة في التعامل مع الأشياء تميل إلى إطالة إدراكنا للزمن المستقبل، وتفتح إمكانيات يغلقها الخوف والغضب، وتتيح لنا الصبر، الذي هو المطلب الرئيسي في فن التوقيت.

فهناك ثلاثة أنواع من الوقت نتعامل معها. وكلٌّ منها ينطوي على مشاكل يمكن حلها بالمهارة والتدريب. فأولاً هناك **الوقت الطويل**: وهو الزمن الممطوط إلى سنوات، والذي يجب إدارته بالصبر والتوجيه اللطيف. إن تعاملنا مع الوقت الطويل ينبغي أن يكون في معظمه دفاعياً ـ إنه فن عدم الاستسلام لرد الفعل المتهور، وانتظار الفرصة. ويلي ذلك **الوقت المفروض**: وهو وقت المدى القصير الذي نستطيع التلاعب به كسلاح هجومي، فنخلق الاضطراب والخلل في توقيت خصومنا. وأخيراً: هناك وقت النهاية عندما يتعين تنفيذ خطةٍ مّا بسرعة وقوة. أي بعد أن نكون قد انتظرنا، وعثرنا على اللحظة، ويجب أن لا نتردد.

الوقت الطويل: يروي رسام القرن السابع عشر الصيني شو يونغ، من أواخر فترة سلالة مِينغْ، قصةً غيرت سلوكه إلى الأبد. ففي وقت متأخر ذات مساء شتوي، خرج لزيارة مدينة تقع عبر النهر من مدينته. وكان يجلب معه بعض الكتب والأوراق الهامة، واستأجر ولداً لمساعدته في حملها. وعندما اقتربت العبّارة من الجانب الآخر من النهر، سأل شو يونغُ الملاحَ عما إذا كان لديهم من الوقت ما يتيح لهم الوصول إلى المدينة قبل إغلاق بوّاباتها، إذْ أنها كانت على بعد ميل، وكان الليل يقترب. فنظر الملاح إلى الولد، وإلى رزمة الورق والكتب المربوطة بشكل متراخٍ، وأجاب: «نعم، إذا لم تمشِ بسرعةٍ مفرطة».

غير أنهم عندما بدأوا كانت الشمس آخذة في الغياب. وخشي شو والولد الذي معه من إغلاق أبواب المدينة دونهما في الليل، ومن سقوطهما فريسة لقطّاع الطرق المحليين، فراحا يمشيان أسرع فأسرع،

السلمونة والشبوطة

وقف صياد سمك في شهر أيار/مايو، على ضفة نهر التايمز يصطاد بِشِصٍّ مصطنع. فألقى الطعم على نحو فيه كثير من التفنّن إلى درجة أن سلمونةً صغيرة هجمت عليه، فمنعتها أمها، قائلةً لها: «لا تسرعي أكثر مما ينبغي يا صغيرتي حيث يوجد احتمال للخطر. بل خذي وقتاً كافياً للتفكير قبل أن تغامري بعمل قد يكون مميتاً. فكيف تعرفين أن هذا الشيء الظاهر هناك هو ذبابة فعلاً، أم مصيدة للعدو؟ دعي أحداً آخر يقوم بهذه التجربة قبلك. فإن كانت ذبابة فقد تتجنب الهجوم الأول. وعندئذٍ يمكنك القيام بالهجمة الثانية، إن لم يكن بنجاح، فبسلامةٍ على الأقل».

حتى انقلب سيرهما جرياً. وفجأة انقطع الخيط الذي يحيط بالأوراق فتبعثرت الوثائق على الأرض، وما إن وصلا إلى بوابات المدينة حتى كان الأوان قد فات.

ولم تكد تكمل كلامها حتى أمسكت شبرطة بالذبابة المزعومة. فصارت مثلاً للـلمرنة الصغيرة على أهمية نصائح أمها.

خرافات
روبرت دودزلي، 1703 ـ 1764

فعندما تَقْسِرُ إيقاع خطواتك قَسْراً بسبب الخوف أو فقدان الصبر، فإنك تخلق عشاً من المشاكل التي تتطلب حلاً، وينتهي بك الأمر إلى أن تستغرق وقتاً أطول مما كنت ستستغرقه لو سِرْتَ على مهل. فالمستعجلون قد يصلون أسرع أحياناً، ولكن الأوراق تتطاير في كل مكان، وتنشأ أخطارٌ أخرى، فيجدون أنفسهم في صيغة أزمة مستمرة، يعالجون المشاكل التي خلقوها بأنفسهم. وقد يكون عدم التصرف في وجه الخطر هو أفضل حركة لك في بعض الأحيان. فتنتظر وتتعمد الإبطاء. ومع مرور الزمن تأتي فرصٌ في آخر الأمر لم تكن قد تَصَوَّرْتَها.

والانتظار ينطوي على التحكم، ليس بعواطفك فقط، بل كذلك بعواطف زملائك الذين قد يخطئون فيعتبرون التصرفَ سلطةً ويحاولون دفعك إلى القيام بحركة متهورة. ومن جهة أخرى، فإنك تستطيع أن تشجع خصومك على ارتكاب الغلطة نفسها: فإذا تركتهم يهجمون على المتاعب رأساً، بينما تبتعد أنت وتنتظر، فإنك سرعان ما تجد اللحظة الناضجة لتتدخل وتلتقط بقايا القطع المكسرة. فقد كانت هذه السياسة الحكيمة هي الاستراتيجية الرئيسية للإمبراطور الياباني العظيم طوكوغاوا إياسو في أوائل القرن السابع عشر. فعندما قام سلفه العنيد هيديوشي، الذي كان إياسو قد خدمه كواحد من جنرالاته، بشن غزو متهور ضد كوريا، ابتعد إياسو عن توريط نفسه فيه. فقد كان يعلم أن الغزو سيكون كارثة، وسيؤدي إلى سقوط هيديوشي. إن من الأفضل الوقوف جانباً في صبر، حتى ولو استغرق ذلك سنوات كثيرة، لتكون بعد ذلك في مركز يتيح لك الاستيلاء على السلطة عندما يكون الوقت مناسباً ـ وهذا بالضبط هو ما فعله إياسو، ببراعة فنيَّة عظيمة.

إنك لا تتعمد إبطاء سير الزمن لتعيش أطول، أو لتستمتع باللحظة

أكثر، بل لكي تمارس لعبة السلطة على نحو أفضل. فأولاً، عندما لا يكون ذهنك منشغلاً بتكدس الطوارىء المستمرة، فإنك سترى إلى مسافة أبعد في المستقبل. وثانياً، ستكون قادراً على مقاومة كل طُعْم يدلي به الناس أمامك، وستحمي نفسك من التحول إلى مغفّلٍ آخرَ فاقدَ الصبر. وثالثاً، سينفسح أمامك مجال لتكون مرناً. وسوف تنشأ حتماً فرصٌ لم تكن قد توقعتَها، وكنتَ ستضيعها لو أنك قَسَرْتَ إيقاع خطواتك. ورابعاً، فإنك لن تنتقل من قضيةٍ إلى التي تليها بدون استكمال الأولى. ذلك أن بناء أساس سلطتك قد يستغرق سنوات، فتأكد من كون ذاك الأساس آمناً. فلا تكن مخفقاً. لأن النجاح الذي يتم بناؤه ببطء وبثقة أكيدة، هو وحده النوع الذي يدوم طويلاً.

وأخيراً، فإن إبطاء إيقاع الزمن سيعطيك زاوية نظر إلى العصر الذي تعيش فيه، فيتيح لك الابتعاد مسافة معينة، ويضعك في مركز أقل شحناً بالعواطف ويمكنك من رؤية شكل الأشياء القادمة. فكثيراً ما يخطىء المستعجلون فيظنون الظواهر السطحية اتجاهاً حقيقياً، فلا يرون إلاّ ما يريدون أن يروه. والأفضل من ذلك بكثير هو رؤية ما يحدث في الواقع حتى ولو كان كريهاً ويجعل مهمتك أصعب.

الوقت المفروض: إن خدعة فرض الوقت، هي إحداث خلل في توقيت الآخرين، وجعلهم ينتظرون، وجعلهم يتخلون عن إيقاعهم ذاته، وتشويش إدراكهم الحسي للزمن. فعندما تحدث اضطراباً في توقيت خصومك، بينما تظل أنت صابراً، فإنك تفتح فرصة زمنية لنفسك، وهذا نصف اللعبة.

في سنة 1473، دعا السلطان العثماني العظيم محمد الفاتح إلى إجراء مفاوضات مع هنغاريا لإنهاء الحرب التي شنها الطرفان بشكل متقطع على مدى سنوات. وعندما وصل المبعوث الهنغاري إلى تركيا لبدء المحادثات، اعتذر المسؤولون الأتراك بتواضع، قائلين إن محمداً

قد غادر العاصمة إسطنبول ليخوض معركة ضد عدوه القديم أوزون حسن. ولكنه يريد السلام مع هنغاريا بصورة عاجلة، وقد طلب أن ينضم إليه المبعوث في الجبهة.

وعندما وصل المبعوث الهنغاري إلى موقع القتال، كان السلطان محمد الفاتح قد غادره متجهاً إلى الشرق لمطاردة عدوه السريع الحركة. وتكرر ذلك عدة مرات. فحيثما توقف المبعوث، كان الأتراك يغدقون عليه الهدايا ويقيمون له المآدب في حفلات سارة ولكنها مستهلكة للوقت. وأخيراً هزم محمدٌ أزونَ والتقى بالمبعوث الهنغاري. ومع ذلك فقد كانت شروطه للسلام مع هنغاريا مفرطة في قسوتها. وبعد بضعة أيام انتهت المفاوضات، وظل المأزق المعتاد للطريق المسدود في مكانه. ولكن هذا كان جيداً بالنسبة لمحمد. والواقع أنه كان قد خطط له بهذه الطريقة من البداية على طول الخط. ذلك أنه عندما خطط حملته ضد أوزون كان قد رأى أن تحويل جيوشه إلى الشرق سيترك جناحه الغربي مكشوفاً. ولمنع هنغاريا من استغلال نقطة ضعفه وانشغاله في مكان آخر، أدلى أولاً بإغراء السلام أمام عدوه، ثم جعله ينتظر ـ وكل ذلك وفق شروطه هو.

إن جعل الناس ينتظرون هو أسلوب قوي لفرض الوقت، ما داموا غير مدركين لما تهدف إليه. فأنت تسيطر على الساعة بينما هم ينتظرون متسكعين في منطقة مهملة أو منسية لا يحصلون منها على شيء، بل يلقون الفراغ بسرعة، مما يفتح أمامك فرصاً لتوجيه ضربتك. كما أن التأثير المعاكس قوي الفاعلية كذلك: إذْ أنّك تجعل خصومك يتعجّلون. فابدأ تعاملك معهم ببطء، ثم مارس الضغط فجأةً، مما يجعلهم يشعرون أن كل الأشياء آخذة في الحدوث دفعة واحدة. فالناس الذين ينقصهم الوقت للتفكير يرتكبون أخطاء ـ وهكذا حدّد لهم المهلة النهائية. فقد كان هذا الأسلوب هو الذي جعل ماكيافيللي يُعْجَبُ بسيزار بورجيا الذي

كان يضغط أثناء المفاوضات فجأةً وبعنفٍ وإلحاح طالباً اتخاذ قرار، فيحدث خللاً في توقيت خصمه وصبره. إذْ مَنِ الذي كان يجرؤ على ترك سيزار ينتظر؟

وكان جوزيف دوفين، تاجر اللوحات الفنية الشهير، يعرف إذا قدم إنذاراً بمهلة نهائية لمشترٍ متردد مثل جون د .روكفيلر . بالزعم أن اللوحة يجب أن تغادر البلد، لأن واحداً آخر من ملوك المال مهتمٌ بها ـ فإن الزبون سيشتري في الوقت المناسب تماماً. وقد لاحظ فرويد أن المرضى الذين أمضوا سنواتٍ في التحليل النفسي دون تحسن كانوا يتعافون بما يشبه المعجزات، وفي الوقت المناسب، إذا حدد تاريخاً معيناً لانتهاء المعالجة. وقد استخدم المحلل النفسي الفرنسي جاك لاكان تنويعاً على هذه الخطة التكتيكية ـ فكان في بعض الأحيان ينهي جلسات العلاج المعتادة التي مدتها ساعة بعد مضي عشر دقائق منها فقط، وبدون سابق إنذار. وبعد حدوث ذلك عدة مرات، كان المريض يدرك أن من الأفضل له أن يستفيد إلى أقصى حد من الوقت المتاح، بدلاً من أن يمضي الجزء الأكبر من الساعة المخصصة للجلسة في كثير من الكلام الذي لا معنى له. فالمهلة النهائية إذن أداة قوية. فأغلق آفاق التردد وأرغم الناس على أن يحسموا أمرهم اللعين، أو يصلوا إلى بيت القصيد . ولا تتركهم أبداً يرغمونك على اللعب وفق شروطهم المؤلمة. ولا تعطهم وقتاً قَطّ.

إن السحرة ورجال الاستعراضات خبراء في فرض الوقت. فكثيراً ما كان هوديني يستطيع التلوّي والإفلات من أصفاد اليدين بدقائق. ولكنه كان يطيل العملية إلى ساعة، فيجعل المشاهدين يتصببون عرقاً، بحيث يبدو الوقت وكأنه توقف تماماً. وكان السحرة يعرفون دائماً أن أفضل طريقة لتغيير إدراكنا للوقت هي على الأغلب إبطاء الإيقاع. فخلق التوتر والتوقع يوقف الوقت إيقافاً مرعباً: فكلما أبطأت حركة يدي الساحر،

صار من الأسهل خلق وهم السرعة بجعل الناس يظنون أن الأرنب قد ظهر على الفور في لحظة. وهذا تأثيرٌ لاحظه بوضوحٍ ساحرُ القرن التاسع عشر العظيم جان ـ يوجين روبرت . هودين بقوله: «كلما رُوِيَت القصة ببطء أكثر، فإنها تبدو أقصر».

كما أن التباطؤ يجعل ما تقوم به أكثَرَ إثارةً للاهتمام ـ إذْ أن المتفرجين يخضعون لإيقاعك ويصبحون مسلوبي اللبّ. وهذه حالة ينساب فيها الوقت مسرعاً بسرور ومتعة. فيجب أن تتمرن على خلق مثل هذه الأوهام، التي تشترك مع قوة المنوّم المغناطيسي القادرة على تغيير إدراك الو قت.

وقت النهاية: بإمكانك أن تمارس اللعبة بأقصى تفنّن ـ فتنتظر بصبرٍ لتتصرف حين تأتي اللحظة المناسبة. فتشوش على منافسيك بالتدخل المُخِلّ بتوقيتهم ـ ولكن ذلك لن يعني شيئاً ما لم تعرف كيفية الإنهاء. فلا تكن من الذين يظهرون وكأنهم نماذج مثالية للصبر، ولكنهم في الحقيقة خائفون من إيصال الأشياء إلى ختامها: فالصبر لا قيمة له ما لم يكن مشفوعاً بالاستعداد للانقضاض على خصمك في اللحظة المناسبة بلا رحمة. ويمكنك الانتظار بالقدر اللازم حتى تأتي الخاتمة، ولكن عندما تأتي فإنها يجب أن تأتي بسرعة. استعمل السرعة لتشل خصمك ولتغطية أية أخطاء قد ترتكبها، ولإثارة إعجاب الناس بهالة السلطة والحسم النهائي المحيطة بك.

فبصبرِ ساحر الأفاعي، تخرج الأفعى بأنغام هادئة وثابتة. ولكن عند خروج الأفعى، هل تدلي بقدمك فوق رأسها المميت؟ فليس هناك من سبب وجيه أبداً للسماح لأخف عثرة في لعبة الإنهاء التي تمارسها. والحقيقة أن إتقانك للتوقيت لا يمكن الحكم عليه إلاّ بالكيفية التي تعمل بها في وقت الإنهاء ـ كيف تغير الإيقاع بسرعة، وتوصل الأشياء إلى خاتمة سريعة وحاسمة.

صورة: الصقر. بصبر وصمت يدور في الجو عالياً فيرى كل
شيء بعينيه القويتين. بينما الموجودون تحته لا
يشعرون بأنهم متبوعون. وفجأة، عندما تحين
اللحظة، ينقض الصقر بسرعة لا دفاع
ضدها؛ وقبل أن تعرف فريسته
ماذا حدث، تكون مخالبه التي
تشبه الملزمة، قد حملتها
وارتفعت بها إلى
السماء.

الشاهد:هناك مدٌّ في شؤون الرجال/فإذا رُكِبَ وقت فيضانه، فإنه يقود إلى الثروة؛ /وإذا أُهْمِل، فإن رحلة حياتهم كلها/تظل مشدودة إلى الضحالات والتعاسات. (مسرحية: يوليوس قيصر، لمؤلفها وليام شكسبير، 1564، 1616).

الانقلاب

ليست هناك سلطة يمكن كسبها من إفلات الزمام والتكيف لكل ما يأتي به الزمن. إن عليك أن تقود الزمن وتوجهه إلى حدٍ مّا، وإلاّ فستكون ضحية له بلا رحمة. وبناء عليه فليس هناك انقلاب لهذا القانون.

القانون

36

احتقر الأشياء التي لا تستطيع امتلاكها: فتَجاهُلها أفضل انتقام

الحكم

إذا اعترفت بمشكلة تافهة فإنك تعطيها وجوداً ومصداقية. وكلما زاد اهتمامك بعدوٍ فإنك تجعله أقوى؛ والغلطة الصغيرة كثيراً ما تصير أسوأ عندما تحاول إصلاحها. والشيء الأفضل أحياناً هو ترك الأمور وشأنها. فإنْ كان هناك شيء تريده ولا تستطيع امتلاكه، فاظهر احتقارك له. فكلما قلّ الاهتمام الذي تظهره، فإنك ستبدو أكثر تفوقاً.

انتهاك القانون

بدأ زعيم المتمردين المكسيكيين بانشو فيلاّ، انطلاقه كرئيس لعصابة من قطاع الطرق. ولكن بعد اندلاع الثورة في المكسيك سنة 1910، أصبح بطلاً شعبياً من نوعٍ مّا - ينهب القطارات ويعطي المال للفقراء. ويقود غارات جريئة، ويسحر النساء بمغامراته الفروسية. وأنْشَدَ الأميركيون بأعماله. كان يبدو رجلاً من فترة أخرى، مزيجاً من روبن هود ودون جوان. غير أنه بعد سنوات قليلة من القتال المرير، برز الجنرال كارّانزا منتصراً في الثورة، وعاد فيلاّ المدحور وجنوده إلى وطنهم في ولاية شيهواهو الشمالية. وتضاءل جيشه وعاد إلى قطع الطرق ثانية، مما أضرّ بشعبيته. وأخيراً، وربما نتيجة لليأس، بدأ يشتم الولايات المتحدة، والغرباء ويلومهم على متاعبه.

الثعلب والعنب

رأى ثعلب عضّه الجوع عنقود عنبٍ مغري المنظر أرجواني الالتماع يتدلّى فوقه من إطار عريش. وكان يود بقوة لو يصبح العنقود غداء له. ولكنه لما حاول أن يصل إليه وفشل قال: «إن من المرجح أنه ليس حلواً، فلا يصلح طعاماً إلاّ للحمقى الأغرار» أما كان من الأعقل أن يقول إنه غير ناضج، بدلاً من أن يعوي ويتذمر؟.

خرافات

جان دي لافونتين، 1621 - 1695

وفي آذار/ مارس 1916، أغار بانشو فيلاّ، على كولومبوس بولاية نيومكسيكو، فجاس خلال المدينة هو وعصابته فقتلوا سبعة عشر أميركيّاً ما بين جنديّ ومدنيّ. وكان الرئيس وودرو ويلسون، مثل كثيرين من الأميركيين، معجباً بفيلاّ. أما بعد تلك الغارة فقد كانت هناك حاجة إلى معاقبة قاطع الطرق. فحثّ المستشارون ويلسون على إرسال قوات إلى المكسيك لأسر فيلاّ. وجادلوا في أن قوة كبرى بحجم الولايات المتحدة، إذا لم تردّ ضربةَ جيشٍ غزا أراضيها، فسترسِل أسوأ نوع من الإشارات. وتابعوا يقولون إنه بالإضافة إلى ذلك، فإن كثيراً من الأميركيين يرون ويلسون كرجل مسالم، وهذا مبدأ يشك عامة الناس في

صلاحيته كَرَدٍّ على العنف؛ فهو بحاجة إلى إثبات حماسته ورجولته بإصدار الأمر باستخدام القوة.

كان الضغط على ويلسون قوياً، وقبل أن ينتهي ذلك الشهر، وبموافقة حكومة كارّانزا، أرسل جيشاً من عشرة آلاف جندي للقبض على بانشو فيلاّ. وسمّي ذلك المشروع «الحملة العقابية»، وكان قائدها هو الجنرال المندفع جون ج. بيرشينغ، الذي كان قد دحر المحاربين غير النظاميين في الفلبين، والأهالي الأميركيين الأصليين في الجنوب الغربي الأميركي. فكان من المؤكد أنه سيتمكن من العثور على بانشو فيلاّ والتغلب عليه.

ذات مرة، عندما سخر جورج برنارد شو في كلام مطبوع من الآراء الاقتصادية لجيلبرت كيث تشيسترتون، انتظر هيلير بيلوك، فقال تشيسترتون: «يا عزيزي بيلوك، بالنسبة لرجل في مثل فطنة شو وسرعة بديهته، فإن الصمت هو الردّ الوحيد الذي لا يطاق».

كتاب الحكايات البني الصغير
تحرير كليفتون ناديمان، 1985

وصارت الحملة العقابية قصة مثيرة. ولحق بالجنرال بيرشينغ العديد من السيارات الملأى بالمراسلين الصحفيين إلى الميدان. فكتبوا إن الحملة ستكون اختباراً للقوة الأميركية. وكان الجنود يحملون أحدث الأسلحة، ويتصلون بأجهزة اللاسلكي، ويدعمهم استطلاع من الجوّ.

وفي الأشهر القليلة الأولى، انقسمت القوات إلى وحدات صغيرة لتمشيط البراري الوعرة في شمال المكسيك. وعرض الأميركيون جائزة قدرها خمسون ألف دولار لقاء معلومات تؤدي إلى القبض على بانشو فيلاّ. ولكن الشعب المكسيكي، الذي كان قد سخط على فيلاّ، وخاب أمله فيه عندما عاد إلى قطع الطرق، صار يعبده الآن لأنه يواجه جيشاً أميركياً قوياً. فبدأ الناس يعطون بيرشينغ معلومات مضللة: لقد شوهد فيلاّ في هذه القرية، أو في ذلك المخبأ الجبليّ. فترسل الطائرات، ويهرع الجنود وراءها، ثم لا يراه أحدٌ قطّ. وبدا أن قاطع الطرق يظل سابقاً العسكريين الأميركيين خطوة على الدوام.

وبحلول صيف تلك السنة (1916) كانت الحملة قد تضخمت إلى 123000 رجل، فراحوا يعانون من الحرارة المسببة للجنون، والبعوض، ووعورة التضاريس. وأخذوا يزحفون بجهد شاق عبر الأرياف وسط

أناس ساخطين على وجودهم فأثاروا ثائرة السكان المحليين والحكومة المكسيكية على حد سواء. وفي إحدى المراحل كان بانشو فيلاّ مختبئاً في كهف جبلي كي يتعافى من جرح بالرصاص تلقاه أثناء مناوشة مع الجيش المكسيكي. وعندما نظر إلى الأسفل من وكره المرتفع، تمكن من رؤية بيرشينغ يقود القوات الأميركية المرهقة جيئة وذهوباً، عبر الجبال، دون أن يقتربوا من هدفهم على الإطلاق.

وطوال الطريق عبر فصل الشتاء، ظلّ بانشو فيلاّ يمارس لعبة القط والفأر هذه. وأخذ الأميركيون يرون القضية كنوع من المهازل التهريجية الرخيصة الفظّة ـ بل لقد راحوا يعجبون بفيلاّ كرة أخرى، ويحترمون سعة حيلته في تفادي قوة متفوقة. وفي كانون الثاني/يناير سنة 1917، أمر ويلسون بسحب بيرشينغ في آخر الأمر. وبينما كانت القوات الأميركية تتخذ طريقها عائدة إلى الأراضي الأميركية، شرعت قوات المتمردين تطاردها. فاضطر الجيشَ الأميركيَّ إلى استخدام الطائرات لحماية أجنحة مؤخرته. فكانت الحملة العقابية تتلقى العقاب بدورها ـ إذْ تحولت إلى تراجع من أكثر الأنواع إذلالاً.

الحمار والبستاني
فَقَدَ حمارٌ ذيله في حادث ذات مرة، فكانت مصيبة أليمة الوقع عليه ومحزنة. وراح يبحث عن ذيله في كل مكان، فقد بلغ من حمقه أنه اعتقد أن من الممكن تركيب ذيله في مكانه مرة أخرى. فمرَّ عبر مرج، ثم دخل حديقةً بعد ذلك. فرآه البستاني، ولم يتحمل التخريب الذي سببه عندما راح الحمار يطأ نباتاته، فاستشاط غضباً، ولم ينتظر الوقوف على آلة التعذيب الشهيرية، بل هجم على الحمار وقطع أذنيه، وضربه وأخرجه من الأرض. وهكذا، فإن الحمار، الذي كان يندب ذيله، بدأ يخشى مصيبةً أكبر عندما رأى نفسه بلا أذنين.
خرافات بلباي [بَيْدَبا؟]، الهند القرن الرابع

التفسير

نظم وودرو ويلسون الحملة العقابية كعرضٍ للقوة: فأراد أن يلقن بانشو فيلاّ درساً، ويبين للعالم في تلك العملية أنه لا يستطيع أحد، كبيراً كان أم صغيراً، أن يهاجم الولايات المتحدة القوية ثم يفلت من العقاب وستنتهي الحملة في غضون بضعة أسابيع ويصبح فيلاّ نسياً منسيّاً.

ولكن الأمور لم تَسِرْ على ذلك النحو. فمع طول مدة الحملة، زاد تركيز الانتباه على عجز الأميركيين وعدم كفاءتهم، وعلى براعة بانشو فيلاّ. وسرعان ما لفّ النسيان الغارة التي بدأت الأمر كله، ولم يُنْسَ فيلاّ. وبينما تحول إزعاج ثانوي إلى إحراج دولي، وراح الأميركيون

الغاضبون يرسلون مزيداً من القوات، فإن القضية تحولت إلى نكتة، بسبب انعدام التوازن بين حجم الضغط وحجم الشخص المطارَد ـ الذي تمكن من البقاء طليقاً .. وفي خاتمة المطاف، اضطر ذلك الجيش الكثير النفقة، القليل المردود، إلى الكدح المضني في خروجه من المكسيك ذليلاً مُهاناً. فقد أدت الحملة العاقبية عكس ما أرسلت لإنجازه: إذ تركت بانشو فيلاّ، ليس طليقاً فحسب، بل متمتعاً بشعبية أكثر من ذي قبل.

ما الذي كان باستطاعة ويلسون أن يفعله بطريقة مختلفة؟ كان بإمكانه أن يضغط على حكومة كارّانزا لتقبض له على فيلاّ. أو كبديل لذلك، ما دام كثير من المكسيكيين قد سئموا من فيلاّ قبل أن تبدأ الحملة العقابية، كان بإمكانه أن يعمل معهم بهدوء ويكسب تأييدهم لغارة أصغر بكثير للقبض على قاطع الطرق. وكان بإمكانه أن ينظم فخاً على الجانب الأميركي من الحدود توقعاً للغارة التالية. وكان بإمكانه أن يتجاهل القضية برمّتها مؤقتاً، في انتظار أن يتخلص المكسيكيون من فيلاّ من تلقاء أنفسهم.

الثور الأعجوبة

ذات مرة، عندما كان طوكوديجي رزيراً للميمنة ورئيساً للشرطة الإمبراطورية، كان يعقد اجتماعاً مع موظفيه عند البوابة الوسطى عندما أفلت ثورٌ يملكه موظفٌ يدعى آكيكين وراح يتجول في مبنى الوزارة. فصعد إلى المنصة التي كان يجلس عليها رئيس الشرطة، واضطجع هناك يجتر. فتأكد الجميع أن ذلك له دلالة خطيرة، وحثّوا على إرسال الثور إلى عراف يقرأ المستقبل. غير أن رئيس الوزراء، والد وزير الميمنة، قال: «الثور لا يستطيع التمييز. فله قوائم، وليس هناك مكان يمتنع عن الذهاب إليه. فليس هناك معنى لحرمان موظف ذي معاش متواضع من الثور التعيس الذي يحتاج إليه ليحضر إلى البلاط». وأعاد الثور إلى صاحبه، وغيّر الحشايا التي اضطجع الثور عليها. فلم تحدث حادثة غير مؤاتية من أي نوع بعد ذلك.

تذكّر: إنك أنت الذي تدع الأشياء تزعجك باختيارك. فبإمكانك بسهولة مماثلة أن تختار أن لا تلاحظ ٱلْمُضَايِق المزعج، وأن تعتبر الأمر تافهاً وغير جدير باهتمامك. فتلك هي الحركة القوية. فالشيء الذي لا تبدي إزاءه أي ردّ فعل لا يمكنه أن ينزل بك إلى اشتباكٍ لا جدوى فيه. إذ أنه لا يمس كرامتك وعزة نفسك. فأفضل درس تستطيع تلقينه لبعوضة مزعجة أن تودعها في النسيان بتجاهلها. فإن كان تجاهلها مستحيلاً (إذْ أن بانشو فيلاّ، كان في الواقع، قد قتل مواطنِين أميركيّين) فتآمر سرّاً للتخلص منها، ولكن لا تلفت الأنظار عن غير قصد إلى الحشرة المزعجة التي ستبتعد أو تموت من تلقاء نفسها. فإذا ضيعتَ وقتاً أو طاقةً على مثل هذا الاشتباك، فهذا خطؤك بالذات. تعلَّم أن تلعب ورقة الاحتقار، وأدر ظهرك لِمَا لا يمكن أن يؤذيك على المدى الطويل.

فكروا في هذا الأمر فقط ـ لقد تجشمت حكومتكم 130 مليون دولار في محاولة القبض عليّ. فأخذتهم عبر أراضٍ تلاليّة وعرة كانت تمتد أحياناً خمسين ميلاً دون أن يكون لديهم ماء. فلم يكن لديهم سوى الشمس والبعوض... ولم يكسبوا شيئاً.

(بانشو فيلا، 1878 ـ 1923)

والناس يقولون إنك إذا رأيت معجزة ولم تعاملها على أنها كذلك، فإن طابعها كمعجزة سوف يُدَمَّر.

مقالات في التبطل
كينكو، اليابان، القرن الرابع عشر

مراعاة القانون

في سنة 1527، قرر هنري الثامن ملك إنكلترا أن عليه أن يجد طريقة للتخلص من زوجته، كاترين أميرة آراغون. فقد فشلت في إنجاب ولد ذكر يرثه ليضمن استمرار سلالته. وكان هنري يعتقد أنه يعرف لماذا: فقد قرأ في العهد القديم المقطع القائل: «وإذا أخذ رجل امرأة أخيه فذلك نجاسة. قد كشف عورة أخيه. يكونان عقيمين» (لاويين: 21، 20). فقبل الزواج من هنري، كانت كاترين قد تزوجت من أخيه الأكبر، آرثر، ولكن آرثر مات بعد الزواج بخمسة أشهر. فانتظر هنري وقتاً مناسباً، ثم تزوج أرملة أخيه.

وكانت كاترين ابنة ملكَيْ إسبانيا فرديناند وإيزابيللا، وبزواجها حفظ هنري حياة تحالف ثمين. غير أن كاترين اضطرت إلى أن تؤكد له أن زواجها القصير من هنري لم ينفّذ على الإطلاق، وإلاَّ فإن هنري كان سينظر إلى علاقتهما باعتبارها زنىً بالمحارم ويعتبر زواجهما لاغياً وباطلاً. فأصرّت كاترين على أنها ظلت عذراء طيلة زواجها من آرثر. وأيدها البابا كليمنت السابع بمباركته لزواجها من هنري. وهو أمرٌ لم يكن البابا ليفعله لو كان يعتبر زواجهما زنىً بالمحارم. ومع ذلك فبعد سنوات من الزواج من هنري فشلت كاترين في إنجاب ولد، وفي أوائل عشرينات القرن السادس عشر دخلت سن اليأس. وكان ذلك بالنسبة للملك لا يمكن أن يعني إلاَّ شيئاً واحداً: لقد كذبت حول عذريّتها، وزواجهما زنىً بالمحارم، وقد عاقبهما الله.

وكان هناك سبب آخر لرغبة هنري في التخلص من كاترين. لقد

وقع في غرام امرأة شابة، هي آن بولين. ولـم يكن مغرماً بها فحسب، ولكنه إذا تزوج منها فسوف يستطيع أن يأمل في إنجاب ولد شرعي. ولذا كان لا بد من إلغاء زواجه من كاترين. غير أن هنري، لكي يحقق ذلك كان عليه أن يقدم طلباً للفاتيكان. ولكن البابا كليمنت لن يلغي الزواج أبداً.

وبحلول صيف سنة 1527، كانت الإشاعات قد انتشرت في جميع أنحاء أوروبا بأن هنري سيحاول المستحيل ـ وهو إلغاء زواجه رغم رغبات كليمنت. ولكن كاترين لن تتنازل، دع عنك الدخول في دير بإرادتها، كما حثّها هنري أن تفعل. ولكن هنري كانت لديه استراتيجيته الخاصة به. فقد توقف عن النوم في الفراش نفسه مع كاترين، لأنه اعتبرها كأخته، وليس كزوجته القانونية. وأصرّ على تسميتها أميرة ويلز الأرملة، وكان ذلك هو لقبها باعتبارها أرملة آرثر. وأخيراً، في سنة 1531، نفاها من بلاطه، وشحنها إلى قلعةٍ نائية. فأمره البابا بإعادتها إلى البلاط، تحت طائلة معاقبته بالحرمان، وهو أقصى عقاب يمكن أن يتعرض له كاثوليكي. فلم يكتفِ هنري بتجاهل هذا التهديد، بل أصرّ على أن عقدة زواجه من كاترين قد انحلّت. وفي سنة 1533، تزوج من آن بولين.

ورفض كليمنت أن يعترف بالزواج. ولكن هنري لم يهتم. إذْ أنه لم يعد يعترف بسلطة البابا. ثم انطلق لينفصل عن كنيسة الرومان الكاثوليك، ويؤسس كنيسة إنكلترا بدلاً منها، مع جعل الملك رئيساً لهذه الكنيسة الجديدة. وهكذا لم يكن مستغرباً أن تعلن كنيسة إنكلترا الحديثة التكوين آن بولين مكلةً شرعيةً لإنكلترا.

وجرب البابا كل تهديد في وسعه، ولكن لم ينجح أي شيء. فقد تجاهله هنري ببساطة. واستشاط كليمنت غضباً. فلم يسبق أن عامله أحد بمثل هذا الاحتقار. فقد أذلّه هنري، ولم يكن لديه سلطة يلجأ إليها.

وفي هذا الرأي فإن من المستحسن أن تجعل كل معارفك ـ رجالاً كانوا أم نساءً ـ يشعرون بين الحين والآخر أنك تستطيع بسهولة أن تستغني عن صحبتهم. إذ أن ذلك من شأنه أن يعزز الصداقة. بل إنه لا ضرر ـ في حالة معظم الناس ـ من أن تخلط في تعاملك معهم شيئاً من الازدراء أحياناً، فذلك يجعلهم يزيدون في تقدير صداقتك. وعلى حد قول المثل الإيطالي: احتقِرْ تُحْتَرَمْ. ولكن إذا كان تقديرنا عالياً جداً لشخصٍ مّا في الحقيقة، فإن علينا أن نخفي ذلك عنه كأنه جريمة. وليس ذلك عملاً مرضياً، ولكنه صحيح. فالكلب لا يطيق أن يتلقى معاملة طيبة أكثر مما ينبغي، فما بالك بالإنسان؟!

آرثر شوبنهاور
1860 ـ 1788

فحتى الحرمان (الذي كان يهدد به باستمرار، ولكنه لم ينفذه قط) لم يعد يؤثر.

وشعرت كاترين باللدغة المدمرة لاحتقار هنري لها. وحاولت أن تقاوم. ولكن مناشدتها لهنري وقعت على أذن صمّاء. وسرعان ما لم تعد تقع على أي أُذُن. وإذْ عُزِلَتْ كاترين عن البلاط، وتجاهَلَها الملك، وجُنَّت من الغضب والإحباط، راحت صحتها تتدهور، وأخيراً ماتت في كانون الثاني/يناير سنة 1536، من ورم سرطاني في القلب.

التفسير

عندما تهتم بشخصٍ مّا، فإنكما تصبحان شريكين من نوعٍ مّا. وكل منكما يتحرك في إيقاعٍ يتمشّى مع أفعال الآخر وردود أفعاله. وفي هذه العملية، فإنك تفقد زمام المبادرة. فهذه هي الحركة الحيوية لكل التفاعلات: فباعترافك بالناس الآخرين، حتى ولو لمقاتلتهم، فإنك تعرض نفسك لتأثيرهم. ولو اشتبك هنري مع كاترين، لوجد نفسه غارقاً في مجادلات لا نهاية لها، تضعف تصميمه وترهقه حتى السقوط في آخر الأمر (فقد كانت كاترين امرأة قوية عنيدة). ولو شرع بإقناع كليمنت بتغيير حكمه حول صحة الزواج، أو لو حاول المساومة والتفاوض معه، لوقع ضحية واحدة من الخطط التكتيكية المفضلة لدى كليمنت: وهي المناورة لكسب الوقت، والوعد بالمرونة، ولكن مع الحصول على ما يحصل عليه البابوات في الواقع دائماً ـ وهو ما يريدونه.

القرد والحمّص

يحكى أن قرداً كان يحمل حفنتين من الحمص، فسقطت منه حبّة حمص صغيرة، فحاول أن يلتقطها، فسقطت منه عشرون حبة، فحاول أن يلتقط العشرين، وعندئذٍ سقط منه الحمص كله، ففقد هدوءه واحتدّ طَبْعُهُ، وبعثر حبات الحمص في جميع الاتجاهات وولّى هارباً.

خرافات
ليونو لستوي
1910 ـ 1828

ولكن هنري لم يكن يريد أيّ شيء من هذا القبيل. فمارس لعبة السلطة المدمِّرة ـ وهي الاحتقار الكامل. إنك بتجاهل الناس تلغيهم تماماً من الحساب. وهذا يفقدهم استقرارهم ويثير ثائرتهم. وهذا الموقف هو الغاية القصوى في السلطة: فأنت الملك، وأنت تتجاهل ما يضايقك. فارقب كيف يغضب هذا التكتيك الناس. فنصف ما يفعلونه

يهدف إلى كسب اهتمامك، وعندما تحجبه عنهم، فإنهم يتخبطون في الإحباط والخيبة.

الإنسان: ارفسه ـ وسوف يسامحك. تملقه ـ فقد يكشفك أو لا يكشفك. ولكن تجاهله، وسيكرهك.

(إدريس شاه: قافلة الأحلام، 68)

مفاتيح السلطة

كثيراً ما تخلق الرغبة تأثيرات متناقضة: فكلما زادت رغبتك في شيء، وزادت ملاحقتك له، ازداد تهرباً منك. وكلما زاد الاهتمام الذي تظهره، زاد صدّك لغرض رغبتك. وذلك لأن رغبتك أقوى من اللازم ـ فهي تجعل الناس مرتبكين، وحتى خائفين. فالرغبة الخارجة عن السيطرة تجعلك تبدو ضعيفاً، وتافهاً، ومثيراً للرثاء.

إنك بحاجة إلى أن تدير ظهرك لما تريده، وأن تظهر احتقارك وازدراءك. فهذا هو نوع الردّ الذي يصيب أهدافك بالجنون. فيردون برغبة منهم: هي أن يكون لهم ـ ببساطة ـ تأثير عليك ـ ربما لامتلاكك، وربما لإيذائك. فإن أرادوا امتلاكك فإنك تكون قد استكملت الخطوة الأولى في إغوائهم. وإن يريدوا إيذاءك فإنك تكون قد أقلقتهم وجعلتهم يلعبون وفق قواعدك (انظر القانونين 8 و39 حول إغراء الناس باتخاذ إجراء).

فالاحتقار امتياز للملك. فحيثما تدور عيناه، فإن ما يقرر أن يراه هو ما فيه الحقيقة؛ وما يتجاهله ويدير له ظهره يصير كالميت سواء بسواء. ولقد كان ذلك هو سلاح الملك لويس الرابع عشر ـ فإذا لم يحبّك، تصرّف وكأنك غير موجود، محتفظاً بتفوقه عن طريق قطع آلية حركة التفاعل. فهذه هي السلطة التي تملكها عندما تلعب ورقة الاحتقار، مظهراً للناس بين حين وآخر أنك قادر على الاستغناء عنهم.

وإذا كان اختيار التجاهل يوسع سلطتك، فإنه يتبع ذلك أن النهج

مثلما يحوّل بعضُ الناس كلّ شيء إلى إشاعات، فإن هناك آخرين يخلقون ضجة كبرى حول كل شيء. فهم يتشدّقون دائماً بكلمات كبيرة [و] يأخذون كل شيء على محمل الجد، فيجعلون منه شيئاً غامضاً وموضوعاً للشجار، وينبغي عليك أن لا تجعل أي مظلمة تؤثر فيك، لأنك إن فعلت فستعطي نفسك قلقاً لا أساس له. وإنه لسلوك مقلوبٌ رأساً على عقب أن تؤثر في قلبك تأثيراً شديداً همومٌ كان الأحرى بك أن ترميها وراء ظهرك. فكثير من الأشياء التي كانت تبدو هامة [في حينها] يتضح أنه لا أهمية لها عندما يتجاهلها المرء، بينما توجد أشياء أخرى تبدو تافهة ثم يظهر أنها رهيبة عندما تعيرها اهتمامك. ويمكن تسوية الأشياء بسهولة إذا عولجت في بدايتها، ولكن ليس كذلك فيما بعد. وفي كثير من الأحيان يكون الدواء هو سبب الداء. إن ترك الأشياء على حالها ليس أقل قواعد الحياة مدعاةً للرضا.

بلثازار غراسيان
1601ـ 1658

المعاكس ـ أي الالتزام والاشتباك ـ كثيراً ما يضعفك. فإعطاء اهتمام غير لائق لعدو ضئيل يجعلك أنت تبدو ضئيلاً. وكلما زاد الزمن الذي تستغرقه في دحر هذا العدو زاد الحجم الذي يظهر به العدو. فعندما انطلقت أثينا لتغزو جزيرة صقلية في سنة 415 ق .م، كانت هناك قوة عملاقة تهاجم قوة ضئيلة. ومع ذلك فقد استطاعت سيراكيوز، أهم مدينة ـ دولة في صقلية، أن تتنامى في حجمها وثقتها عن طريق إرغام أثينا على الاشتباك معها في صراع طويل متمادٍ في استمراره. وأخيراً فإنها بدحر أثينا جعلت نفسها مشهورة عبر قرون لاحقة. وفي العصر الحديث، ارتكب الرئيس جون فيتزجيرالد كيندي غلطة مماثلة في موقفه من فيدل كاسترو في كوبا، إذ أن غزوه الفاشل في خليج الخنازير سنة 1961، قد جعل كاسترو بطلاً دولياً.

وهناك خطر ثان: إذا نجحتَ في سحق العنصر المضايق لك، أو حتى إذا جرحته فقط، فإنك تخلق تعاطفاً مع الطرف الأضعف. فقد اشتكى نقّاد الرئيس الأميركي فرانكلين ديلانو روزفلت بمرارة من الأموال التي صرفتها إدارته على المشاريع الحكومية. ولكن هجماتهم لم تجد صدى لدى عامة الناس، الذين كانوا يرون أن الرئيس يعمل لإنهاء الكساد الأعظم. وقد ظنّ خصومه أن لديهم مثالاً سيوضح إلى أي مدىً أصبح روزفلت مبذراً: وكان ذلك المثال هو: كلبه فالا، الذي كان الرئيس يعطيه اهتماماً وحظوة بشكل سخيّ. فهاجم النقاد انعدام إحساس روزفلت، الذي يصرف أموال دافعي الضرائب على كلب، بينما لا يزال كثير من الأميركيين يعانون من الفقر. ولكن روزفلت كان لديه رد: «كيف يجرؤ نُقّادُهُ على مهاجمة كلب صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه؟». فكانت خطبته دفاعاً عن فالا من أكثر خطبه شعبية. وفي هذه الحالة كان الطرف الأضعف في المسألة هو كلب الرئيس. فأدى الهجوم عليه إلى نتيجة عكسية ـ مما جعل الرئيس على المدى البعيد أكثر تعاطفاً، لأن كثيراً من الناس ينحازون بطبيعة الحال إلى الطرف

الأضعف، تماماً كما تعاطف عامة الأميركيين مع بانشو فيلاّ، الذي كان ماكراً، ولكنه ضحية أعداء يفوقونه عدداً.

إن من المغري أن نرغب في إصلاح أخطائنا. ولكن كلما زادت محاولاتنا جدّيّة، جعلنا الأخطاء تبدو أسوأ على الأغلب. بل إن ترك الأخطاء على حالها قد يكون أكثر حصافة أحياناً. ففي سنة 1971، عندما نشرت صحيفة النيويورك تايمز أوراق البنتاغون عن تاريخ تورط الولايات المتحدة في الهند الصينية، انفجر هنري كيسنجر في غضب بركانيّ. فقد ثارت ثائرته حول انكشاف إدارة نيكسون بتعرضها لهذا التسريب المؤذي، فقدم توصيات، أدّت في آخر الأمر، إلى تشكيل المجموعة التي عرفت باسم «السبّاكين» لسد الثقوب التي يأتي منها التسريب. فكانت تلك الوحدة هي التي اقتحمت مكاتب الحزب الديمقراطية في فندق ووترغيت، مما فجّر سلسلة الأحداث التي أدت إلى سقوط نيكسون. والواقع أن نشر أوراق البنتاغون لم يشكل تهديداً خطيراً للإدارة؛ ولكن رد فعل هنري كيسنجر، جعل منها قضية كبرى. وفي محاولته حل مشكلة، خلق مشكلة أخرى: هي جنون *الارتياب في* الآخرين حول الأمن، وهو جنون صار في النهاية أكثر تدميراً للحكومة. ولو أنه تجاهل أوراق البنتاغون، لانطفأت الفضيحة التي خلقتها من تلقاء نفسها في آخر الأمر.

الرجل وظله

كان هناك رجلٌ أصيل معين يرغب في الإمساك بظلّه. فيخطو نحوه خطوة أو خطوتين، ولكن الظل يبتعد عنه، فيسرّع خطوته؛ فيفعل الظل كذلك. وأخيراً يشرع في الجري. ولكنه كلما زاد سرعته، كانت تزداد سرعة الظل أيضاً، لأنه كان يرفض أن يستسلم لصاحبه، وكأنه كنز. ولكن انظر! إن صديقنا الغريب الأطوار يستدير ويركض هارباً من ظله، ثم ينظر إلى الخلف، فيجد أن ظله يجري خلفه

يا سيداتي الجميلات، كثيراً ما كنت ألاحظ... أن الثروة تعاملنا بطريقة مماثلة فيحاول رجلٌ ما بكل قوته أن يمسك بها، فلا يجد سوى أنه قد أضاع وقته وجهده. بينما يحاول آخر، حسبما تدل عليه المظاهر كلها أن يهرب بعيداً عن أنظارها؛ ولكن كلاّ... فهي نفسها تجد مسرّة في مطاردته.

خرافات
إيفان كريلوف،
1768 - 1844

وبدلاً من تركيز الانتباه من غير قصد على مشكلةٍ مّا، بجعلها تبدو أسوأ من خلال الحديث *علناً* عن مدى *القلق والانزعاج الذي تسببه لك*، فإنه كثيراً ما يكون من الأعقل أن تلعب دور الأرستقراطي الذي يحتقر هذه الصغائر، فلا يتنازل بالاعتراف بوجود المشكلة أصلاً. وهناك طرق عديدة لتنفيذ هذه الاستراتيجية.

هناك أولاً: نهج الحصرم. فإذا كان هناك شيء ترغب فيه، ولكنك تدرك أنك لا تستطيع امتلاكه، فإن أسوأ شيء يمكنك أن تفعله هو جذب الانتباه إلى خيبة أملك بالتذمّر حول هذا الأمر. والخطة الأقوى من

ذلك، بلا حدود، هي التصرف، وكأن ذلك الشيء لم يثر اهتمامك أصلاً. فعندما قام مؤيدو الكاتبة الفرنسية جورج صاند بترشيحها كأول أنثى لعضوية الأكاديمية الفرنسية في سنة 1861، رأت صاند بسرعة أن الأكاديمية لن تقبلها. وبدلاً من الأنين والانتحاب، ادعت أنها غير مهتمة بالانتساب إلى مجموعة من المتبجحين الثرثارين المهترئين المبالغ في قيمتهم والفاقدي الصلة بالواقع. فكان احتقارها هو الردّ الكامل على ذلك. ولو أظهرت غضبها على استبعادها لكشفت مدى ما كان يعنيه لها الانتساب للأكاديمية. وبدلاً من ذلك، فقد وصمت الأكاديمية بأنها نادٍ للعجائز ـ فلماذا تغضب أو تصاب بخيبة الأمل على عدم الاضطرار إلى قضاء وقتها معهم؟ إن الصراخ: «هذا حصرم» قد يُرَى أحياناً بأنه رد فعل الضعيف: بل هو في الواقع تكتيك القوي.

وثانياً: عندما تأتي مذمتك من ناقص، حَوِّل اهتمام الناس بالتوضيح بأن هذا الهجوم لم يسجل ولم يترك أثراً. حوّل نظرك بعيداً أو أعطِ جواباً حلواً يبيّن كيف أن الهجوم لا يثير قلقك. وبالمثل فعندما ترتكب غلطة، فإن أحسن ردّ عليها كثيراً ما يكون هو التقليل من شأنها ومعاملتها باستخفاف.

كان الإمبراطور الياباني غو ـ صايين، وهو من كبار أتباع حفلة الشاي، يملك إناءً للشاي قديماً لا يقدر بثمن يحسده عليه كل رجال حاشيته. وذات يوم سأل ضيفٌ له يدعى ديناغون تسوينهيرو عما إذا كان يستطيع حمل ذلك الإناء إلى الضوء ليتفحصه بشكل دقيق. ولم يكن الإناء قد ابتعد عن الطاولة إلاّ نادراً. ولكن الإمبراطور كان في مزاج رائق، فوافق. غير أنه عندما حمل ديناغون الإناء إلى حاجز الشرفة ورفعه نحو الضوء، انزلق من يديه وسقط على صخرة في الحديقة في الأسفل فتحطم إلى قطع صغيرة.

وثارت ثائرة الإمبراطور طبعاً. فقال ديناغون: «إنه لعملٌ أخرق أن أُسقِط الإناء من يدي بهذه الطريقة». وانحنى انحناءة عميقة وتابع يقول:

«ولكن لم يحدث ضرر كبير، إذْ أن هذا الإناء عتيق جداً، ومن المستحيل معرفة كم من الزمن كان سيستمر، وهو على أية حال ليس شيئاً ذا نفع عام، ولذا فإني أعتقد أن من حسن الحظ أنه انكسر هكذا».
وكان لهذا الردّ المستغرب تأثير فوريّ. فهدأ الإمبراطور. إذْ أن ديناغون لم يُعْوِلْ بالبكاء ولم يعتذر بشكل مفرط، بل عرض قيمته وقوته بمعاملة غلطته بلمسة احتقار. فكان على الإمبراطور أن يستجيب بقلّة مبالاة أرستقراطية مماثلة، لأن غضبه قد جعله يبدو وضيعاً وصغيراً ـ وهذه صورة استطاع ديناغون أن يتلاعب بها.

وقد تكون لهذا التكتيك نتائج عكسية بين المتساوين. ذلك أن عدم مبالاتك قد تجعلك تبدو ضعيفاً. أما مع سيِّدٍ مّا، فإنك إذا تصرفت بسرعة ودون ضجة كبيرة، فإن هذا التكتيك قد ينجح بفعاليةٍ عظيمة، إذْ أنك تتجاوز استجابته الغاضبة، وتوفر عليه الوقت والطاقة اللذين كان سيهدرهما في التفكير المكتئب بالغلطة، وتتيح له فرصة الاستعراض العلني لكونه غير صغير ولا ضيق الأفق.

إذا قدمنا حججاً وإنكارات عندما نُضْبَطُ متلبسين بغلطة أو خديعة، فإننا نعكّر المياه ونجعل الوضع أسوأ. فكثيراً ما يكون من الأعقل والأحكم أن نوجه الأمور في الاتجاه المعاكس. فكثيراً ما كان كاتب عصر النهضة بيترو آريتينو يتفاخر بأصله الأرستقراطي الذي كان بالطبع خيالاً، لأنه كان في الحقيقة ابن إسكاف. وعندما كشف أحد أعدائه في آخر الأمر هذه الحقيقة المحرجة، انتشر الخبر بسرعة. وسرعان ما صارت البندقية كلها (حيث كان آريتينو يعيش آنذاك) مشدهوة بأكاذيبه. ولو حاول أن يدافع عن نفسه، لما زاد على إنزال نفسه إلى الحضيض. فكانت استجابته ضربة معلّم. إذْ أعلن أنه ابن إسكاف حقاً. ولكن ذلك إنما يثبت عظمته، ما دام قد صعد من أحطّ طبقات المجتمع إلى قمّته نفسها. ومنذ ذلك الحين لم يعد يذكر كذبته السابقة، وراح بدلاً من ذلك يطبّل لموقفه الجديد من قضية أصله العائلي.

تذكَّر: إن الردود القوية على المنغّصات والمزعجات الصغيرة والحقيرة هي الاحتقار والازدراء. فإياك أن تظهر أن شيئاً ما قد أثر فيك أو أنك متضايق ـ لأن ذلك يبيِّن أنك تعترف بمشكلة. فالاحتقار طبق من الأفضل أن يقدم بارداً وبلا تكلّف أو تصنّع.

صورة:
الجرح الصغير.

إنه صغير، ولكنه مؤلم ومزعج. وأنت تجرب كل
أنواع الأدوية، فتتذمَّر، وتحك، وتنقر قشرة الجرح.
والأطباء لا يفعلون شيئاً سوى جعله أسوأ، محوِّلين
الجرح الضئيل إلى قضية خطيرة. ولو أنك تركت الجرح
على حاله، لتكفل الزمن بشفائه، ولحرَّرت نفسك من القلق.

الشاهد: اعرف كيف تلعب ورقة الاحتقار. فهو أكثر أنواع الانتقام حصافة. ذلك أن هناك كثيرين ما كنّا لنعرف عنهم شيئاً لو أن خصومهم المتميزين تجاهلوهم ولم يلاحظوهم. فليس هناك انتقام مثل النسيان، لأنه يعني دفن التافهين في تراب عَدَمِهم نفسه.

(بلثازار غراسيان، 1601. 1658)

الانقلاب

عليك أن تلعب ورقة الاحتقار بحرص ودقة. فمعظم المتاعب الصغيرة ستختفي من تلقاء نفسها إذا تركتها وشأنها؛ ولكن بعضها ستنمو وتتقرَّح ما لم تهتم بها. وإذا تجاهلت شخصاً أصغر منك حجماً ومكانة، فقد تفاجأ عندما تنظر إليه مرة أخرى بأنه صار منافساً خطيراً، وقد جعله احتقارك إياه نزَّاعاً إلى الانتقام كذلك. لقد اختار كبار أمراء إيطاليا في عصر النهضة أن يتجاهلوا سيزار بورجيا في مطلع حياته العملية كقائد شاب لجيش والده البابا آليكساندر السادس. وما إن حان وقت إبداء

اهتمامهم به، حتى كان الأوان قد فات، فقد صار الشبل أسداً، راح يلتهم قطعاً من إيطاليا. ولذا فكثيراً ما يتعيَّن عليك، أثناء إظهار الاحتقار علانية، أن تبقي عينيك مفتوحتين لمراقبة المشكلة سراً، فتلاحظ حالتها وتتأكَّد من اختفائها. فلا تتركها تتحوَّل إلى خلية سرطانية.

طوِّر براعة استشعار المشاكل وهي لا تزال صغيرة، والاهتمام بمعالجتها قبل أن تصبح متابعتها مستحيلة. وتعلَّم التمييز بين ما هو محتمل أن يؤدي إلى كارثة، وبين ما هو مجرَّد إزعاج طفيف يسبِّب شيئاً من المضايقة الآنية، ولكنه يزول بهدوء من تلقاء نفسه. وفي الحالتين إياك أن تبعد عينيك عن الأمر تماماً. فما دامت المشكلة حيَّة، فإنها قد تخمد بدخانٍ تشتعل فيه شرارة تجعلها تنفجر بالحياة.

القانون

37

اخلق مشاهد آسرة

الحكم

إن الصور المدهشة الأخاذة والإشارات الرمزية الكبرى تخلق هالة من السلطة ـ فكل شخص يستجيب لها. فاعرض مشاهد آسرةً على مَنْ حولك، مليئة بالتصورات الرائعة اللافتة للأنظار والرموز المشعة التي ترفع مستوى حضورك. فعندما ينبهر الناس بالمظاهر، فلا أحد سيلاحظ ما الذي تفعله في الحقيقة.

مراعاة القانون الأولى

في مطلع ثمانينيات القرن الثامن عشر، انتشر في برلين خبر عن ممارسة طبيّة غريبة لافتة للأنظار يقوم بها شخص يدعى الدكتور فيزلدر. فكان يؤدي معجزاته في قاعة ضخمة للجعة تم تحويلها لذلك الغرض، وقد بدأ البرلينيون يلاحظون في خارجها صفوفاً من الناس آخذة في الطول أكثر فأكثر ـ من العميان، والعرجان، وأي شخص يشكو من مرض لا علاج له بالأدوية العادية. وعندما رشح خبر بأن الطبيب يعمل بتعريض المريض لأشعة القمر، فسرعان ما صار يلقب بطبيب القمر في برلين.

وفي وقتٍ مّا من سنة 1783، قيل بأن الدكتور فيزلدر قد شفى امرأة ثرية من مرض رهيب. فصار شخصاً مشهوراً فجأة. ففي السابق لم يكن يشاهَد خارج قاعة الجعة سوى البرلينيين الفقراء ينتظرون في أسمالهم؛ أمّا الآن، فقد راحت عربات فارهة فخمة تتوقف في الخارج. وأخذ سادة بسترات سوداء طويلة، وسيِّدات بتسريحات شعر هائلة يصطفون في الشارع مع اقتراب غروب الشمس. وحتى الناس المصابون بأخف الأمراض كانوا يأتون بدافع من الفضول المحض. وبينما كانوا ينتظرون في الصف، كان الزبائن الأفقر يشرحون للسادة والسيدات أن الطبيب لا يمارس إلاّ عندما يكون القمر في مرحلة التنامي. وكان كثيرون يضيفون بأنهم أنفسهم قد تعرَّضوا للقوى الشافية التي كان يستدعيها من أشعة

انطونيو وكليوباترا

كانت تعتمد قبل كل شيء على حضورها الجسدي وسحره والفتنة التي يخلقها... فجاءت مبحرة على صفحة نهر سيدنوس في بارجة مؤخرتها من ذهب، وقد انتفخت أشرعتها الأرجوانية بفعل الريح، بينما كان مجذفوها يربِّتون على الماء برفق بمجاذيفهم الفضية التي كانت تنغمس في الماء على إيقاع موسيقى الفلوت تصحبه النايات والعيدان. وكانت كليوباترا نفسها متكئة تحت مظلة من القماش المذهب، مرتدية زي أفروديتي، كما نرى في صورها، ولاستكمال الصورة كان يقف على الجانبين أولادٌ يرتدون زي كيوبيد، يبردونها بمراوحهم. وبدلاً من الطاقم الملاحي، كانت البارجة مليئة بأجمل وصيفاتها المرتديات أزياء الحوريات وإلهات الحسن والجمال، وقد وقفت بعضهن عند الدفة، وأخريات عند حبال الأشرعة، وطيلة الوقت كان هناك عطر شديد الغنى لا يمكن وصفه ينبعث من السفينة إلى ضفتي النهر من

القمر. وحتى أولئك الذين شعروا بأنهم قد شُفُوا كانوا يعودون، وقد اجتذبتهم تلك التجربة القوية.

وفي داخل قاعة الجعة كان يستقبل الزائرَ مشهد غريب ومؤثر: فقد كان يحتشد في مدخل القاعة جمهور غفير من كل الطبقات والخلفيات العرقية، فيما يشبه برج بابل حقيقي. وعبر النوافذ الطويلة كانت أشعة القمر الفضيّة تنصبّ إلى الداخل من زوايا غريبة. وكان الطبيب وزوجته، التي كان يبدو أنها هي الأخرى قادرة على إحداث الشفاء، يمارسان في الطابق الثاني الذي يوصل إليه درج عند نهاية القاعة. وبينما راح الصف يقترب من الدرج أكثر فأكثر، كان المرضى يسمعون صرخات وصيحات من الأعلى، فتنتشر الأخبار أن ذلك ربما كان سيداً قد استعاد بصره فجأة.

وعند الوصول إلى الأعلى كان الخط يتشعب في اتجاهين، نحو غرفة شمالية للطبيب، وغرفة جنوبية لزوجته، التي كانت تعالج السيدات فقط. وأخيراً، وبعد ساعات من الترقب والانتظار في الصف، كان المرضى من السادة يقادون للمثول بين يدي الطبيب المذهل نفسه، وهو رجل كبير السن، له خصلات شعثاء من الشعر الرمادي ويشيع حوله جوّ من الطاقة العصبية. فيأخذ المريض (ولنقل إنه صبي صغير جاء به إليه والده)، فيكشف عن الجزء المصاب من جسمه، ويرفعه إلى النافذة التي تواجه ضوء القمر. فيفرك موضع الإصابة أو المرض، وهو يغمغم بكلام غير مفهوم، وينظر إلى القمر بطريقة العارفين، ثم بعد أن يتقاضى أجره يرسل الولد وأباه إلى حال سبيلهما. وفي تلك الأثناء، في الغرفة المواجهة للجنوب، تفعل زوجته الشيء نفسه للسيدات ـ وكان ذلك غريباً، لأن القمر لم يكن ليظهر في مكانين في الوقت نفسه، وبعبارة أخرى: إنه لا يمكن أن يكون مرئياً من النافذتين. ويبدو أن فكرة القمر المجردة ورمزه، وحضوره في الذهن كانت كافية. ذلك أن السيدات لم

عددٍ لا يحصى من المباخر. ورافقت هذا الموكب الملكي حشود عظيمة، بعضها كان يتبع الملكة على جانبي النهر من عند المصب نفسه، بينما هرج آخرون قادمين من مدينة طرسوس ليلقوا نظرة على المشهد. وبالتدريج غادرت الجموعُ مكان السوق، حيث كان أنطونيو ينتظر الملكة وهو متربع على كرسي مجلسه، حتى بقي جالساً وحده في آخر الأمر. وانتشر الخبر في كل جانب بأن أفروديتي قد جاءت لتعربد مع ديونيسيوس لإسعاد آسيا ثم أوسل أنطونيو رسالة يدعو فيها كليوباترا للغداء معه. غير أنها كانت ترى أن الأليق أن يأتي هو إليها. وهكذا رغب في إظهار كياسته وحسن نيته فقَبِلَ وذهب إليها. فرأى أن استعدادات استقباله كانت أروع من أن تصفها الكلمات ولكن كان أكثر ما أذهله هو عدد الأضواء الخارق للعادة. وقيل إن كثيراً منها كان يتدلى من السطح معروضاً من كل الجوانب دفعة واحدة. وقد صففت وجمعت بأنماط بديعة حسب علاقاتها ببعضها بعضاً، بعضها في مربعات، وبعضها في دوائر، فخلقت مشهداً كأروع ما يمكن تدبيره لإمتاع عين الناظر.

حياة أنطونيو
بلوتارخ، حوالى 46 ـ 120م

يكنَّ يتذمَّرن، بل كنَّ يلاحظن فيما بعد بثقة أن زوجة طبيب القمر كانت لديها قوى الشفاء نفسها التي لديه.

التفسير

ربما لم يكن الدكتور فيزلدر يعرف شيئاً عن الطب. ولكنه كان يفهم الطبيعة البشرية. فكان يدرك أن الناس لا يريدون دائماً وصفاً، أو شروحاً عقلانية، أو عروضاً لقوى العلم؛ بل يريدون مخاطبة مباشرة لعواطفهم. فاعطهم هذا وسوف يتكفلون بعمل الباقي ـ كالتخيّل بأنه يمكن أن يشفيهم الضوء المنعكس من صخرة على بعد ربع مليون ميل. فلم يكن الدكتور فيزلدر بحاجة إلى أقراص، أو إلى محاضرات متطاولة عن قوة تأثير القمر، أو إلى أية أدوات سخيفة لتكبير أشعته. بل كان يفهم أنه كلما كان المشهد أبسط، كان ذلك أفضل. ـ فقط ضوء القمر ينثال من الجانب، والدرج المؤدي إلى السموات، وأشعة القمر، سواء أكانت مرئية بشكل مباشر أم لا. فأي تأثيرات إضافية كانت ستجعل القمر يبدو كأنه ليس قوياً لوحده بما فيه الكفاية. والقمر **قوي** قوة كافية ـ إنه مغناطيس للخيالات، كما كان عبر عصور التاريخ. فقد حصل الطبيب على السلطة بمجرَّد ربط نفسه بصورة القمر.

تذكَّر: إن بحثك عن السلطة يعتمد على الطرق المختصرة. وعليك دائماً أن تتغلَّب على شكوك الناس بالمراوغة، وكذلك على رغبتهم في مقاومة إرادتك. والصور طريق مختصر فعَّال للغاية. فهي تتجاوز الرأس، الذي هو محطّ التشكك والمقاومة، وتستهدف القلب رأساً. فالصور تغلب على العين، فتخلق ترابطات قوية، وتجمع الناس معاً فتحرِّك عواطفهم. فعندما يشع ضوء القمر الأبيض في أعين ضحاياك، فإنه يعميهم عن الأحابيل التي تمارسها.

مراعاة القانون الثانية

في سنة 1536، اتخذ هنري الثاني، الذي كان سيصبح ملك فرنسا

فيما بعد، أول عشيقة له، وهي ديان دي بواتييه، التي كانت في السابعة والثلاثين آنذاك، وكانت أرملة قهرمان نورماندي. وكان هنري في ذلك الوقت فتىً مفعماً بالحيوية في السابعة عشرة، وقد بدأ ينغمس في شهوات الشباب. وكانت علاقتهما في بادىء الأمر تبدو أفلاطونية، حيث يُظْهِر هنري تكريساً روحياً لديان. ولكن سرعان ما اتضح أنه يحبها بكل طريقة، مفضِّلاً فراشها على فراش زوجته الشابة، كاترين دي مديتشي.

وفي سنة 1547، مات الملك فرانسيس، فصعد هنري الثاني إلى العرش، وشكَّل هذا الوضع الجديد أخطاراً على ديان دي بواتييه. فقد وصلت إلى الثامنة والأربعين من عمرها. وعلى الرغم من حمَّاماتها الباردة اللعينة، ووصفات الشباب المنشطة التي كانت تتعاطاها، فقد بدأ أثر السن يظهر عليها؛ أما وقد أصبح هنري ملكاً، فلعله سيعود إلى فراش الملكة ويفعل ما فعله الملوك الآخرون، أي يختار عشيقات من عناقيد الصبايا الجميلات اللواتي جعلن البلاط الفرنسي محط حسد أوروبا. فبعد كل شيء كان هنري في الثامنة والعشرين ما يزال، وله شخصية مندفعة. ولكن ديان لم تستسلم بسهولة. فقررت أن تستمر في أسر عشيقها، كما كانت تفعل طيلة الأعوام الأحد عشر السابقة.

كان الموقف الرمزي أكثر حضوراً وظهوراً في العصور الوسطى... فالرمزية تظهر كنوع من طريق الفكر المختصر. فبدلاً من البحث عن العلاقة بين شيئين بمتابعة المنعطفات الخفية لترابطاتها السببية، يقفز الفكر ليكتشف علاقتها ليس من خلال السبب والتابع، ولكن بربطها بالمغزى... فالفكر الرمزي يسمح بعلاقات لا نهاية لها بين الأشياء. وكل شيء قد يوحي بعدد من الأفكار المحددة والمتميزة عن طريق

وكانت أسلحتها السرية رموزاً وصوراً كانت دائماً تعيرها اهتماماً كبيراً. ففي وقت مبكر من علاقتها بهنري كانت قد خلقت فكرة رئيسية من تشبيك الحروف الأولى من اسمها بالحروف الأولى من اسمه كي ترمز لاتحادهما. فنجحت الفكرة مثل السحر: فقد كان هنري يضع رموز اسمه في كل مكان ـ على الأثواب الملكية، على الآثار والنُّصُب، على الكنائس، على واجهة اللوفر الذي كان آنذاك هو القصر الملكي في باريس. وكان اللونان المفضلان لدى ديان هما الأبيض والأسود. فكانت ترتديهما حصراً، وحيثما كان ذلك ممكناً كانت الشارات تظهر بهذين اللونين. وكان الجميع يعرفون الرمز ومعناه: وبعد استلام هنري للعرش خَطَتْ ديان أبعد من ذلك، فقرَّرت أن تشبّه نفسها بدايانا، سَمِيَّتها وإلهة

الصيد عند الرومان، وكان الصيد من الناحية التقليدية هو طريقة اللهو التي يزجي بها الملوك أوقاتهم. وكان هنري يحبه بشكل خاص. وكان مما يعادل ذلك في الأهمية أن دايانا في فنون العصور الوسطى كانت ترمز للطهر والنقاء والفضيلة. فعندما تقوم امرأة مثل ديان بتشبيه نفسها بتلك الإلهة، فإن ذلك يستدعي في الذهن على الفور تلك الصور في البلاط، مما يحيطها بجوٍّ من الاحترام. وعندما يرمز ذلك إلى علاقتها «الطاهرة» بهنري فإنه سيفصلها عن ارتباطات الزِّنَى المتصلة بالعشيقات الملكيات في الماضي.

ولتنفيذ هذا التداعي في الخواطر والأفكار شرعت ديان في إجراء تحويل كامل لقلعتها في آنيت. فسوَّت هيكل البناية بالأرض وأقامت في مكانها صرحاً رائعاً ذا أروقة فيها أعمدة مصممة حسب نموذج معبد روماني. وقد شيِّدت بحجر نورماندي الأبيض المرقش بزجاج أسود مقاوم للحرارة، مما يعطي نسخاً عن ألوان ديان المرتبطة باسمها من أبيض وأسود. وظهرت شارات الحروف الأولى من اسمها واسم هنري على الأعمدة، والأبواب، والنوافذ، والسجاد. وفي الوقت نفسه فإن رموز دايانا من الأهلّة، والغزلان وكلاب الصيد زيّنت البوابات والواجهة. أما في الداخل فكانت هناك صور زخرفية هائلة تصوِّر وقائع من حياة الإلهة، ملقاة على الأرض أو معلَّقة على الجدران. وفي الحديقة كان ينتصب تمثال **دايانا المطارِدَة**، المحفوظ الآن بمتخف اللوفر، والذي فيه شبه غريب من ملامح ديان دي بواتييه. وكانت هناك لوحات وأشياء أخرى تصف إلهة الصيد دايانا مبعثرة في كل زاوية من القلعة.

وقد غلبت آنيت على هنري، الذي سرعان ما راح يروِّج لصورة ديان دي بواتييه على أنها إلهة رومانية. وفي سنة 1548، عندما ظهر الاثنان في ليون لحضور احتفال ملكي، رحَّب بهما أهل المدينة بلوحة حيَّة تصوِّر مشهداً من حياة دايانا كصيَّادة. وبدأ بيير دي رونسار، أعظم

مواصفاته الخاصة المختلفة. وقد يكون لخاصيّةٍ مّا معانٍ رمزية متعدّدة. فأعلى المفاهيم لها رموز تعد بالآلاف. فلا شيء يعتبر متواضعاً إلى حد أنه لا يصلح لأن يرمز للجليل السامي ويمجّده. فالجوزة تمثل المسيح وتشير إليه. إذ إن لبّها الحلو طبيعته السماوية، والقشرة العجينية الخارجية الخضراء إنسانيته، والقشرة الخشبية التي بينهما ترمز للصليب وهكذا فإن كل الأشياء ترفع تفكير المرء إلى الخالد الأزلي... وكل حجر كريم، بالإضافة إلى روعته الطبيعية، يلتمع بسطوع قِيَمِهِ الرمزية. فتشبيه الورود بالعذريّة هو أكثر بكثير من مقارنة شعرية، لأنه يكشف عن الجوهر المشترك بينهما، ومع نشوء كل فكرة في الذهن، يخلق منطقُ الرمزية تناغماً في الأفكار.

أفول العصور الوسطى
جوهان هويزينغا، 1928

شعراء فرنسا في ذلك العصر ينظم قصائد في تكريم دايانا ـ بل لقد نشـ
شيء طقوسي حول اسم دايانا إلهة الصيد، أوحت به عشيقة الملك.
وبدا لهنري كأن ديان أعطت نفسها نوعاً من الهالة شبه الإلهية، وكأنه
مقدر له أن يعبدها طيلة ما بقي من حياته. وقد ظل مخلصاً لها بالفعـ
حتى وفاته سنة 1559. فجعلها دوقة، وأعطاها ثروة لم يُسْمَعْ بمثلها.
وأظهر ما يشبه التكريس الديني تقريباً لعشيقته الأولى والوحيدة.

التفسير

استطاعت ديان دي بواتييه، المرأة ذات الخلفية البرجوازية المتواضعة، أن تأسر هنري الثاني، طيلة أكثر من عشرين عاماً. وعندما مات كانت في أواخر الستينات من عمرها، ومع ذلك كانت عاطفته المشبوبة إزاءها لا تزيدها السنين إلاً استعاراً. فقد كانت تعرف الملك جيداً. لم يكن عقلانياً، بل محباً لمشاهد الهواء الطلق ـ وكان يحب مهرجانات الفروسية، والمبارزة على وجه الخصوص، بأعلامها الرياضية البرَّاقة، وخيولها المطهمة اللامعة الزركشات، والنساء بملابسهن الجميلة. وقد بدا لديان أن حب هنري للمشاهد الرائعة بصرياً هو حب طفولي، فاستغلَّت نقطة ضعفه هذه في كل مناسبة.

وكانت أدهى حركة قامت بها ديان هي الاستيلاء على الإلهة دايانا. فبذلك نقلت اللعبة إلى ما وراء الصور الجسدية في الطبيعة، ودخلت به مملكة الرمز الروحي. ولقد كان إنجازاً كبيراً أن تتحوَّل عشيقة الملك إلى نبراس للسلطة والطهر، ولكنها استطاعت أن تتدبَّر أمر هذا التحوُّل. فبدون رنين صدى الإلهة، لم تكن ديان سوى غانية تدبّ إليها الشيخوخة. أما مع صور دايانا ورموزها على كتفيها، فقد بدت قوةً أسطورية مقدراً لها الوصول إلى العَظَمَة.

وتستطيع أنت أيضاً أن تلعب بصورٍ كهذه فتحوك من الأدلة البصرية شكلاً كلياً شاملاً، كما فعلت ديان بألوانها وشاراتها. فأسِّس علامة رمزية دالَّة عليك كهذه لتفصل نفسك عن الآخرين. ثم خذ اللعبة خطوة أبعد.

قد يخطر ببال المرء هنا ما ترمز إليه الحروف المقطّعة الواردة في أوائل بعض سور القرآن الكريم. وتشبيه الحق عزّ وجل لنوره بالمشكاة والمصباح، وما يقوله البعض من أن رفع اليدين في الدعاء يرمز إلى التوجه إلى الله بأسمائه التسعة والتسعين، نظراً لأن الخطوط في اليد اليسرى تمثل الرقم 81 وفي اليمنى 18، فالمجموع 99. وقبل أكثر من اربعين عاماً قال لي احدهم إن احد المعاني العميقة الكامنة في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ...﴾ هي

فاعثر على صورة أو رمز من الماضي تنطبق على وضعك انطباقاً مناسباً وأنيقاً، ثم ضعها على كتفيك كالرداء. وستجعلك تبدو أكبر من الحياة.

> لقد اخترت الشمس كأروع صورة لتمثيل قائد عظيم، بسبب الضوء الذي تشعه على باقي النجوم التي تشكّل نوعاً من البلاط الملتفّ حولها، وبسبب التوزيع العادل والمتساوي لأشعتها على الجميع على حدٍّ سواء، وبسبب الطيبة والجودة التي تجلبها إلى كل الأماكن، فتنتج حياة، ومرحاً، وعملاً، وبسبب استمرارها الثابت الذي لا تحيد عنه قطّ.
>
> (لويس الرابع عشر، الملك الشمس، 1638 ـ ١٧١٥)

مفاتيح السلطة

إن استعمال الكلمات للدفاع عن قضيتك عملية خطرة. فالكلمات أدوات خطرة، وكثيراً ما تضل طريقها. والكلمات التي يستعملها الناس لإقناعنا تدعونا بالفعل إلى التأمل فيها والتعليق عليها بكلمات من عندنا. فنحن نفكِّر فيها ملياً، وكثيراً ما ينتهي بنا الأمر إلى الاعتقاد بعكس ما يقولون (فذلك جزء من طبيعتنا الفاسدة). كما يحدث أن تجرحنا الكلمات، فتثير تداعيات لم يكن يقصدها المتكلِّم.

أما الشيء البصري، من جهة أخرى، فهو يختصر المتاهات الملتوية للكلمات. إذ أنه يضرب بقوة عاطفية وحميمية مباشرة لا تترك ثغرات للتأمّل والشك. ومثل الموسيقى فهو يقفز فوق الأفكار العقلانية والمعقولة وتَصَوَّر طبيبَ القمر يحاول أن يدافع عن ممارساته الطبية، فيحاول إقناع غير المؤمنين بإخبارهم عن القوى الشافية عند القمر وعلاقته الخاصة بهذا الجرم السماوي البعيد. ولحسن حظه، استطاع أن يخلق مشهداً آسراً يجعل الكلمات غير ضرورية. ففي اللحظة التي كان فيها مرضاه يدخلون قاعة الجعة، كانت صورة القمر تتحدَّث إليهم ببلاغة كافية.

إفهم: الكلمات تجعلك في موقف الدفاع. فإذا كان عليك أن

كما يلي: بما أن في حبة التين بذوراً لا تعد ولا تحصى، وفي حبة الزيتون بذرة واحدة، فإن ذلك يعني أن مظاهر الخليقة التي لا تعد ولا تحصى مصدرها هو الواحد الأحد! كما أن حروف كلمة «الله» إذا حذفت واحداً واحداً بقيت الكلمة الدالّة على الله دائماً: فلو حذفنا الألف لبقيت «لله» أي إن كل شيء مملوك لله، ولو حذفنا الألف واللام لبقيت «له» أي لله، ولو حذفنا اللام الأخيرة لبقيت «ه» (هاء مضمومة تُشْبَعُ ضَمَّتُهَا لتصبح واواً ممدودة فيكون لفظها «هُو»). وأما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد جمع منها بعضهم هذه الجملة في وصف القرآن: «نَصٌّ حَكِيمٌ قاطِعٌ له سِرّ». وعندما شبه ابن الرومي، ممدوحاً له بالشمس أعطى الصورة التالية:

دنوتَ تواضعاً وَعَلَوْتَ مجداً ... فشأناك انحدارٌ وارتفاعٌ
كذاك الشمسُ تَبْعُدُ أن تُسَامَى ... ويدنو الضَّوءُ منها والشعاعُ

[المترجم]

كان هناك رجل يدعى ساكاموتويا هتشيفوان يعيش في كيوطو العليا [كيوطو هو الاسم القديم لطوكيو] وعندما أقام [الإمبراطور] هيديوشي حفلة شايه العظيمة [شا ـ نو ـ يو] في كيتانو في الشهر العاشر من عام 1588، نَصَبَ هتشيفوان مظلة حمراء عظيمة قطرها تسعة أقدام على عصا ارتفاعها سبعة أقدام وأحاط محيط بدها لحوالي قدمين بسياج من القصب، بطريقة جعلت أشعة الشمس تنعكس منها

وتنشر لون المظلة فيما حولها في كل اتجاه، فبلغ من سرور هيديوشي بهذا التدبير أن أسقط الضرائب عن هتشيغوان كجائزة له على صنيعه.

شا - نو - يو: حفلة الشاي اليابانية
م. ل. سادلر، 1962

توضح نفسك، فإن ذلك يعني أن سلطتك صارت موضع تساؤل. أما الصورة، من جهة أخرى، فإنها تفرض نفسها كما هي معطاة. فهي تثبط الأسئلة، وتخلق تداعيات وارتباطات قوية، وتقاوم التفاسير غير المقصودة، وتتصل بشكل فوري، وتصوغ علاقات تسمو فوق الفوارق الاجتماعية. فالكلمات تثير المجادلات والانقسامات؛ أما الصور فتجمع الناس معاً. إنها الأدوات الجوهرية للسلطة.

والرمز يملك القوة نفسها، سواء أكان بصرياً (كتمثال دايانا)، أو وصفاً لفظياً لشيء بصري (كعبارة: «الملك الشمس»). إن الشيء الرمزي يمثِّل شيئاً آخر، شيئاً مجرَّداً (مثل الصورة «دايانا» ممثلة العفاف). فالمفهوم المجرَّد - كالنقاء، والوطنية، والشجاعة، والحب، - مليء بالتداعيات والارتباطات العاطفية والقوية. فالرمز طريق مختصر للتعبير يحتوي على عشرات المعاني في عبارة واحدة بسيطة أو شيء واحد بسيط. فرمز الملك الشمس، كما شرحه الملك لويس الرابع عشر، يمكن قراءته على طبقات كثيرة، ولكن جماله في أن تداعياته لا تحتاج إلى شرح، بل إنها تتحدَّث إلى رعاياه مباشرةً، وتميِّزه عن جميع الملوك الآخرين، وتستدعي نوعاً من الجلال يتجاوز الكلمات نفسها. فالرمز يحتوي على سلطة غير محدودة.

إن الخطوة الأولى في استخدام الرموز والصور هي فهم أولوية البصر من بين الحواس. وقبل عصر النهضة، كان هناك جدل في أن البصر والحواس الأخرى - كالذوق، واللمس، وغيرها - تعمل على مستوى متعادل نسبياً، غير أن المرئي صار هو المسيطر منذ ذلك الحين على الحواس الأخرى، وهو الحاسة التي نعتمد عليها ونثق بها أكثر من الحواس الباقية. وكما قال غراسيان، فإن «الحقيقة تُرَى على وجه العموم، ونادراً ما تُسْمَع». وعندما كان رسام عصر النهضة، فْرَا فيليبّو ليبّي عبداً مأسوراً بين المغاربة، كسب حريته برسم تخطيطي عمله لسيِّده على جدار أبيض بقطعة من الفحم الحجري؛ وعندما رأى مالكُهُ ذلك

الرسم، فهم على الفور قوة الرجل الذي يستطيع أن يعمل مثل تلك الصور، وأطلق سراح فْرَا ليبِّي. وهكذا كانت تلك الصورة الواحدة أقوى من أي محاولة كان بإمكان الفنان أن يقوم بها بالكلمات.

لا تهمل أبداً الطريقة التي ترتب بها الأشياء بصرياً، فالعوامل، كاللون مثلاً، لها صدىً رمزي هائل. فعندما قام فنان الاحتيال يالوكيد ويل، بإنشاء رسالة إخبارية يعرض فيها البضائع المزيَّفة التي كان يتاجر بها، أطلق عليها اسم «الرسالة الإخبارية الحمراء»، وطبعها بالحبر الأحمر بكلفة كبيرة. فخلق ذلك اللون شعوراً بالاستعجال، والقوّة، والحظ السعيد. إذ أن ويل كان يدرك أن تفاصيل كهذه هي مفاتيح الخداع، كما يدرك ذلك المعلنون ومسؤولو التسويق بالجملة. فإذا استخدمت «الذهب» على سبيل المثال في عنوان أي شيء تحاول بيعه، فاطبعه بالذهب. وبما أن العين هي المسيطرة، فإن الناس سوف يستجيبون للون، أكثر مما يستجيبون للكلمة.

يحتوي الشيء البصري على قوة عاطفية عظيمة. فقد كان الإمبراطور الروماني قسطنطين يعبد الشمس كإله طيلة معظم سنوات حياته. فنظر إلى الشمس ذات يوم، ورأى صليباً يرتسم فوقها. فأثبت له منظر الصليب فوق الشمس أن الدين الجديد آخذ في الصعود. ولذلك فسرعان ما اعتنق المسيحية ولم يقتصر الأمر عليه، بل لقد نَصَّرَ الإمبراطورية الرومانية كلها بعد ذلك. وما كان لكل الوعظ والتبشير في الدنيا مثل هذه القوة والتأثير. اعثر على الصور والرموز التي تُحْدِثُ الاتصالَ بهذه الطريقة المباشرة واربط نفسك بهذه الصور والرموز، وسوف تحصل على سلطة لا حدود لها.

والأكثر تأثيراً من كل شيء هو مزيج جديد ـ خليط من الصور والرموز التي لم تُشَاهَدْ معاً من قبل، ولكنها من خلال تداعياتها تبين بوضوحٍ فكرتك الجديدة، أو رسالتك، أو ديانتك. ذلك أن خلق صور ورموز جديدة من القديمة بهذه الطريقة له تأثير شاعري. فتداعياتها في

أذهان المشاهدين تنشط في كل اتجاه بلا قيود، فتعطيهم إحساسَ بالمشاركة.

وكثيراً ما تظهر الصور البصرية بشكل متتابع. والنظام الذي تظهر به يخلق رمزاً. فالصورة التي تظهر أولاً ترمز للسلطة على سبيل المثال. والصورة التي في الوسط يبدو أن لها أهمية مركزية.

قرب نهاية الحرب العالمية الثانية، نزلت أوامر من الجنرال آيزنهاور بأن تتقدم القوات الأميركية في الطريق إلى باريس بعد تحريرها من النازيين. غير أن القائد الفرنسي شارل ديغول أدرك أن هذا التتابع سوف يوحي ضمناً بأن الأميركيين يتحكَّمون في مصير فرنسا. وعن طريق الكثير من المناورة ضمن ديغول أنه سيظهر مع الفرقة الفرنسية المدرعة الثانية على رأس القوَّة المحرِّرة. ونجحت استراتيجيته: وبعد نجاح هذا العمل المثير والجسور، شرع الحلفاء يعاملونه باعتباره القائد الجديد لفرنسا المستقلة. وكان ديغول يعلم أن القائد يتعيَّن عليه أن يضع نفسه، حرفياً، على رأس قواته. فكان هذا الربط البصري حساس الأهمية للاستجابة العاطفية التي كان بحاجة إلى استدراجها.

والأشياء تتغيَّر في لعبة الرموز. فربما لم يعد ممكناً اتخاذ موقف «الملك الشمس»، أو لفّ معطف دايانا حول جسمك. ومع ذلك فإنك تستطيع أن تربط نفسك بمثل هذه الرموز على نحو غير مباشر. ويمكنك بالطبع أن تصنع أسطورتك الخاصة من شخصيات من الماضي الأحدث.. من أناس ماتوا وانتهوا، ولكن لا تزال هناك تداعيات قوية ترتبط بهم في نظر عامة الناس. والقصد من هذه الفكرة هو أن تعطي نفسك هالة ومكانة ما كان منظرك الطبيعي العادي المبتذل ليخلقهما لك، ببساطة. فَدَيان بواتييه بنفسها لم تكن تملك مثل تلك القوى المشعّة؛ إذ كانت إنسانةً وعاديةً مثلنا جميعاً. ولكن الرمز رفعها فوق باقي البشر، وجعلها تبدو شبيهة بالآلهة.

كما أن استخدام الرموز له تأثير شبيه برجال الحاشية، إذ أنهم كثيراً ما يكون ألطف من الكلمات الوحشية. وكان المعالج النفساني الدكتور ملتن هـ . إيريكسون، يحاول أن يجد رموزاً وصوراً تصل إلى المريض بطرق لا تقدر عليها الكلمات. فعندما كان يعالج مريضاً مصاباً باضطراب شديد، لم يكن يسأله بصورة مباشرة، بل يتحدث عن شيء لا علاقة له بالموضوع، كقيادة سيارة عبر صحراء آريزونا، حيث كان يتدرَّب في خمسينات القرن العشرين. وفي وصف ذلك كان يأتي في آخر الأمر إلى رمز مناسب لما كان يشكّ أنه سبب مشكلة المريض. فإذا كان المريض منعزلاً مثلاً، فإن الدكتور إيريكسون كان يتحدَّث عن شجرة زانٍ أبيض وحيدة، وكيف أن عزلتها تركتها عرضة لضربات الرياح. وعندئذٍ يربط المريض نفسه عاطفياً مع الشجرة كرمز، فينفتح بصورة أكثر تلقائية لأسئلة الطبيب الهادفة إلى سبر أغواره.

استخدم سلطة الرموز كطريقة لتجميع قواتك أو فريقك، وإحيائها وتوحيدها. فأثناء تمرّد ضد التاج الفرنسي سنة 1648، قام الموالون للملك بالحطّ من قدر المتمردين بمقارنتهم بالمقاليع (frondes بالفرنسية) التي يستخدمها الأولاد، لإخافة الأولاد الكبار. فقرَّر الكردينال دي ريتز، أن يحوّل تلك العبارة الازدرائية إلى رمز للمتمرّدين: فصار التمرّد يعرف باسم «المقلاع» والمتمرّدون باسم «المقلاعيين». فبدأوا يزنّرون قبعاتهم بنطاقات ترمز إلى «المقاليع»، وصارت الكلمةُ صرخة تجمعهم. وبدونها كان التمرّد سيتلاشى. اعثر دائماً على رمز يمثّل قضيتك ـ وكلما زادت تداعياته وارتباطاته العاطفية، كان ذلك أفضل.

إن أفضل طريقة لاستخدام الصور والرموز هي تنظيمها بحيث يتشكَّل منها مشهد هائل كبير يُشْعِرُ الناس بالهيبة ويلهيهم عن الحقائق الكريهة. وهذا سهل للتحقيق. فالناس يحبون ما هو كبير، وأخَّاذ، وأكبر من الحياة. فخاطب عواطفهم، وسوف يتقاطرون إلى مشهدك زرافاتٍ ووحداناً. فالشيء البصري هو أسهل الطرق إلى القلوب.

صورة: الصليب
والشمس. الصلب وإشعاع
كلّي، وقد انطبع أحدهما فوق
الآخر. حقيقة جديدة تأخذ في
التشكل . قوة جديدة آخذة في
الصعود. الرمز . لا ضرورة
للشرح.

الشاهد: يعجب الناس دائماً بالمظهر
السطحي للأشياء. ينبغي على
[الأمير]، في أوقات مناسبة من
السنة... أن يُبقي الناس مشغولين
وملتهين بالاحتفالات والمشاهد
الاستعراضية.

(نيقولو ماكيافيللي، 1469، 1527)

الانقلاب

ليست هناك سلطةٌ تصبح متاحةً بتجاهل الصور والرموز، فليس هناك أي انقلاب محتمل لهذا القانون.

القانون

38

فكِّر كما تحب ـ ولكن تصرَّف كالآخرين

الحكم

إذا حوَّلت معاكستك للعصر إلى استعراض، مزدهياً بأفكارك وأساليبك غير التقليدية أو المألوفة فسيعتقد الناس أنك لا تريد سوى إثارة الانتباه، وأنك تحتقرهم، وسيجدون طريقة لمعاقبتك على جعلك إياهم يشعرون بالنقص. فمن الأسلم بكثير أن تختلط بالناس وتحتضن اللمسة العادية المألوفة. وتقاسم أصالتك مع الأصدقاء المتسامحين فقط، ومع الذين سيقدِّرون كونك فذاً فريداً بالتأكيد.

انتهاك القانون

حوالى سنة 478 ق.م، أرسلت دولة إسبارطة حملة إلى فارس يقودها النبيل الإسبارطي بوسانياس. وكانت المدن ـ الدول في اليونان قد صدَّت قبل ذلك بزمن يسير غزواً قوياً من فارس. أما الآن (478 ق.م) فقد كانت لدى بوسانياس، ومعه سفن حليفة من أثينا، أوامر لمعاقبة الغزاة واستعادة الجزر والمدن الساحلية التي كان الفرس قد احتلوها. وكان الأثينيون والإسبارطيون جميعاً يكنّون لبوسانياس احتراماً عظيماً. ـ فقد أثبت وجوده كمحارب لا يعرف الخوف، مع نزوع إلى التحرّك الدرامي المفاجىء.

وبسرعة مذهلة، استولى بوسانياس وقواته على جزيرة قبرص، ثم تحرَّكوا إلى البر الرئيسي لآسيا الصغرى عبر مضيق الدردنيل واحتلّوا بيزنطة (المعروفة باسم إسطنبول في العصر الحديث). وعندما أصبح بوسانياس سيداً لجزء من الإمبراطورية الفارسية، أخذ يُظْهِرُ علاماتٍ على سلوك يتخطى توهجه الحماسي المعتاد. فشرع يظهر على الملأِ، وقد دهن شعره بمراهم عطرية، وارتدى أثواباً فارسية طويلة فضفاضة، ويصحبه حرس شخصي من المصريين. وراح يقيم ولائم باذخة، يجلس فيها على الطريقة الفارسية، ويطالب بإمتاعه ومؤانسته. وتوقف عن رؤية أصدقائه القدامى، وشرع يتصل بالملك الفارسي إكسيركسيس. وفي كل الأشياء بدأ يصطنع أسلوب وطريقة دكتاتور فارسي.

فكّر مع القلة وتحدث مع الكثرة

من السهل أن يتعرض المرء للخطر بمحاولة السباحة ضدّ التيار. ولا يستطيع أن يحاول ذلك سوى مَنْ له مواهب سقراط. فالمخالفة تعتبر مهينة لأنها إدانة لآراء الآخرين. فينمو عدد الساخطين، إما بسبب قضية صارت موضعاً للاستهجان أو بسبب شخص امتدحها: فالحقيقة إنما هي للقلة. والخطأ معتاد كما أنه فظّ. ولا يتم التعرُّف على الرجل الحكيم مما يقوله في السوق، لأنه هناك لا يتكلم بصوته، ولكن بصوت الحمق الشائع بين الناس أجمعين، مهما كانت أعمق أفكاره تخالف ذلك. فالرجل الحكيم يتجنب تعريض نفسه للمناقضة بنفس الجد والمثابرة اللذين يتجنب بهما مناقضةَ الآخرين. إن علانية الاستهجان تُحْجَبُ عن الذي يَستَفِزّ الاستهجانَ بإرادته. فالفكر حرّ. فلا يمكن أن يكون فيه، ولا ينبغي

أن يكون فيه، إرغام. فتراجع إلى ملجأ صمتك، وإذا سمحت لنفسك بكسره أحياناً، فافعل ذلك تحت حماية الأقلية من المتحفظين الكتومين.
بلثازار غراسيان، 1601 - 1658

كان واضحاً أن السلطة والنجاح قد أدارا رأس بوسانياس، فظن جيشه أول الأمر - من الأثينيين والإسبارطيين على السواء. أن هذه نزوة عابرة. فقد كان دائماً يبالغ في إشاراته. ولكن عندما راح يتبجح بإظهار ازدرائه لطريقة الحياة الإغريقية البسيطة، ويهين الجندي الإغريقي العادي، بدأوا يشعرون بأنه تجاوز الحدود في شططه. ورغم عدم وجود أدلة مادية، فقد انتشرت شائعات بأنه نقل ولاءه إلى الطرف الآخر، وبأنه يحلم أن يصير إكسيركسيس يونانياً. ولقمع احتمال وقوع تمرد، أعفى الإسبارطيون بوسانياس من منصبه القيادي واستدعوه للعودة إلى الوطن.

غير أن بوسانياس استمر يلبس على غرار الأسلوب الفارسي، حتى في إسبارطة. وبعد بضعة أشهر استأجر بصورةٍ مستقلةٍ سفينةً ثلاثية المجاذيف وعاد إلى الدردنيل، مخبراً مواطنيه أنه ذاهب ليستمر في القتال ضد الفرس. ولكنه في الحقيقة كان يملك خططاً أخرى - أن يجعل نفسه حكماً لليونان كلها، بمساعدة من إكسيركسيس نفسه. فأعلنه الإسبارطيون عدواً للشعب، وأرسلوا سفينةً للقبض عليه. فاستسلم بوسانياس وهو متأكد أن باستطاعته أن يبرىء نفسه من تهمة الخيانة. ولم يظهر في المحاكمة أنه، خلال عمله كقائد، قد أهان زملاءه الإغريق مرة بعد مرة، وأنه كان يقيم النصب التذكارية باسمه الخاص بدلاً من أسماء المدن التي كانت قواتها تقاتل إلى جانبه، كما جرت العادة. ومع ذلك فقد أثبت بوسانياس أنه كان على حق. فرغم الأدلة على اتصالاته العديدة بالعدو، فقد رفض الإسبارطيون أن يسجنوا رجلاً من مولد نبيل، فأطلقوا سراحه.

وعندئذ راح بوسانياس يظن نفسه بعيداً عن متناول الجميع، فاستأجر رسولاً ليأخذ رسالة إلى إكسيركسيس. ولكن الرسول بدلاً من ذلك أخذ الرسالة إلى السلطات الإسبارطية. فأراد الإسبارطيون أن يكتشفوا المزيد، فجعلوا الرسول يرتب موعداً للقاء بوسانياس في معبد يستطيعون أن يختبئوا ويتنصتوا من وراء حاجز. فَصَدَمَهم ما قاله

بوسانياس ـ إذ لم يسبق لهم قط أن سمعوا واحداً منهم يتحدَّث بمثل هذ
الاحتقار والصفاقة عن طراز حياتهم. فاتخذوا ترتيبات للقبض عليه على
الفور.

وفي طريقه إلى البيت من المعبد، وصله خبرٌ بما حدث، فركض
إلى معبد آخر ليختبىء، ولكن السلطات لحقت به إلى هناك، وأحاط
المكان بحرَّاس، ورفض بوسانياس أن يستسلم. فلم ترد السلطات أن
تخرجه بالقوّة من المعبد المقدَّس. وأبقته محبوساً في داخله حتى مات
جوعاً في آخر الأمر.

يعيش جيداً مَنْ يخفي نفسه جيداً.
اوفيد
حوالي 43 ق.م- 18م

التفسير

ربما يبدو من النظرة الأولى أن بوسانياس قد وَقَعَ، ببساطة، في
غرام حضارة أخرى. وهذه ظاهرة قديمة قدم الزمن. ذلك أنه لم يكن
مرتاحاً قطّ لزهد الاسبارطيين. فوجد نفسه أسيراً لحب الفرس للفخفخة
واللذة الحسيّة. فكان يرتدي الأثواب الفارسية ويتضمَّخ بالعطر الفارسي
بإحساس مَنْ يتخلَّص من نظام البساطة الإغريقي.

فهكذا تبدو الأمور عندما يتبنَّى الناسُ حضارةً لم ينشأوا في ظلها
غير أنه غالباً ما يكون هناك شيء آخر مؤثر. فعندما يزدهي الناس بعرض
افتتانهم بحضارة مختلفة فإنهم يعبِّرون عن ازدرائهم واحتقارهم
لحضارتهم نفسها. وهم يستخدمون المظهر الخارجيّ للشيء الغريب كي
يفصلوا أنفسهم عن الناس العاديّين الذين يتبعون العادات والقوانين
المحلية دون أي تساؤل. وكذلك ليعبِّروا عن إحساسهم بالتفوق. ولو
كان الأمر غير ذلك لتصرَّفوا بكرامة أكثر، ولأظهروا احتراماً لمن لا
يشاركونهم رغباتهم. والواقع أن حاجتهم لإظهار اختلافهم بمثل هذه
الطرق البارزة اللافتة للنظر كثيراً ما يجعلهم غير محبوبين عند الناس
الذين يَتَحَدَّوْنَ معتقداتهم، بطرق ربما تكون خفية وغير مباشرة، ولكنها
جارحة مع ذلك.

[ينبغي] للرجال العقلاء أن يكونوا خزانة ذات قعرين بحيث لا يرى الآخرون فيها كل ما تحتويه عندما يفتحونها لينظروا إلى ما بداخلها.
السير والتر رالي،
1554 ـ 1618

وكما كتب تُوسِيدِيدِسْ عن بوسانياس: «إنه باحتقاره للقوانين وتقليده للأساليب الأجنبية، قد عرّض نفسه للارتياب على نطاق واسع في كونه غير راغب في مراعاة المقاييس العادية». فللحضارات معايير وقواعد سلوك تعكس قروناً من المعتقدات والمُثُل المشتركة. فلا تتوقع أن تسخر من مثل هذه الأشياء ثم تفلت من العقبات. بل إنك ستعاقَبُ بطريقةٍ مّا، حتى ولو كان ذلك عن طريق العزل فحسب ـ وهذا موقعٌ خالٍ من السلطة في الحقيقة.

إن كثيرين منّا يشعرون ـ مثل بوسانياس ـ بالنداء المغري للشيء الغريب والأجنبيّ. فقيِّدْ هذه الرغبة وقلِّم أظفارها. إذْ إنّ التبجح بعرض سرورك بأساليب التفكير والتصرف سوف يكشف دافعاً مختلفاً ـ هو رغبتك في إظهار تفوقك على زملائك.

مراعاة القانون

في أواخر القرن السادس عشر، ثار في إيطاليا رد فعل عنيف ضد الإصلاح البروتستانتي. وكانت معاكسة الإصلاح، كما سميت، تحتوي على نسختها الخاصة من محاكم التفتيش، لاستئصال كل الانحرافات عن مذهب الكنيسة الكاثوليكية. وكان من بين ضحاياها العالِم غاليليو. ولكن المفكِّر الأهمّ الذي عانى من اضطهاد أكبر حتى مما عاناه غاليليو كان هو الراهب الدومينيكاني والفيلسوف توماسو كامبانيلاّ.

كان كامبانيلاّ من أتباع المذهب المادّيّ للفيلسوف الروماني آبيقوروس، فلم يكن يؤمن بالمعجزات أو بالجنة والنار. بل كتب: «إن الكنيسة قد روّجت لمثل هذه الخرافات كي تتحكم بالناس وتبقيهم خائفين». ومثل هذه الأفكار كانت تقترب من حافة الإلحاد. وقد عبّر كامبانيلاّ عن أفكاره هذه بدون حذر. وفي سنة 1593، ألقت به محاكم التفتيش في السجن لقاء معتقداته الهرطقية. وبعد ذلك بستة أعوام،

عندما تغيَّرت المياه

حدث ذات مرة في قديم الزمان أن وجه الخضر، معلم موسى، تحذيراً إلى البشر، فقال لهم إنه في تاريخ معين ستختفي كل مياه العالم، إلاّ المياه المخزّنة على نحو خاص. وعندئذ سيتم تجديدها بماء مختلف يصيب الرجال بالجنون.

فلم ينصت إلى مغزى هذه النصيحة سوى رجل واحد. فجمع مياهاً وذهب إلى مكان آمن فاختزنها فيه. وانتظر تغير طبيعة الماء

وفي التاريخ المحدد توقفت الجداول عن الجريان، وغارت الآبار وعندما رأى ذلك الرجل الذي سمع النصيحة، ذهب إلى مخبئه وشرب من مائه المحفوظ. وعندما رأى من مأمنه ان مساقط المياه عادت إلى التدفق، نزل مع باقي الناس. فلاحظ أنهم يفكرون ويتكلمون بطريقة تختلف كليّاً عمّا سبق؛ ومع ذلك فإنهم لم يتذكروا ما حدث، ولم يتذكّروا التحذير. وعندما حاول أن يتحدث معهم، أدرك أنهم يظنون أنه مجنون، فأظهروا له عداءً أو رحمة، لا فهماً.

وفي بادىء الأمر لم يشرب من مائهم، ولكنه كان يعود إلى مخبئه، فيشرب من إمداداته المختزنة. غير أنه اتخذ في آخر الأمر قراراً بأن يشرب الماء الجديد لأنه لم يطق الوحدة الموحشة في العيش، والتصرف، والتفكير بطريقة تختلف عن كل شخص آخر. فشرب الماء الجديد، وصار مثل باقي

الناس. وعندئذٍ نسي كل شيء عن مخزونه من الماء الخاص. وبدأ الناس ينظرون إليه على أنه شخص مجنون عاد إليه عقله بمعجزة.

قصص الدراويش
إدريس شاه،
1967

وكنوع من إطلاق السراح الجزئيّ، فرضت عليه الإقامة الجبرية في دير بمدينة نابولي.

وكانت إيطاليا الجنوبية خاضعةً لإسبانيا في ذلك الحين. وفي نابولي اشترك كامبانيلاّ في خطة لقتال هؤلاء الغزاة وطردهم. وكان يأمل في تأسيس جمهورية مستقلة مبنية على أساس أفكاره الخاصة عن المدينة الطوباويّة الفاضلة. فتم حبسه ثانيةً على أيدي محاكم التفتيش الإيطالية التي كانت تعمل مع نظيرتها الإسبانية. وفي هذه المرة عذبوه أيضاً كي يكتشفوا الطبيعة الحقيقية لمعتقداته الفاسقة. فاستخدموا ضده الأداة اللعينة la veglia وهو تعذيب علقوه فيه من ذراعيه بينما هو في وضع القرفصاء على ارتفاع بضعة إنجات من مقعد انغرست فيه مسامير ضخمة. وكان من المستحيل الصمود في هذا الوضع. إذ مع مرور الوقت ينتهي الأمر بالضحية إلى الجلوس على المسامير، التي من شأنها أن تمزق لحمه لدى أخفّ اتصال بها.

غير أن كامبانيلاّ كان أثناء تلك السنوات قد تعلم شيئاً عن السلطة ففي مواجهة الإعدام بسبب الهرطقة، غيّر استراتيجيته. فلن ينكر معتقداته، غير أنه كان يعلم أن عليه أن يموّه مظهرها الخارجي.

ولكي ينقذ كامبانيلاّ حياته، تصنّع الجنون، وترك زبانية محاكم التفتيش يتصورون أن معتقداته تنبع من خلل في عقله لا يمكن السيطرة عليه. فاستمر التعذيب فترة أخرى للتأكد من كون جنونه غير مصطنع ولكن في سنة 1603، خُفِّف الحكم عليه إلى السجن مدى الحياة. فقضى السنوات الأربع الأولى مقيداً إلى جدار في زنزانة تحت الأرض. ورغم هذه الأحوال استمر في الكتابة ـ ولو أنه لم يعد من الحماقة بحيث يعبر عن أفكاره بصورة مباشرة.

وقد روّج كتابه **الملكية الإسبانية** لفكرة كون إسبانيا ذات رسالة إلهية لتوسيع سلطاتها حول العالم، وقدم للملك الإسباني نصيحة عملية ماكيافيلليةَ الطراز لتحقيق ذلك. ورغم اهتمامه الخاص بماكيافيللي، فإن

الكتاب يقدم بصورة عامة أفكاراً معاكسة لأفكاره بصورة كاملة. والواقع أن ذلك الكتاب كان خدعة، ومحاولة لإظهار عودته إلى الاعتقاد الديني الصحيح، في أجْرَأ طريقة ممكنة. ونجحت الحيلة. ففي سنة 1626، بعد نشره بست سنوات، أطلق البابا في آخر الأمر سراح كامبانيلاّ من السجن.

وبعد وقت قصير من كسب حريته، كتب كتاباً بعنوان **هزيمة الإلحاد** يهاجم فيه المفكرين الأحرار، من الماكيافيلليين، والكالفنيين، والهراطقة من كلِّ نوع. وقد كتب الكتاب على شكل مناقشات يُعبِّر فيها الهراطقة عن معتقداتهم، ويرد عليهم بحجج عن تفوق الكاثوليكية. وبدا بوضوح أن كامبانيلاّ قد أصلح أحواله كما يبين الكتاب ذلك. أم هل فعل حقاً؟

فالحجج التي وضعها في أفواه الهراطقة لم يسبق له قَطّ أن عبّر عنها بمثل هذا الحماس والنضارة. وتظاهر بأنه يعرض رأيهم ليسقطه فحسب، وبذلك لخّص القضية المضادة للكاثوليكية بحماس عاطفي لافت للنظر ومثير. وعندما كان يناقش قضية الطرف الآخر، المفروض أنه جانبه هو، كان يلجأ إلى صيغ عتيقة مبتذلة، وأسس منطقية معقدة. وهكذا بدت مجادلات الهراطقة المختصرة البليغة جريئة ومخلصة. أما المجادلات المتطاولة دفاعاً عن الكاثوليكية فقد بدت مملّةً وغير مقنعة.

وقد وجد الكاثوليك الكتابَ مثيراً للقلق وغامضاً عندما قرؤوه، ولكنهم لم يكونوا قادرين على الادعاء بأنه هرطقي، أو بأن كامبانيلاّ ينبغي أن يعود إلى السجن. فقد كان دفاعه عن الكاثوليكية، بعد كل شيء، يستخدم الحجج التي يستخدمونها بأنفسهم. ومع ذلك ففي السنوات اللاحقة صار كتاب **هزيمة الإلحاد** إنجيلاً للملحدين، والماكيافيلليين، والفاسقين، الذين راحوا يستعملون الحجج التي وضعها

كامبانيلاّ في أفواههم للدفاع عن أفكارهم الخطرة. فلقد أظهر كامبانيلاّ أنه قد تعلّم درسه عندما جمع بين إظهار الالتزام بالجادّة من جهة، والتعبير عن معتقداته الحقيقية من جهة أخرى، بطريقة يفهمها المتعاطفون معه.

التفسير

في مواجهة اضطهاد رهيب، ابتكر كامبانيلاّ ثلاث حركات استراتيجية أنقذت جلده، وحررته من السجن، وأتاحت له أن يستمر في التعبير عن معتقداته. فتظاهر أولاً بالجنون، وهو ما يعادل في العصور الوسطى أن يتنصّل المرء من المسؤولية عن أعماله، مثل إلقائه اللوم على والديه اليوم. وتلا ذلك بكتابةِ كتابٍ يعبّر عن عكس معتقداته بالضبط، وأخيراً، وبحركة هي الأكثر ألمعية، قام بتمويه أفكاره بينما كان يلمح إليها في الوقت نفسه. وتلك خدعة قديمة ولكنها قوية: تتظاهر بأنك لا تتفق مع الأفكار الخطرة، ولكن في سياق مخالفتك لتلك الأفكار تعطيها تعبيراً وعرضاً جلياً. وتبدو متفقاً مع الأفكار التقليدية السائدة، ولكن العارفين سيفهمون التهكم الذي تنطوي عليه هذه الطريقة من قول الشيء وقصد ضده. فتصبح أنت محمياً.

إياك أن تقاتل ضد آراء أي رجل. فحتى لو عدت إلى عصر ميتوشالح [السحيق القِدَم]، فإنك لن تستطيع جعله يقف ضد الأشياء السخيفة والباطلة التي يؤمن بها.

ومن المستحسن أيضاً تجنب إصلاح أخطاء الناس أثناء المحادثة، مهما كانت نواياك حسنة. ذلك أن إهانة الناس سهلة ولكن إصلاحهم صعب، إن لم يكن مستحيلاً.

فإذا شعرتَ بالانزعاج من الملاحظات السخيفة التي يبديها شخصان صادف أن سمعت حديثهما، فعليك أن تصور أنك تستمع إلى حوار أحمقين في مسرحية هزلية.

إن الرجل الذي يأتي إلى العالم ولديه فكرة أنه سيعلّمه في قضايا في غاية الأهمية، قد يضطر إلى شكر حسن طالعه إذا نجا من هذه الدنيا بجلده وهو متماسك.

آرثر شوبنهاور
1788 - 1860

ومن المحتوم في المجتمع أن بعض القيم والعادات تفقد اتصالها بدوافعها الأصلية وتصبح ثقيلة الوطأة. وسيكون هناك دائماً أناس يتمردون على هذا القهر، ويكنّون أفكاراً سابقة لزمنهم بكثير. غير أنه - كما أرغم كامبانيلاّ على إدراك ذلك. لا فائدة من إقامة استعراض علني لأفكارك الخطرة، إن كانت لا تجلب لك سوى الألم والاضطهاد. فالاستشهاد من أجلها لا يخدم غرضاً - فمن الأفضل الاستمرار في الحياة في عالم ظالم مستبد، بل والانتعاش فيه. وفي هذه الأثناء، اعثر على طريقة للتعبير عن أفكارك بصورة خفية ذكية للذين يَفْهَمُونَك. إذ أن عرضك دُرَرَكَ على الخنازير لن يأتيك إلاّ بالمتاعب.

مضى وقت طويل دون أن أقول ما أومن به، كما أنني لا أومن أبداً بما أقول؛ وحتى ولو حدث أحياناً أنني أقول الحقيقة، فإنني أخفيها وسط أكاذيب كثيرة بحيث يصبح العثور عليها صعباً.

(نيقولو ماكيافيللي، في رسالة إلى فرانسيسكو غويشيارديني، في ١٦ أيار/مايو سنة ١٥٢١).

مفاتيح السلطة

نحن جميعاً نقول الأكاذيب، ونخفي مشاعرنا الحقيقية، لأن التعبير الكامل والحرّ هو استحالة اجتماعية. إننا نتعلم إخفاء أفكارنا منذ سن مبكرة. فنخبر الحسّاسين وسريعي الغضب وغير الآمنين ما نعلم أنهم يودّون سماعه، ونحرص بشدة على عدم جرحهم أو إهانتهم. وهذا طبيعي بالنسبة لمعظمنا ـ فهناك أفكار وقيمٌ يقبلها معظم الناس. ولا جدوى من الجدل فيها. فنحن نعتقد ما نريد إذن، ولكننا على الجانب الخارجي نرتدي قناعاً.

غير أن هناك أناساً يرون هذه القيود افتئاتاً على حريتهم لا يطاق وهم بحاجة إلى إثبات تفوق قيمهم ومعتقداتهم. غير أن حججهم في آخر الأمر لا تقنع سوى قليلين، وتضايق وتغيظ عدداً أكبر بكثير. والسبب الذي يجعل المجادلات لا تفيد هو أن معظم الناس يحافظون على أفكارهم وقيمهم بدون التفكير فيها. إذ أن هناك محتوىً عاطفياً قوياً في معتقداتهم. وهم في الحقيقة لا يريدون أن يعيدوا تشغيل عاداتهم في التفكير. وعندما تتحداهم، سواء بشكل مباشر من خلال مجادلاتك أم غير مباشر من خلال سلوكك، فإنهم يصبحون عدائيين.

المواطن والمسافر

قال المواطن. «انظر فيما حولك. هذا أكبر سوق في العالم». فقال المسافر: «آه، بالتأكيد لا». فقال المواطن «حسناً ربما لا يكون الأكبر، ولكنه الأفضل بكثير». فقال المسافر: «من المؤكد أنك مخطىء في ذلك، ويمكنني أن أخبرك...» فدفنوا الغريب عند الأصيل.

خرافات

روبرت لويس ستيفنسون

1850 - 1894

ويتعلَّم الناس الحكماء والبارعون منذ وقت مبكر أنهم يستطيعون أن يعرضوا سلوكاً تقليدياً، ويعبِّروا عن أفكارٍ تقليدية دون الاضطرار إلى الإيمان بها. والسلطة التي يكسبها هؤلاء الناس من الاختلاط مع الآخرين هي تركهم وشأنهم، لتكون لديهم الأفكار التي يشاؤون، وليعبروا عنها لمن يشاؤون، بدون أن يعانوا من العزل والمقاطعة.

وعندما يثبّتون أنفسهم بصورة راسخة في مركز السلطة، يستطيعون أن يحاولوا إقناع دائرة أكبر بصحة أفكارهم ـ وربما يعملون بطريقة غير مباشرة، مستخدمين استراتيجية كامبانيلاّ في السخرية والتلميح.

في أواخر القرن الرابع عشر، بدأ الإسبان اضطهاداً جماعياً كثيفاً لليهود. فقتلوا ألوفاً وطردوا من البلاد ألوفاً أخرى. وأرغم الذين ظلوا في إسبانيا على التنصُّر. ومع ذلك لاحظ الإسبان على مدى القرون الثلاثة التالية ظاهرةً أثارت قلقهم. فكثير من المتنصِّرين كانوا يعيشون حياتهم الخارجية ككاثوليك. ومع ذلك فقد استطاعوا بطريقةٍ مّا أن يحتفظوا بمعتقداتهم اليهودية، وظلوا يمارسون دينهم سراً. فكثير من هؤلاء المدعوين بالمارّانو (وهو اصطلاح انتقاصيّ مأخوذ من الكلمة التي تعني «الخنزير» باللغة الإسبانية) وصلوا إلى مستويات عليا من الوظائف الحكومية، وتزاوجوا مع طبقة النبلاء وأعطوا كل مظهر من مظاهر التقوى المسيحية، ثم يُكْتَشَفُ في آخر حياتهم أنهم كانوا يهوداً متدينين (وقد كلفت محاكم التفتيش الإسبانية تحديداً بإخراجهم من مكامنهم). وعبر السنين أتقنوا فن الخداع والرياء، فكانوا يعرضون الصلبان وصور المسيح على الصليب بكثرة وحرية ويقدمون هدايا سخية للكنائس، بل يبدون في بعض المناسبات ملاحظات لا سامية. وطيلة الوقت يحافظون على حريتهم ومعتقداتهم الداخلية.

لو كان لدى ماكيافيللي أمير يتلمذ على يديه، لكان أول شيء يوصيه به هو أن يؤلف كتاباً ضدّ الماكيافيللية.

فولتير
1694 ـ 1778

كان المارّانو يعلمون أن المظاهر هي الشيء الذي يهمّ في المجتمع. وهذا يظل صحيحاً اليوم. والاستراتيجية بسيطة، فكما فعل كامبانيلاّ في كتابه **هزيمة الإلحاد**، اجعل اختلاطك بالآخرين مشهداً استعراضياً، بل واذهب إلى الحد الذي يصل إليه أكثر المدافعين حماساً عن العقيدة السائدة. فإذا التزمتَ بالمظاهر التقليدية علناً على الملأ، فلن يظن إلاّ قليلون بأنك تفكِّر بطريقة مختلفة في السرّ.

فلا تكن من الحمق بحيث تتصوَّر أن التقاليد القديمة قد انتهت ولم تعد موجودة في عصرنا هذا. وعلى سبيل المثال، فإن جوناس صولك،

كان يظن أن العِلْمَ قد تخطَّى السياسة والبروتوكول. وهكذا ففي بحثه عن لقاح ضد شلل الأطفال، كسر كل القواعد ـ فأعلن الاكتشاف على الملأ قبل عرضه على الأسرة العلمية، وأخذ فضل اكتشاف اللقاح دون الاعتراف بالعلماء الذين مهَّدوا الطريق، وبذلك جعل نفسه نجماً. فربما يكون عامة الناس قد أحبّوه، ولكن العلماء شرعوا يتجنَّبونه. ذلك أن عدم احترامه لتقاليد مجتمعه قد تركه معزولاً. فأمضى سنوات في محاولة رأب الصدع، ويناضل من أجل التمويل والتعاون.

لقد تعرَّض برتولت بريخت، لشكل حديث من محاكم التفتيش ـ لجنة مكافحة الأنشطة المعادية لأميركا التابعة للكونغرس. فاقترب منها بحكمة وبعد نظر كبير. فبعد أن كان قد عمل بطريقة متفرقة لصناعة الأفلام الأميركية أثناء الحرب العالمية الثانية، استدعي سنة 1947، للمثول أمام اللجنة للإجابة عن أسئلة عن تعاطفه المشتبه به مع الشيوعية. وكان الكتَّاب الآخرون الذين استدعتهم اللجنة قد قرَّروا أن يهاجموا أعضاءها وأن يتصرَّفوا بأكبر قدر ممكن من العدوانية كي يكسبوا العطف لأنفسهم. ومن جهة أخرى، فإن بريخت الذي كان يعمل باطراد للقضية الشيوعية فقد مارس لعبة معاكسة، فأجاب على أسئلة اللجنة بعموميات غامضة تتحدَّى أي تفسير. ويمكنك تسمية هذه الخطة استراتيجية كامبانيلاً. بل إن بريخت قد ارتدى بذلة ـ وهذا حدث نادر بالنسبة إليه. وحرص على تدخين سيجار أثناء الإجراءات، عارفاً أن أحد الأعضاء الأساسيين في اللجنة كان شديد الولع بالسيجار. وفي آخر الأمر سحر أعضاء اللجنة الذين تركوه حراً طليقاً تماماً.

وانتقل بريخت إلى ألمانيا الشرقية، حيث واجه نوعاً مختلفاً من محاكم التفتيش. فقد كان الشيوعيون هنا في السلطة. وقد انتقدوا مسرحياته باعتبارها متفسخة ومتشائمة. فلم يتجادل معهم، بل أجرى تغييرات صغيرة في نصوص الأداء المسرحي، كي يُسْكِتَ منتقديه. وفي تلك الأثناء استطاع بريخت أن يحافظ على النصوص المنشورة كما كان

قد كتبها أصلاً. فأعطاه التزامه بما هو سائد في الحالتين حرية العمل بلا عراقيل، وبدون الاضطرار إلى تغيير تفكيره. وفي آخر الأمر، شقّ طريقه بسلام في فترات زمنية خطرة، في بلدان مختلفة من خلال استخدام رقصات على أنغام التقاليد السائدة، وأثبت أنه أقوى من قوى الكبت.

إن أصحاب السلطة لا يتجنبون المضايقات التي يمارسها أمثال بوسانياس وَصُولْك فحسب، بل إنهم يتعلَّمون أن يلعبوا دور الثعلب الماكر وأن يتظاهروا بأن لهم لمسة عامة الناس. فقد كانت هذه هي خدعة فناني الاحتيال والسياسيين عبر القرون. فقد تغلَّب قادةٌ مثل يوليوس قيصر وفرانكلين ديلانو روزفلت على موقفهم الأرستقراطي الطبيعي كي يتقرَّبوا بمعرفة حميمة من الرجل العادي. وقد عبَّروا عن هذه الإلفة بإشارات صغيرة كثيراً ما كانت رمزية، ليظهروا للناس أن قادتهم يشاطرونهم القيم الشعبية، رغم مكانتهم المختلفة.

والامتداد المنطقي لهذه الممارسة هي القدرة التي لا تقدَّر بثمن على أن يكون المرء كلَّ شيء لكل الناس. فعندما تدخل أوساط المجتمع، اترك خلفك أفكارك وقيمك الخاصة، والبس القناع الأنسب للمجموعة التي تجد نفسك بينها. فقد مارس بسمارك هذه اللعبة بنجاح على مدى سنوات - وكان أناس فهموا على نحو غامض ما الذي كان يرمي إليه، ولكن ليس بوضوح يجعل الأمر يهم. فالناس يبتلعون الطعم لأن مما يرضي غرورهم أن يعتقدوا أنك تشاطرهم أفكارهم. لن يعتبروك منافقاً إذا كنتَ حريصاً، إذْ كيف يستطيعون أن يتهموك بالنفاق إذا لم تدعهم يعرفون بالضبط ما الذي تمثله؟ ولن يروك كشخص تعوزه القِيَم. فبالطبع لديك قِيَم - وهي القيم التي تتقاسمها معهم، عندما تكون في صحبتهم.

الشاهد: لا تعطوا القدس للكلاب. ولا تطرحوا دُرَرَكم قُدَّام الخنازير، لئلاً تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم.

(السيد المسيح، إنجيل متى، 7: 6)

صورة: الخروف الأسود. يتجنَّب القطيعُ الخروفَ الأسود، وهو غير متأكدٌ إن كان الخروف يعود للقطيع أم لا. وهكذا يشرد الخروف الأسود خلف القطيع، أو يتجول بعيداً عنه فتحاصره الذئاب وتلتهمه على الفور. فابقَ مع القطيع ـ فهناك السلامة مع العدد الوفير. وابقِ خلافاتك في أفكارك، وليس على جزّة صوفك.

الانقلاب

إن الوقت الوحيد الذي يستحق البروز بالانفصال عن الآخرين هو عندما تكون بالفعل بارزاً، عندما تكون قد حققت لنفسك مركزَ سلطة لا يتزعزع، وتستطيع أن تعرض اختلافك عن الآخرين كعلامة للمسافة الفاصلة بينك وبينهم. كان ليندون جونسون وهو رئيس للولايات المتحدة يعقد اجتماعات في بعض الأحيان وهو جالس على المرحاض. وبما أنه لم يكن هناك أي شخص آخر يقدر، أو يريد أن يدعي مثل هذا «الامتياز»، فإن جونسون كان يوضح للناس أنه لم يكن مضطراً لمراعاة البروتوكول ومجاملات الآخرين في قواعد السلوك. وقد مارس الإمبراطور الروماني كاليغولا اللعبةَ نفسَها. كان يرتدي ثوباً نسوياً طويلاً فضفاضاً، أو ثوب حمّام ليستقبل الزوار الهامّين، بل ذهب إلى درجة أنه أراد انتخاب حصانه قنصلاً، ولكن ذلك أدى إلى رد فعل عكسيّ، لأن الناس كرهوا كاليغولا، وأدت إشاراته في آخر الأمر إلى إسقاطه. والحقيقة أنه حتى أولئك الذين يصلون إلى قمة السلطة من الأفضل لهم أن يصطنعوا اللمسة الشعبية العادية على الأقل، لأنهم في فترة معينة قد يحتاجون إلى الدعم الشعبي.

وأخيراً، فإن هناك دائماً مكاناً للشخص المزعج، الذي ينجح في

تحدي العرف المعتاد، ويسخر ممّا صار متحجراً لا حياة فيه في حضارةٍ مّا. فأوسكار وايلد، على سبيل المثال، حقق سلطةً اجتماعيةً كبيرةً على هذا الأساس: فقد أوضح للناس بأنه يزدري الأساليب المعتادة في عمل الأشياء، وعندما كان يقرأ نصوصه علانية لم يكن مستمعوه يتوقعون منه أن يهينهم فحسب، بل كانوا يرحبون بإهاناته. غير أننا نلاحظ أن دوره الغريب قد دمّره في آخر الأمر. وحتى لو أفضى به الأمر إلى نهاية أفضل فتذكر أنه كان يملك عبقرية غير عاديّة: فلولا موهبته في التسلية والإمتاع لكانت أشواكه قد آذت الناس وضايقتهم فحسب.

القانون

39

عَكّر المياه
لتصطاد السمك

الحكم

إن الغضب والانفعال العاطفي يعطيان نتائج عكسية من الناحية الاستراتيجية. فعليك أن تبقى هادئاً وموضوعياً على الدوام. ولكن إذا استطعت إغضاب أعدائك بينما تبقى أنت هادئاً، فإنك تكسب ميزة حاسمة. فخلخل توازن أعدائك. إعثر على شقٍّ في غرورهم تستطيع من خلاله أن تهزّهم بقعقعةٍ بينما تمسك أنت بالخيطان.

انتهاك القانون

في شهر كانون الثاني/يناير سنة 1809، هرع نابليون بونابرت عائداً إلى باريس من حروبه الإسبانية وهو مهتاج وقلق. فجواسيسه وعيونه الموثوقون أكدوا له شائعة عن تآمر وزير خارجيته تاليران ضده مع فوشيه، وزير شرطته. وفور وصول الإمبراطور المصدوم إلى العاصمة باريس، استدعى وزراءه إلى القصر. ثم لحق بهم إلى الاجتماع بعد وصولهم تماماً، وشرع يذرع المكان جيئة وذهوباً، ثم بدأ يتحدث بغضب، وعلى نحو مفكك وغامض، عن المتآمرين الذين يعملون ضده، وعن المضاربين الذين يتسببون في هبوط سوق الأوراق المالية، والمشرِّعين الذين يعرقلون سياساته ـ ووزرائه العاملين على تقويض حكمه.

وبينما كان نابليون يتحدث، اتكأ تاليران على رفّ الموقد، وهو يبدو غير مبالٍ تماماً. فواجهه نابليون مباشرة وأعلن: «بالنسبة لهؤلاء الوزراء، بدأت الخيانة عندما سمحوا لأنفسهم بالتشكك». وعند كلمة «خيانة»، توقع الحاكم من وزيره أن يخاف. ولكن تاليران لم يزد على أن ابتسم وهو هادىء وقد بدا عليه السأم.

وأدت رؤية مرؤوسٍ في مزاج صافٍ رائق في مواجهة اتهامات قد تودي به إلى الشنق، إلى دفع نابليون من فوق حافة الجرف، فقال إن هناك وزراء يريدونه ميتاً. ثم اتخذ خطوة أقرب إلى تاليران ـ الذي ظل

إيتاكورا شيجيميون يطحن شايه بنفسه

كان كيوطو شوشيدال إيتاكورا سُو وُو ـ نو ـ كامي شيجيميون مغرماً جداً بالشا ـ نو ـ يو (حفلة الشاي)، وكان من عادته أن يطحن شايه بنفسه أثناء جلوسه في المحكمة كقاضٍ، وكان سبب ذلك هو التالي: سأل ذات مرة صديقاً كان رفيقاً له في حفلة الشاي (وهو تاجر شاي يُدعى إيكي)، أن يخبره عن رأي عامة الناس فيه، فقال إيكي: «حسناً، يقولون إنك تنزعج من الذين لا يعطون شهاداتهم بوضوح، وإنك توبخهم، ولذلك يخشى الناس أن يقيموا الدعاوى أمامك، وإذا فعلوا، فإن الحقيقة لا تظهر للعيان». فردّ شيجيميون: «آه، إنني سعيدٌ لأنك أخبرتني بذلك. وعندما أفكر في هذا الأمر، أرى أنني قد تعودت على التكلم مع الناس بحدةٍ على هذا النحو. ولا شك أن الناس البسطاء والذين لا يملكون طلاقة في الكلام يضطربون فيعجزون عن عرض قضاياهم تحت أفضل

يحدّق بنابليون دون قلق أو انزعاج. وأخيراً انفجر نابليون صارخاً في وجه تاليران: «إنك جبان، ورجل بلا إيمان، فليس شيء عندك بمقدس. بل أنت مستعد لبيع أبيك نفسه. لقد أغدقت عليك الثراء. ومع ذلك فليس هناك شيء لا تريد أن تفعله لتؤذيني». ونظر الوزراء الآخرون إلى بعضهم بعضاً غير مصدقين ـ فلم يحدث من قبل أبداً أن رأوا هذا الجنرال الذي لا يعرف الخوف، والذي غزا معظم أوروبا، قلقاً مشوشاً إلى هذا الحدّ.

وتابع نابليون وهو يدقّ الأرض بقدمه: «إنك تستحق الكسر كالزجاج. وإني لقادر على تكسيرك. ولكنني أحتقرك أكثر من أن أهتم بذلك. لماذا لم آمر بشنقك على أبواب قصر التويلري؟ ولكن لا يزال هناك متسع من الوقت لذلك». وتابع يصرخ وقد كاد نَفَسُهُ ينقطع، واحمرّ وجهه، وبرزت عيناه: «وأنت ـ على فكرة. لستَ سوى غائط في جورب نسائي حريري... وماذا عن زوجتك؟ إنك لم تخبرني أبداً أن سان كارلوس هو عشيق زوجتك؟». فقال تاليران بهدوء كامل ودون أي ارتباك: «الحق يا سيدي أنه لم يخطر ببالي أن هذه المعلومات لها أي تأثير على مجد جلالتكم، أو على مجدي أنا». وبعد عدد آخر من الإهانات، انصرف نابليون خارجاً. فذرع تاليران الغرفة ببطء، وهو يتحرك بعرجته المتميزة. وبينما كان أحد المرافقين يساعده في ارتداء معطفه، استدار إلى زملائه الوزراء (الذين كانوا جميعاً يخشون أنهم لن يروه ثانيةً قطّ)، وقال: «يا للأسى، أيها السادة، أن يكون رجل بهذه العظمة سيِّىء الأدب إلى هذا الحد».

ورغم غضب نابليون، فإنه لم يعتقل وزير خارجيته، بل اكتفى بإعفائه من واجباته ونفيه من بلاطه، معتقداً بأن الإذلال سيكون عقوبة كافية لهذا الرجل. فلم يدرك أن الخبر سينتشر بسرعة عن خطبته الطويلة العنيفة، وكيف أن الإمبراطور فَقَدَ السيطرة على نفسه بشكل كامل، وكيف أن تاليران قد أذله من حيث الجوهر بمحافظته على رباطة جأشه

الأضواء. وسأهتم بأن لا يحدث ذلك في المستقبل». وهكذا، فبعد أن وضع طاحونة الشاي أمامه في المحكمة، وأمامها أرخى الستائر المغطاة بالورق، وخلفهما جلس شيجيمون، وهو يطحن الشاي، وبذلك يُبْقي ذهنه هادئاً أثناء سماعه للدعاوى. وبذلك كان يستطيع أن يعرف بسهولة ما إذا كان مزاجه قد تعكر أم لا، عن طريق النظر إلى الشاي، الذي لا يزال مطحوناً بشكل متجانس على نحو مناسب إذا احتاج. وهكذا أقيمت العدالة بدون تحيز، وصار الناس يغادرون محكمته وهم راضون.

شا ـ نو ـ يو:
حفلة الشاي اليابانية
م. ل. سادلر،
1962

ووقاره. وهكذا طويت صفحة: فلأول مرة رأى الناسُ الإمبراطورَ العظيمَ يفقد برودة أعصابه تحت النار. وانتشر شعور بأنه في طريقه إلى الانحدار. وكما قال تاليران: «هذه بداية النهاية».

التفسير

كانت تلك بداية النهاية حقاً. كانت واترلو ما تزال على بعد ستة أعوام في المستقبل. ولكن نابليون كان آخذاً في الهبوط ببطء نحو الاندحار، الذي تبلور سنة 1812، مع غزوه الكارثيّ لروسيا. ولقد كان تاليران أول من رأى علامات انحطاطه، وخصوصاً في حربه غير العقلانية مع إسبانيا. وفي وقت ما من سنة 1808، قرر الوزير أنه من أجل سلام أوروبا يجب أن يذهب نابليون. وهكذا تآمر مع فوشيه.

ومن المستحيل أن المؤامرة لم تكن قطّ سوى خدعة ـ أو تدمير لدفع نابليون من فوق الحافة. لأن من الصعب الاعتقاد بأن اثنين من أكثر الرجال عمليةً في التاريخ يقطعان نصف الطريق فقط في تآمرهما. فربما كانا يقومان بتعكير المياه فقط، ويحاولان حث نابليون على اتخاذ خطوة خاطئة. وبالفعل فقد كان ما حصلا عليه هو نوبة غضب كشفت فقدانه للسيطرة عياناً أمام الجميع. والواقع أن انفجار نابليون في ذلك المساء سرعان ما اشتهر، وترك أثراً سلبياً عميقاً على صورته العامة.

وهذه هي المشكلة في الردّ الغاضب، فهو للوهلة الأولى قد يزرع الخوف والرعب، ولكن في نفوس البعض فقط، ومع مرور الأيام وانقشاع العاصفة، تبرز ردود أخرى ـ كالشعور بالحرج والقلق حول قابلية الصارخ للخروج عن طوره، والغضب مما قيل. فأنت عند فقدانك السيطرة على طبعك تكيل للناس اتهاماتٍ ظالمةً ومبالغاً فيها. فإن تكررت مثل هذه الانفجارات الصاخبة، فسيبدأ الناس بعدّ أيامك حتى تذهب.

ينبغي عدم الشعور بحقد تجاه أي شخص إن كان ذلك ممكناً. . . ذلك أن التكلم بغضبٍ مع شخص مّا، أو إظهار كراهيتك له من خلال ما تقول أو بالطريقة التي تنظر بها إليه، إنما هو إجراء غير ضروري. وخطِر، وأحمق، وسخيف، وفظّ. فالغضب أو الكراهية ينبغي عدم إظهارهما أبداً بطريقة أخرى غير ما تقوم به من

لقد كان لنابليون بالتأكيد الحق في الشعور بالغضب والقلق في

مواجهة مؤامرة ضده ـ مؤامرة بين أهم اثنين من وزرائه. ولكنه بالردّ بهذه الدرجة من الغضب، ومن العلانية لم يزد على أن أظهر شعوره بالإحباط. وإظهار شعورك بالإحباط، معناه إظهار فقدان سلطتك على تشكيل الأحداث؛ إنه عمل طفل لا حول له يلجأ إلى نوبة هستيرية ليحصل على ما يريد. والأقوياء ذوو السلطة لا يكشفون عن هذا النوع من الضعف على الإطلاق.

عمل. إذ إن المشاعر ستكون أكثر فاعلية في العمل، ما دمت تتجنب عرضهما بأي طريقة أُخرى. فليست الحيوانات ذوات الدم البارد هي وحدها ذوات اللدغة السامة.

آرثر شوبنهاور
1788 ـ 1860

كان هناك عدد من الأشياء التي يستطيع نابليون أن يفعلها في هذا الوضع. كان يمكن أن يفكر بأن شخصين بارزين عقلانيين، لا بدّ أنه كان لهما سبب وجيه للانقلاب عليه. فكان يمكنه الاستماع إليهما والتعلم منهما. وكان بإمكانه أن يحاول كسبهما إلى جانبه ثانيةً. بل كان يمكنه التخلص منهما، جاعلاً سجنهما أو موتهما، عرضاً لسلطته ينذر بشر مستطير لمن يتطاول عليها، وبلا صخب، ولا نوبات طفولية، ولا آثار لاحقة محرجة.. بل قطع للعلاقة هادىء وحاسم.

تذكَّر: إن نوبات الغضب لا تخيف، ولا تلهم الولاء، بل إنها تخلق شكوكاً وقلقاً حول سلطتك. فهذه الانفجارات العاصفة تفضح ضعفك، وكثيراً ما تؤذن بأفولك.

مراعاة القانون

عند حلول أواخر عشرينات القرن العشرين، كان هيلا سيلاسي قد حقق هدفه تقريباً بالسيطرة الكلية على إثيوبيا، وهي بلد شعر بأنه يحتاج إلى قيادة قوية وموحدة. وبصفته وصياً على الإمبراطورة زوديتو (ابنة زوج الملكة الراحلة) ووريثاً للعرش، كان قد أمضى عدة أعوام في إضعاف سلطة قادة الحرب المختلفين في إثيوبيا. ولم تعد هناك سوى عقبة واحدة تقف في طريقه: الإمبراطورة وزوجها راس غوغاس. وكان سيلاسي يعلم أن الزوجين الملكيين يكرهانه ويريدان التخلص منه. وهكذا ليقطع الطريق على تآمرهما جعل غوغاس حاكماً لمقاطعة

القرد والزنبور

بينما كان أحد القرود يمضغ حبة كمثرى ناضجة، ضايقه زنبور بحركاته الوقحة والملحة، لأنه كان يريد مشاركته فيها سواء بإرادته أم برغم أنفه. وبعد أن هدد القردَ بغضبه إذا استمر في

بيغميدير الشمالية، مما أرغمه على ترك العاصمة، التي كانت تعيش فيها الإمبراطورة.

وعلى مدى عدة سنوات لعب غوغاس دور الإداري المخْلِص. ولكن سيلاسي لم يكن يثق به. وكان يعلم أن غوغاس والإمبراطورة يخططان للانتقام. ومع مرور الوقت وعدم قيام غوغاس بأية حركة، كانت فرص المؤامرة تزداد. وكان سيلاسي يعرف ماذا عليه أن يفعل: أن يخرج غوغاس من وكره، أن يقلقه ويستثير هواجسه، فيدفعه إلى العمل قبل أن يكون مستعداً له.

وعلى امتداد سنوات عديدة كانت قبيلة شمالية، هي قبيلة عصيبو غالا متمردة ضد العرش عملياً، تنهب وتسطو على القرى المحلية، وترفض دفع الضرائب، ولم يكن سيلاسي قد فعل شيئاً لإيقافها، وتركها تشتدّ وتقوى. وأخيراً، في سنة 1929، أمر راس غوغاس أن يقودَ جيشاً ضد رجال القبيلة العصاة هؤلاء. فوافق غوغاس، ولكن نفسه من الداخل ظلت تجيش - فلم يكن لديه حقد على قبيلة عصيبو غالا. وقد آذت كبرياءَه مطالبتُهُ بقتالهم. ولم يكن يستطيع أن يعصي الأمر، ولكن بينما راح يعمل لتجميع جيش، بدأ ينشر شائعة قبيحة. هي أن سيلاسي متواطىء مع البابا، وأنه يريد تحويل البلد كله إلى مذهب الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وجعله مستعمرة لإيطاليا. وتضخم جيش غوغاس. واتفقت بعض القبائل التي ينتسب إليها جنوده اتفاقاً سرياً على مقاتلة سيلاسي. وفي شهر آذار/مارس سنة 1930، بدأت قوة هائلة من خمسة وثلاثين ألف رجل بالزحف، ليس على قبيلة عصيبو غالا، بل إلى الجنوب، نحو العاصمة آديس آبابا. وأدى تنامي هذه القوة إلى زيادة ثقة غوغاس، فأخذ يقود علانيةً حرباً مقدسة للإطاحة بسيلاسي وإعادة البلد إلى أيدي المسيحيين الحقيقيين.

ولكنه لم ير الفخ الذي كان قد نُصِبَ له. فقبل أن يأمره سيلاسي بقتال قبيلة عصيبو غالا، كان قد أمّن دعم الكنيسة الإثيوبية. وقبل أن تبدأ

الإحجام عن الاستسلام لطلبه، وقفَ على الفاكهة، ولكن القرد أسقطه عنها في الحال. فلجأ الزنبور المنزعج إلى الشتم والقدح، وبعد أن استخدم أكثر الكلمات إهانة، والمخلوق الآخر يستمع إليه بهدوء، انفعل انفعالاً عاطفياً عنيفاً حتى فقد كل اعتبار للعقوبة فطار إلى وجه القرد، ولسعه بغضبٍ بلغ من شدته أنه عجز عن استخراج سلاحه، فأُرغم على انتزاع نفسه تاركاً إبرته في الجرح، فجرَّ على نفسه ميتةً بطيئة مصحوبةً بآلام أكبر بكثيرٍ من التي أوقعها بالقرد

خرافات
جوناثان بيزنْش
1847 - 1783

الثورة، كان سيلاسي قد رشا عديدين من حلفاء غوغاس الرئيسيين كي يتغيبوا عن المعركة. وحالما بدأ الجيش المتمرد بالزحف جنوباً، حلقت فوقه طائرات ألقت منشورات تعلن أن أعلى المسؤولين في الكنيسة قد اعترفوا بسيلاسي باعتباره القائد المسيحي الحقيقي لإثيوبيا، وأنهم قد حرموا غوغاس، لأنه يثير حرباً أهلية، وأدت هذه المنشورات إلى ثلم حدة العواطف المثارة وراء هذه الحملة الصليبية المقدسة ثلماً شديداً. وبينما لاحت المعركة في الأفق لم يظهر الدعم الذي كان حلفاء غوغاس قد وعدوه به، فبدأ الجنود بالهرب أو الارتداد.

وعندما جاءت المعركة، انهار الجيش المتمرد بسرعة. ورفض راس غوغاس أن يستسلم، فقُتِلَ أثناء القتال. أما الإمبراطورة فقد أذهلها موت زوجها وأصابها باضطراب شديدٍ، فماتت بعد بضعة أيام. وفي 30 نيسان/ أبريل أصدر سيلاسي بلاغاً رسمياً يعلن فيه لقبه الجديد: إمبراطور إثيوبيا.

التفسير

كان هيلا سيلاسي دائماً يرى عدة تحركات مسبقاً. فكان يعرف أنه إذا ترك راس غوغاس يقرر زمان الثورة ومكانها، فإن الخطر سيكون أعظم بكثير مما لو أرغمه على أن يتصرف وفق شروط سيلاسي. وهكذا فقد حثه على التمرد بإهانة كبرياء رجولته، إذْ طلب منه أن يقاتل أناساً لا شجار له معهم، ونيابةً عن رجل يكرهه. وقد فكر سيلاسي سلفاً بكل شيء فضمن أن تمرد غوغاس لن يؤدي إلى شيء، وأنه سوف يستخدم هذا التمرد ليقضي على آخر عدوين له.

وهذا هو جوهر القانون. فعندما تكون المياه ساكنة، فإن خصومك لديهم الوقت والمجال كي يخططوا الأعمال يكونون هم المبادرين إليها والمتحكمين بها. وهكذا فإن عليك أن تعكر المياه، وترغم الأسماك على الطفوّ على السطح. اجعل خصومك يتصرفون قبل أن يكونوا جاهزين، واسرق منهم زمام المبادرة. وأفضل طريقة لعمل ذلك هي

استغلال العواطف الخارجة عن السيطرة، كالكبرياء، والغرور، والحب، والكراهية. فما أن تتعكر المياه حتى تعجز الأسماك الصغيرة عن مقاومة الصعود نحو الطعم. وكلما زاد غضب خصومك قلّت قدرتهم على التحكم، وأخيراً يقعون في الدوّامة التي أثرتها، ويغرقون.

على العاهل أن لا يجرّد جيشاً بسبب الغضب. فالقائد يجب أن لا يبدأ حرباً انطلاقاً من الغيظ

(صُونْ تْزُو، القرن الرابع ق .م).

كاهن الحفرة الأكبر

كان كَيْنْيُو موظفاً من المرتبة الثانية، وكان له أخ يدعى الكاهن الأكبر ريوغاكو، وكان رجلاً سيّىء الطباع للغاية. وكانت بجوار ديره شجرة قُرّاص، مما جعل الناس يعطونه اسمَ تعريف كلقبٍ، وهو: «كاهن القُرّاص الأكبر»، فقال الكاهن الأكبر إن هذا الاسم مثير للسخط، فقطع الشجرة. وبما أنه أبقى أصل الجذع، فقد راح الناس يشيرون إليه بلقب «كاهن الجذع الأكبر». فثارت ثائرته أكثر من ذي قبل، وأمر باستئصال باقي الجذع ورميه بعيداً. غير أن ذلك ترك حفرة كبيرة فراح الناس يسمونه «كاهن الحفرة الأكبر».

مقالات في التبطُّل
كينكو، اليابان
القرن الرابع عشر

مفاتيح السلطة

ينتهي الأمر بالغاضبين إلى أن يظهروا سخفاء، لأن ردود أفعالهم تبدو غير متناسبة مع ما سبَّبها. فقد أخذوا الأشياء على محمل الجدّ بشكل مفرط، وبالغوا في الآلام أو الإهانات التي لحقت بهم. وهم حساسون للاستخفاف بحيث يصبح من المضحك مدى أخذهم الأشياء على محمل شخصي. والأكثر مدعاة للهزل اعتقادهم بأن انفجاراتهم ترمز إلى علامة على العجز. فربما خاف الناس مؤقتاً من نوابات غضبك، ولكنهم في آخر الأمر يفقدون احترامهم لك. كما أنهم يدركون أنهم يستطيعون بسهولة أن يضعفوا مكانة شخص لا قدرة له على ضبط نفسه.

غير أن الجواب ليس في كبت استجاباتنا الغاضبة أو العاطفية. لأن الكبت يُنْضِبُ طاقتنا ويدفعنا إلى سلوك غريب. وعلينا بدلاً من ذلك أن نغير زاوية نظرنا: علينا أن ندرك أنه لا يوجد شيء شخصي في المملكة الاجتماعية، وفي لعبة السلطة.

إن كل شخص تمسك بتلابيبه سلسلة من الأحداث تسبق اللحظة الراهنة بزمن طويل. وكثيراً ما ينبع غضبنا من مشاكل في طفولتنا ومن مشاكل والدينا الذين تنبع مشاكلهم بدورها من طفولتهم، وهكذا وهكذا. كما أن لغضبنا جذوراً في التفاعلات الكثيرة مع الآخرين، في خيبات

الأمل المتراكمة وأوجاع القلب التي عانيناها. وكثيراً ما يظهر شخص واحد كأنه هو محرض غضبنا، ولكن الأمر أعقد بكثير، ويتجاوز ما فعله ذلك الشخص بنا. فإذا انفجر عليك شخصٌ بغضبه (وَبَدا أن غضبه لا يتناسب مع ما فعلته به)، فعليك أن تذكّر نفسك بأن غضبه ليس موجهاً إليك حصراً ـ فلا تكن مغروراً إلى هذا الحدّ. إذ أن سبب غضبه أكبر بكثير، ويعود إلى زمن أبعد، وينطوي على عشرات من الجراح السابقة، وهو في الواقع غير جدير بأن تهتم بفهمه. وبدلاً من أن تراه كحقد شخصيّ، انظر إلى الانفجارات العاطفية كحركات مموهة لاكتساب السلطة، كمحاولة للسيطرة عليك أو معاقبتك ترتدي ثياب المشاعر المجروحة والغضب.

وهذا التحول في زاوية النظر سيتيح لك أن تمارس لعبة السلطة بوضوح أكثر وطاقة أكبر. وبدلاً من الإفراط في رد الفعل والوقوع في شبكة عواطف الناس، فإنك ستحوّل فقدانهم السيطرة لصالحك. فتحتفظ أنت برأسك (اتزانك) بينما يفقدون رؤوسهم.

أثناء إحدى المعارك الهامة في حرب الممالك الثلاث في القرن الثالث الميلادي، اكتشف مستشارو القائد تسآو تسآو وثائق تبين أن بعض جنرالاته العاملين تحت إمرته قد تآمروا مع العدو. وحثوه على القبض عليهم وإعدامهم. وفي تلك اللحظة الحرجة من المعركة كان الانزعاج والمطالبة بالعدالة سينعكسان ضده. وكان أي عمل غاضب سيلفت الانتباه إلى عدم ولاء الجنرالات، وكان هذا بدوره سيؤذي الروح المعنوية للقوات. فاحتفظ تسآو تسآو برزانته واتخذ القرار الصحيح.

قارن ذلك مع رد فعل نابليون على تاليران. فبدلاً من أخذ المؤامرة على محمل شخصي، كان على الإمبراطور أن يمارس اللعبة على طريقة تسآو تسآو، فيزن عواقب أي إجراء يتخذه وزناً دقيقاً. ولقد كان رد الفعل الأقوى، في آخر الأمر، هو تجاهل تاليران، أو إعادة الوزير تدريجياً إلى جانبه، ثم معاقبته بعد ذلك.

إن الغضب لا يفعل سوى تخفيض خياراتنا. وذوو السلطة الأقوياء لا يستطيعون الانتعاش بدون خيارات. فعندما تدرب نفسك على عدم أخذ القضايا على محمل شخصي، وعلى التحكم بردود فعلك العاطفية، فإنك تكون قد وضعت نفسك في مركز سلطة هائلة: وعندئذ تستطيع أن تستغل ردود الفعل العاطفية للناس الآخرين. حرّض الأشخاص غير الآمنين على العمل بالطعن في رجولتهم، والإدلاء باحتمال نصر سهلٍ أمام وجوههم. وافعل كما فعل هوديني عندما تحداه كليبّيني، فنان الإفلات الأقل نجاحاً منه. اكشف لخصمك ضعفاً ظاهراً (فهوديني ترك كليبيني يسرق التركيبة السرية لكلمة الشيفرة لزوج من القيود) كي تستدرج خصمك إلى القيام بعملٍ مّا. وعندئذ تستطيع التغلب عليه بسهولة. ومع المتغطرسين أيضاً تستطيع أن تظهر أضعف مما أنت في الحقيقة، فتستفزّهم للقيام بعمل متهوّر.

فقد قام صُنْ بِينْ، قائد جيوش شْئِي، والتابع المخلص لصُونْ تزُو، بقيادة قواته ضد جيوش وَيْ التي كانت تفوقه عددياً بنسبة اثنين إلى واحد. فاقترح صُنْ بينْ: «دعونا نوقد مائة ألف نار عند دخول جيشنا إلى وَيْ، وخمسين ألف نار في اليوم التالي، وثلاثين ألفاً فقط في اليوم الثالث». وفي اليوم الثالث هتف جنرال جيش وَيْ: «كنت أعلم أن أفراد جيش شْئِي جبناء، وها هم أولاء بعد ثلاثة أيام وقد هرب أكثر من نصفهم!». وهكذا، ترك الجنرال وراءه قوات مشاته الثقيلة البطيئة الحركة، وقرر استغلال تلك اللحظة ليتحرك بسرعة ضد معسكر شْئِيْ بقوة خفيفة التسليح. فتراجعت قوات صُنْ بِينْ، مستدرجةً جيش وَيْ إلى مَمَرٍّ ضَيِّق، حيث أوقعوهم في كمين ودمّروهم. ومع موت جنرال وَيْ وتمزق قواته شذر مذر، قام صُنْ بِينْ بدحر باقي جيشه بسهولة.

وأخيراً، ففي مواجهة عدوّ حامي الرأس يكون الرد الأفضل هو عدم الردّ. اتبع تكتيك تاليران: فلا شيء يثير الغيظ أكثر من رجل يحافظ على برودته بينما الآخرون يفقدون برودتهم. فإذا كان من المفيد

لمصلحتك أن تزعزع الناس، فتصنعْ موقف الأرستقراطي الذي يشعر بالسأم، غير ساخر ولا منتصر، ولكن ـ ببساطة ـ غير مبالٍ. فهذا سيشعل فتيلهم. وعندما يُخْرِجُون أنفُسَهم بعاصفة في مزاجهم، ستكون قد فزت بعدة انتصارات، أحدها أنك في مواجهة طفولتهم، احتفظت بكرامتك ووقارك ورصانتك.

صورة: بركة السمك ـ المياه رائقة
وهادئة. والاسماك تحت السطح بمسافة. حرّك
المياه وعكِّرها فتبرز الاسماك. زِدْ في تعكيرها وسوف تغضب،
صاعدة إلى السطح لتعضّ أي شيء يقترب منها، بما فيها
الصنارة المتصل بها طعم طازج.

الشاهد: إذا كان خصمك حامي الطبع، فحاول أن تزعجه. وإذا كان متغطرساً، فحاول أن تشجع انانيته... إن الشخص البارع في جعل العدو يتحرك، يفعل ذلك بخلق وضعٍ يجعل العدو يتحرك بموجبه؛ فيغوي العدو بشيء من المؤكد أن يأخذه العدو. ويبقي العدو متحركاً عن طريق التلويح له بطعم، ومن ثم مهاجمته بقوات منتقاة.

(صُونْ تْزُو، القرن الرابع قبل الميلاد)

الانقلاب

عند اللعب بعواطف الناس، عليك أن تكون حريصاً. ادرس العدو سلفاً: فبعض الأسماك من الأفضل أن تبقى في قاع البركة.

كان قادة مدينة صور، عاصمة فينيقية يشعرون بأنهم قادرون على الصمود في وجه الإسكندر الأكبر الذي غزا الشرق، ولم يكن قد هاجم

مدينتهم، التي كانت محمية جيداً على واجهة الماء. فأرسلوا سفراء إلى الإسكندر، قائلين إنهم رغم اعترافهم به إمبراطوراً لن يسمحوا له أو لقواته بالدخول إلى صور. فأغضبه ذلك بالطبع. ففرض على المدينة حصاراً في الحال. وصمدت المدينة طيلة أربعة أشهر. وأخيراً قرر أن الصراع ليس جديراً بالتعب، وأنه سيتصالح مع الصوريين. ولكنهم شعروا بأنهم قد ضايقوا الإسكندر ونجوا بفعلتهم، وبأنهم قادرون على الصمود أمامه، فرفضوا التفاوض ـ بل لقد قتلوا رسله.

فأدى ذلك إلى دفع الإسكندر فوق الحافة. فلم يعد يهمه مدى تطاول الحصار، وضخامة الجيش الذي يحتاج إليه؛ فقد كانت لديه الموارد، فقرر أن يفعل كل ما يتطلبه الأمر، وشن هجومه بشدة بحيث استولى على المدينة في غضون أيام. فأحرقها حتى مسح بها الأرض وباع أهلها عبيداً.

تستطيع أن تضايق ذوي السلطة الأقوياء، وتقدم لهم طعماً، لتجعلهم يزجّون بقواتهم، أو يقسمونها، كما فعل صُنْ بِنْ. ولكن اختبر المياه أولاً. اعثر على الفجوة في قوتهم. فإن لم تكن هناك فجوة ـ وإن كانوا أقوياء إلى حد المستحيل ـ فليس لديك ما تكسبه، بل لديك كل ما تخسره من استفزازهم.

وأخيراً، فإن هناك أوقاتاً يمكن فيها لانفجار غاضب جيد التوقيت أن يكون مفيداً لك، ولكن غضبك ينبغي أن يكون مصنوعاً وتحت سيطرتك. وعندئذ تستطيع أن تقرر بالضبط كيف وعلى من سيقع. فلا تثر ردّ فعلٍ يعمل ضدك في المدى الطويل. واستخدم صواعقك الرعدية بصورة نادرة، لجعلها أكثر إخافة وامتلاءاً بالمعنى. وسواء أكانت انفجاراتك مرتبة بصورة متعمدة أم لا، فإنها إذا تواترت بصورة مفرطة، ستفقد قوتها.

القانون

40

احتقر
الغداء المجاني

الحكم

إن ما يعرض مجاناً فيه خطورة. فهو في العادة إما أن ينطوي على خديعة، أو على التزام خفيّ. فما له قيمة جدير بأن يدفع ثمنه. فبدفع الأثمان تظل متحرراً من العرفان، ومن الذنب، ومن الخديعة. وكثيراً ما يكون من الحكمة أن تدفع الثمن كاملاً ـ فليس هناك حسميات مع الامتياز. كُنْ سخياً بما لك وأَبْقِهِ متداولاً، لأن السخاء علامة السلطة ومغناطيس لها.

المال والسلطة

في مملكة السلطة، ينبغي الحكم على كل شيء بحسب كلفته. وما يُعْرَضُ مجاناً أو بسعر صفقات مخفض كثيراً ما يأتي ومعه فاتورة سعر نفسي - مشاعر معقدة من الالتزام، وتنازلات عن النوعية، وانعدام الأمن الذي تأتي به تلك التنازلات، وهكذا وهكذا. ويتعلم ذوو السلطة الأقوياء، منذ وقت مبكر حماية أثمن مواردهم؛ واستقلالهم؛ وإفساح المجال لمناوراتهم. وبدفع الثمن كاملاً يبقون أنفسهم متحررين من الاشتباكات الخطرة وأنواع القلق.

كما أن الانفتاح والمرونة في التعامل مع المال يعلّمان قيمةَ الكرم الاستراتيجي، وهو تنويع على الخدعة القديمة: «أعطِ عندما تكون على وشك الأخذ». فبإعطاء الهدية المناسبة، فإنك تضع التزاماً على كاهل المتلقي. إذ أن الكرم يليّن مواقف الناس، كي يتم خداعهم. وبالحصول على سمعة السخاء تكسب إعجاب الناس، بينما أنت تلهيهم عن ألعاب السلطة التي تمارسها. وبنشر ثروتك بطريقة استراتيجية فإنك تسحر رجال الحاشية الآخرين، فتخلق المسرّة وتكسب حلفاء قيّمين.

وانظر إلى أرباب السلطة أمثال القياصرة، والملكة آليصالبات (آليزابيث الأولى)، ومايكل آنجيلو، وآل مديتشي: فليس بينهم بخيل. وحتى فنانو الاحتيال ينفقون المال بحرية كي يبتزوا ويخدعوا. فخيوط الكيس المشدودة ليست جذابة - فعندما كان كازانوفا ينهمك في عملية

الكنز الدفين

كثير من ضعاف العقول في المدن يأملون أن يكتشفوا ممتلكات تحت سطح الأرض، وأن يحققوا منها شيئاً من الربح. وفي المغرب كثير من «الطلبة» البربر غير القادرين على تدبير أمور معيشتهم بالطرق والوسائل الطبيعية. فيذهبون إلى الأغنياء بأوراق تمزقت حواشيها وهي تحتوي إمّا على كتابةٍ غير عربية أو ما يزعمون أنه ترجمة لوثيقةٍ كتبها صاحبُ كَنْزٍ دفين، وفيها دليل على مكان إخفائه. وبهذه الطريقة يحاولون الحصول على ما يقيهم أودهم من خلال [إقناع الأثرياء] بإرسالهم للتنقيب عن الكنز واستخراجه. وفي بعض الأحيان يعرض أحد صيادي الكنوز هؤلاء معلوماتٍ غريبةً أو خدعةً من السحر لافتةً للنظر يخدع بها الناس بجعلهم يصدّقون مزاعمه الأخرى، رغم أنه في الحقيقة لا يعرف شيئاً عن السحر وإجراءاته... إن الأشياء التي تبلت عن

إغواء كان يعطي بسخاء كامل، ليس من نفسه فحسب، بل من محفظة نقوده أيضاً. ويفهم ذوو السلطة الأقوياء أن المال مشحون نفسياً، وأنه أيضاً وسيلة تهذيب وتواصل اجتماعي. وهم يجعلون الجانب الإنساني من المال سلاحاً في ترسانتهم.

وفي مقابل كل شخص قادر على اللعب بالمال، هناك أُلوف من المنغلقين في رفض مدمّر للذات لاستخدام المال بطرق خلاقة واستراتيجية. وهذه الأنواع تقدم القطب المعاكس لذوي السلطة، وعليك أن تتعلم كيف تتعرف عليهم ـ إما لتجنب طبيعتهم السامة، أو لتحويل عدم مرونتهم لصالحك.

[اكتشاف الكنوز] ليس لها أساس علمي، وهي لا تقوم على معلومات [حقيقية]. فيجب الإدراك بأنه رغم العثور على كنوز فإن هذا لا يحدث إلاّ نادراً، وبالصدفة، وليس بالبحث المنهجي المنظّم... وأولئك المخدوعون أو المتأثرون بهذه الأشياء عليهم أن يعوذوا بالله من عجزهم عن تدبير معيشتهم ومن كسلهم في هذا الصدد. وينبغي عليهم ألاّ يشغلوا أنفسهم بالخزعبلات والقصص غير الصحيحة.

المقدمة
ابن خلدون،
1332 ـ 1406

الأسماك الجشعة: تنزع الأسماكُ الجشعةُ الجانبَ الإنسانيَّ من المال. فهي باردة وبلا رحمة، ولا ترى سوى كشف الميزانية الذي لا حياة فيه، ولا ترى الآخرين إلاًّ كبيادق أو كعقبات في طريق ملاحقتها للثروة. وهي تدوس عواطف البشر وتنفّر الحلفاء الهامّين. ولا أحد يحب الاشتغال مع الأسماك الجشعة، ومع مرور السنين، ينتهي بها الأمر إلى العزلة التي كثيراً ما تثبت أنها نهايتها.

والأسماك الجشعة هي الغذاء الذي يقتات عليه فنانو النصب والاحتيال. فهي تُغْرَى بطُعْمِ المال السهل، فتبتلع صنارة الخديعة. فهي سهلة الانخداع، فهي تُمضي وقتاً طويلاً في التعامل مع الأرقام (وليس مع الناس) إلى درجةٍ تعميها عن علم النفس، بما فيه أنفسها. فإمّا أن تتجنبَ هذه الأسماكَ الجشعةَ قبل أن تستغلك، أو أن تستغلَّ أنت جشَعَها لصالح كَسْبِك.

شياطين الصفقات: إن ذوي السلطة الأقوياء يحكمون على كل شيء بحسب كلفته، ليس من المال فقط بل كذلك من الوقت، والكرامة، وهدوء البال. وهذا بالضبط ما لا يستطيع أن يفعله شياطين الصفقات. فهم يهدرون وقتاً ثميناً في البحث عن صفقات، ويقلقون قلقاً لا ينتهي حول ما كان من الممكن أن يحصلوا عليه في مكان آخر بسعر

أرخص قليلاً. وفوق ذلك فإن المادة التي يشترونها فعلاً في صفقتهم كثيراً ما تكون رديئة النوع؛ وقد تحتاج إلى إصلاحات باهظة الكلفة، أو يضطر المرء إلى تبديلها بسرعة تبلغ ضعف سرعة الحاجة إلى تبديل المادة الجيدة النوع. إن كلفة هذه الملاحقات ـ ليس بالمال دائماً (رغم أن أسعار الصفقات كثيراً ما تكون خداعة)، بل بالوقت وهدوء البال ـ تثبط الناس عن الاضطلاع بها. أما بالنسبة لشياطين الصفقات فإن الصفقة غاية في حد ذاتها.

وربما تبدو هذه النماذج مؤذية لنفسها فقط؛ ولكن مواقفها معدية. وما لم تقاومها فإنها ستعديك بالشعور بعدم الأمان، وبأنه كان ينبغي عليك البحث بجهد أكبر عن سعر أرخص. فلا تجادلهم ولا تحاول تغييرهم. فقط إجمع في ذهنك الكلفة في الوقت، وهدوء البال الداخلي، إن لم يكن في النفقة المالية الخفية للمطاردة غير العقلانية للصفقات.

السّادي: يُمارس الساديّون الماليّون ألعاباً للسلطة شريرة ضارية، مستخدمين المال كطريقة لتوكيد سلطتهم. وعلى سبيل المثال، فقد يجعلونك تنتظر المال الذي لك في ذمتهم فيعدونك بأن الصك في طريقه إليك بالبريد. أو أنهم إذا استأجروك لتعمل لهم، يتدخلون في كل جانب من جوانب المهمة، فيساومون ويسببون لك قرحات. ويعتقد الساديون أن دفعهم ثمن شيءٍ مّا يعطيهم الحق في تعذيب البائع وإساءة معاملته. فليس لديهم شعور بعنصر رجل الحاشية في المال. فإن شاء لك سوء الطالع أن تتورط في التعامل مع هذا النوع، فإن قبول خسارة مالية قد يكون أفضل في الأجل البعيد من الوقوع في تشابكات ألعاب السلطة المدمرة التي يمارسونها.

المعطي بلا تمييز: للسخاء وظيفة محددة في السلطة. فهو يجتذب الناس، ويليّن مواقفهم، ويجعل منهم حلفاء. ولكنه يجب أن يُسْتَخْدَمَ بطريقة استراتيجية، مع وجود غاية محددة في الذهن. ومن جهة أخرى،

البخيل

باع بخيلٌ كلَّ ممتلكاته كي يضمن بقاءها وحوّلها إلى كتلة كبيرة من الذهب، خبأها في حفرة في الأرض، وراح يزورها باستمرار للتفتيش عليها. فأثار هذا فضول واحدٍ من عماله، فارتاب بأن هناك كنزاً. وعندما أدار سيده ظهره، ذهب إلى تلك البقعة وسرق ما كان فيها. وعندما عاد البخيل ورأى المكان فارغاً، بكى ومزّق شعره. ولكن جاراً له رآه في هذه الحالة من الحزن الكبير وعلم سببه قال: «توقّف عن إقلاق نفسك، وخذ حجراً وضعه في المكان نفسه، وفكّر في أن هذه هي كتلتك الذهبية؛ فبما أنك لم تكن

فإن المعطين بلا تمييز هم كرام لأنهم يريدون أن يحبهم الجميع ويعجبوا بهم. وسخاؤهم بلا تمييز ولا هدف محدد بحيث أنه قد لا يحقق الأثر المنشود. فإذا كانوا يعطون للجميع، فلماذا يشعر المتلقي بأن له أي خصوصية؟ وقد يكون من المغري أن تجعل نفسك بارزاً كمعطٍ بلا تمييز، ولكنك في أي علاقة من هذا النوع كثيراً ما تجد نفسك مُثْقلاً بأعباء احتياجاتهم العاطفية التي لا تشبع.

تقصد أن تستخدمها، فإن أي واحدة من الكتلتين ستنفعك كما نفعتك الأخرى».
إن قيمة المال ليست في حيازته، بل في استخدامه
خرافات
إيسوب، القرن السادس ق. م

انتهاكات القانون

الانتهاك الأول

بعد أن قام فرانشيسكو بيزارو بغزو بيرو، في سنة 1532، بدأ الذهب من إمبراطورية الإنكا يصب في إسبانيا، وأخذ الإسبان من كل الطبقات يحلمون بالثراء الفوري الذي يمكن الحصول عليه في الدنيا الجديدة. وسرعان ما انتشرت قصة زعيم هندي في شرق بيرو كان يغطي جسده بطريقة طقوسية بتراب الذهب مرة في كل سنة ثم يغطس في بحيرة. وسرعان ما حوّلت الإشاعاتُ الشَّفَهِيَّةُ عبارةَ إلْ دورادو «الرجل الذهبي» إلى إمبراطورية تدعى إلْ دورادو، أغنى من الإنكا، حيث الشوارع معبدة بالذهب، والمباني مرصعة بالذهب. وهذا تحوير في القصة لم يبدُ عليه أنه غير مفهوم، لأن زعيماً قادراً على تحمل تضييع تراب الذهب في بحيرة، لا بدّ أنّه يحكم إمبراطورية ذهبية بالتأكيد. وسرعان ما انتشر الإسبان الباحثون عن إلْ دورادو في جميع أنحاء شمال أميركا اللاتينية. وفي شهر شباط/ فبراير سنة 1541، غادرت كيتو، في إكوادور، أكبر حملة حتى ذلك الحين في هذا المشروع، بقيادة غونزالو شقيق بيزارو. فاتجه إلى الشرق ثلاثمائة وأربعون إسبانياً، بدروعهم اللامعة، وحريرهم الملون، مصطحبين أربعة آلاف هندي لحمل مؤنهم وللعمل ككشافة، وأربعة آلاف خنزير، وعشرات من حيوان اللاّما، وحوالى ألف كلب. ولكن الحملة سرعان ما تعرضت لأمطار كالسيول، جعلت اعتدتها تتعفن وطعامها يفسد. وفي تلك الأثناء، بينما راح

هناك قول شعبي شائع في اليابان مؤداه: «لا شيء أبهظ كلفة من شيء يُعْطَى مجاناً».
الطريقة غير المنطوقة
ميشيهيرو ماتسوموتو، 1988

غونزالو شقيق بيزارو، يستجوب الهنود الذين عثروا عليهم في الطريق، فإن أولئك الذين شكّ في أنهم يحجبون عنه المعلومات، أو الذين لم يكونوا حتى قد سمعوا بالمملكة الخرافية، كان يعذبهم ويطعمهم للكلاب. فانتشر الخبر بسرعة بين الهنود عن كون الإسبانِ قتلةً، فأدركوا أن الطريقة الوحيدة لتجنب غضب غونزالو هي تلفيق القصص له عن إلْ دورادو وإرساله إلى أبعد مكان ممكن. ولذا، فبينما راح غونزالو ورجاله يتابعون الأدلة الملفقة المعطاة لهم، كانوا يُسْتَدرجون أبعد فأبعد إلى أعماق الغابة.

فهبطت وارتخت روح المستكشفين المعنوية. وتمزقت أزياؤهم إلى أسمال؛ وصدئت دروعهم، فرموا بها بعيداً؛ وتقطعت أحذيتهم فاضطروا للسير حفاة. أما العبيد الذين اصطحبوهم في بداية الرحلة فإما أنهم ماتوا، أو هجروهم؛ ولم يأكلوا خنازيرهم فحسب، بل كذلك كلاب الصيد وحيوانات اللاّما، وراحوا يعيشون على الجذور والفواكه. وإذْ أدرك غونزالو أنهم غير قادرين على الاستمرار على هذا النحو، فقد قرر أن يغامر بالسفر عن طريق النهر. فبنى مركباً كبيراً من الخشب المتعفن. ولكن الرحلة عبر نهر نابو الغَدَّار أثبتت أنها ليست أسهل من سفر البرّ. فأقام غونزالو معسكره على ضفة النهر، وأرسل كشافةً يسبقونه على المركب ليعثروا له على مستوطنات هندية فيها طعام. وانتظر الكشافةَ حتى يعودوا، ليكتشف أنهم قرروا أن يهجروا الحملة، ويستمروا مع مجرى النهر وحدهم.

واستمر المطر بلا انتهاء. ونسي رجال غونزالو كل شيء عن إلْ دورادو؛ وصار كلّ ما يريدونه هو العودة إلى كيتو فقط. وأخيراً، في شهر آب/ أغسطس سنة 1542، استطاع مائة رجل ونيّف أن يتدبروا طريقهم عائدين، من أصل حملة كانت تعد بالألوف. وقد بَدَوْا لأهالي كيتو كأنهم قد خرجوا للتوّ من جهنم نفسها، ملفوفين بالأسمال والجلود، وقد غطت أجسادَهم القُرُوحُ، وبلغ بهم الهزال حداً جعل

المال

كان يوسف بن جعفر العامودي يأخذ مبالغ من المال، وكانت كبيرةً جداً أحياناً، من الذين كانوا يأتون للدراسة عنده. وذات يوم قال له قانوني كان في زيارة له: «إن تعليمك يسحرني ويثير إعجابي. وإني لمتأكد أنك توجّه تلاميذك بطريقة لائقة. ولكن ليس مما يتناسب والتقاليد أخذ المال كثمن للمعرفة. وعلاوة على ذلك، فإن هذا العمل عرضة لسوء الفهم». فقال العامودي: «لم أبع أي معلومات قطّ. إذ ليس على وجه الأرض مالٌ يكفي ثمناً للمعرفة. فالامتناع عن أخذ المال لن يمنع سوء التفسير، لأن سوء التفسير سيجد هدفاً آخر. ومن الأفضل أن تعرف أن الرجل الذي يأخذ المال قد يكون طامعاً فيه، وقد لا يكون. ولكن الرجل الذي لا يأخذ شيئاً على الإطلاق معرّض لأفدح شكٍ في أنه يسرق روح تلميذه فالناس الذين يقول أحدهم: «أنا لا آخذ شيئاً» قد يتضح أنهم قد سرقوا إرادة ضحيتهم».

مسار الأَدَمَة

إدريس شاه، 1970

التعرف عليهم مستحيلاً. فقد ظلوا يزحفون أكثر من سنة ونصف سنة في دائرة هائلة على مدى ألفي ميل سيراً على الأقدام. ولم تعطِ المبالغ الضخمة التي اَسْتُثْمِرَتْ في الحملة أيَّ مردود ـ فلم تكن هناك إشارة على إلْ دورادو ولا إشارة تدل على الذهب.

التفسير

وحتى بعد كارثة غونزالو، شنّ الإسبان، حملة بعد حملة، بحثاً عن إلْ دورادو. ومثل بيزارو، كان الغزاة يحرقون القرى وينهبونها، ويعذبون الهنود، ويتحملون مشاقَّ يستحيل تصورها، دون أن يقتربوا من الذهب. ولا يمكن حساب الأموال التي صرفت على مثل تلك الحملات؛ ومع ذلك ورغم عدم جدوى البحث، فقد ظل إغراء الخيال موجوداً.

ولم يقتصر أثر البحث على أنه كلف حياة الملايين، من الهنود والإسبان على حد سواء ـ بل لقد ساعد على دمار الإمبراطورية الإسبانية وخرابها. فقد صار الذهب هاجساً سيطر على إسبانيا. أما الذهب الذي وجد طريقه إليها فعلاً ـ وكان كثيراً ـ فقد أعيد استثماره في المزيد من الحملات، أو في شراء الكماليات الباذخة، بدلاً من الزراعة أو أي جهد منتجٍ آخر. وفرغت مدن إسبانية بكاملها من رجالها الذين انطلقوا للبحث عن الذهب. وخربت المزارع. ولم يعد الجيش يجد مجندين لحروبه الأوروبية. وعند حلول نهاية القرن السابع عشر، كان عدد سكان البلد بكامله قد تقلص إلى النصف. وكان عدد سكان مدينة مدريد أربعمائة ألف، فانخفض إلى مائة وخمسين ألفاً. وبتناقص عائدات جهودها على امتداد كل تلك السنين سقطت إسبانيا في انحطاط لم تستيقظ منه على الإطلاق.

وتتطلب السلطة ضبطاً منتظماً للنفس. ذلك أن احتمالات هبوط الثروة، ولا سيما الثروة السهلة والمفاجئة، تُحْدِثُ فوضى ودماراً في العواطف. ويعتقد الذين يُثْرون فجأة أن المزيد من الثراء ممكن على

الدوام. فالغداء المجاني، أي المال الذي سيسقط في حضنك، هو خلف المنعطف مباشرة.

وفي هذا الوهم يهمل الجشعون كل شيء تعتمد عليه السلطة في الحقيقة: ضبط النفس، وحسن نوايا الآخرين، وما إلى ذلك. **فافهم**: ليس هناك تغير دائم في الحظ يأتي بسرعة، باستثناء شيء واحد، هو الموت. فالثروة المفاجئة نادراً ما تدوم، لأنها لا تقوم على أي شيء صلب. فإياك أن تدع شهوتك إلى المال تغريك بالخروج من قلعة سلطتك الحقيقية المستديمة والحامية لك. اجعل السلطة هدفك وعندئذٍ سيجد المال طريقه إليك. واترك إلْ دورادو للمغفلين والحمقى.

الانتهاك الثاني

في أوائل القرن الثامن عشر، لم تكن لأحد مكانةٌ في المجتمع الإنكليزي تعلو على مكانة دوق ودوقة مارلبورو. كان الدوق قد قاد حملات ناجحة ضد الفرنسيين، فصار يُعْتَبَرُ الجنرالَ والاستراتيجيَّ الأول في أوروبا. وكانت زوجته الدوقة، بعد مناورات كثيرة، قد ثبَّتت مكانتها باعتبارها صاحبة الحظوة لدى الملكة آن، التي صارت حاكمة لإنكلترا سنة 1702. وفي سنة 1704، إدَّى انتصار الدوق في معركة بلينهايم، إلى جعله موضعَ الحفاوة الشعبية في إنكلترا. ولمكافأته منحته الملكةُ قطعةَ أرض واسعة في مدينة وودستوك، وأموالاً لبناء قصر عظيم هناك. فأطلق الدوق على بيته المخطط هذا اسم «قصر بلينهايم»، وانتقى له مهندساً معمارياً هو الشاب جون فانبره، الموسوعي المعرفة كرجال عصر النهضة. فقد كان يكتب المسرحيات، ويصمِّم المباني كذلك. وهكذا بدأ عملية الإنشاء في صيف سنة 1705، بكثير من الضجيج والآمال الكبيرة.

وكان في إحساس فانبره المعماري شيء من الدراما. فأراد أن يكون القصر نصباً لألمعية مارلبورو وسلطته، يحتوي على بحيراتٍ اصطناعية، وجسورٍ هائلة، وحدائق مدروسةٍ بإتقان، ولمساتٍ خيالية

الرجل الذي أحبَّ المال أكثر من الحياة

كان في قديم الزمان حطّاب عجوز يذهب إلى الجبل كل يوم تقريباً ليحتطب. ويقال إن هذا الرجل كان بخيلاً يختزن فضّته حتى تتحوّل إلى ذهب، وإنه كان يهتم بالذهب أكثر من اهتمامه بأي شيء آخر في العالم.

وذات يوم انقضّ عليه نمر في البرّية، ورغم أنه ركض فإنه لم يستطع، فحمله النمر في فمه. ورأى ابن الحطاب الخطر الذي وقع فيه أبوه، فركض لينقذه إن كان ذلك ممكناً وحمل معه ساطوراً. وبما أنه كان قادراً على الجري أسرع من النمر الذي كان يحمل رجلاً، فسرعان ما لحق به وسبقه. ولم يكن أبوه متأذياً كثيراً لأن النمر كان يمسك به من ملابسه. وعندما رأى الحطاب العجوز أن ابنه على وشك طعن النمر ناداه بفزع شديد: «لا تتلف جلد النمر! فإن كنتَ تستطيع قتله دون إحداث ثقوب في جلده، فإننا نقدر أن نحصل على قطع فضّية كثيرة كثمن له. اقتله، ولكن لا تقطع جسده!»

أخرى غريبة. غير أنه اتضح من اليوم الأول، أنه ليس هناك ما يمكن أن يرضي الدوقة. كانت تعتقد أن فانبره يهدر المال على مجموعة أخرى من الأشجار؛ وكانت تريد أن ينتهي بناء القصر في أسرع وقت ممكن. فقامت بتعذيب فانبره ورجاله العاملين حول كل التفاصيل. واستهلكتها وأرهقتها القضايا الصغيرة التافهة؛ ورغم أن الحكومة كانت هي التي تدفع نفقات بناء قصر بلينهايم، فإن الدوقة راحت تحسب كل بنس. وفي آخر الأمر أدّى تذمرها حول بلينهايم والأشياء الأخرى كذلك إلى خلق هوّة لا تردم بينها وبين الملكة آن، التي طردتها من البلاط في سنة 1711، وأمرتها بإخلاء شقتها في القصر الملكي. وعندما غادرت الدوقة (وهي تستشيط غضباً على خسارة مركزها وكذلك على خسارة راتبها الملكي) أفرغت الشقة من كل شيء مثبت فيها، نزولاً إلى مقابض الأبواب البرونزية.

وبينما كان الابن يستمع إلى تعليمات أبيه، ركض النمر إلى الغابة مبتعداً على نحو مفاجيء، حاملاً معه الرجلَ العجوز إلى حيث لا يستطيع الولد اللحاق به، وسرعان ما قتله.

«خرافة صينية»
خرافات مختلفة من أماكن مختلفة
تحرير: دايان دي بريما، 1960

وعلى مدى السنوات العشر التالية، كان العمل في بلينهايم يتوقف ثم يبدأ من جديد، بينما صار الحصول على المال من الحكومة أصعب فأصعب. وأخذت الدوقة تعتقد أن فانبره عازمٌ على تدميرها. فكانت تماحك حول حمولة كل عربة من الأحجار، وكل بوشل من الكلس (البوشل مكيال يساوي 8 غالونات أو 32,5 ليتراً). وتحسب كل ياردة زائدة من سياج القضبان الحديدية أو قدم من الكسوة، وتقذف بشتائمها وتقريعها الرجال العاملين، والمقاولين والمسّاحين لتبذيرهم. وكان مارلبورو، العجوز المُتْعَب، لا يريد أكثر من أن يستقرَّ في القصر في سنواته الأخيرة. ولكن المشروع غرق في مستنقع من الدعاوى القضائية. فقد ادعى العمال على الدوقة مطالبين بأجورهم، فأقامت بدورها دعوى على المهندس المعماري على الفور. وفي وسط المشاحنات مات الدوق دون أن يمضي ليلة واحدة قطّ في «بلينهايمه» المحبوب.

وبعد موت مارلبورو، تبيَّن أنه كان صاحب أملاك شاسعة، تزيد قيمتها على مليوني جنيه استرليني، أي أكثر مما يكفي لإنهاء القصر.

ولكن الدوقة لم تَلِنْ لها قناة. واستمرَّت تحجب أجور فانبره والعمال وفي آخر الأمر طردت المعماريّ. وأكمل الرجل الذي حلَّ محلّه بناء بلينهايم في بضع سنين، متبعاً تصاميم فانبره حرفياً. وتوفي فانبره سنة 1726، ممنوعاً من دخول القصر على يد الدوقة، غير قادر على وضع قدمه في أعظم منجزاته. فقد استبق هذا القصرُ الحركةَ الرومانسية العاطفيةَ الحالمةَ التي ازدهرت في أواخر ذلك القرن، وبدأ اتجاهاً جديداً بكامله في الريازة المعمارية، ولكنه أعطى لخالقه كابوساً دام عشرين عاماً.

التفسير

كان المال عند دوقة مارلبورو أداة لممارسة لعبة ساديّة للسلطة. فكانت ترى خسارة المال رمزاً لخسارة السلطة. ومع فانبره كانت تلوّياته أعمق. فقد كان فناناً عظيماً، وكانت تحسد قدرته على الخلق، وعلى الحصول على شهرة بعيدة عن متناولها. ففكَّرت في أنها قد لا تملك مثل مواهبه ولكنها تملك المال لتعذيبه، وإساءة معاملته على أتفه التفاصيل - كي تدمِّر حياته.

غير أن هذا النوع من السَّادية يحمل ثمناً رهيباً. فقد جعلت الإنشاء الذي كان ينبغي أن يستغرق عشرة أعوام يستغرق عشرين عاماً، وسمَّمت عدة علاقات، ونفَّرت البلاط من الدوقة وأبعدتها عنه، وآلمت الدوق بعمق (وهو لم يكن يريد العيش إلاَّ في بلينهايم بسلام). وأخيراً، أيضاً، فإن للأجيال اللاحقة الكلمة الأخيرة: وهذه الأجيال تعترف بفانبره كعبقري، بينما تتذكَّر الدوقةَ إلى الأبد برخصها الشديد.

يجب على الأقوياء ذوي السلطة أن يتحلّوا بعظمة الروح - فلا يمكنهم أن يكشفوا أي سفاسف تافهة. والمال هو أكبر المجالات وضوحاً للعيان لعرض العظمة أو التفاهة. فالأفضل إذن أن يُنْفَق بسخاء، وأن يخلق للمرء سمعةً بالكرم تؤتي بدورها ثماراً مربحة في آخر الأمر. فلا تدع التفاصيل المالية تعميك عن الصورة الأكبر حول كيفية رؤية

قصة موسى وفرعون

مكتوب في تواريخ الأنبياء أن موسى أُرْسِلَ إلى فرعون بمعجزات وعجائب وكرامات كثيرة. وكانت حصّة التموين اليومية لمائدة فرعون 4000 خروف، و400 بقرة، و200 جمل، وكمية مناسبة من الدجاج، والسمك، والمشروبات، واللحوم المقليّة، والحلويات وغيرها من الأشياء. وكان كل شعب مصر وكل جيشه معتادين على الأكل على مائدته كل يوم. وظلّ يدّعي الألوهية أربعمائة عام لم يتوقف خلالها عن تقديم هذه الأطعمة. وعندما دعا موسى ربه أن يدمِّر فرعون، استجاب الله لدعائه وقال له: «سأدمِّره بالماء، وسوف أورثك وقومك ثروته وثروة جنوده». ومرَّت سنوات عديدة بعد هذا الوعد، واستمرّ فرعون، المقضيّ عليه بالدمار، يعيش في أبّهته وفخفخته. وعيلَ صبر موسى وهو يطلب من الله تدمير

الناس لك. إذْ أن غضبهم سيكلفك الكثير في المدى الطويل. وإذا كنت تريد أن تتدخل في عمل الناس الخلاَّقين المأجورين لديك، فلا أقل من أن تدفع لهم جيِّداً. فأموالك ستشتري خضوعهم أفضل من استعراض سلطتك.

حالات مراعاة القانون

الحالة الأولى

كان بيترو آريتينو، ابن الإسكافي المتواضع قد قذف نفسه كالمنجنيق إلى عالم الشهرة ككاتب أشعار ساخرة عضوضة. ولكنه مثل كل فنان في عصر النهضة كان بحاجة إلى العثور على راعٍ يمنحه طرازاً من الحياة مريحاً دون أن يتدخل في عمله. وفي سنة 1528، قرر آريتينو أن يجرِّب استراتيجية جديدة في لعبة الراعي. فغادر روما، واستقرَّ في البندقية، حيث لم يكن قد سمع به إلاَّ قليلون. وكانت لديه كمية لا بأس بها من المال استطاع أن يوفِّرها، ولكن لم يكن معه شيء آخر. وسرعان ما انتقل إلى منزل جديد، غير أنه فتح أبوابه على مصاريعها للأغنياء والفقراء، يمتعهم بالولائم والتسليات وصادق كل صاحب قارب، وراح يعطيهم إكراميات ملوكية السخاء. وفي الشوارع راح يوزِّع أمواله بكرم، فيعطيها للشحاذين واليتامى والغسَّالات. وبين أهل المدينة العاديين انتشر بسرعة خبر يقول إن آريتينو ليس كاتباً عظيماً فقط، بل هو أيضاً ذو سلطة ـ واحد من النبلاء ذوي الألقاب.

وسرعان ما راح ذوو النفوذ يختلفون إلى منزل آريتينو. وفي غضون بضعة أعوام جعل نفسه من المشاهير المحتفى بهم. فلم يكن من شأن أحدٍ من عليّة القوم أن يغادر البندقية دون أن يزوره. وكلَّفه سخاؤه هذا معظم مدّخراته. ولكنه اشترى له نفوذاً وسمعة حسنة، وهذا هو حجر الأساس الذي تقوم عليه السلطة. وبما أن القدرة على الإنفاق بسخاء كانت امتيازاً للأغنياء في إيطاليا عصر النهضة كما في أي مكان

فرعون، ولم يعد يطيق الانتظار أكثر. وهكذا صام اربعين يوماً، وذهب إلى جبل طور في سيناء. وفي مناجاته لله قال: «إي رب، لقد وعدتني بأنك ستدمِّر فرعون، وهو لم يتخلَّ عن أيٍّ من تجديفاته وادعاءاته المتطاولة على مقام الألوهية. فمتى ستدمِّره؟». فجاء صوت الحق عزَّ وجَلَّ يقول: «يا موسى، إنك تريدني أن ادمِّر فرعون في اقرب وقت ممكن، ولكن الفَ الفِ من عبادي لا يريدونني أن افعل ذلك ابداً، لأنهم يعيشون من كرمه ويتمتعون بالهدوء في ظل حكمه. وأُقسم بعزتي وجلالي انني لن ادمِّره ما دام يقدِّم لمخلوقاتي طعاماً وفيراً ورفاهية». فقال موسى. «ومتى سيتم وعدك إذن؟». فقال الله: «سيتم وعدي عندما يمنع إمداداته عن مخلوقاتي. فإذا بدأ بإنقاص كرمه، فاعلم أن ساعته تقترب».

وتصادف أن قال فرعون ذات يوم لهامان: «لقد جمع موسى بني إسرائيل حوله، وهو يسبِّب لنا إزعاجاً ولا نعرف ما ستكون عاقبة أمره معنا. يجب أن نبقي مخازننا ملأى حتى لا نصبح في أي وقت بلا موارد. ولذا يجب أن ننقص مؤننا اليومية إلى النصف». فأنقص 2000 خروف، و200 بقرة، ومائة جمل، وراح ينقص التموين بطريقة مماثلة كل يومين أو ثلاثة. فعرف موسى أن وعد الحق قد اقترب تنفيذه، لأن الاقتصاد المفرط علامة على الانحطاط ودليل شوم.

آخر، فقد ظنَّت الأرستقراطية أن آريتينو لا بدّ أن يكون رجلاً ذا نفوذ. ما دام ينفق المال كرجل ذي نفوذ. وبما أن نفوذ صاحب النفوذ جدير بأن يُشْتَرَى، فقد راح آريتينو يتلقى كل أنواع الهدايا والأموال. وتنافس الأدواق والدوقات، والتجار الأثرياء والبابوات والأمراء لكسب الحظوة لديه. فراحوا يمطرونه بكل أنواع الهدايا.

ويقول أصحاب القصص المأثورة إنه في اليوم الذي اغرق فيه فرعون لم يُذْبَح في مطبخه سوى نعجتين.

فلا شيء أفضل من السخاء... فإذا كان الرجل غنياً، ويرغب في أن يتصرف كسيّد جوّاد، ولو لم يكن لديه ميثاق ملكي؛ وإذا أراد ان تَعْنُو له جباه الرجال، وأن يبجّلوه ويُسَمّوه مولاهم واميرهم، فقل له أن يمدّ كلّ يوم مائدة طعام. إذ إن كل مَنْ حصلوا على الشهرة في العالم قد كسبوها من خلال كرم ضيافتهم بشكل رئيسي. أما البخلاء والجشعون، فهم محتقرون في الدنيا والآخرة.

كتاب الحكم، أو: قواعد للملوك
نظام الملك، القرن الحادي عشر

وكانت عادات آريتينو في الإنفاق استراتيجيةً طبعاً ولها هدف بعيد وقد نجحت تلك الاستراتيجية كتعويذة سحرية. ولكن للحصول على أموال حقيقية وعلى راحة، فإنه كان بحاجة إلى راعٍ له جيوبٌ عميقةٌ بلا قاع. وبعد أن أجرى مسحاً للإمكانيات، ركَّز أنظاره على مركيز مانطو الشديد الثراء. وكتب قصيدة ملحمية أهداها للمركيز. وكانت تلك ممارسة مألوفة شائعة بين الكتَّاب الباحثين عن رعاية. وفي مقابل إهداء مؤلفاتهم كانوا يحصلون على راتب صغير يكفي لكتابة قصيدة أخرى، بحيث يمضون حياتهم في نوع من العبودية المستمرة. غير أن آريتينو كان يريد السلطة، لا معاشاً تافهاً. فقد يهدي قصيدة إلى المركيز، ولكنه يقدمها إليه كهدية، موحياً بأنه ليس كاتباً مأجوراً يبحث عن راتب، ولكن يوحي بأنه والمركيز متساويان.

ولم يتوقف آريتينو في تقديم هداياه عند هذا الحدّ: فباعتباره صديقاً لاثنين من أعظم فناني البندقية، وهما النحات جاكوبو سانسوفينو والرسام تِيْتيانْ، فقد أقنع هذين الرجلين بالمشاركة في خطته لتقديم الهدايا. وكان آريتينو قد دَرَسَ المركيز قبل أن يبدأ بالعمل لاستغلاله، وكان يعرف ذوقه معرفة كاملة من الداخل والخارج. وكان لذلك قادراً على تقديم النصح لسانسوفينو وتيتيان حول المواضيع التي تسرّ المركيز أكثر من غيرها. ولذا فإنه عندما أرسل إلى المركيز عملاً منحوتاً لسانسوفينو ولوحة من رسم تيتيان كهدية من الفنانين الثلاثة معاً، كان فرح الرجل بها عظيماً جداً.

وعلى امتداد الأشهر القليلة التالية، أرسل آريتينو هدايا أخرى ـ سيوفاً، وسروجاً، وزجاجياتٍ مما تخصَّصت به مدينة البندقية، وأشياء كان يعلم أن المركيز يحبها ويقدِّرها. وسرعان ما بدأ هو وسانسوفينو وتيتيان يتلقون هدايا من المركيز في المقابل. وسارت الاستراتيجية إلى ما هو أبعد. فعندما وجد صهرُ صديقٍ لآريتينو نفسه في السجن، استطاع آريتينو أن يجعل المركيز يرتِّب أمر إطلاق سراحه. وكان صديق آريتينو تاجراً ثرياً ورجلاً ذا نفوذ عظيم في البندقية. وبتحويل النيّة الحسنة التي أقامها مع المركيز إلى استخدام عملي، اشترى آريتينو عرفان ذلك الرجل الذي صار مديناً له أيضاً، وسوف يساعد بدوره آريتينو عندما يكون قادراً على ذلك. وهكذا راحت دائرة النفوذ تتسع أكثر فأكثر. واستطاع آريتينو، مرة بعد أخرى، أن يستفيد من السلطة السياسية الهائلة للمركيز، الذي ساعده أيضاً في علاقاته الغرامية الكثيرة بنساء البلاط.

غير أن العلاقة توترت في آخر الأمر حالما أخذ آريتينو يشعر بأنه كان على المركيز أن يرد على كرمه بصورة أفضل. ولكن آريتينو لم يشأ أن يهبط بنفسه إلى مستوى الاستجداء والنحيب. وبما أن تبادل الهدايا بين الرجلين قد جعلهما متساويين، فلم يكن من اللائق أن يطرح موضوع المال. فانسحب آريتينو ببساطة من دائرة المركيز، وراح يتصيَّد فريسة أخرى من الأثرياء. فاستقرَّ رأيه أول الأمر على الملك الفرنسي فرنسيس، ثم آل مديتشي، فدوق أوربينو، فالإمبراطور شارل الخامس وغيرهم. وفي آخر الأمر، فإن وجود رعاة كثيرين كان يعني أنه غير مضطرّ إلى الانحناء لأي واحد منهم. وصارت سلطته تضاهي سلطة لورد من النبلاء عظيم.

التفسير

كان آريتينو يتفهَّم الخصائص الأساسية للمال:

فأولاً: يجب أن يُتَدَاوَلَ لكي يجلب السلطة. فما يجب أن يشتريه

المال ليس سلعاً لا حياة فيها، بل نفوذاً، وسلطةً على الناس. وبإبقاء المال في تداول مستمر، اشترى آريتينو دائرة نفوذ آخذة في الاتساع أبداً، بحيث أنها عوَّضته عما أنفقه في آخر الأمر.

وثانياً: كان آريتينو يتفهم الصفة الأساسية للهدية. فتقديم هدية يعني الإيحاء ضمناً بأنك ومُتَلَقِّيها متساويان على أقل تقدير، أو أنك متفوّق على المتلقّي. كما تنطوي الهدية على عرفان أو التزام؛ فمثلاً، عندما يقدِّم لك الأصدقاء شيئاً مجاناً، يمكنك التأكد أنهم يتوقعون منك شيئاً في المقابل. ولكي يحصلوا عليه فإنهم يجعلونك تشعر بأنك مدين لهم (وقد يكونون واعين أو غير واعين بهذه الآلية، ولكن هذه هي الطريقة التي تعمل بها هذه المسألة).

وتجنب آريتينو مثل هذه العقبات المعيقة لحريته. وبدلاً من التصرُّف كشخص وضيع يتوقع من القوي ذي السلطة أن يدفع له نفقات حياته، فقد قَلَبَ الحركة إلى الاتجاه المعاكس. وبدلاً من أن يكون مديناً لذوي السلطة الأقوياء فقد جعلهم هم المدينين له. وكان هذا هو الهدف من تقديمه للهدايا ـ كانت سُلَّماً صعد به إلى أعلى المستويات الاجتماعية. وعند نهاية حياته كان قد صار أشهر كاتب في أوروبا.

إفهم: قد يقرِّر المال علاقات السلطة. ولكن لا حاجة إلى اعتماد تلك العلاقات على كمية المال التي تملكها؛ وهي تعتمد أيضاً على الطريقة التي تستخدمها. فذوو السلطة الأقوياء يعطون بسخاء، مشترين نفوذاً بدلاً من الأشياء. فإذا قبلت مركزاً ناقصاً لأنه ليست لديك ثروة بَعْدُ، فقد تجد نفسك في هذا المركز إلى الأبد. فمارس الخدعةَ التي مارسها آريتينو على الأرستقراطية الإيطالية. تخيَّل نفسك مساوياً لهم. والعب دور اللورد النبيل، فأعطِ بسخاء، وافتح أبوابك، واطرح أموالك في التداول، واخلق واجهة سلطة من خلال عملية كيميائية تُحَوِّل المال إلى نفوذ.

الحالة الثانية

بعد وقت قصير من تكوين البارون جيمس روتشيلد لثروته في باريس في أوائل عشرينات القرن التاسع عشر، واجه مشكلة معقَّدة للغاية: كيف يستطيع يهودي، وألماني، غريب غربةً كليّةً عن المجتمع الفرنسي، أن يكسب احترام الطبقات الفرنسية العليا المصابة بالخوف من الأجانب؟ وكان روتشيلد يفهم السلطة ـ كان يعرف أن ثروته ستأتي له بالمكانة، ولكنه إذا بقي مُبْعَداً اجتماعياً، فلن تستمر مكانته ولا ثروته. وهكذا نظر إلى مجتمع عصره وسأل: ما الذي يمكن أن يكسب قلوبهم؟ الأعمال الخيرية؟ لن يهتم الفرنسيون بشيء أقل من اهتمامهم بها. النفوذ السياسي؟ لديه هذا. وإن كان له من أثر، فإنه لم يزد الناس إلاّ تشككاً فيه. وهكذا قرَّر أن نقطة الضعف الوحيدة هي السأم. وفي فترة إعادة الملكية، كانت الطبقات الفرنسية العليا تشعر بالسأم. وهكذا شرع روتشيلد ينفق مبالغ مذهلة من المال على إمتاعهم ومؤانستهم. فاستأجر أفضل المعماريين في فرنسا لتصميم حدائقه، وقاعة حفلاته، واستأجر ماري ـ أنطوان كاريم، أشهر طهاة فرنسا على الإطلاق، لتهيئة أبذخ الحفلات التي شهدتها باريس في تاريخها؛ ولم يكن أي فرنسي قادراً على المقاومة، حتى ولو أن الذي يقيم الحفلات يهودي ألماني. وبدأت أمسيات روتشيلد الأسبوعية تجتذب عدداً أكبر فأكبر. وعلى مدى السنوات القليلة التالية كسب الشيء الوحيد الذي من شأنه تأمين سلطة شخص خارجيّ، وهو: القبول الاجتماعي.

الجلباب الناري الألوان

أثناء حملة قمبيز على مصر، زار ذلك البلدَ عددٌ كبير من اليونانيين لسبب أو لآخر، بعضهم للتجارة، كما يمكن للمرء أن يتوقع، وبعضهم ليخدموا في الجيش، وآخرون بدافع الفضول المحض دون شك، لرؤية ما يستطيعون أن يشاهدوه. وكان من بين أولئك المتفرجين سايلوسون بن آياسيس، الشقيق المنفيّ لبوليقريطيس، من ساموس. وبينما كان سايلوسون في مصر، جاءته ضربة حظ خارقة للعادة. فقد كان يتسكع في شوارع ممفيس وهو يرتدي جلباباً ناريّ الألوان، عندما تصادف أن رآه داريوس، الذي كان في ذلك الوقت واحداً من حرّاس قمبيز، ولم يكن قد اكتسب أية أهمية خاصةً بَعْدُ؛ فتملكته رغبة مفاجئة في امتلاك ذلك الجلباب. فاقترب من سايلوسون وقدّم إليه عرضاً للحصول عليه. وكانت لهفته الشديدة للحصول عليه واضحة لسايلوسون بما فيه الكفاية، فألهمه ذلك أن يقول: «إنني

التفسير

إن السخاء الاستراتيجي هو سلاح عظيم لبناء قاعدة الدعم، وخاصةً للشخص الخارجي الغريب. ولكن البارون دي روتشيلد كان أبرع من ذلك أيضاً. فقد كان يعلم أن أمواله هي التي خلقت الحاجز بينه وبين الفرنسيين، فجعلته يبدو قبيحاً وغير جدير بالثقة. وكانت أفضل طريقة للتغلب على ذلك هي تبذير مبالغ ضخمة حرفياً، كإشارة إلى

تقديره للمجتمع الفرنسي وثقافته أكثر من تقديره للمال. وما فعله روتشيلد يشبه مهرجانات هدايا الشتاء الشهيرة في الغرب الأميركي الأوسط، حيث كانت قبيلة من الهنود الحمر تدمِّر ثروتها كلها بشكل دوري في احتفالات هائلة وألعاب نارية كرمز لقوَّتها وسلطتها على القبائل الأخرى. فلم يكن أساس سلطتها هو المال، بل القدرة على الإنفاق، وثقتها بتفوّق من شأنه أن يعيد إليها كل ما دمَّرته المهرجانات الاحتفالية.

وفي آخر الأمر، عكست حفلات البارون المسائية رغبته في الاختلاط ليس في الوسط التجاري لفرنسا فحسب، بل في مجتمعه أيضاً وبإهدار الأموال على حفلاته الضخمة، كان يأمل أن يوضح أن سلطته تتخطّى المال إلى مملكة الثقافة الأنفس والأهم. ربما يكون روتشيلد قد كسب القبول الاجتماعي. ولكن قاعدة الدعم التي كسبها كانت شيئاً لا يشتريه المال وحده. فلكي يضمن ثروته كان عليه أن «يهدرها». فهذا هو السخاء الاستراتيجي باختصار، أي أنه القدرة على أن تكون مَرِناً مع ثروتك، فتشغّلها، لا لشراء الأشياء، بل لكسب قلوب الناس.

الحالة الثالثة

كان آل مديتشي في فلورنسا عصر النهضة قد أقاموا سلطتهم الهائلة على الثروة التي جمعوها من أعمال الصيرفة. ولكن في جمهورية فلورنسا التي امتد عمرها قروناً كانت فكرة شراء السلطة بالمال مضادة لقيم الديمقراطية التي تعتزّ بها المدينة. غير أن كوزيمو دي مديتشي، أول فرد من العائلة يكسب شهرة عظيمة تحايل على هذا المبدأ بالبقاء بعيداً عن الأضواء. فلم يستعرض ثروته بتفاخر أو ازدهاء. ولكن عندما وصل حفيده لورينزو إلى سن الرشد، في أربعينات القرن الخامس عشر، كانت ثروة العائلة قد بلغت حداً مفرطاً من الفحش، وصار نفوذها بارزاً إلى حد لم يعد معه من الممكن إخفاؤه بأي تمويه.

فقام لورينزو بحلٍّ هذه المشكلة بطريقته الخاصة، بتطوير

لن ابيع هذا الجلباب باية اموال، ولكن إن كان لا بد لك من امتلاكه، فسوف اعطيك اياه مجاناً». فشكره داريوس على ذلك بحرارة واخذ الجلباب. كان سايلوسون في تلك اللحظة لا يفكّر إلاّ في كونه قد فَقَدَ الجلبابَ بسبب طيته الحمقاء؛ ثم جاء موت قميز، وثورة السبعة ضد المجوس، واعتلاء داريوس العرش. فسمع سايلوسون الخبر بأن الرجل الذي سبق له أن لبّى طلبه في مصر بإعطائه الجلباب الناريّ الألوان قد صار ملك فارس. فهرع إلى سوسه وجلس على مدخل القصر الملكي. وادّعى بأنّه مشمولٌ بالقائمة الرسمية للمحسنين إلى الملك. فنقل الحارس المناوب ادعاءه هذا إلى داريوس، الذي سأل في دهشة عمّن يكون ذلك الرجل، وقال: «حقاً.. بما انني لم اتسنّم العرش إلاّ مؤخراً، فلا يمكن أن يكون هناك أي إغريقي أنا مدين له بخدمة. فلم يكَدْ احدٌ منهم يأتي إلى هنا بَعْدُ، وأنا لا اتذكّر بالتأكيد انني مدين بأيّ شيء لشخص إغريقي. ولكن أَدْخِلْهُ مع ذلك، لكي اعرف ما الذي يقصده بادعائه هذا».

فاصطحب الحارسُ سايلوسونَ إلى حضرة الملك، وعندما سأله المترجمون من يكون، وما الذي فعله لتبرير الزعم بأنه من المحسنين إلى الملك، ذكّر داريوسَ بقصة الجلباب، وقال إنه الرجل الذي أعطاه إياه. فقال داريوس: «أيها

استراتيجية الإلهاء، التي ظلَّت تخدم أصحاب الثراء منذ ذلك الحين. فصار من ألمع رعاة الفنون الذين عرفهم التاريخ على الإطلاق. فلم يكتفِ بالإنفاق بسخاء باذخ على اللوحات، بل خلق أفضل مدارس إيطاليا لتدريب الفنانين الشباب. وفي إحدى هذه المدارس لفت الشابُّ مايكل آنجيلو نظر لورينزو لأول مرة. فدعا الفنان إلى العيش في بيته. وفعل الشيء نفسه مع ليوناردو دا فنشي. وعندما صار هذان الفنانان تحت جناحه، ردًّا على كرمه فصارا مواليين له ومستقرَّين تحت رعايته.

وكلما كان لورينزو يواجه عدواً، كان يشهر سلاح الرعاية. فعندما هدَّدت بيزا، عدوّة فلورنسا التقليدية، بالتمرُّد عليها في سنة 1472، استرضى لورينزو الناس بصبِّ الملايين في جامعة بيزا، التي كانت مناط فخرها وفرحها، ولكنها كانت قد فقدت بريقها منذ زمن طويل. ولم يكن لدى أهل بيزا دفاع ضد هذه المناورة الماكرة، التي غذَّت حبهم للثقافة وثلمت حدَّة رغبتهم في خوض معركة.

السيد، إنك أكرم الناس. لأنك أعطيتني هدية وأنا لا أزال شخصاً بلا سلطة ولا أهمية، ربما كانت هديتك صغيرة، ولكنها تستحق مني عرفاناً كأروع الهدايا اليوم. وسأعطيك في مقابلها فضة وذهباً أكثر مما تستطيع أن تحصيه كي لا تندم أبداً على إسدائك معروفاً لداريوس بن هيستاسبيس». فردّ سايلوسون: «يا سيدي، لا تعطني ذهباً ولا فضة. ولكن أعد لي ساموس، الجزيرة التي فيها موطني، والتي هي في يد أحد خدمنا، منذ أن قام أوروتيس بقتل شقيقي بوليقريطيس. فلتكن ساموس هي هديتك لي، ولكن لا تدع أي رجل في الجزيرة يقتل أو يُسْتَرَقّ»

فوافق داريوس على طلب سايلوسون، وأرسل قوّة بإمرة أوتانيس، أحد السبعة، ومعه أوامر بأن يفعل كل شيء يطلبه منه سايلوسون.

التواريخ
هيرودوتس، القرن الخامس ق. م

التفسير

لا شك أن لورينزو كان يحب الفنون. ولكن رعايته للفنانين كانت لها مهمة عملية كذلك. وكان لورينزو على وعي عميق بهذه المهمة. ففي فلورنسا في ذلك العصر كانت الصيرفة أقل طرق كسب المال إثارة للإعجاب، ومن المؤكد أنها لم تكن مصدراً محترماً للسلطة. وكانت الفنون هي القطب الثاني، قطب التسامي شبه الدينيّ. وبالإنفاق على الفنون خفَّف لورينزو من حدَّة وطأة الآراء في المصدر القبيح لثروته. وبذلك تنكَّر في زي النبلاء. فليس هناك استخدام للسخاء الاستراتيجي أفضل من إبعاد الانتباه عن حقيقة كريهة، ومن أن يلفَّ المرء نفسه بعباءة الفن أو الدِّين.

الحالة الرابعة

كانت للويس الرابع عشر عينا نسر في الاطلاع على السلطة

الاستراتيجية للمال. فعندما جاء إلى العرش كانت طبقة النبلاء قد أثبتت أنها شوكة في جنب الملكية، وكانت تجيش بالتمرد. وهكذا أفقر هؤلاء الأرستقراطيين بجعلهم ينفقون مبالغ هائلة على الحفاظ على مركزهم في البلاط. وعندما جعلهم معتمدين على السخاء الملكي في تدبير معيشتهم، أوقعهم في براثنه.

وبعد ذلك أخضعهم لويس بالسخاء الاستراتيجي الذي كان يعمل كما يلي: كلما لاحظ رجل حاشية عنيداً كان لويس بحاجة إلى كسب نفوذه، أو إلى إخماد إثارته للمتاعب، استخدم ثروته الهائلة لتليين التربة. فكان يتجاهل ضحيته أول الأمر، مما يثير قلق ذلك الرجل، ثم يكتشف الرجل أن ابنه قد أعطيت له فجأة وظيفة جيدة الراتب، أو أن أموالاً قد أُنفِقَت في منطقته المحلية حرفياً بالفعل، أو أنه قد أُعْطِيَ لوحة كان يتشوَّق إلى امتلاكها منذ زمن طويل. وهكذا تتدفق الهدايا من يدي لويس. وأخيراً، بعد أسابيع أو أشهر، كان لويس يطلب المعروف الذي كان محتاجاً إليه من البداية. وبذلك كان الرجل الذي أقسم أن يفعل أي شيء لإيقاف الملك يجد أنه قد فقد الرغبة في القتال. فلو عُرِضَت عليه رشوةٌ مباشرةٌ لَجَعَلَتْهُ متمرّداً. كانت طريقة لويس أدهى وأمكر. فعندما كان لويس يواجه تربة صلدة لا ينبت فيها شيء، كان يفكّك تلك التربة قبل أن يغرس فيها بذوره.

التفسير

كان لويس الرابع عشر يفهم أن هناك عنصراً عاطفيّا عميق الجذور في موقفنا من المال، وهو عنصر يعود إلى أيام الطفولة. فعندما نكون أطفالاً، تتركز على الهدايا كل مشاعرنا المعقدة إزاء والدينا. فنحن نرى إعطاء الهدايا كرمز للحب والقبول. وذلك العنصر العاطفي لا يزول أبداً. فمتلقّو الهدايا، مالية كانت أم غير ذلك، يصبحون فجأة ضعفاء مكشوفين كالأطفال، خاصة عندما تأتي الهدية من شخص ذي سلطة. فهم لا

يستطيعون أن يمتنعوا عن الانفتاح، فقد تراخت عزيمتهم، تماماً كما كان لويس يفكّك التربة ويليّنها.

ولتحقيق أفضل نجاح، ينبغي أن تأتي الهدية فجأة ومن الفراغ. وأن تكون رائعة ولافتة للنظر من حيث أنه لم يسبق لها مثيل أبداً، وأنه سبقها بردود ونفور من مُقَدِّمها. وكلما زاد عدد المرَّات التي تقدّم فيها الهدايا لأناس معيَّنين، انثلمت حدّة هذا السلاح أكثر. فإن لم يأخذوا هداياك على أنها تحصيل حاصل، منقلبين إلى وحوش من عدم العرفان، فإنهم سيغضبون ممّا يبدو لهم صَدَقَة. فالهدية المفاجئة، غير المتوقعة، والمقدَّمة مرَّة واحدة، لن تفسد أطفالك، بل إنها ستبقيهم خاضعين لك.

الحالة الخامسة

ذات مرة، توقف فوشيميا، تاجر التحف القديمة الذي كان يعيش في مدينة إيدو (الاسم السابق لطوكيو) في القرن السابع عشر، في صالون شاي تابع لإحدى القرى، وبعد أن استمتع بكوب من الشاي، أمضى عدة دقائق يحدِّق في الكوب، الذي دفع ثمنه في آخر الأمر وأخذه معه. وكان هناك فنان يدوي محلّي يراقب هذا الأمر، فانتظر حتى غادر فوشيميا الدكان، واقترب من المرأة العجوز التي كانت تملك صالون الشاي وسألها عن ذلك الرجل مَنْ يكون. فأخبرته أنه أشهر خبير في اليابان، وتاجر تحف قديمة من أتباع اللورد إيزومو. فركض الفنان اليدويّ خارجاً من الدكان، ولحق بفوشيميا وتوسَّل إليه أن يبيعه ذلك الكوب الذي لا بدَّ أن يكون ثميناً ما دام فوشيميا قد حكم بأنه كذلك. فضحك فوشيميا من قلبه وقال موضحاً: «إنه ليس سوى كوب عادي من فخار بَايْزِنْ، وليس ثميناً على الإطلاق. وإن سبب تحديقي فيه هو أن البخار كان يبدو معلَّقاً فوقه بشكل غريب»، وتساءلت عما إذا كان هناك تسرُّب في مكانٍ مّا منه (كان أتباع تقاليد حفلة الشاي يهتمون بكل جمال غريب أو غير متوقع في الطبيعة). وبما أن الفنان اليدوي ظلَّ متحمساً للكوب فقد أعطاه إياه فوشيميا مجاناً.

لا يُعْرَفُ المال على شيء أكثر فائدةً من حالةِ أخذه منك بطريق الغش، لأنك تكون بذلك قد اشتريت الحكمةَ بضربة واحدة.

آرثر شوبنهاور
1788 ـ 1860

وتجوّل ذلك الفنان بالكوب، محاولاً العثور على خبير يقدِّر قيمته بثمن عال. ولكن، بما أنهم جميعاً عرفوا أنه كوب شاي عادي، فإنه لم يصل إلى أية نتيجة. وسرعان ما راح يهمل تجارته، مفكِّراً فقط في الكوب وفي الثروة التي يمكن أن يأتي بها. وأخيراً ذهب إلى أيدو ليتحدَّث إلى فوشيميا في دكانه. وهناك أدرك تاجر التحف القديمة أنه، عن غير قصد منه، قد سبَّب لهذا الرجل آلاماً بجعله يعتقد أن للكوب قيمة عظيمة، فدفع له مائة ريو (قطعة ذهبية) ثمناً للكوب من باب الشفقة والإحسان. وكان الكوب فعلاً شيئاً عادياً. ولكنه أراد أن يخلِّص الفنان اليدوي من الفكرة التي تسلَّطت عليه، ويسمح له في الوقت نفسه أن يشعر بأن جهده لم يذهب سدىً. فشكره الفنان اليدوي وذهب إلى حال سبيله.

وسرعان ما انتشر خبر شراء فوشيميا لكوب الشاي. فبدأ كل تاجر في اليابان يثير ضجة ويطالبه ببيعه، ما دام الكوب الذي اشتراه بمائة ريو لا بدَّ أن يستحق ثمناً أكبر من ذلك بكثير. وحاول فوشيميا أن يشرح ظروف شرائه للكوب، ولكن لم يكن هناك أي شيء يثني عزيمة تجَّار التحف. واستجاب لهم فوشيميا أخيراً ووضع الكوب للبيع في مزاد.

وأثناء المزاد، عرض اثنان من المشترين مائتي ريو ثمناً لذلك الكوب، وقدَّما عرضهما في وقت واحد، ثم شرعا يتشاجران حول مَنْ منهما قدَّم عرضه أولاً. وأدَّى شجارهما إلى الدقّ على الطاولة وقلبها. فسقط الكوب على الأرض وتكسَّر إلى قطع عديدة. وكان واضحاً أن المزاد قد انتهى. فلصق فوشيميا قطع الكوب وأصلحه، ثم خزنه في مكان بعيد، معتقداً أن الأمر قد انتهى. غير أنه بعد سنوات زاره أستاذ حفلات الشاي العظيم ماستوديرا فوماي في مخزنه، وطلب من فوشيميا أن يرى ذلك الكوب، الذي كان قد صار أسطورياً في ذلك الوقت. وتفحصه فوماي، فقال: «لا قيمة كبيرة له كقطعة. ولكن أستاذ حفلات الشاي، يقدِّر العاطفة والذكرى المرتبطة بالكوب أكثر من قيمته في حد

هدية من السمك

كان كونغ ـ يي هْسُيُو، رئيس وزراء لو، مولعاً بالسمك. ولذا كان أهالي البلد جميعاً يشترون السمك بنوايا مخلصة كي يهدوه إليه. غير أن كونغ يي لم يكن يقبل الهدايا. واعترض أخوه الأصغر على ذلك وقال له: «إنك تحب السمك حقاً، فلِمَ لا تقبل السمك المهدى إليك؟». فقال هْسُيُو:

ذاتها». ثم اشترى الكوب بمبلغ مرتفع. وهكذا أصبح كوب مكسَّر وملصوق القِطَع من الأعمال الأقلّ من العادية واحداً من أشهر التحف المقتناة في اليابان.

«إن حبّي للسمك هو السبب الوحيد الذي يجعلني أرفض السمك الذي يقدّمونه لي. فالحق أنني لو قبلت السمك لوضعت نفسي تحت واجب العرفان لهم. وسأضطر عندئذٍ إلى ثَنْي القانون فأُطْرَدُ من رئاسة الوزارة. وبعد طردي من منصبي لن أتمكّن من تزويد نفسي بالسمك. وعلى العكس، فإن لم أقبل السمك منهم، ولم أُطْرَدْ من رئاسة الوزارة مهما كنتُ مولعاً بالسمك، فإنني سأتمكّن دوماً من تزويد نفسي بالسمك».

هان. في. تزو
فيلسوف صيني
من القرن الثالث
قبل الميلاد

التفسير

توضح القصة أولاً: جانباً جوهرياً من جوانب المال، وهو أن البشر هم الذين خلقوه، والبشر هم الذين يغرسون فيه المعنى والقيمة. وثانياً: إن أكثر ما يقدره رجل الحاشية، سواء في الأشياء أم في المال، هي العواطف والمشاعر الكامنة فيها ـ فهي الأشياء التي تجعلها جديرة بالامتلاك. والدرس بسيط: كلما زاد استغلال هداياك وتصرفاتك السخيّة للعاطفة زادت سلطتها وتأثيرها. فالشيء أو المفهوم الذي يستغل العاطفة المشحونة، أو يضرب على وتر عاطفي، له تأثير أكثر من المال الذي تبعثره على هدية باهظة الكلفة ولكن لا حياة فيها.

الحالة السادسة

كان آكيموتو سوزوتومو، ثريّاً من أتباع حفلة الشاي. فأعطى وَصِيفَهُ، ذات مرة، مائة ريو (قطعة ذهبية) وأمره أن يشتري طاسة شاي كان يعرضها تاجر معيَّن. وعندما رأى الوصيفُ الطاسةَ شكَّ في استحقاقها لذلك الثمن، وبعد كثير من المساومة، خفض ثمنها إلى 95 ريواً. وبعد أيام، بعد أن بدأ سوزوتومو يستخدم الطاسة، أخبره الوصيف متفاخراً بما صنع. فردَّ عليه سوزوتومو: «إن طاسة شاي يطلب أي شخص مائة ريو ثمناً لها لا يمكن أن تكون إلاَّ إرثاً عائلياً نفيساً، وشيئاً لا تبيعه الأسرة إلاَّ تحت وطأة حاجتها إلى المال. وفي تلك الحال، فإنهم يأملون أن يجدوا شخصاً مستعداً لدفع مائة وخمسين قطعة. وإذن فما نوع الشخص الذي لا يأخذ مشاعرهم في الحسبان؟ وبغضّ النظر عن هذا تماماً، فإن تحفةً تدفع مائة ريو ثمناً لها هي شيء جدير بالاقتناء. أما التي تكلِّف خمسة وتسعين فقط، فإنها تعطي انطباعاً بالحقارة. وهكذا لا

تدعني أرى طاسة الشاي تلك مرة أخرى أبداً». وأغلق على الطاسة بعيداً فلم يخرجها أبداً.

التفسير

عندما تصرّ على أن تدفع أقلّ فقد توفّر خمس ريوات، ولكن الإهانة التي تسبّبها، والانطباع الرخيص الذي تخلقه سينتقصان من سمعتك. والسمعة شيء يقدره ذوو السلطة عالياً وأغلى من كل شيء. فتعلّم أن تدفع الثمن الكامل ـ فذلك سيوفّر عليك الكثير في آخر الأمر.

الحالة السابعة

في وقتٍ مّا قرب بداية القرن السابع عشر في اليابان، كانت مجموعة من الجنرالات تقتل الوقت قبل معركة كبرى بإقامة مباراة لشم البخور. ووضع كل مشترك جائزةً للفائزين في المباراة، فشملت الجوائز أقواساً وأسهماً وسروجاً وأشياء أخرى مما يحبّ المحارب امتلاكه.

وتصادف أن مرَّ بهم النبيل العظيم اللورد ديت ماساميون، فأغري بالاشتراك. فقدَّم جائزة هي اليقطينة الزخرفية التي كانت تتدلّى من حزامه. فضحك الجميع، لأنه لم يكن أحد يريد الفوز بهذا الشيء الرخيص. وأخيراً قبل أحدُ أتباع المضيف اليقطينة.

وعندما انفضَّ الحفل وانهمك الجنرالات في الثرثرة خارج الخيمة جاء ماساميون بحصانه الرائع وأعطاه لذلك التابع، قائلاً: «خذ، لقد جاء الحصان من اليقطينة». وعندئذٍ فوجيء الجنرالات المذهولون وندموا على استخفافهم بهدية ماساميون.

لم أكن آخذ الأموال إلاّ من المقتدرين، الذين كانوا على استعداد للدخول معي في مخططات تخيّلوا أنها سوف تسلب الآخرين. كانوا يريدون المال لأجل المال. أما أنا فكنت أريده بسبب الكماليات الباذخة والمسرات التي من شأنه أن يجلبها لي. ونادراً ما كانوا يهتمّون بالطبيعة البشرية. بل كانت معرفتهم بإخوتهم البشر قليلة، واهتمامهم بهم أقل. ولو كانوا دارسين أكثر جدّيّة للطبيعة الإنسانية، ولو خصّصوا وقتاً أكثر للصحبة الإنسانية، وأقل لمطاردة الدولار الجبّار، لما صاروا أهدافاً سهلة للاحتيال إلى هذه الدرجة.

«يالوكيد» ويلْ (الغلام الأصفر)
1875 ـ 1976

التفسير

كان ماساميون يفهم ما يلي: إن المال يعطي صاحبه القدرة على تقديم المسرَّة للآخرين. وكلما زادت قدرتك على ذلك، اجتذبتَ إعجاباً أكبر. وعندما تجعل الحصان يخرج من اليقطينة، فإنك تظهر أقصى ما لديك من سلطة.

صورة: النهر. لحماية نفسك أو لتوفير
الموارد، فإنك تضع عليه سداً. غير أن
مياهه سرعان ما تصبح غائرة
وموبوءة. فلا تستطيع أن تعيش في
مثل هذه المياه الراكدة إلاً أعفن
أشكال الحياة. فلا تصلح لأي
ملاحة. وتتوقف التجارة عليها. حطِّم
السدّ، وعندما تتدفق المياه وتتحرَّك،
فإنها تولد الوفرة، والثروة، والقوة في
دوائر تتسع بإطراد. فيجب أن يفيض
النهر بشكل دوري كي تزدهر الأشياء الجيِّدة.

الشاهد: إن الرجل العظيم إذا كان بخيلاً فإنه أحمق عظيم الحمق. ولا يمكن لرجل في الأماكن العليا أن تكون له رذيلة مؤذية أكثر من الجشع. فالرجل البخيل لا يستطيع أن يكسب أرضاً أو ألقاباً، لأنه لا يملك مدداً وفيراً من الأصدقاء الذين يمكنه أن ينفذ إرادته بهم ومن خلالهم. إن كل من يريد أن يكون له أصدقاء يجب أن لا يحب ممتلكاته، بل يتعيَّن عليه أن يحصل على الأصدقاء عن طريق الهدايا الجيِّدة. فمثلما يجذب حجرُ المغناطيس الحديدَ إلى نفسه، فكذلك تجتذب كميات الذهب والفضة التي ينفقها رجلٌ مّا قلوبَ الرجال.

(غليوم دي لوريس، 1200، 1238: قصة الزهرة)

الانقلاب

إن الأقوياء ذوي السلطة لا ينسون أبداً أن ما هو مقدَّمٌ مجاناً ينطوي حتماً على خدعة. فالأصدقاء الذين يسدون أنواعاً من المعروف

والجميل دون أن يطلبوا لها ثمناً إنما يطلبون شيئاً أغلى بكثير من المال الذي كان يمكن أن تدفعه لهم. ففي الصفقة مشاكل مستورة، ماديّة ونفسيّة معاً. وإذن فتعلَّم أن تدفع، وتدفع جيِّداً.

ومن جهة أخرى، يقدِّم هذا القانون فرصاً عظيمة للسلب والاحتيال إذا طبقته من الجانب الآخر. إن الإدلاء بإغواء الغداء المجاني هو عدة المهنة وعتادها لفناني الاحتيال.

ولم يكن أحد أبرع في هذا المجال من أنجح فناني الاحتيال في عصرنا جوزيف ويل، المعروف أيضاً بلقب «الغلام الأصفر: يالوُكِيدْ». فقد تعلَّم في وقت مبكر أن ما يجعل النصب ممكناً هو طمع إخوته من بني البشر. فكتب ذات مرة: «إن هذه الرغبة للحصول على شيء مقابل لا شيء كانت باهظة الكلفة لكثير من الناس الذين تعاملوا معي ومع محتالين آخرين... فعندما يتعلَّم الناس ـ وأشكّ في أنهم سيتعلَّمون. أنه لا يمكنهم الحصول على شيء في مقابل لا شيء، فعندئذٍ ستتناقص الجريمة، ونعيش في انسجام أكبر». وعلى مدى السنين، ابتكر جوزف ويل طرقاً كثيرة لإغواء الناس باحتمالات الحصول على أموال سهلة. فكان يقدِّم عقارات «مجانية» ـ ومن يستطيع أن يقاوم عرضاً كهذا؟. ثم يكتشف المغفلون أن عليهم أن يدفعوا 25 دولاراً لتسجيل البيع. وبما أن الأرض مجانية، فقد كانت تبدو جديرة بالأجرة العالية، وعندئذٍ كان يالوكيد يجمع ألوف الدولارات من عمليات التسجيل المزيَّف. وفي مقابل ذلك، كان يعطي مغفليه المخدوعين صكوكاً مزوَّرة. وفي أحيان أخرى كان يخبر المغفلين عن سباق خيل مدبّر مسبقاً ليفوز فيه الحصان الفلاني بالذات، أو عن أسهم سترتفع أسعارها بنسبة 200 في المائة في غضون بضعة أسابيع. وبينما كان ينسج قصصه كان يراقب كيف تنفتح عيون المغفلين واسعة على فكرة الغداء المجاني. والدرس بسيط: ضع في أحابيلك طعماً هو إمكانية الحصول على مال سهل. فالناس كسالى من ناحية جوهرية، ويريدون الثروة أن تهبط في حضنهم بدلاً من أن

يعملوا لها. فلقاء مبلغ صغير، بِعْهُمْ مشورة حول كيفية كسب الملايين (وقد فعل ذلك ب.ت. بارنوم في أواخر أيام حياته)، وسوف يتحوَّل ذلك المبلغ إلى ثروة عند ضربه بالمغفلين الذين يعدون بالألوف. فاجتذب الناس بغواية احتمال حصولهم على مال سهل. وسوف ينفسح لك مجال لتشغيل أحابيل أخرى عليهم، ما دام الطمع سلاحاً قوّته تكفي لتعمي ضحاياك عن أي شيء. وكما قال يالوكيد، فإن نصف المتعة هو في تعليم درس أخلاقي، هو: الطمع لا طائل وراءه.

القانون

41

تجنَّب الحلول محل رجل عظيم

الحكم

إن ما يحدث أولاً يبدو دائماً أفضل وأكثر أصالة مما يأتي بعد ذلك. فإذا خَلَفْتَ رجلاً عظيماً أو كان ذلك والد مشهور، فإنه يتعيَّن عليك أن تنجز ضعف ما أنجزاه لكي تتفوَّق عليهما في الإشراق. فلا تَضِعْ في ظلِّهما، أو تلتصق بماضٍ ليس من صنعك. فرسِّخ اسمك وهويتك بتغيير المسار. فاذبح شخصية والدك الطاغية بالانتقاص من تراثه، واحصل على السلطة بالإشراق بطريقتك الخاصة بك.

انتهاك القانون

عندما مات لويس الرابع عشر، سنة 1715، بعد عهد مجيد استمرَّ خمسة وخمسين عاماً، تركزت كل العيون على ابن حفيده، وخلفه المختار، الذي صار فيما بعد لويس الخامس عشر. فهل يتكشَّف الصبيّ، الذي كان في الخامسة من عمره آنذاك، عن قائد عظيم مثل الملك الشمس؟ لقد حوَّل لويس الرابع عشر، بلداً كان على حافة حرب أهلية إلى القوة البارزة في أوروبا. كانت السنوات الأخيرة من عهده صعبة ـ كان عجوزاً ومُتْعَباً. ولكن كان من المأمول أن يتطوَّر الطفل إلى حاكم قوي يعيد بثّ القوة في الأرض ويضيف إلى الأساس المتين الذي أرساه لويس الرابع عشر.

ولهذه الغاية، أُعْطِي الطفلُ أفضلَ الأدمغة في فرنسا كمعلِّمين له، كي يعلِّموه فنون سياسة الدولة، بالطرق التي أتقنها الملك الشمس. فلم يُهْمَلْ شيء في تثقيفه. ولكن عندما اعتلى لويس الخامس عشر العرش في سنة 1726، طرأ عليه تغيّر مفاجىء. إذ لم يعد مضطراً إلى الدراسة كي يسرّ الآخرين، ويثبت نفسه. بل وقف وحده على قمّة بلد عظيم، وتحت إمرته الثروة والسلطة، فهو قادر على أن يفعل ما يشاء.

وفي السنوات الأولى من حكمه، أغرق لويس نفسه في الملذات، تاركاً الحكومة في يدي وزير موثوق به هو آندريه ـ هرقل دي فلوري. فلم يسبب هذا قلقاً يذكر. فقد كان شاباً بحاجة إلى الانغماس في

امتياز المقام الاول

كان من الممكن أن يشع كثيرون في مناصبهم كالعنقاء نفسها لو لم يسبقهم آخرون [تقول أساطير عربية قديمة إن العنقاء لا تموت، بل تحترق عندما تشيخ، ومن رمادها يخرج فرخ صغير كأنه يجدِّد شبابها وهو يشع مفعماً بالحياة: المترجم]. إن احتلال المقام الأول ميزة. ومع المكانة الرفيعة فإنه ميزة مضاعفة. وَزِّع الأوراق للمرة الأولى، وستفوز بالمنزلة العليا... فالسابقون الأولون يكسبون الشهرة بحق الولادة، أما الذين يتبعونهم فهم مثل الأبناء التالين، الذين يرضون بحصص هزيلة. . فقد اختار سليمانُ بحكمته التهدئةَ السلميةَ، وسلّم الأشياءَ شبه الحربية لأبيه. وبتغيير مساره وجد أن من الأسهل عليه أن يصبح بطلاً...

أمّا فيليب الثاني، فقد حكم العالمَ كلَّه من على عرش حكمته فأذهل العصور. فقد كان فيليب أنموذجاً للحصافة والتبصُّر... وقد ساعد هذا

شهوات الشباب. وكان دي فلوري وزيراً جيداً. ولكن راح يتضح ببطء أن تلك لم تكن مرحلة عابرة. فلم يكن لدى لويس أي اهتمام بالحكم. ولم يكن همه الرئيسي أحوال فرنسا المالية، أو حرب محتملة مع إسبانيا، بل السأم والملل. فلم يكن يستطيع أن يتحمل الشعور بالسأم، وعندما لم يكن يصطاد الغزلان، كان يطارد الفتيات، ويقتل وقته على موائد القمار، فيخسر مبالغ طائلة في ليلة واحدة.

وكان البلاط ـ كالعادة ـ يعكس ذوق الحاكم. فصار القمار والحفلات المسرفة هما الهاجس المستحوذ على الناس. فلم يهتم رجال الحاشية بمستقبل فرنسا، بل صبّوا طاقاتهم في عملية أسر الملك بالسحر والفتنة، وراحوا يتصيدون ألقاباً تأتيهم بمعاش مدى الحياة، ومناصب وزارية لا تقتضي عملاً يذكر، ولكنها تدرّ رواتب هائلة. وتقاطر الطفيليون إلى البلاط، فتضخمت ديون الدولة.

وفي سنة 1745، وقع لويس في غرام مدام دي بومبادور، وهي امرأة متحدرة في أصلها من الطبقة الوسطى، واستطاعت أن تصعد عن طريق مفاتنها، وذكائها، وزواج مناسب. فصارت هي العشيقة الملكية الرسمية؛ وصارت هي الحَكَم فيما يتعلق بالأذواق والأزياء في فرنسا. ولكن هذه السيدة كانت لها طموحات سياسية كذلك، وهكذا برزت في آخر الأمر كرئيسة غير رسمية للوزراء في البلد. فكانت هي، لا لويس، التي تملك في يدها سلطة التعيين والإقالة لأهم وزراء في فرنسا.

ومع تقدم لويس في السن، لم يكن يحتاج إلاّ إلى المزيد من الإلهاء. فأقام على أرض قصر ڤرساي ماخوراً، هو بارك أو سيرف، يؤوي بعض أجمل فتيات فرنسا. وكانت فيه ممرات تحت الأرض وأدراج مستورة تسهل وصول لويس إليه في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار. وبعد أن ماتت مدام دي بومبادور في سنة 1764، خلفتها المدام دو باري كعيشقة ملكية، وسرعان ما راحت تسيطر على البلاط، ومثل دي بومبادور من قبلها، شرعت تتدخل في شؤون الدولة. فإذا لم

النوعُ من الجِدَّةِ المحكِين في كسب مكان في صفوف العظماء. فالعباقرة، بدون أن يهجروا فنّهم نفسَه، يتركون المسار المألوف، ويخطون خطوات نحو الرفعة، حتى عندما يكون شعرهم قد ابيضّ. فقد سلّم هوراسُ الشعرَ الملحمي لفرجيل وكان [ماركوس فاليريوس] مارشال قد سلّم الشعرَ الغنائيَّ لهوراس. واختار تيرنس الملهاة، وبيرسيوس الشعرَ الساخر، وكلٌّ كان يأمل أن يحتلَّ المرتبة الأولى في جنس شعره. فالخيال الجريء لا يخضع للتقليد السهل.

مرآة جيب للأبطال
بلثازار غراسيان، ترجمة: كريستوفر مورَاز، 1996

يسرها وزيرٌ مّا، فإنه كان يجد نفسه مطروداً. وقد فزعت أوروبا كلها عندما تمكنت دوباري، ابنة الخبّاز، من تدبير أمر طرد إتْيِينْ دي شوازيل، وزير الخارجية، وأقدر دبلوماسي في فرنسا، إذْ أنه أظهر لها احتراماً أقل من اللازم بكثير. ومع مرور الزمن، راح النصابون والدجالون يبنون أعشاشهم في ڤرساي، وأغرو لويسَ بالاهتمام بالتنجيم والسحر والعرافة، والصفقات التجارية الاحتيالية، وهكذا فإن الشاب المراهق والمدلل الذي تولى عرش فرنسا قبل سنين لم يزده التقدم في السن إلاّ سوءاً.

وكان الشعار الذي التصق بعهد لويس الخامس عشر هو: «فليأت بعدي الطوفان»، أي: فلتتعفّن فرنسا بعد ذهابي. وبالفعل، فعندما ذهب لويس، مهترئاً من فسوقه الخليع كان بلده، وكذلك شؤونه المالية في حالة مريعة من الفوضى. وورث عنه حفيده لويس السادس عشر بلداً في حاجة ماسة إلى الإصلاح وإلى قائد قويّ. ولكن لويسَ السادس عشر كان أضعف حتى من جده. ولم يكن بوسعه سوى أن يتفرج بينما كان البلد ينحدر إلى الثورة. وفي سنة 1792، أعلنت الجمهوريةُ التي جاءت بها الثورة إنهاءَ الملكية، وأعطت الملك اسماً جديداً هو «لويس الأخير». وبعد بضعة أشهر ركع على المقصلة، وقد عري رأسه الموشك على القطع من كل الإشعاع والسلطة اللذين كان الملك الشمس قد بثّهما في التاج.

حياة بريكليس

كان بريكليس في شبابه ميّالاً إلى الإحجام عن مواجهة الناس. وكان أحد أسباب ذلك هو أن الناس كانوا يرون فيه شبهاً واضحاً متميزاً من الطاغية بيزيستراتوس، وعندما أبدى المتقدمون في السن ملاحظاتهم حول سحر صوت بريكليس وطلاوة كلامه وطلاقته كان الناس يذهلون من التشابه بين الاثنين. وقد كان خوفه من العزلة حقيقياً، نظراً لأنه كان غنياً، ومتحدّراً من أسرة متميزة، وله أصدقاء أقوياء كثيرون. وفي بداية حياته العملية لم يشتغل بالسياسة، بل كرّس نفسه للجندية، التي أظهر فيها جرأة ومغامرة عظيمتين.

غير أنه جاء وقت كان فيه آريستيدس قد مات، وثميستوكليس في المنفى، وسيمون كثير الغياب في حملات نائية. وأخيراً قرّر بريكليس أن يرتبط بحزب الشعب، ويلتزم بالدفاع عن قضية الفقراء والكثيرين، بدلاً من قضية الأغنياء والقليلين، رغم أن ذلك كان مناقضاً تماماً لمزاجه الخاص، الذي كان أرستقراطياً بشكل كامل. ويبدو أنه كان يخشى من أن يرتاب الناس في كونه يهدف إلى إقامة دكتاتورية؛ بحيث إنه عندما رأى أن ميول سيمون متعاطفة بقوة

التفسير

من بلد كان قد انحدر إلى الحرب الأهلية في أواخر أربعينات القرن السابع عشر، صاغ لويس الرابع عشر أقوى مملكة في أوروبا. فكان القادة العسكريون العظام يرتجفون في حضرته. وقد غلط طباخٌ ذات مرة في تهيئة أحد الأطباق فانتحر بدلاً من مواجهة غضب الملك. وكان للويس الرابع عشر عشيقات كثيرات. ولكن سلطتهن كانت تنتهي في المخدع. وقد ملأ بلاطه بألمع الأدمغة في عصره. وكانت ڤرساي

مع النبلاء، وأن سيمون كان معبود الحزب الأرستقراطي، فقد بدأ بريكليس يتقرّب من أبناء الشعب، للحفاظ على نفسه من جهة، وكطريقة لتأمين السلطة ضد منافسه. فبدأ يعيش حياته بطراز جديد. فلم يشاهده أحدٌ أبداً يسير في أي شارع سوى الذي يؤدّي إلى السوق وغرفة المجلس.

حياة بريكليس
بلوتارخ، حوالي 46 - 120 م

رمز سلطته: فقد رفض القبول بقصر أجداده: اللوڤر، فبنى قصره الخاص به في وسط ما كان اللامكان عندئذٍ، رامزاً بذلك إلى أن نظامه نظام جديد أَسَّسَهُ هو بدون سابقة. فجعل ڤرساي واسطة عقد عهده. ومكاناً يحسده كل ذوي السلطة الأقوياء في أوروبا ويزورونه بشعور بالهيبة والرهبة. ومن حيث الجوهر فإن لويس أخذ فراغاً كبيراً - هو الملكية الفرنسية الآخذة في التفسخ. وملأه برموزه الخاصة وسلطته المشعّة.

وكان لويس الخامس عشر، من جهة أخرى، يرمز إلى مصير كل الذين يرثون شيئاً كبيراً أو الذين يتبعون خُطَى رجل عظيم. وقد يبدو أن من السهل على ولدٍ أو خَلَفٍ أن يبنيا على الأساس الكبير المتروك لهما ولكن العكس هو الصحيح في مملكة السلطة. فالولد المدلل المستجاب الطلبات يبعثر ميراثه بصورة تكاد تكون دائمة، لأنه لا يبدأ بالحاجة إلى ملء الفراغ التي بدأ بها أبوه. وكما يذكر ماكيافيللي، فإن الضرورة هي ما يدفع الناس إلى العمل. وما أن تنتهي الضرورة، حتى يبقى التعفن والتفسخ فقط. ولما لم يكن لويس الخامس عشر بحاجة إلى زيادة مخزونه من السلطة، فقد خضع حتماً للكسل والجمود. وفي ظل حكمه أصبحت ڤرساي (التي كانت رمز سلطة الملك الشمس) إلى قصر ملذات لا يُضَاهَى في ابتذاله، إلى نوع من «لاس فيغاس» تابعة لملكية آل بوربون. وصارت تمثل كل ما كان فلاحو فرنسا المقهورون يكروهونه في ملكهم. وفي أثناء الثورة الفرنسية نهبوا ڤرساي وهم فرحون طَرِبُون.

ولم يكن أمام لويس الخامس عشر سوى مخرج واحد من المصيدة التي تنتظر ابنَ رجلٍ كالملكِ الشمسِ أو خَلَفِهِ، وهو: أن يبدأ نفسياً من الصفر، فيشوه سمعة الماضي وميراثه، وأن يتحرك في اتجاه جديد كلّيّاً فيخلق عالمه الخاصَّ به. ومع افتراض أن لديك الخيار، فإن من الأفضل أن تتجنب هذا الوضعَ كلَّه. وأن تضع نفسك حيث يوجد فراغ في السلطة، بحيث تكون أنت الذي يأتي بالنظام من الفوضى بدون الحاجة

إلى التنافس مع نجم آخر في السماء. فالسلطة تعتمد على ظهورك أكبر من الآخرين. وعندما تضيع في ظل الأب، الملك، السلف العظيم، فإنك لن تستطيع إبراز مثل هذا الحضور.

ولكن عندما شرعوا في جعل السيادة وراثية، تدهور الاطفال بسرعة عن مستويات آبائهم، فابتعدوا كثيراً عن محاولة مضاهاة فضائل آبائهم، فاعتبروا ان الامير ليس لديه ما يفعله سوى ان يبزَّ الجميع في الراحة والبطالة والانغماس في الشهوات وكل انواع اللذات والمسرات الأخرى.

(نيقولو ماكيافيللي 1469 ـ 1527)

مراعاة القانون

عندما كان الإسكندر الأكبر شاباً، سيطرت عليه عاطفة حماسية ـ هي كراهية شديدة لوالده فيليب ملك مقدونيا. فقد كره أسلوبَ فيليب الماكر الحذر في الحكم، وخطبَهُ الطنانةَ، وسكرَهُ، وفجورَهُ، وحبَّهُ للمصارعة وغيرها من أساليب تضييع الوقت. وكان يعلم أنَّ عليه أنْ يجعل نفسه عكس والده المسيطر تماماً: فقرر أن يرغم نفسه على أن يكون جريئاً ومتهوراً، ويتحكم بلسانه ويكون رجلاً قليل الكلام، لا يضيع الوقت الثمين في ملاحقة مسرّات لا تجلب مجداً. كما سَخِطَ الإسكندرُ على غزو فيليب لمعظم بلاد اليونان، فشكا بقوله ذات مرة: «سوف يستمر أبي في الغزو حتى لا يترك لي شيئاً خارجاً عن المألوف أفعله». وبينما كان الأبناء الآخرون للأقوياء ذوي السلطة قانعين بأن يرثوا الثروة ويعيشوا حياة فراغ وتبطُّل لم يكن الإسكندر يريد سوى أن يبزّ والده، ويمحو اسم فيليب من التاريخ بالتفوق على منجزاته.

وكان الإسكندر يتحرق ليُظْهِرَ للآخرين كم هو متفوق على أبيه. وذات مرة جاء تاجر خيول من ثيسالي بحصان رائع يُسَمَّى بوسيفالوس كي يبيعه لفيليب. فلم يستطع أي واحد من ساسة خيول الملك أن يقترب من ذلك الحصان ـ فقد كان مفرط الوحشية. فوبّخ فيليبُ التاجرَ على

حياة الرسام
بييترو بيروجينو
حوالى 1450 ـ 1523
كَم يكون الفقر مفيداً أحياناً لأصحاب الموهبة. وكم يعمل كحافز قوي لجعلهم كاملين أو ممتازين في أية مهنة قد يختارونها. ويمكن رؤية ذلك بوضوح في أعمال بييترو بيروجينو. فقد رغب في استخدام قدرته للحصول على مكانة محترمة، بعد أن خلف مصائب كارثية وراءه في بيروجيا، وجاء إلى فلورنسا، حيث بقي أشهراً عديدة في فقر، وهو ينام في صندوق لأنه لم يكن لديه سرير آخر. فحوّل ليله إلى نهار، وعكف على دراسة

جلبه مثل هذا الحيوان الذي لا فائدة منه. وكان الإسكندر يتفرج على المسألة كلها، فعلق عابساً: «يا له من حصان يخسرونه لانعدام المهارة والروح لتدبيره!» وعندما كرر ذلك عدة مرات، عيل صبر فيليب، فتحداه أن يكسر شكيمة الحصان. واستدعى التاجر ثانيةً وهو يأمل في سرّه أن يتعرض ابنه لسقطةٍ مؤذيةٍ تعلّمه درساً مريراً: فلم يكتف الإسكندر بركوب بوسيفالوس، بل استطاع أن يقوده في شوط عدوٍ سريع. فَرَوَّضَ الحصانَ الذي حمله طيلة المسافة إلى الهند. وصفق رجال الحاشية بشكل جامح. ولكن فيليبَ راح يغلي من الداخل وهو لا يرى أمامه ولداً، بل منافساً له في سلطته.

وصار تحدي الإسكندر لأبيه أجرأ. وذات يوم اندلعت بين الرجلين مشادة حامية أمام البلاط كله. فشهر فيليب سيفه كأنه يريد أن يضرب ولده؛ غير أنه كان قد أفرط في الشراب، فتعثّر. فأشار إليه الإسكندر وقال ساخراً: «يا رجال مقدونيا، انظروا هناك إلى رجل يستعد للعبور من أوروبا إلى آسيا. إنه لا يستطيع العبور من طاولة إلى أخرى دون أن يسقط».

وعندما كان الإسكندر في الثامنة عشرة، قام رجل حاشية ساخط باغتيال فيليب. وعندما انتشر خبر مصرع الملك في اليونان، ثارت مدينة بعد أخرى متمردة على حكامها المقدونيين. ونصح مستشارو فيليب الإسكندرَ، الذي صار ملكاً، أن يتقدم بحذر وأن يتصرف كما تصرف فيليب، فيغزو بالخداع والدهاء. ولكن الإسكندر كان يريد أن يعمل الأشياء بطريقته الخاصة به: فزحف إلى أقاصي امتدادات المملكة، وقمع المدن المتمردة وأعاد توحيد الإمبراطورية بكفاءة وحشيّة.

ومع تقدّم المتمرد الشاب في السن، فإن صراعه ضد أبيه غالباً ما يأخذ في الانحسار، فيصير بالتدريج شبيهاً بالرجل الذي أراد أن يتحداه نفسه. ولكن نفور الاسكندر من أبيه لم ينتهِ بموت فيليب. وما أن عزّز اليونان حتى وضع نُصْبَ عينيه بلادَ فارس، الجائزة التي أفلتت من أبيه

حرفته مثابراً في حماس عظيم. وبعد أن أصبح الرسم طبيعة ثانية له، كان سروره الوحيد هو العمل في حرفته على الدوام، بحيث راح يرسم في دأب متواصل. ونظراً لأن الرعب من الفقر كان ماثلاً أمام عينيه دائماً، فقد عمل أشياء لكسب المال لعله ما كان ليهتم بالقيام بها على الإطلاق لو لم يكن مرغماً ليعيلَ نفسَه. وربما كان الغِنَى سيسدّ أمامه وأمام موهبته سبيلَ الإبداع والتميُّز، تماماً كما فتحه له الفقر. ولكن الحاجة ظلّت تحفزه على الاستمرار، لأنه كان يرغب في الارتفاع من حضيض مركزه البائس المتواضع، إن لم يكن نحو القمّة وذروة التميز، فلا أقلّ من نقطة يستطيع عندها الاستمرار في العيش. ولهذا السبب فإنه لم يعبأ بالبرد، والجوع، والانزعاج، والمضايقات، والكدح، أو الخجل إن كان يستطيع العيش يوماً واحداً فقط في يسرٍ وراحة وَدَعَةٍ، وكان يقول دائماً ـ فيما يكاد يشبه الأمثال ـ إنه بعد الطقس السيّء لا بدّ أن يأتي الطقس الطيّب، وإنه في الطقس الطيّب يجب بناء البيوت لتكون مَيْوَى في أوقات الحاجة.

حَيَوَاتُ الفنانين
جورجيو فاساري
1511 ـ 1574

الذي كان يحلم بغزو آسيا. فإذا دَحَرَ الإسكندر الفُرْسَ فسوف يتفوق على أبيه في نهاية الأمر في المجد والشهرة.

وعَبَرَ الإسكندر إلى آسيا بجيش من 35000 مقاتل ليواجه قوة فارسية يزيد تعدادها على مليون. وقبل الاشتباك مع الفرس في معركة، مَرَّ عَبْرَ مدينة غورديومْ. وهنا في معبد المدينة الرئيسي كانت تقف عربة قديمة مربوطة بحبال مصنوعة من لحاء شجرة القرانيا. وكانت هناك أسطورة تقول إن من يستطيع أن يفكّ تلك الحبال سيحكم العالم (كانت تلك هي العقدة الغورديّة، التي أحكم شدّها غورديوس ملك فرجينيا). وقد حاول كثيرون أن يحلّوا تلك العقدة الضخمة والمعقدة فلم ينجح أحد منهم. ورأى الإسكندر أنه لا يمكن أن يحلّ تلك العقدة بيديه المجردتين. فشهر سيفه، وبضربة واحدة قطعها إلى نصفين. فأظهرت تلك الإشارة الرمزية للعالم أنه لن يفعل ما فعله الآخرون، بل سيشق طريقه الخاص به.

وفي مواجهات أرجحياتٍ مذهلة ضد الإسكندر، تمكن من دحر الفُرْس. وقد توقع أغلب الناس أنه سيتوقف هناك. فقد كان نصره عظيماً، يكفي لتأمين شهرته إلى الأبد. ولكن علاقته بأفعاله كانت هي نفسها علاقته بوالده. وكان غزوه لفارس يمثل الماضي. ولم يرد أن يستريح على انتصارات الماضي، أو أن يسمح للماضي بأن يتفوق في الإشراق على الحاضر. فاستمر في حركته نحو الهند، مادّاً إمبراطوريته فيما وراء الحدود المعروفة جميعاً. ولم يمنعه من الزحف إلى أبعد من ذلك سوى جنده الساخطين والمبعدين.

التفسير

يمثل الإسكندر نموذجاً غير مألوف للغاية في التاريخ، وهو نموذج ابن الرجل الشهير والناجح، الذي يستطيع أن يتفوق على أبيه. وهو نموذج غير مألوف لسبب بسيط: فالأب، في أغلب الأحيان، يجمع

ثروته، ومملكته، لأنه يبدأ بالشيء القليل أو بلا شيء. فهناك حافز يائس يدفعه دفعاً إلى النجاح - فليس لديه ما يخسره بالدهاء والتهور، وليس له أب مشهور وعليه أن ينافسه. فهذا النوع من الرجال لديه سبب للإيمان بنفسه. وللإيمان بأن طريقته في عمل الأشياء هي الأفضل، لأنها - بعد كل شيء. نجحت بالنسبة له.

وعندما يكون لرجل كهذا ولد، فإن الرجل يصبح مهيمناً وثقيل الوطأة، يفرض دروسه على ولده، الذي يبدأ انطلاقة حياته في ظروف مختلفة كليًّا عن تلك التي كان الأب نفسه قد بدأ بها. وبدلاً من السماح للابن بالذهاب في اتجاه جديد، سيحاول الأب أن يضع ابنه في مكانه. ولعله يرغب في سره أن يفشل الولد، كما أراد فيليب أن يرى الإسكندر مرميًّا من على ظهر الحصان بوسيفالوس. فالآباء يحسدون نشاط أبنائهم وقوتهم، بعد كل شيء. ورغبتهم هي السيطرة والهيمنة. وأبناء مثل هؤلاء الرجال يميلون إلى أن يصيروا مرتاعين وحذرين، ومذعورين من خسارة ما كسبه آباؤهم.

فالابن لن يخطو خارج ظل أبيه ما لم يتبع استراتيجية الإسكندر التي لا ترحم: استخفّ بالماضي، واخلق مملكتك الخاصة، وضع أباك في الظلال بدلاً من السماح له بعمل الشيء نفسه لك. فإن لم تكن قادراً على أن تبدأ ماديًّا من طابق الصفر - إذ أن من الحمق التخلي عن إرث فإنك تستطيع أن تبدأ من طابق الصفر نفسيًّا على الأقل، فتلقي بعبء الماضي من على كاهلك، وتختطّ لنفسك اتجاهاً جديداً. فقد أدرك الإسكندر بغريزته أن امتيازات المولد عقبات في طريق اكتساب السلطة فكن إذن بلا رحمة مع الماضي - ليس فقط مع أبيك وأبيه، بل ومع إنجازاتك الأولى. فالضعفاء وحدهم، هم الذين ينامون على أكاليل غارهم، ويشغفون بانتصارات الماضي؛ وفي لعبة السلطة، لا وقت للراحة أبداً.

مشكلة بول مورفي

إن أبسط معرفة بالشطرنج تُظْهِرُ أنها لعبة بديلة لفن الحرب. وبالفعل، فقد كانت وسيلة الترفيه المفضّلة لعدد من أعظم القادة العسكريين، من وليام الفاتح إلى نابليون. وفي الصراع بين الجيشين المتخاصمين في هذه اللعبة يجري إظهار مبادىء الاستراتيجية والتكتيك (أي الهدف الثابت والخطة المرحلية) التي تستخدم في الحرب الفعلية نفسها. كما أن هناك ضرورة لإظهار بُعد النظر والقدرات الحسابية نفسها، وكذلك القدرة على حَدْس خطط الخصم. كما أن الصرامة التي تتخذ بها القرارات وتتبعها عواقبها، فيها عدم الرحمة في الحرب نفسها. إن لم تكن أشدّ وأدهى. وأكثر من ذلك، فإن الحافز اللاشعوري الذي يحفز اللاعبين ليس قاصراً على حب المشاكسة والخصام الذي يميّز كل الألعاب

مفاتيح السلطة

في كثير من الممالك القديمة، كالبنغال وسومطره مثلاً، كان الملك بعد أن يحكم عدة أعوام يعدمه رعاياه. وكان سبب ذلك جزئياً أنهم يقومون به كأحد طقوس التجديد. وكذلك لمنعه من تضخم سلطته أكثر من اللازم ـ لأن الملك كان يحاول بصورة عامة أن يقيم نظاماً دائماً على حساب أسرٍ أخرى وعلى حساب أبنائه أنفسهم. وبدلاً من حماية القبيلة وقيادتها في أوقات الحرب، سيحاول السيطرة عليها. وهكذا كانوا يضربونه حتى الموت أو يعدمونه وفق طقوس معقدة ومنتظمة. وعندئذ، بعد أن يتم تغييبه لئلا يدير التكريم رأسه، يمكن عبادته كإله. وفي الوقت نفسه يتم إخلاء الميدان لنظام جديد وشاب كي يرسخ نفسه.

إن هذا الموقف المزدوج المعادي للملك، أو لشخصية الأب، يجد تعبيراً له أيضاً في أساطير الأبطال الذين لا يعرفون أباهم. فموسى، النموذج الأصلي لرجل السلطة، عثر عليه وسط نبات البَرْدِيّ ولم يعرف أبويه أبداً [حسب التوراة المليئة بالزيف والتحريف: المترجم]. وبدون أب يتنافس معه ويقيد حركته، استطاع أن يصل إلى ذروة السلطة. وهرقل لم يكن له أب أرضي ـ بل كان ابن «الإله» زيوس، معبود الإغريق الأقدمين حسب الأساطير. والإسكندر أشاع في أواخر أيام حياته أن «الإله» جوبيتر آمون هو الذي أنجبه، وليس فيليب المقدوني. فمثل هذه الأساطير والطقوس تحذف الأب الإنساني لأنه يرمز إلى قوة الماضي المدمرة.

فالماضي يمنع البطل الشاب من خلق عالمه الخاص به ـ إذ يتعين عليه أن يفعل كما فعل أبوه، حتى وإن كان أبوه قد مات ولم تعد له سلطة. فالبطل عليه أن ينحني ويظهر الاحترام لسلفه ويخضع للتقاليد والسوابق. وما حقق نجاحاً في الماضي يجب أن يمتد إلى الحاضر، حتى ولو تغيرت الظروف تغيراً كبيراً. كما أن الماضي يثقل كاهل البطل بإرث يرتعب من فقدانه، مما يجعله متخوفاً وحذراً.

التنافسية، ولكنه الحافز الكالح الرهيب لقتل الأب. صحيح أن الهدف الأصلي ـ أسْرَ الملك ـ قد تمَّ التخلّي عنه، ولكن من حيث الدافع لم يحدث تغيير يذكر، إلاّ فيما يختص بالفجاجة، في الهدف الحالي، وهو تعقيمه بشلِّ حركته. . . فعبارة «كش مات» تعني حرفياً شاهُكَ (ملكك) مات. . . إن معرفتنا بالحافز اللاشعوري في لعب الشطرنج تخبرنا أن ما يُعْرَضُ علينا فيها هو الرغبة في التغلب على الأب بطريقة مقبولة. . ولا شك أن من المهم أن الكفاح الملحمي [لبطل الشطرنج في القرن التاسع عشر، بول] مورفي للصعود إلى ذرى ممالك الشطرنج، قد بدأ بعد عام واحد فقط من موت والده المفاجىء وغير المتوقع، والذي كان صدمة كبرى له. ولنا أن نتأمّل في أن جهده اللامع للتسامي فوق آلامه، كان ردّ فعل على هذا الحدث الحسّاس الأهمية، تماماً كما هي الحال عند هاملت بطل رواية شكسبير، وكتاب فرويد تفسير الأحلام. . . وينبغي أن يُقال شيءٌ الآن عن الاستقبال الذي لقيه نجاح مورفي، إذ إن انتصاراته كانت من نوعٍ يثير التساؤل عما إذا كان انهياره اللاحق، فيما بعد، لم يتأثر من احتمال كونه من النمط الذي وصفه فرويد بعبارة: «الذين يحطِّمهم النجاح» . . . فإذا صيغ السؤال بلغة مستقاة من اصطلاحات علم النفس فسيصبح: هل ذُعِرَ مورفي من وقاحته نفسها عندما

إن السلطة تعتمد على القدرة على ملء الفراغ، واحتلال ميدان تم إخلاؤه من أعباء الماضي الميتة. ولن يتاح لك المجال لخلق وتأسيس نظام جديد إلاً بعد التخلص من شخصية الأب على نحو مناسب. وهناك استراتيجيات عديدة تستطيع أن تتبناها لتحقيق ذلك ـ تنويعات على إعدام الملك تخفي عنف الحافز الدافع وتموهه بتوجيهه ليتقولب في أشكال مقبولة اجتماعياً.

ولعل أبسط طريقة للهرب من ظل الماضي هي التقليل من شأنه ـ ببساطة. واستغلال العداء الأبدي بين الأجيال، وإثارة الشباب على الشيوخ. ولهذا الغرض أنت بحاجة إلى شخصية مناسبة لعجوز كي تشهّر به. فماوتسي تونغ، في مواجهة حضارة تقاوم التغيير بشراسة، استغل السخط المكبوت ضد الحضور الطاغي لكونفوشيوس المبجل في الثقافة الصينية. وكان جون فيتزجيرالد كيندي يعرف أخطار الضياع في الماضي: فميّز رئاسته بشكل جذري عن رئاسة سلفه، دوايت ديفيد آيزنهاور، وعن عقد الخمسينيات المنصرم في القرن العشرين، الذي طبعه آيزنهاور بطابعه الشخصي. وعلى سبيل المثال، فإن كيندي لم يلعب لعبة الغولف الأبوية الباهتة ـ التي كانت رمزاً للتقاعد وامتيازات النفوذ، والتي كان آيزنهاور يحبها بحماس. وبدلاً من ذلك مارس لعبة كرة القدم على ساحة البيت الأبيض. وفي كل جانب كانت إدارته تمثل النشاط والحيوية والشباب، وعلى عكس الاتجاه الرجعي المحافظ لآيزنهاور. كان كيندي قد اكتشف حقيقة قديمة، وهي: من السهل تسليط الشباب ضد الشيوخ، إذ أنهم يتشوقون لإثبات وجودهم ومكانهم في العالم، ويسخطون على ظل آبائهم.

وكثيراً ما تتطلب المسافة التي تقيمها بينك وبين سلفك نوعاً من الرمزية، وطريقةً للإعلان عن نفسك على الملأ. وعلى سبيل المثال فقد خلق لويس الرابع عشر مثل هذا الرمز عندما رفض القصر التقليدي

سُلّط ضوءُ الشهرة على [هذا النجاح العظيم؟]. ولقد أشار فرويد بأن الذين يتحطّمون تحت توتر النجاح الأعظم مما ينبغي، يعود سبب تحطمهم إلى كونهم يستطيعون تحمله في الخيال. . أما في الحقيقة فلا؛ ذلك أن حصاء الأب في حلم مّا يختلف جداً عن ارتكابِ ذلك في الحقيقة. فالوضع الحقيقي يستثير الإحساس بالذنب الكامن في أعماق اللاشعور بكل قوّته. وقد تكون العقوبة انهياراً عقلياً.

مشكلة بول مورفي
إرنست جونز، 1951

للملوك الفرنسيين، وبنى قصره الخاص به في ڤرساي. وفعل ملك إسبانيا فيليب الثاني الشيءَ نفسَه عندما أوجد مركز سلطته، قصر الإسكوريال في وسط ما كان يبدو آنئذٍ كاللامكان. ولكن لويس سار في اللعبة إلى ما هو أبعد. فلم يرد أن يكون ملكاً مثل أبيه أو أسلافه الأوائل. فلم يلبس تاجاً، ولم يحمل صولجاناً، ولم يجلس على عرش، بل أراد أن يقيم نوعاً جديداً من السلطة المهيبة، برموزها وطقوسها الخاصة. فجعل لويس طقوسَ أسلافه، آثاراً مضحكة من بقايا الماضي. فاتبع مثاله: إياك أن تدع نفسك تشاهَدُ كمتبع لطريق سلفك. فإن فعلتَ فإنك لن تتفوق عليه قَطّ. فعليك أن تُظْهِرَ اختلافك عنه بتجسيد ماديّ، بإقامة أسلوب ورمز يفصلانك وحدك.

وكان الإمبراطور الروماني أُغسطس، الذي خَلَفَ يوليوس قيصر، يفهم ذلك فهماً كاملاً. فقد كان يوليوس قيصر قائداً عظيماً، وشخصيةً مسرحيةً كانت مشاهدها تبقي الرومان مستمتعين، كما كان مبعوثاً دولياً أغوته مفاتن كليوباترا. وكان شخصيةً أكبر من الحياة. وهكذا فإن أُغسطس، رغم ميوله المسرحية، تنافس مع قيصر، ليس بمحاولة التفوق عليه، بل بتمييز نفسه عنه. فأقام سلطته على العودة إلى البساطة الرومانية، والتقشف في الأسلوب والمادة معاً. وفي مقابل ذكرى الحضور الطاغي لقيصر، كان موقف أُغسطس يمثل الوقار الرجولي الهادىء الرصين.

والمشكلة مع السلف المستبد أنه يملأ الآفاق أمامك برموز الماضي. فلا يترك لك مجالاً لخلق اسمك الخاص. وللتعامل مع هذا الوضع، فإنك بحاجة إلى تصيّد الفراغات ـ وهي تلك المجالات الثقافية . الحضارية التي تُرِكَتْ شاغرةً والتي يمكنك أن تصبح أولَ شخصية رئيسية تشرق فيها.

فعندما كان بريكليس الأثيني على وشك الانطلاق في حياته العملية

كرجل دولة بحث عن الشيء الذي كان ناقصاً في السياسة الأثينيَّة. كـ
معظم السياسيين الكبار في عصره قد تحالفوا مع الأرستقراطية، بل ـ
بريكليس نفسه كانت لديه ميول أرستقراطية في الحقيقة. ومع ذلك فقد
قرر أن يلقي بحظه مع العناصر الديمقراطية. ولم يكن لاختياره علاقة
بمعتقداته الشخصية، ولكنّه أطلقه في حياة عملية لامعة. فقد صار بفعل
الضرورة رجلَ الشعب. وبدلاً من التنافس في حلبة مليئة بالقادة العظ
في الماضي والحاضر، أراد أن يُبْرِزَ اسمَهُ حيث لا تستطيع الظلال أن
تطمس حضوره.

وعندما بدأ الرسام دييغو دي فاليسكويز حياته العملية، كان يعرف
أنه لا يستطيع أن يتنافس في الصفاء والأسلوب الفني مع رسّامي عصر
النهضة العظام الذين جاؤوا من قَبْلِهِ. وبدلاً من ذلك اختار أن يعمل
بأسلوب بَدَا خشناً وفظّاً وغير مصقول بمقاييس عصره، وبطريقة لم
يشهدها الناس من قبل. فبرز في هذا الأسلوب وأبدع. وكان في البلاط
الإسباني رجال يريدون أن يظهروا انفصالهم عن الماضي، وقد سحرتهم
جِدَّةُ أسلوب فاليسكويز، ذلك أن معظم الناس كانوا يخشون الانفصال
عن التقاليد بمثل تلك الجرأة، ولكنهم يُعْجَبُون سراً بالذين يستطيعون
تحطيم الأشكال التقليدية وبث قوة تجديدية في الثقافة. ولهذا فإن هناك
سلطة كبيرة يمكن كسبها من دخول الفراغات والأماكن الخاوية.

وهناك نوع من الغباء العنيد يتكرر عبر التاريخ كله، وهو عقبة كأداء
في وجه اكتساب السلطة: إنه الاعتقاد الخرافي بأنه إذا نجح قبلك
شخصٌ مّا في عمل كذا وكذا وكذا، فإنك تستطيع أن تعيد تجسيد نجاحه
بإنجاز الشيء نفسه تماماً. ومثل هذا النهج الشبيه بقالب الحلوى يغري
الشخص غير الخلاق لأنه سهل، ويعجب طبيعتهم المتخوفة والكسولة.
ولكن الظروف لا تكرر نفسها بالضبط أبداً.

فعندما تولى الجنرال دوغلاس مكارثر قيادة القوات الأميركية في

الفلبين أثناء الحرب العالمية الثانية، أعطاه مساعدٌ له كتاباً يحتوي على السوابق المختلفة التي أسسها القادة من قبله، والطرق التي نجحوا فيها. فسأل مكاثرُ مُسَاعِدَهُ عن عدد النسخ الموجودة من ذلك الكتاب. فأجاب المساعد بأنها ستّ. فرد الجنرال: «حسناً. . اجمع تلك النسخ الست كلها وأحرقها ـ ولا تبقِ منها شيئاً. فإنني لن أتقيد بالسوابق. فكلما نشأت مشكلة، سأتخذ بشأنها قراراً في الحال ـ على الفور». اتبع هذه السياسة التي لا ترحم إزاء الماضي. أحرق كل الكتب. ودرِّب نفسك على أن يكون لك رد فعل على الظروف عند حدوثها.

وربما تعتقد أنك قد فصلتَ نفسك عن سلفك، أو عن شخصية أبيك. ولكن مع تقدمك في السن، يتعين عليك أن تظل يقظاً على الدوام، لئلا تتحول بدورك إلى الوالد الذي تمردتَ عليه. فعندما كان ماوتسي تونغ شاباً، كان يكره أباه، وفي الصراع ضده وجد هويته الخاصة، ومعها مجموعة جديدة من القيم. ولكن مع تقدمه في السن، زحفت إلى سلوكه أساليب أبيه مرةً أخرى. وكان أبوه يقدِّر العمل اليدوي أكثر من الفكر؛ وكان ماو يسخر من ذلك في شبابه. غير أنه مع تقدمه في السن، عاد بصورة لا شعورية إلى آراء والده، وراح يردد صدى أفكار فات أوانها بإرغام جيل كامل من المثقفين والمفكرين الصينيين على العمل اليدوي، فكانت تلك غلطة كابوسية كلفت نظامه غالياً.

تذكّر: إنك أنت والد نفسك. فلا تدع نفسك تمضي السنوات في خلق شخصيتك، ثم تتخلى عن حرصك وحيطتك لتتيح لأشباح الماضي ـ الأب، العادة، التاريخ ـ أن تزحف عائدة إليك.

وأخيراً، كما لوحظ في قصة لويس الخامس عشر، فإن الوفرة والازدهار يميلان إلى جعلنا كسالى وغير فاعلين: فعندما تكون سلطتنا آمنة مضمونة، لا نكون بحاجة إلى العمل والتصرف. وهذا خطر جِدِّيّ، وخاصة بالنسبة لمن يحققون النجاح ويكتسبون السلطة في عمر مبكر.

فالكاتب المسرحي الأميركي تنيسي وليامز، على سبيل المثال، وجد نفسه يرتفع كالصاروخ إلى سماء الشهرة من حضيض كونه مغموراً بـ نجاحه في مسرحيته **الوحوش الزجاجية**. فكتب فيما بعد: «كان ـ الحياة التي أعيشها قبل هذا النجاح الشعبي، يتطلب جَلَداً وتحملاً. فكانت حياة من الكدح والخدش بالأظافر. ولكنها كانت حياة طيبة لأ كانت نوعَ الحياة التي خُلِقَ من أجلها الكائن العضوي الإنساني. ولم أدرك مدى الطاقة الحيوية التي انصبّت في هذا الكفاح إلى أن الكفاح، ووصلت في آخر الأمر إلى برّ الأمان. فجلست ونظرت حولي وأُصِبْتُ فجأةً باكتئابٍ شديد». ولقد أصيب وليامز بانهيار عصبي لعله كان ضرورياً له. فعندما دُفِعَ إلى الحافة النفسية استطاع أن الكتابة مرة أخرى بحيويته القديمة. فأنتج مسرحية **عربة شارع اسمها الرغبة**. وبالمثل كان فيدور دستويفسكي كلما كتب قصة ناجحة يشعر الأمن المالي الذي حصل عليه يجعل عملية الخلق غير ضرورية. فكان يأخذ مدخراته كلها إلى الكازينو فلا يغادره حتى يخسر آخر مليم له في القمار. وما أن ينحدر إلى حضيض الفقر حتى يتمكن من الكتابة ثانيةً.

وليس من الضروري أن يصل الإنسان إلى مثل هذه الحالات القصوى. ولكن عليك أن تكون مستعداً للعودة إلى المربّع الأول نفسياً بدلاً من أن تصبح بديناً مترهلاً وكسولاً مع الغِنَى. فقد كان بابلو بيكاسو قادراً على التعامل مع النجاح، ولكن فقط بتغيير أسلوب رسمه باستمرار، وكثيراً ما كان ينفصل تماماً عمّا كان قد جعله ناجحاً من قبل. وكثيراً ما تحولنا الانتصارات المبكرة إلى نسخ كاريكاتورية عن أنفسنا. والناس ذوو السلطة الأقوياء يدركون هذه المصايد؛ ومثل الإسكندر الأكبر، فإنهم يكافحون باستمرار كي يعيدوا خلق أنفسهم. فالأب يجب أن لا يُسْمَحَ له بالعودة؛ بل يجب ذبح ذكراه عند كل خطوة على الطريق.

صورة: الأب. إنه يلقي ظلاً عملاقاً
على أطفاله، فيبقيهم في أسره بعد
رحيله بزمن طويل عن طريق
ربطهم بالماضي، فيخمد روحهم
الشّابّة، ويرغمهم على أن يسلكوا
الدرب المتعَبَ نفسَه الذي سار فيه
هو. فأحابيله شتّى. فعند كل مفترق
طرق يتعين عليك أن تذبح ذكرى
الأب وتخطو خارجَ ظله.

الشاهد: احذر من الحلول محل رجل عظيم ـ لأنه
يتعين عليك إذا فعلت أن تحقق ضعف منجزاته كي
تتفوّق عليه. ذلك أن الآتين فيما بعد يُنْظَرُ إليهم
على أنهم مقلّدون. فمهما كدحوا وعَرِقُوا فإنهم لن
يزيحوا عن كواهلهم ذلك العبء. وإنها لمهارة غير
مألوفة ولا عاديّة أن يعثر المرء على طريق جديد
للإبداع والتميز، وطريق حديث للشهرة، فهناك
عدة طرق للتفرّد، وليست كلها مطروقة جيدة.
والجديدة منها قد تكون شاقة، ولكنها كثيراً ما
تكون طرقاً مختصرة إلى العَظَمة.

(بلثازار غراسيان، 1601 ـ 1658).

الانقلاب

يمكن استخدام ظل السلف العظيم لتحقيق مصلحة إذا اختير كخدعة، كتكتيكٍ يمكن إلقاؤه بعيداً بمجرد أن يأتيك بالسلطة. فنابليون الثالث استخدم الاسم والأسطورة اللامعين لعم جده، نابليون بونابرت، لمساعدته على أن يصبح رئيساً لفرنسا أول الأمر ثم إمبراطوراً. غير أنه عندما اعتلى العرش لم يبقَ مشدوداً إلى الماضي؛ وسرعان ما بيَّن للناس

كم سيكون عهده مختلفاً، وكان حريصاً على عدم جعل عامة الناس يتوقعون منه أن يصل إلى الأعالي التي وصل إليها بونابرت.

وكثيراً ما يكون في الماضي عناصر جديرة بأن يقترب منها المرء. وصفات من الحمق أن تتجاهلها بدافع الحاجة إلى تمييز نفسك. فحتى الإسكندر الأكبر اعترف بمهارة أبيه في تنظيم الجيش وتأثر به. ... تحويلك الأمر إلى استعراض توضح فيه كيف تعمل الأشياء بطريقة تختلف عن سلفك، قد يجعلك تبدو كالطفل، بل وخارجاً عن السيطرة في الواقع، إلاَّ إذا كان لتصرفاتك منطقها الخاص بها.

فجوزيف الثاني، ابن الإمبراطورة النمسوية ماريا تيريزا، تعمّد عرض عمله المعاكس بالضبط لما كانت تعمله أمه ـ فكان يرتدي ملابسه كمواطن عادي، ويقيم في الخانات بدل القصور، ويظهر بمظهر «الإمبراطور الشعبي». ومن جهة أخرى، كانت ماريا تيريزا ملكية وأرستقراطية. والمشكلة أنها كانت محبوبة أيضاً، وإمبراطورة تحكم بتعقل وحكمة، بعد سنوات من التعلم بالطريقة الصعبة. فإذا كان لديك نوع الذكاء والغريزة اللذين يوجهانك الوجهة الصحيحة، فإن ممارسة دور المتمرد لن تكون خطرة. ولكن إذا كنت عادياً، كما كان جوزيف الثاني بالمقارنة مع أمه، فإن من الأفضل لك أن تتعلم من معرفة سلفك وخبرته، القائمتين على أساس شيء حقيقي.

وأخيراً، فكثيراً ما يكون من الحكمة أن تبقي عينيك على الشباب. منافسيك على السلطة في المستقبل. فمثلما تحاول أن تخلّص نفسك من ظل أبيك، فإنهم سوف يمارسون ضدك اللعبةَ نفسَها تماماً. فيشوهون سمعةَ كل شيء أنجزتَهُ. ومثلما تصعد أنت بالتمرد على الماضي، أبقِ عينك على أولئك الصاعدين من الأسفل، ولا تمنحهم فرصة كي يفعلوا بك الشيءَ نفسَه.

وكان فنان الباروك والمهندس المعماري العظيم بيترو بيرنيني أستاذاً في التعرف على المنافسين المحتملين الشباب وإبقائهم في ظلّه.

وذات يوم عرض عليه بَنَّاءٌ حجريٌّ مخططاته المعمارية. وكان ذلك البنّاء يدعى فرانشيسكو بوروميني. فتعرّفَ بيرنيني على موهبته فوراً، فاستأجره كمساعد له في الحال، مما سرّ الرَّجلَ الشاب. ولكن ذلك لم يكن في الواقع سوى تكتيك لإبقائه قريباً في متناول يده كي يتمكن من ممارسة الألعاب النفسية عليه ويخلق فيه نوعاً من مركب النقص. وبالفعل، رغم ألمعية بوروميني، فإن لبيرنيني شهرةً أكبر. وقد جعل من استراتيجيته مع بوروميني ممارسةً مدى الحياة. وقد خشي - على سبيل المثال - أن تصاب سمعته بالكسوف على يد النحات العظيم آليساندرو آلغاردي، فتدبّر الأمر بحيث لا يستطيع آليغاردي أن يعثر على عمل إلاّ كمساعد له. وكان أي مساعد يتمرد على بيرنيني ويحاول أن يجد طريقه بنفسه يجد أن حياته العملية قد دُمِّرتْ.

القانون

42

اضرب الراعي... تتفرق الغنم

الحكم

كثيراً ما يمكن تتبع أصل المتاعب إلى فرد واحد قويّ، هو المحرّك، المرؤوس المتغطرس، أسير النيّة الحسنة. فإذا أتحت لمثل هؤلاء الناس مجالاً للعمل، فسوف يخضع لنفوذهم آخرون. فلا تنتظر حتى تتضاعف المتاعب التي يسببونها، ولا تحاول أن تتفاوض معهم ـ فهم عصيّون على الإصلاح. فحيّد نفوذهم بعزلهم أو نفيهم. وجه ضربتك إلى مصدر المتاعب، وستتفرق الغنم.

مراعاة القانون الأولى

حوالى نهاية القرن السادس قبل الميلاد، أسقطت مدينةُ ـ دولة أثينا سلسلةَ الطغاةِ الصغار الذين كانوا يسيطرون على سياستها طيلة عقود من الزمن، وأقامت بدلاً منهم ديمقراطية، قُيِّض لها أن تدوم أكثر من قرن، ديمقراطية صارت مصدرَ سلطتها، وإنجازاً هو أكبر مبعث لفخرها واعتزازها. ولكن مثلما تطورت الديمقراطية، تطورت معها مشكلة لم يسبق للأثينيين أن واجهوها قَطّ: وهي كيفية التعامل مع الذين لا يهتمون بتلاحم مدينة صغيرة محاطة بالأعداء، والذين لا يعملون لتعزيز مجدها، بل يفكرون فقط في أنفسهم، وطموحاتهم الخاصة، ومؤامراتهم الصغيرة؟ كان الأثينيون يفهمون أن هؤلاء الناس إذا تُرِكُوا وشأنَهم، فسوف يبذرون بذور الشقاق، ويقسمون المدينة إلى طوائف، ويثيرون القلق والمخاوف. وهذه كلها أشياء يمكن أن تؤدي إلى دمار ديمقراطيتهم.

ولم تعد العقوبات العنيفة مناسِبَةً للنظام الجديد المتحضّر الذي أوجدته أثينا. وبدلاً من ذلك وجد المواطنون طريقةً أخرى، أكثَرَ إرضاءً، وأقلَّ وحشيةً للتعامل مع المصابين بأنانية مزمنة: ففي كل سنة كان المواطنون يتجمعون في السوق، ويكتبون على قطعة فخار اسمَ شخصٍ يريدون أن يروه منفيّاً من المدينة لمدة عشرة أعوام. فإذا ظهر اسم معيّن ستة آلاف مرة، كان ذلك الشخص يُنفَى على الفور. وإذا لم يتلقَّ أحد ستة آلاف صوت، فإن صاحب الاسم، الأكثر تسجيلاً على

غزو بيرو

واشتدَّ الصراع حول المحفَّة الملكية [لآتاهولبا، ملك الإنكا] فصار أشرس من ذي قبل. فراحت تترنّح أكثر فأكثر، وفي آخر الأمر، وبعد مصرع العديد من النبلاء الذين كانوا يسندون المحفة، انقلبت وكان الأمير الهندي [الأحمر] سيهوي إلى الأرض بعنف لو لم تُخفّف وطأةَ سقطته جهودُ بيزارو وبعض الفرسان الآخرين، الذين تلقوه في أذرعهم. وعلى الفور اختطفَ جنديٌّ شارة الإمبراطورية من على صدغيه، وتمّ نقل العاهل التعس .تحت حمايةٍ أمنية مشدَّدة .إلى بناية مجاورة حيث تمَّت حراسته بعناية وعندئذ توقّفت كل محاولة للمقاومة. وانتشر خبر مصير ملك الإنكا [آتاهولبا] في المدن والقرى، في الريف والحَضَر. فقد انفكّت عقدة السحر الذي كان يمكن أن يجعل البيروفيين متماسكين. ولم يعد كل شخص يفكّر إلاَّ في سلامته الخاصة وحتى جنود [الإنكا] المعسكرون في الحقول المجاورة أُصيبوا بالفزع، وعندما علموا بالخبر

قطع الفخار، كان هو الذي يتعرض لعشرة أعوام من «النفي» كمنبوذ. وصار هذا النفي الطقوسيّ، نوعاً من الاحتفال ــ فكم من الفرح ينجم عن القدرة على نفي الأشخاص المزعجين، الجالبين للقلق، الذين يريدون أن يصعدوا فوق الجماعة التي كان عليهم أن يخدموها.

وفي سنة 490 ق .م قام واحد من القادة العظام في تاريخ أثينا، وهو آريستيدس، بالمساعدة على دحر الفُرْس في معركة ماراثون. وفي تلك الأثناء، وبعيداً عن ميدان القتال، كانت نزاهته كقاضٍ قد أكسبَتْهُ لقبَ «العادل». ولكن مع مرور السنين بدأ الأثينيّون يكرهونه. فقد كان يحوّل استقامته إلى استعراض. واعتقد الأثينيّون أن ذلك كان قناعاً تنكريّاً يخفي شعوره بالتفوق واحتقاره للناس العاديّين. وصار حضوره في كل مكان من السياسة الأثينية ذميماً؛ وسئم المواطنون من سماع مناداته بـ «العادل». وراحوا يخشون من كون هذا الرجل - المُصْدِرِ للأحكام، والمترفّع - هو بالضبط الطراز الذي سيثير بينهم انقاساماتٍ عنيفةً في آخر الأمر. وفي سنة 482 ق .م، ورغم خبرة آريستيدس التي لا تقدر بثمن في الحرب المتواصلة مع الفرس، فقد جمعوا أصواتاً على القطع الفخارية ونفوه.

وبعد نفي آريستيدس، برز الجنرال العظيم ثَمِيسْتوكْليس قائداً أول للمدينة. ولكن تكريمه المتكرر وانتصاراته أدارت رأسه، فأصبح هو الآخر متغطرساً ومستبداً، يذكّر الأثينيين بلا انقطاع بانتصاراته في المعارك، وبالمعابد التي بناها، وبالأخطار التي درأها عنهم. وبدا كأنه يقول إن المدينة بدونه سيصير مصيرها إلى التّباب. وهكذا في سنة 472 ق .م، ملأ اسمه قِطَع الفخار؛ فتخلصت المدينة من حضوره السامّ.

وكان صاحب أعظم شخصية سياسية في أثينا القرن الخامس قبل الميلاد هو بريكليس بدون شك. فعلى الرغم من تعرضه للتهديد بالنفي عدة مرات، فقد تجنب ذلك المصير بالحفاظ على علاقات وثيقة مع الشعب. ولعله قد تعلَّم درساً وهو طفل من معلِّمه المفضل، دامون،

القاتِل، شوهدوا يهربون في كل اتجاه أمام مطارِديهم، الذين لم يُظهِروا - مع نشوة النصر - أي رحمة بفلول المنهزمين. وأخيراً ألقى الليل - الذي هو أرحم من الإنسان - سدوله على الهاربين فكان صديقاً لهم، وعادت قوات بيزارو المبعثرة إلى التجمُّع من جديد على صوت النفير في ساحة كاجاماركا الدامية.

كان [آتاهوليا] يلقى تبجيلاً باعتباره أكثر من إنسان. فلم يكن رأس الدولة فحسب، ولكنه النقطة العليا التي تجمَّع عندها كل المؤسسات كأنها تصبّ في مركز واحد مشترك. وحجر الأساس في النسيج السياسي الذي يتساقط أشلاء تحت ثقله نفسه عندما تُسْحَب منه تلك الصلاحيات. وهذا ما كان عند [إعدام] آتاهوليا. فموته لم يترك العرش شاغراً فحسب، وبدون أي خلف مؤكَّد، ولكن طريقة موته أعلنت للبيروفيِّين أن يداً أقوى من الإنكا قد أمسكت عندئذٍ بالصولجان، وأن سلالة أبناء الشمس قد انطفأت إلى الأبد

غزو بيرو
وليام هكلنغ بريسكوت
(1847)

الذي لا يضاهيه أحد، والذي تفوق على الأثينيين الآخرين جميعاً بذكائه، ومهاراته الموسيقية، وقدراته الخطابية. فلقد كان دامون هو الذي درّب بريكليس على فنون الحكم. ولكن دامون أيضاً عانى من النفي، بسبب تبجحه بتفوقه، ولأن طريقته المهينة إزاء الناس العاديين أثارت سخطاً شديداً للغاية.

وحوالى نهاية ذلك القرن كان يعيش رجل يدعى هايبر بولص. يصفه معظم كتاب ذلك العصر بأنه كان أتفه مواطن في المدينة. فلم يكن يهتم بما يفكر به عنه أي شخص. وكان يشهّر بكل من يكرهه. فكان يسلي بعض الناس، ولكنه كان يضايق كثيرين آخرين. وفي سنة 417 ق .م، رأى هايبر بولص فرصة سانحة لإثارة الغضب ضد السياسيَّيْن البارِزَيْنِ في ذلك العصر، وهما آلْسِيبْيَادِس ونِيشْيَاسْ. وراوده الأمل في أن يُنْفَى أَحَدُهُما، وأن يصعد هو (هايبر بولص) ليحلّ محلّه. وبَدَا أن حملته يحتمل أن تنجح: فقد كان الأثينيون يكرهون طراز حياة ألسيبياديس المتوهجة المبتهجة الخالية من الهموم. وكانوا حذرين من ثروة نيشياس وانعزاله. وبَدَا من المؤكد أنهم سينفون واحداً منهما أو الآخر. ولكن آلسيبيادس ونيشياس، على الرغم من كونهما عدوّين، جمعا مواردهما معاً واستطاعا أن يحوّلا النفي إلى هايبر بولص بدلاً منهما. وجادلا في أن صفات هذا الرجل الذميمة لا يمكن وضع حدٍّ لها إلاّ بالنفي.

وقد كان الذين عانوا من النفي قبل ذلك رجالاً رهيبين أقوياء ذوي سلطة. غير أن هايبر بولص كان مهرّجاً وضيعاً. وبنفيه شعر الأثينيون أن عقوبة النفي قد تدهورت. وهكذا أنهوا ممارسةً ظلت واحدة من مفاتيح الحفاظ على السلام داخل أثينا طيلة ما يقرب من مائة عام.

التفسير

كانت عند الأثينيين القدامى غرائز اجتماعية غير معروفة اليوم ـ فقد

ثَلَمَ حدتها مرور القرون. فقد كانوا مواطنين بالمعنى الحقيقي للكلمة فشعروا بالخطر الناجم عن السلوك غير المبالي بالمجتمع، ورأوا كيف يتنكّر هذا السلوك بأشكال أخرى: كالموقف الذي يزعم صاحبه أنه أتقى وأطهر من الآخرين ويسعى إلى فرض المعايير عليهم؛ والطموح المفرط للعجرفة على حساب الصالح العام؛ والازدهاء باستعراض التفوق؛ والتآمر الهادىء؛ والصفات البغيضة الذميمة المرحلية. وبعض هذه الأنماط من السلوك تجعل تلاحم المدينة يتآكل بخلق الطوائف وبذر بذور الشقاق. وهناك أنماط أخرى من شأنها تدمير الروح الديمقراطية للمدينة بجعل المواطن العادي يشعر بالنقص وبالحسد. ولم يحاول الأثينيون أن يعيدوا تثقيف الناس الذين يتصرفون بهذه الطرق، أو أن يستوعبوهم في الجماعة بطريقةٍ مّا، أو أن يفرضوا عقوبة عنيفة كان من شأنها أن لا تؤدي إلاّ إلى خلق مشاكل أخرى، فقد كان الحلّ سريعاً وفعالاً، وهو التخلص منهم.

وضمن أية جماعة، كثيراً ما يمكن تتبع المتاعب بعزوها إلى مصدر وحيد، وهو الشخص التعيس المزمن السخط الذي يثير الشقاق دائماً فيعدي الجماعة بقلقه واضطرابه. وقبل أن تعرف ما الذي أصابك يكون السخط قد انتشر. فَتَصَرَّفْ قبل أن يصبح من المستحيل الفصلُ بين نوع من التعاسة ونوع آخر، أو رؤية كيف بدأ الأمر كله. فأولاً: تعرف على مسببي المتاعب عن طريق حضورهم الطاغي، أو عن طريق طبيعتهم الشاكية المتذمرة. فإذا حددتهم فلا تحاول أن تصلحهم أو تهدّئهم ـ فذلك يجعل الأمور أسوأ. ولا تهاجم، سواء بصورة مباشرة أم غير مباشرة، لأن طبيعتهم سامة، وسوف يعملون سرّاً تحت الأرض لتدميرك. فافعل كما فعل الأثينيّون: أَبْعِدْهُمْ قبل أن يفوت الأوان. افصلهم عن الجماعة قبل أن يصبحوا هم عين الدوّامة. ولا تمنحهم وقتاً ليثيروا القلق ويبذروا بذور السخط؛ ولا تفسح لهم مجالاً للحركة. واترك شخصاً واحداً يعاني، كي يعيش الباقون في سلام.

الذئاب والخراف

يُحكى أن الذئاب في قديم الزمان أرسلت سفارة إلى الخراف، ترغب فيها إليها أن يحل السلام بين الطرفين في المستقبل. قالت الذئاب:

عندما تسقط الشجرة، تتبعثر القرود

(مثل صيني)

مراعاة القانون الثانية

في سنة 1296، اجتمع كرادلة الكنيسة الكاثوليكية في روما لانتخاب بابا جديد. فاختاروا الكردينال غيتاني، صاحب الحنكة الحصيفة التي لا تُضَاهَى؛ فمثل هذا الرجل سيجعل الفاتيكان قوة كبيرة. فاتخذ اسم بونيفاس الثامن، وسرعان ما أثبت أنه يستحق رأي الكرادلة العالي فيه: فكان يخطط لتحركاته سلفاً وبحرص كبير. ولم يدع شيئاً يقف في طريق حصوله على ما يريد. وما إن وصل بونيفاس إلى السلطة حتى سحق منافسيه بسرعة، ووحّد الولايات البابوية. وبدأت القوى الأوروبية تخشاه، وأرسلت وفوداً لتفاوضه. بل إن ملك ألمانيا آلبريخت النمسويّ سلّم بعض الأراضي لبونيفاس. فكان كل شيء يجري حسب خطة البابا.

غير أن قطعة من اللوحة لم تنزل في مكانها. . وهي توسكانيا، أغنى جزءٍ في إيطاليا. فإذا استطاع بونيفاس أن يستولي على فلورنسا، أقوى مدينة في توسكانيا، فستصبح المنطقة له. ولكن فلورنسا كانت جمهورية معتزة بنفسها، وسيكون من الصعب دحرها. فكان على البابا أن يلعب أوراقه بمهارة.

فكانت فلورنسا منقسمة إلى طائفتين متنافستين هما السود والبيض. فكان البيض هم أبناء الأسر التجاريّة التي صعدت حديثاً إلى السلطة والثروة بسرعة؛ أما السود فكانوا هم أصحاب الأموال الأقدم. وقد احتفظ البيض بالسيطرة على المدينة بسبب شعبيّتهم بين الناس، مما أثار سخطاً متزايداً لدى السود. وراحت مرارة النزاع بين الفريقين تتزايد باطراد.

وهنا رأى بونيفاس فرصته. فسوف يتآمر لمساعدة السود على الاستيلاء على المدينة، فتصبح فلورنسا في جيبه. وحالما راح يدرس

«لماذا نستمر في شن هذا الصراع المميت إلى الأبد؟ إن تلك الكلاب الشريرة هي السبب في هذا كله! فهي تتبّعنا بلا توقف، وتستفزنا. أبعدوها ولن تعود هناك أي عقبة أمام الصداقة والسلام الأبدي بيننا». واستمعت الخراف السخيفة إلى هذا الكلام المعسول، وطردت الكلاب. وعندما حُرِم القطيعُ بذلك من أفضل حماته، صار فريسة سهلة لعدوه الخائن الغدّار.

خرافات آيسوب
القرن السادس قبل الميلاد

الموقف، شرع يركّز على رجل واحد، هو دانتي آليغيرتي، الكـ
الشاعر الشهير، والمؤيد المتحمس للبيض. وكان دانتي مهتماً بالسيـ
دائماً. وكان يؤمن بالجمهورية بعاطفة متقدة. وكثيراً ما كان يوبخ مو ضـ
على نقص شجاعتهم وضعف إرادتهم. وتصادف أنه كان أيضاً أ
خطباء المدينة العامّين. وفي سنة 1300، وهو العام الذي بدأ فيه بونيفـ
يتآمر للاستيلاء على توسكانيا، كان مواطنو دانتي قد صَوَّتوا له لأعـ
منصب منتخب فجعلوه واحداً من رؤساء المدينة الستة. وأثناء ولايـ
الممتدة إلى ستة أشهر في هذا المنصب، وقف بصلابة ضد السو.
وضد كل محاولات البابا لزرع الشقاق والاضطراب.

غير أن بونيفاس كانت لديه خطة جديدة بحلول سنة 301
فاستدعى شارلس دي فَالْوَا، الشقيق القوي لملك فلورنسا، كي يسـ
على إحلال النظام في توسكانيا. وبينما راح شارلس يزحف عبر إيطـ
الشمالية، وفلورنسا تجيش بالقلق والخوف، برز دانتي بسرعة باعتـ
الرجل القادر على تجميع الناس، فاحتج ضد التهدئة احتجاجاً عنيـ.
وراح يعمل في استماتة اليائس لتسليح المواطنين وتنظيم المقاومة ضـ
البابا وَدُمْيَتِهِ الأميرِ الفرنسي. وكان على بونيفاس أن يحيد دانتي بـ
وسيلة كانت - بالحسنى أو بالسوأى - وهكذا فحتّى عندما كان يهـ
فلورنسا بشارلس دي فَالْوَا من جهة، ومن جهة أخرى لَوَّحَ بغصـ
الزيتون، وإمكانية المفاوضات، آملاً أن يلتقط دانتي الطعم. وبالفعل قـ
الفلورنسيون أن يرسلوا وفداً إلى روما ليحاولوا التفاوض لإحلا
السلام. ولرئاسة الوفد اختاروا دانتي كما كان متوقعاً.

وحذّر بعضُهم الشاعرَ من كون البابا المراوغ ينصب فخّاً لإغر
بالابتعاد. ولكن دانتي ذهب على أي حال، فوصل إلى روما بينما كـ
الجيش الفرنسي واقفاً على أبواب فلورنسا. وشعر دانتي بالثقة بأن بلاغـ
ومحاكمته العقلية قادرتان على كسب البابا وإنقاذ المدينة. ومع ذلك
فعندما التقى البابا بالشاعر وبالموفدين الفلورنسيين أرهبهم في الحا.

حياة ليميستوكليس

وصل الحال بمواطني [ثيميستوكليس] إلى نقطة جعلتهم عندها الغيرة يستمعون لأي تشهير به وهكذا اضطر إلى تذكير الجمعية بمنجزاته حتى لم يعودوا يطيقون ذلك. فقال ذات مرة لمن كانوا يتذمرون منه: «لماذا تسأمون من تلقي الفوائد بصورة متواترة من الرجال أنفسهم؟» وبالإضافة إلى ذلك فقد أهان الناس عندما أقام معبد آرتميس، لأنه لم يكتف بصنع تمثال للإلهة آرتميس آريستوبول - أي آرتميس صاحبة أحكم المشورات - مع التلميح بأنه هو الذي قدم أفضل مشورة

كما فعل بكثيرين من قبل. وعند اللقاء الأول صرخ بهم: «اركعوا على ركبكم أمامي! اخضعوا لي! أقول لكم بكل الحق إنني لا أملك في قلبي سوى تعزيز سلامكم». فخضع الفلورنسيون لحضوره القوي، وأنصتوا له وهو يَعِدُهُمْ برعاية مصالحهم. ثم نصحهم بالعودة إلى وطنهم، تاركين خلفهم أحد أعضاء وفدهم ليستمر في المحادثات. وأشار بونيفاس أن الرجل الذي سيبقى هو دانتي. وتحدث بمنتهى التهذيب، ولكن كلامه كان في جوهره أمراً.

وهكذا بقي دانتي في روما. وبينما كان يتابع حواره مع البابا تفتتت فلورنسا. فمع عدم وجود من يجمع البيض، ومع استخدام شارلس دي فالوا لأموال البابا للرشوة وزرع الشقاق، تفكك البيض، وراح بعضهم يحتج للمفاوضات، بينما نقل البعض الآخر تأييده من طرف إلى آخر. وهكذا فإن السود واجهوا عدواً منقسماً وغير واثق من نفسه، فدمروا البيض بسهولة في غضون أسابيع، ومارسوا عليهم انتقاماً عنيفاً. وما إن أمسك السود بالسلطة بثبات، حتى صرف البابا دانتي من روما في آخر الأمر.

وأمر السود دانتي بالعودة ليواجه الاتهامات ويمثل أمام المحكمة. وعندما رفض، حكموا عليه بالإحراق حتى الموت إذا وطئت قدمه أرض فلورنسا مرة أخرى. وهكذا بدأ دانتي حياة المنفى التعيسة، متجولاً في أرجاء إيطاليا، مطروداً يلاحقه العار في المدينة التي أحبها، فلم يعد إلى فلورنسا، حتى بعد موته.

للأثينيين والإغريق. ولكنه أضاف إلى ذلك أن اختار مكان المعبد بالقرب من منزله في ميليط . وهكذا نفاه الأثينيون في آخر الأمر. فقد استخدموا العزل للحطّ من سمعته العظيمة والنيل من سلطته، كما كانت عادتهم بالفعل إزاء أي شخص يشعرون بأن سلطته طاغية أو قاهرة، أو صَعِدَ إلى سموّ شاهق يعتبرونه لا يتمشّى مع المساواة الديمقراطية.

حياة ثيميستوكليس
بلوتارخ، حوالى
46 - 120 م

التفسير

كان البابا يعلم أنه إذا وجد حجة يتذرع بها لإغواء دانتي بالابتعاد فإن فلورنسا ستنهار. فمارس أقدم خدعة في الكتاب - التهديد بيد وإمساك غصن الزيتون بالأخرى. فوقع دانتي ضحية هذه الخدعة. وما أن صار في روما حتى أبقاه البابا فيها طيلة المدة اللازمة لنجاح خدعته. لأن بونيفاس كان يفهم واحداً من المفاهيم الرئيسية في لعبة السلطة. وهي أن

شخصاً مصمماً واحداً ذا روحٍ متمردة، يستطيع أن يحول قطيعاً من الخراف إلى عرين من الأسود. وهكذا قام بعزل مسبب المتاعب. وبدون عمود المدينة الفقري لإبقاء الخراف مجتمعة، فقد تبعثرت بسرعة.

تَعَلَّم الدرس: لا تضيع وقتك بالضرب في كل الاتجاهات ضد عدوٌ يبدو متعددَ الرؤوس. بل اعثر على الرأس الواحد المهم والمؤثر الشخص الذي لديه قوة الإرادة، أو الذكاء اللماح، وأهم من ذلك كنه السحر المجتذب للجماهير. فأغْرِهِ بالابتعاد مهما كلف ذلك من ثمن. لأن غيابه سيجعل قواه تفقد أثرها وفاعليتها. ويمكن أن يكون عزله جسداً (كالنفي أو الغياب من البلاط)، أو سياسياً (بتضييق قاعدة التأييد التي يستند إليها)، أو نفسياً (بخلق نفور بينه وبين الجماعة عن طريق فضيحة أو تشهير أو تعريض). فالسرطان يبدأ بخلية واحدة، فاستأصله قبل أن تستشري فتستعصي على العلاج.

مفاتيح السلطة

في الماضي، كانت أمة بكاملها تُحْكَمُ من قبل ملك وحفنة من وزرائه. وكانت النخبة فقط هي التي تملك سلطةً تلعب بها. وعبر القرون صارت السلطة منتشرة وديمقراطية أكثر فأكثر، بصورة تدريجية. غير أن ذلك قد أوجد انطباعاً عاماً خاطئاً بأن الجماعات لم يعد فيها مركز سلطة، وبأن السلطة قد انتشرت وتبعثرت بين أناس كثيرين. غير أن الحقيقة هي أن السلطة قد تغيرت في أعدادها ولكن ليس في جوهرها. فقد يكون هناك عدد أقل من الطغاة الذين يملكون سلطة الحياة والموت على ملايين البشر، ولكن يبقى ألوف من الطغاة الصغار الحاكمين لممالك أصغر، يفرضون إرادتهم من خلال ألعاب سلطة غير مباشرة، وسحرٍ يأسر الجماهير وما إلى ذلك. وفي كل مجموعة، تتركز السلطة في أيدي شخص أو اثنين، لأن هذا المجال هو الوحيد الذي لا تتغير فيه الطبيعة البشرية أبداً: فالناس يتجمهرون حول شخصية قوية وحيدة مثل الكواكب التي تدور في فلك شمس.

إن العمل تحت توهم أن هذا النوع من مراكز السلطة لم يعد قائماً، معناه ارتكاب سلسلة لا تنتهي من الأخطاء، وتبديد الطاقة والوقت، وعدم إصابة الهدف أبداً. فالناس الأقوياء ذوو السلطة لا يضيعون وقتاً قَطّ. فمن الناحية الخارجية، قد يمارسون اللعبة - متظاهرين بأن السلطة يتقاسمها كثيرون. ولكنهم من الناحية الداخلية، يبقون عيونهم على القلة الحتمية التي بيدها الأوراق من بين الجماعة. فهؤلاء هم الذين يركزون عليهم عملهم وجهدهم. وعندما تنشأ المتاعب، يبحثون عن السبب الكامن تحتها، عن الشخصية القوية الوحيدة التي بدأت بالإثارة، والتي سيؤدي عزلها، أو إبعادها، إلى إعادة استقرار المياه.

لقد اكتشف الدكتور ملتن هـ. إيريكسون، في عيادته للمعالجة العائلية، أنه إذا كانت آلية حركة الأسرة مضطربة ومعطلة عن العمل، فمن المحتوم وجود شخص هو المشاغب المثير لهذا الاضطراب. فكان في جلساته العلاجية يقوم بعزل رمزي للتفاحة المتعفنة بإجلاسه (أو إجلاسها) بعيداً عن الآخرين، ولو ببضعة أقدام فقط. وببطء يشرع أفراد الأسرة الآخرون يرون في الشخص المنفصل عنهم جسدياً مصدرَ الصعوبة التي يعانون منها. فعندما تتعرف على مثير المتاعب، فإن إشارتك لتعريف الآخرين به سوف تحقق الكثير. ذلك أن فهم المسيطر على آلية الحركة الحيوية للجماعة هو إدراكٌ حساس الأهمية. فتذكَّر: إن المثيرين للمتاعب ينتعشون بالاختفاء في وسط الجماعة، مموّهين أعمالهم بين ردود فعل الآخرين. فَأَبْرِزْ أعمالَهم للعيان، وعندئذ يفقدون قدرتهم على المشاغبة والتشويش.

إن من العناصر الأساسية في ألعاب الاستراتيجية عزل قوة العدو. ففي الشطرنج تحاول تطويق الملك. وفي لعبة «غو» [لعبة صينية - يابانية على لوحةٍ فيها 361 مربعاً يحاول فيها اللاعب أن يسيّج أكبر رقعة من اللوحة لعزل حجارة خصمه: المترجم] تحاول عزل قوات خصمك في

جيوب صغيرة بحيث تعجزها عن الحركة والتأثير. فكثيراً ما يكون عزل خصومك أفضل من تدميرهم - لأنك بذلك تبدو أقلّ وحشية. غير أن النتيجة تبقى هي هي. ذلك أن العزل في لعبة السلطة يعني الموت.

وأكثر أشكال العزل فاعلية هو أن تفصل ضحاياك عن قاعدة قوتهم بطريقة مّا. فعندما كان ماوتسي تونغ يريد أن يزيل عدواً له في النخبة الحاكمة، لم يكن يواجه ذلك الشخص مباشرة، بل يعمل خلسةً وبصمت على عزله، وتقسيم حلفائه وإبعادهم عنه، وتقليص التأييد الذي يتمتع به. وسرعان ما يختفي ذلك الرجل من تلقاء نفسه.

وللحضور والظهور أهمية عظمى في لعبة السلطة. فلكي تغوي، ولا سيما في المراحل الأولى، أنت بحاجة إلى الحضور المستمر، أو إلى خلق الشعور بتواجدك. إذْ أنك إذا كنتَ بعيداً عن الأنظار في الغالب، فإن أثر سحرك سوف يتلاشى. كان لروبرت سِيسِيلْ، رئيس وزراء الملكة آليزابيث الأولى، غريمان رئيسيان ينافسانه، هما إيرل إسيكس، المفضل لدى الملكة، والسير والتر رالي، صاحب الحظوة السابقة عندها. فاجتهد في السعي لإرسالهما معاً في مهمة ضد إسبانيا. وبإبعادهما عن البلاط، استطاع سيسيل أن يلفّ مجسّاته حول الملكة، ويضمن مركزه كأعلى مستشارٍ لها، ويضعف عاطفتها إزاء رالي والإيرل. فالدرس هنا مزدوج. أولاً: إن غيابك من البلاط خطر عليك، وعليك أن لا تغادر المشهد في زمن الاضطراب، لأن غيابك سيرمز إلى فقدانك للسلطة: أو يجتذب هذا الفقدان. وثانياً: إن إغواءك لأعدائك بالابتعاد عن البلاط في اللحظات الحرجة ـ من جهة أخرى ـ هو خدعة عظيمة.

وللعزل استخدامات استراتيجية أخرى. فعندما تحاول إغواء الناس، كثيراً ما يكون من الحكمة عزلهم عن سياق بيئتهم الاجتماعية المعتادة، فعند عزلهم يصبحون مكشوفين لك، ويتضخم حضورك عندهم. وبالمثل، فإن فناني التحايل كثيراً ما يبحثون عن طرق لعزل أهدافهم عن بيئاتهم الاجتماعية المعتادة، فيوجهونهم إلى بيئات جديدة لا

يعودون مرتاحين فيها. فهنا يشعرون بالضعف ويتعرضون للانخداع بسهولة أكبر. فالعزل إذن قد يثبت أنه طريقة قوية لإيقاع الناس تحت سحرك ولإغوائهم وسلبهم.

وكثيراً ما تجد أناساً أقوياء ذوي سلطة قد ابتعدوا بأنفسهم عن الجماعة. ولعل سلطتهم قد أدارت رؤوسهم، فراحوا يعتبرون أنفسهم متفوقين؛ وربما يكونون قد فقدوا موهبة التواصل مع الناس العاديين. فتذكَّر: إن ذلك يجعلهم مكشوفين. فعلى الرغم من قوة مثل هؤلاء الناس، فإن من الممكن استخدامهم واستغلالهم.

لقد حصل الراهب راسبوتين على سلطته على القيصر نيقولا والقيصرة ألكساندرا عن طريق عزلتهما الرهيبة عن الشعب. وكانت ألكساندرا على وجه الخصوص أجنبية، وغريبة عن الروس العاديين بشكل خاص؛ فاستخدم راسبوتين أصله الفلاحي ليدسّ نفسه في مقام الحظوة لديها، لأنها كانت بحاجة ماسة يائسة إلى التواصل مع رعاياها. وما إن وصل راسبوتين إلى الدائرة الداخلية للبلاط حتى جعل نفسه شخصاً لا يُسْتَغْنَى عنه، واكتسب سلطة عظيمة. فقد اتجه رأساً إلى المركز واستهدف الشخصية الوحيدة المتمتعة بالسلطة في روسيا (كانت القيصرة مهيمنة على زوجها) ووجد أنه ليس بحاجة إلى عزلها، إذْ أن العزل كان حاصلاً من قبل. فاستراتيجية راسبوتين يمكنها أن تأتيك بسلطة عظيمة: ابحث دائماً عن الأشخاص ذوي المناصب العليا، والذين يجدون أنفسهم رغم ذلك معزولين على اللوحة. فهم كحبات التفاح التي تسقط في حضنك، تُغْوَى بسهولة، ويمكنها أن تقذف بك إلى السلطة كالمنجنيق.

وأخيراً، فإن سبب توجيه ضربتك إلى الراعي هو أن ذلك سوف يثبط همة الخراف أكثر من أي إجراء آخر عقلانيّ. فعندما قام هرناندو كورتيز وفرانشيسكو بيزارو بقيادة قواتهما الضئيلة ضد إمراطوريتي الآزتيك والإنكا، لم يخطئا فيقاتلا على جبهات عديدة، ولم تُخْفِهما

الأعداد التي اصطفت ضدهما. بل لقد قبضا على المَلِكَيْن: موتيزوم وآتاهُوَالْبَا. فسقطت في أيديهما إمبراطوريات شاسعة. فمع ذهب القائد يذهب مركز الجاذبية، فليس هناك شيء يدار حوله، فيتساقط كل شيء بدداً. فاستهدِفْ القادة وأَسْقِطْهُمْ، واعثر على الفرص التي لا تنتهي في غمار الفوضى التي ستنجم عن ذلك.

صورة: قطيع من الخراف المسمّنة. لا تضيع وقتاً ثميناً في محاولة سرقة خروف أو اثنين. ولا تغامر بحياتك وموارد قواك بالهجوم على الكلاب التي تحرس القطيع. بل استهدف الراعي. اجتذبه بعيداً فتتبعه الكلاب. وعندئذ اضربه وأسقطه، فيتبعثر القطيع - وتستطيع أن تلتقط الخراف واحداً بعد آخر.

الشاهد. إذا وتّرت قوساً، فَوَتِّرْ أقواها. وإذا استعملت سهماً فاستعمل أطولها. ولكي تقتل خيّالاً، اقتل حصانه أولاً. وللإمساك بعصابة من قطاع الطرق، أمسك بزعيمها أولاً. وكما أن لبلدٍ مّا حدوده، فإن قتل الرجال له حدود. فإن كان من الممكن إيقاف هجوم العدوّ [بضربةٍ على الرأس] فلماذا التسبّب في عدد من الموتى والجرحى أكثر من اللازم؟.

(الشاعر الصيني تو فو، من سلالة تانغ، في القرن الثامن).

الانقلاب

كتب ماكيافيللي: «إذا آذيت رجلاً مّا فافعل ذلك بطريقة لا تحوجك إلى خشية انتقامه». فإذا اتخذت إجراء لعزل عدوك فتأكد من عدم امتلاكه الوسيلة لردّ الضربة إليك. وبعبارة أخرى: إذا طبقت هذا القانون، فطبقه من موقع تفوق، بحيث لا تخشى من سخط خصمك

كان آندرو جونسون، الذي خلف أبراهام لينكولن في رئاسة الولايات المتحدة، يرى يوليسيس س. غرانت كعضو مشاغب مسبب المتاعب في حكومته. وهكذا قام بعزله تمهيداً لإرغامه على الخروج. غير أن ذلك لم ينجم عنه إلاّ إغضاب ذلك الجنرال العظيم، الذي ردّ على ذلك بتشكيل قاعدة تأييد له في الحزب الجمهوري، ومتابعة جهوده حتى صار الرئيس التالي. فقد كان من الأعقل بكثير إبقاء رجل مثل غرانت في الحظيرة، حيث كان أذاه أقلّ، بدلاً من جعله مصمماً على الانتقام. وهكذا فكثيراً ما قد تجد أن من الأفضل إبقاء الناس بجانبك، حيث تستطيع مراقبتهم، بدلاً من المخاطرة بخلق عدوٍّ غاضب. فبإبقائهم قريبين منك، تستطيع أن تقوم سرّاً بتبخير قاعدة تأييدهم وَبَرْيِها بحيث عندما يحين وقت فصلهم يسقطون سريعاً وبقسوة دون أن يعرفوا ما الذي أصابهم.

القانون

43

حاول التأثير على قلوب الآخرين وعقولهم

الحكم

الإرغام يخلق ردة فعل تعمل ضدك في آخر الأمر. فعليك أ
تغوي الآخرين حتى يريدوا أن يتحركوا في اتجاهـ
فالشخص الذي تغويه يصبح بيدقاً موالياً لك. وطريقة إغو
الآخرين هي العمل على نفسيّاتهم ونقاط ضعفهم الفرديـة
فقم بتليين المقاومين بالعمل على التأثير في عواطفهم
مستغلاً ما يعتبرونه عزيزاً عليهم، وما يخشونه. ذلك أنك إ
تجاهلت قلوب الآخرين وعقولهم فسوف يكرهونك.

انتهاك القانون

عند اقتراب عهد لويس الخامس عشر من نهايته، كانت فرنسا كلها تبدو بحاجة ماسة إلى التغيير. وعندما قام حفيد الملك، وخَلَفُهُ المنتخب، الذي عرف فيما بعد باسم لويس السادس عشر، بالزواج من ابنة إمبراطورة النمسا ـ البالغة من العمر خمسة عشر عاماً. التقط الفرنسيّون لمحةً من المستقبل الذي بدا لهم مفعماً بالأمل. فالعروس الشابة، ماري آنطوانيت، كانت جميلةً ومليئة بالحيوية. فبدّلت مزاج البلاط على الفور، وكان يعجّ بِفَسَقَةٍ لويس الخامس عشر الداعرين. بل إن الناس العاديين الذين لم يكونوا قد رأوا ماري آنطوانيت بعد، راحوا يتحدثون عنها بحماس. كان الفرنسيون مشمئزين من سلسلة العشيقات اللواتي سيطرن على لويس الخامس عشر. فتطلعوا بتفاؤل إلى خدمة ملكتهم الجديدة. وفي سنة 1773، عندما ركبت ماري آنطوانيت علانيةً لأول مرة في شوارع باريس، تجمع جمهور غفيرٌ من المصفقين حول عربتها. فكتبت إلى أمها: «أنا محظوظة لكوني في موقع أحظى فيه بعاطفة واسعة الانتشار دون أية كلفةٍ تذكر».

وفي سنة 1774، توفي لويس الخامس عشر، وصعد لويس السادس عشر إلى العرش. وحالما صارت ماري آنطوانيت ملكة، أسلمت نفسها للمسرات التي كانت تحبها أكثر من أي شيء آخر، وهي طلب وارتداء أغلى الثياب والمجوهرات في المملكة؛ وراحت تهتم بأعقد تركيبة شعر في التاريخ، فكانت تسريحاتها المنحوتة ترتفع فوق

خدعة كورش

وفكّر كورش بالوسيلة التي يستطيع فيها أن يقنع الفُرْسَ بالثورة بأكثر الطرق فاعلية، فهدته تأمُّلاته إلى اعتماد الخطة التالية التي رأى أنها أفضل ما يلائم غرضه: كتب على صفحة من البرجمنت أن أستياجس قد عيَّنه ليقود الجيش الفارسي، ثم دعا إلى تجمع للفُرْس، وفتح الصفحة بحضورهم، وقرأ عليهم ما كتبه فيها. ثم أضاف: «والآن، لديَّ أمر لكم. على كل شخص أن يظهر في الاستعراض ومعه منجل تشذيب...». فأُطيع الأمر. وتجمَّع الرجال جميعاً ومعهم مناجلهم. فكان الأمر التالي لكورش هو أن عليهم قبل انقضاء سحابة النهار أن ينظفوا قطعة معيَّنة من الأرض الوعرة والمليئة بشجيرات شائكة، مساحتها حوالى ثمانية عشر أو عشرين فرلنغاً (الفرلنغ 8/1 ميل) مربعاً. فتمَّ له ذلك. وعندئذ أصدر كورش أمراً آخر بأن يتجمَّعوا مرة أخرى في اليوم التالي بعد أن

رأسها بثلاثة أقدام. وشرعت تقيم سلسلة متصلة من الحفلات والمهرجانات. وكانت تدفع تكاليف هذه النزوات بالدَّيْن، فلم تهتم بمقدار تلك التكاليف ولا بمن يدفع الفواتير.

وكان أعظم مسرّات ماري آنطوانيت خلق وتصميم جنة عدن خاصة بها في قصر تريانون الصغير، وهو بيت ريفي ضخم في أراضي فرساي به غابته الخاصة به. وقد صممت الحدائق في تريانون الصغير، كي تكون «طبيعية» بالقدر المستطاع، بما في ذلك دَهْنُ الطحالب باليد على الأشجار والصخور. ولزيادة أثر اللمسة الرعويّة، استخدمت الملكة فلاحات لحلب أجمل الأبقار مظهراً في المملكة كلها، مع منظفين وصناع أجبان، يرتدون أزياء فلاحية ساعدت هي في تصميمها؛ ورعاة يهتمون بخراف تلتف على رقابها أشرطة من حرير. وأثناء تفتيشها الحظائر، كانت تتفرج على حلاّباتها وهن يعتصرن الحليب في أوانٍ خزفية مصنوعة في معامل الخزف الملكية. ولإزجاء الوقت كانت ماري آنطوانيت تجمع الزهور في الغابات المحيطة بتريانون الصغير، أو تتفرج على «فلاحيها الطيبين وهم يقومون «بعملهم» الزراعي اليومي». وأصبح القصر عَالَماً منفصلاً، ينحصر مجتمعُهُ في أحبّائها المفضلين المختارين.

ومع كل نزوة جديدة تصاعدت تكاليف صيانة تريانون الصغير. وفي تلك الأثناء كانت فرنسا نفسها آخذة في التدهور: فكانت هناك مجاعة وسخط واسع الانتشار. فحتى رجال الحاشية المنعزلون اجتماعياً، كان السخط يجيش في نفوسهم ـ فقد كانت الملكة تعاملهم كالأطفال. فلم يكن يهمها سوى ذوي الحظوة لديها. وهؤلاء كانوا يتناقصون شيئاً فشيئاً. ولكن ماري آنطوانيت لم تكلف نفسها عناء الاهتمام بذلك. فلم يحدث مرةً واحدةً أن قرأت تقرير وزيرٍ طيلة عهدها كله. ولم يحدث مرة واحدة أن طافت بالأقاليم كي تجمع الناس إلى جانبها. ولم يحدث مرة أن اختلطت بالباريسيين أو استقبلت وفداً منهم. ولم تفعل أيّاً من هذه الأشياء لأنها كملكة كانت تشعر بأن الناس مدينون

يستحموا. وفي تلك الأثناء جمع كورش كل ما كان لأبيه من ماعز وخراف وثيران، وذبحها استعداداً لإكرام الجيش الفارسي كله في وليمة، مع أفضل المشروبات وأنواع الخبز التي استطاع الحصول عليها. وفي اليوم التالي تجمّع الضيوف، فطلب منهم الجلوس على العشب وإمتاع أنفسهم بما لذّ وطاب. وبعد الوجبة سألهم كورش إن كانوا يفضّلون عمل الأمس أم متعة اليوم. فأجابوا بأن هناك فرقاً هائلاً بين تعاسة اليوم السابق ومسرّاتهم الراهنة. وكان هذا هو الجواب الذي أراده كورش. فأمسك به، وانطلق منه ليكشف لهم عمّا يدور في ذهنه، فقال: «يا رجال فارس. أنصتوا لي: أطيعوا أوامري، وسوف تتمكنون من التمتع بألف مسرّة كهذه دون أن تتعبوا أيديكم في عمل حقير مهين؛ ولكن إذا عصيتم، فستكون مهمة الأمس هي النمط لسلسلة لا تنتهي من المهمات الأخرى التي سترغمون على أدائها. خذوا بنصيحتي وفوزوا بحريتكم. فأنا الرجل المقدّر له الاضطلاع بتحريركم. وأعتقد أنكم قادرون على مواجهة الميديين في الحرب كما في أي شيء آخر. وما أقوله لكم هو الحق. فلا تتأخروا، وألقوا عنكم نير آستياجس على الفور». وكان الفرس غاضبين من طول خضوعهم للميديّين. وقد وجدوا قائداً في آخر الأمر، فرحّبوا بأفق حريتهم ترحيباً حماسياً... وهكذا استغلّوا الفرصة وثاروا بقيادة كورش

ضد الميديين، ومنذ ذلك الحين صاروا سادة آسيا.

التواريخ
هيرودوتس، القرن الخامس قبل الميلاد

لها بعواطفهم، ولم يكن مطلوباً منها أن تحبّهم في المقابل.

وفي سنة 1784، تورطت الملكة في فضيحة. فكجزءٍ من خطة سلب واحتيال معقدة، اشتُرِيَتْ باسمها أغلى قلادة من الماس في أوروبا كلها. وأثناء محاكمة النصابين ظهرت على الملأ تفاصيل حياتها الباذخة: فسمع الناس بالأموال التي كانت تنفقها على المجوهرات والفساتين ورقصات الأقنعة التنكرية. فأعطوها لقب «السيدة عجز» [من العجز في الميزانية]، ومنذ ذلك الحين فصاعداً صارت محطَّ سخط الناس المركّز. وعندما كانت تظهر في مقصورتها في الأوبرا كان المشاهدون يحيّونها بالهسهسة الصافرة. بل إن البلاط انقلب عليها، لأنها في الوقت الذي كانت فيه تنفق مصروفاتها الهائلة، كان البلد يتجه إلى هاوية الخراب.

وبعد ذلك بخمسة أعوام، في سنة 1789، وقع حدث لم يسبق له مثيل: وهو بداية الثورة الفرنسية. فلم تقلق الملكة. وبدا كأنها تفكر: فلتكن للناس ثورتهم الصغيرة، فهي سرعان ما تهدأ. فتتمكن الملكة من استئناف حياة المسرات والبذخ التي تعيشها. وفي تلك السنة زحف الناس على ڤرساي، فأرغموا العائلة المالكة على ترك القصر وعلى العيش في باريس. فكان هذا انتصاراً للثوار، ولكنه قدم للملكة فرصة لشفاء الجروح التي فَتَحَتْها وإقامة تواصل مع الشعب. غير أن الملكة لم تكن قد تعلمت درسها. فلم يحدث مرة أن غادرت القصر أثناء إقامتها في باريس. فلم يكن يهمها أن يتعفن رعاياها في الجحيم.

وفي سنة 1792، نُقِلَ الزوجان الملكيان من القصر إلى السجن، بينما أعلنت الثورةُ رسمياً نهاية الملكية. وفي السنة التالية، حوكم لويس السادس عشر وأدين وأُعْدِمَ على المقصلة. وبينما كانت ـ ماري أنطوانيت تنتظر مصيراً مماثلاً، لم يأت شخص واحد للدفاع عنها، لا من أصدقائها السابقين في البلاد، ولا من عواهل أوروبا الآخرين (الذين كان لديهم ـ باعتبارهم أعضاءً للأسر المالكة في بلدانهم ـ كل الأسباب في الدنيا لإظهار كون الثورة لا تجدي)، ولم تدافع عنها حتى أسرتها في النمسا،

ومنها أخوها الذي كان يجلس آنئذٍ على العرش. فقد أصبحت منبوذة العالم. وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة 1793، ركعت في آخر الأمر على المقصلة، غير نادمة ولا تائبة، وبكبرياء التحدي حتى النهاية المريرة.

التفسير

منذ وقت مبكر، اتخذت ماري ـ آنطوانيت واحداً من أخص المواقف: كانت وهي أميرة شابة في النمسا موضعاً للملق والتزلف بلا نهاية. وباعتبارها الملكة المقبلة للبلاط الفرنسي كانت مركزاً لاهتمام الجميع. فلم تتعلم قطّ أن تسحر الناسَ الآخرين وتفتنهم وتسرهم. وتصبح متناغمة مع نفسياتهم الفردية. ولم تضطر إلى العمل لتحصل على ما تريد، ولا إلى إجراء الحسابات أو ممارسة المكر وغيره من فنون الإقناع. ومثل كل شخص مدلل تُلَبَّى طلباتُهُ في زمنٍ مبكر من العمر، تطورت إلى وحش من انعدام الإحساس.

لقد صارت ماري ـ آنطوانيت مركزاً لسخط بلد بكامله، لأن مما يثير الغيظ أن تلتقي بشخص لا يبذل جهداً لإغوائك ولا محاولة لإقناعك حتى ولو على سبيل الخداع. ولا تتصور أنها تمثل عهداً غابراً انقضى. ولا حتى أنها نوعية نادرة. فنموذجها اليوم مألوف شائع أكثر من أي وقت مضى. ومثل هذه العيّنات تعيش في داخل فقاعاتها الخاصة ـ وأصحابها على ما يبدو يشعرون أنهم ولدوا ملوكاً وملكات، وأن الانتباه شيء يدين الناس به لهم. فهم لا ينظرون في طبيعة أي شخص آخر، بل إنهم يدوسون الناس بغطرسة ماري ـ آنطوانيت التي كانت ترى نفسها على حق. وبما أن طلباتهم قد لُبِّيَتْ وتلقوا الدلال وهم أطفال، فهم عند البلوغ يستمرون في الاعتقاد بأن كل شيء ينبغي أن يأتي إليهم. وبما أنهم مقتنعون بسحرهم، فإنهم لا يبذلون أي جهد ليسحروا الآخرين، أو يغروهم، أو حتى يقنعوهم بلطف.

وفي مملكة السلطة فإن مثل هذه المواقف تسبب الكوارث. ففي

كل الأوقات يجب عليك أن تهتم بمن حولك، فتسبر غور نفسيتهم الخاصة، فتفصل كلماتك تفصيلاً على قياس ما تعرف أنه يغويهم ويغريهم. وهذا يتطلب طاقةً وفنّاً. وكلما علا منصبك، زادت حاجتك إلى البقاء منسجماً متناغماً مع قلوب الذين هم دونك منزلةً، ومع عقولهم، خالقاً بذلك قاعدة دعم لإبقائك متربعاً على القمة. فبدون تلك القاعدة سوف تهتز سلطتك، ولدى أقل تغيّر في الحظ، فإن أولئك الذين تحتك سوف يساعدون بسرور على سقوطك المخزي من مكانة الحظوة.

فن الإقناع اللطيف

تنازعت ريح الشمال والشمس في أيهما أقوى. ثم اتفقتا على أن المنتصر منهما هو الذي يستطيع أن يجرّد مسافراً من ثيابه. وحاولت الريح أولاً. ولكن هبّاتها العنيفة لم تزد على أن جعلت الرجل يتمسّك بثيابه ويشدها حوله بإحكام. وعندما هبّت على نحو أشدّ، فإن البرد جعله يتضايق إلى درجة أنه لفّ نفسه بلفاع إضافي آخر. وفي آخر الأمر تعبت الريح من ذلك وسلّمت الرجل إلى الشمس. فأشرقت الشمس في بادىء الأمر بدفء معتدل جعل الرجل يخلع معطفه الفوقيّ، ثم شعّت بشراسة إلى درجة جعلته عاجزاً عن تحمُّل الحرارة، فخلع ثيابه واتجه إلى نهر قريب ليستحمّ فيه.

الإقناع فعّال أكثر من القوة.

خرافات

إيسوب، القرن السادس قبل الميلاد

مراعاة القانون

في سنة 225 ق.م، كان تشوكو ليانغ، أستاذ الاستراتيجية والوزير الرئيسيّ لحاكم شو في الصين القديمة، يواجه وضعاً خطراً. فقد شنَّت مملكة وِيْ هجوماً شاملاً على شو من الشمال. وأخطر من ذلك أن وِيْ قد شكَّلت تحالفاً مع الممالك الهمجية إلى الجنوب من شو، بقيادة الملك مينغو. وكان على تشوكو ليانغ أن يتصدَّى لهذا الخطر الثاني من الجنوب، قبل أن يأمل في صدِّ هجوم وِيْ في الشمال.

وبينما كان تشوكو ليانغ يستعد للزحف على الهمج في الجنوب، قدَّم له رجلٌ حكيمٌ في معسكره نصيحة، فقال له إنه سيكون من المستحيل تهدئة المنطقة بالقوة. ذلك أن ليانغ قد يهزم مينغو ولكن حالما يتجه إلى الشمال للتصدي لهجوم وِيْ، فإن مينغو سيعاود الكرَّة. وقال الرجل الحكيم: «إن كسب القلوب أفضل من كسب المدن. والاشتباك بالقلوب خير من الاشتباك بالأسلحة. وآمل أن تستطيع كسبَ قلوبِ هؤلاء الناس». فردَّ عليه ليانغ: «إنك تقرأ أفكاري».

وكما توقع ليانغ، شنَّ مينغو هجوماً قويّاً. ولكن ليانغ نصب له فخّاً واستطاع أن يأسر جزءاً كبيراً من جيش مِينْغُو، بمن فيهم الملك نفسه. غير أنه بدلاً من معاقبة أسراه أو إعدامهم، فصل الجنود عن ملكهم، وأزال عنهم الأغلال، وأكرمهم بالطعام والشراب. ثم خاطبهم

قائلاً: «إنكم جميعاً رجال شرفاء، وأعتقد أن لكم والدين وزوجت وأطفالاً ينتظرونكم في وطنكم. ولا شك أنهم يذرفون دموعاً مريرة عى مصيركم. سأطلق سراحكم كي تتمكنوا من العودة إلى أحبائكم وإراحتهم». فشكر الرجالُ ليانغَ والدموع في عيونهم؛ ثم أرسل يستدعي مينغو وسأله: «إذا أطلقتُ سراحك، فما الذي ستفعله؟»، فأجاب الملك: «سوف أجمع جيشي ثانية وأقوده ضدك في معركة حاسمة ولكن إذا أسرتني مرة أخرى، فسوف أنحني لتفوقك». فلم يكتف ليانغ بالأمر بإطلاق سراح مينغو، بل أهدى له كذلك حصاناً وسرجاً. وعندما تساءل الملازِمون الغاضبون عن سبب عمله هذا أخبرهم ليانغ: «إنني أستطيع أسر هذا الرجل بالسهولة نفسها التي أستطيع بها أن أُخْرِجَ شيئاً من جيبي. إنني أحاول كسب قلبه. وعندما أتمكن من ذلك فسيأتي السلام من تلقاء نفسه هنا في الجنوب».

وكما قال مينغو، فقد هجم مرة أخرى. ولكن ضباطه، الذين كان ليانغ قد عاملهم تلك المعاملة الحسنة، تمرَّدوا ضده، وقبضوا عليه وسلّموه إلى ليانغ، الذي طرح عليه السؤال السابق مرة أخرى. فأجاب مينغو بأنه لم يُهْزَمْ بطريقة منصفة، بل خانه ضباطه؛ ولسوف يقاتل مرة أخرى، فإذا أُسِرَ للمرة الثالثة فسينحني لتفوق ليانغ.

إن الرجال الذين غيّروا وجه العالم لم يصلوا إلى ما هم فيه بالتأثير في القادة، بل بتحريك الجماهير. فالتأثير في القادة هو أُسلوب التآمر، ولا يؤدّي إلاّ إلى نتائج ثانوية. أما التأثير في الجماهير فهو ضربة العبقرية التي تغيّر وجه العالم.

نابليون بونابرت
1769 ـ 1821

وعلى مدى الأشهر التالية، تغلَّب ليانغ في الذكاء على مينغو مرة بعد مرة، وأَسَرَهُ مرة ثالثة، ورابعة، فخامسة. وفي كل مرة كان جنود مينغو يزدادون سخطاً. فقد عاملهم ليانغ باحترام. ففقدوا حماسهم للقتال. ولكن في كل مرة طلب فيها تشوكو ليانغ من مينغو أن يستسلم. كان الملك العظيم يَطْلَعُ عليه بذريعة جديدة: لقد خدعتني. ولقد خسرتُ بسبب سوء الحظ، وهكذا دواليك. فإذا أسرتني مرة أخرى. فأقسم أنني لن أخونك. ومع هذه الوعود، كان ليانغ يتركه يذهب في حال سبيله.

وعندما أسره للمرة السادسة، طرح عليه السؤال نفسه مرة أخرى.

فردَّ الملك مينغو: «إذا أسرتني مرة سابعة، فسوف أعطيك ولائي، ولن أتمرَّد مرة أخرى أبداً». فقال ليانغ: «حسناً، ولكن إذا أَسَرتُكَ مرَّة أخرى، فلن أطلق سراحك».

وعندئذٍ هرب مينغو وجنوده إلى طرفٍ قَصِيٍّ من مملكتهم في منطقة وُوجْ. وبعد هزيمته مرَّات كثيرة، لم يبق له سوى أمل واحد: سيطلب مساعدة ووُتُوغُو، ملك وُوجْ، الذي كان لديه جيش ضخم وشرس. وكان محاربو ووتوغو، يرتدون دروعاً من الكروم المجدولة بإحكام، والمغطَّسة بالزيت، والمجفَّفة حتى تكتسب صلابةً لا تُخْتَرَق. ومع وجود مينغو إلى جانبه، زحف ووتوغو بهذا الجيش الجبَّار ضد ليانغ. وفي هذه المرة بدا الاستراتيجي العظيم خائفاً يقود رجاله في تراجع سريع. ولكنه إنَّما كان يستدرج ووتوغو إلى فخّ: وهكذا حشر رجال الملك في وادٍ ضيِّق، ثم أشعل النيران في كل مكان من حولهم. وعندما وصلت النيران إلى الجنود، اشتعل جيش ووتوغو بكامله ـ ذلك أن الزيت الذي في دروعهم كان شديد الالتهاب طبعاً، فهلكوا جميعاً.

حياة الإسكندر الاكبر

أدَّت المطاردة الطويلة والمؤلمة لدارا على يد الإسكندر الأكبر ـ إذ إنه قطع 3300 فرلنغ [الفرلنغ 8/1 ميل] في أحد عشر يوماً ـ إلى تضايق جنوده، إلى درجة أن معظمهم كان على استعداد للتخلّي عن تلك المطاردة لسبب رئيسي هو نقص الماء. وبينما كانوا في هذا الكرب، تصادف أن مرّ في المكان الذي كان فيه الإسكندر بعض المقدونيين الذين جاؤوا بالماء في قِرَبٍ محملة على بغالهم من نهر كانوا قد عثروا عليه. وعندما رأوا الإسكندر يكاد يختنق من العطش، ملأوا بالماء خوذةً وقدموها إليه... فأخذ الخوذة بيديه، ونظر فيما حوله، فرأى أن جميع القريبين منه قد تطاولت أعناقهم وهم ينظرون إلى الماء على نحو جدّيّ، فأعاده مع الشكر، دون أن يتذوّق قطرة منه، قائلاً: «إنني لو شربت وحدي، لانهارت معنويات الآخرين». ولم يكد الجنود

وكان تشوكو ليانغ قد تدبَّر أمر فصل مينغو وحاشيته عن المجزرة في الوادي، فوجد الملك نفسه أسيراً للمرة السابعة. وبعد هذه المذبحة، لم يعد ليانغ يطيق أن يواجه أسيره مرة أخرى. فأرسل رسولاً إلى الملك الأسير ليقول له: «لقد كلَّفني بإطلاق سراحك. فاحشد جيشاً آخر ضده، إن استطعتَ، وحاول أن تهزمه مرة أخرى». فانتحب الملك مينغو وسقط على الأرض، وزحف إلى ليانغ على يديه وركبتيه، وطرح نفسه على قدميه صارخاً: «أيها الملك العظيم، لك جلال السماء. ونحن ـ رجال الجنوب ـ لن نقاوم حكمك أبداً». فسأله ليانغ: «هل تستسلم الآن؟»، فقال: «أنا وأولادي وأحفادي قد أثرت فينا رحمة معاليكم التي لا حدود لها، والمانحة للحياة. فكيف نقدر أن لا نستسلم؟».

فأقام ليانغ وليمة عظمى على شرف مينغو، وأعاد تثبيته على عرشه، وأعاد أراضيه المحتلة إلى حكمه، ثم عاد شمالاً مع جيشه، دون

أن يترك قوة احتلال. ثم لم يعد إلى الجنوب بعد ذلك أبداً. إذ لم يكن بحاجة إلى ذلك، لأن مينغو صار أخلص حلفائه الذين لا يتزعزع ولاؤهم له.

التفسير

كان أمام تشوكو ليانغ خياران: أن يحاول أن يهزم المتوحشين في الجنوب بضربة ساحقة واحدة، أو أن يكسبهم إلى جانبه بصبر وأناة مع مرور الزمن. فمعظم الناس الأقوى من أعدائهم يتمسكون بالخيار الأول ولا ينتظرون الثاني أبداً. ولكن الأقوياء الحقيقيين يذهبون بتفكيرهم بعيداً فقد يكون الخيار الأول سهلاً وسريعاً، ولكنه بمرور الزمن يثير عواطف قبيحة في قلوب المغلوبين. فيتحول سخطهم إلى كراهية. ومثل هذه العداوة تبقيك قلقاً متوتراً ـ فتنفق طاقتك في محاولة حماية ما كسبت. وتصبح مصاباً بهوس الارتياب في الآخرين (بارانويا) وفي موقف الدفاع أما الخيار الثاني، فبالرغم من كونه أصعب، فلا يقتصر على أن يجلب لك هدوء البال، بل إنه يقلب عدواً محتملاً إلى عمودٍ من الدعم.

في كل مواجهاتك، تراجع خطوة إلى الوراء ـ وخذ وقتاً لإجراء حساباتك وأوجد تناغماً مع التركيب العاطفي لأهدافك ونقاط ضعفهم النفسية. فالقوة لن تؤدي إلاّ إلى تعزيز مقاومتهم. فالقلب هو المفتاح بالنسبة لمعظم الناس: فهم كالأطفال، تحكمهم عواطفهم. ولتليينهم راوح لهم بين الخشونة والرحمة. واستغل مخاوفهم الأساسية، وكذلك عواطف حبهم ـ للحرية، لأُسَرِهِمْ... فعندما تكسر جموحهم، سيصبح لك في كل منهم صديق مدى الحياة وحليف شديد الولاء.

يلاحظون غبطةً لنفسه وشهامَةً في هذه المناسبة حتى هتفوا له جميعاً بصوت واحد أن يقودهم إلى الأمام بجرأة، وبدأوا يجلدون خيولهم، قائلين إنه ما دام لديهم ملك كهذا فإنهم يتحدّون التعب والظمأ معاً، ويعتبرون أنفسهم أقلّ بقليل فقط من الخالدين.

حياة الإسكندر الأكبر بلوتارخ، حوالي 46 ـ 120م

تذكّرنا هذه القصة بشهداء معركة اليرموك الأبطال الذين كانوا جرحى، آثر كل منهم أخاه بشربة الماء التي أديرت عليهم حتى فاضت أرواحهم واحداً بعد الآخر دون أن يشربوا(المترجم)

تنظر الحكومات للناس على شكل كتلة بالجملة فقط؛ ولكن رجالنا لم يكونوا نظاميين، ولا تشكيلات، بل أفراداً... فكانت مملكتنا كامنة في ذهن كل رجل.

(ت. ي. لورانس، 1888 ـ 1935): أعمدة الحكمة السبعة.

مفاتيح السلطة

في لعبة السلطة، أنت محاطٌ بأناس ليس لديهم أي سبب على الإطلاق لمساعدتك ما لم يكن في ذلك مصلحة لهم. فإذا لم يكن لديك ما تقدِّمه إلى مصلحتهم الذاتية، فإن من المحتمل أن تجعلهم معادين لك، إذ أنَّهم لن يروا فيك إلاَّ منافساً إضافياً آخر، ومضيعاً آخر لوقتهم. وأولئك الذين يتغلَّبون على هذا البرود السائد هم الذين يجدون المفتاح الذي يفتح مغاليق قلب الغريب وعقله، ويغويه إلى زاويتهم، وعند الضرورة يليّنه للضربة. ولكن معظم الناس لا يتعلَّمون هذا الجانب من اللعبة. وعندما يلتقون بشخص جديد، فبدلاً من التراجع خطوة إلى الوراء وسبر غوره لمعرفة ما الذي يجعل هذا الشخص فذاً، فإنهم يتحدثون عن أنفسهم، متشوِّقين إلى فرض قوة إرادتهم، وتحاملاتهم. فيجادلون، ويتبجَّحون، ويحوِّلون قوَّتهم وسلطتهم إلى استعراض. وقد لا يعرفون أنهم بذلك يخلقون لأنفسهم (بصورة سرِّيَّة) عدواً، ومقاوِماً، لأنه ليس هناك شعور يثير الغيظ أكثر من تجاهل فرديتك، وعدم الاعتراف بنفسيتك. إن ذلك يجعلك تشعر أنك بلا حياة، فيشعل سخطك.

تذكَّر: إن مفتاح الإقناع هو تليين مواقف الناس وترويضهم، بلطف. فَأَغْوِهِمْ بنهجٍ ذي شعبتين: اعمل على كسب عواطفهم واستغل نقاط ضعفهم الفكرية. فكن مستيقظاً لتحديد ما يفصلهم عن كل شخص آخر (نفسيتهم الفردية) وما يشتركون فيه مع كل شخص آخر (ردود فعلهم العاطفية الأساسية). واستهدف العواطف الأولية ـ الحب، والكراهية، والغيرة. فعندما تحرِّك عواطفهم تكون قد أَنْقَضْتَ سيطرتهم، وجعلتهم أكثر انكشافاً وعرضة للإقناع.

وعندما أراد تشوكو ليانغ أن يثني جنرالاً هاماً من مملكة منافسة عن الدخول في تحالف مع تسآو تسآو، عدوّ ليانغ المرهوب، لم يشرح

تفاصيل قسوة تسآو تسآو، ولم يهاجم على أسسٍ أخلاقية، وبدلاً من ذلك ألمح ليانغ أن تسآو تسآو كان في الحقيقة يسعى وراء الزوجة الجميلة لذلك الجنرال. فكان ذلك التلميح ضربةً للجنرال في معدته. وأدّى إلى كسبه إلى صف ليانغ. وبالمثل كان ماوتسي تونغ يَتَوَجَّهُ دائماً إلى العواطف الشعبية، ويتحدَّث بأبسط المصطلحات. فقد كان مثقفاً وقارئاً جيِّداً بحد ذاته، ويستخدم في خطاباته مجازات لغوية عميقة المغزى تعطي صوتاً لأعمق ما في غرائز الناس من القلق، وتشجِّعهم على التعبير عن إحباطهم وخيبة آمالهم في اجتماعات عامة. وبدلاً من مناقشة الجوانب العملية لبرنامج معيَّن، كان يصف كيفية تأثيره فيهم على أخفض مستوى بدائي ملتصق بالأرض. ولا تعتقد أن هذا النهج ينجح فقط مع الأميين الذين لم يذهبوا إلى المدارس - بل إنه ينجح مع جميع الناس. فنحن جميعاً بشر مقدَّر عليهم الموت ونواجه المصيرَ الرهيبَ نفسه. وكلنا نشترك في الرغبة بالترابط والانتساب إلى جماعة. انصب هذه العواطف فخاخاً وستصطاد قلوبَنا بها.

وأفضل طريقة هي عمل ذلك بصدمة درامية مفاجئة، من النوع الذي أوجده تشوكو ليانغ عندما أطعم الأسرى وأطلق سراحهم في الوقت الذي كانوا يتوقعون منه الأسوأ. فهزَّهم كرمه إلى أعماقهم فليَّن قلوبهم. فاستغل مفارقات كهذه: ادفع الناس إلى حافة اليأس، ثم قدِّم لهم الخلاص والفَرَج. ذلك أنهم إذا كانوا يتوقعون الألم وأعطيتهم اللّذة فإنك تكسب قلوبهم. والواقع أن خلق اللّذة والسرور من أي نوع يأتيك بالنجاح في العادة، تماماً كما يفعل التخفيف من المخاوف وتقديم الأمن أو الوعد به.

وكثيراً ما تكون الإشارات الرمزية كافيةً لكسب العطف وحسن النيّة. فالإشارة إلى التضحية بالذات، مثلاً - بإظهار كونك تعاني كما يعاني الآخرون من حولك . ستجعل الناس يتوافقون معك، حتى ولو

كانت معاناتك رمزية أو ثانوية، بينما معاناتهم حقيقية. فعندما تدخل في جماعة، أعطهم إشارة حسن نية وليِّن مواقفهم لتتحمَّل الإجراءات الأقسى التي ستتبع لاحقاً.

عندما كان توماس إدوارد لورانس يقاتل الأتراك في صحارى الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى خطر بباله حدس: فقد بدا له أن الحرب التقليدية قد خسرت قيمتها، فالجندي العتيق الطراز ضائع وسط الجيوش الهائلة في عصره، حيث إنه يتلقى الأوامر من هنا وهناك كأنه بيدق لا حياة له. فأراد لورانس أن يقلب هذا الحال. فبالنسبة له كان عقل كل جندي مملكةً يتعيَّن عليه غزوها وفتحها. ذلك أن الجندي الملتزم، الذي لديه حافز نفسي، يقاتل بجهد أكبر وبطريقة خلاقة أكثر من الدمية.

ولا يزال إدراك لورانس صحيحاً أكثر في عالم اليوم، حيث يشعر الكثير منا بأنه غريب، ومجهول، ويتشكك في السلطة... وهذا كله يجعل ألعاب السلطة والقوة أخطر وذات مردود معاكس وسلبي أكثر. فبدلاً من التلاعب ببيادق لا حياة فيها، اجعل أولئك الذين إلى جانبك مقتنعين ومتحمسين للقضية التي جنَّدتهم فيها ولخدمتها. فلن ينجم عن ذلك إلاَّ جعل عملك أسهل، ولكنه أيضاً سيعطيك مهلة لتخدعهم في وقت واحد.

ولتحقيق ذلك تحتاج إلى التعامل مع نفسياتهم الفردية. وإيَّاك أن تفترض على نحو أخرق، أن التكتيك الذي ينجح في التطبيق على شخص مّا سينجح بالضرورة مع شخص آخر. فللعثور على المفتاح الذي سيحرِّضهم، اجعلهم ينفتحون عليك أولاً. وكلما زاد حديثهم زاد ما يكشفونه لك عما يحبُّون وما يكرهون ـ وهذه هي المقابض والرافعات التي ستحرِّكهم بها.

إن أسرع طريقة إلى ضمان عقول الناس، هي العمل بأبسط شكل

ممكن، على إظهار مدى فائدة عملٍ مّا لهم. فالمصلحة الذاتية هي الحافز الأكبر من جميع الحوافز: فالقضية العظيمة قد تأسر العقول ولكن ما أن تنتهي دفقة الحماس الأولى، فإن المصلحة سوف تبرز ر يته ـ ما لم يكن هناك شيء يمكن كسبه. فالمصلحة الذاتية هي أسـ التجنيد. والقضايا التي تنجح على نحو أفضل، تستخدم قشرة خارجية من النبل لتخفي توجهاً سافراً نحو المصلحة الذاتية، فالقضية تغوي. ولكن المصلحة الذاتية تختم الصفقة وتؤمّنها.

والناس الأفضل قدرة على مخاطبة عقول البشر كثيراً ما يكونو الفنانين، والمثقفين، وذوي الطبيعة الأكثر شاعرية. ذلك لأن الأفكا تنقل بأسهل طريق من خلال المجازات والاستعارات والصور. ولذ. فإن من حسن السياسة أن تضع في جيبك فناناً أو مفكّراً مثقفاً واحداً على الأقل، يستطيع مخاطبة عقول الناس بأسلوب صحيح. ولقد ظل الملوك على الدوام يحتفظون في حظائرهم باصطبل من الكتّاب. فكا لفردريك الأكبر فولتيره (إلى أن تشاجر الرجلان، وافترقا)، وكسب نابليون غوته إلى صفه. وعلى عكس ذلك فإن تنفير نابليون الثالث للكتّاب، مثل فيكتور هوجو، الذي نفاه من فرنسا، أسهم في تنامي السخط الشعبي عليه، ممّا أدّى في النهاية إلى سقوطه. وإذن فإن من الخطر تنفير أولئك الذين لديهم قوة التعبير، ومن المفيد تهدئتهم واستغلالهم.

وأخيراً، تعلّم أن تمارس لعبة الأرقام. فكلما اتسعت قاعدة تأييدك زادت قوة سلطتك. كان لويس الرابع عشر، يفهم أن شخصاً واحداً مستبْعَداً، ومُنَفَّراً، وساخطاً يستطيع بشرارة أن يشعل السخط. ولذلك فقد حرص على أن يحبّب نفسه إلى أصغر موظفيه شأناً. وأنت أيضاً، عليك أن تكسب المزيد من الحلفاء بإطراد وعلى كل المستويات ـ فسيأتي حتماً وقت تحتاج إليهم فيه.

صـــورة:
ثقب المفتاح.
يـبـنـي الـنـاس
جدراناً لإبقائك في
الخارج؛ فلا تقحم نفسك
بالقوة إلى الداخل، لأنك
لـن تـجـد سـوى جـدران
داخل جدران. هناك أبواب
في هذه الجدران، أبواب إلى
القلب والعقل، وفيها ثقوب
صغيرة للمفاتيح. فأطل عبر
ثقب المفتاح، واعثر على
المفتاح الذي يفتح الباب،
وعندئذٍ تتوصل إلى
إرادتـهـم وبـدون
علامات تبيحة
عـلـى دخـول
بالقوة.

الشاهد: تكمن الصعوبات في طريق الإقناع بمعرفتي قلبَ الشخص المُقْنِع كي أجعل كلماتي مناسبة له... ولهذا السبب فإن كل من يحاول الإقناع أمام العرش عليه أن يراقب بدقةٍ مشاعرَ العاهل من الحب والكراهية، ورغباته ومخاوفه السرِّيّة قبل أن يتمكّن من غزو قلبه.

(هان ـ في ـ تزو، فيلسوف صيني، من القرن الثالث ق.م).

الانقلاب

لا يوجد أي انقلاب ممكن على هذا القانون.

القانون

44

انزع السلاح وحرّك الحِنْق بتأثير المرآة

الحكم

تعكس المرآة الحقيقة، ولكنها أيضاً السلاح الأمثل للخداع. فعندما تقلّد أعداءك كأنك مرآة لهم، تفعل ما يفعلون بالضبط، فإنهم لا يستطيعون أن يفهموا خطتك الاستراتيجية. ذلك أن تأثير المرآة يسخر منهم ويذلّهم، مما يجعلهم يفرطون في رد فعلهم. وبرفع المرآة أمام نفوسهم، فإنك تغويهم بوهم كونك تشاطرهم قِيَمَهُمْ؛ وبرفع المرآة أمام أعمالهم، فإنك تلقنهم درساً. قليلون هم القادرون على مقاومة تأثير المرآة.

تأثيرات المرآة: تمهيد لدراسة النماذج الشخصية

للمرايا قوة قادرة على إقلاقنا. وعند التحديق في انعكاساتنا في المرآة، كثيراً ما نرى ما نريد أن نراه ـ صورة أنفسنا التي نرتاح معها أكثر من أي شيء آخر. وليست هناك حاجة للتحديق المفرط الدقّة، فنتجاهل التجاعيد والعيوب. ولكننا إذا دققنا النظر في الصورة المنعكسة بالفعل، فإننا نشعر أحياناً بأننا نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون، كشخصٍ بين أناسٍ آخرين، كشيء، أو غرض بدلاً من شخص فاعل. ومثل هذا الشعور يجعلنا نرتجف، إذْ نرى أنفسنا، ولكن من الخارج، أي بدون الأفكار، والجوهر، والروح التي تملأ وعينا. فنصبح شيئاً.

وباستخدام تأثيرات المرآة فإننا نعيد خلق هذه القوة المقلقة بصورة رمزية عن طريق عكس أعمال الناس الآخرين، بتقليد حركاتهم لإزعاجهم وإثارة حنقهم. فعندما يشعرون بأنهم مقلَّدون ومستنسخون، ومعاملون على أنهم أشياء، وصورة بلا روح، فإنهم يغضبون. أو افعل الشيء نفسه بطريقة مختلفة قليلاً وقد يشعرون بأنهم منزوعو السلاح ـ لأنك تكون بذلك قد عكستَ رغباتهم وميولهم. فهذه هي القدرة النرجسية للمرايا. وفي كلتا الحالتين فإن تأثير المرايا يزعزع أهدافك، سواء بإغضابهم أم بسلب لبهم. وفي تلك اللحظة تكون لديك القوة والسلطة التي تمكِّنك من التلاعب بهم أو إغوائهم. ففي التأثير قوة كبيرة لأنه يعمل على أكثر العواطف بدائية.

التاجر وصديقه

كان لأحد التجار ذات مرة رغبة عظيمة في أن يقوم برحلة طويلة. ونظراً لأنه لم يكن واسع الثراء فقد قال لنفسه: «من المطلوب قبل مغادرتي أن أترك جزءاً من ممتلكاتي في المدينة، لكي يكون لدي مال أستند إليه عند عودتي إذا أصابني حظ سيء في أسفاري». ولهذا الغرض ترك عدداً كبيراً من قضبان الحديد (كانت جزءاً رئيساً في ثروته) أمانةً عند واحد من أصدقائه، راجياً منه أن يحفظها له في غيابه، ثم استأذنه ومضى. وبعد مدة لم يجد في أسفاره إلاّ الحظ السيء، فعاد أدراجه إلى وطنه. فكان أول ما فعله هو الذهاب إلى صديقه ومطالبته بالحديد. ولكن ذلك الصديق، الذي كان مديناً بعدة مبالغ من المال، كان قد باع الحديد ليسدد به ديونه، أجاب بقوله: «الحق يا صديقي أني وضعت حديدك في غرفة محكمة الإقفال، متصوراً أنه سيكون آمناً فيها كذهبي نفسه. ولكن وقع حادث، ما كان أحد ليشك في وقوعه. إذْ كان

وهناك أربعة تأثيرات رئيسية للمرايا في عالم السلطة.

تأثير التحييد: في الأساطير الإغريقية القديمة أن ميدوسـ الغورغونية كان لها ثعابين على رأسها بدل الشعر، ولسان بـ... ى الخارج، وأسنان ضخمة ثقيلة، ووجه قبيح إلى درجة أن كل من يـنظـر إليه يتحوَّل إلى حجر بسبب الخوف. ولكن البطل بيرسيوس تمكَّن من ذبح الميدوسا عن طريق تلميع درعه البرونزي حتى تحوَّل إلى مرآة. ثـ استخدم الانعكاس في المرآة ليقوده وهو يزحف حتى قطع رأسها دون أن ينظر إليها مباشرة. فإذا كان الدرعُ مرآةً في هذه الحالة، فقد عملت المرآة كنوع من الدروع: فلم تستطع الميدوسا أن ترى بيرسيوس، بل رأت أعمالها فقط وهي تنعكس على صفحة المرآة، ومن خلف هذه الستارة تسلَّل البطل وقضى عليها.

وهذا هو جوهر تأثير التحييد. إعمل ما يعمله أعداؤك. متتبعاً تصرفاتهم كأفضل ما تستطيع، وبذلك لن يستطيعوا أن يروا ما الذي تهدف إليه. فمرآتك تعميهم. وتعتمد استراتيجيتهم للتعامل معك على إبداء ردود فعلٍ تجاههم مميزة لك كما يعرفونك. حيِّد ردود الفعل هذه بممارسة لعبة التقليد معهم. فلهذا التكتيك تأثير ساحر، بل ومثير للحنق. إن معظمنا يتذكر تجربة طفولتنا عندما كان شخص مّا يسخر منّا بترديد كلماتنا كما ننطقها بالضبط ـ وبعد فترة ليست طويلة في ذلك، فإننا نرغب في لطم مقلِّدنا على وجهه. وبالعمل بطريقة أخفى وأذكى كشخص بالغ، يمكنك أن تهزّ استقرار خصومك بهذه الطريقة. فتختفي استراتيجيتك نفسها بالمرآة كدرع وتنصب فخاخاً غير مرئية، أو تدفع بخصومك إلى الفخ الذي أعدوه لك.

وقد استُخدِمَ هذا الأسلوبُ القوي في الخطط الاستراتيجية العسكرية منذ أيام صُنْ . تْزُو. أما في عصرنا الحاضر، فإنه كثيراً ما يظهر في الحملات السياسية. وهو مفيد أيضاً في تمويه الأوضاع التي لا يكون لديك فيها أية استراتيجية خاصة أو معيَّنة. وهذه هي مرآة المحارب.

في الغرفة جرذٌ أكل حديدك كله».

تظاهر التاجر بالجهل، وردّ قائلاً: «إنها لكارثة رهيبة لي حقاً؛ ولكنني أعرف من قديم أن الجرذان تحب الحديد حباً جماً؛ وقد عانيت منها في السابق كثيراً بالطريقة نفسها؛ ولذلك فإنني أستطيع أن أتحمل محنتي!

سُرَّ الصديق من هذا الجواب كثيراً، وأسعده أن يسمع التاجر يميل إلى تصديق الادعاء بأن جرذاً قد أكل حديده. ولكي يزيل كل شكوكه، دعاه إلى العشاء معه في اليوم التالي. فوعده التاجر بذلك. ولكنه في تلك الأثناء التقى في وسط المدينة بأحد أولاد صديقه؛ فحمله معه إلى منزله وأخفاه في غرفة مغلقة. وذهب في اليوم التالي إلى صديقه، الذي كان في محنة عظيمة، وعندما سأله عن السبب، وكأنه يجهل ما حدث جهلاً تاماً، أجابه الصديق: «آه، يا صديقي العزيز، أرجو أن تعذرني إذا لم تجدني مرحاً كما ينبغي. فقد فقدتُ واحداً من أبنائي، وطلبت من المنادي أن ينادي لي عليه بالبوق، ولا أدري ماذا حدث له». فردّ التاجر: «آه، يحزنني أن أسمع هذا، لأنني عندما غادرت منزلك مساء الأمس، رأيت بوماً في الجوّ وفي مخالبها طفل؛ ولكنني لا أدري إن كان ابنك أم لا». فردّ الصديق: «أيها المخلوق الأحمق السخيف! ألا تخجل من مثل هذه الأكذوبة الفاضحة؟ أبومٌ لا تزن أكثر من رطلين

والظلُّ نسخة معاكسة لتأثير التحييد. فأنت تلاحق خصومك كظلِّهم في كل حركة من حركاتهم بدون أن يروك. فاستخدم الظل لتجميع المعلومات التي ستحيّد استراتيجيتهم فيما بعد، عندما تكون قادراً على إحباط كل واحدة من حركاتهم. فالظل مؤثر لأن تتبع حركات الآخرين يعني الحصول على معلومات داخلية عميقة ثمينة لعاداتهم وروتين حياتهم. فالظل هو التدبير العقابي للجواسيس والعاملين في التحرِّي السرِّي.

التأثير النرجسي: عندما كان الشاب الإغريقي نارسيوس يحدِّق في صورته المنعكسة في مياه بركة وقع في غرامها. وعندما اكتشف أنها كانت صورته، وأنه لذلك عاجز عن تنفيذ هذا الغرام، انتابه اليأس فأغرق نفسه. ونحن جميعاً لدينا مشكلة مماثلة: فنحن نحب أنفسنا حبّاً عميقاً، ولكن بما أن هذا الحب يستبعد أي هدف للحب خارج أنفسنا، فهو يظل غير مُلَبّىً على الدوام وغير مطبَّق. فالتأثير النرجسيّ يعمل على استغلال خاصيّة النرجسية هذه العالمية الانتشار: فأنت تنظر عميقاً إلى داخل أرواح الناس الآخرين، وتسبر أغوار أعمق رغباتهم الداخلية، وقيمهم، وأذواقهم، وجوهرهم؛ ثم تعيدها منعكسة إليهم، جاعلاً نفسك نوعاً من صورة المرآة. فقدرتك على عكس روحهم تعطيك سلطة كبيرة عليهم؛ بل إنهم قد يشعرون بلمسة حب.

إن هذه ببساطة هي القدرة على تقليد شخص آخر، ليس جسدياً، بل نفسياً، وهي قوية بشكل هائل، لأنها تستغل حب الطفل لذاته، وهو الحبّ غير المتحقق. فالناس في العادة يطلقون علينا تجاربهم هم وأذواقهم هم. فلا يكادون يقومون بأي محاولة لرؤية الأشياء من خلال أعيننا. وهذا شيء مزعج، ولكنه يخلق فرصة كبرى أيضاً. فإذا استطعتَ أن تُظْهِرَ بأنك تفهم شخصاً آخر بأن تعكس له أعمق مشاعره، فإنك سوف تسلب لبّه وتنزع سلاحه. وذلك لأن هذا لا يحدث إلاَّ نادراً. فلا أحد يستطيع أن يقاوم هذا الشعور بانعكاس صورته بشكل منسجم

او ثلاثة، تستطيع ان تحمل طفلاً يزن خمسين رطلاً؟»، فردّ عليه التاجر. «ولِمَ تعجب من ذلك؟ وكأن البلد التي يستطيع فار واحد فيها ان يأكل مائة طن من الحديد، يكون من العجيب فيها أن تحمل بوم طفلاً كل وزنه خمسون رطلاً!». وعندئذ اكتشف الصديق أن التاجر لم يكن من الحمق كما ظنّه، فاعتذر منه على الاحتيال الذي مارسه عليه، وأعاد إليه قيمة حديده، واستعاد منه ولده.

خرافات
بلباي، الهند
القرن الرابع الميلادي

متناغم في العالم الخارجي، حتى ولو كنت تصنع هذا الانعكاس لمصلحتهم ولأغراض خداعية خاصة بك.

والتأثير النرجسي يفعل الأعاجيب، في الحياة الاجتماعية، وفي الأعمال التجارية على حدٍّ سواء؛ إذْ أنه يعطينا مرآة المغوي، ومرآة رجل الحاشية معاً.

التأثير الأخلاقي: إن قوة الحجة الشفهية محدودة للغاية، وكثيراً ما تحقق عكس ما هو مقصود. وكما يلاحظ غراسيان: «إن الحقيقة تُرَى بصورة عامة، ونادراً ما تُسْمَع». فالتأثير الأخلاقي طريقة مثالية لإظهار أفكارك من خلال العمل. وبكل بساطة، فإنك تلقن الآخرين درساً بإعطائهم جرعة من دوائهم نفسه.

وبالتأثير الأخلاقي تعكس مرآتك ما فعله بك الآخرون. وتفعل ذلك بطريقة تجعلهم يدركون أنك تفعل بهم ما فعلوه بك تماماً فتجعلهم **يشعرون** بأن سلوكهم كان كريهاً. وهذا عكس سماعهم لك وأنت تشكو وتنتحب من سلوكهم ذاك، ممّا لا يؤدِّي إلاَّ إلى ارتفاع دروعهم الدفاعية. فعندما يشعرون بأعمالهم وقد عادت إليهم منعكسة. فإنهم يدركون بأعمق إحساس كيف يؤذون الآخرين ويعاقبونهم بسلوكهم غير الاجتماعي. فأنت تجسِّد لهم صفاتٍ تريدهم أن يشعروا بالخجل منها، وتخلق مرآة تتيح لهم أن ينظروا إلى حماقاتهم ويتعلّموا درساً عن أنفسهم. وهذا أسلوب كثيراً ما يستخدمه المثقّفون، وعلماء النفس. وفي شخص مضطر إلى التعامل مع سلوك بغيض وغير واعٍ. وتلك هي مرآة المعلِّم. وسواء أكان هناك شيء خاطىء أم لم يكن في طريقة معاملة الناس لك، فكثيراً ما يكون من مصلحتك أن تعكسها لهم بطريقة تشعرهم بالذنب حولها.

التأثير الهلوسي: إن المرايا خدَّاعة بشكل هائل، لأنَّها تخلق لك شعوراً بأنك تنظر إلى العالم الحقيقيّ. والواقع أنك لا تنظر إلاَّ إلى قطعة زجاج ليس بوسعها، كما يعلم الجميع، أن تعرض لك العالم كما هو

بالضبط: فكل شيء في المرآة منقلب إلى عكسه. وعندما تذهب آليس عبر المنظار في كتاب لويس كارّول، فإنها تدخل إلى عالم مقلوب رأساً على عقب، وليس بصرياً فقط.

ويأتي التأثير الهلوسيّ من خلق نسخة كاملة لشيء، أو مكان، أو شخص. وهذه النسخة تعمل كنوعٍ من الدُّمى، فالناس يعتبرونها الشيءَ الحقيقي، لأن لها المظهر الجسديّ للشيء الحقيقيّ. وهذا هو الأسلوب البارز لفنّاني الاحتيال، الذين يقلّدون العالم الحقيقي على نحو استراتيجي لكي يخدعوك. وله أيضاً تطبيقات في أية حلبة تتطلّب التمويه. فهذه هي مرآة المخادع.

حالات مراعاة تأثيرات المرآة

الحالة الأولى

في شهر شباط/فبراير سنة 1815، هرب الإمبراطور نابليون من جزيرة إلبا، حيث كانت قوات الحلفاء الأوروبيين تحتجزه، وعاد إلى باريس في زحف حرَّك الأمّة الفرنسية، فالتفَّ حوله الجنود والمواطنون من كل الطبقات، وطاردوا خَلَفه الملك لويس الثامن عشر فأبعدوه عن العرش. غير أنه بحلول شهر آذار/مارس، وبعد أن رسخ نابليون نفسه في السلطة، كان عليه أن يواجه كون وضع فرنسا قد تغيَّر بشكل خطير. فقد كان البلد مدمَّراً، ولم يكن له حلفاء بين الأمم الأوروبية الأخرى. وقد هجره أهم وزرائه وأكثرهم ولاءً أو غادروا البلد. ولم يبق من النظام القديم سوى رجل واحد ـ جوزيف فوشيه، وزير الشرطة السابق عند نابليون.

عندما تشتبك مع العدو، وتأخذان في الاصطراع، وتدرك أنك لا تستطيع إحراز تقدم، فإنك تلتصق بالعدو، و«تتغلغل» في صفوفه فتصبح كأنك معه كتلة واحدة. وعندئذ تستطيع الفوز بتطبيق أسلوب مناسب بينما أنتما مشتبكان اشتباكاً لصيقاً ومتبادلاً. وكثيراً ما تتمكن من الفوز بميزة معرفة كيفية «النفاذ» إلى العدو (كنفاذ الماء في الإسفنجة)، أما إذا ابتعدت عنه منفصلاً فإنك ستخسر فرصة الفوز.

كتاب الحلقات الخمس
مياموتو موساشي، اليابان
القرن السابع عشر

وكان نابليون طيلة عهده السابق يعتمد على فوشيه للقيام بأعماله القذرة، ولكنه لم يتمكّن من فهم وزيره هذا على الإطلاق، وكان يقتني جهازاً من العملاء ليتجسَّسوا على وزرائه جميعاً بحيث تكون له ميزة التفوُّق عليهم دائماً. ولكن أيّاً منهم لم يمسك شيئاً ضد فوشيه. فقد كان

هذا الوزير إذا اتُّهِمَ بأي جرم يَخْضَع، ويهزّ رأسه، ويبتسم، ويغيِّر ألوانه كما تفعل الحرباء، متكيِّفاً لمقتضيات اللحظة. وفي بادىء الأمر كان ذلك يبدو إلى حدٍّ مّا ساراً وآسراً، ولكنه بعد ذلك صار يُشْعِرُ نابليونَ بالإحباط، الذي أخذ يحسّ بأنه مغلوب أمام هذا الرجل الغامض المراوغ. وفي وقت آخر كان نابليون قد طرد معظم وزرائه الهامِّين، ولكنه لم يلمس فوشيه على الإطلاق. وهكذا في سنة 1815، بعد أن عاد إلى السلطة، وكان في حاجة إلى المساعدة، شعر بأنه ليس لديه خيار سوى إعادة تعيين فوشيه وزيراً لشرطته.

وبعد مضي عدة أسابيع في عهد نابليون الجديد، أخبره جواسيسه أنهم يعتقدون أن فوشيه على اتصال سرِّي بوزراء بلدان أجنبية بما في ذلك مترنيخ النمسوي. وخشي نابليون أن يكون أثمن وزير عنده يخونه لصالح أعدائه. فكان عليه أن يكتشف الحقيقة قبل فوات الأوان. ولم يستطع مواجهة فوشيه مباشرة ـ فمن الناحية الشخصية كان الرجل زلقاً أكثر من سمكة الأنقليس. وكان نابليون بحاجة إلى دليل ملموس.

وجاء الدليل في الظاهر في شهر نيسان/ إبريل، عندما ألقت شرطةُ الإمبراطور الخاصةُ القبض على سيِّدٍ من ڤيينا كان قد قَدِمَ إلى باريس لإيصال معلومات إلى فوشيه. فأمر نابليون بإحضار الرجل إليه، وهدَّده بالقتل في ذلك المكان وفي تلك اللحظة ما لم يعترف. فانهارَ الرجل واعترف بأنه أعطى فوشيه رسالة من مترنيخ، مكتوبة بحبرٍ خفيّ، عن تدبير اجتماع سرِّي للعملاء الخصوصيين في مدينة بال. وبناء على ذلك أمر نابليون واحداً من عملائه بالتسلل إلى ذلك الاجتماع. فإن كان فوشيه يخطِّط لخيانته حقاً فسوف يتم الإمساك به متلبساً في آخر الأمر، ويُشْنَق.

وانتظر نابليون عودة عميله بفارغ الصبر. ولكن، لذهوله، ظهر العميل بعد أيام ليبلغه أنه لم يسمع شيئاً يوحي بتورّط فوشيه في مؤامرة. والحقيقة أنه يبدو أن العملاء الآخرين قد شكّوا بأن فوشيه كان يخدعهم هم، وكأنه كان يعمل لنابليون على طول الخطّ. ولم يصدِّق نابليون هذا

الثعلب واللقلق

قرّر الثعلب ذات يوم أن يتكارم ويدعو اللقلق العجوز إلى وليمة. ولم يكن العشاء معقداً، وبما أنه كان معتاداً على البخل، فإنه لم يجرب أسلوب المطبخ الراقي، بل كان العشاء في الحقيقة يتكون من طبق مسطح ضحل من الثريد. وفي غضون دقيقة كان مهرجنا قد لعق طبقه حتى نظفه؛ وفي تلك الأثناء كان ضيفه يحاول أن يلتقط بمنقاره شيئاً، فلم يحصل على لقمة. ولكي ينتقم من الثعلب لهذه النكتة العملية القاسية، دعاه إلى العشاء في الأسبوع التالي، فقال الثعلب: «سأكون مسروراً، فعندما تأتي الدعوة من صديق، لا أتكبّر عليه». وبدقّةٍ في مراعاة اليوم الموعود، ركض إلى بيت مضيفه وبدأ يمتدح كل شيء: «يا له من ذوق! يا لها

ولو للحظة ـ كان فوشيه قد تفوّق عليه في الذكاء بطريقة مّا مرّة أخرى.

وفي صباح اليوم التالي، زار فوشيه نابليون، ولاحظ: «وعلى فكرة، يا سيدي، لم أقل لك إنني تلقيتُ رسالة من مترنيخ قبل بضعة أيام؛ وكان ذهني مشغولاً بأشياء أكثر أهمية. وبالإضافة إلى ذلك، فقد نسي مبعوثُهُ، أن يعطيني المسحوق المطلوب لجعل الكتابة مقروأة... وها هي ذي الرسالة أخيراً». وتأكّد نابليون من كون فوشيه يَتَلَعَّبُ به، فانفجر: «إنك خائن يا فوشيه! وينبغي عليَّ أن آمر بشنقك». واستمر نابليون في خطابه لتعنيف فوشيه، ولكنه لم يقدر على طرده بدون دليل، بينما اكتفى فوشيه بالتعبير عن ذهوله من كلمات الإمبراطور، ولكنه ابتسم في سرِّه، لأنه كان من البداية يمارس لعبة المرايا.

من أناقة! والطعام معمول على الوجه الأكمل!». ثم جلس وشهيته متقدة (فالثعالب مستعدة للأكل على الدوام)، وقد وصلت إلى خياشيمه رائحة اللحم اللذيذ. وكان لحماً مفروماً، وقد قدّم للثعلب ـ كما يستحق! ـ في دورق طويل العنق ضيّق الفوهة. فانحنى اللقلق بسهولة، وتمتع باللحم تمتعاً كاملاً وهو يتناوله بمنقاره. أما فم الثعلب، فلم يكن شكله مناسباً، ولا حجمه، فاضطر إلى العودة إلى وجاره خاوي البطن، يجر ذيله وراءه خائباً، وقد تهدّمت أُذناه واحمر وجهه كأنه ثعلب أمسكت به دجاجة.

خرافات منتقاة
جان دي لافونتين
1621 ـ 1695

التفسير

كان فوشيه يعرف منذ سنوات أن نابليون ظل متربعاً على القمة فوق مَنْ حوله عن طريق التجسس عليهم ليلاً نهاراً. وقد نجا الوزير بأن كان لديه جواسيسه الخاصون به للتجسس على جواسيس نابليون، وبذلك كان يحيِّد أي إجراء قد يتخذه ضده نابليون، بل إنه في حالة الاجتماع في بال، قَلَبَ الطاولة؛ فقد كان يعرف عن عميل نابليون المزدوج، وهكذا رتَّب الأمور بحيث يبدو أن فوشيه عميل مزدوج مخلص لنابليون، هو الآخر.

لقد كسب فوشيه السلطة وازدهر في فترة من الاضطراب الشديد، عن طريق عكسِ صُوَرِ الذين حوله في المرايا. فأثناء الثورة الفرنسية كان من اليعاقبة المتشددين؛ وبعد عهد الإرهاب صار جمهورياً معتدلاً، وتحت حكم نابليون أصبح استعمارياً ملتزماً أعطاه نابليون لقب نبالة وجعله دوق أوترانتو. فإذا لجأ نابليون إلى سلاح الحفر لإلقاء القاذورات على الناس، فقد تأكد فوشيه من أن لديه قاذورات ضد نابليون وضد كل شخص آخر كذلك. وقد أتاح له ذلك أن يتنبأ بخطط الإمبراطور ورغباته، بحيث كان يستطيع أن يردِّد صدى عواطف رئيسه حتى قبل أن

يتفوَّه بها. وإذْ جعل فوشيه استراتيجية المرايا درعاً يحصّن به تصرفاته. فإنه استطاع أيضاً أن يخطِّط لحركات هجوميّة بدون أن يُضْبَطَ متلبِّساً بعمله هذا.

تلك هي قوة عكس صور مَنْ حولك في المرايا. فأنت أولاً تعطي الناس شعوراً بأنك تشاطرهم أفكارهم وأهدافهم. فإذا شكّوا ـ ثانياً ـ بأن لديك أهدافاً خفية، فإن المرآة تحصّنك منهم، فتمنعهم من فهم استراتيجيتك. وفي آخر الأمر، فإن ذلك سوف يثير ثائرتهم ويزعزع استقرارهم. فبممارسة لعبة مزدوجة، فإنك تسرق الرعد منهم، وتمتص منهم زمام المبادرة، وتجعلهم يشعرون بأنهم بلا حول ولا قوة. كما أنك تكسب القدرة على اختيار زمن إقلاقهم وكيفية التشويش عليهم ـ وهذا طريق آخر نحو السلطة. كما أن المرآة توفر عليك طاقة عقلية: ذلك أن ترديد صدى حركات الآخرين يتيح لك المجال الذي تحتاج إليه كي تطوِّر استراتيجيتك الخاصة بك.

الحالة الثانية

في أوائل الحياة العملية، قام السياسي والجنرال الطموح آلسيبياديس الأثينيّ (450، 404 ق.م) بتكييف سلاح رهيب صار مصدر سلطته. ففي كل مواجهة مع الآخرين، كان يستشعر أمزجتهم وأذواقهم. ثم يفصل كلماته وأعماله بعناية لتعكس في المرآة أعمق رغباتهم. فيغويهم بفكرة كون قِيَمِهِمْ متفوِّقةً على قِيَمِ كل شخص آخر، وبأن هدفه هو أن يجعلهم نماذج له يقلِّدها، أو أن يساعدهم على تحقيق أحلامهم فلم يستطع مقاومة سحره إلاَّ قليلون.

وكان أول رجل يقع تحت تأثير سحره هو الفيلسوف سقراط وكان آلسيبياديس يمثل عكس مثال البساطة والاستقامة السقراطيّ. فقد كان يعيش في فخفخة، وكان بلا مبادىء تماماً. غير أنه كان كلما التقى بسقراط، يعكس في المرآة وقار الرجل ورزانته، فيأكل ببساطة، ويرافق سقراطَ في مسيرات طويلة على الأقدام، ولا يتحدث إلاَّ عن الفلسفة

الرسالة المختلسة

عندما أُريد أن أكتشف أي شخص كم هو حكيم أو غبي، أو طيب أو شرير، أو ما هي أفكاره في حينها، فإنني أشكّل تعبير وجهي، بأقصى دقة ممكنة، حسب التعبير المرتسم على وجهه، ثم أنتظر لأرى ما الأفكار أو العواطف التي تنشأ في ذهني أو في قلبي، كأنما لتتمشى أو تتماثل مع التعبير.

إدغار آلن بو
1809 - 1849

والفضيلة. ولكن سقراط لم ينخدع بصورة كاملة. فلم يكن غافلاً عن حياة آلسيبياديس الأخرى. ولكن ذلك لم يزد على جعل سقراط مكشوفاً لمنطقِ تَمَلُّقِهُ: فأخذ يشعر بما يلي: لا يخضع هذا الرجل لتأثيرات الفضيلة إلاً في حضوري. فأنا فقط الذي أملك سلطة عليه. وأَسْكَرَ هذا الشعور سقراط، فصار معجباً بآلسيبياديس ومؤيداً له بشدة، بل لقد غامر بحياته ذات يوم لينقذ الشابَّ في المعركة.

وكان الأثينيون يعتبرون آلسيبياديس أعظم خطبائهم. إذْ كانت له قدرة خارقة على التناغم مع تطلعات مستمعيه، وعكس رغباتهم في المرآة. وقد ألقى أعظم خطبة في تأييد غزو صقلية، التي كان يعتقد أنها ستجلب ثروةً عظيمة لأثينا، ومجداً لا حدود له لنفسه. وقد عبَّرت تلك الخطب عن تعطش الشباب الأثينيين لغزو أراضٍ لأنفسهم، بدلاً من العيش على انتصارات أسلافهم. ولكنه فصَّل كلماته أيضاً بحيث تعكس حنين الشيوخ إلى سنوات المجد الغابر عندما كانت أثينا تقود الإغريق ضد فارس، ومن ثمَّ استمرَّت حتى خَلَقَتْ إمبراطورية. وهكذا راحت أثينة كلها تحلم بغزو صقلية. وتمت الموافقة على خطة آلسيبياديس، وتم تعيينه قائداً للحملة.

غير أنه بينما كان آلسيبياديس يقود غزو صقلية، لفق ضده بعض الأثينيين اتهامات بأنه دنّس تماثيلَ مقدسة. فَعَلِمَ أنه إذا رجع إلى الوطن فسوف يسعى أعداؤه لإعدامه. وهكذا ففي الدقيقة الأخيرة هَجَرَ أسطول أثينة وهرب إلى عدوها اللدود، إسبارطة. فرحّب الإسبارطيون بمجيء هذا الرجل العظيم للوقوف إلى جانبهم. ولكنهم كانوا يعرفون سمعته، فكانوا حذرين منه. وكان آلسيبياديس يحب البذخ؛ بينما كان الإسبارطيون شعباً محارباً يعبد التقشف. وكانوا يخشون أن يفسد آلسيبياديس شبابهم. ولكنهم ارتاحوا كثيراً، لأن الآلسيبياديس الذي وصل إلى إسبارطة لم يكن أبداً ما توقعوه: فقد أسدل شعره بلا تشذيب (كما كانوا يفعلون)، وأخذ يستحم بالماء البارد، ويأخل خبزاً خشناً،

وحساءً أسود، ويرتدي ملابس بسيطة. وكان هذا عند الإسبارطيين يشير إلى أنه قد اقتنع بأن طريقة حياتهم متفوقة على حياة الأثينيين، وبأن الإسبارطيين أعظم من الأثينيين، ولذلك اختار أن يكون إسبارطياً بدلاً من أن يكون مولوداً كذلك. ولهذا يجب تكريمه فوق الجميع. وهكذا وقعوا تحت تأثير سحره ومنحوه سلطات عظيمة. ولسوء الحظ، فإن آلسيبياديس لم يكن يعرف كيف يلجم سره هذا ـ فقد استطاع أن يغوي زوجة ملك إسبارطة، التي حملت منه سفاحاً. وعندما شاع ذلك عنه، اضطر إلى الفرار مرة أخرى كي ينجو بحياته.

وفي هذه المرة هرب آلسيبياديس إلى فارس، حيث تحول فجأة من البساطة الإسبارطية إلى طراز حياة البذخ الفارسية حتى أدق تفاصيلها. وقد شعر الفرس بالملق الهائل بالطبع، وهم يرون إغريقياً من حجم آلسيبياديس ومكانته يفضل حضارتهم على حضارته. فأمطروه بأنواع التكريم، وأهدوه الأراضي، ومنحوه السلطة. وما إن أغوتهم المرآة حتى عجزوا أن يلاحظوا أن ألسيبياديس كان يمارس من وراء ذلك الدرع لعبة مزدوجة، فيساعد الأثينيين سراً في حربهم مع إسبارطة، وبذلك يتقرب زُلْفَىٰ من المدينة التي كان يريد أن يعود إليها بشكل يائس، والتي رحبت بعودته بذراعين مفتوحتين سنة 408 ق .م.

لورنزو دي ميديتشي يغوي البابا

ولم يُضِعْ لورنزو دي ميديتشي أي فرصة لزيادة الاحترام الذي راح البابا إنوسنت يشعر به تجاهه، أو لكسب صداقة البابا، ومحبته إن أمكن. وكلف نفسه عناء اكتشاف أذواق البابا وأشبعها له بالطريقة المناسبة. فأخذ يرسل إليه . . براميل من شرابه المفضل. . . وأرسل إليه رسائل مهذبة ومتملقة، يؤكد له فيها (عندما كان البابا مريضاً)، أنه يشعر بآلامه وكأنها آلامه هو، ويشجعه بعبارات مقوّية من مثل قوله: «إن البابا هو ما يريد أن يكون»، وكان يضمّن تلك الرسائل آراءه في المسار اللائق للسياسات البابوية، وكأنما يسوق تلك الآراء بشكل عفوي عابر. وكان البابا راضياً بمجاملات لورنزو، ومقتنعاً بحججه. . . بل إنه راح يشاطره آراءه، وبشكل كامل، إلى درجة أن سفير فيرارا الساخط عبّر عن ذلك بقوله: «إن البابا ينام بعيني لورنزو الرائع».

آل ميديتشي: صعودهم وسقوطهم
كريستوفر هيبرت، 1980

التفسير

في وقت مبكر من حياته العملية، قام آلسيبياديس باكتشاف غيّر نهجه كله إزاء السلطة. فقد كانت له شخصية قوية نابضة بالحيوية، ولكنه عندما يجادل الآخرين في أفكاره، كان يكسب قلّةً منهم، وينفّر كثيرين غيرهم في الوقت نفسه، حتى شرع يعتقد بأن السرّ في الصعود فوق أعداد كبيرة من الناس ليس في فرض وجهة نظره عليهم، بل في امتصاص آرار مَنْ حوله، كالحرباء. فعندما يقع الناس في حبائله، فإن ضروب الخديعة التي يستمر في ممارستها ستكون خافيةً عليهم.

إفهم: إن كل واحد يتلفع في قوقعته النرجسية الخاصة. فعندما

تحاول أن تفرض ذاتك الأنانية عليهم، تزداد مقاومتهم. أما عندما تعكس صورهم في المرايا، فإنك تغويهم بنوع من الجذل النرجسي: إذ إنهم يحدّقون في توأم لروحهم نفسها. وهذا التوأم تصنّعه أنت بكامله، وما أن تستخدم المرآة لإغوائهم، حتى تصبح لك سلطةٌ كبرى عليهم.

غير أن من الجدير بالملاحظة، أن هناك أخطاراً في استخدام المرايا بطريقة مختلطة مشوشة بلا تمييز. ففي حضرة آلسيبياديس، كان الناس يشعرون بأنهم كبروا، وكأن حجم ذواتهم قد تضاعف، ولكن ما أن يغادرهم حتى يشعروا بالفراغ والنقص. وعندما كانوا يرونه يعكس صور أناس مختلفين عنهم تماماً، وبالطريقة الكلية التي كان يعكس فيها صورهم هم، فإن شعورهم لم يكن يقتصر على النقص والتضاؤل، بل كانوا يشعرون أنه يخونهم أيضاً. وقد أدى استعماله المفرط لتأثير المرآة إلى جعل شعوب بكاملها تشعر بأنها قد استُغِلَّت، بحيث أنه اضطر إلى مواصلة الهرب من مكان إلى آخر. والحقيقة أن آلسيبياديس قد أغضب الإسبارطيين إلى درجة أنهم دبروا اغتياله. فقد تجاوز الحدود. وإذن فإن مرآة المغوي ينبغي استخدامها بحذر وتمييز.

الحالة الثالثة

كان لدى فتغنشتاين موهبة خارقة في حَدَسِ أفكار الشخص المشترك معه في مناقشة. فيما كان الآخر يكافح لوضع أفكاره في كلمات، كان فِتْغِنْشْتاين يتفهّم تلك الأفكار ويصوغها له في عبارات. وإنني لمتأكد بأن هذه القدرة، التي كانت تبدو غريبة أحياناً، صارت ممكنة بفضل أبحاثه المطولة والمستمرة.

لودفيغ فتغنشتاين: ذكرى: نورمان مالكولم، 1958

في سنة 1652، قامت البارونة مانسيني، الحديثة الترمُّل، بنقل عائلتها من روما إلى باريس، حيث كان بوسعها أن تعتمد على نفوذ شقيقها الكردينال مازاران، رئيس وزراء فرنسا، وحمايته. ومن بين بنات البارونة الخمس، دوّخت أربعٌ البلاطَ بجمالهن، وروحهن المعنوية العالية. فأصبحت بنات أخت الكردينال مازاران الفاتنات سيئات الصيت يُعْرَفْنَ باسم المازارانيّات. وسرعان ما رُحْنَ يجدن أنفسهن مدعوات إلى معظم الفعاليات الهامة في البلاط.

ولم تشترك البنت الخامسة، ماري مانسيني، في هذا الحظ السعيد، إذْ كان ينقصها جمال شقيقاتها ورشاقتهن فبدأن يكرهنها، كما

كرهتها الأم، وخالها الكردينال مازاران في آخر الأمر. فقد شعروا بأنه تفسد صورة العائلة. فحاولوا إقناعها بدخول دير، حيث تكون أقل إحراجاً لهم. ولكنها رفضت. وعكفت بدلاً من ذلك على دراساتها. فتعلمت اللاتينية، واليونانية، وأتقنت لغتها الفرنسية، وشرعت تدرّب مهاراتها الموسيقية. وفي المناسبات النادرة التي كانت أُسرتها تسمح لها فيها بحضور فعاليات البلاط، دربت نفسها على أن تكون متقنةً لفن الاستماع، فكانت تزن الناس وتسبر أغوارهم بحثاً عن نقاط ضعفهم، ورغباتهم الخفيّة. وعندما التقت آخر الأمر بملك المستقبل، لويس الرابع عشر، في سنة 1657 (عندما كان لويس في السابعة عشرة، وماري في الثامنة عشرة) قررت أنها ستجد طريقة لجعل هذا الشاب يقع في غرامها، لكي تغيظ أُسرتها وخالها.

كانت تلك مهمة تبدو مستحيلة لمثل هذه الفتاة العادية المظهر. فقامت ماري بدراسة ملك المستقبل دراسة وثيقة عن كثب. فلاحظت أن عبث شقيقاتها لم يكن يروق له. وشعرت بأنه يمقت التآمر وأحابيل المكر الرخيص الشائعة من حوله. ورأت أن له طبيعة خيالية حالمة ـ فقد كان يقرأ قصص المغامرات، ويصرّ على السير على رأس جيوشه، ولديه مُثُلٌ عُليا وحب حماسيّ للمجد. ولم يكن البلاط يغذي خيالاته تلك، بل كان عالماً مبتذلاً من السفاسف السطحية التي تشعره بالسأم.

ورأت ماري أن المفتاح إلى قلب لويس هو إقامة مرآة تعكس خيالاته وتشوق شبابه إلى المجد والمغامرة. وفي البداية غمست نفسها في القصص الرومانسية الحالمة، والأشعار والمسرحيات التي كانت تعرف أن الملك الشاب منهمك في قراءتها بنهم. فعندما كان لويس يشركها في محادثته، كانت ـ لفرحته وطربه ـ تتحدث عن أشياء تثير روحه ـ وليس عن هذا الزيّ وتلك الشائعة من القيل والقال، بل عن الحب العذري المتسامي، وأعمال الفرسان العظام، ونبل الملوك

يجب أن يكون الطبيب مُغْيِماً غير شفاف أمام مرضاه، وأن لا يعرض عليهم أكثر مما يبدو أمامهم لو نظروا في مرآة.

سيغموند فرويد، 1856 ـ 1939

والأبطال الغابرين. وهكذا راحت تغذي تعطشه للمجد بخلق صورة للملك الرزين الوقور المتفوق الذي باستطاعته أن يتطلع لِيَكُونَهُ. فحركت خياله.

وعندما راح ملك الشمس المستقبل يقضي في حضرة ماري وقتاً أطول فأطول، اتضح في آخر الأمر أنه قد وقع في غرامها، رغم أنها كانت أقل النساء احتمالاً لحدوث ذلك في البلاط كله. ولذعر أم ماري وشقيقاتها، راح لويس يمطرها باهتمامه. فأخذ يصطحبها في حملاته. ويتعمد إظهارها في مواقع تستطيع منها أن تتفرج عليه وهو زاحف إلى المعركة. بل إنه وعدها بالزواج منها وجعلها ملكة.

غير أن مازاران لم يكن ليسمح للملك بالزواج من ابنة أخته، لأنها امرأة لا تستطيع أن تأتي لفرنسا بتحالفات دبلوماسية أو ملكية. بل كان على لويس أن يتزوج أميرة من إسبانيا أو النمسا. وفي سنة 1658، خضع لويس للضغوط، ووافق على فسخ أول ارتباط عاطفي رومانسي في حياته. وفعل ذلك بكثير من الأسف. ولقد اعترف في آخر عمره أنه لم يحب أحداً كما أحب ماري مانسيني.

التفسير

أتقنت ماري مانسيني لعبة الإغواء إتقاناً كاملاً، فأولاً: خطت خطوة إلى الوراء لتدرس فريستها. وكثيراً ما يفشل الإغواء في أن يتخطّى إلى ما بعد الخطوة الأولى عندما يكون هجومياً وعدوانياً أكثر من اللازم. فينبغي أن تكون الخطوة الأولى على الدوام تراجعاً. فمن خلال دراسة الملك من على مبعدة، رأت ماري ما يميزه عن الآخرين ـ قيمه العليا، طبيعته الخيالية الحالمة. واحتقاره المتعجرف للمكائد التافهة. وكانت خطوة ماري التالية عمل مرآة تنعكس فيها أشواق لويس الخفية، تتيح له لمحات مما يمكن أن يكونه . كملك شبيه بالآلهة!

وكانت لهذه المرآة مهام عديدة، فهي ترضي غرور لويس الذاتي

بإعطائه توأماً ينظر إليه. كما أنها تركز عليه بشكل حصري يعطيه شعوراً بأن ماري مانسيني موجودة له وحده. فقد كان محاطاً بزمرة من رجال الحاشية المتآمرين الذين ليس في قلوبهم سوى مصلحتهم الأنانية. فلم يستطع الخلاص من تأثير هذا التركيز المخلص. وأخيراً فإن مرآة ماري أقامت له مثالاً يسعى ليصل إلى مستواه. وهو الفارس النبيل في بلاط العصور الوسطى. وبالنسبة إلى روح عاطفية خيالية وطموحة، لم يكن هناك شيء مسكر أكثر من وجود شخص يحمل له انعكاساً لصورةٍ له مثالية. والواقع أن ماري مانسيني كانت هي التي اصطنعت صورة الملك الشمس ـ وبالفعل، فقد اعترف لويس، فيما بعد، بالدور الهائل الذي لعبته ماري في صياغة صورته المشعة عن نفسه. وهذه هي قوة مرآة المغوي: بمضاعفة أذواق الهدف ومثالياته، فإنك تظهر له (أولها) اهتمامك بنفسيته، وهو اهتمام أكثر جاذبية من أية متابعة هجوميّة أو عدوانية. اعثر على ما يميز الشخص الآخر ويفصله عن بقية الناس، ثم ارفع له المرآة التي تعكس هذا الشيء وتستخرجه منه. قم بتغذية خيالاتهم عن السلطة والعظمة، بإظهار مثالياتهم منعكسة على المرآة، وسوف يخضعون.

الحالة الرابعة

في سنة 1538، توفيت هيلينا وتركت ابنها إيڤان يتيماً في الثامنة من عمره، وهو الذي صار فيما بعد قيصر روسيا تحت اسم إيڤان الرابع (أو إيڤان الرهيب). وطيلة السنوات الخمس التالية كان يتفرج على طبقة الأمراء (المعروفين باسم البويار) وهي تسلط إرهابها على البلد. ولكي يسخروا من إيڤان الصغير، كانوا يجعلونه بين حين وآخر يرتدي تاجاً ويحمل صولجاناً، ويضعونه على العرش. وعندما تتدلى قدما الولد الصغير فوق حافة الكرسي، كانوا يضحكون ويرفعونه عنه، ثم يرمونه في الهواء من رَجُلٍ إلى آخر، ليجعلوه يشعر بأنه لا حول له بالمقارنة معهم.

وعندما بلغ إيڤان الثالثة عشرة من عمره، اغتال قائدَ البويار بجرأة،

واعتلى العرش. وعلى مدى العقود القليلة التالية كافح إيڤان لإخضاع سلطة البويار، ولكنهم استمروا يَتَحَدَّوْنَهُ. وبحلول سنة 1575، كانت جهوده لتحويل روسيا ودحر أعدائها قد أنهكته. وفي تلك الأثناء كان رعاياه يتذمّرون من حروبه التي لا تنتهي، ومن شرطته السرية، ومن البويار الظَّلَمَة غير المدحورين. وبدأ وزراؤه أنفسهم يتساءلون عن تحركاته، وأخيراً قرر أنه قد تحمّل ما فيه الكفاية. وفي سنة 1564، هَجَرَ عرشه مؤقتاً، فأرغم رعاياه على استدعائه ليعود إلى السلطة. وعندئذ خطا باستراتيجيته خطوة أبعد، فتنازل عن العرش.

وكان إيڤان قد رفَّع سيميون بيكبولاتوفيتش، أحد جنرالاته، ليحل محله على العرش. وعلى الرغم من كون سيميون قد اعتنق المسيحية قبل ذلك بوقت قصير، فقد كان بالولادة تترياً، وكان وضعه على العرش إهانة لرعايا إيڤان؛ إذ أن الروس كانوا يحتقرون التتر، ويعتبرونهم ناقصين وكفّاراً. ومع ذلك أمر إيڤان أن يتعهد الروس جميعاً، بما فيهم البويار، بالولاء لحاكمهم الجديد. وبينما انتقل سيميون إلى الكرملين، راح إيڤان يعيش في بيت متواضع في ضواحي موسكو، وكان يذهب منه أحياناً لزيارة القصر، وينحني أمام العرش، ويجلس بين البويار الآخرين، ويقدم لسيميون طلباتٍ بأن يسدي له صنيعاً.

وبمرور الزمن اتضح أن سيميون كان نوعاً من توأم للملك. فكان يلبس كما يلبس إيڤان، ويتصرف كما يفعل إيڤان، ولكن لم تكن له سلطة حقيقية، إذ لم يكن يطيعه أحد فعلياً. ورأى هذه الصلةَ البويارُ من كبار السن الذين تذكروا ما كانوا يفعلونه بإيڤان وهو طفل بوضعه على العرش. كانوا يجعلونه يشعر كأنه مُدَّعٍ ضعيف. وهكذا راح يعكس لهم أعمالهم تلك في المرآة بوضع مُدَّعٍ ضعيف من تدبيره هو على العرش.

وعلى مدى عامين طويلين ظل إيڤان ممسكاً بمرآة سيميون أمام الشعب الروسي. فكانت تلك المرآة تقول لهم: إن نحيبكم وعصيانكم قد جعلاني قيصراً بلا سلطة فعليّة، وهكذا سأعكس لكم صورة قيصر بلا

سلطة حقيقية. ولقد عاملتموني بلا احترام، ولذا فسأفعل بكم الشيء نفسه، جاعلاً روسيا موضع ضحك العالم. وفي سنة 1577، وباسم الشعب الروسي، ذهب البويار المضروبون المعاقَبون إلى إيفان مرة أخرى متوسلين إليه أن يعود إلى العرش، ففعل. وعاش كقيصر حتى وفاته سنة 1584، فاختفت المؤامرات، والشكاوى، والتساؤلات المحيِّرة، ومعها سيميون.

التفسير

في سنة 1564، بعد التهديد بالتنازل عن العرش، مُنِحَ إيفان سلطات مطلقة. ولكن تلك السلطات راحت تتآكل بينما أخذ كل قطاع ينافسه عليها سعياً وراء مزيد من السيطرة ـ وقد شمل ذلك البويار، والكنيسة، والحكومة. وكانت الحروب الخارجية قد أنهكت البلد. وتزايدت المشاحنات الداخلية. وقوبلت محاولات إيفان للردّ على ذلك بالسخرية. وتحولت روسيا إلى ما يشبه طلبة صفٍّ صاخب، يضحك فيه التلاميذ على المدرس علناً. فإذا رفع صوته أو تذمر، لم يلقَ سوى المزيد من المقاومة. فتعيّن عليه أن يلقنهم درساً، وأن يعطيهم جرعة من دوائهم نفسه ليذيقهم طعم مثل تلك المعاملة. وكان سيميون بكيبولاتو فيتش هو المرآة التي استخدمها ليفعل ذلك.

وبعد عامين ظل فيهما التاجُ موضعَ التهكم والاشمئزاز، تعلم الشعبُ الروسيُّ درسَه. فأراد الناسُ عودةَ قيصرهم، وأقرّوا له بالتبجيل والاحترام اللّذين كان يجب أن يتمتع بهما المنصب على الدوام. وطيلة ما تبقى من عهده انسجمت روسيا مع إيفان بشكل متناغم.

إفهم: الناسُ منغلقون في تجاربهم الذاتية. فعندما تنتحب حول انعدام أحاسيسهم فربما يُظْهِرون لك أنهم يتفهمون، ولكنهم من الداخل لا يتأثرون، بل ويصبحون أكثر مقاومة. وهدف السلطة دائماً هو تقليل مقاومة الناس لك. ولذلك فأنت محتاج إلى أحابيل، وإحدى هذه الأحابيل هي تلقينهم درساً.

وإذن، فبدلاً من تقريع الناس بالخطب الشفهية، اخلق نوعاً من المرايا يعكس لهم صورة سلوكهم. وفي عملك هذا اتركهم أمام خيارين: فإمّا أن يتجاهلوك، وإما أن يبدأوا بالتفكير في أنفسهم، وحتى إذا تجاهلوك، فإنك ستكون قد غرست بذرةً في لا شعورهم ستمدّ لها جذراً في آخر الأمر. وعندما تعكس لهم سلوكهم في المرآة، لا تَخْشَ من إضافة لمسة كاريكاتورية ساخرة، وشيء من المبالغة، كما فعل إيڤان بوضِع تتريٍّ على العرش .. ذلك أن كمية التوابل القليلة في الحساء هي التي ستفتح عيونهم وتجعلهم يرون السخافة في تصرفاتهم ذاتها.

الحالة الخامسة

كان الدكتور ملتن هـ. إيريكسون، أَحَدُ رُوَّادِ عِلْم النفس الاستراتيجي، كثيراً ما يثقف مرضاه بقوة ولكن بطريقة غير مباشرة بخلق نوع من تأثير المرايا. فكان يتجاوز مقاومة مرضاه للتغيير عن طريق إقامة تناظر يجعل مرضاه يرون الحقيقة من تلقاء أنفسهم بالقياس التمثيلي. وعلى سبيل المثال فعندما كان يعالج زوجاً وزوجة يشكوان من مشاكل جنسية، كثيراً ما كان يجد أن أسلوب العلاج النفسي التقليدي بالمواجهة والحديث المباشر عن المشاكل إنما يزيد مقاومة الزوجين ويجعل خلافاتهما أكثر حدّة. وبدلاً من ذلك كان يستدرجهما للحديث عن مواضيع أخرى، كثيراً ما تكون عادية ومبتذلة، محاولاً العثور على نظير للصراع الجنسي.

وفي الجلسة الأولى لمعالجة زوجين، كان الزوجان يناقشان عاداتهما على الطعام، ولا سيما عند العَشَاء. فكانت الزوجة تفضل النهج البطيء ـ كتناول شراب قبل الوجبة، ثم بعض المقبّلات، فوجبة رئيسية صغيرة، وكل ذلك بطريقة بطيئة ومتحضرة. وكان ذلك يشعر الزوج بالإحباط، إذ أنه كان يريد الانتهاء من عشائه بسرعة، ويبدأ الغوص في الوجبة الرئيسية فوراً، وكلما كانت أكبر كان ذلك أفضل. وبينما استمر الحديث عن هذا الموضوع، بدأ الزوجان يجدان فيه نظيراً لمشاكلهما في

الفراش. غير أن الدكتور إيريكسون كان يغير الموضوع في اللحظة التي يربط فيها الزوجان بين الحالتين، وبذلك يتجنب مناقشة المشكلة.

واعتقد الزوجان أن إيريكسون قد ابتدأ يتعرف عليهما، وأنه سيتناول المشكلة في الجلسة التالية. ولكن في نهاية الجلسة الأولى وجههما الدكتور جونسون إلى ترتيب عشاء بعد بضع ليال يجمعان فيه بين رغبات كل منهما. فتحصل الزوجة على وجبتها البطيئة، بما في ذلك الوقت المصروف في عملية الربط بين مراحل العشاء المختلفة، ويحصل الزوج على الأطباق الكبيرة التي يريد أكلها. وبدون أن يدركا أنهما يتصرفان تحت التوجيه اللطيف للطبيب، كان الزوجان يدخلان إلى مرآة تعكس مشكلتهما. وفي المرآة يحلاّن مشاكلهما بنفسيهما، فتنتهي الأمسية كما كان الطبيب يتمنى ـ بأن يعكسا في الفراش آليةَ الحركة المتحسّنة للعشاء.

وفي معالجة المشاكل الأقسى، كالمرآة الخيالية التي يخلقها لنفسه المريضُ المصابُ بانفصام الشخصية، كان الدكتور إيريكسون يحاول دائماً أن يخطو إلى داخل المرآة ليعمل ضمنها. فقد عالج مرةً نزيل مستشفىً كان يظن نفسه عيسى المسيح ـ فيغطي جسده بقطع القماش، ويتحدث بقصص وأمثال غامضة، ويلقي على الموظفين والمرضى مواعظ مسيحية لا تنتهي. وبدا أنه لم تنجح في شفائه أية معالجات أو أدوية. حتى اتجه الدكتور إيريكسون إليه ذات يوم وقال له: «لقد فهمت أنه كان لك تجربة كنجّار». وبما أن المريض كان يعتقد أنه المسيح، فقد كان عليه أن يقول إنه كانت له مثل تلك التجربة. وعندئذٍ أسرع الدكتور إيريكسون إلى تشغيله بعمل خزائن كتب ومواد مفيدة أخرى وسمح له بارتداء ثوبه الذي يشبه ثوب المسيح. وعلى مدى الأسابيع التالية، وبينما راح المريض يشتغل بهذه المشاريع، صار ذهنه أقل انشغالاً بخيالاته عن المسيح، وأكثر تركيزاً على عمله. ومع إعطاء الأولوية لعمل النجارة، حدث تحول نفسي في داخله. فقد بقيت خيالاته الدينية، ولكنها

تراجعت إلى الخلف، مما سمح للرجل بالعمل في مجتمعه.

التفسير

يعتمد التواصل على الاستعارات والمجازات اللغوية والرموز التي هي أساس اللغة نفسها. فالاستعارة نوع من المرايا العاكسة لما هو مادي وحقيقي، وكثيراً ما تعبر بوضوح وعمق يفتقر إليهما الوصف الحَرْفي. وعندما تتعامل مع إرادة القوة التي يصعب التنبؤ بها ومتابعتها لدى الآخرين، فإن الاتصال المباشر معهم كثيراً ما ينجم عنه زيادة مقاومتهم، ليس إلاً.

ويحدث هذا بأوضح طريقة عندما تشكو من سلوك الناس، ولا سيما في مجالات حساسة كتصرفاتهم الجنسية. ولذلك فإنك تحدث تغييراً أدوم وأبقى بكثير إذا أقمت نظيراً، كما فعل الدكتور إيريكسون، ومرآة رمزية تعكس الوضع أو الحالة، ووجهت الآخرين من خلالها. وكما فهم المسيح نفسه، فإن التحدث بالأمثال كثيراً ما يكون أفضل طريقة لإعطاء درس، لأن ذلك يتيح للناس أن يدركوا الحقيقة من تلقاء أنفسهم.

وعند التعامل مع أُناس ضائعين في خليط من انعكاسات عوالم خيالهم (بما في ذلك كثير من الناس غير النازلين في مشافي الأمراض العقلية)، إياك أن تحاول دفعهم إلى الحقيقة بتحطيم مراياهم. وبدلاً من ذلك أدخل إلى عالمهم واعمل من داخله، وبمراعاة قواعدهم، وثم بتوجيههم بلطف إلى خارج قاعة المرايا التي دخلوها.

الحالة السادسة

كان أستاذ حفلة الشاي الياباني العظيم كاكينو شو في القرن السادس عشر، عابراً أمام بيت ذات مرة، فلاحظ شاباً يروي زهوراً قرب البوابة الأمامية. فلفت شيئان نظر شو، أولهما الطريقة الرشيقة التي كان الشاب يؤدي بها مهمته، وثانيهما الورود الربيعية المذهلة الجمال التي

تفتحت براعمها في الحديقة. فتوقف وقدم نفسه للشاب، الذي كان اسمه صُنْ نو ريكيو. وأراد شو أن يبقى، غير أنه كان مضطراً للإسراع في الذهاب نظراً لأنه كان لديه ارتباط مسبق. ولكنه قبل المغادرة تلقى دعوة من ريكيو لتناول الشاي معه في صباح اليوم التالي، فقبل شو هذه الدعوة بسعادة.

وعندما فتح شو، بوابة الحديقة في اليوم التالي، ذعر عندما رأى أنه لم تبق فيها وردة حمراء واحدة. كان يريد في مجيئه أكثر من أي شيء، أن يرى أزرار الوردة السارونية التي لم يتح له في الأمس أن يتملّى جمالها ويقدرها. وهكذا شعر بخيبة أمل وشرع في المغادرة. ولكنه أوقف نفسه عند البوابة، وقرر أن يدخل إلى غرفة الشاي التابعة لصُنْ نو ريكيو. وفور دخوله توقفت خطواته وراح يحدّق مذهولاً. فأمامه تدلّت من السقف مزهرية فيها زهرة سارونيّة وحيدة، هي الأجمل في الحديقة. وبطريقةٍ مّا، قرأ صن نو ريكيو أفكار ضيفه، وبهذه الإشارة البليغة، أظهر له أن الضيف والمضيف سيكونان في انسجام كامل.

وقد قيض لصُنْ نو ريكيو أن يستمر ليصبح واحداً من أشهر أساتذة حفلة الشاي جميعاً. وكانت علامته المسجلة هي قدرته الخارقة على جعل نفسه ينسجم تماماً مع أفكار ضيوفه، وأن يفكر سلفاً متقدماً بخطوة مسبقة، فيسحرهم بالتكيف لأذواقهم.

وذات يوم تلقى ريكيو دعوة لتناول الشاي من ياماشينا هيتشيغوان، أحد المعجبين بحفلة الشاي، ولكن كان لديه أيضاً حسّ دعابة واضح. وعندما وصل ريكيو إلى منزل هيتشيغوان، وجد بوابة الحديقة مغلقة. ففتحها ليبحث عن مضيفه. فرأى في الجانب الآخر من البوابة أن شخصاً مّا قد حفر حفرةً أولاً، ثم غطاها بقماش القنّب والطين. وأدرك أن هيتشيغوان قد خطط لنكتة عملية. فقرر إرضاءه وأوقع نفسه في الحفرة عمداً ولطّخ ثيابه بالطين.

وهرع إليه هيتشيغوان راكضاً وهو يتظاهر بالهلع، وأسرع به إلى

الحمام، الذي كان ـ لسبب غير واضح ـ مهيّأ تماماً وسلفاً. وبعد الاستحمام، انضم ريكيو إلى هيتشيغوان في حفلة الشاي، التي استمتعا بها كثيراً، وضحكا معاً على حادث الحفرة. وفيما بعد، أوضح صُنْ نو ريكيو لصديق له، أنه كان قد سمع مسبقاً عن مقالب هيتشيغوان: «ولكن بما أن المرء يجب أن يهدف دوماً إلى إرضاء رغبات مضيفه، فقد أوقعت نفسي في الحفرة بمعرفتي، وبذلك ضمنتُ نجاح الاجتماع. فليست حفلة الشاي تملقاً محضاً، بأي حال من الأحوال. ولكن ليس هناك حفلة شاي بدون أن يكون المضيف والضيف في حالة انسجام معاً». ذلك أن رؤية هيتشيغوان لصُنْ نو ريكيو الوقور في قاع حفرة، قد سرَّته سروراً لا نهاية له.. ولكن ريكيو أيضاً حصل على السرور بتلبية رغبة مضيفه والتفرج عليه وهو يسلّي نفسه بهذه الطريقة.

التفسير

لم يكن صُنْ نو ريكيو ساحراً ولا عرّافاً ـ بل كان يراقب مَنْ حوله بدقة، فيسبر غور الإشارات الخفية التي تكشف رغبة دفينة، ثم ينتج صورة لتلك الرغبة، ورغم أن شو لم ينطق بكلمة عن وقوعه تحت سحر براعم الزهرة السارونية، فإن ريكيو قد قرأ ذلك في عينيه. وإذا كان انعكاس رغبة شخصٍ مّا في المرآة يعني الوقوع في حفرة، فليكن. فقد كانت سلطة ريكيو مستقرةً في استخدامه البارع لمرآة رجل الحاشية، الذي أضفى عليه قدرة غير عادية على رؤية ما في داخل الناس الآخرين.

تعلَّم التلاعب بمرآة رجل الحاشية، لأنها ستأتيك بسلطة عظيمة. ادرس أعين الناس وتتبع إشاراتهم ـ فهي مقياس للألم واللذة موثوق وأدق من أية كلمة منطوقة. لاحظ التفاصيل وتذكرها ـ الملابس، واختيار الأصدقاء، والعادات اليومية، والملاحظات العابرة الملقاة في غير اهتمام ـ التي تكشف عن رغبات خفية، نادراً ما تكون مُلَبَّاةً. وبعد أن تمتص هذا كله، اكتشفْ ما الذي يكمن تحت السطح، ثم اصنع بنفسك للناس مرآة ذواتهم التي لا يتكلمون عنها. فذلك هو مفتاح هذه السلطة: ذلك

أن الشخص الآخر لم يطلب منك أن تنظر في وضعه، ولم يذكر لك سروره بالوردة السارونية، وعندما تعيد صورتها منعكسةً إليه، فسوف تزيد سروره، لأنه لم يطلب منك شيئاً. وتذكّر: إن الاتصال الصامت بلا كلمات، والمديح غير المباشر، يحتويان على أكبر قدر من السلطة. فلا أحد يستطيع أن يقاوم سحر مرآة رجل الحاشية.

الحالة السابعة

كان يالوكيد ويل، فنان الاحتيال الخارق للعادة، يستخدم مرآة المخادع في أكثر أحابيله ألمعيّة. وكان أوقحها إعادة خلقه لمصرف في مونسي، بولاية إنديانا. فعندما قرأ ذات يوم أن المصرف التجاري في مونسي قد انتقل، رأى في ذلك فرصة لم يسعه أن يدعها تمرّ.

وهكذا استأجر ويل البناية الأصلية للمصرف التجاري، وهي ما تزال تحتوي على أثاث المصرف، بما فيها كُوَىٰ الصرف. واشترى حقائب نقود، ونسخ عليها اسماً مخترعاً لمصرف، وملأها بقطع دائرية من الفولاذ، وصفّفها بشكل يترك انطباعاً بالإعجاب وراء كوى الصرف، وإلى جانبها رزم من النقود ـ أوراق نقدية حقيقية تغطي قصاصات صحف مقطوعة بالحجم الصحيح. ولتمثيل دور موظفي «المصرف» وزبائنه، استأجر ويل أعداداً من المقامرين، ووكلاء المراهنات، وفتيات من ماخور محلي، وتشكيلة منوعة من الشركاء الآخرين، بل لقد استأجر أيضاً سفاحاً محلياً ليقف في «المصرف» ممثلاً دور الشرطي السري.

وانتحل ويل شخصية وكيل لترويج شهادة استثمار يعرضها «المصرف»، وبذلك راح يفتش في المياه لاصطياد الغنيّ المغفل المناسِب، ثم يأتي بذلك الرجل إلى «المصرف» ويطلب رؤية الرئيس. فيأتي «موظف» في المصرف ليقول لهما إن عليهما الانتظار، فكان ذلك يزيد في واقعية الحيلة. إذْ إن المرء يتعين عليه دائماً أن ينتظر قبل أن يستطيع رؤية الرئيس. وأثناء انتظارهما كان «المصرف» يضج بالنشاط

الشبيه بنشاط المصارف، بينما كانت المومسات ووكلاء المراهنات يدخلون ويخرجون، يودعون الأموال ويسحبونها ويشيرون إلى قبعاتهم لتحية الشرطي السري المزيف. فكان المغفل يستنيم إلى هذه النسخة الكاملة للحقيقة، ويودع في المصرف المزور خمسين ألف دولار دون أي شعور بالقلق على الإطلاق.

وعلى مدى سنوات، فعل ويل الشيء نفسه بنادٍ مهجور لليخوت وبمكتب مراهنات متروك، وبمكتبٍ عقاريٍّ منقول إلى مكان آخر، وبصورة واقعية تماماً لنادٍ للقمار والمراهنات.

التفسير

إن عكس الحقيقة في مرآة يقدم قوىً خدّاعة هائلة. فاستخدام الزي الصحيح، واللهجة الكاملة، والدعائم الملائمة الكافية يجعل من غير الممكن فك رموز شيفرة الخداع لأنها متشابكة مع تشبيه متقن للحقيقة. فالناس لديهم رغبة شديدة في الإيمان وحاجة إليه. وتوجههم غريزتهم الأوليَّة إلى الثقة بواجهة جيدة التركيب، وإلى اعتبارها هي الحقيقة حتى ولو كانوا مخطئين. فبعد كل شيء، لا نستطيع أن نستمر في التشكك في حقيقة كل ما نراه ـ فذلك شيء مفرط الإنهاك. ولذا فنحن في العادة نقبل المظاهر. وهذه قابلية للتصديق تستطيع استغلالها.

وفي هذه اللعبة بالذات، فإن النظرة الأولى هي الأهمّ. فإذا لم تثر شكوك مغفّليك من نظرتهم الأولى إلى ما هو منعكس في المرآة، فستبقى تلك الشكوك مكبوتة. وما أن يدخلوا إلى قاعة مراياك حتى يعجزوا عن التمييز بين الحقيقي والمزيف، وعندئذٍ يصبح خداعهم أسهل فأسهل.

تذكّر: ادرس مظاهر العالم السطحية، وتعلّم أن تعكسها في مرآة عاداتك، وأساليب سلوكك، وملابسك. ومثل النبتة اللاّحمة بالنسبة للحشرات التي لا تشك فيك، سوف تبدو مثل جميع النباتات الأخرى في الحقل.

الشاهد: إن مهمة عملية عسكريةٍ مَا، هي التناسب بشكل خادع مع نوايا العدو... فعليك أن تصل إلى ما يريدون قبل وصولهم إليه. فحافظ على الضبط وتكيّف للعدو... وهكذا فإنك تبدو أولاً كالفتاة البكر، وبذلك يفتح لك العدوّ بابه، فإذا أنت كأرنب منفلت، بحيث لا يستطيع العدو إبقاءك خارجاً. (صُنْ ـ تْزُو، القرن الرابع قبل الميلاد).

صورة: درع بيريسوس. يلمع
حتى يصبح كالمرآة العاكسة. فلا تستطيع
الميدوسا أن تراك، إذ لا تنعكس أمامها من المرآة
سوى بشاعتها. وخلف مثل تلك المرآة، يمكنك أن تخدع،
وتسخر، وتثير الحنق. ثم بضربة واحدة تفصل
رأس الميدوسا التي لا تشكّ بك.

تحذير: إياك والأوضاع المنعكسة في المرايا.

تحتوي المرايا على سلطة كبيرة، ولكن فيها أيضاً جروفاً خطرة، بما فيها الوضع المنعكس في المرآة ـ وهو وضع يبدو أنه يعكس وضعاً سابقاً أو يشبهه شبهاً وثيقاً قريباً، وأكبر الشبه في الأسلوب والمظهر السطحي الخارجي. فكثيراً ما تتراجع إلى مثل هذا الموقف، دون أن تفهمه تماماً، بينما الذين حولك يفهمونه بشكل جيد جداً، ويقارنونه وإياك بأي شيء يكون قد حدث من قبل، فتخسر في المقارنة في غالب الأحيان، إذْ تبدو أضعف من الذي كان يحتل منصبك من قبل، أو تتلوث بأي ارتباطات وتداعيات كريهة، خَلَّفها ذلك الشخص وراءه.

ففي سنة 1864، انتقل المؤلف الموسيقي ريتشارد فاغنر، إلى ميونيخ بتحريض من لودفيغ الثاني، الذي كان يُعْرَف أيضاً بلقب الملك البجعة، أو الملك المجنون لبافارية. فقد كان لودفيغ هو أكبر المعجبين

بفاغنر، وأكبر رعاته. بل إن قوة دعمه قد أدارت رأس فاغنر، الذي اعتقد أنه ما أَنْ يستقر في ميونيخ تحت حماية لودفيغ، حتى يصبح قادراً على أن يقول ويفعل ما يشاء.

وهكذا انتقل فاغنر إلى بيت فخم باذخ اشتراه الملك له في آخر الأمر. وكان ذلك البيت على مرمى حجر من البيت الذي كانت تسكنه لولا مونتيزْ، الغانية سيئة الصيت، التي كانت قد ورّطت جدّ لودفيغ الثاني في أزمة أرغمته على التنازل عن عرشه. وقد حُذِّر فاغنر من أن هذا الارتباط قد يعديه، فلم يكن ردّه سوى السخرية، وقال: «أنا لست لولا مونتيز». غير أن مواطني ميونيخ سرعان ما بدأوا يسخطون على ضروب الحظوة والأموال التي أغدقت على فاغنر، فلقبوه «لولا الثانية»، أو «لولوت». وبدأ ـ دون وعي منه ـ يقتفي خطوات لولا مونتيز ـ فينفق الأموال بإسراف، ويتدخل في قضايا خارج نطاق الموسيقى، بل يشتغل في السياسة، ويقدم النصائح للملك حول تعيين الوزراء. وفي تلك الأثناء كانت عاطفة لودفيغ تجاه فاغنر تبدو شديدة، ولا تليق بوقار ملك. تماماً كعشق جده للولا مونتيز. وفي آخر الأمر، كتب وزراء لودفيغ رسالة له: «إن جلالتكم تقفون الآن على مفترق طرق مصيري، ويتعين عليكم أن تختاروا بين حبّ شعبكم المخلص واحترامه، وبين «صداقة ريتشارد فاغنر». وفي شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة 1865، طلب فاغنر من صديقه بأسلوب مهذب أن يغادر فلا يعود أبداً. فقد وضع فاغنر نفسه ـ عن غير قصد ـ في انعكاس صورة لولا مونتيز. وعندما صار هناك، أخذ كل شيء يعمله يذكّر البافاريين البلداء الأحاسيس بتلك المرأة الرهيبة، ولم يكن هناك شيء يسعه أن يفعله إزاء ذلك.

فتجنّب أثر مثل هذه التداعيات والارتباطات، كما تتجنب الطاعون، وفي وضع منعكس في المرآة، تكون سيطرتك قليلة أو معدومة على الانعكاسات والذكريات التي سترتبط بك. وأي وضع

خارج عن سيطرتك يكون خطراً. وحتى لو كان للشخص، أو الحدث ارتباطات إيجابية، فإنك ستعاني من العجز عن الارتفاع إلى مستواه، ما دام الماضي بصورة عامة يبدو أعظم من الحاضر. فإذا لاحظتَ أناساً يربطون بينك وبين حدثٍ ماضٍ أو شخصٍ معيّن، فافعل كل ما في استطاعتك لتفصل نفسك عن تلك الذكرى، ولتبدّد ذلك الانعكاس.

القانون

45

بشّر بالحاجة إلى التغيير ولكن إياك أن تُصْلِحَ أكثر من اللازم دفعة واحدة

الحكم

كل شخص يفهم الحاجة إلى التغيير بصورة مجردة ولكن على مستوى الحياة اليومية، فإن الناس أبناء العادة. فالتجديد المفرط يخلق رضوضاً، ويؤدي إلى ثورة. فإن كنتَ جديداً على أي منصب ذي سلطة، أو خارجياً تحاول بناء قاعدة قوة، فأبرز على نحو استعراضي احترامَك للطريقة القديمة في عمل الأشياء. وإذا كان التغيير ضرورياً، فاجعل الناس يشعرون به كأنه تحسينٌ لطيف للماضي.

انتهاك القانون

في وقت مّا في أوائل العشرينات من القرن السادس عشر، قرَّرَ مَلِكُ إنكلترا هنري الثامن أن يُطَلِّقَ زوجته، كاترين أميرة آراغون، لأنها فشلت في أن تنجب له ولداً، ولأنه وقع في غرام الشابة الجميلة آن بولين. فاعترض على الطلاق البابا كليمنت السابع، وهدد الملكَ بالحرمان. وكان أقوى وزراء الملك، الكردينال وُولْزِي، يرى أيضاً أن لا حاجة إلى الطلاق ـ وقد كلفه تأييدُهُ نصفُ المتحمس للملك منصبَه، وبعد ذلك بقليل حياتَه.

وكان في حكومة هنري رجل يدعى توماس كرومويل، لم يكتفِ بتأييد هنري في رغبته في الطلاق، بل كانت لديه فكرة لتحقيقه؛ وهي الانفصال الكامل عن الماضي؛ فأقنع الملكَ بأنه بقطع علاقاته مع روما وجعل نفسه رئيساً للكنيسة الإنكليزية الحديثة التأسيس، سوف يتمكن من تطليق كاترين والزواج من آن. وبحلول سنة 1531، رأى هنري أن هذا هو الحل الوحيد. ولمكافأة كرومويل على فكرته البسيطة واللامعة، قام بترفيعه ـ رغم أنه ابن حداد ـ إلى منصب مستشار ملكي.

وبحلول سنة 1534، كان كرومويل قد سُمِّيَ أمين سر الملك. وباعتباره السلطةَ من وراء العرش فقد أصبح أقوى رجل في إنكلترا. ولكن الانفصال عن روما كان بالنسبة إليه يذهب إلى أبعد من إرضاءِ رغبات الملك الجسدية: فقد كان يرى نظاماً بروتستانتياً جديداً في

من اين جاء عيد الميلاد

إن الاحتفال بانتهاء السنة عادة قديمة. فقد كان الرومان يحتفلون بعيد زُحَل، إله الحصاد عندهم، بين السابع عشر والثالث والعشرين من كانون الأول/ديسمبر. وكان ذلك أكثر الاحتفالات مرحاً وعربدة في العام. فكانت كل الأعمال والتجارة تتوقف، بينما تمتلىء الشوارع بجموع الناس في جوّ كرنفالي. وكان العيد يحرّرون بشكل مؤقّت، والبيوت تزيّن بأغصان الغار، والناس يتزاورون، جالبين هدايا من الشموع والتماثيل الطينية الصغيرة.

وقبل ميلاد المسيح بزمن طويل، كان اليهود يحتفلون بعيد يستمر ثمانية أيام، يسمى عيد التجديد أو عيد الأنوار [في الموسم نفسه]، ومن المعتقد أن الشعوب الجرمانية كانت تقيم احتفالاً عظيماً، ليس فقط في منتصف الصيف، بل كذلك عند الانقلاب الشتوي، عندما كانوا يحتفلون بولادة

إنكلترا، تُسْحَقُ فيه سلطة الكنيسة الكاثوليكية، وتقع فيه ثروتها الطائلة في أيدي الملك والحكومة. وفي العام نفسه، بدأ عملية مسح كامل للكنائس والأديرة في إنكلترا. فاتضح له أن الكنوز والأموال التي كدستها الكنائس عبر قرون متطاولة كانت أكبر بكثيرٍ مما تخيله، فقد عاد جواسيسه ووكلاؤه بأرقام مذهلة.

ولتبرير مخططاته، أخذ يشيع قصصاً عن الفساد في الأديرة الإنكليزية، وإساءة استعمال السلطة، واستغلالها للناس الذين كان يفترض فيها أن تخدمهم. وبعد أن فاز كرومويل بتأييد البرلمان لحلّ الأديرة، بدأ بالاستيلاء على ممتلكاتها وإزاحتها من الوجود واحداً بعد الآخر. وفي الوقت نفسه بدأ بفرض المذهب البروتستانتيّ، وإدخال إصلاحاتٍ على الطقوس الدينية، ومعاقبة الذين أصروا على التمسك بالمذهب الكاثوليكي، والذين راح يطلق عليهم لقب الهراطقة. وفي غضون عشية وضحاها، تحولت إنكلترا إلى دين رسمي جديد.

وخيم الإرهاب على البلد. وكان بعض الناس قد عانوا وتألموا في ظل الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت ذات سلطة هائلة قبل الإصلاح. ولكن معظم البريطانيين كانت لهم روابط قوية بالكاثوليكية وطقوسها المريحة. وأخذوا يتفرجون في رعب، بينما كانت الكنائس تهدم، وصور العذراء، وتماثيل القديسين، تُحَطَّم إلى قطع متناثرة، ونوافذ الزجاج الملون تتكسر، وكنوز الكنائس تُصادَر. وبذهاب تلك الأديرة التي كانت تؤوي الفقراء، تدفق هؤلاء إلى الشوارع كالطوفان. وتضخمت صفوف طبقة الشحاذين أكثر بالرهبان السابقين. وفوق هذا كله، فرض كرومويل، ضرائب مرتفعة تُدْفَعُ لتحقيق إصلاحاته الدينية.

وفي سنة 1535، هددت ثوراتٌ عنيفةٌ في شمال إنكلترا بإسقاط هنري عن عرشه. وبحلول السنة التالية كان قد قمع الثورات، غير أنه بدأ يرى أيضاً تكاليف إصلاحات كرومويل. فلم يكن الملك نفسه يريد الذهاب إلى هذا الحدّ. بل كان لا يريد إلاّ الطلاق. وعندئذ جاء دور

الشمس ثانيةً، ويكرمون آلهة الخصب العظيمة عندهم، وُوطَان وفريجيا، ودونار (ثور) وفرير [وكان كهنة إيزيس في مصر القديمة يخرجون حاملين المشاعل في شوارع طيبة في منتصف ليلة الخامس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر من كل عام وهم يهتفون: «لقد وضعت العذراء حملها، وقد ولدت الشمس»: المترجم]. وحتى بعد أن أعلن الإمبراطور قسطنطين (306 - 337) المسيحية ديانة رسمية إمبراطورية لروما، لم يكن بالإمكان قمع استحضار الضوء والخصب قمعاً كلياً كأحد مكونات احتفالات منتصف الشتاء فيما قبل اعتناق المسيحية. وفي عام 274، كان الإمبراطور الروماني أورليان (214- 275) قد أسس عبادةً رسميةً لإله الشمس ميثرا، وأعلن عيد ميلاده، الخامس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر، عطلة وطنية. وكانت عبادة ميثرا، إله النور عند الآريّين، قد انتشرت من فارس عبر آسية الصغرى إلى اليونان وروما، فوصلت إلى الأراضي الجرمانية وإلى بريطانية. ولا تزال هناك آثار عديدة لمعابد هذا الإله تشهد على التبجيل الكبير الذي خُصَّ به، ولا سيما لدى الفيالق الرومانية، باعتباره جالباً للخصب، والسلام، والنصر. وهكذا فإن الكنيسة المسيحية قامت بخطوة ذكية في عام 354، أيام البابا ليبيريوس (352 - 366)، عندما اختارت عيد ميلاد ميثرا، فأعلنت أن الخامس

والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر، هو عيد ميلاد عيسى المسيح.

مجلة نيو زورخر زايتونغ، آن ـ سوزان ريشكه 25 كانون الأول/ ديسمبر، 1983

كرومويل ليتفرج بقلق بينما راح الملك يعمل ببطء على إبطال إصلاحاته، فأعاد الأسرار الكاثوليكية وغيرها من الطقوس التي كان كرومويل قد جعل ممارستها خروجاً على القانون.

وشعر كرومويل بسقوطه من مركز الحظوة. وفي سنة 1540، قرر أن يستعيد هذه الحظوة برمية زهر (أو ضربة حظ) واحدة: وهي العثور لهنري على زوجة جديدة. فقد كانت زوجته الثالثة، جين سيمور، قد ماتت قبل ذلك ببضعة أعوام. وكان يتحسر على ملكة شابة جديدة. وكان كرومويل هو الذي عثر له عليها، فكانت آن، أميرة كليفْزْ الألمانية، وهي بروتستانتية، وهذا هو الشيء الأهم بالنسبة لكرومويل. وبناء على طلب من كرومويل، أنتج الرسام هولبين لوحة جميلة لآن. وعندما رآها هنري وقع في غرامها، ووافق على الزواج منها. وبدا أن كرومويل قد استعاد حظوته.

غير أنه لسوء الحظ، كانت صورة آن التي رسمها هولبين مُجَمَّلَةً إلى حد مثالي. وعندما قابل الملكُ الأميرةَ في آخر الأمر فإنها لم تسرّه أقلّ سرور. فلم يعد يستطيع أن يتحكم في غضبه على كرومويل ـ أولاً بسبب إصلاحاته التي لم يُنْضج التفكير فيها، وبعد ذلك لتوريطه مع زوجة بروتستانتيّة غير جذابة. وهكذا أُلْقِيَ القبض على كرومويل في شهر حزيران/ يونيو من تلك السنة، واتهم بأنه بروتستانتي متطرف وزنديق، فأرسل إلى برج لندن، وبعد ستة أسابيع، وأمام جمهور غفير متحمس، قطع الجلاد العام رأسه.

التفسير

كانت لدى توماس كرومويل فكرة بسيطة: كان يريد تحطيم سلطة الكنيسة الكاثوليكية وثروتها، وإرساء أسس المذهب البروتستانتي في إنكلترا. وأراد أن يقوم بذلك في وقت قصير، وبلا رحمة. وكان يعلم أن إصلاحاته السريعة سوف تسبّب آلاماً وسخطاً، ولكنه ظنّ أن هذه المشاعر ستتلاشى في سنوات قليلة. والأهم من ذلك، فإنه بالوقوف في

صف التغيير سوف يصبح قائداً للنظام الجديد، فيجعل الملك معتمداً عليه. ولكن كانت هناك مشكلة في استراتيجيته. فمثل كرة البليارد عند ضربها بشدّة مفرطة على بطانة حافة المائدة، أحدثت إصلاحاته ردود فعل ورجّات ارتدادية، لم يتصورها ولم يستطع أن يسيطر عليها.

فالذي يبادر بإدخال إصلاحات قوية كثيراً ما يصبح كبش فداء لأي نوع من السخط. وقد تستهلكه إصلاحاته في آخر الأمر. فالتغيير يضايق الحيوان الإنساني، حتى عندما يكون إلى الأفضل. ذلك أن العالم مليء، وكان دائماً مليئاً بالتهديد وعدم الأمان. فنحن نلتصق بالوجوه المألوفة ونخلق عاداتٍ وطقوساً تجعل العالم مريحاً أكثر. وقد يكون التغيير ساراً، بل ومرغوباً بصورة مجردة أحياناً، ولكن الإفراط فيه يخلق قلقاً يجيش ويغلي تحت السطح ثم ينفجر في آخر الأمر.

فإياك والتقليل من أهمية النزوع إلى المحافظة لدى مَنْ حَوْلَك. فهو نزوع قوي ومتمترس. فلا تدع السحر المغوي لفكرةٍ مّا يلبّد ذهنك بالغيوم: فمثلما تعجز عن جعل الناس يرون العالم بطريقتك، فإنك لا تستطيع أن تقسرهم على المستقبل بتغييراتٍ مؤلمة. إذْ أنهم سيتمردون. فإذا كان التغيير ضرورياً فتوَقّعْ ردَّ الفعل ضده سلفاً واعثر على طرق لتمويه التغيير وتحلية السُّمّ.

مراعاة القانون

كان ماوتسي تونغ، الشيوعي الشاب في عشرينات القرن العشرين يفهم أكثر من جميع زملائه الأرجحيّات التي لا تُصَدَّق ضد أي انتصار شيوعي في الصين. فالحزب الشيوعي، بأعداده الصغيرة، وأمواله المحدودة، ونقص خبرته العسكرية، وترسانته الضئيلة من الأسلحة، لم يكن له أي أمل في النجاح ما لم يَكْسَبِ الأعدادَ الهائلةَ من سكان الصين الفلاحين. ولكن أي الناس في العالم كله كانوا أكثر محافظة وأكثر انغراساً في التقاليد من فلاحي الصين؟ فأقدم حضارة على هذا الكوكب

كان لها تاريخ لن يخفف من وطأة قوته شيء، مهما كان عنف الثورة. فقد ظلّت أفكار كونفوشيوس حيةً في عشرينات القرن العشرين تماماً كما كانت في القرن السادس قبل الميلاد، عندما كان الفيلسوف حياً. فعلى الرغم من القمع الظالم الذي يمارسه النظام السائد، هل يتخلى الفلاحون عن قيم الماضي العميقة الجذور في سبيل المجهول الأكبر الذي تدعوهم إليه الشيوعية؟

كان الحل، كما رآه ماوتسي تونغ، ينطوي على خدعةٍ بسيطة. وهي تغليف الثورة بلباس الماضي، وجعلها مريحة وشرعية في أعين الناس. وكان أحد الكتب المفضلة لماوتسي تونغ، القصة الصينية، ذات الشعبية الكبيرة من العصور الوسطى، والمعنونة، **حافة الماء**. وهي تحكي عن إنجازات «روبن هود» صيني وعصابته من اللصوص وهم يناضلون ضد ملك فاسد وشرير. وفي الصين في أيام ماو، كانت الروابط العائلية تهيمن على أي نوع آخر، لأن النظام الكونفوشيوسيّ الذي يعطي السلطة للأب والابن الأكبر، كان ما يزال ثابتاً في مكانه بقوة؛ ولكن **حافة الماء** كانت تبشر بقيمة أعلى - هي الروابط الأخوية لعصبة اللصوص، ونبل القِضية التي توحّد الشعب بما يتخطّى رابطة الدم. وكان للقصة رنينٌ عاطفي في نفوس الصينيين، الذين يحبّون مناصرة ضحيّة الظلم، أو الاضطهاد. ولذا كان ماوتسي تونغ، يقدم جيشه الثوري مراراً وتكراراً، على أنه امتدادٌ لعصبة اللصوص في **حافة الماء**، فيشبه نضاله بالصراع الأزلي بين الفلاحين المقموعين والإمبراطور الشرير. وبذلك جعل الماضي يغلف القضية الشيوعية ويضفي عليها الشرعية؛ فاستطاع الفلاحون أن يشعروا بالراحة مع جماعة لها مثل هذه الجذور في الماضي، بل منحوها تأييدهم.

وحتى عندما وصل الحزب إلى السلطة، استمر ماو في ربطها بالماضي. فقدم نفسه للجماهير، لا على أنه لينين صينيّ، بل على أنه تشوكو ليانغ حديث. مثل تشوكو ليانغ الحقيقي، الاستراتيجي الذي

عاش في القرن الثالث، والذي تبرز شخصيته في القصة التاريخية الشعبية **قصة الممالك الثلاث**. فلقد كان ليانغ أكثر من جنرال عظيم ـ كان شاعراً، وفيلسوفاً، وشخصية ذات استقامة أخلاقية صارمة. وهكذا قدم ماو نفسه على أنه شاعر ـ محارب، مثل ليانغ، وكرجل يخلط الاستراتيجية بالفلسفة، ويبشّر بأخلاق جديدة. فجعل نفسَه يظهر كبطل من التقاليد الصينية لرجال الدولة المحاربين.

وسرعان ما راح كل شيء في خطب ماو وكتاباته يشير إلى فترة ماضية في التاريخ الصينيّ، فاستعاد ـ على سبيل المثال ـ ذكرى الإمبراطور العظيم شْيِنْ، الذي وحّد البلاد في القرن الثالث قبل الميلاد، وكان شْيِنْ قد أحرق أعمال كونفوشيوس، وعزز سور الصين العظيم وأكمل بنيانه، وأعطى اسمه للصين. ومثل شْيِن، قام ماو بتجميع الصين، وسعى إلى إصلاحات جريئة في مواجهة ماضٍ كئيب ساده القهر. وكان الناس ينظرون إلى شْيِنْ تقليدياً كدكتاتور عنيف كان عهده قصيراً. وكانت ألمعية استراتيجية ماو، هي قلب ذلك إلى العكس، فمثّل شبيهاً لِشْئين، ولكنه في الوقت نفسه برر حكمه في عيون الصينيين في العصر الحديث، مستخدماً شْيِنْ لتبرير عنف النظام الجديد الذي كان ماو نفسه منهمكاً في إيجاده.

وبعد الثورة الثقافية الفاشلة في أواخر ستينات القرن العشرين، برز صراع على السلطة في داخل الحزب الشيوعي، كان عدوّ ماوتسي تونغ الرئيسي فيه هو لين بياو، الذي كان ذات يوم صديقاً حميماً له. ولكي يوضح ماو للجماهير الفرق بين فلسفته وفلسفة لين بياو، استغلّ الماضي مرة أخرى، فوضع خصمه في قالب جعله يمثل كونفوشيوس، وهو فيلسوف كان لين في الواقع يقتبس أقواله باستمرار. فكان كونفوشيوس يمثل النزعة المحافظة للماضي. ومن جهة أخرى، ربط ماو نفسه بالحركة الفلسفية القديمة المعروفة باسم الحركة القانونية، كما كانت تمثلها كتابات هان ـ في ـ تْزُو. وكان «القانونيّون» يحتقرون الأخلاق

الكونفوشيوسيّة؛ ويؤمنون بالحاجة إلى العنف لخلق نظام جديد. وكانوا يعبدون السلطة. ولكي يعطي ماو لنفسه وزناً في الصراع، أطلق حملة دعائية واسعة في جميع أرجاء البلد ضد كونفوشيوس، مستخدماً قضايا الكونفوشيوسيَّة ضد الحركة القانونية، كي يثير في نفوس الشباب نوعاً من التمرد الجامح ضد الجيل الأكبر منهم. وقد غلّف هذا السياق الكبير صراعاً على السلطة عادياً مبتذلاً، ومرة أخرى، كسب ماو الجماهير وتغلّب على أعدائه.

التفسير

ليس هناك شعب أشد تعلقاً بالماضي من الصينيّين. وفي مواجهة هذه العقبة الكاداء للإصلاح، كانت استراتيجية ماو بين شوعيّيه المتشددين، وبين الشخصيات البطولية الرومانسيّة في التاريخ الصينيّ. فنسج قصة حرب الممالك الثلاث إلى الصراع بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي، والصين، وقولب لنفسه دور تشوكو ليانغ. ورحب بعبادة الجماهير الشبيهة بالطقوس، كما فعل الأباطرة الأقدمون، وفهم أن الصينيين لا يمكن أن يعملوا بدون شخصية أبوية يُعْجَبون بها. وبعد أن ارتكب غلطةً رهيبة «بقفزته العظمى إلى الأمام»، بمحاولة فرض التحديث على البلد بالقوة وفشله الذريع في ذلك، لم يكرر تلك الغلطة قَطّ: فمنذ ذلك الحين كان يتعين على التغيير الجذري أن يكون متلفعاً بملابس الماضي المريحة.

فالدرس بسيط: الماضي قويّ. وما حدث في السابق يبدو أعظم؛ والعادة والتاريخ يضفيان على أي عملٍ وزناً. فاستخدم ذلك لصالحك. ذلك أنك عندما تدمّر المألوف، فإنك تخلق فراغاً أو خُواءً؛ والناس يخشون الفوضى التي ستفيض إلى الداخل كي تملأ ذلك الفراغ. فيجب عليك أن تتجنب إثارة مثل هذه المخاوف بأي ثمن. إِسْتَعِرِ الوزنَ والشرعيةَ من الماضي، مهما كان بعيداً، لتخلق حضوراً مريحاً ومألوفاً.

فذلك سيضفي على أعمالك تداعيات بطولية حالمة، ويضخم حضورك، ويغطي طبيعة التغييرات التي تحاول إجراءها.

> ينبغي اعتبار انه ليس هناك شيء اصعب تنفيذاً، ولا اكثر ريباً في النجاح، ولا اخطر معالجةً، من تدشين نظام جديد للأشياء.
>
> (نيقولو مكيافيللي، 1469 ـ 1527)

مفاتيح السلطة

في النفسيةِ الإنسانية ازدواجاتٌ كثيرةٌ، إحداها أنه حتى عندما يتفهم الناس الحاجةَ إلى التغيير، ويعرفون مدى أهمية التجديد الدوري للمؤسسات والأفراد، فإنهم في الوقت نفسه يتضايقون وينزعجون من التغييرات المؤثرة عليهم شخصياً. فهم يعلمون أن التغيير ضروري، وأن التجديد يعطي خلاصاً من السأم، ولكنهم في أعماقهم الداخلية يتمسكون بالماضي. فالتغيير بالمعنى المجرد، أو التغيير السطحي مرغوب عندهم. ولكن التغيير الذي يقلب عادات جوهرية في صميم روتين حياتهم يسبب لهم قلقاً عميقاً.

لم تحدث ثورة بدون ردة فعل قوية ضدها في وقت لاحق. لأن الفراغ الذي تخلقه على المدى الطويل، يثبت أنه يزعزع استقرار الحيوان الإنساني بأكبر من طاقته. وهو يربط مثل هذا الفراغ، بدون وعي، بالموت وبالفوضى. ذلك أن فرصة التغيير والتجديد، تغوي الناس فتشدّهم إلى جانب الثورة. ولكن ما إن يتلاشى حماسهم ـ وهو سيتلاشى حتماً ـ حتى يجدوا أنفسهم متروكين مع فراغٍ معيّن. وعندئذٍ يتشوقون إلى الماضي، فيخلقون له فتحة يزحف منها إلى الداخل.

وعند ماكيافيللي أن النبيّ الذي يبشّر بالتغيير ويأتي به لا يستطيع البقاء إلاّ بحمل السلاح: فعندما تحنّ الجماهير إلى الماضي حتماً، يجب عليه أن يكون مستعداً لاستخدام القوة. ولكن النبيّ المسلح لا يستطيع البقاء طويلاً، إلاّ إذا أسرع بخلق مجموعة جديدة من القيم والطقوس

والشعائر، لتحلّ محلّ القديمة، وتهدىء قلق الذين يصيبهم التغيير بالذعر. إذْ أن من الأسهل بكثير، والأقل دمويّة، أن يمارس المرء لعبة إقناع. بَشِّرْ بالتغيير بقدر ما تحبّ، بل ونفّذ إصلاحاتك عملياً، ولكن أعطها المظهرَ المريحَ لأحداث وتقاليد أقدم.

فالإمبراطور الصيني وانغ مانغ الذي امتد عهده من السنة الثامنة الميلادية إلى السنة الثالثة والعشرين، برز من فترةٍ من الاضطراب التاريخي العظيم، كان الناس يتحرقون فيها إلى النظام الذي يمثله عندهم كونفوشيوس. غير أنه قبل ذلك بحوالى مائتي سنة، كان الإمبراطور شِيْئِينْ قد أمر بإحراق كتابات كونفوشيوس. وبعد ذلك ببضع سنوات انتشر خبرٌ بأن نصوصاً معينة قد نجت من الحرق بمعجزة، وكانت مخبأة تحت منزل الدارس. وربما لم تكن تلك النصوص أصلية، ولكنها أعطت وانغ فرصتَه. فصادرها في أول الأمر، ثم أمر كتّابه أن يدسّوا فيها مقاطع يبدو أنها مؤيدة للتغييرات التي كان آخذاً في فرضها على البلد. وعندما أفرج عن تلك النصوص، بدا كأن كونفوشيوس مؤيد لإصلاحات وانغ، وشعر الناس بالارتياح وتقبّلوها بسهولة أكبر.

إفهم: إن حقيقة كون الماضي ميتاً ومدفوناً تعطيك حريةَ إعادةِ تفسيره. ولتأييد قضيتك عالج الحقائق قليلاً. فالماضي نصٌّ يمكنك أن تدسَّ فيه سطورك بأمان.

إن إشارة بسيطة، كاستخدام عنوان قديم، أو الاحتفاظ بالعدد نفسه لجماعة، سوف تشدك إلى الماضي وتدعمك بسلطة التاريخ. وكما لاحظ ماكيافيللي نفسه، فقد استخدم الرومان هذا الاستنباط عندما حوّلوا ملكيتهم إلى جمهورية. فربما عيّنوا قنصلين في مكان الملك، ولكن، بما أن الملك كان يخدمه اثنا عشر من الزبانية، فقد احتفظوا بالعدد نفسه لخدمة القنصلين. وكان الملك يُقَدِّمُ ضحيةً سنوية ضمن احتفال فيه مشاهد تهزّ مشاعر العامّة. فاحتفظت الجمهورية بهذه الممارسة، ولم تغيّر فيها سوى إحالتها إلى «رئيس الاحتفالات والمراسم»، الذي سَمَّوْهُ

مَلِكَ التضحية، فأرضت هذه الإشاراتُ وأمثالُها الناسَ ومنعتهم من المطالبة الصاخبة بعودة الملكية.

ومن الأساليب الاستراتيجية لإخفاء التغيير وتمويهه أن يقوم المرء باستعراض دعمه لقيم الماضي علانيةً وبصوت عال. فليظهر عليك أنك من الأنصار المتحمسين للتقاليد، وعندئذٍ لن يلاحظ إلاَّ قليلون إلى أي مدىً أنت غير تقليدي في الحقيقة. فقد كانت لدى فلورنسا في عصر النهضة جمهورية عمرها قرون، وكانت ترتاب في أي شخص يسخر من تقاليدها أو يزدريها. وقد أظهر كوزيمودي مديتشي تأييده الحماسي للجمهورية على نحوٍ استعراضي، ولكنه في الحقيقة كان يعمل لوضع المدينة تحت سيطرة أُسرته الثرية. فمن ناحية الشكل، احتفظ آل مديتشي بمظهر الجمهورية. أما من حيث الجوهر، فقد جعلوها بلا سلطة، فأدخلوا تغييرات جذرية بهدوء، بينما تظاهروا بالحفاظ على التقاليد.

يدعي العِلْمُ بحثاً عن الحقيقة التي تبدو كأنها تحميه من نزعة المحافظة ومن لا عقلانية العادة: فهو مستنبت للتجديد. ومع ذلك فعندما نشر شارلس دَارْوِنْ أفكاره عن التطور والاتقاء واجه معارضة شرسة من زملائه العلماء أكثر ممّا واجه من السلطات الدينية. إذ أن نظرياته تَحَدَّتْ عدداً مفرطاً من الأفكار الراسخة. واصطدم جوناس صولك بالجدار نفسه عندما جاء بتجديداته الجذرية في علم المناعة؛ وكذلك الحال بالنسبة لماكس بلانك في فيزيائه التثويريّة. وقد كتب بلانك فيما بعد عن المعارضة العلمية التي واجهها: «إن الحقيقة العلمية الجديدة لا تنتصر بإقناع خصومها وجعلهم يرون الضوء ليهتدوا، بل لأن خصومها يموتون في آخر الأمر، ثم ينمو جيل جديد تكون تلك الحقيقة مألوفة لديه».

والجواب على هذا النزوع الفطري إلى المحافظة هو ممارسة لعبة رجل الحاشية. فهذا ما فعله غاليليو في بداية حياته العملية؛ وفيما بعد أصبح أكثر ميلاً إلى المواجهة، ودفع ثمنها. وإذن فامتدِحِ التقليدَ شفوياً.

وحَدِّدْ في ثورتك العناصرَ التي يمكن جعلها تبدو وكأنها تبني على الماضي. وقل الأشياء الصحيحة والملائمة، وأظْهِر امتثالك للعرف بشكل بارز، وفي الوقت نفسه دع نظرياتك تعمل عملها الجذري. تلاعبْ بالمظاهر واحترم عادات الماضي ومراسيمه. فهذا ينطبق على كل ساحة، وليس العِلْمُ بمستثنى.

وأخيراً، فإن الأقوياء ذوي السلطة يهتمون بروح العصر، فإن كان إصلاحهم سابقاً لأوانه كثيراً فلن يتفهمه إلاّ قليلون، وسوف يثير القلق، ويساء تفسيره على نحوٍ يدعو لليأس. ولذا، فإن التغييرات التي تجريها، ينبغي أن تبدو أقل تجديداً مما هي عليه. فإنكلترا أصبحت، في آخر الأمر، أمة بروتستانتية، كما كان يرغب توماس كرومويل. ولكن ذلك استغرق أكثر من قرن من التطور التدريجي.

راقب روحَ العصر. فإن كنتَ تعمل في زمن جياش بالاضطراب، فإن هناك سلطة يمكن كسبها من التبشير بالعودة إلى الماضي، إلى الراحة والسلوى، إلى التقاليد والطقوس. ومن جهة أخرى، إلعب ورقة التغيير والثورة في فترة الركود. ولكن احذر مما قد تثيره. فالذين ينهون ثورةً مّا نادراً ما يكونون هم الذين يبدأونها. ولن تنجح في هذه اللعبة الخطرة إلاّ إذا كنت مستعداً لاستباق وإحباط رد الفعل المحتوم ضدها، عن طريق التلاعب بالمظاهر والبناء على الماضي.

الشاهد: إن من يرغب في إصلاح حكومة دولة أو يحاول ذلك، ويرغب في جعل إصلاحه مقبولاً، عليه أن يحتفظ على الأقل بما يشبه الأشكال القديمة، بحيث يبدو للناس أنه لم يحدث تغيير في المؤسسات، حتى ولو كانت في الحقيقة مختلفة تماماً عن المؤسسات القديمة. لأن الغالبية العظمى من البشر قانعون بالمظاهر وكأنها حقائق.

(نيقولو مكيافيللي، 1469 ـ 1527).

صورة: القطة. إنها بنت العادة،
تحب دفء ما هو مألوف. افسد عاداتها
الروتينيّة، وأوقع الفوضى في مجالها، فتصبح صعبة
التدبير، وتصاب باكتئاب نفسي. فاسترضها بدعم طقوسها
المعتادة، فإذا كان التغيير ضرورياً، فاخدع القطة
بإبقاء رائحة الماضي حية، وضع أشياء
مألوفة لها في مواقع استراتيجية

الانقلاب

الماضي جثة تستخدمها كما ترى مناسباً. فإذا كان ما حدث في الماضي القريب مؤلماً وقاسياً، فإنك تدمّر ذاتك إذا ارتبطتَ به. فعندما جاء نابليون بونابرت إلى السلطة، كان الثورة الفرنسية ما تزال حية طرية في أذهان الجميع. ولو أن البلاط الذي أسسه كان فيه أية سمة من سمات الشبه بالبلاط الفخم الباذخ للويس السادس عشر وماري آنطوانيت، لأمضى رجال حاشيته وقتهم كله وهم قلقون على رقابهم. وبدلاً من ذلك أقام نابليون بلاطاً لافتاً للأنظار، برزانته وبعده عن المظاهر الاستعراضية. فكان بلاطاً لرجل يقدر العمل والفضائل العسكرية. وبدا هذا الشكل الجديد ملائماً ومدعاة للاطمئنان.

وبكلمات أُخرى، اهتمَّ بروح عصرك، ولكن افهم: إذا أَجْرَيْتَ تغييراً جريئاً يختلف عن الماضي، فإن عليك أن تتجنب بأي ثمن ظهورَ فراغٍ أو خواء، وإلاً فستخلق رعباً. فحتى التاريخُ القريبُ القبيحُ سيبدو أفضلَ من فسحة خالية. فاملأ الفراغ على الفور بطقوس وشعائر وأشكال جديدة. فتهدئة الناس وجعلهم يألفون الأمر سيضمن لك مكانتك بين الجماهير.

وأخيراً، فإن الفنون، والأزياء، والتكنولوجيا تبدو مجالات تأتي السلطة فيها من خلق انفصام جذري عن الماضي وإعطاء مظهر حَدِّيٍّ قاطع. والواقع أن مثل هذه الاستراتيجية يمكن أن تأتي بسلطة عظيمة،

ولكن فيها أخطاراً كثيرة. فمن المحتوم أن تجديداتك سيتفوق عليها شخص آخر. فأنت لا تملك سيطرة تُذْكَر، فقد يقوم شخص أصغر منك وأنشط وأنضر، بالتحرك فجأة، في اتجاه جديد يجعل تجديدك الجريء بالأمس يبدو داجناً ومثيراً للسأم اليوم. فأنت تمارس لعبة اللحاق بلا نهاية، إذْ أن سلطتك ضعيفة غير واضحة المعالم وقصيرة العمر. وأنت تريد سلطة قائمة على أساس أصلب. فاستخدام الماضي، ومعالجة التقاليد والتعامل معها وتخريبها، سيعطي مخلوقاتك شيئاً أكثر من الجاذبية المؤقتة. إذ أن فترات التغيير المدوخ تموه حقيقة كون التشوق إلى الماضي سيعاود الزحف إلى الداخل حتماً. وفي آخر الأمر، فإن استخدام الماضي لأغراضك الخاصة سيأتيك بسلطة أكثر مما لو حاولت إنهاءه بصورة كاملة، لأن مثل هذه المحاولة جهد مدمر للذات، ولا طائل من ورائه.

القانون

46

لا تظهر كاملاً أكثر مما ينبغي

الحكم

إن ظهور المرء أفضل من الآخرين خطر على الدوام. ولكن الأخطر من كل شيء هو ظهور المرء بلا عيب ولا ضعف. فالحسد يخلق أعداء صامتين. ومن الذكاء أن يكشف المرء عن نواقص فيه بين حين وآخر، وأن يعترف برذائل غير مؤذية، لإبعاد الحسد، ولكي يظهر المرء أكثر إنسانية وقابلية لأن يقترب منه الآخرون. فالآلهة والموتى فقط هم القادرون على الظهور بمظهر الكمال والإفلات به من العقاب.

انتهاك القانون

مثل الرجل الطماع والرجل الحسود

التقى رجل طماع ورجل حسود بأحد الملوك. فقال لهما: «يحق لواحد منكما أن يسألني شيئاً، شريطة أن أعطي ضعفَهُ للآخر». فلم يرد الحسود أن يكون هو السائل الأول، لأنه كان يحسد صاحبه الذي سيتلقى بعدئذ ضعف ما يسأله. ولم يرد الطماع أن يكون هو السائل الأول لأنه كان يريد أخذ كل ما يمكن الحصول عليه. وأخيراً ضغط الطماع على الحسود ليقدم طلبه، فطلب الحسود من الملك أن يقلع له إحدى عينيه.

مثل يهودي

الخطايا السبع المميتة
سولومون شيمّل، 1992

التقى جو أورتون مع كينيث هاليويل في الأكاديمية الملكية للفنون المسرحية في لندن، سنة 1953، حيث انتسب الاثنان كطالبين ممثلين. وسرعان ما أصبحا عشيقين وانتقلا للعيش معاً. وكان هاليويل في الخامسة والعشرين من عمره آنذاك، أكبر من أورتون بسبع سنوات. وبدا أنه الأكثر ثقة بنفسه. غير أن الاثنين لم يكن لديهما كبير موهبة كممثلين. وبعد التخرج، واستقرارهما في شقة شديدة الرطوبة في لندن، قررا أن يتخلّيا عن التمثيل ويتعاونا ككاتبين بدلاً من ذلك. وكانت التركة التي ورثها هاليويل تكفي لإعالتهما دون الاضطرار إلى العثور على عمل لمدة بضع سنوات. وفي بادىء الأمر، كان هاليويل هو القوة الدافعة وراء القصص والروايات التي ألّفاها؛ فكان يملي على أورتون، الذي يطبع المخطوطات، مضيفاً إليها، بين حين وآخر، بعض سطوره وأفكاره. وجذبت محاولاتهما الأولى بعض الاهتمام من الوكلاء الأدبيّين، ولكنها توقفت بعد تَقَطُّعٍ. ولم يكن الوعد الذي بدر منهما مؤدّياً إلى شيء.

وأخيراً انتهت الأموال الموروثة، فاضطر الاثنان إلى البحث عن عمل. وصار تعاونهما أقل حماساً وأقل تواتراً، وبدا المستقبل كالحاً.

وفي سنة 1957، بدأ أورتون يكتب بشكل مستقل. ولكنه لم يجد صوته الخاص به إلاّ بعد ذلك بخمس سنوات. عندما سُجِنَ العشيقان لمدة ستة أشهر بسبب تشويههما لعشرات من الكتب الأدبية (ولعل ذلك

لم يكن صدفة، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي افترق فيها عن هاليويل خلال مدة تسع سنوات). فخرج من السجن مصمماً على التعبير عن احتقاره للمجتمع الإنكليزي على شكل مسرحيات هزلية ساخرة. وعاد وهاليويل ليعيشا معاً. ولكن الأدوار انعكست عندئذٍ: فشرع أورتون يقوم بالتأليف بينما أخذ هاليويل يضيف تعليقاته وأفكاره.

وفي سنة 1964، أكمل جو أورتون أول مسرحية كاملة له، وهي بعنوان **إمتاع السيد سلون**. فَنَجَحَتْ في الوصول إلى الحي الغربي «وِسْتْ إِنْدْ» بلندن (وهي المنطقة الغنية الراقية)، حيث لقيت مراجعات نقدية لامعة: فقد برز كاتب جديد عظيم من اللامكان. وتبع النجاحُ النجاحَ في وتيرة سريعة مدوِّخة. وفي سنة 1966، حقق أورتون نجاحاً باهراً بمسرحيته **النهب** «Loot»، وتصاعدت شعبيته. وسرعان ما انهالت عليه الطلبات والتكاليف من جميع الجوانب، بما في ذلك من الخنافس، الذين دفعوا لأورتون مبالغ محترمة، كي يكتب لهم قصة فيلم.

إن المعجب الذي يشعر أنه لا يستطيع أن يكون سعيداً بتسليم نفسه يختار أن يصبح حاسداً لمن هو معجبٌ به. وهكذا يتكلم بلغة أخرى فيسمي الشيء الذي هو معجب به غياً، وبلا نكهة، وغيرَ ممتع، وغريباً. ذلك أن الإعجاب هو الاستسلام السعيد، أما الحسد فهو إثبات النفس التعيس.

سورين كيركيغارد
1855 - 1813

وكان كل شيء يشير إلى الأعالي، عدا علاقة جو أورتون مع كينيث هاليويل. فقد ظل الاثنان يعيشان معاً، ولكن مع نجاح أورتون بدأ هاليويل يتدهور. فعندما كان هاليويل يتفرج على عشيقه وهو يصير مركز الاهتمام، راح يعاني من مذلة التحول إلى مساعد شخصي للكاتب المسرحي، وأخذ دوره فيما كان ذاتَ مرةٍ نوعاً من التعاون يصبح أصغر فأصغر. ففي خمسينات القرن العشرين، كان يعيل أورتون بميراثه. أمّا بعد ذلك فقد راح أورتون يعيله. وفي الحفلات، وبين الأصدقاء، كان من الطبيعي أن ينجذب الناس إلى فلك أورتون، فقد كان ساحر الجاذبية، ومبتهج المزاج بشكلٍ يكاد يكون دائماً. وعلى عكس أورتون الوسيم، كان هاليويل أصلع وأخرق؛ وجعلت مواقفه الدفاعيةُ الناسَ يرغبون في تجنّبه.

ومع نجاح جو أورتون لم تزد مشاكل الاثنين إلاَّ سوءاً. فقد جعلت نوباتُ هاليويل من نكد الطبع حياتَهما معاً مستحيلة. وزعم

أورتون أنه يريد أن يفارقه. وكانت له علاقات عديدة، ولكنه كان دائماً يعود إلى صديقه وعشيقه القديم. وقد حاول أن يساعد هاليويل على تدشين حياة عملية له كفنان، بل رتب له معرضاً لأعماله. ولكن المعرض لقي إخفاقاً ذريعاً، فلم ينجم عنه سوى زيادة حدة شعور هاليويل بالنقص. وفي شهر أيار/ مايو سنة 1967، ذهب الاثنان في إجازة قصيرة إلى طنجة، في المغرب. وأثناء الرحلة كتب أورتون في مذكراته: «لقد جلسنا نتحدث عن مدى شعورنا بالسعادة، وكيف أن من المؤكد أنها لن تستمر. فسوف نضطر إلى دفع ثمنها، أو تنقض علينا كارثة تصيبنا من بعيد، ربما لأننا كنا سعداء أكثر مما ينبغي. ذلك أن كون المرء حسن المنظر، وبصحة جيدة، وشهيراً، وغنيّاً نسبياً، وسعيداً فوق ذلك كله لا بدّ أنه يسير ضدّ الطبيعة».

إن إخفاء موهبة المرء ومهارته يتطلب موهبة ومهارة عظيمتين.

لاروشفوكو
1613 - 1680

ومن الخارج، كان كينيثهاليويل يبدو سعيداً مثل جو أورتون. أمّا من الداخل، فكانت نفسه تجيش. وبعد ذلك بشهرين، في العاشر من شهر آب/ أغسطس سنة 1967، بعد أيام فقط من مساعدة أورتون في وضع اللمسات الأخيرة على مسرحيته الهزلية الشريرة ما رآه الساقي (وهي رائعته بلا شك)، قام كينيث هاليويل بالقضاء على جو أورتون بضربات متكررة على رأسه بمطرقة. ثم تناول واحداً وعشرين قرصاً منوّماً، فقتل نفسه بدوره، تاركاً وراءه ملاحظةً نَصُّها: «إذا قرأتم مذكرات أورتون، فسوف يتضح لكم كل شيء».

ربة الحسد تعذب أغلوروس

رأت الإلهة منيرفا طريقها إلى بيت الحسد، وهو بيتٌ قذر مليء بالوحل المعتم اللزج الصاخب. وهو مختفٍ بعيداً في أعماق الوديان حيث لا تصل الشمس ولا تنفذ أبداً، ولا تهب الريح، فكان مسكناً كئيباً مظلماً يتخلله برد قارص مخدّر، وكان متلفعاً أبداً بديجور كثيف حالك. وعندما وصلت منيرفا إلى هذه البقعة توقفت أمام البيت. . . وقرعت الأبواب بطرف رمحها، وعندئذٍ انفتحت الأبواب وكشفت عن ربة الحسد في الداخل، وهي منهمكة في تناول وجبة من لحم الأفاعي، الطعام الذي تغذي به طبيعتها

التفسير

حاول كينيث هاليويل أن يصبّ تدهوره في قالب مرضٍ عقلي. ولكن ما كشفته له مذكرات جو أورتون كان هو الحقيقة: لقد كان الحسد، محضاً وبسيطاً هو الشيء الكامن في قلب مرضه. فقد كانت المذكرات، التي قرأها هاليويل خلسةً، تروي قصة أيام الاثنين معاً كشخصين متساويين، وكفاحهما للحصول على اعتراف الناس. أما بعد نجاح أورتون فقد طفقت المذكرات تصف استغراق هاليويل في التفكير

الكئيب، وأوامره الفظّة في الحفلات، وشعوره المتنامي بالنقص. وقد حكى أورتون هذا كله من مسافةٍ فاصلة تقرب من حدود الاحتقار.

وأوضحت المذكرات شعور هاليويل بالمرارة من نجاح أورتون. وفي آخر الأمر لم يكن ليرضيه شيء سوى أن يتعرض أورتون لفشل خاص به، ربما مسرحية غير ناجحة، كي يتواسيا في فشلهما كما كانا يفعلان قبل سنوات. وعندما حدث العكس ـ بينما راح أورتون لا يزداد إلاّ نجاحاً وشعبية. عمل هاليويل الشيء الوحيد الذي كان من شأنه أن يردّهما متساويين مرة أخرى: وهو أن يتساويا في الموت. وباغتيال أورتون، صار هاليويل مشهوراً كشهرة صديقة تقريباً ـ بعد الموت.

ولم يفهم جو أورتون سرّ تدهور عشيقه إلاّ بصورة جزئية. فمحاولته لمساعدة هاليويل على الانطلاق في حياته العملية كفنان سجلت كما هي عليه: أي كَصَدَقَةٍ وشعور بالذنب. وبشكل أساسي، كان أمام أورتون حلاّن محتملان للمشكلة: فقد كان بإمكانه التقليل من شأن نجاحه، كاشفاً عن بعض العيوب، ومبعداً عن نفسه حسدَ هاليويل: أو، عند إدراكه طبيعة المشكلة، كان يمكنه الهرب من هاليويل وكأنه أفعى خبيثة، كما كان بالفعل ـ صِلاً من الحسد. فما أن يبدأ الحسد بأكل قلب شخص مّا، حتى يتسبب كل شيء تفعله في نموّ ذلك الحسد فقط، فيعتمل في داخله ويتقيح يوماً بعد يوم. وسوف يهاجم في آخر الأمر.

لا تستطيع أن تنجح في لعبة الحياة إلاّ أقلية. ومن المحتم أن تثير تلك الأقلية الحسد في نفوس مَنْ حولها. وعندما يصادفك النجاح في طريقك، فإن الناس الذين يتعين عليك أن تخشاهم أكثر من غيرهم، هم أولئك اللصيقون بك في دائرتك من الأصدقاء والمعارف الذين تركتهم خلفك. إذ إن مشاعر النقص تقضمهم وتنخر في داخلهم: ففكرة نجاحك لا تؤدي إلاّ إلى زيادة شعورهم بالركود. فيسيطر عليهم الحسد، الذي يسميه الفيلسوف كيركاغارد «الإعجاب التعيس». وقد لا تراه، ولكنك سوف تحسّ به ذات يوم، إلاّ إذا تعلمتَ استراتيجية الإبعاد،

الشريرة وعند رؤية هذا المشهد، أشاحت منيرفا بوجهها. ولكن الأخرى نهضت عن الأرض بتثاقل، تاركة جثثاً نصف مأكولة، وخرجت تجر خطاها جراً. فعندما رأت الإلهةَ منيرفا بكل بهاء جمالها، ودرعها ذي الوميض الملتمع، تأوّهت. وكان وجهها شاحباً مريضاً وقوامها هزيلاً ضامراً، وفي نظرتها شزر رهيب. وكانت أسنانها شوهاء اللون ومتآكلة وثدياها السامّان يميل لونهما إلى الاخضرار، ولسانها يقطر سمّاً. فقد كان مشهد البؤس وحده هو الذي يأتي بالبسمة إلى شفتيها. فلم تعرف أبداً راحة النوم، بل كان الهمّ والقلق يسهدانها تسهيداً دائماً، إذ إنها تنظر بفزع إلى حسن حظ البشر، الذي كان مشهدُهُ يَنْحِلُ جسمَهَا. فكانت تقضم الآخرين وتتعرض هي نفسُها للقضم بالغُلّ في داخلها، فكانت معذبةَ نفسِها. ورغم اشمئزاز منيرفا منها، فقد خاطبتها قائلة: «إغرسي سُمّكِ في واحدة من بنات سكروب ـ اسمها آغلوروس. هذا ما أطلبه منك». وبدون أي كلمة أخرى، غرست منيرفا رمحها في الأرض وغادرتها محلقة في الأعالي. وراقبتها الأخرى بطرف عينها حتى غابت عن النظر، فراحت تدمدم غاضبةً أن تكون خطة منيرفا ناجحة. ثم أخذت عكازها المحاطة من كل جانب بالأشواك الناتئة، ولفّتْ نفسَها بغيوم سوداء وانطلقت. وكانت حيثما سارت تطأ حقول الورد،

وتقديم التضحيات الصغيرة لآلهة النجاح. فإما أن تقوم بطمس شيء من بريقك بين الحين والآخر، متعمداً أن تكشف عن عيب، أو ضعف، أو قلق، أو عزوٍ لنجاحك إلى الحظّ؛ أو أن تعثر لنفسك على أصدقاء جدد. وإياك أن تقلل تقدير قوة الحسد.

مراعاة القانون

كانت طبقة التجار ونقابات الحِرَفيين التي تدين لها فلورنسا بازدهارها في العصور الوسطى، قد اصطنعت جمهوريةً حَمَتْهُمْ جميعاً من قمع النبلاء. وبما أن المناصب العليا لم يكن الاحتفاظ بها ممكناً إلاّ شهوراً قليلة، فلم يكن أحد يستطيع الحصول على هيمنة دائمة. ورغم أن هذا كان يعني أن الفئات السياسية راحت تكافح باستمرار لتحقيق السيطرة، فإن النظام أَبْعَدَ الطغاةَ والمستبدين الصغار. وقد عاشت أُسرة مديتشي عدة قرون تحت هذا النظام دون أن تترك أثراً يذكر. وكانت لهم أصول متواضعة كصيادلة، وكانوا مواطنين نموذجيين من الطبقة الوسطى. فلم يبرزوا كقوة يعتد بها إلاّ في أواخر القرن الرابع عشر. عندما كوّن جيوفاني دي ميديتشي ثروة متواضعة في العمل المصرفي.

وعند وفاة جيوفاني، تولى ابنه كوزيمو تجارة العائلة، فأظهر موهبته فيها بسرعة، فازدهرت الأعمال التجارية تحت سيطرته، وبرز آل ميديتشي بوصفهم إحدى الأُسر الصيرفية المتفوقة في أوروبا. ولكن كان هناك من ينافسهم في فلورنسا. فعلى الرغم من نظام المدينة الجمهوري، تمكنت عائلة واحدة هي عائلة ألبيزي، على مرّ السنين، من احتكار السيطرة على الحكومة. . مكوّمةً تحالفاتٍ أتاحت لها باستمرار أن تملأ المناصب الحكومية الهامة برجالها. فلم يقاتل كوزيمو ضد ذلك، بل منح آل ألبيزي تأييده الصامت. وفي الوقت نفسه، وبينما بدأ آل ألبيزي يتباهون باستعراض سلطتهم، حرص كوزيمو على البقاء غير بارز في خلفية المشهد.

فتذبل الأعشاب وتحرق قمم الأشجار، وتلوث بأنفاسها الشعوبَ ومدنَها وبيوتَها، حتى وصلت في خاتمة المطاف إلى أثينة، مقر الفطنة والذكاء والثروة، التي تنعم بالسلام والازدهار. فلم تكد تمتنع عن البكاء لأنها لم ترَ سبباً للدموع. ثم دخلت غرفة بنات سكروب فنفذت أوامر منيرفا. فلمست ثدي البنت بيد مغمسة في الخبث، وملأت قلبها بالأشواك المتعشبة، ونفثت فيها سمّاً أسود شرّيراً أنفذته إلى أعماق عظامها وقطرت الضّغينة في أعماق فؤادها. ولكي لا يكون العثورُ على سبب كربها بعيدَ المنال، وضعت نصب عيني أغلوروس مشهداً لأختها، لزواجها الناجح [من الإله عطارد] ولذلك الإله وبكل وساته! وبالغت في تمجيد ذلك كله. وهكذا تعذبت آغلوروس بمثل تلك الأفكار، وراح الحسد الغاضب الذي تخفيه يأكل قلبها. وأخذت تتنهّد بحرقةٍ في الليل والنهار، وصارت تعيسة باطراد لا توقف فيه. وفي تعاستها الكلية شرعت تذوي في اضمحلال بطيء، كالثلج عندما تذيبه ضربات الشمس. وكانت النار التي اشتعلت في داخلها عند تفكيرها بحسن حظ أختها تشبه احتراق الهشيم بدون شعلات، ولكن النار تأكل الهشيم.

التحوّلات
أوفيد،
43 ق. م.-حوالي 18م.

غير أن ثروة آل ميديتشي لم يعد بالإمكان تجاهلها في آخر الأمر، وفي سنة 1433، شعر آل ألبيزي بأن تلك الأسرة تهددهم، فاستخدموا عضلاتهم الحكومية للقبض على كوزيمو بتهمة التآمر على إسقاط الجمهورية. وأراد بعض أفراد زمرة ألبيزي أن يُعْدَمَ كوزيمو، وخشي آخرون من أن يشعل ذلك شرارةَ حرب أهلية. وفي آخر الأمر نفوه من فلورنسا. ولم يقف كوزيمو ضد هذا الحكم. فغادر المدينةَ بهدوء. وكان يعلم أن من الأحكم في بعض الأحيان أن يتحيّن المرءُ الوقتَ المناسب، وأن يحافظ على الهدوء وعدم البروز.

وعلى مدى السنة التالية، بدأ آل ألبيزي يثيرون المخاوف من كونهم يدبرون إقامة دكتاتورية. وفي تلك الأثناء، استخدم كوزيمو ثروته لتحقيق فائدة، فاستمر يمارس تأثيراً على الشؤون الفلورنسية حتى من منفاه. واندلعت حرب أهلية في المدينة. وفي شهر أيلول/سبتمبر سنة 1434، أُسْقِطَ آل ألبيزي من السلطة، وأرسلوا إلى المنفى. فعاد كوزيمو إلى المدينة في الحال، واستعاد منصبه. ولكنه رأى أنه كان عندئذ يواجه موقفاً دقيقاً: فإذا بدا عليه الطموح، كما في حالة آل ألبيزي، فسوف يثير معارضة وحسداً يهددان أعماله التجارية في آخر الأمر. ومن جهة أخرى، فإنه إذا بقي على جوانب المشهد، فإنه سيتيح فرصة لزمرة أخرى كي تصعد كما صعد آل ألبيزي، وتعاقب آل ميديتشي على نجاحهم.

فحلّ كوزيمو المشكلةَ بطريقتين: استعمل ثروته سراً لشراء النفوذ في صفوف المواطنين الهامّين، ووضع حلفاءه في مناصب حكومية عليا. وكان قد اختار أولئك الحلفاء من الطبقات الوسطى لإخفاء ولائهم له. أما أولئك الذين تذمروا من تنامي النفوذ السياسي المؤثر، فقد فرضت عليهم ضرائب أرغمتهم على الخضوع، أو اشتريت ممتلكاتهم كلها فسُحِبَتْ منهم على أيدي حلفاء كوزيمو المصرفيين. فنجت الجمهورية بالاسم فقط، بينما ظلّ كوزيمو هو الممسك بالخيوط.

غير أنه في الوقت الذي راح فيه كوزيمو يعمل من خلف الكواليس

للحصول على السيطرة، فإنه قدّم في العلن صورةً أخرى. فعندما كان يمشي في شوارع فلورنسا، كان يرتدي ملابس متواضعة، ولم يكن لديه سوى خادم واحد، وكان ينحني باحترام للقضاة والمواطنين المسنّين، ويركب بغلاً بدلاً من الحصان. ولم يتحدث قطّ عن القضايا ذات الأهمية العامة، رغم أنه ظل يسيطر على شؤون فلورنسا الخارجية طيلة ما يزيد على ثلاثين عاماً. وكان يعطي أموالاً للصدقة والأعمال الخيرية، ويحافظ على روابطه مع طبقة فلورنسة التجارية. وقام كوزيمو بتمويل كل أنواع المباني العامة التي كانت تغذّي افتخار الفلورنسيين بمدينتهم. وعندما كان يبني قصراً لنفسه ولأسرته في بلدة فيزول القريبة، رفض التصاميمَ المنمقةَ التي رسمها له برونيليتشي، واختار بدلاً منها تركيباً متواضعاً صمّمه مايكيلوزو، وهو رجل من أصول فلورنسية متواضعة. وكان القصر رمزاً لاستراتيجية كوزيمو ـ كله بساطة من الخارج، وأناقةٌ وغنىً وفيرٌ من الداخل.

وأخيراً مات كوزيمو في سنة 1464، بعد أن حكم ثلاثين عاماً. فأراد مواطنو فلورنسا أن يقيموا له ضريحاً عظيماً، وأن يحيوا ذكراه باحتفالات جنائزية معقدة ومتقنة. ولكنه كان قد أوصى، وهو على فراش الموت، أن يدفن بدون «أي أبهة أو مواكب استعراضية». وبعد ذلك بستين عاماً، حيّاه ماكيافيللي باعتباره أحكم الأمراء جميعاً «لأنه كان يعلم أن الأشياء غير العادية التي تشاهَدُ وتظهر في كل ساعة تجعل الرجال موضع الحسد أكثر من الأشياء التي تتم بالفعل وتغطيها اللياقة والاعتدال».

التفسير

كان بائع الكتب فيسبا سيانودا بيستيشي، صديقاً مقرباً لكوزيمو، فكتب عنه ذات مرة: «وكلما أراد أن يحقق شيئاً، كان يحرص على أن تظهر المبادرة إليه من آخرين بدلاً منه، وذلك للتخلص من الحسد بقدر المستطاع». وكان من بين التعابير المفضلة عند كوزيمو قوله: «الحسد

عشبة ينبغي عدم إروائها». فقد تفهم كوزيمو قوة الحسد في بيئة ديمقراطية، ولذلك تجنب كل مظاهر العَظَمَة. وليس معنى ذلك أنه ينبغي خَنْقُ العظمة، ولا أن العادي المبتذل هو وحده الذي ينبغي أن يعيش ويبقى؛ بل إن من الواجب ممارسة لعبة المظاهر. والحقيقة أن حسد الجماهير الخفي والخبيث، يمكن إبعاده بسهولة: اظهر كواحد منهم في الأسلوب والقيم. وأقم تحالفات مع مَنْ هم دونك، وارفعهم إلى مراكز سلطة، لتضمن تأييدهم لك في أوقات الحاجة. وإياك أن تزدهي بعرض ثروتك. أما مدى النفوذ الذي اشترته لك ثروتك، فَخَبِّئْهُ بعناية. وأظهر احترامك للآخرين بشكل بارز، وكأنهم أقوى منك. فقد أتقن كوزيمو ميديتشي هذه اللعبة، إذ إنه كان فنان احتيال بالمظاهر شديد البراعة. ولم يكن أحد يستطيع سبر غور مدى سلطته ونفوذه ـ فمظهره المتواضع كان يخفي حقيقته.

فإياك أن تصل بك الحماقة إلى حد الاعتقاد بأنك تثير الإعجاب عندما تزدهي باستعراض الخصال التي ترفعك فوق الآخرين. ذلك أنك عندما تُشْعِرُ الآخرين بتدنّي مكانتهم، فإنما تثير في نفوسهم «الإعجاب التعيس»، أو الحسد، الذي يقضمهم حتى يقوضوا مكانتك بطرق لا تستطيع التنبؤ بها. فالأحمق هو الذي يتحدى آلهة الحسد بالتفاخر باستعراض انتصاراته. أما صاحب السلطة الذكيّ فيفهم أن مظهر التفوق على الآخرين ليست له أهمية بالمقارنة مع حقيقة ذلك التفوق المخفاة.

يختبيء الحسود بعناية مثل مرتكب الذنب الشهواني السرّيّ، ويصبح مخترعاً لحيل ومخطّطات لا نهاية لها لإخفاء نفسه وراء الأقنعة. وهكذا فإنه قادر على التظاهر بتجاهل تفوق الآخرين الذي يأكل قلبه، وكأنه لم يرهم، ولم يسمعهم، ولم يَعِ بوجودهم، ولم يسمع بهم قطّ. وهو متقن لفن التمثيل. وهو من جهة أخرى يحاول بكل قوته أن يتواطأ، وبذلك يمنع أي شكل من أشكال التفوق من الظهور في أي وضع. فإذا ظهرت حالات التفوق هذه ألقى عليها الغموض والخمول والنقد المفرط والسخرية والتشهير كالعلجوم الذي يبصق السمّ من وكره الطينيّ. وهو من جهة ثالثة يقوم بلا انقطاع برفع الأشخاص التافهين وضئيلي الجودة، وحتى الناقصين في بعض أنماط النشاط.

آرثر شوبنهاور
1788 ـ 1860

> من بين جميع اضطرابات الروح، يبقى الحسد هو الشيء الوحيد الذي لا يعترف به أحد.
>
> (بلوتارخ، 46 ـ 120م).

مفاتيح السلطة

يمضي الحيوان البشري وقتاً شاقاً في التعامل مع مشاعر النقص التي تنتابه. ففي مواجهة مهارة متفوقة، وموهبة، وسلطة نفوذ، كثيراً ما

نصاب بالقلق وزعزعة الاستقرار؛ وسبب ذلك هو أن معظمنا نملك شعوراً متضخماً بأنفسنا، وعندما نلتقي بأناس يتفوقون علينا، فإنهم يبينون لنا أننا في الواقع عاديون، أو أننا على الأقل لسنا من الألمعية بالدرجة التي كنا نظنها. وهذا الاضطراب في صورتنا عن أنفسنا لا يمكن أن يستمر طويلاً بدون أن يثير فينا عواطف قبيحة. ففي بادىء الأمر نشعر بالحسد. فلو كانت لدينا الخصلة أو البراعة التي لدى الشخص المتفوق، لكنا سعداء. ولكن الحسد لا يأتينا بأية راحة، ولا يقرّبنا من التساوي مع المتفوق. بل إننا لا نعترف بأننا نشعر به، لأن المجتمع يكشّر إزاءه ـ ذلك أن إظهار الحسد يعني الاعتراف بالشعور بالنقص. فنحن قد نعترف لأصدقائنا المقربين برغباتنا السرِّيَّة غير المتحققة. ولكننا لا نعترف أبداً بشعورنا بالحسد. وهكذا يغوص مختفياً تحت الأرض. فنموهه بطرق كثيرة، كالعثور على أسس لانتقاد الشخص الذي يجعلنا نُحِسُّ به. وقد يقول الواحد مِنّا لنفسه: «ربما يكون أذكى منّي، ولكنه لا يملك أخلاقاً أو ضميراً». أو: «ربما تكون لديه سلطة أكثر منّي، ولكن سبب ذلك أنه يغشّ». وإذا لم نشهِّر به، فقد نمدحه بشكل مفرط ـ وذلك شكل متنكر مموه من أشكال الحسد.

إن هناك استراتيجيات عديدة لمعالجة عاطفة الحسد الخفيه المدمرة.

فأولاً: سلِّم بحقيقة أنه سيكون هناك أناس متفوقون عليك بطريقةٍ مّا، وكذلك بحقيقة أنك قد تحسدهم. ولكن اجعل مثل هذا الشعور حافزاً دافعاً للتساوي معهم، والتفوق عليهم يوماً مّا. أما إذا تركت الحسد يتجه إلى الداخل، فإنه سوف يسمِّم الرّوح. وإذا طردته إلى الخارج، فقد يسمو بك إلى ارتفاعات أعظم.

وثانياً: إفهم أنك عند حصولك على السلطة، فإن مَنْ هم دونك سوف يحسدونك أنت. وقد لا يظهرون ذلك لك، ولكنه شيء محتوم. فلا تتقبل بسذاجةِ الواجهةَ التي يعرضونها عليك. واقرأ بين سطور

كما يقول المثل، فإنه ليس كبيراً عدد الرجال الذين يستطيعون أن يحبوا صديقاً مزدهر الحظ دون أن يشعروا بالحسد؛ وأما ذهن الحسود، فإن السُّمّ الزعاف يلتصق به ويضاعف كل الآلام التي تأتيه بها الحياة. فعليه أن يداوي جراحه بنفسه، وهو يشعر بأن سعادة شخص آخر هي لعنةٌ له.

آسخيلوس

525 ـ 456 ق.م.

نقدهم، وملاحظاتهم الساخرة، وعلامات الطعن من الظهر، والمديح المفرط الذي يُهَيِّيء لسقوطك، ونظرة الغضب الشزراء في العين. فنصف المشكلة مع الحسد تأتي عندما لا نفطن إليه إلاً بعد فوات الأوان.

وأخيراً: فعندما يحسدك الناس، توقّع أنهم سيعملون ضدك بأسلوب غادر خفيّ. فسيضعون عقبات في طريقك لا تتوقعها ولا تتنبأ بها، أو لا تستطيع تتبّعها إلى مصادرها. فمن الصعب أن تدافع عن نفسك ضد ذلك النوع من الهجوم. وما إن تدرك أن الحسد في أساس مشاعر الشخص تجاهك، حتى يكون الأوان قد فات في معظم الأحيان: ولا ينجم عن تعلُّلِكَ بالمعاذير، وتواضعك المزيف، وأعمالك الدفاعية، سوى تفاقم المشكلة. وبما أن تجنب خلق الحسد في المقام الأول أسهل بكثير من التخلص منه بعد حدوثه، فإن عليك أن تخطط في استراتيجيتك، أن تستبقه قبل أن ينمو. فكثيراً ما تكون أعمالك ذاتها هي التي تثير الحسد، وكذلك عدم وعيك بها. فعندما تعي الأعمال والصفات تخلق الحسد، فإنك تستطيع اقتلاع أضراسه قبل أن تقضمك قضماً تدريجياً حتى الموت.

يوسف وقميصه

وأما إسرائيل فأحبّ يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته. فصنع له قميصاً ملوناً. . . فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه. فقال بعضهم لبعض: «هو ذا صاحب الأحلام قادم. فالآن هلمّ نقتله ونطرحه في إحدى الآبار، ونقول وحشٌ رديء أكله، فنرى ماذا تكون أحلامه».

العهد القديم
سِفْرُ التكوين،
37: 3 ـ 20

كان كيركغارد يعتقد أن هناك أنماطاً من الناس تخلق الحسد، وهم مذنبون في إثارته كذنب الذين يحسون به في أنفسهم. وأوضح هذه الأنماط نعرفه جميعاً: ففي اللحظة التي يحدث لهم فيها شيء طيب، سواء عن طريق الحظّ، أم عن طريق التصميم، فإنهم يصرخون بذلك علناً. والحقيقة أنهم يحصلون على السرور من جعل الناس يشعرون بالنقص. فهذا النوع واضح، ولا أمل فيه. غير أن هناك آخرين يثيرون الحسد بطرق خفية ولا شعورية، ويقع على عاتقهم جزء من اللوم في المشاكل التي تحيق بهم. وعلى سبيل المثال، كثيراً ما يكون الحسد مشكلة لمن لديهم موهبة طبيعية عظيمة.

كان السير والتر رالي، من ألمع رجال بلاط آليزابيث الأولى ملكة

إنكلترا. فقد كانت لديه مهارات كعالِم. وقد نظم أشعاراً لا يزال من المعترف به أنها من أجمل كتاباتٍ عصره. وكان قائداً مجرباً للرجال، وصاحبَ مشاريعٍ مغامراً مقداماً، وقبطاناً بحرياً عظيماً. وكان، فوق هذا كله، رجلَ حاشيةٍ وسيماً وجريئاً شق طريقه بجاذبيته حتى صار واحداً من ذوي الحظوة لدى الملكة. غير أن الناس كانوا يسدون طريقه حيثما ذهب. وفي آخر الأمر تعرض لسقوط رهيب من مكانة الحظوة أدى به إلى السجن، وأخيراً إلى فأس الجلاّد.

ولم يستطع رالي أن يفهم المعارضة العنيدة التي لقيها من رجال الحاشية الآخرين. فلم يَرَ أنه لم يقم بأية محاولة لإخفاء درجة مهاراته ومؤهلاته. ولم يكتفِ بذلك، بل فرض تلك المهارات والمؤهلات على الجميع، وتفنن في عرض مواهبه المتعددة الأوجه، ظناً منه أنها تثير إعجاب الناس وتكسبه أصدقاء. والحق أنها أكسبته أعداءً صامتين، وهم الذين شعروا بالنقص تجاهه، فراحوا يعملون كل ما في وسعهم لتدميره في أية لحظة يتعثر فيها أو يرتكب أخفّ غلطة. وفي خاتمة المطاف، كان السبب الذي أعدم من أجله هو الخيانة. ولكن الحسد يستخدم أي غطاء يجده كقناع لقوته التدميرية.

وكان الحسد الذي استدرجه السير والتر رالي من أسوأ الأنواع: فقد أوحت به موهبته الطبيعية، وفضله وكياسته، التي كان يشعر أن أفضل طريقة لعرضها، هي: إبرازها في كمال ازدهارها. فالمال يستطيع الآخرون أن يحصلوا عليه؛ وكذلك السلطة. أما الذكاء المتفوق، والمظهر الوسيم، والجاذبية الآسرة، فهي مؤهلات لا يستطيع أحد أن يكتسبها. فالكاملون بطبيعتهم ينبغي أن يفعلوا أقصى ما في استطاعتهم لإخفاء ألمعيتهم، مظهرين عيباً أو اثنين، لإبعاد الحسد قبل أن يغرس جذوره فيهم. فمن الأخطاء الساذجة الشائعة، أن تعتقد أنك تأسر الناس بمواهبك الطبيعية، بينما هم في الواقع آخذون بكراهيتك.

ومن الأخطار العظيمة في مملكة السلطة التحسن المفاجىء في

ماساة القبر

[عندما شاهد البابا يوليوس لأول مرة تصميم مايكل آنجيلو لقبره]، سرّه ذلك كثيراً إلى درجة أنه بادر على الفور إلى إرسال الفنان إلى كارارا ليقتلع له الرخام الضروري، وأصدر تعليماته إلى آلامانو سالفياتي الفلورنسي، كي يدفع له ألف دوكات لهذا الغرض. وظل مايكل آنجيلو في الجبال أكثر من ثمانية أشهر، مع اثنين من عماله وحصانه، ودون أية إمدادات أخرى عدا الطعام... وبعد اقتلاع وانتقاء ما يكفي من الرخام، نقله إلى ساحل البحر، وترك عنده واحداً من رجاله لشحنه، وعاد إلى روما.

... وكانت كمية الرخام هائلة، بحيث إنها عندما نُشِرَت في ميدان المدينة صارت مثار إعجاب الجميع ومسرةً للبابا الذي راح يغدق على مايكل آنجيلو أنواعاً من

الحظ ـ كترفيع غير متوقع، أو نصر أو نجاح يبدو قادماً من اللامكان. فمن المؤكد أن ذلك سيثير الحسد بين أترابك السابقين.

عندما تم ترفيع رئيس الأساقفة دي ريتز إلى رتبة الكردينال، في سنة 1651، كان يعرف جيداً أن كثيراً من زملائه السابقين قد حسدوه. وكان يفهم الحماقة في تنفير مَنْ هُمْ دونَه ففعل كل ما في وسعه لتخفيض قيمة فضله، ويؤكد دور الحظّ في نجاحه. ولكي يريح الناس، كان يتصرف بتواضع واحترام، كأنه لم يتغير شيء (وفي الحقيقة أنه كان عندئذ يملك طبعاً سلطةً أكبر من ذي قبل بكثير). وكتب: «إن تلك السياسات الحكيمة، (تركت أثراً طيباً بتقليل الحسد الذي حُمِلَ ضدي، والذي هو أعظم الأسرار جميعاً». اتبع مثال دي ريتز. فأكِّد بشكل خفي ذكي على حسن حظك، واجعل سعادَتَكَ تبدو شيئاً متاحاً أكثر للناس الآخرين، والحاجةَ إلى الحسد أقلَّ حدّة. ولكن إحرص على أن لا تتكلف تواضعاً مزيفاً يتمكن الناس من استشفاف ما وراءَهُ بسهولة. لأن ذلك لن يجعلهم إلاّ أكثر حسداً. فيجب أن يكون التمثيل جيداً: إذ إن تواضعك، وانفتاحك على الذين تركتهم خلفك ينبغي أن يبدو أصيلاً، فأي لمحة من عدم الإخلاص ستجعل مكانتك الجديدة أكثر قهراً وجوراً. وتذكّر: إنه على الرغم من مكانتك الرفيعة، فإن تنفير أترابك السابقين لن يفيدك في شيء. لأن السلطة تتطلب قاعدة تأييد عريضة وصلبة، والحسد قادر على تدميرها بصمت.

إن السلطة السياسية من أي نوع تخلق حسداً. ومن أفضل الطرق لإبعاده قبل أن تنمو له جذور راسخة أن يبدو المرء غير طموح. فعندما مات إيفان الرهيب، كان بوريس غودونوف يعرف أنه هو الوحيد القادر على قيادة روسيا من بين الموجودين على المسرح. ولكن لو أنه سعى إلى المنصب بتشوق لأثار الحسد والشك في صفوف البويار. وهكذا رفض التاج، لا مرة، بل مراراً عديدة. فجعل الناس يصرون على توليه العرش. واستخدم جورج واشنطن الاستراتيجية نفسها بنجاح كبير،

التكريم والمعروف لا حصر لها. وعندما شرع الفنان يعمل بِقِطَعِ الرخام زاره البابا في منزله مراراً متكررة، وهو يتحدث إليه عن القبر وأشياء أخرى كما لو كان يتحدث إلى أخيه نفسه. ولكي يتمكن من الذهاب إليه بسهولة، أمر بوضع جسر يمتد من الممر إلى غرف مايكل آنجيلو، ليزوره عن طريقه بصورة سرية خاصة. وكانت هذه الأنواع المتواترة من الجميل مصدر حسد كبير (كما هي الحال على الغالب في البلاط)، وبعد الحسد كان هناك اضطهاد لا نهاية له. إذ أن برامانتي، المعماري، الذي كان البابا يحبه، قد جعل البابا يغيِّر رأيه فيما يتعلق بإقامة النصب، فأخبره ـ كما يقول العامة ـ أن من المكروه أن يبني المرء قبره في حياته، وحكى له قصصاً أخرى، فقد كان الخوف والحسد يحرضان برامانتي، لأن حكمة مايكل آنجيلو قد فضحت كثيراً من أخطائه ونظراً لأنه لم يكن لديه أي شك في أن مايكل آنجيلو كان يعرف تلك الأخطاء، فقد سعى دائماً لإبعاده عن روما، أو على الأقل لحرمانه من الحظوة لدى البابا، ومن المجدِ والفائدةِ اللذين كان يمكن أن يكسبهما باجتهاده. فنجح في قضية القبر. وليس من شك في أنه لو أُتيح لمايكل آنجيلو أن يكمله حسب مخططه الأول، مع وجود مثل ذلك المجال الواسع لإظهار قيمته، لما استطاع أي فنان آخر،

أولاً: في رفضه الاحتفاظ بمنصب القائد العام للجيش الأميركي، وثانياً: في مقاومة منصب الرئاسة. وفي الحالتين جعل نفسه أكثر شعبيةً من أي وقت مضى. فلا يستطيع الناس أن يحسدوا السلطةَ التي أعطوها بأنفسهم لمن لا يبدو راغباً فيها.

مهما كانت شهرته (وليكن في هذا الكلام حسد)، أن ينتزع منه المكانة العليا التي كان سيحتلها

حياة مايكل آنجيلو
آسكانيوكونديفي،
1553

وعند الكاتب والسياسي الآليزابيثي السير فرانسيس بيكون أن أحكم سياسة للأقوياء ذوي السلطة هي أن يخلقوا نوعاً من الإشفاق عليهم كأنّ مسؤولياتهم عبء وتضحية. فكيف يمكن للمرء أن يحسد رجلاً حمل على عاتقه عبئاً ثقيلاً من أجل المصلحة العامة؟ مَوِّه سلطتك على أنها نوع من التضحية بالنفس وليست مصدراً للسعادة، وعندئذٍ تجعلها تبدو أقل قابلية للحسد. ركِّز على متاعبك، فتحول خَطَراً محتملاً (الحسد) إلى مصدر للدعم المعنوي (الإشفاق). ومن الخُدَعِ المماثلة أن تلمح بأن حظك السعيد سيفيد مَنْ حولك. ولكي تفعل ذلك فإنك محتاج إلى فتح خيوط محفظتك، كما فعل سيمون، الجنرال الغني في أثينة القديمة الذي أعطى بسخاء وبجميع أنواع الطرق لمنع الناس من حسد النفوذ الذي كان قد اشتراه في السياسة الأثينيّة. فدفع ثمناً غالياً لإبعاد حسدهم. ولكن ذلك أنقذه في آخر الأمر من عزلهم له ونفيه من المدينة.

واستنبط الرسام ج .م .و. تيرنر طريقةً أخرى للعطاء كي يبعد عن نفسه حسد زملائه الفنانين، لأنه أدرك أن ذلك الحسد هو أعظم عقبة في طريق نجاحه. فقد لاحظ أن مهاراته التي لا تضاهى في الألوان جعلتهم يخشون تعليق لوحاتهم إلى جوار لوحاته في المعارض، فأدرك أن خشيتهم من شأنها أن تتحول إلى حسد، وبالتالي تجعل من الصعب عليه أن يجد معارض يعرض فيها رسومه. ولذا فقد عُرِفَ عن تيرنر أنه كان في بعض الأحيان يطمس الألوانَ في لوحاته بالهباب مؤقتاً كي يكسب حسنَ نية زملائه.

ولإبعاد الحسد يوصي غراسيان بأن يُظْهِرَ الأقوياءُ ضعفاً، أو حماقةً اجتماعية صغيرة وثانوية، أو رذيلةً غيرَ مؤذية. أَعْطِ حاسديك شيئاً

يقتاتون عليه، لإلهائهم عن خطاياك الأهمّ. وتذكَّر: إن الحقيقة هي المهمة والمؤثرة. فقد تضطر إلى ممارسة التلاعب بالمظاهر. ولكنك في خاتمة المطاف ستحصل على ما هو مهم: السلطة الحقيقية. ففي بعض الأقطار العربية، يتجنب المرء إثارة الحسد بعمل ما عمله كوزيمو دي ميديتشي، أي بأن لا يعرض ثروته إلاَّ في داخل بيته. فطبِّق هذه الحكمة على شخصيتك.

واحذر بعض أقنعة الحسد. فالمديح المفرط علامةٌ تكاد تكون مؤكدة على أن مادحك يحسدك. فإمّا أنه يهيئك لسقطة ـ لأنه سيكون من المستحيل عليك أن ترتفع إلى مستوى مديحه، أو أنه يشحذ نصاله وراء ظهرك. وفي الوقت نفسه، فإن أولئك المفرطين في انتقادك، أو الذين يشهِّرون بك علناً، قد يكونون من حسادك أيضاً. فتعرف على سلوكهم باعتباره حسداً متنكراً، وبذلك تنجو من مصيدة التقاذف المتبادل بالطين، أو من أخذ انتقادهم على محمل الجدّ المؤذي. فاحصل على انتقامك بتجاهل وجودهم التافه.

لا تحاول أن تساعد حاسديك أو تسدي لهم جميلاً أو معروفاً؛ إذ أنهم سيعتقدون أنك تعاملهم باستعلاء المتنازِل. فمحاولة جو أورتون مساعدة هاليويل في العثور على معرض لأعماله لم ينجم عنها إلاَّ تشديد شعور عشيقه بالنقص وبالحسد. فعندما يكشف الحسد عن حقيقته، فإن الحل الوحيد كثيراً ما يكون هو الهرب من أمام الحاسدين، وتركهم ينضجون في جحيم خلقوه بأنفسهم.

وأخيراً: كُنْ على وعيٍ بأن بعض البيئات تؤدي إلى الحسد أكثر من غيرها، وآثار الحسد أخطر بين الزملاء والأتراب، حيث توجد قشرة من المساواة. كما أن الحسد مدمر في البيئات الديمقراطية، حيث يُنْظَرُ باحتقار إلى حالات استعراض السلطة المكشوفة. فكُنْ حساساً للغاية في مثل هذه البيئات. فقد لاحقت السلطاتُ الضريبيةُ السويديةُ صانعَ الأفلام إنغمارَ بيرغمان لأنه برز في بلد يكشّر إزاء البروز فوق عامة الناس.

هل اعترف أي شخص اعترافاً جدياً بأنه يشعر بالحسد؟ إن في الحسد شيئاً يتفق الجميع على أنه أكثر مجلبة للخزي والعار من أية جريمة شريرة. ولا يكتفي الجميع بإنكار الحسد، بل إن النوع الأفضل من الناس يميلون إلى عدم التصديق عندما يُعْزَى الحسد على نحو جادٍّ إلى رجل ذكي. ولكن بما أنه يستقر في القلب، لا في العقل، فليست هناك أية درجة من العقلانية يمكن أن تقدم للمرء ضمانة ضده

قصة: بيللي باد
هيرمان ملفيل
1819 ـ 1891

ويكاد يكون من المستحيل تجنب الحسد في مثل هذه الحالات. وليس هناك ما تستطيع أن تفعله سوى تقبلها بكياسة وعدم أخذ أية حالة منها على محمل شخصي. وكما قال هنري ديفيد ثورو، (الكاتب الأميركي، 1817 ـ 1862): «الحسد هو الضريبة التي يجب أن يدفعها التميُّز».

صورة: حديقة من الأعشاب. قد لا تغذيها ولكنها
تنتشر عندما تروي الحديقة. وقد لا ترى كيف،
ولكنها تسيطر، فهي طويلة وقبيحة، مانعةً أيَّ
شيء جميل من الازدهار. فقبل فوات الأوان
لا تُرَوِّ بلا تمييز، بل دمّر أعشاب الحسد
بعدم إعطائها أي شيء تتغذى عليه

الشاهد: بين حين وآخر، اكشف عيباً غير مؤذٍ في شخصيتك. لأن الحاسدين يتهمون أكمل الناس بأن خطيئتهم هي عدم ارتكابهم لأية خطيئة، فيصبح الحاسدون مثل آرغوس (عملاق خرافي له مائة عين، وعند موته تحولت عيونه إلى ذيل الطاووس، حسبما تزعم الأساطير الإغريقية: المترجم) كلهم عيون لتصيد العيوب في أي شخص متميز، فذلك عزاؤهم. فلا تترك الحسد ينفجر بسمومه ـ بل تَصَنَّع كبوةً مّا في الشجاعة أو الذكاء، لكي تنزع سلاح الحاسد مسبقاً. عليك أن تهز رداءك الأحمر أمام قرون الحسد، كي تنقذ خلودك.

(بلثاز غراسيان، 1601 ـ 1658).

اعرف كيف تنتصر على الحسد والخبث، ورغم أن الاحتقار هنا فيه تبصرّ وحصافة فإنه غير ذي أهمية تذكر. فالشهامة أفضل. فالكلمة الطيبة عن شخص يتحدث عنك بالسوء لا يستطيع أي وصف أن يفيها حقها من الجودة. فليس هناك انتقام أكثر بطولة من ذلكّ الذي تأتي به المزايا والمنجزات التي تثبط الحاسد وتعذبه. فكل ضربة حظ طيب هي فتلةٌ إضافية تلوي الحبل حول عنق ذي النية السيئة، كما أن فردوس المحسود هي جحيم الحاسد. إن تحويل حظك السعيد إلى سُمّ لأعدائك يُعْتَبَرُ أقسى عقوبةٍ يمكنك إيقاعها بهم. فالحسود لا يموت مرة واحدة فقط، بل بقدر عدد المرات التي يَسْمَعُ

الانقلاب

إن السبب الموجب للحرص على الحساد هو كونهم غير مباشرين إلى حد كبير، إذ أنهم يجدون طرقاً لا تحصى للنيل منك بتشويه سمعتك، أو إضعاف مكانتك. ولكن الخَطْوَ حَوْلَهُمْ بحرصٍ كثيراً ما

يجعل حسدهم أسوأ. فهم يشعرون بأنك حذر، فيُسَجَّلُ ذلك على أنه علامة أخرى على تفوقك. ولذا فإن عليك أن تتصرف قبل أن يعمّق الحسد جذوره.

غير أن الحسد عند وجوده، سواء بخطإٍ منك أم لا، فإن من الأفضل أحياناً أن تتكلف نهجاً معاكساً: أَظْهِرْ أقصى قدر من الاحتقار لحسادك. وبدلاً من إخفاء كمالك، اجعله واضحاً للعيان. واجعل كلَّ نصرٍ جديد فرصةً لجعل الحاسدين يَتَلَوَّوْن، فيصبح حظُّك الطيبُ وسلطتُك جحيمَهُم الحيّ. فإنْ حصلت على منصب سلطة لا يرقى إليه الشك، فإنَّ حسدهم لن يؤثر عليك، وستحصل على أحسن انتقام: لأنك ستكون واقعاً في فخ الحسد، ولكنك حرٌّ في سلطتك.

فهكذا انتصر مايكل آنجيلو على المهندس المعماري الحقود بْرَامَانتِي الذي حرض البابا جوليوس ضد تصميم مايكل آنجيلو لقبره. فقد كان برامانتي يحسد مايكل آنجيلو على مواهبه الشبيهة بالإلهية، وإلى هذا الانتصار ـ بإفشال مشروع الضريح. فكّر برامانتي بإضافة انتصارٍ آخر، عن طريق دفع البابا إلى توصية مايكل آنجيلو برسم اللوحات الجدارية لكنيسة سِيسْتين. فالمشروع سيستغرق أعواماً لا ينجز أثناءها مايكل آنجيلو مزيداً من منحوتاته الرائعة. وبالإضافة إلى ذلك لم يكن برامانتي يعتقد أن براعة مايكل آنجيلو في الرسم تعادل براعته في النحت. وبذلك فإن عمله في الكنيسة سيتلف صورته كفنان كامل.

ورأى مايكل آنجيلو الفخ فأراد أن يرفض الطلب، ولكنه لم يكن قادراً على رفض طلبٍ للبابا، فقبله بلا تذمّر. غير أنه استخدم حسد برامانتي كحافز يصعد به إلى ارتفاعات أعلى، فجعل رسومه في تلك الكنيسة أكمل أعماله كلها. وفي كل مرة سمع بها برامانتي أو رآها كان يقهره حَسَدُهُ ـ وهذا أحلى وأدوم انتقام يمكنك إنزاله بالحاسد.

فيها محسودُه صوتَ المديح طيلة حياته؛ وخلودُ شهرة الأخير هو المؤشر لمقدار عقوبة الأول. فالمحسود خالد في مجده، والحاسد في تعاسته. وبوق الشهرة الذي يصدح بخلود الأول يبشر بموت الآخر، المحكوم عليه بالاختناق بحسده حتى الموت.

بلثازار غراسيان
1601 ـ 1658

القانون

47

لا تتجاوز العلامة التي استهدفتَها وفي النصر، إِعْرِفْ متى تتوقف

الحكم

كثيراً ما تكون لحظة الانتصار هي لحظة الخطر الأكبر. ففي قلب الانتصار قد تدفعك الغطرسة والثقة المفرطة إلى ما وراء الهدف الذي وضعته نُصْبَ عينيك. وبالذهاب إلى أبعد مما ينبغي، فإنك تخلق أعداءً أكثر من الذين تدحرهم. فلا تدع النجاح يدير رأسك. إذْ لا بديل عن الاستراتيجيّة والتخطيط الحريص. ضع نُصْبَ عينيك هدفاً، وعندما تصل إليه، توقف.

انتهاك القانون

في سنة 559 قبل الميلاد، جمع شابٌّ يدعى كورش جيشاً ضخماً من قبائل فارس المبعثرة، وزحف به ضد جده آستياجس ملك الميديّين. فدحر آستياجس بسهولة، وتوج نفسه ملكاً على ميديا وفارس، وشرع في تكوين الإمبراطورية الفارسية. وتوالت انتصاراته في تتابع سريع. فدحر كرويسوس، حاكمَ ليديا (غربي آسيا الصغرى)، ثم غزا الجزر الأيونيّة (غربي اليونان) وممالك أخرى أصغر منها؛ وزحف على بابل فسحقها. وعندئذٍ راح يعرف بلقب كورش الأكبر، ملك العالم.

وبعد الاستيلاء على ثروات بابل، صَوَّبَ نظره إلى الشرق، إلى قبائل الماساجيتاي نصف الهمجية، ومملكتهم الشاسعة على بحر قزوين. وكانوا جنساً محارباً شرساً بقيادة الملكة توميريس. وكانت تنقصهم ثروات بابل. ولكن كورش قرر مهاجمتهم على أية حال، معتقداً أنه فوق البشر وغير قابل للهزيمة، ولذا فسوف يسقط الماساجيتاي أمام جيوشه الجرارة، مما يجعل إمبراطوريته هائلة.

وهكذا زحف كورش في سنة 529 ق .م، نحو نهر آراكسيس العريض، بوابة مملكة الماساجيتاي. وحالما أقام معسكره على ضفته الغربية تلقى رسالة من الملكة توميريس تقول له فيها: «يا ملك الميديين، أنصحك بالتخلّي عن هذا المشروع، لأنك لا تدري إن كان سينفعك بأي شيء في آخر الأمر. فاحكم شعبك، وحاول أن تتحمل رؤيتي وأنا

الديك المغرور

تشاجر ديكان على مزبلة. وكان أحدهما أقوى من الآخر، فتغلّب عليه وطرده من على المزبلة.

فتجمعت الدجاجات كلها حول ذلك الديك وراحت تمتدحه. وأراد الديك أن تُعْرَفَ قوتُهُ وأمجاده في الساحة المجاورة، فطار إلى قمة مخزن الغلال، وأخذ يصفق بجناحيه ويصيح بصوتٍ عالٍ: «انظروا إليّ جميعاً. أنا الديك المنتصر. وليست لأي ديك آخر في العالم قوة كقوتي هذه».

ولم يكد الديك ينتهي حتى انقض عليه نسر قتله وأمسك به في مخالبه، وحمله إلى عشه،

خرافات
ليو تولستوي،
1828 - 1910

أحكم شعبي. ولكنك بالطبع سترفض نصيحتي، لأن آخر شيء تتمناه هو أن تعيش في سلام». وكانت توميريس واثقة من قوة جيشها، ولا ترغب في تأجيل المعركة المحتومة، فعرضت سحب قواتها من جانبها من النهر، متيحةً لكورش أن يعبر مياهه بسلام ليقاتل جيشها على الضفة الشرقية، إن كانت تلك رغبته.

فوافق كورش، ولكن بدلاً من الاشتباك مع العدو مباشرة، قرر أن يمارس خدعة. كان الماساجيتاي لا يعرفون إلاَّ قليلاً من الكماليات الباذخة. وما إن عبر كورش وأقام معسكره على الضفة الشرقية، حتى وضع مائدة ضخمة لوليمة متقنة، مليئة باللحوم والأطايب والأفاوية والشراب القويّ. ثم ترك أضعف جنوده في المعسكر، وانسحب مع باقي الجيش نحو النهر. وسرعان ما هاجمت المعسكر مفرزة كبيرة من جنود الماساجيتاي، فقتلت الجنود الفارسيين جميعاً في معركة طاحنة، ثم غلبت عليهم شهوتهم للوليمة الخرافية المتروكة، فأكلوا وشربوا كل ما طاب لهم. وناموا بعد ذلك حتماً. فعاد الجيش الفارسي إلى المعسكر تلك الليلة، وقتل كثيراً من الجنود النائمين، وأسر الباقين. وكان من بين الأسرى قائدهم الجنرال الشاب، سْبَارْغابِيزِيسْ، ابن الملكة توميريس.

وعندما علمت الملكة بما حدث، أرسلت برسالة إلى كورش توبِّخه فيها على استعمال الخُدَع لدحر جيشها، وكتبت تقول: «أنصت إليّ الآن وسأنصحك لمصلحتك نفسها: أعد إليَّ ابني، واترك بلدي ومعك قواتك سليمة متماسكة. واقنع بنصرك على ثلث الماساجيتاي. فإذا رفضت فإنني أقسم بإله الشمس سيدنا أن أعطيك دماً أكثر مما تستطيع شربه، رغم كل شراهتك». فسخر منها كورش. ورفض إطلاق سراح ولدها. وصمم على سحق هؤلاء الهمج.

وعندما رأى ابن الملكة أنه لن يطلق سراحه، لم يُطِق الإذلال، فقتل نفسه. وعندما علمت توميريس بموت ابنها أغرقها الخبر في الحزن والغضب. فجمعت كل القوات التي استطاعت حشدها في مملكتها،

وأثارت حماسها بهوس الانتقام، واشتبكت مع قوات كورش في معركة عنيفة ودامية. وأخيراً انتصر الماساجيتاي، وفي غمرة غضبهم مزقوا الجيش الفارسي شرّ ممزق، وقتلوا كورش نفسه.

وبعد المعركة، بحثت توميريس وجنودها في الميدان عن جثة كورش. وعندما وجدتها قطعت الرأس ودسته في زِقٍّ جلديٍّ للشراب ممتلىءٍ بالدم البشري، صائحةً: «رغم أنني انتصرت عليك، وأعيش الآن، فإنك قد دمّرتني بأخذ ولدي عن طريق الغدر. وانظر كيف أنفذ تهديدي، فلديك ما يشبعك من الدم». وبعد موت كورش، انحلت الإمبراطورية الفارسية بسرعة. وهكذا أدى عمل متغطرس واحد إلى تخريب كل عمل كورش الطيب السابق.

مسلسل الاستجواب

في كل استجواباتك... دعني أكرر أن أهم شيء هو أن تكون متنبهاً على الدوام إلى المكان الذي يحسن بك التوقف عنده. فلا شيء يمكن أن يكون أهم من اختام استجوابك بانتصار. فكثير من المحامين ينجحون في الإمساك بالشاهد وهو يناقض نفسه تناقضاً خطراً؛ ولكنهم لا يكتفون بذلك، فيستمرون في طرح الأسئلة، بحيث تتناقص قوة استجوابهم تدريجياً إلى أن يفقدوا التأثير الذي أحدثته ميزتهم السابقة على المحلفين.

فن الاستجواب
فرانسيس ل. ويلمان، 1913

التفسير

لا شيء يُسْكِرُ أكثر من النصر، ولا شيء أخطر من ذلك.

كان كورش قد بنى إمبراطورية كبرى على أنقاض إمبراطورية سابقة. فقبل ذلك بمائة سنة دُمِّرت الإمبراطورية الآشورية القوية تدميراً كلّيّاً. وتحولت عاصمتها الرائعة نينوى إلى ركام في الرمال. وقد عانى الآشوريون من هذا المصير لأنهم اندفعوا أكثر مما ينبغي، فدمروا مدينةً ـ دولةً بعد أخرى، حتى فقدوا الإحساس بالغاية من انتصاراتهم، وبتكاليفها كذلك. فتمددوا أكثر من طاقتهم، وخلقوا لأنفسهم أعداء كثيرين تمكنوا آخر الأمر من الاعتصاب معاً ضدهم فدمّروهم.

وتجاهل كورش درس آشور. فلم يعبأ بتحذيرات الكهنة والمستشارين. ولم يقلق بشأن إهانة ملكة. وأدارت رأسَه انتصاراتُهُ الكثيرةُ، فلبّدت ذهنه بالغيوم. وبدلاً من تعزيز إمبراطوريته المتسعة أصلاً، اندفع إلى الأمام. وبدلاً من إدراك كون كل وضع مختلفاً عما سبقه، فقد ظنّ أن كل حرب جديدة ستأتي بالنتائج نفسها التي جاءت بها

سابقتها ما دام يستخدم الأساليب التي يعرفها، وهي القوة التي لا ترحم والخديعة الماكرة.

إفهم: في مملكة السلطة، يجب أن تسترشد بالعقل. فإذا تركت النشوة المؤقتة أو النصر العاطفي يؤثران فيك أو يقودان حركاتك فسيكون في ذلك مقتلك. وعندما تحقق نجاحاً تراجع خطوةً إلى الوراء. وكُنْ حذراً. وعندما تكسب نصراً، إفهم الدور الذي لعبته فيه الظروف الخاصة بوضع مّا. وإياك أن تكرر الأعمال نفسها مرة بعد أخرى. فعلى امتداد التاريخ تتناثر أنقاض إمبراطوريات كانت منتصرة، وجثث قادة لم يستطيعوا أن يتعلموا كيف يتوقفون ويعززون مكاسبهم.

مراعاة القانون

لم يحتل شخص في التاريخ مكانة أضعف ولا أكثر تقلقلاً من مكانة عشيقة الملك. فليست لديها قاعدة سلطة حقيقية أو مشروعة ترتد إليها في أوقات المشاكل أو المتاعب؛ وتحاط العشيقة بقطعان من رجال الحاشية الذين يتوقعون سقوطها من الحظوة بتشوق، وأخيراً، فبما أن مصدر سلطاتها، في العادة، هو جمالها الجسدي، فإن ذلك السقوط محتوم وبغيض لمعظم العشيقات الملكيات.

بدأ ملك فرنسا لويس الخامس عشر يقتني عشيقات رسميات في أوائل أيام عهده. ونادراً ما كان الحظ السعيد لكل امرأة يدوم أكثر من بضع سنين. ثم جاءت مدام دي بومبادور، التي أخبرها عراف أنها ستكون محظية الملك ذات يوم، وذلك عندما كانت طفلة في التاسعة من عمرها تُدْعَى جين بواسّون. فَبَدا ذلك في حينه حلماً سخيفاً، إذْ أنَّ العشيقة الملكية كانت تأتي من الطبقة الأرستقراطية بصورة تكاد تكون دائمة. ومع ذلك فقد آمنت جين بأن من المقدر لها أن تغوي الملك، وسيطرت عليها تلك الفكرة كالهاجس. فعكفت على تدريب نفسها لاكتساب المواهب التي يتعين على محظية الملك أن تملكها ـ من إتقان

الجنرال المتطاول

إننا نقرأ عن أمثلة كثيرة من هذا النوع. فالجنرال الذي يغزو دولة لصالح سيده، ويحرز لنفسه مجداً عظيماً بانتصاره على عدوّه، والذي يحمّلُ جنودَه غنائمَ وفيرة، يكسب بالضرورة عند جنوده وجنود عدوّه ورعايا أميره شهرة عالية إلى درجة قد تجعل نصره منافياً للذوق مثيراً للاشمئزاز وسبباً في تخوف أميره. فبما أن من طبيعة البشر أن يكونوا طموحين، وكذلك شكّاكين، وأن المرء لا يرى حدوداً لحظه السعيد، فإنه ليس من المستحيل أن تثور شكوك مفاجئة في ذهن الأمير نتيجة انتصار الجنرال، فتزيد حدتها بسبب تعبير متعجرف، أو أعمال وقحة يقوم بها ذلك الجنرال. بحيث يصبح من الطبيعي أن يبدأ الأمير بالتفكير في تأمين نفسه ضد طموح جنراله.

ولتحقيق ذلك، فإن الوسائل التي تخطر بباله هي إمّا أن يتسبب في مصرع ذلك الجنرال، أو أن يحرمه من تلك السمعة التي كسبها بجيش الأمير وشعبه، فيستخدم الأمير كل وسيلة للبرهنة على أن انتصار الجنرال لم ينجم عن براعته وشجاعته، بل بفعل الحظّ والمصادفة وجبن العدوّ، أو لفطنة الضباط الآخرين الذين كانوا معه في تلك العملية.

نيقولو ماكيافيللي
1527 ـ 1469

للموسيقى، والرقص، والتمثيل، وركوب الخيل. وتفوق في كل واحدة منها. وتزوجت في شبابها رجلاً من طبقة النبلاء الدنيا، مما فتح لها مدخلاً إلى أفضل صالونات باريس. وسرعان ما انتشر خبر جمالها، وموهبتها، وجاذبيتها، وذكائها.

وصارت جين بواسون صديقة مقربة لفولتير، ومونتيسيكيو وغيرهما من الأدمغة العظيمة في ذلك العصر. ولكنها لم تفقد أبداً رؤية الهدف الذي حددته لنفسها من أيام طفولتها. وهو أسر قلب الملك. وكان لزوجها قصر في غابة كان الملك كثيراً ما يقصدها للصيد، فبدأت تمضي كثيراً من وقتها هناك. وراحت تدرس حركات الملك كالصقر، وتحرص على أن يلتقي بها «صدفةً» وهي تتنزه ماشية في أكثر ثيابها إغراءً، أو راكبةً عربتها الفخمة. وبدأ الملك يلاحظها، ويهديها من القنائص التي يمسكها في الصيد.

وفي سنة 1744، ماتت عشيقة لويس المقتناة، الدوقة شاتورو. فانتقلت جين إلى الهجوم. فراحت تضع نفسها في كل مكان يتواجد فيه الملك: في الحفلات التنكرية المقنَّعة في فرساي، وفي دار الأوبرا، وفي أي مكان يتقاطع فيه طريقاهما، وحيث تستطيع عرض مواهبها المتعددة من رقص، وغناء، وركوب خيل، وغنج. وأخيراً خضع الملك لمفاتنها. وفي حفلة في فرساي في شهر أيلول/ سبتمبر سنة 1745، تم تدشين ابنة الوكيل المصرفي من الطبقة الوسطى رسمياً كعشيقة للملك، وكانت في الرابعة والعشرين. فأُعْطِيَتْ غرفةً خاصةً في القصر، غرفةً يستطيع الملك دخولها في أي وقت يشاء عن طريق مدرج خفي وباب خلفي. ونظراً لأن بعض رجال الحاشية قد غضبوا لاختياره امرأة من أصول متواضعة، فقد جعل منها مركيزة. ومنذ ذلك الحين فصاعداً أخذت تُعْرَفُ باسم مدام دي بومبادور.

وكان الملك رجلاً يتضايق من أدنى شعور بالسأم مضايقة هائلة غير متناسبة في حجمها مع ما يضايقه. وعرفت مدام دي بومبادور أن إبقاءه

تحت سحرها كان يعني إبقاءه متسلياً أو مستمتعاً. ولهذا الغرض راحت تقيم عروضاً مسرحية متواصلة كانت هي نجمتها في ڤرساي. وترتب حفلات صيدٍ وقنص متقنة وحفلات تنكرية، وأي شيء آخر للمحافظة على لهوه خارج المخدع. وصارت راعية للفنون، ومحكّمة في الأذواق والأزياء في جميع أنحاء فرنسا. ولم ينجم عن كل نجاح جديد لها إلاَّ زيادة عدد أعدائها في البلاط. ولكن مدام دي بومبادور أخذت تقاومهم بطريقة جديدة كلياً على عشيقة ملك: أي بتهذيب شديد للغاية. أما النفاجون المتكبِّرون الساخطون على مولدها الوضيع، فقد كسبتهم بالفتنة الساحرة والكياسة الآسرة. وكان أكثر الأمور خروجاً عن المعتاد مصادقتها للملكة، وإصرارها على أن يبدي الملك اهتماماً أكبر بزوجته، ويعاملها بعطف أكثر. وحتى الأسرة المالكة أعطتها تأييدها على مضض رغم حسدها لها. وتتويجاً لمجدها، جعلها الملك دوقة. فراح الناس يشعرون بوطأة نفوذها حتى في السياسة. بل لقد أصبحت وزيرة الشؤون الخارجية الفعلية دون أن تحمل هذا اللقب.

وفي سنة 1751، عندما كانت مدام دي بومبادور في أوج سلطانها، وقعت في أَسْوَءِ أزماتها. فقد ضعفت جسدياً من مسؤوليات منصبها وبدأت تجد صعوبة متزايدة في تلبية طلبات الملك في الفراش. كانت هذه في العادة هي النقطة التي تلقى عندها العشيقة نهايتها، وهي تكافح للحفاظ على مكانتها بينما جمالها آخذ في الذبول. ولكن مدام دي بومبادور كانت لديها استراتيجية. فشجعت الملك على إقامة نوع من المواخير، في متنزه بارك أوسيرف، على أرض ڤرساي. وهناك كان الملك ـ الذي وصل إلى منتصف عمره ـ يستطيع أن يقيم علاقات مع أجمل الفتيات في المملكة.

وكانت مدام دي بومبادور تعرف أن فتنتها، وفطنتها السياسية، قد جعلتا الملك لا يستطيع الاستغناء عنها. إذْ ما الذي كان لديها لتخشاه من فتاة في السادسة عشرة من عمرها، ليست لديها سلطتها أو حضورها؟

كان رجل مشهور كمتسلق للأشجار يقود شخصاً آخر في تسلق شجرة عالية؛ فأمره بقطع الأغصان العليا. وفي تلك الأثناء، عندما بَدَا أن ذلك الشخص كان في خطر عظيم، لم يقل الخبير شيئاً. ولم يتكلم إلاَّ عندما كان الرجل نازلاً، وقد وصل في نزوله إلى ارتفاع الإفريز، فصاح به الخبير: «كُنْ حذراً، وراقب خطوتك في نزولك!». فسأله: «لماذا قلتَ له ذلك؟ إنه عند ذلك الارتفاع كان يستطيع أن يقفز إلى الأرض فيكمل نزوله بسهولة إذا شاء».

فقال الخبير: «تلك هي المسألة. فعندما كان الرجل على ارتفاع مدوّخ وكانت

وماذا يهم إذا فقدت مكانتها في غرفة النوم، ما دامت قد بقيت أقوى امرأة في فرنسا؟ ولضمان تلك المكانة زادت في توثيق صداقتها مع الملكة، التي بدأت في الذهاب معها إلى الكنيسة. ورغم أن أعداءها في البلاط شرعوا يتآمرون لإسقاطها من منصبها الرسمي كعشيقة للملك، فقد استمر الملك يحتفظ بها، لأنه كان بحاجة إلى تأثيرها الساحر. ولم تنسحب مدام دي بومبادور من الشؤون العامة ببطء إلاَّ عندما اجتذبت نقداً شديداً لدورها في كارثة حرب السنوات السبع (1756 ـ 1763).

وكانت صحة مدام دي بومبادور ضعيفة هشة على الدوام، فماتت وهي في الثالثة والأربعين، في سنة 1764، بعد أن استغرق عهدها كعشيقة عشرين عاماً، وهذه مدة لم يسبق لها مثيل. وكتب عنها الدوق دي كروي: «وتأسف عليها الجميع، لأنها كانت عطوفة تساعد كل شخص يقصدها».

الأغصان مهددة بالانكسار، فقد كان شديد الخوف إلى درجة أنني لم أقل شيئاً. إن الأخطاء ترتكب دائماً عندما يصل الناس إلى الأماكن السهلة».

كان ذلك الخبير منحدراً من أدنى الطبقات. ولكن كلماته كانت تتمشى على نحو كامل مع مفاهيم الحكماء. وفي كرة القدم أيضاً، يقولون إنك بعد أن تركل الكرة فتخرجها من مكان صعب، وتعتقد أن الكرة التالية ستكون أسهل من الأولى، فمن المؤكد أنك ستخطىء وتضيعها

مقالات في التبطل
كينكو، اليابان،
القرن الرابع عشر

التفسير

كانت عشيقة الملك تعي أن سلطتها مؤقتة. فكثيراً ما كان يصيبها نوع من السعار بعد أسرها للملك: فتحاول تجميع أكبر كمية ممكنة من المال لتحميها بعد سقوطها المحتوم. ولكي تمدد عهدها إلى أطول فترة ممكنة، كانت تعامل أعداءها في البلاط بلا رحمة. وبعبارة أخرى، فقد كان يبدو أن وضعها يتطلب منها طمعاً وحقداً انتقامياً يكون من شأنهما تحطيمها في غالب الأحيان. وقد نجحت مدام دي بومبادور حيث فشلت الأخريات جميعاً لأنها لم تدفع حظها السعيد أو تضغط عليه أبداً. وبدلاً من التنمُّر على رجال الحاشية من موقع سلطتها كعشيقة للملك، حاولت أن تكسب تأييدهم. ولم تكشف عن أقل لمحة من الطمع أو الغطرسة. وعندما لم تعد قادرة على أداء واجباتها الجسدية كعشيقة، لم تقلقها فكرة حلول واحدة أخرى محلها في الفراش. بل طبقت نوعاً من الخطط الاستراتيجية ببساطة ـ فقد شجعت الملك على اتخاذ عشيقات شابات، عارفةً بأنهن كلما كنَّ أجمل وأصغر سناً، قلّ التهديد الذي يمثّلنه لها، ما

دمن غير قادرات على منافستها في السحر والفتنة والحنكة، وسرعان ما يسأم منهن الملك.

والنجاح يمارس خدعات غريبة على العقل. فيجعلك تشعر بأنك قوي لا تُقْهَر، كما يجعلك أكثر عدوانية وعاطفية عندما يتحدى الناس سلطتك. كما يجعلك أقل قدرة على التكيف للظروف. فتبدأ بالاعتقاد بأن شخصيتك مسؤولة عن نجاحك أكثر من استراتيجيتك وتخطيطك. إنك بحاجة إلى أن تدرك ـ كما أدركت مدام دي بومبادور. أن لحظة انتصارك هي أيضاً اللحظة التي يتعين عليك أن تعتمد فيها على مكرك واستراتيجيتك أكثر من ذي قبل، كي تعزز قاعدة سلطتك، وتدرك دور الحظ والظروف في نجاحك، وتبقى يقظاً إزاء التغييرات في حظك السعيد. ففي لحظة الانتصار بالذات تحتاج إلى ممارسة دور رجل الحاشية، وإبداء اهتمام بقوانين السلطة أكثر من أي وقت مضى.

يأتي الخطر الأعظم في لحظة الانتصار.

(نابليون بونابرت، 1769 ـ 1821)

مفاتيح السلطة

للسلطة إيقاعاتها وأنماطها الخاصة بها. والذينَ ينجحون في اللعبة هم الذين يتحكمون بالأنماط وينوعون فيها على هواهم، فَيُبْقون الناسَ غير متوازنين بينما هم يضعون الإيقاع ويضبطونه. وجوهر الاستراتيجية هو التحكم بما هو قادم فيما بعد، بطريقتين. أولاً: أنت مدين بنجاحك إلى نمطٍ أنت حريٌّ بأن تحاول تكراره. وستحاول أن تظل تتحرك في الاتجاه ذاته دون أن تتوقف لترى ما إذا كان هذا لا يزال هو الاتجاه الأفضل لك. وثانياً: يميل النجاح إلى إدارة رأسك وجعلك عاطفياً. فعند شعورك بأنك حصين تقوم بحركات عدوانية تهدم في آخر الأمر الانتصار الذي كسبته.

والدرسُ بسيط: ينوّع الأقوياءُ ذوو السلطة في إيقاعاتهم

وأنماطهم، ويغيرون مساراتهم، ويتكيفون لظرفهم، ويتعلمون الارتجال لتدبير الأمور. وبدلاً من ترك أقدامهم الراقصة تدفعهم إلى الأمام، يَخْطُونَ إلى الخلف وينظرون إلى أين هم ذاهبون. وكأن مجرى دمهم يحمل ترياقاً مضاداً لِسَكْرَةِ النصر، يتيح لهم أن يسيطروا على عواطفهم ويتوصلوا إلى نوع من الوقفة العقلية عند حصولهم على النجاح، فيثبتون أنفسهم ويعطون أنفسهم مجالاً للتأمل فيما قد حدث، وتَفَحُّصِ دور الظروف والحظ في نجاحهم.

إن الحظ والظرف يلعبان دائماً دوراً في السلطة. فهذا محتوم وهو في الحقيقة يجعل اللعبة أكثر إثارة للاهتمام. ولكن رغم ما قد تفكر به، فإن الحظ الجيد أخطر من الحظ السَّيِّىء. لأن الحظ السَّيِّىء يعلم دروساً ثمينة في الصبر، والتوقيت؛ والحاجة إلى أن يكون المرء مستعداً، لأسوأ الاحتمالات. أما الحظ الجيد فيخدعك بالدرس المعاكس، فيجعلك تظن أن ألمعيتك ستمكّنك من العبور. غير أن حظك سينقلب حتماً. وعندما يفعل فلن تكون مستعداً تمام الاستعداد.

وعند ماكيافيللي أن هذا هو ما أسقط سيزار بورجيا. فقد كسب انتصاراتٍ كثيرة، وكان بالفعل استراتيجياً بارعاً، ولكن كان من سوء حظه سعيدَ الحظّ. فقد كان أبوه بابا، ثم عندما ساء حظه بصورة حقيقية ـ بموت أبيه ـ لم يكن مستعداً لذلك. فقام الأعداء الذين خلقهم لنفسه بالتهامه. إن الحظ السعيد الذي يرفعك أو يختم على نجاحك يأتيك باللحظة التي يتعين عليك فيها أن تفتح عينيك: إذ إن عجلة الحظ ستقذف بك إلى الأسفل كما رفعتك إلى الأعلى بالسهولة نفسها. فإذا تَهَيَّأْتَ للسقطة، فإنك ستقلل احتمال تدميرها لَكَ عند حدوثها.

والناس الذين تصيبهم نوبة من النجاح يمكن أن يصابوا بنوع من الحُمَّى. وحتى عندما يحاولون أن يظلوا هادئين، فإن الذين دونهم كثيراً ما يضغطون عليهم كي يتجاوزوا علامتهم ويخوضوا في مياه خطرة. وعليك أن تملك استراتيجية التعامل مع هؤلاء الناس. لأن الاكتفاء

بالتبشير بالاعتدال سيجعلك تبدو ضعيفاً وصغير العقل؛ فمظهر العجز عن المتابعة بعد الانتصار يمكن أن يقلل من سلطتك.

عندما قام الجنرال والسياسي الأثينيّ بيريكليس بقيادة سلسلة من الحملات حول البحر الأسود في سنة 436 ق .م، أدت انتصاراته السهلة إلى إشعال رغبة الأثينيين إلى المزيد. فراحوا يحلمون بغزو مصر، واجتياح فارس، والإبحار إلى صقلية. فقام بريكليس من جهة بلجم هذه العواطف الخطرة بالتحذير من خطر العجرفة والثقة المفرطة. ومن جهة أخرى غذّى الناس بخوض معارك صغيرة كان يعلم أنه قادر على كسبها، فخلق مظهراً من المحافظة على زخم النجاح. وتكشفت براعة بريكليس في ممارسة هذه الألعاب عندما مات. فقد استولى الغوغائيون على الأمور، فدفعوا أثينة إلى مهاجمة صقلية، وهكذا بحركة متهورة واحدة، دمّروا إمبراطورية.

وكثيراً ما يتطلب إيقاع السلطة مراوحةً بين العنف والدهاء. فالقوة أكثر مما ينبغي تخلق رد فعل معاكس. والدهاء الزائد عن الحد، مهما بلغت درجة مَكْرِهِ، يصبح التنبؤ به سهلاً. فعندما كان الجنرال اليابانيّ (والإمبراطور فيما بعد) العظيم هيديوشي يعمل في القرن السادس عشر باسم سيده الحاكم العسكري أودانوبوناغا، هندس ذات مرة انتصاراً مدوخاً على جيش الجنرال الرهيب يوشيموتو. فأراد الحاكم العسكري أن يذهب إلى أبعد من ذلك بأن يتحدى عدواً قوياً آخر ويسحقه. ولكن هيديوشي ذكّره بالمثل الياباني القائل: «عندما تكسب نصراً، أَحْكِمْ ربطَ خيوط خوذتك». وبالنسبة لهيديوشي كانت هذه هي اللحظة التي ينبغي فيها على الحاكم العسكري أن يَسْتَبْدِلَ بالقوة الدهاءَ والعملَ غير المباشر. فيسلط أعداءه ضد بعضهم بعضاً من خلال سلسلة من التحالفات الخداعة. وبهذه الطريقة يتجنب إثارة معارضة لا حاجة له بها بالظهور بمظهر شخص عدوانيّ أكثر مما ينبغي. ولذا فعندما تكون منتصراً تجنب البروز إلى العيان، مع بقائك مستعداً سراً للعمل، وبذلك

تهدهد العدو ليستنيم ويخمد. إن هذه التغييرات في الإيقاع قوية للغاية.

والناس الذين يتجاوزون العلامة كثيراً ما تحفزهم على ذلك الرغبة في إرضاء سيد بإظهار تفانيهم. ولكن الإفراط في بذل الجهد يعرضك لخطر جعل السيد يشكّ فيك. ففي مناسبات عديدة، كان الجنرالات تحت حكم فيليب المقدوني يطردون وتخفض رتبهم مباشرةً بعد قيادتهم لقواتهم إلى نصر عظيم. إذ كان فيليب يعتقد أن نصراً آخر كهذا سيحول مثل هذا الجنرال إلى منافس بدلاً من مرؤوس. فعندما تكون في خدمة سيد، فإن من الحكمة أن تقيس انتصاراتك بحرص ودقة، بحيث تدعه هو يحصل على المجد، ولا تسبب له ضيقاً أو حرجاً على الإطلاق. ومن الحكمة أيضاً أن تقيم نمطاً للطاعة الصارمة كي تكسب ثقته. ففي القرن الرابع قبل الميلاد، قام نقيبٌ تحت إمرة الجنرال الصيني القاسي سيِّء الصيت وو شِئِي بالسبق بالهجوم قبل أن تبدأ المعركة، وعاد بعدة رؤوس من الأعداء. وظنّ أنه بذلك قد أظهر حماسه الناريّ. ولكن وو شِئِي لم يعجبه هذا العمل. فقال وهو يتنهد ويأمر بقطع رأس الرجل: «إنه ضابط موهوب، ولكنه متمرد».

وقد تأتي لحظة أخرى، يُفْسِدُ فيها نجاحٌ صغير، فرصاً لنجاح أكبر منه إذا أسدى إليك سيدك أو رئيسك معروفاً. فَطَلَبُ المزيد بعدئذٍ غلطةٌ خطرة، فسوف تبدو غير آمن ـ ولعلك تشعر بأنك لا تستحق المعروف، وتجد نفسك مضطراً إلى تلقف أكبر قدر مستطاع بينما الفرصة سانحة أمامك، وقد لا تأتي ثانيةً. إن الردّ اللائق هو أن تقبل المعروف بكياسة ولطف ثم تنسحب. وأي ضروب من المعروف لاحقة يجب عليك أن تكسبها دون حاجة إلى طلبها.

وأخيراً، فإن اللحظة التي تتوقف فيها لها أهمية مسرحية عظمى. فما يأتي في خاتمة المطاف يلتصق بالذهن كنوع من علامات التعجب. وليس هناك وقت للتوقف والانصراف أفضل من الوقت الذي يلي النصر. فإذا تابعت الحركة بعد ذلك، فإنك تخاطر بتقليل الأثر

والفاعلية، بل قد ينتهي بك الأمر إلى الاندحار. وكما يقول المحامون في التحقيق: «دائماً توقف مع تسجيل النصر».

صورة: إيكاروس ساقطاً من السماء
يصمم أبوه دايدالوس جناحينمن الشمع يسمحان للرجلين بالطيران خارج المتاهة والهرب من المينوطور. وفرح إيكاروس بالهرب الظافر واعتراه تيهٌ من الشعور بالطيران فحلق أعلى فأعلى حتى أذابت الشمس شمع أجنحته نسقط في البحر ومات.

الشاهد: على الأمراء والجمهوريات أن يقنعوا بالنصر، فإذا استهدفوا شيئاً أكثر فإنهم يخسرون على وجه العموم. إن استخدام لغة مهينة إزاء العدو، ينشأ من غطرسة النصر، أو من الأمل الزائف بالنصر، مما يضلّل الرجال فيما بعد، سواء في أفعالهم أم في أقوالهم؛ فعندما يستولي هذا الأمل الزائف على العقل، فإنه يجعل الرجال يتجاوزون العلامة، ويضحون بشيء جيد حاصل ومؤكد في سبيل شيء أفضل ولكنه غير مؤكد.

(نيقولو ماكيافيللي، ١٤٦٩ ـ ١٥٢٧)

الانقلاب

كما يقول ماكيافيللي: إمّا أن تدمّر شخصاً مّا، أو أن تتركه وشأنه تماماً. إذْ إن إيقاع نصف عقوبة أو جرح طفيف لا ينجم عنه إلاّ خلق عدو تنمو مرارته بمرور الزمن، وهو سوف ينتقم. وإذن فعندما تهزم

عدواً، اجعل نصرك كاملاً، فاسحقه بإعدام وجوده. ففي لحظة النصر، أنت لا تمنع نفسك من سحق العدو الذي هزمته، ولكن من التقدم بلا ضرورة إلى أعداء آخرين. كُنْ بلا رحمة مع عدوك، ولكن لا تخلق أعداءاً جديدين بالتمدد أكثر من اللازم.

هناك بعضٌ من الناس يصبحون أكثر حذراً من ذي قبل بعد الحصول على نصر، فلا يرون فيه إلاً أنه يعطيهم مزيداً من الممتلكات ليقلقوا عليها ويحموها. غير أن حذرك بعد النصر، ينبغي أن لا يجعلك تتردد، أو تفقد زخم الحركة، بل تصرّف بما يضمن عدم اتخاذ إجراء متهور. ومن جهة أخرى، فإن الزخم كظاهرة يُبَالَغُ في تقديره كثيراً. فأنت تخلق نجاحاتك. فإذا تلاحقت واحداً بعد الآخر، فهذا من عملك أنت. فالإيمان بالزخم لن يؤدي إلاً إلى جعلك عاطفياً أكثر، وأقل عرضة للتصرف على نحو استراتيجي، وأكثر قابلية لتكرار الأساليب نفسها. فاترك الزخم لمن ليس لديهم شيء أفضل يعتمدون عليه.

القانون

48

اتخذ هيئة لا شكل لها

الحكم

عند اتخاذك شكلاً مَا، وامتلاكك لخطّةٍ مرئية، فإنك تكشف نفسك للهجوم. فبدلاً من اتخاذ شكل يمسك به عدوك، ابقِ نفسك قابلاً للتكيُّف، ومتحركاً. وتقبل حقيقة عدم وجود شيء مؤكد، وعدم وجود قانون ثابت. فأفضل طريقة لحماية نفسك هي أن تكون سائلاً وبلا شكل كالماء. وإياك أن تراهن على الاستقرار أو النظام الباقي الدائم. فكل شيء يتغير.

انتهاك القانون

عند حلول القرن الثامن قبل الميلاد، كانت المدن ـ الدول الإغريقيّة قد اتسعت وازدهرت بحيث لم تبقَ لديها أرض تعيل سكانها المتزايدين. وهكذا اتجهت إلى البحر، فأقامت مستعمراتٍ في آسيا الصغرى، وصقلية، وشبه الجزيرة الإيطالية، وحتى إفريقية. غير أن مدينة ـ دولة إسبارطه كانت محصورة داخل اليابسة ومحاطة بالجبال. وبما أنه لم يكن لديها منفذ إلى البحر، فإن الإسبارطيين لم يصبحوا شعباً مِلاَحيّاً قطّ؛ وبدلاً من ذلك استداروا إلى المدن التي حولهم؛ وفي سلسلة من النزاعات الوحشية العنيفة التي استمرت أكثر من مائة عام، تمكنوا من غزو منطقة هائلة تعطيهم أرضاً كافية لمواطنيهم. غير أن هذا الحل لمشكلتهم جلب عليهم مشكلة أخرى رهيبة أكثر. فكيف يستطيعون الحفاظ على مناطقهم المغزوّة والسيطرة على الأمن فيها؟ فالشعوب التابعة التي يحكمونها كانت تزيد عنهم عددياً بنسبة عشرة إلى واحد. فمن المؤكد أن هذا الحشد سينتقم منهم انتقاماً رهيباً.

من المهم في الفنون العسكرية أن يكون من المستحيل سبر غور الخطة الاستراتيجية، وأن يتم إخفاء الشكل، وأن تكون الحركات غير متوقعة كي يكون الاستعداد ضدها مستحيلاً. إن ما يمكّن القائدَ الجيد من النصر بلا فشل هو أن تكون لديه دائماً حكمة عميقة، وأسلوب عملياتٍ لا يترك آثاراً تنم عليه. إن الذي لا يمكن التأثير عليه هو فقط الشيء الذي لا شكل له فالحكماء يختفون وراء بُعْدِ الغور بحيث لا يمكن مراقبة مشاعرهم؛ فيعملون بطريقة لا شكل لها بحيث لا يمكن عبور خطوطهم.

كتاب أساتذة هواين الصين، القرن الثاني قبل الميلاد

وكان حل إسبارطة هو خلق مجتمع مكرس لفنّ الحرب. وبذلك يصير الإسبارطيون أصلب، وأقوى، وأشرس من جيرانهم. فقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة القادرة على ضمان استقرارهم وبقائهم.

فعندما كان الولد الإسبارطي يصل إلى سن السابعة، كان يؤخذ من أمه ويوضع في نادٍ عسكري يتلقى فيه تدريباً على القتال ويتعرض لأشد

أنظمة الضبط صرامة. فكان الأولاد ينامون على سُرُرٍ من القصب، ويخصص لكل منهم ثوب خارجي واحد فقط ليرتديه عاماً كاملاً. ولم يدرسوا أي فنّ من الفنون؛ بل إن الإسبارطيين حظروا الموسيقى. ولم يسمحوا إلاّ للعبيد بممارسة الحرف الضرورية لإمدادهم بأسباب الحياة. وكانت الفنون الوحيدة التي دَرَّسها الإسبارطيون هي فنون الحرب. أما الأطفال الذين كان يُرَى أنهم ضعفاء فكانوا يُتْرَكُون ليموتوا في كهف في الجبال. ولم يُسْمَحْ بأي نظام للمال أو التجارة في إسبارطة؛ فقد كانوا يعتقدون أن الثروة المكتسبة تزرع الأنانية والشقاق، مما يضعف نظامهم الحربي. وكانت الطريقة الوحيدة التي يستطيع الإسبارطي أن يكسب فيها معيشته هي الزراعة، على أراضٍ تملكها الدولة في الغالب، ويعمل له فيها عبيد يُسَمَّون الأقنان.

وأتاح التصميم العنيد للإسبارطيين أن يشكلوا أقوى جيشٍ من المشاة في العالم. فكانوا يزحفون في نظام كامل ويقاتلون بشجاعة لا تضاهَى. وكانت كتائبهُم المرصوصة بإحكامٍ قادرة على التغلب على جيش يكبرها بعشرة أضعاف، كما أثبتوا عندما دحروا الفُرْسَ في معركة ثيرموبيليا. وكان الطابور الإسبارطي الزاحف يقذف الرعب في قلب العدو. فكان يبدو أنه بلا نقاط ضعف. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن الإسبارطيين قد أثبتوا أنهم محاربون جبابرة، فإنهم لم يهتموا بخلق إمبراطورية. إذْ لم يكونوا يريدون سوى الاحتفاظ بما كانوا قد احتلوه، وحمايته من المهاجمين. فكانت تمر عقود من الزمن بدون تغيير واحد في النظام الذي نجح جيداً في الحفاظ على الأمر الواقع الإسبارطي.

وفي الوقت الذي كان فيه الإسبارطيون يطوّرون حضارتهم شبه الحربية، كانت مدينة - دولة أخرى - هي أثينا - تصعد إلى مكانة بارزة. فعلى عكس إسبارطة، كانت أثينا قد خاضت البحر، ليس لخلق مستعمرات، بل لأغراض تجارية بالأحرى؛ فأصبح الأثينيون تجاراً عظاماً، وانتشرت عملتهم، «مسكوكات البوم» الشهيرة في جميع أرجاء

الكلب المصلوم الأذنين

صرخ جاولر، كلب الحراسة الصغير، بصوت كئيب: «ما الجريمةُ التي ارتكبتُها حتى يشوهني سيدي نفسُه بهذه الصورة؟ إنه لوضع غريب لكلب في مثل مواهبي! فكيف أبرز وجهي لأصدقائي؟ فمن يجرؤ على أن يفعل هذا بك أيها الإنسان، يا سيد المخلوقات كلها؟» ولم تكن تذمُّرات الكلب بلا سبب. ففي ذلك الصباح ورغم الصرخات الثاقبة لصاحبنا الصغير، قام سيده بقطع أُذنيه المتهدلتين بوحشية لا رحمة فيها. ولم يتوقع جاولر شيئاً أقلّ من أنه سوف يسلم الروح.

ومع تقدمه في السن، أدرك أنه قد كسب من عملية البتر هذه أكثر مما خسر، إذ إنه مع ميله الطبيعي للتشاجر مع الآخرين، كان كثيراً ما يعود إلى البيت وقد تشوهت أذناه في أكثر من مائة موضع. فالكلب المشاكس تُمَزَّقُ أُذناه دائماً.

وكلما أنقصنا ما يمكن للآخرين أن يمسكوه فينا كان ذلك أفضل. فعندما يكون لدى المرء نقطة واحدة فقط يدافع عنها، فإنه يجب أن

حوض الأبيض المتوسط. وعلى عكس الإسبارطيين الجامدين، كان الأثينيون يستجيبون لكل مشكلة بقدرةٍ خلاقةٍ خارقة، فيتكيّفون للمناسبة، ويخلقون أشكالاً اجتماعية جديدة وفنوناً جديدة، بوتيرة لا تكاد سرعتها تُصَدَّق. فكان مجتمعهم في حالة جريان دائم. وحالما تنامت قوتهم راحوا يمثلون تهديداً للإسبارطيين المركَّزةِ أذهانُهُم على الدفاع.

يحميها من الحوادث المفاجئة. وخذ مثلاً الكلب المدعو جاولر، الذي كان مسلحاً بطوق شائك متشعب على عنقه ولم يكن له من الأذنين إلاّ ما هو بحجم أذني الطير، كان يحيّر أيّ ذئبٍ فلا يعرف الذئبُ من أين يمسكه.

وفي سنة 431 ق .م، انفجرت أخيراً الحرب بين أثينا وإسبارطة، بعد أن ظلت تختمر وتتلبد غيومها طويلاً. فاستمرت سبعة وعشرين عاماً. ولكن بعد تقلبات كثيرة في الحظ، برزت الآلة الحربية الإسبارطية منتصرة، في آخر الأمر. وعندئذ صارت تحت إمرة الإسبارطيين إمبراطورية، فلم يعودوا قادرين على البقاء في قوقعتهم المغلقة. فَلَوْ تخلّوا عما كسبوه، لعاد الأثينيون إلى التجمع والثورة عليهم، وكأن الإسبارطيين قاتلوا في تلك الحرب الطويلة من أجل لا شيء.

وبعد الحرب راحت أموال أثينا تصبّ في إسبارطة. وكان الإسبارطيون مدربين في فنون الحرب، لا السياسة، ولا الاقتصاد. ونظراً لأنهم لم يكونوا معتادين على ذلك فقد أغوتهم الثروة وما يصحبها من طراز الحياة وغلبت عليهم. وأُرْسِلَ حكام إسبارطيون ليحكموا ما كان من قَبْلُ أراضيَ أثينيّة. وعندما ابتعدوا عن وطنهم، خضعوا لأسوأ أشكال الفساد. لقد هزمت إسبارطةُ أثينا. ولكن طريقة الحياة الأثينية الجارية راحت تهدم نظام الضبط الإسبارطيّ ببطء، وترخي شدته الصارمة. بينما كانت أثينا تتكيف مع فقدان إمبراطوريتها، فاستطاعت أن تنتعش كمركز ثقافي واقتصادي.

وارتبكت إسبارطة بالتغير الذي طرأ على أمرها الواقع، فراحت تضعف أكثر فأكثر. وبعد ثلاثين عاماً من دحرها لأثينا، خسرت معركة هامة مع مدينة ـ دولة طيبة. وهكذا انهارت بين عشيةٍ وضحاها تقريباً أُمَّةٌ كانت جبارة ذات يوم، فلم تقم لها قائمة بعد ذلك أبداً.

التفسير

في تطور الأنواع، كان الدرع الواقي يعني الكارثة بصورة تكاد تكون دائمة. ورغم وجود استثناءات قليلة، فإن القوقعة تتحول، في الغالب الأعمّ من الحالات، إلى طريق مسدود للحيوان المحبوس في داخلها. فهي تبطىء حركته، وتصعِّب عليه البحث عن غذائه، وتجعله هدفاً للمفترسين سريعي الحركة. فالحيوانات التي تنزل إلى البحر، أو تصعد نحو السماء، والتي تتحرك بسرعة وبطريقة مفاجئة، لا يمكن التنبؤ بها، هي الأقوى والأكثر أمناً بلا حدود.

وفي مواجهة مشكلة خطيرة ـ هي السيطرة على أعداد متفوقة. كان رَدُّ فعل إسبارطة كَرَدِّ فعل الحيوان الذي يطور قوقعة يحمي بها نفسه من البيئة. ولكن الإسبارطيين بذلك ضحّوا بالقدرة على الحركة في سبيل السلامة، كما تفعل السُّلَحْفاة. فقد استطاعوا أن يحافظوا على الاستقرار ثلاثمائة عام، ولكن بأي كلفة؟ لم تكن لهم حضارة تتجاوز فنّ الحرب، ولا فنون تخفف من حدة التوتر. وكانوا يعانون قلقاً دائماً على الأمر الواقع الذي فرضوه. وبينما كان جيرانهم يمخرون عباب البحر ويتعلمون التكيف لعالم في حركة مستمرة، دفن الإسبارطيون أنفسهم في نظامِهِم ذاتِه. فكان النصر يعني أراضي جديدة يحكمونها، وهذا ما لم يكونوا يريدونه؛ وكان الاندحار يعني نهاية آلهتم العسكرية، ولم يكونوا يريدون هذا كذلك. فلم يسمح لهم بالبقاء إلا الركودُ. ولكن لا شيء في العالم يمكن أن يبقى مستقراً على حاله إلى الأبد، والقوقعة أو النظام الذي تطوره لحمايتك سيثبت ذات يوم أن فيه نهايتك.

وفي حالة إسبارطة، لم تكن جيوش أثينا هي التي هزمتها، ولكن المال الأثينيّ. فالمال يتدفق إلى كل مكان تتاح له فرصة الذهاب إليه؛ فلا يمكن السيطرة عليه أو جعله يتناسب مع نمط جاهز إذْ أنه بطبيعته فوضوي. وعلى المدى الطويل فقد جعل المال أثينا هي الغالبة، عن طريق تسلله إلى النظام الإسبارطي والتسبب في تآكل درعه الواقي. وفي

المعركة بين النظامين، كانت أثينا سائلةً وخلاقة بما يكفي لاتخاذ أشكال جديدة، بينما لم تستطع إسبارطة إلاَّ أن تزيد تصلباً حتى تصدعت.

فهذه هي الطريقة التي يعمل بها العالم، سواء بالنسبة للحيوانات، أم للحضارات، أم للأفراد. ففي مواجهة خشونة العالم وخطره، تطوِّر العضوياتُ من أي نوع حمايةً لها ـ سترة مدرعة، أو نظاماً صارماً، أو طقوساً مريحة. وقد تنجح هذه الحماية على المدى القصير، ولكنها على المدى الطويل تعني كارثة. فالناس الذين يثقل كاهلهم نظام وطرق غير مرنة لعمل الأشياء لا يستطيعون التحرك بسرعة، ولا يستطيعون الإحساس بالتغيير ولا التكيف له. فيتحركون بتثاقل وبطءٍ هنا وهناك حتى يلحقوا بالبرونطوصور الذي انقرض. فتعلَّم كيف تتحرك بسرعة وتتكيف، وإلاَّ فسوف تُؤكَل.

وأفضل طريقة لتجنب هذا المصير هي اتخاذ هيئة لا شكل لها. لأنه لا يوجد كائن مفترس قادر على مهاجمة ما لا يستطيع أن يراه.

كان من الطرق المغرية، ولكنها في آخر الأمر مميتة، تطوير الدرع الواقي. فالكائن العضوي يستطيع أن يحمي نفسه بالاختفاء، وبالسرعة في الهرب، وبهجوم معاكس فعال، وبالاتحاد مع آخرين من أبناء جنسه في الهجوم وفي الدفاع، وكذلك بتصفيح نفسه بألواح وسلاسل عظمية... ولقد فشلت تجربة الدرع المصفح على نحو يكاد يكون دائماً. فكانت المخلوقات التي تعتمد عليها تميل إلى أن تصبح ضخمة ثقيلة الحركة بشكل غير عملي، فتصير مضطرةً إلى التحرك ببطء نسبيّ. ومن هنا كانت تُرْغَمُ على أن تعيش على غذاء نباتي. وهكذا فقدت ميزتها بصورة عامة بالمقارنة مع أعداء يعيشون بسرعة أكبر على غذاء حيواني أكثر «فائدة». إن الفشل المتكرر للدرع الواقي يبين أن العقل كان ينتصر على المادة المجردة، حتى عند المستويات المنخفضة نسبياً في سلم التطور. وهذا النوع من النصر هو الذي تمثل بشكل رفيع في تفوق الإنسان.

النظرية العلمية والدين
ا. و. بارنز، 1933

مراعاة القانون

عندما انتهت الحرب العالمية الثانية، وطُرِدَ اليابانيون في آخر الأمر من الصين التي كانوا قد غزوها في سنة 1937، قرر الوطنيون الصينيون بقيادة تشيانغ كاي شيك أن الوقت قد حان لإبادة منافسيهم المكروهين، الشيوعيين الصينيين، مرة واحدة وإلى الأبد. وكانوا قد نجحوا في ذلك تقريباً في سنة 1935، عندما أرغموا الشيوعيين على المسيرة الطويلة من التراجع الطاحن الذي أنقص أعدادهم بشكل كبير، ورغم أن الشيوعيين قد استعادوا بعض عافيتهم أثناء الحرب ضد اليابان، فلن يكون دحرهم صعباً الآن (أي في سنة 1945). فلم يكونوا مسيطرين إلاَّ على مناطق معزولة في الريف، ولم تكن أسلحتهم متطورة، وكانت تنقصهم أي خبرة عسكرية أو تدريبية عدا القتال الجبليّ، ولم يكونوا يتحكمون بأية

إجزاء هامة من الصين، سوى مناطق في منشوريا، التي استطاعوا أن يستولوا عليها بعد التراجع الياباني. فقرر تشاينْغ أن يرسل أفضل قواته إلى منشوريا، ليستولي على مدنها الكبرى. ومن تلك القواعد سينشر قواته خلال تلك المنطقة الصناعية الشمالية، فيكنس الشيوعيين بعيداً. وما أن تسقط منشوريا حتى ينهار الشيوعيون.

وفي سَنَتَيْ 1945 و1946، نجحت الخطة بشكل كامل. فقد استولى الوطنيون الصينيون بسهولة على مدن منشوريا الكبرى. وكان من الألغاز المحيرة أن الاستراتيجية الشيوعية، إزاء هذه الحملة الحساسة الأهمية، لم يكن لها معنى. فعندما بدأ الوطنيون هجومهم تبعثر الشيوعيون إلى أبعد الزوايا غير المطروقة والنائية في منشوريا. وراحت وحداتهم الصغيرة تضايق بمناوشاتها جيوشَ الوطنيين، فتنصب لهم كميناً هنا، وتنسحب على نحو غير متوقع من هناك. ولكن هذه الوحدات المبعثرة لم تتصل ببعضها بعضاً قطّ، مما جعل مهاجمتها أمراً صعباً. فكانت تستولي على مدينة، لتتخلى عنها بعد بضعة أسابيع فقط. ولم تُشَكّل حراسةَ مؤخرةٍ ولا طلائعَ، مما سهّل عليها التحرك كالزئبق المتملص، بلا شكل، لأنها لم تكن تبقى في مكان واحد أبداً.

وعزا الوطنيون الصينيون ذلك إلى شيئين هما: الجبن في مواجهة قوات متفوقة، وعدم الخبرة في الاستراتيجية. فالزعيم الشيوعي ماوتسي تونغ، كان شاعراً وفيلسوفاً أكثر منه قائداً وجنرالاً، بينما كان تشيانْغ كاي شيك، قد درس فن الحرب في الغرب، وكان من أتباع الكاتب العسكري الألماني كارل فون كلاوزفيتز، من بين آخرين. ومع ذلك فقد برز في آخر الأمر نمطٌ في هجمات ماو. فبعد أن استولى الوطنيون على المدن، تاركين الشيوعيين يحتلون ما كان يُعْتَبَرُ عموماً بمساحات منشوريا التي لا فائدة فيها، بدأ الشيوعيون يستخدمون تلك المساحات الشاسعة لتطويق المدن. فإذا أرسل تشيانغ جيشاً من مدينة لتعزيز أخرى، كان الشيوعيون

يطوقون الجيش المُنْجِد. وهكذا تقسّمت قوات تشيانغ ببطءٍ إلى وحدات أصغر فأصغر، ومنعزلٍ بعضها عن بعض، وتقطّعت خطوط تموينها ومواصلاتها. وكان الوطنيون لا يزالون يملكون قوةَ نيرانٍ متفوقة، ولكن ما فائدتها إن كانوا عاجزين عن الحركة؟

وغلب على الجنود الوطنيين نوع من الذعر. فربما كان القادة يضحكون على ماو، وهم مرتاحون بعيداً عن الخطوط الأمامية، ولكن الجنود كانوا قد قاتلوا الشيوعيين في الجبال، وبدأوا يخشون قدرتهم على التملص. ثم قبع أولئك الجنود في مدنهم وراحوا يتفرجون على أعدائهم السريعي الحركة، الجارين كالماء، وهم يَنْصَبُّون عليهم من جميع الجوانب. فقد بدا أن هناك الملايين منهم. كما حاصر الشيوعيون أرواح الجنود ونفوسهم، وراحوا يمطرونهم بالدعاية ليخفضوا روحهم المعنوية ويضغطوا عليهم كي يهربوا من الخدمة العسكرية.

وبدأ الوطنيون يستسلمون ذهنياً؛ إذ أن مدنهم المطوقة والمعزولة راحت تتهاوى حتى قبل أن تتعرض للهجوم بشكلٍ مباشر، واحدة بعد الأخرى، في تتابع سريع. وفي شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة 1948، سلّم الوطنيون منشوريا إلى الشيوعيين ـ فكانت تلك ضربةً مُذِلَّةً لجيش الوطنيين المتفوق تقنياً، وهي ضربة أثبتت أنها الحاسمة في الحرب. إذْ بحلول السنة التالية (1949) كان الشيوعيون قد بسطوا سيطرتهم على الصين كلها.

الارنب البري والشجرة

إن العاقل لا يسعى لاتباع طرق الأقدمين، ولا يقيم معايير ثابتة على مدى الأزمنة كلها، بل يتفحّص الأشياء الموجودة في عصره، ثم يتهيأ للتعامل معها.

كان في سونغ رجل يحرث حقلاً كان يقف في وسطه جذع شجرة. وذات مرة اصطدم به أرنب بري كان يجري بسرعة فدُقَّتْ عنقه ومات. وعندئذ ترك الرجل محراثه جانباً وراح يراقب تلك الشجرة، آملاً بالحصول على أرنب آخر. ومع ذلك فلم يمسك بأي أرنب آخر، وصار موضع سخرية أهالي سونغ. والآن لنفترض أن شخصاً مّا أراد أن يحكم أهل العصر الحاضر بسياسات الملوك الأوائل، فإنه سيفعل الشيء الذي فعله ذلك الرجل الذي راح يراقب الشجرة.

هان ـ في ـ تزو
فيلسوف صيني، من القرن الثالث ق. م

التفسير

إن أقرب ألعاب الرقعة إلى استراتيجية الحرب هما الشطرنج ولعبة «غو» الآسيوية. والرقعة صغيرة في لعبة الشطرنج، وبالمقارنة مع لعبة «غو» فإن الهجوم في الشطرنج يأتي بسرعة نسبية تفرض معركة حاسمة. ونادراً ما يفيد الانسحاب، أو التضحية بِقِطَعِك، التي ينبغي أن تتركز في مناطق هامة. أما لعبة «غو» فهي أقل محافظة على الشكل بكثير. فهي

تُلْعَبُ على لوحة أكبر، فيها 361 مربعاً، أي إن عدد مواقعها يقرب من ستة أضعاف عدد مواقع رقعة الشطرنج فتوضع الحجارة البيضاء والسوداء (لون لكل طرف) على مربعات اللوحة، حجراً واحداً في كل مرة، في أي مكان تحب. وعندما تصبح كلها متواجدة على اللوحة (52 حجراً لكل طرف) يكون الهدف هو عزل حجارة خصمك بتطويقها.

وقد تستمر هذه اللعبة ـ التي تدعى وي . شي في الصين . حتى إتمام ثلاثمائة حركة. واستراتيجيتها أكثر دهاءً وسيولة من الشطرنج؛ إذْ إنها تتطور ببطء. وكلما زاد تعقيد النمط الذي تخلقه حجارتك على اللوحة في البداية، زادت الصعوبة التي يتعرض لها خصمك ليفهم استراتيجيتك. فالقتال للسيطرة على منطقة معينة ليس جديراً بالتعب. إذْ أن عليك أن تفكر في خطط أكبر وأن تكون مستعداً للتضحية بمنطقةٍ مّا في سبيل السيطرة على اللوحة في خاتمة المطاف. ذلك أن ما تسعى إليه ليس موقعاً متمترساً في خندق، بل قابلية الحركة. فمع الحركة تستطيع أن تعزل الخصم في مناطق صغيرة ثم تقوم بتطويقها. وليس الهدف هو قَتْلُ قطعِ الخصم مباشرةً، بل استدراج نوع من الشلل والانهيار. فالشطرنج لعبة خطوط، وموجهة نحو المواقع، وعدوانية. أما «غو» فليست لعبة خطوط، بل هي سائلة مائعة. والعدوان فيها غير مباشر حتى نهاية اللعبة، عندما يتمكن الرابح من تطويق حجارة خصمه بخطوات متسارعة.

ولقد ظل راسمو الخطط الاستراتيجية الصينية يتأثرون بلعبة «غو» طيلة قرون. وطُبِّقَتْ أمثالها على الحروب مرات متكررة. وكان ماوتسي تونغ مدمناً على ممارسة لعبة وي ـ شي هذه، وكانت مفاهيمها منغرسة في استراتيجياته. فمن مفاهيمها المفتاحية الهامة مثلاً استخدام حجم اللوحة لصالحك، ناشراً حجارتك في كل اتجاه، بحيث يعجز خصمك عن سبر غور حركاتك بطريقة خطوطية بسيطة.

ولقد كتب ماو ذات مرة: «ينبغي على كل صيني أن يلقي بنفسه في

لقد تفوّق الجنرال رومل على باتون كعقل خلاّق. . . كان رومل يتجنب التمسك بالشكلية العسكرية. فلم يضع خططاً ثابتةً تتجاوز تلك المقصود بها الاشتباك المبدئي. أما بعد ذلك فكان يفصل حركاته التكتيكية لمواجهة أوضاع محددة عند نشوئها. وكان صانع قرار له سرعة البرق، ويحافظ

خصمٌ هذه الحرب ذات النمط الملغّز كَقِطَعِ الأحجية» ضد الوطنيين. ضع حجارتك على نمط ملغّز محيّر في «غو»، وعندئذٍ يضيع خصمك نفسه في محاولة فهم ما الذي تسعى إليه. فإما أن يضيع وقته في مطاردتك، أو يفترض ـ كما فعل تشيانغ كاي شيك ـ أنك غير كفء، فلا يهتم بحماية نفسه منك. وإذا ركّز على مناطق بعينها، كما تنصح الاستراتيجية الغربية، فسوف يصبح هدفاً سهلاً للتطويق. ففي طريقة وي ـ شي في الحرب، أنت تطوق دماغ العدوّ، مستخدماً الألعاب الذهنية، والدعاية، وتكتيكات المضايقة لتربكه وتزعزع همّته. وقد كانت هذه هي استراتيجية الشيوعيين. الظهور بهيئة لا شكل لها، مما ضلّل العدو وأرعبه.

جسدياً على إيقاع خطوات تناسب عقله الفعّال. ففي بحر مخيف من الرمال، كان يقوم بعملياته في بيئة حرة. فعندما خرق رومل الخطوط البريطانية في إفريقية، صارت قارة إفريقية الشمالية بكاملها ميداناً مفتوحاً أمامه. ومع تحرره النسبيّ من سلطة برلين المفككة المقيدة عن الحركة، وعدم احترامه للأوامر حتى الصادرة من هتلر نفسه أحياناً، راح رومل ينفذ عملية ناجحة بعد أُخرى حتى صار معظم إفريقية الشمالية تحت سيطرته، وراحت الساحة ترتجف تحت قدميه.

فن كسب الحروب
جيمس مرازق، 1968

وبينما نجد أن لعبة الشطرنج مباشرة وفيها خطوط متواجهة، فإن لعبة «غو» القديمة، أقرب شبهاً بنوع الاستراتيجية التي سوف تثبت أنها ذات صلة في عالم تُخَاضُ فيه المعارك بأسلوب غير مباشر، وفي مناطق شاسعة متباعدة متراخية الارتباط. فاستراتيجياتها مجردة ومتعددة الأبعاد، تقيم على مستوىً خارج نطاق الزمان والمكان: وهو ذهن صاحب الخطة. وفي مثل هذا الشكل المائع من الحرب، فإنك تعطي الحركة قيمةً أكثر من قيمة الموقع. إذ أن سرعتك وقدرتك على الحركة يجعلان التنبؤ بتحركاتك مستحيلاً. وعندما يعجز عدوّك عن فهمك، فإنه يعجز عن تكوين استراتيجية لهزيمتك. وبدلاً من التركيز على بقع معيَّنة، فإن هذا النوع من الحرب، ينتشر إلى الخارج ويتمدَّد، تماماً كما تستطيع استخدام الطبيعة الكبيرة وغير المترابطة في العالم الحقيقي لفائدتك. كُنْ كسحابة البخار. ولا تعطِ خصومك أي شيء صلب يهاجمونه. وراقبهم وهم ينهكون أنفسهم في مطاردتك، محاولين أن يتغلَّبوا على تملصك. فالهيئة التي لا شكل لها، هي وحدها التي تتيح لك أن تفاجىء أعداءك. وما أن يفهموا أين أنت وما الذي تسعى إليه، حتى يكون قد فات الأوان.

عندما تريد أن تقاتلنا، لا ندعك تفعل، وتعجز عن العثور علينا. ولكن عندما نريد الآن أن نقاتلك، فإننا نحرص على عدم تمكينك من الهرب، ونوجِّه إليك ضربةً مباشرةً مُحْكَمَةً... ونمحوك محواً... فعندما يتقدَّم العدو، نتراجع، وعندما يعسكر العدو، نضايقه بالمناوشة؛ وعندما يَتْعَبُ العدوُّ، نهاجم؛ وعندما يتراجع العدو، نطارده.

(ماوتسي تونغ، 1893 ـ 1976)

مفاتيح السلطة

يتميَّز الحيوان الإنساني بخلقه للأشكال باستمرار. ونادراً ما يعبِّر عن عاطفته بصورة مباشرة، فيعطيها شكلاً من خلال اللغة، أو عن طريق طقوس وشعائر مقبولةٍ اجتماعياً. فنحن لا نستطيع إيصال عواطفنا بدون شكل.

غير أن الأشكال التي نخلقها، تتغيَّر باطّراد ـ في الزيّ والطراز، في الأسلوب، وفي كل الظواهر الإنسانية التي تمثل مزاج اللحظة السائد. ونحن نغيِّر باستمرار الأشكال التي ورثناها من الأجيال السابقة. وهذه التغييرات علامات على الحياة والحيوية. بل إن الأشياء التي لا تتغيَّر، والأشكال التي تتجمَّد، تصبح في نظرنا كالموت، فندمِّرها. والشباب يظهرون ذلك كأوضح ما يكون. فهم غير مرتاحين مع الأشكال التي يفرضها عليهم المجتمع، وليست لهم هوية محددة، فيمارسون أدوار شخصياتهم ذاتها، ويجربون شتى أنواع الأقنعة والوقفات كي يعبِّروا عن أنفسهم، فهذه هي الحيوية التي تشغل محرك الشكل، فتخلق تغييراً مطرداً في الأسلوب.

درع الشخصية

تحتاج الذات الإنسانية إلى أن تتعرَّض لتغيير لكي تقوم بالكبح الغريزي الذي يتطلبه العصر الحاضر، ولكي تطيق ركود الطاقة الذي ينجم عن هذا الكبح. فالأنا، أي ذلك الجزء من الشخصية المعرض للخطر، يصبح جامداً، كما نقول، عندما يتعرض باستمرار للصراعات نفسها، أو لصراعات متشابهة بين الحاجة، وبين العالم الخارجي الذي يستجلب الخوف. وهذه الأنا تحتاج في هذه العملية إلى أسلوبٍ ثابتٍ مزمنٍ من ردِّ الفعل يقوم بوظيفته بصورة تلقائية، أي إلى «شخصية». وعندئذ يبدو الأمر وكأن الشخصية المؤثرة قد درّعت نفسها، وكأن الدرع الصلب الذي تطوِّره كان يهدف إلى تشتيت وإضعاف ضربات العالم الخارجي، وكذلك

والأقوياء ذوو السلطة كثيراً ما يكونون أناساً قد أظهروا في شبابهم قدرة ابتكاريّة هائلة في التعبير عن شيء جديد بشكل جديد. فيمنحهم المجتمعُ سلطةً لأنه يتعطش لمثل هذا النوع من الجِدَّةِ ويشجعه. وتأتي المشكلة فيما بعد، حينما يصبحون محافظين ولديهم نزعة الاستئثار. فلا يعودون يحلمون بخلق أشكال جديدة؛ إذ تصبح هوياتهم مستقرة،

فتتخثر عاداتهم، ويجعلهم تصلُّبُهم أهدافاً سهلة. ويعرف الجميع حركتهم التالية. وبدلاً من المطالبة بالاحترام فإنهم يثيرون السأم؛ فنقول لهم: ابتعدوا عن المسرح! ودعوا شخصاً آخر، أصغر سناً، يمتعنا. فعندما ينغلق الأقوياء ذوو السلطة على الماضي، يغدو مظهرهم مضحكاً ـ وكأنهم فاكهة نضجت أكثر مما ينبغي، وتنتظر السقوط عن الشجرة.

المطالَبات الصاخبة للحاجات الداخلية. وهذا التصفيح يجعل الشخص أقل تحسُّساً بالشيء غير السارّ، ولكنه أيضاً يقيد حركته الشهوانية والعدوانية، وبذلك يقلل قدرته على الإنجاز وعلى المسرة. فنقول إن هذه «الأنا» أو «الذات» قد أصبحت أقل مرونة وأكثر تصلباً، وإن القدرة على تنظيم اقتصاد الطاقة يعتمد على مدى التصفيح المدرع.

فيلهلم رايخ
1897 ـ 1957

فالسلطة لا تستطيع أن تنتعش، إلاَّ إذا كانت مرنة في أشكالها. فكونها بلا شكل، لا يعني أنها غير منتظمة ولا متبلورة، إذ أن كل شيء له شكل ـ فهذا يستحيل تجنّبه. فانعدام الشكل في السلطة، أشبه بانعدامه في الماء، أو الزئبق، يأخذ شكل أي وعاء يحيط به. ومع تغيره المستمر، لا يمكن التنبؤ قَطّ. فذوو السلطة يخلقون شكلاً باستمرار، وتأتي سلطتهم من السرعة التي يتغيرون بها. وانعدام شكلهم في عين العدو، الذي لا يستطيع أن يرى ما يرمون إليه، يؤدي إلى عدم وجود شيء صلب يهاجمه العدو. فهذا هو الموقف الأول للسلطة: شيء لا يمكن الإمساك به، متملص وسريع التغير، كالإله عطارد عند الإغريق الأقدمين، يستطيع أن يتخذ أي شكل يحبه، وقد استغل هذه المقدرة لإحداث الفوضى والتخريب على جبل الأولمب (موطن آلهة الإغريق).

فالمخلوقات التي من صنع البشر تتطور نحو التجريد، نحو صيرورتها عقلية أكثر ومادية أقل. وهذا التطور واضح في الفن، الذي اكتشف اكتشافاً عظيماً في القرن العشرين، هو التجريد والتركيز على المفاهيم عموماً؛ ويمكن رؤيته في السياسة أيضاً، إذ راحت مع الزمن تميل إلى التقليل من العنف المكشوف، وصارت أكثر تعقيداً، وغير مباشرة، وعقلية. كما أن فن الحرب والاستراتيجية قد اتبعا هذا النمط. فالاستراتيجية تبدأ في المناورة بالجيوش على الأرض، بوضعها في تشكيلات منتظمة؛ فالاستراتيجية على اليابسة ذات بُعْدَيْن نسبياً. وتتحكم فيها الطوبوغرافيا، أي السمات السطحية. ولكن كل القوى الكبرى اتجهت في آخر الأمر إلى البحر، للتجارة وللاستعمار. ولحماية

خطوطها التجارية اضطرت إلى تعلم كيفية القتال في البحر. ويتطلب فن الحرب البحرية قدرة هائلة على الخلق والتفكير المجرد، إذْ أن الخطوط تتغير وتتحول باستمرار. فقباطنة الأساطيل يميزون أنفسهم بقدرتهم على التكيف للسيولة الحَرْفِيَّة للبقعة، وعلى إرباك العدو وتشويشه بشكل مجرد يصعب توقعه. إذْ إنهم يعملون في بُعْدٍ ثالث: هو العقل.

أما على الأرض فإن حرب الغِوَار (حرب العصابات) أيضاً قد أظهرت تطوراً مماثلاً نحو التجريد. ولعل توماس إدوارد لورانس (المعروف أيضاً بلورانس العرب) كان أول استراتيجي في العصر الحديث يطوّر النظرية الكامنة وراء هذا النوع من الحروب، ويضعها موضع التطبيق. وقد أثرت أفكاره في ماو، الذي وجد في كتاباته معادلاً غربيّاً غريباً للعبة وي ـ شي. كان لورانس يعمل مع العرب المقاتلين دفاعاً عن أرضهم ضد الأتراك. وكانت فكرته هي جعل العرب يتماهون مع الصحراء الشاسعة، فلا يقدّمون أي هدف أبداً، ولا يتجمعون معاً في مكان واحد قطّ. وعندما هرع الأتراك لقتال هذا الجيش المتبخّر، فانتشروا بشكل رقيق متباعد غير متماسك، وأضاعوا طاقة في التنقل من مكان إلى مكان. كانت لديهم قوة نيران متفوقة، ولكن العرب احتفظوا بزمام المبادرة بممارسة لعبة القط والفأر، فلم يقدموا للأتراك شيئاً يمسكون به، وبذلك حطموا معنوياتهم. وكتب لورانس: «إن معظم الحروب هي حروب اتصال وتماسٍّ... أما حربنا فينبغي أن تكون حرب انفصال. كان علينا أن نحتوي العدو فنحيط به بالتهديد الصامت لصحراء مجهولة شاسعة، فلا نكشف أنفسنا إلاَّ عندما نهاجم».

وهذا هو الشكل الأكمل للاستراتيجية. فلقد أصبحت حرب الاشتباك مفرطة الخطر وباهظة الكلفة للغاية. والكلفة الرئيسية عقلية في الواقع ـ التفكير الذي يتطلبه نشر قواتك في أنماطٍ مبعثرة، وإحداث خلل أو اضطراب في أذهان ونفسيات خصومك. ولا شيء يثير حنقهم ويشوش توجهاتهم أكثر من اتخاذك هيئة لا شكل لها. وفي عالمٍ تسود

فيه حروب الانفصال وتجنب الاشتباك، يصبح انعدام الشكل مسألةً حساسة الأهمية.

وأول المتطلبات النفسية لانعدام الشكل، هي تدريب نفسك على عدم أخذ شيء على محمل شخصي. وإياك أن تُظْهِرَ أي موقف دفاعي. لأنك عندما تتصرف بأسلوب دفاعي تُظْهر عواطفك، فتكشف شكلاً واضحاً. وعندئذٍ يدرك خصومُك أنهم قد أصابوا فيك عصباً حساساً، أي كعب أخيل (نقطة ضعف). فيضربون تلك النقطة مرة أُخرى وأُخرى. وهكذا درِّب نفسك على أن لا تأخذ أي شيء على محمل شخصيّ. ولا تدع أي شخص يؤذيك أو ينتقم منك. وكُنْ كالكرة المنزلقة التي لا يمكن الإمساك بها. ولا تدع أحداً يعرف ما الذي يؤذيك، أو أين تكمن نقاط ضعفك. اجعل وجهك قناعاً لا شكل له، فبذلك تثير حنق زملائك وخصومك المتآمرين وتُرْبِكُ توجهاتِهم.

ومن بين الذين استخدموا هذا الأسلوب البارون جيمس روتشيلد. وكان يهودياً ألمانياً في باريس، في ثقافة معادية للأجانب بشكل حاسم. فلم يأخذ أي هجوم عليه على محمل شخصي أبداً، ولم يُظْهِرْ أنه قد جُرِحَ أو أُوذي بأية طريقة. وبالإضافة إلى ذلك كيَّف نفسه للمناخ السياسي مهما كان ـ لملكية لويس الثامن عشر المُعَادَةِ الرسمية الصارمة، ولعهد لويس فيليب البرجوازي، وللثورة الديمقراطية في سنة 1848، وللويس نابليون المدعي مُحْدَثِ النعمة الذي تُوِّجَ إمبراطوراً في سنة 1852. وقد تقبّلهم روتشيلد جميعاً واختلط في مجتمعاتهم. وكان يطيق أن يظهر بمظهر المنافق أو الانتهازي لأنه كان مقدَّراً بسبب أمواله، وليس ميوله أو آرائه السياسية؛ فأمواله كانت عملة السلطة. وبينما كان يتكيف وينتعش، غير مُظْهِرٍ أي شكلٍ من الخارج، دُمِّرت كلُّ العائلات العظيمة التي كانت قد بدأت القرن التاسع عشر وهي فاحشة الغنى، فدمرتها تقلبات العصر المعقدة وتحولات الحظ. ذلك أنها ربطت نفسها بالماضي، فكشفت عن اعتناقها لشكل من الأشكال.

وطوال التاريخ كانت الملكة التي تحكم وحدها هي خير مَنْ يتقن تطبيق أسلوب الحكم بانعدام الشكل. فمركز الملكة يختلف اختلافاً جذرياً عن مركز الملك؛ فنظراً لكونها امرأة، فإن من المحتمل أن يشكّ رعاياها ورجال حاشيتها في قدرتها على الحكم، وفي قوة شخصيتها. فإذا انحازت إلى طرف في صراع عقائدي، قيل إنها تتصرف بدافع من ارتباط عاطفيّ. ومع ذلك فإذا كبتت عواطفها ومارست لعبة السلطة بأسلوب الذكور، فإنها تثير انتقاداً أسوأ من ذلك. وإذن تميل الملكات إلى اعتماد أسلوب مَرِنٍ في الحكم، إمّا بسبب طبيعتهن أو تجربتهن. وكثيراً ما يتضح في آخر الأمر أن هذا الأسلوب أقوى من الشكل الأكثر مباشرة، الذي يمارسه الذكور.

وهناك امرأتان تمثلان الأسلوب عديم الشكل في الحكم، هما آليزابيث الأولى ملكة إنكلترا، وكاترين العظمى إمبراطورة روسيا. ففي الحروب العنيفة بين الكاثوليك والبروتستانت اختطت آليزابيث مساراً وسطاً. فتجنبت التحالفات التي من شأنها إلزامها بالوقوف إلى جانب طرفٍ مّا، والتي تؤذي بلدها بمرور الزمن. واستطاعت أن تبقي بلدها في سلام حتى صار قوياً بما يكفي لخوض الحرب. وكان عهدها من أمجد العهود في التاريخ بسبب قدرتها على التكيف، وبسبب عقيدتها المرنة.

وطورت كاترين العظمى أسلوباً ارتجالياً في الحكم كذلك. فبعد أن أزاحت زوجها الإمبراطور بطرس الثاني، واستولت على حكم روسيا وحدها في سنة 1762، لم يكن أحد يعتقد أنها ستبقى. ولكنها لم تكن تحمل أفكاراً مسبقة، ولا فلسفة، ولا نظرية لإملاء سياساتها. ورغم أنها أجنبية (فقد كانت من ألمانيا)، فقد كانت تفهم طبائع الروس. وكيف كانت آخذة في التغيّر بمرور السنين. وقالت: «على المرء أن يحكم بطريقة تجعل أبناء شعبه يعتقدون أنهم يريدون بأنفسهم أن يقوموا بما يأمرهم به». ولتحقيق ذلك، كان عليها أن تكون متقدمة بخطوة تستبق رغباتهم، وأن تتكيف لمواجهة مقاومتهم. وبامتناعها عن فرض الأمر

فرضاً، أصلحت روسيا في فترة زمنية قصيرة إلى حد مذهل.

ولعل هذا الأسلوب الأنثويّ العديم الشكل في الحكم قد برز كطريقة للازدهار تحت ظروف صعبة، ولكنه أثبت أيضاً أنه أسلوب شديد الإغواء لمن خَدَمُوا في ظلّه. وبما أنه سائل فسيطيعه رعاياه بسهولة نسبياً، لأنهم يشعرون بأنهم أقل تعرضاً للإرغام، وأقل انحناء لعقيدة حاثمهم. كما أنه يفتح خيارات حيث يغلقها التمسك بمذهبٍ مّا. فبدون الالتزام بطرف واحد، يسمح هذا الأسلوب للحاكم أن يضع عدواً في مواجهة آخر. وقد يبدو الحكام الجامدون الصارمون أقوياء. ولكن عدم مرونتهم ينهك أعصابهم بمرور الزمن، ويجد رعاياهم طرقاً لإبعادهم عن المسرح. أما الحكام المَرِنُونَ عديمو الشكل فَسَيُنْتَقَدُون كثيراً، ولكنهم سيتحملون ويدومون، ويعتاد الناس في آخر الأمر على الانسجام معهم، لأنهم شبيهون برعاياهم ـ يتغيرون مع الريح، وينفتحون على الظروف.

ورغم حالات القلق والتأخير فإن أُسلوب السلطة المساميّ النفيذ ينتصر على وجه العموم في النهاية، تماماً كما انتصرت أثينا على إسبارطة في آخر الأمر عن طريق أموالها وثقافتها. فعندما تجد نفسك في صراع مع أناس أقوى منك وأكثر تصلباً، فاسمح لهم بنصر مؤقت. واظهر لهم كأنك تنحني لتفوقهم. ثم عن طريق كونك عديم الشكل وقابلاً للتكيف، تسلل ببطء إلى داخل أرواحهم. وبهذه الطريقة تفاجئهم من مأمنهم قبل أن يأخذوا حذرهم، إذْ أن الناس الجامدين مستعدون دائماً لصد الضربات المباشرة ولكنهم بلا حول ولا قوة إزاء الذكي الخفي المستلل بلطف. ولكي تنجح في هذه الاستراتيجية، ينبغي عليك أن تمارس دور الحرباء ـ أي تمتثل وتنسجم من الخارج فيما يبدو على السطح، بينما أنت تحطم عدوك من الداخل.

فلقد ظل اليابانيون قروناً متطاولة يتقبلون الأجانب بأدب وكياسة، ويظهرون وكأنهم عرضة للخضوع للثقافات والتأثيرات الأجنبية. وكان خُوياوْ رودريغيز قسيساً برتغالياً وصل إلى اليابان في سنة 1577، وعاش

هناك سنوات كثيرة. فكتب يقول: «أنا مذهول من استعداد اليابانيين لتجربة كل شيء برتغالي وقبوله». فكان يرى اليابانيين في الشوارع مرتدين الملابس البرتغالية، تتدلى من أعناقهم السُّبْحَات، وعلى جنوبهم الصُّلبان. وقد تبدو حضارة كهذه ضعيفةً متقلِّبة. غير أن قابلية اليابان للتكيف في الحقيقة قد حَمَت البلدَ من التعرض لفرض حضارة غريبة عليه بغزو عسكري. وهكذا أغوت اليابانُ البرتغاليين والغربيين الآخرين بجعلهم يعتقدون أن اليابانيين كانوا يخضعون لحضارة متفوقة في حين أن أساليب الحضارة الأجنبية لم تكن عند اليابانيين سوى طرازٍ أو زِيٍّ يُلْبَسُ ويُخْلَع. وتحت السطح ظلت الحضارة اليابانية منتعشة. ولو كان اليابانيون متصلبين إزاء التأثيرات الأجنبية، وحاولوا أن يبعدوها عنهم بالقتال، لكان من المحتمل أن يعانوا من ضروب الأذى ما ألحقه الغرب بالصين. وتلك هي قوة انعدام الشكل. فهي لا تمنح المعتدي شيئاً يبدي ضده ردة فعل، أو شيئاً يضربه.

في التطور، كثيراً ما يكون كبر الحجم أولَ خطوة نحو الانطفاء. فما هو هائل ومنفوخ لا قدرة له على الحركة، ولكن عليه أن يغذي نفسه باستمرار. فالأغبياء كثيراً ما ينخدعون بالاعتقاد أن الحجم يتضمن معنى القوة، وأنه كلما كبر أكثر كان ذلك أفضل.

في سنة 483 ق .م، غزا اليونانَ ملكُ فارس، إكسيركسيس، معتقداً أنه يستطيع إخضاعها في حملة سهلة واحدة. فبعد كل شيء، كان معه أضخم جيشٍ اجتمع لغزوة واحدة في العالم ـ وقدّر هيرودوتس المؤرخُ عَدَدَهُ بما يزيد على خمسة ملايين. وقد خطط الفرس لبناء جسر عبر مضيق الدردنيل ليجتاحوا اليونان من البرّ، بينما يقوم أسطولهم الهائل كذلك بحصر السفن الإغريقية في موانئها، فيمنع قواتها من الهرب إلى عرض البحر. وبدت الخطة موثوقة. ومع ذلك فعندما كان إكسيركسيس يهيِّيء الغزو حذره مستشاره آرطابانوس من هواجس خطيرة، فقال له: «إن أعظم قوتين في العالم ضدك». فضحك إكسيركسيس، فأي قوة

يمكن أن تضاهي جيشه الضخم؟ فأجاب آرطابانوس: «سأخبرك بهما. إنهما الأرض والبحر». إذ لم تكن هناك موانىء كبيرة إلى حد القدرة على استقبال أسطول إكسيركسيس. وكلما احتل الفرس مزيداً من الأرض امتدت خطوط مواصلاتهم ومؤنهم مسافة أطول، كما اتضح كم هي قاصمة تكاليف إطعام هذا الجيش الهائل.

وظن إكسيركسيس أن مستشاره جبان، فانطلق في الغزو. ومع ذلك فمثلما تنبأ آرطابانوس، مزّق الطقسُ البحريُ السيِّيءُ الأسطولَ الفارسيَّ، الذي كان أضخم من أن يتمكن من اللجوء إلى أي ميناء. أما على اليابسة، في تلك الأثناء، فقد دمّر الجيشُ الفارسيُّ كلَّ شيء في طريقه، مما جعل عملية إطعامه مستحيلة، لأن التدمير قد شمل المحاصيل ومخازن المؤن والأغذية. كما أنه كان هدفاً سهلاً بطيء الحركة. ومارس الإغريقُ كل أنواع المناورات التضليلية لتشويش توجُّه الفرس وإرباكهم. فكان اندحارُ إكسيركسيس في آخر الأمر على أيدي الحلفاء الإغريق هزيمةً ساحقة. والقصة ترمز إلى كل الذين يضحون بالقدرة على الحركة في سبيل ضخامة الحجم: فأصحاب المرونة وسرعة الحركة يكسبون بصورة تكاد تكون دائمة، لأن لديهم خياراتٍ استراتيجيةً أكثر. فكلما زادت ضخامة العدو، صار إحداث انهيار في صفوفه أسهل.

وتصبح الحاجة إلى انعدام الشكل أكبر كلما تقدمت بنا السنّ، حالما يزيد احتمال تجمدنا على أساليبنا، ونتخذ شكلاً متصلباً أكثر مما ينبغي. فعندئذٍ يصبح التنبؤ بتصرفاتنا ممكناً. وهذه دائماً أول علامات العجز والشيخوخة. وسهولة التنبؤ هذه كثيراً ما تجعلنا نبدو مضحكين. وعلى الرغم من أن السخرية والاحتقار قد يبدوان شكلين ملطفين من الهجوم، فإنهما في الحقيقة سلاحان حادّان، ويمكنهما في آخر الأمر أن يجعلا أساس السلطة يتآكل. ذلك أن العدوّ الذي لا يحترمك يجترىء عليك. والجرأة تجعل حتى أصغر الحيوانات خَطِراً.

فالبلاط الفرنسي في أواخر القرن الثامن عشر، كما تمثله ماري آنطوانيت، كان قد صار مرتبطاً بالشكليات الجامدة على نحو ميؤوس منه إلى درجة أن المواطن الفرنسي العادي المتوسط راح يعتبره أثراً سخيفاً بالياً من الماضي الغابر. وهذا التناقص في قيمة مؤسسة عمرها قرون كان أولَ علامةٍ على اقتراب كارثة نهائية؛ لأنه كان يمثل تراخياً رمزياً في علاقات الشعب وارتباطاته بالملكية. وبينما راح الوضع يسوء، فإن ذلك لم يجعل ماري آنطوانيت ولويسَ السادسَ عشر يزدادان إلاَّ تصلباً في تمسكهما بالماضي ـ فعجّل ذلك طريقهما إلى المقصلة. وقد كان رد فعل الملك شارلس الأول في إنكلترا مماثلاً إزاء استفحال مدّ التغيير الديمقراطي الذي كان آخذاً في التجمّع في إنكلترا أثناء ثلاثينات القرن السابع عشر. فقام بحلّ البرلمان، وصارت شعائر بلاطه أكثر شكلية وبروداً وتشامخاً. وكان يريد العودة إلى طراز من الحكم أقدم، بالتمسّك بكل نوعٍ من صغائر المراسم التشريفاتيّة وسفاسفها. فلم ينجم عن تصلبه سوى تصاعد الرغبة في التغيير. وبالطبع سرعان ما اكتسحته حربٌ أهلية مدمّرة، وفي خاتمة المطاف فَقَدَ رَأْسَهُ تحت فأس الجلاّد.

مع تقدمك في العمر، ينبغي أن يتناقص اعتمادك على الماضي. وكُنْ يقظاً، لئلاّ يحيلك الشكلُ الذي اتخذَتْهُ شخصيتُكَ إلى أثر قديم. وليست المسألة مسألة تقليد أساليب الشباب ـ فهذا يدعوهم إلى الضحك كذلك. بل يجب أن يتكيف عقلك باستمرار لكل ظرف من الظروف، حتى للتغيير المحتوم القاضي بأن الوقت قد حان للتحرك بإفساح المجال للشباب كي يتهيأوا لصعودهم. فلن ينجم عن التصلُّب إلاَّ جعلك تبدو كالجثة البالية بصورة غريبة.

وإياك أن تنسى أن انعدام الشكل موقف استراتيجي، فهو يفسح لك مجالاً لخلق مفاجآت تكتيكية. وبينما يكافح أعداؤك ليخمِّنوا حركتك القادمة، فإنهم يكشفون استراتيجيتهم، مما يعطيك ميزة عليهم فتبقى المبادرة في يدك ـ وهذا بدوره يضع أعداءك في موقف عدم

التصرف أو الفعل، بل يضعهم في موقف ردّ الفعل دائماً، كما يُفْشِلُ تجسّسهم وعملَ مخابراتهم.

تذكّر: إن انعدام الشكل أداة. فلا تخلط، أبداً، بينها وبين أسلوب مجاراة التيار، أو الاستسلام الديني المتواكل لتقلبات الحظ. فأنت تستخدم انعدام الشكل، لا لأنه يخلق التناغم الداخلي المنسجم والسلام، بل لأنه سيزيد سلطتك.

وأخيراً، فإنَّ تَعَلُّمَ التكيفِ لكل ظرف جديد، معناه رؤية الأحداث من خلال عينيك أنت، والإكثار من تجاهل النصائح التي يوجهها إليك الناس باستمرار. ومعناه أنه ينبغي عليك أن تطرح جانباً القوانينَ التي يبشر بها الآخرون، والكتبَ التي يؤلفونها، ليخبروك بما يتعين عليك عمله، والنصائحَ الحكيمةَ من كبار السن. فقد كتب نابليون بونابرت: «إن القوانين التي تحكم الظروف تلغيها الظروف المستجدّة». ومعنى ذلك أن سبر غور كل وضع جديد هو أمر متروك لك. فإذا اعتمدت أكثر مما ينبغي، على أفكار الناس الآخرين، فسوف ينتهي بك الأمر إلى اتخاذ شكل ليس من صنعك. ذلك أن احترام حكمة الآخرين أكثر مما ينبغي سيجعلك تقلل من قيمة حكمتك. فكن قاسياً مع الماضي، وخصوصاً ماضيك أنت. ولا تحترم الفلسفات التي تُدَسُّ عليك بالتدليس من الخارج.

صورة: عطارد ـ الرسول المجنح للآلهة عند الرومان،
وإله التجارة، والقديس الراعي للصوص، والمقامرين،
وكل ممارسي الخداع بالخفة وسرعة الحركة. وفي اليوم
الذي ولد فيه عطارد اخترع القيثارة: وفي مساء ذلك اليوم كان قد
سرق ماشية أبوللو. وهو يطوف العالم، متخذاً أي شكل يرغب فيه.
ومثل المعدن السائل المسمّى باسمه (الزئبق) فإنه يجسّد التملُّص،
والشيء الذي لا يمكن الإمساك به ـ أي سلطة انعدام الشكل.

الشاهد: ولذا فإن اكتمال تشكيل جيشٍ مّا هو الوصول به إلى حالة انعدام الشكل. لأن النصر في الحرب ليس متكرراً، بل إنه يكيّف شكله بصورة لا تنتهي... والقوة العسكرية ليس لها تشكيل ثابت باستمرار. إذْ ليس للماء شكل ثابت ومستمر. والقدرة على الفوز بالنصر من خلال التغير والتكيف حسب الخصم تسمّى عبقرية.

(صُنْ ـ تزو، القرن الرابع قبل الميلاد)

الانقلاب

إن استخدام المساحة للانتشار وتشكيل نمط مجرد يجب أن لا يعني التخلي عن تركيز قوتك عندما يكون ذلك ثميناً لك. فانعدام الشكل يجعل أعداءك يبحثون عنك في كل مكان لاصطيادك، وبذلك يبعثرون قواتهم، العقلية منها والمادية أيضاً. وعندما تشتبك معهم في آخر الأمر، وَجِّهْ إليهم ضربةً قوية، ومركّزة. فبهذه الكيفية نجح ماو ضد الوطنيين. فقد جزّأ قواتهم إلى وحدات صغيرة منعزلة، وعندئذ صار بوسعه أن يسحقها بهجوم قويّ. فَسادَ قانونُ التركيز هنا.

وعندما تلعب بانعدام الشكل، كُنْ متحكماً بالعملية تماماً. واحفظ في ذهنك استراتيجيتك الطويلة الأمد. وعندما تتخذ شكلاً وتنطلق للهجوم، استخدم التركيز، والسرعة، والقوة. وكما قال ماو: **«عندما** نقاتلك نحن، فإننا نحرص على التأكد من عدم تمكينك من الهرب».

إلى أولئك الباحثين عن القوة، أو الذين يرقبون القوة، أو الذين يبتغون ما يحصنهم من غائلة القوة...

البعض يعبث
بالقوة ويخسرها في
غلطة قاتلة. وبعضهم يغلو
أو يُقَصِّر فيها. وهناك آخرون
يعدُّون العدَّة كاملة فيستطيعون
أخذ القوة إلى جانبهم ببراعة خارقة
لطبائع البَشَر. فعلى مَرِّ الدُّهور
تساءل العلماء والفلاسفة: ما هي
الدروس التي ينبغي لنا أن نتعلمها
من نجاح أسلافنا ومن إخفاقاتهم؟
على الرغم من أن كتابات متنوعة
كتبت عن القوة على مدى أكثر من
ثلاثة آلاف سنة، هناك عوامل
تشبكها جميعاً في موضوعات
متكررة، إنها تلك الأفكار التي
تُلَمِّح إلى جوهر القوة وتلوح
إلى خصائص مُعَدِّلة
لزيادتها ونقصانها.

روبرت غرين: يحمل درجة في الدراسات الكلاسيكية، وكان مُحَرِّراً في مجلة إسكواير ومجلات غيرها، وهو كاتب مسرحي يعيش في لوس أنجلوس.

جوست إلفرز: هو منتج استوديو كتب پنغوين الأكثر مبيعاً، ويعيش في مدينة نيويورك.

موضوع الكتاب: النجاح
موقعنا على الانترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com

ISBN:5-963-40-9960

6281125011476